

الترتيب الفريد

من

شروحات كتاب التوحيد

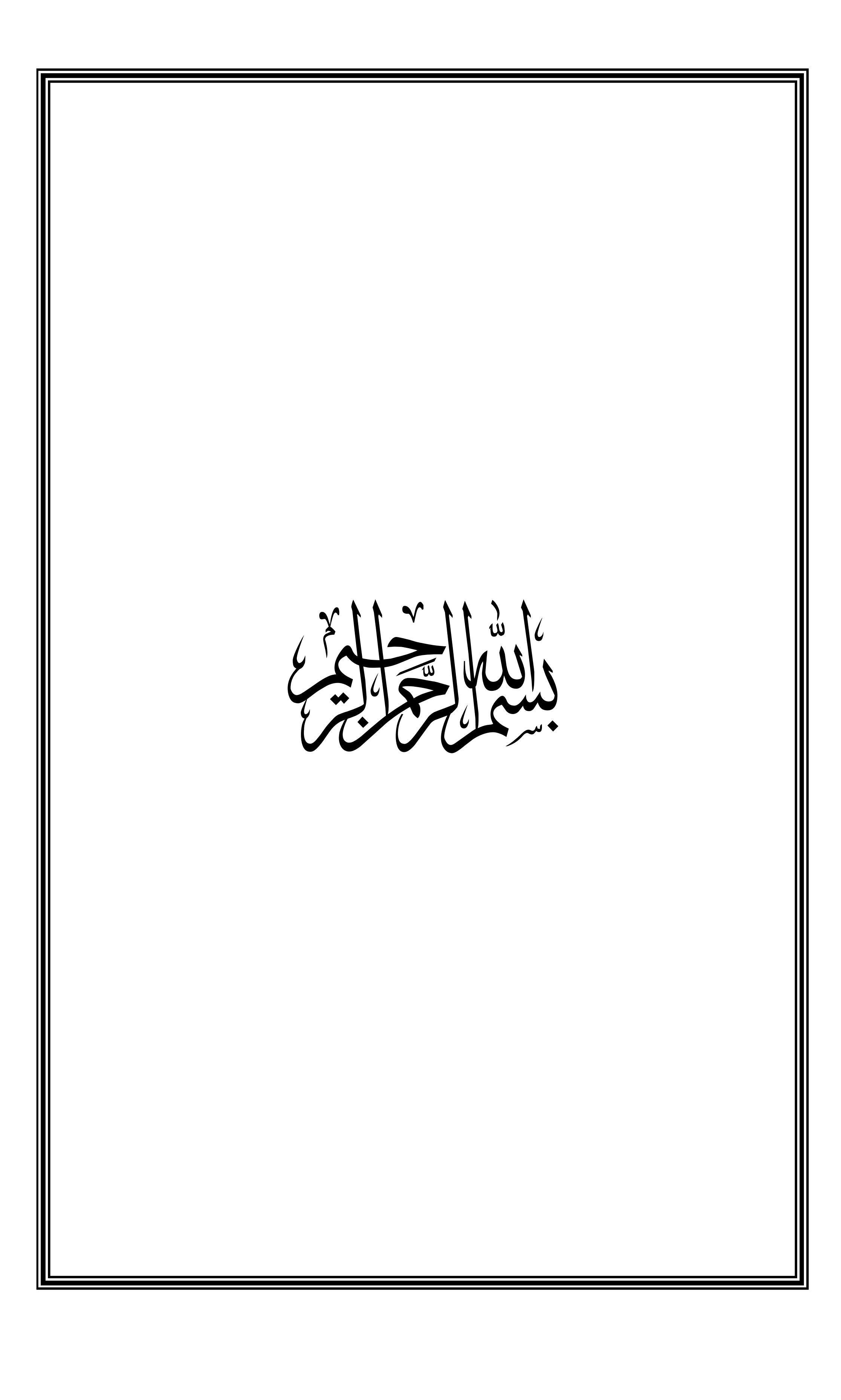
رتبه وأعده

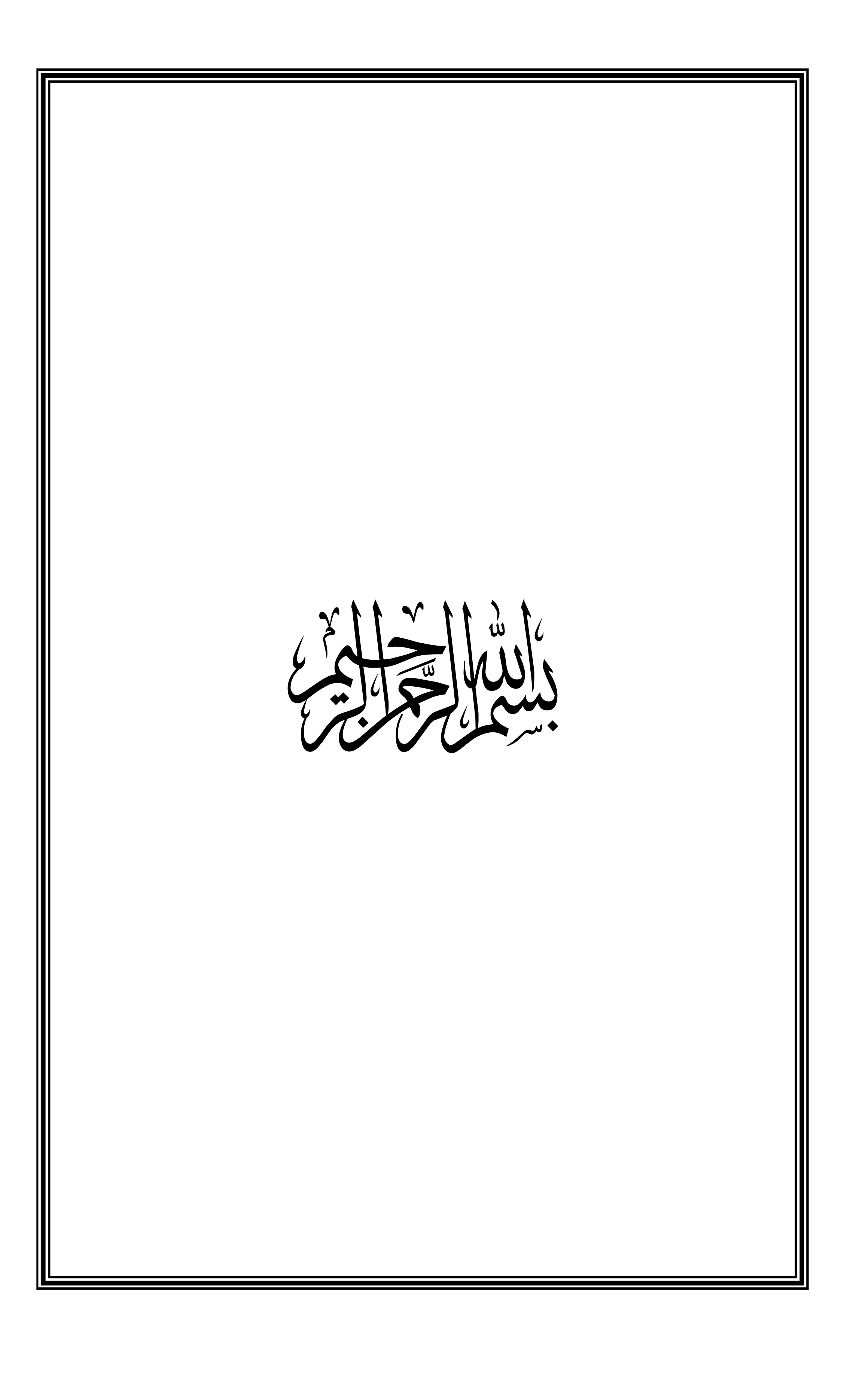
أبو محمد لقمان حسن أمين

التراتيب الفرائد

من

شروحات كتاب التوحيد


بسم الله الرحمن الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

[الحمد لله الذي بعث عباده المرسلين بتوحيده، وأقام بهم الحجة على عبيده، فاتفقوا أولهم وآخرهم على توحيده وتفريده، ونبذ الشرك وتنديده، وأنه الإله الحق المستحق للعبادة دون ما سواه، وعبادة غيره – كائناً من كان– باطلة ،فإنه ما عبد غير الله إلا بالبغي ،والظلم ،والعدوان.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له تأكيدا بعد تأكيد، لبيان مقام التوحيد ، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، أما بعد.

فهذا الكتاب –كتاب التوحيد– من مؤلفات الإمام المصلح المجدد شيخ الإسلام والمسلمين محمد بن عبد الوهاب وهو–رحمه الله– غني عن التعريف؛ لما جعل الله –جل وعلا– لدعوته من أثر ظاهر النفع في جميع أنحاء الأرض شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً، ولا غرو في ذلك فإن دعوته –رحمه الله– إحياء لدعوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وكتاب التوحيد –الذي نحن الآن بصدد شرحه– كتاب عظيم جدا ، أجمع علماء التوحيد على أنه لم يُصَنَّف في الإسلام في موضوعه مثلُه، فهو كتاب وحيد وفريد في بابه لم ينسج على منواله مثله ؛ لأن المؤلف –رحمه الله– طرق في هذا الكتاب مسائل توحيد العبادة، وما يضاد ذلك التوحيد ،من أصله أو ما يضاد كماله، فامتاز الكتاب بسياق أبواب توحيد العبادة مفصلة، مدللة، وعلى هذا النحو ،بتفصيل ،وترتيب وتبويب لمسائل التوحيد ، لم يوجد من سبق الشيخ إلى ذلك فحاجة طلاب العلم إليه ، وإلى معرفة معانيه ماسة، لما اشتمل عليه من الآيات والأحاديث، والفوائد.

وقد شبه بعض العلماء هذا الكتاب بأنه قطعة من صحيح البخاري –رحمه الله– وهذا ظاهر ذلك أن الشيخ –رحمه الله– نسج كتابه هذا نسج الإمام البخاري صحيحه من جهة أن التراجم التي يعقدها، تحتوي على آية وحديث –غالباً– ،والحديث والآية على الترجمة، وما بعدها مُفَسِّر لها، وكذلك ،ما يسوقه –رحمه الله– من كلام أهل العلم من الصحابة أو التابعين، أو من أئمة الإسلام، هو على نسق طريقة أبي عبد الله البخاري –رحمه الله– فإنه يسوق أقوال أهل العلم في بيان المعاني.

وهذا الكتاب صنَّفه إمام الدعوة ابتداءً في البصرة لما رحل إليها، وكان الداعي إلى تأليفه ما رأى من شيوع الشرك بالله –ﷻ– ومن ضياع مفهوم التوحيد الحق عند بعض المسلمين، وما رآه عندهم من مظاهر الشرك الأكبر والأصغر والخفي، فابتدأ في البصرة جَمْعَ هذا الكتاب وتحرير الدلائل لمسائله، ذكر ذلك تلميذه وحفيده الشيخ الإمام عبد الرحمن بن حسن –رحمه الله– في المقامات ثم إن الشيخ لما قدم نجدا حرر الكتاب، وأكمله، فصار كتابه هذا –بحق– كتاب دعوة إلى التوحيد الحق ؛ لأن الشيخ –رحمه الله– بيَّن فيه أصول دلائل التوحيد، وبيَّن فيه معناه وفضله، كما بيَّن فيه ما يضاده، والخوف من مما يضاده، وبيَّن –أيضاً– أفراد توحيد العبادة، وأفراد توحيد الأسماء والصفات إجمالا، واعتنى ببيان الشرك

الأكبر والأصغر وصورهما والذرائع المؤدية إليهما، وبيَّن ما يحمى به التوحيد،والوسائل إلى ذلك، وبيَّن أيضا شيئا من أفراد توحيد الربوبية، فـ(كتاب التوحيد) كتاب عظيم جدا، جدير بأن يعنى به عناية حفظ، ودرس، وتأمل فالعبد محتاج إليه للعمل به ولتبليغ ما فيه من العلم لمن وراءه من الناس ، سواء أكانوا في المسجد، أم في البيت، أم في مقر عمله ،أم في أيِّ جهة أخرى.

والمقصود:أن من فهم هذا الكتاب فقد فهم أكثر مسائل توحيد العبادة، بل قد فهم جُلَّ مسائله وأغلبها](1).

وبعد: فهذا ترتيب فريد من نوعه آثرت فيه إتمام الفائدة من شروحات مشايخنا الأعلام لكتاب التوحيد وقد جمعت أهم الشروحات من الشروحات العديدة لكتاب التوحيد وهي:

١. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (رحمهم الله تعالى).
٢. فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (رحمهم الله تعالى).
٣. القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين (رحمه الله تعالى).
٤. التمهيد لشرح كتاب التوحيد للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ (حفظه الله تعالى).

علما أن لهذا الكتاب العظيم أثر عظيم في تصحيح عقيدة المسلمين ومما حملني على هذا العمل هو جمع الفوائد والفرائد الموزعة في هذه الشروحات التي لا يستغني عنها طالب العلم وذلك لجلالة قدر شراحها وما ألهمهم الله تعالى في خدمة هذا الكتاب الجليل الذي كان سبباً في هدايتي وهداية شيخي وكثير من الأخوة إلى عقيدة التوحيد، فأحببت خدمة هذا الكتاب راجياً من المولى أن ينفع به المسلمين ويجعله في ميزان حسناتي إنه ولي ذلك والقادر عليه﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود : ٨٨].

الرموز الدالة على الشروحات في هذا الكتاب:

أ. (**ت**): تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.
ب. (**ف**) : فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد.

---

(1) جزء من مقدمة كتاب التمهيد لشرح كتاب التوحيد/لفضيلة الشيخ العلامة صالح آل الشيخ (حفظه الله)

ج. (**ق**) : القول المفيد على كتاب التوحيد.

د. (**تم**) : التمهيد لشرح كتاب التوحيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

رتبه وأعده

أبو توحيد لقمان حسن أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

(ف): قال المصنف -رحمه الله-تعالى: [بسم الله الرحمن الرحيم]. بسم الله الرحمن الرحيم ابتدأ كتابه بالبسملة إقتداءً بالكتاب العزيز وعملاً بحديث [كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع][1] أخرجه ابن حبان من طريقين. قال ابن صلاح: والحديث حسن. ولأبي داود وابن ماجه [كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع][2]، ولأحمد [كل أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع][3] وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً [كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع][4].

والمصنف قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم. وكان النبي ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه لهرقل عظيم الروم ووقع لي نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة، وثنى بالحمد والصلاة على النبي ﷺ وآله. وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقي، وبالحمدلة نسبي إضافي، أي بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به.

والباء في "بسم الله" متعلقة بمحذوف، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلاً خاصاً متأخراً.

أما كونه فعلا، فلأن الأصل في العمل للأفعال.

وأما كونه خاصاً، فلأن كل مبتدئ بالبسملة في أمر يضمر ما جعل البسملة مبدأ له.

وأما كونه متأخراً، فلدلالته على الاختصاص، وأدخل في التعظيم، وأوفق للوجود، ولأن أهم ما يبدأ به ذكر الله تعالى.

---

[1] ضعيف جداً :- الحديث بهذا اللفظ ليس عند ابن حبان وإنما عنده بلفظ "بحمد الله" رقم(١)،(٢)-الإحسان]وسيأتي تخريجه عند أبي داود وابن ماجة وإنما أخرجه بهذا اللفظ: الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٢١٠)ومن طريقه السمعاني في أدب الإملاء ص(٥١) ورواه السبكي في طبقات الشافعية (٦/١) من طريق الرهاوي الذي أخرجه هو أيضاً في الأربعين له كما أشار إلى ذلك غير واحد من أهل العلم. وهو حديث ضعيف جداً ضعفه الحافظ كما نقله صاحب الفتوحات الربانية (٢٩٠/٣) وضعفه السيوطي في الجامع بهذا اللفظ وحسنه بلفظ "بحمد الله" وقال الألباني في الإرواء رقم (١)" ضعيف جداً ولا تغتر بمن حسنه"أ.هـ.

[2] ضعيف: أبو داود: كتاب الأدب (٤٨٤٠): باب الهدى في الكلام. وابن ماجة: كتاب النكاح(١٨٩٤):باب خطبة النكاح وفي رواية أبي داود "بالحمد فهو أجذم" وأشار إلى أنه مرسل ،ومع ذلك فقد حسنه ابن الصلاح والنووي والعراقي وأما الحافظ في الفتح (٨/١)فأشار إلى في إسناده مقال. وضعفه الألباني: في الإرواء برقم (٢).

[3] قال الألباني: (ضعيف) انظر الإرواء رقم (٢).

[4] ضعيف: أحمد(٣٥٩/٢) والدار قطني (٢٢٩/١) وأشار إلى أنه مرسل والحديث هو نفسه الرواية التي مرت بتخريج رقم (٢).

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد، منها أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله. ومنها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالبسملة في كل عمل وقول وحركة.فكان الحذف أعم. أنتهي ملخصاً.

وباء "بسم الله" للمصاحبة. وقيل: للاستعانة. فيكون التقدير: بسم الله أؤلف حال كوني مستعيناً بذكره، متبركاً به. وأما ظهوره في ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وفي ﴿بسم الله مجريها﴾ فلأن المقام يقضتي ذلك كما لا يخفى.

(**ت**): قال المصنف رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم.

الله علم على الرب تبارك وتعالى ذكر سيبويه انه أعرف المعارف ويقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ...... إلى آخر السورة﴾(الحشر: ٢٣) فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له.

(**ف**): قوله (الله) قال الكسائي والفراء: أصله الإله، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لاماً واحدة مشددة مفخمة. قال العلامة ابن القيم رحمه الله: الصحيح: أنه مشتق، وأن أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ. وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى. والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى. وهى الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك. فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهى قديمة، ونحن لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منه تولد الفرع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه: أصلاً وفرعاً. ليس معناه أن أحدهما متولد من الآخر. وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الأخر وزيادة.

قال أبو جعفر بن جرير (الله) أصله (الإله) أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم. فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة وهى ساكنة فأدغمت في الأخرى، فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة. وأما تأويل (الله) فإنه على معنى ما روى لنا عن عبد الله بن عباس قال: هو الذي يألهه كل شيئ ويعبده كل خلق وساق بسنده عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين فإن قال لنا قائل: وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً في فعل ويفعل، وذكر بيت رؤبة بن العجاج.

لله در الغانيات المدة   سبحن واسترجعن من تألهي

يعنى من تعبدي وطلبي الله بعملي. ولا شك أن التأله التفعل، من أله يأله وأن معنى (أله) إذا نطق به: عبد الله. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعل بغير زيادة. وذلك ما

حدثنا به سفيان بن وكيع – وساق السند إلى ابن عباس (أنه قرأ " ويذرك وآلهتك " قال: عبادتك. ويقول: إنه كان يعبد) وساق بسند آخر عن ابن عباس ويذرك وإلاهتك. قال: إنما كان فرعون يُعبد ولا يَعبد وذكر مثله عن مجاهد، ثم قال: فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا: أن "أله" عبد وأن الإلاهة مصدره وساق حديثاً عن أبي سعيد مرفوعاً [أن عيسى أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه. فقال له المعلم: اكتب بسم الله. فقال عيسى: أتدرى ما الله؟ الله إله الآلهة][1].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية وساقها. ثم قال: وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق ﷺ: [لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك][2] وكيف نحصى خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل جلال وكل كمال، وكل عز وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبر فله ومنه، فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم وغم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العز، ولا فقير إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه. فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات، وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسماوات، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حقت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وضعت الموازين القسط ونصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عبد رب العالمين وحمد، وبحقه بعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سعد من عرفه وقام بحقه، وبه شقى من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا، فالخلق به وإليه ولأجله. فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه ومنهياً إليه، وذلك موجبه ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: من الآية١٩١) إلى آخر كلامه رحمه الله.

---

[1] موضوع: ابن جرير (٤٢/١) وسيورده المؤلف أيضاً مرفوعاً بلفظ"إن عيسى بن مريم قال: الرحمن: رحمن الآخرة والدنيا، والرحيم رحيم الآخرة" وهو عند ابن جرير أيضاً والحديث موضوع . قال ابن عدي كما في الميزان (١٥٣/١): باطل وحكم ابن الجوزي بوضعه في كتابه الموضوعات (٢٠٣/١ ،٢٠٤)وأقره السيوطي في اللآلى (١٧٢/١)وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢٣١/١) والشوكاني في الفوائد المجموعة (١٣٧٤).

[2] قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها رواه مسلم ، كتاب الصلاة : ،حديث(٤٨٦)،(٢٢٢): باب ما يقال في الركوع والسجود.

(ت): (الرحمن الرحيم) قال ابن كثير اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمان اشد مبالغة من رحيم قال ابن عباس هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أوسع رحمة وقال ابن المبارك الرحمن إذا سئل أعطى والرحيم إذا لم يسأل يغضب.

قلت كأن فيه إشارة إلى معنى كلام ابن عباس لأن رحمته تعالى تغلب غضبه.

(ف): قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فاسمه (الله) دل على كونه مألوهاً معبوداً. يأله الخلائق: محبة وتعظيماً وخضوعاً، ومفزعاً إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه، مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أقواله وأفعاله. فصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله)، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع (العطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم الرب)، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم (**الرحمن**).

وقال رحمه الله أيضاً: (**الرحمن**) دال على الصفة القائمة به سبحانه (**والرحيم**) دال على تعلقها بالمرحوم. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (الأحزاب: من الآية٤٣)﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: من الآية١١٧) و لم يجيء قط رحمان بهم.

(ت): والجواب ما قاله ابن القيم أن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه تعالى لا ينافي اسميته فمن حيث هو صفة جرى تابعا لاسم الله تعالى ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورد الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به سبحانه حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجيء اسم الله وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمة كاسم الله فانه دال على صفة الألوهية فلم يجئ قط تابعا لغيره بل متبوعا وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

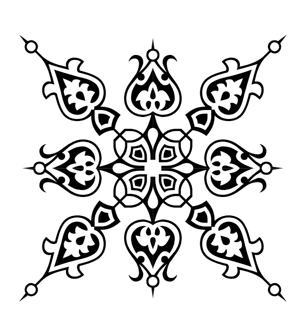
الحمد لله، وصلى ﷲ على a وعلى آله وسلم

(**ف**): قوله (الحمد لله) معناه الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على وجه التعظيم، فمورده: اللسان والقلب، والشكر يكون باللسان والجنان والأركان، فهو أعم من الحمد متعلقاً، وأخص منه سبباً، لأنه يكون في مقابلة النعمة، والحمد أعم سبباً وأخص متعلقاً، لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها. فبينهما عموم وخصوص وجهي، يجتمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة.

وقوله (وصلى ﷲ على a وعلى آله وسلم). أصح ما قيل في معنى صلاة ﷲ على عبده: ما ذكره البخاري رحمه ﷲ تعالى عن أبي العالية قال: [صلاة ﷲ على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة] وقرره ابن القيم رحمه ﷲ ونصره في كتابيه (جلاء الأفهام) و(بدائع الفوائد).

قلت: وقد يراد بها الدعاء، كما في المسند عن على مرفوعاً [الملائكة تصلى على أحدكم ما دام في مصلاه: اللهم اغفر له اللهم ارحمه][1].

قوله (وعلى آله) أي أتباعه على دينه، نص عليه الإمام أحمد هنا. وعليه أكثر الأصحاب. وعلى هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين.



[1] صحيح: أحمد (١٤٤/١)وقال الهيثمي في المجمع (٣٦/٢): "وفيه بن السائب وهو ثقة لكنه اختلط في آخر عمره "أ.هـ.

كتاب التوحيد

وقول ﷲ تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)

(ت): الكتاب مصدر كتب يكتب كتابا وكتابة وكتبا ومدار المادة على الجمع ومنه تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا والكتيبة لجماعة الخيل والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف وسمي الكتاب كتابا لجمعه ما وضع له ذكره غير واحد والتوحيد مصدر وحد يوحد توحيدا أي جعله واحدا.

(تم): **قوله:** كتاب التوحيد، وقول ﷲ تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) جرت عادة المصنفين والمؤلفين أن يضعوا بعد البسملة، والحمدلة خطبة للكتاب يبينون فيها طريقتهم فيه، ومرادهم من تأليفه، وهاهنا سؤال معروف، وهو : لماذا خالف الشيخ -رحمه ﷲ- طريقة المصنفين فلم يجعل للكتاب خطبة يبين فيها طريقته، بل قال: ((كتاب التوحيد)) وقول ﷲ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) فأخلاه من الخطبة؟ والسبب في ذلك والسر فيه فيما يظهر لي أن التوحيد الذي سيبينه الشيخ -رحمه ﷲ- في هذا الكتاب هو توحيد ﷲ جل جلاله، وتوحيد ﷲ قد بيَّنه ﷲ -جل وعلا- في القرآن، فكان -لذلك- من الأدب في مقام التوحيد ألا يجعل فاصلا بين الحق، والدال على الحق، وكلام الدال عليه، فالحق الذي لله هو التوحيد، والذي دل على هذا الحق هو ﷲ -جل جلاله-، والدليل عليه هو كلامه، وكلام رسوله ﷺ،وهذا من لطائف أثر التوحيد على القلب وهذا كصنيع الإمام البخاري -رحمه ﷲ- في صحيحه[1]؛ إذ لم يجعل لصحيحه خطبة بل جعل صحيحه مبتدئا بالحديث ذلك أن كتابه كتاب سنة، ومن المعلوم أن من الأدب،أو من مراعاة الأدب ألا يتقدم بين يدي ﷲ ورسوله، فلم يقدم كلامه على كلام رسوله ﷺ فجعل البخاري صحيحه مفتتحا بقول الرسول ﷺ ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))[2] لأن كتابه كتاب سنة، فجعل كتابه في ابتدائه مبتدئا بكلام صاحب السنة -عليه الصلاة والسلام- وهذا من لطيف المعاني التي يرعاها مَن نوَّر ﷲ قلوبهم لمعرفة حقه، وحق رسوله ﷺ.

(ق): والتوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً، فهو مصدر وحد يوحد، أي: جعل الشيء واحداً، وفي الشرع: إفراد ﷲ -سبحانه- بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

---

[1] البخاري : كتاب بدء الوحي.

[2] البخاري: (١)،(٥٤)،(٢٥٢٩)،(٣٨٩٨)،(٥٠٧٠)،(٦٦٨٩)،(٦٩٥٣)،ومسلم: (١٩٠٧).

(ت): وسمي دين الإسلام توحيدا لأن مبناه على ان الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له والى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله وهي متلازمة كل نوع منها لا ينفك عن الآخر فمن أتى بنوع منها و لم يأت بالآخر فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب وان شئت قلت التوحيد نوعان توحيد في المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وذكر معناه غيرهما.

(ق): أقسامه: ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: ١- توحيد الربوبية. ٢- توحيد الألوهية. ٣- توحيد الأسماء والصفات. وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ (مريم: ٦٥)

القسم الأول: توحيد الربوبية: هو إفراد الله - ﷻ - بالخلق، والملك، والتدبير. فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله، قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر؛ إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]؛ فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله، لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي. أما ما ورد من إثبات خلق غير الله؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكقوله ﷺ في المصورين: يقال لهم [أحيوا ما خلقتم]. فهذا ليس خلقاً حقيقة، وليس إيجاداً بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضاً ليس شاملاً، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد: -

قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، إذ لو أثبتنا للعالم خالقين؛ لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق ويستقل به كعادة الملوك؛ إذا لا يرضى أن يشاركه أحد، وإذا استقل به؛ فإنه يريد أيضاً أمراً آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد. وحينئذ إذا أرادا السلطان؛ فإما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر؛ فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية له، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعاً؛ لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربّاً.

وأما إفراد الله بالملك: فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم؛ كما قال تعالى: ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله؛ كقوله تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ [المؤمنون: ٦]، وقال تعالى: ﴿أو ما ملكتم مفتاحه﴾ [النور: ٦١]، فهو ملك محدود لا يشمل

إلا شيئاً يسيراً من هذه المخلوقات؛ فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف؛ فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعاً، فمثلاً: لو أراد أن يحرق ماله، أو يعذب حيوانه؛ قلنا: لا يجوز، أما الله – سبحانه –، فهو يملك ذلك كله ملكاً عاماً شاملاً. وأما إفراد الله بالتدبير: فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾ [يونس: ٣١]. وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعاً. وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول ﷺ، بل كانوا مقرين به، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ [الزخرف: ٩]، فهم يقرون بأن الله هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، و لم ينكره أحد معلوم من بني آدم؛ فلم يقل أحد من المخلوقين: إن للعالم خالقين متساويين.

(ت): فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده و لم يكونوا بذلك مسلمين بل قال تعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال مجاهد في الآية إيمانهم بالله قولهم إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وعن ابن عباس وعطاء والضحاك نحو ذلك فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك ويدعون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام فأنزل الله تعالى ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب وبعضهم يؤمن بالقدر.
كما قال زهير

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وقال عنترة:

ياعبل أين من المنية مهرب ... إن كان ربي في السماء قضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم فوجب على كل من عقل عن الله تعالى ان ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم وسبي نسائهم وإباحة أموالهم مع هذا الإقرار والمعرفة وما ذاك إلا لاشتراكهم في توحيد العبادة الذي هو معنى لا اله إلا الله.

(ق): فلم يجحد أحد توحيد الربوبية، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون؛ فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة؛ فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده، قال تعالى حكاية عنه: ﴿فقال أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨]. وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظره: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله -ﷻ-.

وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس، حيث قالوا: إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين، فهم يقولون: إن النور خير من الظلمة؛ لأنه يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

وأيضاً؛ فإن الظلمة عدم لا يضيء، والنور وجود يضيء؛ فهو أكمل في ذاته.

ويقولون أيضاً بفرق ثالث، وهو: أن النور قديم على اصطلاح الفلاسفة، واختلفوا في الظلمة، هل هي قديمة، أو محدثة؟ على قولين.

القسم الثاني: توحيد الألوهية: ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فاعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة. وهو إفراد الله - ﷻ - بالعبادة. فالمستحق للعبادة هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ [لقمان: ٣٠].

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد: بمعنى التذلل لله - ﷻ - بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبة وتعظيماً.

الثاني: المتعبد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

(ت): النوع الثالث توحيد الإلهية المبني على إخلاص التأله لله تعالى من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والدعاء لله وحده وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له لا يجعل فيها شيئا لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله تعالى ﴿فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ وقوله تعالى ﴿فان تولوا فقل حسبي الله لا اله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ وقوله تعالى ﴿رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا﴾وقوله تعالى ﴿عليه توكلت واليه أنيب﴾ وقوله تعالى ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ وقوله ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره

وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار قال الله تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ فهذا أول أمر في القرآن. وقال تعالى ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى وقومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك وقال هود لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال صالح لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾وقال شعيب لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقال إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ وقال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون﴾وقال تعالى﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ وقال تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم قال يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم وقال النبي ﷺ [لمعاذ انك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله] وفي رواية[ان يوحدوا الله] وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة فهو أول واجب وآخر واجب وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال ﷺ [من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة] حديث صحيح وقال ﷺ [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله] متفق عليه وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد وضرب لذلك الأمثال بحيث أن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد ويسمى هذا النوع توحيد الإلهية لأنه مبني على إخلاص التأله وهو أشد المحبة لله وحده وذلك يستلزم إخلاص العبادة وتوحيد العبادة لذلك وتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال وتوحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده وتوحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده قال الله تعالى ﴿فاعبد الله مخلصا له الدين﴾ وقال ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ ﴿قل الله اعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ إلى قوله ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ إلى قوله ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾ الآية إلى قوله ﴿اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا﴾ الآية إلى قوله ﴿وأنيبوا إلى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا

تنصرون﴾ إلى قوله ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ إلى آخر السورة فكل هذه السور في الدعاء إلى هذا التوحيد والأمر به والجواب عن الشبهات والمعارضات وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم وكل سورة في القرآن بل كل آية في القرآن فهي داعية إلى هذا التوحيد شاهدة به متضمنة له لأن القرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وهو توحيد الربوبية وتوحيد الصفات فذاك مستلزم لهذا متضمن له وإما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه أوامر بأنواع من العبادات ونهي عن المخالفات فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة وهو مستلزم للنوعين الأولين متضمن لهما أيضا وأما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرههم به في الآخرة فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من الوبال فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

(**ف**): قال شيخ الإسلام: التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله: لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالى إلا له، ولا يعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال تعالى: '٢: ١٦٣' "وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم" قال تعالى: '١٦: ٥١' " وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون " وقال تعالى: '٢٣: ١١٧' "ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون" وقال تعالى: '٤٣: ٤٥' "واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون" وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وقال: '٦٠: ٤' " قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده " وقال عن المشركين: '٣٧: ٣٥، ٣٦' " إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون " وهذا في القرآن كثير.

وليس المراد بالتوحيد: مجرد توحيد الربوبية. وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما يتره عنه. وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده. فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة. ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له. والإله هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة. وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع. فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله. وجعل إثبات هذا هو الغاية في

التوحيد – كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية. وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ. فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيئ. وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى: '١٢: ١٠٦' "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون" قالت طائفة من السلف تسألهم: من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله وهم مع هذا يعبدون غيره قال تعالى: '٢٣: ٨٤ – ٨٩' " قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون " فليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيئ وخالقه يكون عابداً له، دون ما سواه. داعيا له دون ما سواه راجياً له خائفاً منه دون ما سواه. يوالي فيه ويعادى فيه. ويطيع رسله ويأمر بما أمر به. وينهى عما نهى عنه. وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيئ. وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أنداداً. قال تعالى: '٣٩: ٤٣، ٤٤ '" أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض " وقال تعالى: '١٠: ١٨' " ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه عما يشركون " وقال تعالى: '٦: ١٤' "ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون" وقال تعالى: '٢: ١٦٥' "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله" ولهذا كان أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها. ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها. ثم يقول: إن هذا ليس بشرك. إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي. فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً. ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

(ق): **تنبيه:** من العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقواماً ينكرون وجود الرب – وإن كان يوجد من ينكر الرب –، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة!!. ولهذا ينبغي أن يركز على هذا النوع من التوحيد حتى نخرج إليه هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله – عز وجل – بما له من الأسماء والصفات. وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله – عز وجل – جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه ﷺ.

الثاني: نفى المماثلة، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [الشورى: ١١]. فدلت هذه الآية على أن جميع صفاته لا يماثله فيها أحد من المخلوقين؛ فهي وإن اشتركت في أصل المعنى، لكن تختلف في حقيقة الحال، فمن لم يثبت ما أثبته الله لنفسه؛ فهو معطل، وتعطيله هذا يشبه تعطيل فرعون، ومن أثبتها مع التشبيه صار مشابهاً للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ومن أثبتها بدون مماثلة صار من الموحدين.

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة؛ فمنهم من سلك مسلك التعطيل، فعطل، ونفى الصفات زاعماً أنه متره لله، وقد ضل، لأن المتره حقيقةً هو الذي ينفي عنه صفات النقص والعيب، ويتره كلامه من أن يكون تعمية وتضليلاً، فإذا قال: بأن الله ليس له سمع، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة، لم يتره الله، بل وصمه بأعيب العيوب، ووصم كلامه بالتعمية والتضليل، لأن الله يكرر ذلك في كلامه ويثبته، (سميع بصير)، (عزيز حكيم)، (غفور رحيم)، فإذا أثبته في كلامه وهو خال منه؛ كان في غاية التعمية والتضليل والقدح في كلام الله - ﷻ -، ومنهم من سلك مسلك التمثيل زاعماً بأنه محقق لما وصف الله به نفسه، وقد ضلوا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره؛ إذا وصموه بالعيب والنقص، لأنهم جعلوا الكامل من كل وجه كالناقص من كل وجه. وإذا كان اقتران تفضيل الكامل على الناقص يحط من قدره، كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فكيف بتمثيل الكامل بالناقص؟! هذا أعظم ما يكون جنايةً في حق الله - ﷻ -، وإن كان المعطلون أعظم جرماً، لكن الكل لم يقدر الله حق قدره.

فالواجب: أن نؤمن بما وصف الله وسمى به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل. هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم. فالتحريف في النصوص، والتعطيل في المعتقد، والتكييف في الصفة، والتمثيل في الصفة، إلا أنه أخص من التكييف؛ فكل ممثل مكيف، ولا عكس، فيجب أن تبرأ عقيدتنا من هذه الأمور الأربعة. ونعني بالتحريف هنا: التأويل الذي سلكه المحرفون لنصوص الصفات؛ لأنهم سموا أنفسهم أهل التأويل، لأجل تلطيف المسلك الذي سلكوه؛ لأن النفوس تنفرُ من كلمة تحريف، لكن هذا من باب زخرفة القول وتزيينه للناس، حتى لا ينفروا منه. وحقيقة تأويلهم: التحريف، وهو صرف اللفظ عن ظاهره؛ فنقول: هذا الصرف إن دل عليه دليل صحيح؛ فليس تأويلاً بالمعنى الذي تريدون، لكنه تفسير. وإن لم يدل عليه دليل؛ فهو تحريف، وتغيير للكلم عن مواضعه؛ فهؤلاء الذين ضلوا بهذه الطريقة، فصاروا يثبتون الصفات لكن بتحريف؛ قد ضلوا، وصاروا في طريق معاكس لطريق أهل السنة والجماعة. وعليه لا يمكن أن يوصفوا بأهل السنة والجماعة؛ لأن الإضافة تقتضي النسبة، فأهل السنة منتسبون للسنة؛ لأنهم متمسكون بها، وهؤلاء ليسوا

متمسكين بالسنة فيما ذهبوا إليه من التحريف. وأيضاً الجماعة في الأصل: الاجتماع، وهم غير مجتمعين في آرائهم؛ ففي كتبهم التداخل، والتناقض، والاضطراب، حتى إن بعضهم يضلل بعضاً، ويتناقض هو بنفسه. وقد نقل شارح "الطحاوية" عن الغزالي – وهو ممن بلغ ذروة علم الكلام – كلاماً إذا قرأه الإنسان تبين له ما عليه أهل الكلام من الخطأ والزلل والخطر، وأنهم ليسوا على بينة من أمرهم. وقال الرازي وهو من رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر — سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا — وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: (الرحمن على العرش استوى) [طه: ٥] (إليه يصعد الكلم الطيب) [فاطر: ١٠]؛ يعني: فأثبت، وأقرأ في النفي: (ليس كمثله شيء) [الشورى: ١١]، (ولا يحيطون به علماً) [طه: ١١٠]؛ يعني: فأنفي المماثلة، وأنفي الإحاطة به علماً، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي أ.هـ.

فتجدهم حيارى مضطربين، ليسوا على يقين من أمرهم، وتجد من هداه الله الصراط المستقيم مطمئناً منشرح الصدر، هادئ البال، يقرأ في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات؛ فيثبت؛ إذ لا أحد أعلم من الله بالله، ولا أصدق خبراً من خبر الله، ولا أصح بياناً من بيان الله؛ كما قال تعالى: (يريد الله ليبين لكم) [النساء: ٢٦]، (يبين الله لكم أن تضلوا) [النساء: ١٧٦]، (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) [النحل: ٨٩]، (ومن أصدق من الله قيلاً) [النساء: ١٢٢]، (ومن أصدق من الله حديثاً) [النساء: ٨٧]. فهذه الآيات وغيرها تدل على أن الله يبين للخلق غاية البيان الطريق التي توصلهم إليه، وأعظم ما يحتاج الخلق إلى بيانه ما يتعلق بالله تعالى وبأسماء الله وصفاته حتى يعبدوا الله على بصيرة؛ لأن عبادة من لم نعلم صفاته، أو من ليس له صفة أمر لا يتحقق أبداً؛ فلابد أن تعلم من صفات المعبود ما تجعلك تلتجئ إليه وتعبده حقاً. ولا يتجاوز الإنسان حده إلى التكييف أو التمثيل؛ لأنه إذا كان عاجزاً عن تصور نفسه التي بين جنبيه؛ فمن باب أولى أن يكون عاجزاً عن تصور حقائق ما وصف الله به نفسه، ولهذا يجب على الإنسان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ "لِـمَ" و"كيف" فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية. وهذا الطريق إذا سلكه الإنسان استراح كثيراً، وهذه حال السلف رحمهم الله، ولهذا لما جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله قال: يا أبا عبدالله! (الرحمن على العرش استوى)، كيف استوى؟ فأطرق برأسه وقال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا

مبتدعاً". أما في عصرنا الحاضر؛ فنجد من يقول إن الله يترل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي على جميع الأرض؛ فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان هذا يرد على قلب المؤمن؛ لبينه الله إما ابتداءً أو على لسان رسوله ﷺ: أو يقيض من يسأله عنه فيجاب، كما سأل الصحابة رسول الله ﷺ أين كان الله قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأجابهم. فهذا السؤال العظيم يدل على أن كل ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه بأحد الطرق الثلاثة. والجواب عن الإشكال في حديث الترول: أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقياً، فالترول فيها محقق، وفي غيرها لا يكون نزول قبل ثلث الليل الأخير أو النصف، والله - عَزَّ وَجَلَّ - ليس كمثله شيء، والحديث يدل على أن وقت الترول ينتهي بطلوع الفجر. وعلينا أن نستسلم، وأن نقول: سمعناً، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا؛ فهذه وظيفتنا لا نتجاوز القرآن والحديث.

(**ت**): وهذا أيضا لا يكفي في حصول الإسلام بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبيه والإلهية والكفار يقرون بجنس هذا النوع وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلا وإما عنادا كما قالوا لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فأنزل الله فيهم ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ قال حافظ ابن كثير والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم فانه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن، قال الشاعر

وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وقال الآخر

ألا قبض الرحمن ربي يمينها

وهما جاهليان

وقال زهير:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

قلت و لم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك كما ردوا عليه توحيد الإلهية فقالوا﴿اجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾ لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد.

(**تم**): فهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد ذكرها الشيخ -رحمه الله- في هذا الكتاب لكن لما كانت التصانيف قبله اعتنى فيها العلماء -أعني: علماء السنة والعقيدة- ببيان النوعين الأول والثالث، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، لما اعتنى العلماء بهما لم يبسط الشيخ -رحمه الله- القول فيهما، وإنما بسط القول فيما الناس أحوج إليه، ويفتقدون التصنيف فيه، وهذه طريقة الإمام -رحمه

ﷲ- فإن كتاباته المختلفة، وإن مؤلفاته المتنوعة إنما كانت بحسب حاجة الناس إليها ليست للتكاثر، أو للاستكثار أو للتفنن، وإنما كتب فيما الناس بحاجة إليه، فلم يكتب لأجل أن يكتب، ولكن كتب لأجل أن يدعو وبين الأمرين فرق، فالشيخ -إذاً- بين في هذا الكتاب توحيد الإلهية والعبودية، وبيَّن أفراده من التوكل والخوف والمحبة والرجاء والرغبة والاستعانة والاستغاثة، والذبح والنذر ونحو ذلك، فكل هذه عبادات لله سبحانه وحده دون من سواه.

ثم أن الشيخ -رحمه ﷲ- لما بسط ذلك بيَّن أيضا ضده وهو الشرك فهذا الكتاب الذي هو كتاب التوحيد فيه بيان توحيد العبادة والربوبية والأسماء والصفات، وفيه أيضا بيان ضد ذلك، وضد التوحيد الشرك، والشرك معناه: اتخاذ الشريك، وهو أن يجعل واحدا شريكا لآخر، يقال: أشرك بينهما إذا جعلهما اثنين أو أشرك في أمره غيره إذا جعل ذلك الأمر لاثنين، فالشرك فيه تشريك، والله -جل وعلا- نهى عن الشرك، كما سيأتي الكلام على ذلك -إن شاء ﷲ-.

وقد بين أهل العلم عند كلامهم عن الشرك: أنه بحسب ما دلت عليه النصوص يقسم إلى قسمين باعتبار ويقسم إلى ثلاثة باعتبار آخر، فهو إما أن يقسم إلى شرك أكبر وشرك أصغر، فهذا باعتبار انقسامه إلى قسمين أو يقسم إلى : شرك أكبر وشرك أصغر وشرك خفي، فهذا باعتبار انقسامه إلى ثلاثة أقسام .

والشرك هو اتخاذ الشريك مع ﷲ -جل وعلا- في الربوبية، أو في العبادة أو في الأسماء والصفات، والمقصود هنا النهي عن اتخاذ شريك مع ﷲ -جل وعلا- في العبادة والأمر بتوحيده سبحانه.

التقسيم الأول: وهو تقسيم الشرك إلى أكبر وأصغر، فالأكبر هو المُخرج من الملة، والأصغر ما حَكَمَ الشارع عليه بأنه شرك، وليس فيه تنديد كامل يلحقه بالشرك الأكبر، وعبر عنه بعض العلماء بقوله: ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر، فعلى هذا يكون الشرك الأكبر منه ما هو ظاهرٌ ومنه ما هو باطن خفيّ.

فمثال الظاهر من الشرك الأكبر: عباد الأوثان والأصنام، وعباد القبور، والأموات، والغائبين. ومثال الباطن: شرك المتوكلين على المشايخ، أو على الآلهة المختلفة، أو كشرك المنافقين؛ لأن المنافقين مشركون في الباطن، فشركهم أكبر ولكنه خفي، أي في الباطن وليس في الظاهر.

وكذلك الشرك الأصغر على هذا التقسيم منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن خفي، فمثال الظاهر من الشرك الأصغر: لبس الحلقة، والخيط وتعليق التمائم، والحلف بغير ﷲ، ونحو ذلك من الأعمال والأقوال.

ومثال الباطن الخفي منه: يسير الرياء، ونحو ذلك فيكون الرياء على هذا التقسيم أيضاً منه ما هو أكبر كرياء المنافقين الذين قال ﷲ في وصفهم ﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ ﷲ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (النساء: من

الآية١٤٢)ومنه ما يقع فيه بعض المصلين المتصنعين في صلاقم، لأجل نظر الناس إليهم،ومنه ما هو أصغر كمن يحب التسميع أو المراءآت.

التقسيم الثاني للشرك: وهو جعله ثلاثة أقسام أكبر، وأصغر، وخفي، وهذا التقسيم يعنى بـه أن الأكبر ما كان مخرجا من الملة، مما فيه صرف العبادة لغير الله -جل جلاله-، والأصغر ما كان وسيلة لذلك الشرك الأكبر، وفيه تنديد لا يبلغ به من أن يخرج من الإسلام، وقد حكم الشارع على فاعله بالشـرك وحقيقة الحال: أنه ندد وأشرك.

وأما الشرك الخفي فهو: كيسير الرياء، ونحو ذلك وبعض أهل العلم يقول بالتقسيم الأول، ومنهم مـن يقول بالثاني، والتحقيق أنهما متساويان أحدهما يوافق الآخر ليس بينهما اختلاف، فإذا سمعت من يقول: إن الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر، فقوله هذا صحيح، وإذا سمعت من يقول -وهو قول أئمة الـدعوة- أن الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر وخفي، فهذا أيضا قوله صحيح.

فإذا تبين ذلك فاعلم أن الشرك يعبر عنه بالتنديد، كما قال جل وعلا﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ (البقـرة: من الآية٢٢)وقال النبي ﷺ حينما سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله ندا وهو خلقك))[1] .

فالتنديد منه ما هو تنديد أعظم ومنه ما هو تنديد أصغر ليس فيه صرف العبادة لغير الله، فـإذا كـان التنديد بجعل العبادة لغير الله صار التنديد شركا أكبر، وإذا كان التنديد بجعل غير الله -جل وعلا- ندا لله في عمل، و لم يبلغ ذلك الشرك الأكبر، فإنه يكون تنديدا أصغر، وهو المسمى بالشرك الأصغر، فهـذه مقدمات وتعاريفات، وتنبيهات جعلتها بين يدي هذا الشرح لأهميتها،ولمسيس الحاجة إليها.والله أعلم.

قال إمام هذه الدعوة -رحمه الله-: (كتاب التوحيد)، (وقول الله تعالى) (قول) هذه كما في صـحيح البخاري إما أن تنطقها على العطف فتقول : كتاب التوحيد وقول الله يعني : وكتاب قـول الله، أو تنطقها على الاستئناف، فتقول : وقول الله تعالى.

قال: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)) هذه الآية فيها بيان التوحيد، ووجه ذلك أن السلف فسروا قوله تعالى ﴿إلا ليعبدون﴾ بمعنى إلا ليوحدون[2].ودليل هذا الفهم إن الرسل إنما بعثت لأجل التوحيد، أعني توحيد العبادة فقوله ﴿إلا ليعبدون﴾ بمعنى إلا ليوحدون.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) هذه الآية فيها حصر، لأن من المعلوم أن ﴿ما﴾ النافية مع ﴿إلا﴾ تفيد الحصر والقصر، فيكون معنى الكلام على هذا إني خلقت الجن والإنـس لغاية واحدة هي العبادة دون ما سواها، ففيه قصر علة الخلق على العبادة.

(**ق**): **قوله:** (خلقت)، أي أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير. قال الشاعر:

---

[1] البخاري: (٤٧٦١)،(٦٨١١)،(٧٥٢٠)،ومسلم(٨٦)،(١٤١).

[2] تفسير ابن كثير (٢٣٨/٤).

ولأنت تفـري مـا خلقـت وبعـــــ ـــض الناس يخلق ثم لا يفري

قوله: (الجن): هم عالمُ غيبيُ مخفيُ عنا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلان علـى الخفـاء والاستتار، ومنه: الجَنة، والجِنة، والجُنة.

قوله: (الإنس) سموا بذلك، لأنهم لا يعيشون بدون إيناس، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم إلى بعض.

(**تم**): **وقوله:** ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ و﴿إلا﴾ هذه تسمى أداة استثناء والاستثناء هنا مفرغ، أي مفرغ من أعم الأحوال، كما يقول النحاة يعني: وما خلقت الجن والإنس لشيء أو لغاية من الغايات أبـدا إلا لغايـة واحدة هي أن يعبدوني.

وقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه اللام هذه تسمى لام التعليل، ولام التعليل هذه قد يكون معناها إمـا تعليـل غاية، أو تعليل علة. فتعليل الغاية: يكون ما بعدها مطلوبا لكن قد يكون، وقد لا يكون، يعـني: هـذه الغاية ويسميها بعض العلماء لام الحكمة، وفرق بين العلة والحكمة يوضحه إذا قيل: ما الحكمة من خلق الجن والإنس؟ فالجواب : أن يعبدوا الله وحده دون ما سواه فهذا التعليل لقوله﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هو تعليل غاية ولو سألت شخصاً مثلا: لم أحضرت الكتاب؟ قال لك: أحضرته لأقرأ،كانت علـة الإحضـار أو الحكمة من الإحضار القراءة، فقد يقرأ، وقد لا يقرأ بخلاف اللام التي يكون معناها العلـة وهـي الـتي يترتب عليها معلولها، والتي يقول العلماء في نحوها: الحكم دائر مع علته وجودا وعدما.

فتلك هي علة القياس التي لا يتخلف فيها المعلول عن العلة، فتكون اللام هنا: علة الغاية ؛ لأن من الخلق من أوجد وخلقه الله -جل وعلا- لكن عبد غيره.

ولام الحكمة شرعية، ويكون ما بعدها مطلوبا شرعا، وقد قال جل وعلا هنا: ﴿وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) فنفهم من هذا أن هذه الآية دالة على التوحيد من جهة أن الغاية من الخلق هو التوحيد، والعبادة هنا هي التوحيد.

(**ق**): ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتباً، ولو كان الغـرض مـن خلقهم كالغرض من خلق البهائم؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ لأنه في النهايـة يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطمت، ولهذا قال تعالى: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) [القصص: ٨٥]؛ فلابد أن يردك إلى معادٍ تجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(**ف**): قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل.

وقال أيضاً: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة. من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح. وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبي: أصل العبادة التذلل والخضوع. وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات. لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته. فهذا هو الحكمة في خلقهم.

قلت: وهي الحكمة الشرعية الدينية.

قال العماد ابن كثير: وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور. وذلك هو حقيقة دين الإسلام. لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع. انتهى.

وقال أيضا في تفسير هذه الآية: ومعنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له. فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء. ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم. بل هم الفقراء في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الآية إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي وقال مجاهد: إلا لآمرهم وأنهاهم اختاره الزجاج وشيخ الإسلام. قال: ويدل على هذا قوله ' ٧٥: ٣٦ ' "أيحسب الإنسان أن يترك سدى" قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى وقال في القرآن في غير موضع "اعبدوا ربكم" "اتقوا ربكم" فقد أمرهم بما خلقوا له. وأرسل الرسل بذلك. وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعاً، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه.

قال وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ' ٤: ٦٤ ' "وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله" ثم قد يطاع وقد يعصى. وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته. ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون. وهو سبحانه لم يقل: إنه فعل الأول. وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم. الثاني: وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني. فيكونوا هم الفاعلين له. فيحصل لهم بفعله سعادتهم ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولهم. انتهى.

ويشهد لهذا المعنى: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم. أن لا تشرك - أحسبه قال: ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك" فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه: من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً. فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره. وهذه هي الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم.

فبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق.

يجتمعان في حق المخلص المطيع. وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي. فافهم ذلك تنج من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم.

وقوله: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) الآية

(ق): الآية الثانية قوله تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل: ٣٦].

قوله: (ولقد): اللام موطئه لقسم مقدر، وقد: للتحقيق. وعليه؛ فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، وقد.

قوله: (بعثنا)؛ أي: أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة. والأمة هنا: الطائفة من الناس. وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معانٍ:

١. الطائفة: كما في هذه الآية.
٢. الإمام، ومنه قوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله) [النحل: ١٢٠].
٣. الملة: ومنه قوله تعالى: (إنا وجدنا آباءنا على أمة) [الزخرف: ٢٣].
٤. الزمن: ومنه قوله تعالى: (وادكر بعد أمة) [يوسف: ٤٥]. فكل أمة بعث فيها رسول من عهد نوح إلى عهد نبينا a ﷺ.

والحكمة من إرسال الرسل:

أ- إقامة الحجة: قال تعالى: (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) [النساء: ١٦٥].
ب- الرحمة: لقوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء: ١٠٧].
ج- بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى، لأن الإنسان لا يعرف ما يجب لله على الوجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله: (أن اعبدوا الله) أن: قيل تفسيرية، وهي التي سبقت بما يدل على القول دون حروفه؛ كقوله تعالى: (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك) [المؤمنون: ٢٧]، والوحي فيه معنى القول دون حروفه، والبعث متضمن معنى الوحي؛ لأن كل رسول موحى إليه. وقيل: إنها مصدرية على تقدير الباء؛ أي: بأن اعبدوا، والراجح الأول؛ لعدم التقدير. أي: تذللوا له بالعبادة، وسبق تعريف العبادة.

قوله: (واجتنبوا الطاغوت) أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب، والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو صفة مشبهة، والطغيان: مجاوزة الحد؛ كما في قوله تعالى: (إنا لما طغى الماء حملناكم في

الجارية) [الحاقة: ١١]؛ أي: تجاوز حده. وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأنه: "ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع". ومراده من كان راضياً بذلك، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومطيعه؛ لأنه تجاوز به حده حيث نَزَّله فوق مترلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغياناً لمجاوزته الحد بذلك. فالمتبوع مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء. والمعبود مثل: الأصنام. والمطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتخذهم الإنسان أرباباً يحل ما حرم الله من أجل تحليلهم له، ويحرم ما أحل الله من أجل تحريمهم له؛ فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت، قال تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) [النساء: ٥١].

(**تم**): وهذه الآية تفسير للآية قبلها فالآية قبلها فيها بيان معنى العبادة وفيها بيان الغرض من إيجاد الخلق، وأنه لأجل العبادة التي أرسلت بها الرسل بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(النحل: من الآية٣٦) فالله تعالى ابتعث الرسل بهاتين الكلمتين ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ إثبات، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾نفي .

وهذا هو معنى التوحيد المشتمل على إثبات ونفي: فقوله في الآية ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾يتضمن معنى قول: (لا إله إلا الله)، لأن النفي فيه اجتناب الطاغوت -وهو كل إله عبد بالبغي والظلم والعدوان- والإثبات فيه: إثبات العبادة لله وحده دون ما سواه، ففي قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ التوحيد المثبت، وفي قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾نفي الإشراك.

(**ق**): **قوله:** "الآية" أي: إلى آخر الآية، وتقرأ بالنصب؛ إما على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أكمل الآية، أو أنها منصوب بترع الخافض؛ أي: إلى آخر الآية. ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية

(**ق**): **قوله:** ﴿قضى﴾ قضاء الله – عز وجل – ينقسم إلى قسمين: ١- قضاء شرعي. ٢- قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله. مثال ذلك: هذه الآية: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فتكون قضى بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لابد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه. مثال ذلك: قوله تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً) [الإسراء: ٤] فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

قوله: ﴿أن لا تعبدوا﴾. ﴿أن﴾ هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مفرغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله؛ فمفعوله ما بعد إلا.

قوله: ﴿إلا إياه﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال؛ لأن المتصل لا يقع بعد إلا، قال ابن مالك:

وذو اتصال منه ما لا يبـ ـتدأ ولا يلي إلا اختياراً أبداً

إشكال وجوابه: إذا قيل: ثبت أن الله قضى كوناً ما لا يحبه؛ فكيف يقضي الله ما لا يحبه؟ فالجواب: أن المحبوب قسمان: ١- محبوب لذاته. ٢- محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهاً لذاته، ولكن يحب لما فيه من الحكمة والمصلحة؛ فيكون حينئذ محبوباً من وجه، مكروهاً من وجه آخر. مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حد ذاته مكروه إلى الله؛ لأن الله لا يحب الفساد، ولا المفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوباً إلى الله - ﷻ - من وجه آخر. ومن ذلك: القحط، والجدب، والمرض، والفقر؛ لأن الله رحيم لا يحب أن يؤذي عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليسر، لكن يقدره للحكم المترتبة عليه؛ فيكون محبوباً إلى الله من وجه، مكروهاً من وجه آخر. قال الله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم: ٤١]. فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوباً من وجه مكروهاً من وجه آخر؟ فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون، فيشربها، وهو يكرهها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المحماة على النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه أخر. فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: (وقضي ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) من باب القضاء القدري؟ أجيب: بأنه لا يمكن؛ إذ لو كان قضاءً قدرياً لعبد الناس كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعي قد يقع وقد لا يقع. والخطاب في الآية للنبي ﷺ، لكنه قال: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾، و لم يقل "أن لا تعبد"، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ [الطلاق: ١]؛ فالخطاب الأول للرسول ﷺ والثاني عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟ أجيب: إن الفائدة من ذلك:

١. التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.
٢. أن النبي ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.
٣. الإشارة إلى أن ما خوطب به الرسول ﷺ فهو له ولأمته؛ إلا ما دلّ الدليل على أنه مختص به.

٤. وفي هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي ﷺ مربوب لا رب، عابد لا معبود؛ فهو داخل في قوله: ﴿تعبدوا﴾، وكفى به شرفاً أن يكون عبداً لله - ﷻ - ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته؛ فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: (وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا) [البقرة: ٢٣]، وقال في مقام إثبات نبوته ورسالته إلى الخلق: (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده) [الفرقان: ١]، وقال في مقام الإسراء والمعراج ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠].

قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحسانا، والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان، بذل المعروف، وفي قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ بعد قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ دليل على أن حق الوالدين بعد حق الله- ﷻ -.

فإن قيل: فأين حق الرسول ﷺ؟

أجيب: بأن حق الله متضمن لحق الرسول ﷺ؛ لأن الله لا يعبد إلا بما شرع الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ﴾ أي: كف الأذى عنهما؛ ففي قوله: ﴿إحساناً﴾: بذل المعروف، وفي قوله: ﴿فلا تقل لهما أفٍّ﴾: كف الأذى، ومعنى ﴿أف﴾: أتضجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذّيان بذلك، وفي الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صارا عبئاً على ولدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

قوله: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾، أي: لينا حسناً بهدوء وطمأنينة؛ كقولك: أعظم الله أجرك، أبشري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشبه ذلك؛ فالقول الكريم يكون في صيغته، وأدائه، والخطاب به، فلا يكون مزعجاً كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمن الدعاء والإيناس لهما.

(**ف**): وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها: الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره "أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: آمين، آمين، آمين، فقالوا يا رسول الله، على ما أمنت؟ قال أتاني جبريل فقال: يا a رغم أنف امرىء ذكرت عنده فلم يصل عليك قل: آمين، فقلت: آمين ثم قال: رغم أنف امرىء دخل عليه شهر رمضان ثم خرج و لم يغفر له، قل آمين: فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قل: آمين، فقلت آمين"[1]

[1] صحيح: حديث متواتر. انظر (نظم المتناثر) للكتاني (١٢٦)حديث خرجه عن تسعة من الصحابة.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ "رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه، أحدهما أو كلاهما لم يدخل الجنة "[١] قال العماد ابن كثير: صحيح من هذا الوجه.

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس، فقال ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت" رواه البخاري ومسلم. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "رضى الرب في رضى الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين "[٢].

(**ق**): والشاهد في هذه الآية: قوله تعالى: (ألا تعبدوا إلا إياه)؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

وقوله: ﴿وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ (٤) الآية

(**تم**): وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾(النساء:من الآية٣٦) هذا أيضا فيه أمر ونهي، أما الأمر ففي قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ والنهي في قوله ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾.

وقد مر معك دلالة قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ مع النفي، على توحيد الله .ثم تأمل قوله هنا: ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، أن لا هنا ناهية، ومن المتقرر في علم الأصول أن النهي كالنفي إذا تسلط على نكرة فإنه يفيد العموم، وما بعد ﴿لا﴾ نكرة وهو المصدر أحد مدلولي الفعل؛ لأن الفعل المضارع مشتمل على مصدر وزمن، فـ﴿لا تُشْرِكُوا﴾ يعني: لا إشراكا به فـ ﴿تُشْرِكُوا﴾ متضمنة لمصدر، والمصدر نكرة، فيكون قوله: ﴿لا تُشْرِكُوا﴾دل على النهي على أي نوع من الشرك كما أن قوله في الآية نفسها – ﴿شَيْئاً﴾ نكرة تدل على عموم الأشياء،–فصار عندنا– في قوله تعالى ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ **عمومان**:

الأول: ما دلت عليه الآية من النهي عن جميع أنواع الشرك وذلك؛ لأن النهي تسلط على الفعل، والفعل دل على المصدر، والمصدر نكرة.

والثاني: أن مفعول تشرك شيئا، وهو نكرة، والنكرة جاءت في سياق النهي وذلك يدل على عموم الأشياء يعني لا الشرك الأصغر مأذون به، ولا الأكبر ولا الخفي بدلالة قوله ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ﴾وكذلك ليس مأذونا أن يشرك به لا ملك ولا نبي ولا صالح ولا عالم ولا طالح ولا قريب ولا بعيد بدلالة قوله ﴿شَيْئاً﴾ وهذا استدلال ظاهر الوضوح في الدلالة على التوحيد بالجمع بين النفي والإثبات.

---

[١] صحيح: أحمد(٢/٢٥٤، ٣٤٦)، مسلم (٢٥٥١).

[٢] قال الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب): (حسن لغيره) برقم (٢٥٠٣).

(ق): **قوله:** ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ يقال فيها ما قيل في الآية السابقة.

قوله: ﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾؛ أي: إحساناً. وذو القربى هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع. واليتامى: جَمْعُ يتيم، وهو الذي مات أبوه، و لم يبلغ. والمساكين: هم الذين عدموا المال فأسكنهم الفقر. وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

قوله: ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله، وذي القربى؛ أي: القريب، والجار الجنب؛ أي: الجار البعيد.

قوله: ﴿والصاحب بالجنب﴾، قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السفر، لأنه يكون إلى جنبك، ولكل منهما حق؛ فالآية صالحة لهما.

قوله: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ هذا يشمل الإحسان إلى الأرقّاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

قوله: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾. المختال: في هيئته. والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا ولا هذا.

قال ابن مسعود ﷺ: من أراد أن ينظر إلى وصية a ﷺ التي عليها خاتمة فليقرأ قوله تعالى: **﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** [الأنعام: ١٥١- ١٥٢]

(ق): الآية الخامسة إلى السابعة قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم...﴾. الخطاب للنبي ﷺ، أمره الله أن يقول للناس: ﴿تعالوا﴾؛ أي أقبلوا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلو إلى مكانه، فيقول: تعالى؛ أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿أتل﴾ بالجزم جواباً للأمر في قوله: ﴿تعالوا﴾.

وقوله: (ما حرّم ربكم عليكم) "ما" اسم موصول مفعول لأتل، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم. وقال: (ربكم) ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته.

(**تم**): قال العلماء: ﴿أن﴾ هنا تفسيرية متعلقة بمحذوف تقديره وصاكم؛ لأن ﴿أن﴾ التفسيرية هي التي تأتي بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه وإنما قدروا المحذوف بقولهم وصاكم لأنه جاء في آخر الآي قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: من الآية١٥١) وقال في الآية الثانية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: من الآية١٥٢) وقال في الآية الثالثة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: من الآية١٥٣) وكل هذه الثلاث فيها التوصية.

فيكون تقدير الكلام: -إذاً- : قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم: وصاكم ألا تشركوا به شيئا. والوصية هنا شرعية، وإذا كانت الوصية من الله شرعية، فهي أمر واجب، فقوله ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ (الأنعام: من الآية١٥١) دلالتها على التوحيد كدلالة آية النساء قبلها

(**ف**): **قال العماد ابن كثير رحمه الله**: يقول تعالى لنبيه ورسوله a ﷺ (قل) لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله (تعالوا) أي هلموا وأقبلوا (أتل) أقص عليكم (ما حرم ربكم عليكم) حقاً، لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده (ألا تشركوا به شيئاً) وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئاً، ولهذا قال في آخر الآية (ذلكم وصاكم به) أ.هـ.

قلت: فيكون المعنى: حرم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به، وفي المغني لابن هشام في قوله تعالى " أن لا تشركوا به شيئا " سبعة أقوال، أحسنها: هذا الذي ذكره ابن كثير، ويليه: بين لكم ذلك لئلا تشركوا، فحذفت الجملة من أحدهما، وهي (وصاكم) وحرف الجر وما قبله من الأخرى. ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺ قالوا: يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم كما قال أبو سفيان، لهرقل وهذا هو الذي فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله ﷺ لهم [قولوا لا اله إلا الله تفلحوا][1].

(**ق**): **قوله:** (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)(الأنعام: من الآية١٥١) أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

---

[1] صحيح: أخرجه ابن خزيمة (٨٢/١) والبيهقي (٧٦/١) والدار القطني (٤٤/٣، ٤٥)، والحاكم (٦١١/٢، ٦١٢). وقال :صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(**ف**): وقوله تعالى: "وبالوالدين إحساناً" قال القرطبي: الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما، و(إحساناً) نصب على المصدرية، وناصبه فعل من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً

(**ق**): **قوله:** ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾، بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع. والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ [النساء: ١١].

قوله: ﴿من إملاق﴾، الإملاق: الفقر، و﴿من﴾ للسببية والتعليل؛ أي: بسبب الإملاق.

قوله: ﴿نحن نرزقكم وإيّاهم﴾، أي: إذا أبقيتموهم؛ فإنّ الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم، لأن الذي يقوم بالرزق هو الله. وبدأ هنا برزق الوالدين؛ وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: ﴿من إملاق﴾؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خشية إملاق﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين. وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءٍ على واقع المشركين غالباً، فلا مفهوم له.

(**ف**): وفى الصحيحين "عن ابن مسعود رضي الله عنه (قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك. ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾.[الفرقان :٦٨- ٧٠]

(**ق**): **قوله:** (ولا تقربوا الفواحش)، لم يقل: لا تأتوا؛ لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الإتيان؛ لأن النهي عن القرب نهي عنها، وعما يكون ذريعة إليها، ولذلك حَرُم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم؛ لأن ذلك يقرب من الفواحش.

قوله: (ما ظهر منها وما بطن)، قيل: ما ظهر فحشه، وما خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مستفحش في نفوس جميع الناس، ومنها شيء فيه خفاء. وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه، فالإظهار: فعل الزنا – والعياذ بالله – مجاهرةً، والإبطان فعله سراً. وقيل: ما عظم فحشه، وما كان دون ذلك؛ لأن الفواحش

ليست على حد سواء، ولهذا جاء في الحديث: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر"[1]، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

(**ف**): **وقوله:** ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ قال ابن عطية: نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهى المعاصي.

و(ظهر) و(بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جلتا له من الأشياء. انتهى.

(**ق**): **قوله:** ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾، النفس التي حرم الله: هي النفس المعصومة، وهي نفس المسلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمن؛ بكسر الميم. والحق: ما أثبته الشرع. والباطل: ما نفاه الشرع. فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المحصن فيرجم حتى يموت، أو يقتل مكافئه، أو يخرج على الجماعة، أو يقطع الطريق؛ فإنه يقتل، قال ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثّيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة". وقال هناك: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾، وقال قبلها: ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾؛ فيكون النهي عن قتل الأولاد مكرراً مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿ذلكم وصاكم به﴾، المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام، ولهذا يقال: وصيته على فلان؛ أي: عهدت به إليه ليهتم به.

قوله: ﴿تعقلون﴾، العقل هنا: حسن التصرف، وأما في قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ [الزخرف: ٣]، فمعناه: تفهمون. وفي هذا دليلٌ على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا نقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

قوله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾[الانعام: ١٥٢]، قوله: ﴿ولا تقربوا﴾ هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن؛ فلا نقربها بأي تصرف إلا بما نرى أنه أحسن،

[1] البخاري، كتاب الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور، حديث (٢٦٥٤)ومسلم كتاب الايمان، باب الكبائر وأكبرها، حديث (٨٧).

فإذا لاح للولي تصرفان أحدهما أكثر ربحاً؛ فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحاً لأنه أحسن. والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحاً وفيه رباً، والآخر أقل ربحاً وهو أسلم من الربا؛ فنقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعي مقدم على الحسن الدنيوي المادي.

قوله: ﴿حتى يبلغ أشده﴾، ﴿حتى﴾ هنا: حرف غاية؛ فما بعدها مخالف لما قبلها. أي: إذا بلغ أشده؛ فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره، وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقيه عندنا. ومعنى أشده: قوته العقلية والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامى أو للحاكم على قول بعض أهل العلم، وبلوغ الأشد يختلف، والمراد به هنا الأشد الذي يكون به التكليف، وهو تمام خمسة عشرة سنة، أو إنبات العانة أو الإنزال.

(**ف**): قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ، روى نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم.

(**ق**): **قوله:** ﴿وأوفوا الكيل والميزان﴾، أي: أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب. وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً. والأمر بالإيفاء شاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفي بالكيل والوزن وغيرهما في التعامل.

قوله: ﴿بالقسط﴾، أي: بالعدل، ولما كان قوله: ﴿بالقسط﴾ قد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الوزن أحياناً، أعقب ذلك بقوله: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾، أي: طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته، وحصل النقص؛ فلا يعد مخالفاً؛ لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه، كما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن على المرء أن يبذل وسعه في الإيفاء بالقسط، ولكن متى تبين الخطأ وجب تلافيه لأنه داخل في الوسع.

(**ف**): **وقوله:** ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ قال ابن كثير: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أي من اجتهاد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه.

(**ق**): **قوله:** ﴿وإذ قلتم فاعدلوا﴾، معناه: أي قول تقوله؛ فإنه يجب عليك أن تعدل فيه، سواء كان ذلك لنفسك على غيرك، أو لغيرك على نفسك، أو لغيرك على غيرك، أو لتحكم بين اثنين؛ فالواجب العدل؛ إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضده الجور والميل، فلا تمل يميناً ولا شمالاً، و لم يقل هنا ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾؛ لأن القول لا يشق فيه العدل غالباً.

قولـه: ﴿ولو كان ذا قربى﴾، أي: المقول له ذا قرابة، أي: صاحب قرابة، فلا تحابيه لقرابته، فتميل معـه على غيره من أجله؛ فأجعل أمرك إلى الله – ﷻ– الذي خلقك، وأمرك بهذا، وإليه سترجع. ويسـألك – ﷻ – ماذا فعلت في هذه الأمانة. وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشـر، a ﷺ، وقال: "وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت a سرقت؛ لقطعت يدها".

(ف): قال الحنفي: العدل في القول في حق الولى والعدو لا يتغير في الرضى والغضب بل يكـون علـى الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب والقريب ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.[المائدة : ٨]

(ق): **قولـه:** ﴿وبعهد الله أوفوا﴾، قدم المتعلق؛ للاهتمام به، وعهد الله: ما عهد به إلى عباده، وهـي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره؛ كما قال ﷻ:﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضـاً حَسَناً﴾ (المائدة: من الآية١٢)، هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار﴾ (المائدة: من الآية١٢)، هذا من جانب الله –ﷻ –.

قوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾، **هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق ﷻ:**

الأولى: أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا. صار الجميع تسع وصايا.

(ف): **وقوله** ﴿وبعهد الله أوفوا﴾قال ابن جرير: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فـأوفوا. وإيفـاء ذلك بأن يطيعوه بما أمرهم به ونهاهم عنه. وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ ذلك هو الوفـاء بعهـد الله. وكذا قال غيره، وقوله ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه.

(ق): ثم قال ﷻ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾، هذه هي الوصية العاشرة؛ فقوله: ﴿وأن هـذا صراطي﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأملته وجدته محيطاً بالشرع كله؛إما نصاً، وإما إيمـاء، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله؛ أي: هذا الذي جاءكم به الرسـول ﷺ هـو صـراطي؛ أي: الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصراط يضاف إلى الله – عز وجل – ويضاف إلى سالكه؛ ففي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] هنا اضيف إلى سالكه وفي قوله ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْـأَرْضِ﴾ (الشورى: من الآية٥٣) هنا أضيف إلى الله – عز وجل –؛ فإضافته إلى الله – عز وجل – لأنه موصـل إليـه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده – جل وعلا –، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

(ف): **قال القرطبي**: هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم. فإنه نهي وأمر وحذر عن اتباع غـير سـبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف. و﴿أن﴾ في موضع نصب. أي أتلو أن هذا صراطي، عن الفراء والكسائي. ويجوز أن يكون خفضاً. أي وصاكم به وبأن هذا صراطي. قال: والصراط الطريق الذي هو دين الإسلام. ﴿مستقيماً﴾ نصب على الحال ومعناه مستوياً قيماً لا اعوجاج فيه.

(ق): **قوله:** ﴿مستقيماً﴾، هذه حال من ﴿صراط﴾؛ أي: حال كونه مستقيماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

(ف): فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان a ﷺ وشرعه ونهايته الجنة وتشعبت منه طرق، فمـن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار.

(ق): **قوله:** ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ السبل؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه.
وتفرق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها: ﴿تتفرق﴾، أي أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتت بكم الأهواء وبعدت.
وهنا قال: ﴿السبل﴾: جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿سبيله﴾ سبيل واحد؛ لأن سبيل الله – عز وجل – واحد، وأما ما عداه؛ فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: (وستفترق هذه الأمـة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة)؛ فالسبيل المنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ (المائدة: من الآية١٦)؛ لأن ﴿سبل﴾ في الآية الكريمة؛ وإن كانت مجموعة؛ لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شـرائع الإسلام.

(ف): وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم – وصححه – "عن ابن مسـعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه سبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليـه، ثم قـرأ ﴿وأن هـذا صراطي مستقاً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ الآية [1]. وعن مجاهد: ﴿ولا تتبعوا السـبل﴾، قـال: البـدع والشهوات.

[1] صحيح: أحمد (٤٣٥/١، ٤٦٥)، النسائي في الكبرى(١٤٩/٧– تحفة)، سنن الدارمي(٦٧/١)، مستدرك الحاكم(٣١٨/٢) ومحمد بن نصر في (السنة) (١١).

قال ابن القيم رحمه الله: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شيئ واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسن رسله، وجعله موصلاً لعبادة الله وهو إفراده بالعبادات، وإفراد رسله بالطاعة، فلا يشرك به أحداً في عبادته ولا يشرك برسوله ﷺ أحداً في طاعته. فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فأي شيئ فسر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين. ونكتة ذلك، أن تحبه بقلبك وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معموراً بحبه، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته. فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله. وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث به رسوله والقيام به، وقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيتها وقطب رحاها. قال: وقال سهل بن عبد الله: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف، إنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله ذموه ونفروا عنه وتبرأوا منه، وأذلوه وأهانوه. أ.هـ.

(ق): **وقوله:** ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾، أي ذلك المذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

(ف): **قوله:** "ابن مسعود" هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - ابن حبيب الهذلى أبو عبد الرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين، وأهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان من كبار علماء الصحابة، أمره عمر على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه.

(ق): **قوله:** قال ابن مسعود: (من أراد...) إلخ. الاستفهام هنا للحث والتشويق، واللام في قوله: (فليقرأ) للإرشاد.

قوله: (وصية a ﷺ)، أي: رسول الله a بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ، وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال رسول a رسول الله ﷺ، ووصية a ﷺ ، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ (النور: من الآية٦٣)؛ لأن دعاء الرسول هنا أي: مناداته؛ فلا تقولوا عند المناداة: يا a ! ولكن قولوا: يا رسول الله ! أما الخبر؛ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ، أو اللهم ! صل على a، وما أشبه ذلك.

قوله: (التي عليها خاتمه)، الخاتم بمعنى التوقيع.

وقوله: (وصية **a** ﷺ) ليست وصية مكتوبة مختوماً عليها؛ لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

فلا يظن أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود ﷺ يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله؛ فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأمته.

وعن معاذ بن جبل (ﷺ)؛ قال: (كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: (يا معاذ ! أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟) . قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا" فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا" أخرجاه في الصحيحين)[1] .

وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها؛ حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

(**ف**): وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه. وقال بعضهم: معناه من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كُتِبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل فليقرأ: (قل تعالوا – إلى آخر الآيات) شبهها بالكتاب الذى كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص. فإن النبى ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله، كما قال فيما رواه مسلم: "وإنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله" وقد روى عبادة بن الصامت قال: "قال رسول الله ﷺ: أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ حتى فرغ من الثلاث الآيات. ثم قال من وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه " رواه ابن أبي حاتم والحاكم وصححه و**a** بن نصر في الاعتصام[2].

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب اللباس: إرداف الرجل خلف الرجل، حديث (٥٩٦٧) ومسلم كتاب الإيمان، باب: الدليل على ان من مات على التوحيد دخل الجنة حديث (٣٠).

[2] ،ضعيف الاسناد): الحاكم في المستدرك (٢/٣١٨).

قلت: ولأن النبى ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه. وفي كتابه الذى أنزلـه '١٦: ٨٩' ﴿ تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله ﷺ.

(**ق**): **وقوله:** (فليقرأ قوله تعالى ...) إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

(**ف**): هذا الحديث في الصحيحين من طرق. وفي بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف.

و معاذ بن جبل رضي الله عنه هو ابن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن صحابى مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها. وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن ﷺ. وقال النبى ﷺ معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة أي بخطوة، قال في القاموس والرتوة الخطوة وشرف من الأرض، وسويعة من الزمان، والدعوة، والفطرة، ورمية بسهم أو نحو ميل أو مدى البصر. والراتي العالم الربانى. انتهى

وقال في النهاية أنه يتقدم العلماء برتوة أي برمية سهم. وقيل: بميل، وقيل: مد البصر. وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث. مات معاذ سنة ثمانى عشرة بالشام في طاعون عمواس. وقد استخلفه ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم.

(**ق**): **قوله:** (رديف)، بمعنى رادف؛ أي: راكب معه خلفه؛ فهو فعيل بمعنى فاعل، مثل: رحيم بمعنى راحم، وسميع بمعنى سامع.

(**ف**): **قوله:** (كنت رديف النبى ﷺ) فيه جواز الإرداف على الدابة، وفضيلة معاذ رضي الله عنه.

(**ق**): **قوله:** (على حمار)، أي: أهلي؛ لأن الوحشي لا يركب.

(**ف**): **قوله:** (على حمار) في رواية اسمه عُفير، قلت: أهداه إليه المقوقس صاحب مصر.

وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرادف عليه، خلافاً لما عليه أهل الكبر.

(**ق**): **قوله:** (أتدري)، أي: أتعلم.

قوله: (ما حق الله على العباد؟)، أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه على معاذ بصيغة السؤال؛ ليكون أشد حضوراً لقلبه حتى يفهم ما يقول ﷺ.

قوله (وما حق العباد على الله؟)، أي: ما يجب أن يعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئاً، بل الله أوجبه على نفسه فضلاً منه على عباده، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: من الآية٥٤).فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءاً بجهالة؛ أي: بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومعنى كتب؛ أي: أوجب.

(**تم**): ثم قال: (وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا) قوله (حق العباد على الله)، معناه أن هذا حق أحقه الله على نفسه باتفاق أهل العلم، وأوجبه على نفسه كما في بعض أقوالهم، كما قاله الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-.

وهل ذلك الحق المذكور في قوله (حق العباد على الله) هل هو واجب أم لا؟ نقول: نعم هو حق واجب، لكن بإيجاب الله ذلك الحق على نفسه، والله -جل وعلا- يحرم على نفسه ما يشاء بما يوافق حكمته، ويوجب على نفسه ما يشاء بما يوافق حكمته فكما أن الله حرم الظلم على نفسه كما في قوله (إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا).

كذلك أوجب على نفسه أشياء، لكن بعض أهل العلم تحاشى إطلاق لفظ الإيجاب على الله، وقال: يعبر عن ذلك بأنه حق، يتفضل به، سبحانه على من يشاء فهو حق تفضل لا حق إيجاب، بمتعين ؛ لأن الحق الواجب هو الذي أوجبه الله على نفسه، والعباد لا يوجبون على الله -جل وعلا- شيئا من الحقوق، بل هو الذي أوجبه -جل وعلا- على نفسه ؛ وتفضل على عباده، والله -جل جلاله- لا يخلف الميعاد.

(**ق**): **قوله:** (قلت: الله ورسوله أعلم)، لفظ الجلالة الله: مبتدأ، و(رسوله): معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ، وأفرد الخبر هنا مع أنه لاثنين؛ لأنه على تقدير: (من)، واسم التفضيل إذا كان على تقدير: (من)؛ فإن الأشهر فيه الإفراد والتذكير.

والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضاً.

قوله: (يعبدوه) أي: يتذللوا له بالطاعة.

قوله: (ولا يشركوا به شيئاً)، أي: في عبادته وما يختص به، وشيئاً نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولاً ولا ملكاً ولا ولياً ولا غيرهم.

(**تم**): وموطن الشاهد من هذا الحديث هو قوله (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) وهذا قد مر بيان معناه، لكن الشاهد من هذا الحديث، ومناسبته للابتداء ابتداء كتاب التوحيد أنه أتى فيه بلفظ (حق) الذي في قوله (أتدري ما حق الله على العباد)، ثم قال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) وهذا الحق حق واجب لله -جل وعلا- لأن الكتاب والسنة؛ بل ولأن المرسلين جميعا أتوا بهذا الحق وببيانه، وأنه أوجب الواجبات على العباد.

(**ق**): **وقوله:** (وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً)، وهذا الحق تفضل الله به على عباده، و لم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: (من لا يشرك به شيئاً) أنه مجرد عن العبادة؛ لأن

التقدير: من يعبده ولا يشرك به شيئاً، و لم يذكر قوله: (من يعبده)؛ لأنه مفهوم من قوله: (وحق العباد)، ومن كان وصفه العبودية؛ فلابد أن يكون عابداً.

ومن لم يعبد الله ولم يشرك به شيئاً؛ هل يعذب؟

الجواب: نعم يعذب؛ لأن الكلام فيه حذف، وتقديره: من يعبده ولا يشرك به شيئاً، ويدل لهذا أمران:

الأول: **قوله:** (حق العباد)، ومن كان وصفه العبودية؛ فلابد أن يكون عابداً.

الثاني: أن هذا في مقابل قوله فيما تقدم: (أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً)؛ فعلم أن المراد بقوله: (لا يشركوا به شيئاً)؛ أي: في العبادة.

قوله: (أفلا أبشر الناس)، أي: أأسكت فلا أبشر الناس؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو **فيه قولان**:

الأول: أن بين الهمزة وحرف العطف محذوفاً يقدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟

الثاني: أنه لا شيء محذوف، لكن هنا تقديم وتأخير، وتقديره: فألا أبشر؟ فالجملة معطوفة على ما سبق، وموضع الفاء سابق على الهمزة؛ فالأصل: فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان مثل هذا التركيب ركيكاً، وهمزة الاستفهام لها الصدارة؛ قدمت على حرف العطف، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الْإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: ١٧)، وقوله تعالى: ﴿أفلا تُبصرون﴾ (القصص: ٧٢)، وقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ (الحج: ٤٦).

والبشارة: هي الإخبار بما يسر.

وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ (الانشقاق: ٢٤)، لكن الأكثر الأول.

قوله: (لا تبشرهم)، أي: لا تخبرهم، ولا ناهية.

ومعنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى النبي ﷺ عن إخبارهم؛ لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال تعالى: ﴿أفرأيت من أتخذَ إلهه هواه﴾ (الجاثية: ٢٣).

ومناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله، ففيه معنى قوله(ولا أنتم عابدون ما أعبد).

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمَّت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله...) الآية.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبِد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف. وفيها عشر مسائل، أولها النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: (لا تجعل مع الله إلهاً ءاخر فتقعد مذموماً مخذولاً)؛ وختمها بقوله: (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً)، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة).

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً).

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله تعالى علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس، أخذها رحمه الله من قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦)؛ فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد، أي: أن العبادة مبنية على التوحيد؛ فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما أن بعض السلف فسروا قوله تعالى: ﴿إلا ليعبدون﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تماما لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد؛ فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه)

وقوله: (لأن الخصومة فيه)، أي: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش؛ فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشرعي؛ فهي كالعدم لعدم الإيتان بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ (التوبة: من الآية٥٤)

وقوله في الثالثة: ففية معنى قوله: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾، لستم عابدين عبادتي؛ لأن عبادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة لله تعالى

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل، أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: من الآية٣٦) فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة، أخذها من قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾ (النحل: ٣٦).

السادسة: أن دين الأنبياء واحد، أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: من الآية٣٦)، ومثل قولة تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة: من الآية٤٨)؛ لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين؛ فواحد، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: من الآية١٣).

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت. ودليله قوله تعالى: ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾، فمن عبد الله و لم يكفر بالطاغوت؛ فليس بموحد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

تنبيه: -

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئاً من ذلك؛ لأن الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع؛ فلا نقول لمن أكل الربا: ملعون؛ لأنه قد يوجد مانع من حلول اللعنة عليه؛ كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركاً؛ فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيماناً واحتساباً؛ غفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين، إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباعه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصاً يتبرز في الطريق؛ فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: (اتقوا الملاعن) أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بالأدب مؤذياً للمسلمين؛ فهذا شيء آخر.

فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك؛ حتى نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هذا مشرك باعتبار ظاهر حاله.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله. فكل ما عبد من دون الله؛ فهو طاغوت، وقد عرفه ابن القيم: بأنه كل ما تجاوز به البعد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام، المحكمات؛ أي: التي ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود ﷺ.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء. وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الاسراء: من الآية٢٣)، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾، وختمها بقوله تعالى: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾. وقد نبهنا الله – سبحانه – على عظم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾. فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾، والقاعد ليس قائماً؛ لأنه لا خير لمن أشرك بالله، مذموماً عند الله وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ (الاسراء: من الآية٣٩)؛فهذه عقوبته عندما يلقى في النار كل يلومه ويدحره فيندحر والعياذ بالله.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة. بدأها بقوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾، فأحق الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به؛ فبدئت هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبي ﷺ حكيم بن حزام عمن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟ فقال النبي ﷺ: (أسلمت على ما أسلفت من الخير)؛ فدل على أنه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته. وذلك من حديث ابن مسعود ﷺ، ولكن النبي ﷺ لم يوص بها حقيقة، بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله: فلن نضل بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب الله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: من الآية١٥١).

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا. وذلك بأن نعبده ولا نشرك به شيئاً.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه. وذلك بأن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، أما من أشرك؛ فإنه حقيق أن يعذب.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة. وذلك أن معاذاً أخبر بها تأثماً، أي خروجاً من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثير من الصحابة؛ وكأنه ﷺ علم أن النبي ﷺ كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلوا، ولم يرد ﷺ كتمها مطلقاً؛ لأنه لو أراد ذلك لم يخبر بها معاذاً ولا غيره.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة. هذه ليست على إطلاقها؛ إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوز لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي ﷺ معاذاً ولم يكتم ذلك مطلقاً، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق؛ فجائز للمصلحة؛ كما كتم النبي ﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتكلوا عليه، وقال لمعاذ: (لا تبشرهم فيتكلوا).

ونظير هذا الحديث قوله ﷺ لأبي هريرة: (بشر الناس أن من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنّة)[1]

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره. لقوله: (أفلا أبشر الناس؟)، وهذه من أحسن الفوائد.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله. وذلك لقوله: (لا تبشرهم فيتكلوا)؛ لأن الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: (ينبغي أن يكون سائراً إلى الله بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه)، فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

وقال بعض العلماء: إن كان مريضاً غلب جانب الرجاء، وإن كان صحيحاً غلب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(المؤمنون: من الآية٦٠)؛ أي: خائفة أن لا يكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد، وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات الله.

وفي **قوله:** (أفلا أبشر الناس؟) دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسر من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى: ﴿وبشروه بغلامٍ عليم﴾ (الذاريات: ٢٨)، وهو إسحاق، والحليم

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

إسماعيل، وبشر النبي ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: (ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم)؛ فيؤخذ من أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خير كثير وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

وعليه؛ فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبي ﷺ: (لا يحدثني أحد عن أحد بشيء؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)[1].

وهذا الحديث فيه ضعف، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجل بسوء؛ فسيكون في قلبك عليه شيء ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لا تعلم عن سيئاته، ولا محذور في أن تتعامل معه؛ كان هذا طيباً، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعض قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقة تظهر للعاقل بالتأمل.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم، وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذاً لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ على معاذ، حيث عطف رسول الله ﷺ على الله بالواو، وأنكر على من قال: (ما شاء الله وشئت)، وقال: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده[2].

فيقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل، ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فيبينها لهم، ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض. وذلك لأن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض، حيث أن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم أفتتن، قال ابن مسعود: (إنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)، وقال علي: (حدثوا الناس بما يعرفون)، فيحدث كل أحد حسب مقدرته وفهمه وعقله.

---

[1] رواه أبو داود والترمذي واللفظ (لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر) . قال الألباني(ضعيف) انظر حديث رقم : ٦٣٢٢ في ضعيف الجامع .

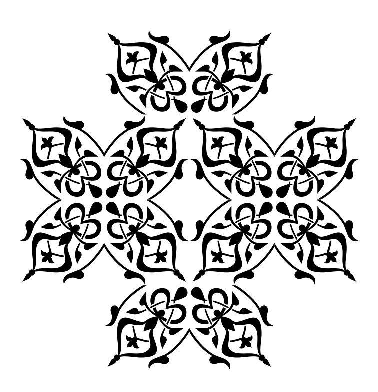
[2] حسن: أحمد(٢١٤/١، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، البخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، النسائي في (عمل اليوم والليلة) (٩٨٨)، ابن ماجة(٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه. النبي ﷺ أشرف الخلق جاهاً، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعاً، حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا في غاية التواضع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛ إذ إن من تواضع لله -عَزَّ وَجَلَّ- رفعه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة. وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذاً لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسالة. حيث أخبر النبي ﷺ معاذاً وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضي الله عنه. وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، واردفه معه على الحمار.



باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢)

(**ق**): سبق أن ذكر المؤلف كتاب التوحيد؛ أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بد منه، وأن معنى قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦]: أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد. وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره. ومن ذلك صلاة الجماعة ثبت فضلها بقوله ﷺ: "صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة". متفق عليه[1]. ولا يلزم من ثبوت الفضل فيها أن تكون غير واجبة؛ إذ إن التوحيد أوجب الواجبات، ولا تقبل الأعمال إلا به، ولا يتقرب العبد إلى ربه إلا به، ومع ذلك؛ ففيه فضل.

قوله: "وما يكفر من الذنوب". معطوف على "فضل"؛ فيكون المعنى: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلى هذا؛ فالعائد محذوف والتقدير ما يكفره من الذنوب، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب، لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

فمن فوائد التوحيد

١- أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة؛ لأن الموحد يعمل لله - سبحانه وتعالى -؛ وعليه، فهو يعمل سراً وعلانية، أما غير الموحد؛ كالمرائي مثلاً، فإنه يتصدق ويصلى، ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط، ولهذا قال بعض السلف: "إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو".

٢- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقول الله تعالى: ﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

قوله: ﴿لم يلبسوا﴾، أي: يخلطوا.

---

[1] البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب فضل صلاة الجماعة، ومسلم: كتاب المساجد/ باب فضل صلاة الجماعة

قوله: ﴿بظلمٍ﴾، الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: [ليس الأمر كما تظنون، إنما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح – يعني لقمان –: ﴿إن الشرك لظلمٌ عظيم﴾][1]. والظلم أنواع

١– أظلم الظلم، وهو الشرك في حق الله.

٢– ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣– ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم، حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟ الجواب: أنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصيةٌ؛ فالأمن أمنٌ مطلق، أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمانٍ – غير كامل –؛ فله مطلق الأمن؛ أي: أمن ناقص. مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، آمنٌ من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ١١٦]. وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم...﴾ إلى قوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]؛ فقال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم...﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]، على أنه قد يقول قائلٌ: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ [الأنعام ٨٣].

قوله: ﴿الأمن﴾، أل فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمن بأنه إما أمن مطلق، وإما مطلق أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿وهم مهتدون﴾، أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد كما قال الله تعالى في أصحاب الجحيم: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ [الصافات: ٢٢–٢٣]. والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة. فهذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم؛ فيكون مقابلها أن الذين آمنوا و لم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم. وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿أولئك لهم الأمن﴾: إن الأمن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامةٌ بالنسبة للأمن والهداية في الدنيا والآخرة.

(**ف**): **قال شيخ الإسلام**: والذي شق عليهم أنهم ظنوا أن الظالم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان

[1] البخاري: كتاب الإيمان/ باب ظلم دون ظلم، مسلم: كتاب الإيمان/ باب صدق الإيمان وإخلاصه.

من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: '٣٥: ٣٢' "ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير" وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[الزلزلة :٧- ٨] وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: يا أبا بكر ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به"[١]

فبين: أن المؤمن إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب. فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد. وظلمه لنفسه بما دون الشرك. كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق. بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى: وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة. ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه وليس مراد النبي ﷺ بقوله إنما هو الشرك أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام. فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام اللذين يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم. بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولابد لهم من دخول الجنة. وقوله إنما هو الشرك إن أراد الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإن كان مراده جنس الشرك. يقال ظلم العبد نفسه، كبخله لحب المال ببعض الواجب – هو شرك أصغر. وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله الشرك أصغر ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه. ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الشرك بهذا الاعتبار انتهى ملخصاً.

وقال ابن القيم رحمه الله: قوله: ﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ قال الصحابة: وأينا يا رسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: ذلك الشرك. ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه.

وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لم يكن آمناً ولا مهتدياً. أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك. وهذا والله هو الجواب، الذي يشفي العليل ويروي الغليل. فإن الظلم المطلق التام هو الشرك. الذي هو وضع العبادة في غير موضعها. والأمن والهدى المطلق: هما الأمن في الدنيا والآخرة.

[١] صحيح: أحمد (١١/١)، ابن حبان (١٧٣٤، ١٧٣٥ –موارد)، الحاكم في المستدرك(٧٤/٣) عن أبي بكر الصديق ﷺ .

والهدى إلى الصراط المستقيم. فالظلم المطلق التام رافع للأمن والاهتداء المطلق التام. ولا يمنع أن يكون الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمله. فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة أ.هـ.ملخصاً.

(**ق**): مناسبة الآية للترجمة: أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحدا؛ فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن.

عن عُبادةَ ﷺ عن النبيّ ﷺ قال: «مَن شهِدَ أن لا إلهَ إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ، وأنّ عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجنةُ حَقّ والنارُ حقّ، أدخَلَهُ الله الجنةَ على ما كانَ منَ العَملِ».أخرجاه[1]

(**ف**): قوله (عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. والجنة حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل). أخرجاه.

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء بدري مشهور مات بالرملة سنة أربع وثلاثين وله اثنتان وسبعون سنة، وقيل: عاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه.

قوله (من شهد أن لا إله إلا الله) أي من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، باطناً وظاهراً، فلابد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها، كما قال الله تعالى: '٤٧: ١٩'﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وقوله '٤٣: ٨٦' ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل: قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح – فغير نافع بالإجماع.

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم: باب لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب – هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان. وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها. ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعاً أ.هـ.

وفى هذا الحديث ما يدل على هذا. وهو قوله: من شهد فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

---

[1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة.

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد. فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها. فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم أ.هـ.

(ق): "من شهد أن لا اله إلا الله"، الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦]، وهذا العلم قد يكون مكتسباً وقد يكون غريزياً. فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزيٌ، قال ﷺ: "كل مولودٍ يولد على الفطرة"[1]. وقد يكون مكتسباً، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها. ولابد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: (أنْ)، مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأٌ، لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخفّفة يمكن حذفه.

قوله: (لا إله)، أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيماً، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: (إلا الله)، أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجابٌ﴾ [ص: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾ [هود: ١٠١]، فهذا التأله باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفيٌ شرعاً، وإذا انتفى شرعاً؛ فهو كالمنتفي وقوعاً؛ فلا قرار له، ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها قرار﴾ [إبراهيم: ٢٦]. وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ [هود: ١٠١]، وقوله تعالى حكايةً عن قريش: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ [ص: ٥]، وبين قوله تعالى: ﴿وما من إله إلا الله﴾ [آل عمران: ٦٢]؛ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معاني لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعاً، لا تستحق أن تسمى آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالى: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [يوسف: ٤٠].

التوحيد عند المتكلمين: يقولون: إن معنى إله: آله، والآله: القادر على الاختراع؛ فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله. والتوحيد عندهم: أن توحد الله، فتقول: هو واحد في ذاته، لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له، ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولآمنت به وصدقت؛ لأن قريشاً تقول: لا خالق إلا الله، ولا خالق أبلغ من كلمة لا قادر، لأن القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أما الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه،

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم: كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

فصار فهم المشركين خيراً من فهم هؤلاء المتكلمين والمنتسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى: ﴿ما لكم من إله غيره﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ أي من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله. ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكتاب الآن الذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية، لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوى هو نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر فيها هوى الإنسان على نفسه حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذي همه الدرهم والدينار ونحوهما عابداً، وقال الله - ﷻ -: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣]. فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص:

فتنقسم إلى أنواع: ١- شرك أكبر. ٢- شرك أصغر. ٣- معصية كبيرة. ٤- معصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق. وتحقيق لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: "كل معصية، فهي نوع من الشرك". وقال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص"، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يجاهد نفسه على الإخلاص، ولهذا قيل لابن عباس: "إنّ اليهود يقولون: نحن لا نوسوس في الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خرب؟!"؛ فالشيطان لا يأتي ليخرّب المهدوم، ولكن يأتي ليخرّب المعمور، ولهذا لما شُكي إلى النبي ﷺ أن الرجل يجد في نفسه ما يستعظم أن يتكلم به؛ قال: "وجدتم ذلك؟". قالوا: نعم. قال: "ذاك صريح الإيمان"[1]؛ أي: أن ذاك هو العلامة البينة على أنّ إيمانكم صريح لأنّه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

قوله: "من شهد أن لا إله إلا الله"، من: شرطية، وجواب الشرط: "أدخله الله الجنة على ما كان من العمل". والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نشهد إنّك لرسول الله﴾ [المنافقون: ١] وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: ١]؛ فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنه خالٍ من الاعتقاد بالقلب، وخالٍ من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

[1] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الوسوسة في الإيمان.

وقوله: "لا إله إلا الله"، أي: لا معبود على وجه يستحق أن يعبد إلا الله، وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: (وحده لا شريك له)، وحده: توكيد للإثبات، لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. ولهذا كان النبي ﷺ وغيره من المؤمنين يلجئون إلى الله تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ وعنده أصحابه، وقد علق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ قال: "يمنعك الله"[1]، ولم يقل أصحابي، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذي يملك النفع، والضر، والخلق، والتدبير، والتصرف في الملك؛ إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النافين للصفات؛ لأن النافين للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله – عز وجل –، حيث قالوا؛ يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

(**ف**): قال تعالى: '٢: ١٦٣'﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ وقال: '٢١: ٢٥' ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال: '٧: ٦٥' ﴿والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فأجابوه رداً عليه بقولهم: ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ وقال تعالى: '٢٢: ٦٢' ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾.

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله، وهي العبادة. وإثباتها لله وحده لا شريك له، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل رغباً ورهباً، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم في أدلة هذا الباب وما قبله. فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نداً، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

(ذكر كلام العلماء، في معنى لا إله إلا الله)

قد تقدم كلام ابن عباس، وقال الوزير أبو المظفر في الإفصاح: قوله: شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: "فاعلم أنه لا إله إلا الله" قال: واسم (الله) بعد (إلا) من حيث أنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه. قال: وجملة الفائدة في ذلك: أن تعلم

[1] البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة ذات الرقاع، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين/ باب صلاة الخوف.

أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم في البدائع رداً لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المستثنى منه. قال ابن القيم: بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه، فلا يكون داخلاً في المستثنى، إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله: لا إله إلا الله لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباها له بوصف الاختصاص. فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة. انتهى بمعناه.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (لا إله إلا الله) أي لا معبود إلا هو. وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس. كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد. وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تأله القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقال ابن القيم: (الإله) هو الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً وإنابة، وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاء وتوكلاً.

وقال ابن رجب: (الإله) هو الذي يطاع فلا يعصى، هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاء، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح هذا كله إلا الله ﷻ، فمن أشرك مخلوقاً في شيئ من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول (لا إله إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أي انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطيبي: (الإله) فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلهة أي عبد عبادة. قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم.

فدلت (لا إله إلا ﷲ) على نفي الإلهية عن كل ما سوى ﷲ تعالى كائناً ما كان، وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: '٧٢: ١' ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ فلا إله إلا ﷲ لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك وقبله وعمل به. وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب.

فقوله في الحديث وحده لا شريك له تأكيد وبيان لمضمون معناها. وقد أوضح ﷲ ذلك وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين، فما أجهل عباد القبور بحالهم ! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص لا إله إلا ﷲ ! فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا ﷲ لفظاً ومعنى. وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير ﷲ بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير ﷲ تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً لهم من ﷲ، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى '٢٩: ٦٥' ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا ﷲ مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ الآية. فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم.

(**ق**): **قوله:** (وأن محمداً)، a: هو a بن عبد ﷲ بن عبد المطلب القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين.

(**ف**): أي وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل.

(**ق**): **وقوله:** (عبده)؛ أي: ليس شريكاً مع ﷲ.

(**ف**): ومعنى العبد هنا المملوك العابد، أي أنه مملوك لله تعالى. والعبودية الخاصة وصفه، كما قال تعالى: '٣٩: ٢٦' ﴿أليس ﷲ بكاف عبده﴾ فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة فالنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلهية فهما حق ﷲ تعالى، لا يشركه في شيئ منهما ملك مقرب ولا نبي مرسل.

(**ق**): **وقوله:** (ورسوله)؛ أي: المبعوث بما أوحي إليه؛ فليس كاذباً على ﷲ.

فالرسول ﷺ عبد مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئاً واحداً، وهو ما يعود إلى أسافل الأخلاق؛ فهو متره معصوم منه، قال تعالى ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ ﷲ ﴾

(الأعراف: من الآية١٨٨)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ (الجـن: ٢١، ٢٢).

فهو بشر مثلنا؛ إلا أنه يوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(فصلت: من الآية٦)،

ومن قال: إن الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشى في الشمس؛ فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: (كنت أمد رجلي بين يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح)، فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضي الله عنها، ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيري في (البردة) المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ بـه	**سواك عند حلول الحادث العمم**
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يـدي	**فضلاً وإلا فقل يا زلة القـدم**
فإن جودك الدنيا وضرتها	**ومن علومك علم اللوح والقلـم**

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمداً عبد الله، بل شهد أن محمداً فوق الله ! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد؟!.

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: (من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني)[1]، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلى التالي (المخرف) كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأن الرسول ﷺ حضر مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالاً لـه، والصحابة رضي الله عنهم أشد إجلالاً منهم ومناً، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهـو حـي يكلمهم لا يقومون له، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شبح إن كانوا يشاهدون شيئاً؛ فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد ! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبد الله ورسـوله، وهـؤلاء المخرفـون مساكين، ، إن نظرنا إليهم بعين القدر، فنرق لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، إن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننابذهم بالحجة حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشد الناس عبودية لله، أخشاهم لله، وأتقاهم لله، قام يصلى حتى تورمت قدماه، وقيل له في ذلك؛ فقال: (أفلا أكون عبـداً شكوراً)[2] وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا تحقيق العبادة العظيمة، أما الرسالة؛ فهو رسـول أرسله الله – عز وجل – بأعظم شريعة إلى جميع الخلق، فبلغها غاية البلاغ، مع أنه أوذي وقوتل، حتى إنهم

[1] البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء/باب الحث على ذكر الله تعالى.

[2] البخاري: كتاب التهجد/باب قيام النبي ﷺ حتى تورم قدماه، ومسلم: كتاب صفات المنافقين/باب إكثار الأعمال.

جاءوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهية له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذى والأنتان والأقذار على عتبة بابه، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله – عز وجل –؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: (أي جوار هذا يا بني عبد مناف؟)، فصبر ﷺ؛ حتى فتح الله عليه، وأنذر أم القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانة وأقواهم على الإتباع؛ الصحابة رضي الله عنهم، وأدوها إلى الأمة نقية سليمة، ولله الحمد.

ونحب الرسول ﷺ لله وفي الله؛ فحب الرسول ﷺ من حب الله ونقدمه على أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ. ونحقق شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبق ذلك في متابعته ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهدية،ولا نعمل له.

(**ف**): فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائناً من كان. والواقع اليوم وقبله – ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين – خلاف ذلك، والله المستعان. وروى الدارمي في مسنده عن "عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه كان يقول: إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يقيم الملة المتعوجة بأن يشهد أن لا إله إلا الله، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً" قال عطاء بن يسار: وأخبرني أبو واقد الليثي أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام[1].

(ق): أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة؛ فهو:

١ــ فعل المعاصي؛ فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة؛ لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

٢ــ الابتداع في الدين ما ليس منه؛ لأنك تقربت إلى الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله؛ لأنك تقربت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلى الله بهذا العمل الذي ابتدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نخطئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردوه ليبقوا جاههم؛ ففيهم شبه بأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاء على رئاستهم وجاههم.

أما بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة فينقسمون إلى قسمين:

[1] صحيح : الدارمي (١/١٤)، والآجري في (الشريعة برقم ٤٤٩).

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئاً، و لم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنوا أن ما هم عليه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القسم الثاني: من علموا الحق، ولكنهم ردوه تعصباً لأئمتهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: من الآية٢٢).

قوله: (وأن عيسى عبد الله ورسوله)، الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمداً رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ــ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: من الآية٩٠).

٢ــ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: من الآية١١١).

وقد تطرف في عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذبوه، فقالوا: بأنه ولد زنى، وان أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعاً؛ أي: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعي؛ لقوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (النساء: من الآية١٥٧)، وأما بالنسبة لحكم الله القدري؛ فقد كذبوا، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، ولكن شبه لهم، فقتلوا المشبه لهم وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إنه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهاً مع الله، وكذبوا فيما قالوا.أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبدالله ورسوله، وأن أمه صديقة؛ كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفي قوله: (عبدالله)، رد على النصارى.

وفي قوله: (ورسوله)، رد على اليهود.

قوله: (وكلمته ألقاها إلى مريم)، أطلق الله كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛ فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال

البشرية قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ إن كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أما عيسى؛ فهو ذات بائنة عن الله – سبحانه –، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.

قوله: (ألقاها إلى مريم)، أي: وجهها إليها بقوله: ﴿كن فيكون﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم[1]؛ فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى.

قوله: (وروح منه)، أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

و عيسى عليه السلام ليس روحا، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة: من الآية٧٥)

فبالنفخ صار جسدا، وبالروح صار جسدا وروحا.

قوله: (منه) هذه هي التي أضلت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله فضلوا وأضلوا كثيرا، ولكننا نقول: إن الله قد أعمى بصائركم؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضا أن اليهود يقولون إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدعى أنه قتل وصلب؟

وعلى هذا تكون (من) للابتداء، وليست للتبعيض؛ فهي كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾(الجاثية: من الآية١٣)؛ فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزءاً من الله، وهذا لم يقل به أحد. فقوله: "منه"؛ أي: روح صادرة من عز وجل - الله –، وليست جزءاً من الله كما تزعم النصارى.

واعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣)، وقوله تعالى: ﴿إن أرضي واسعة﴾ (العنكبوت: ٥٦).

---

[1] مسلم: كتاب الآداب/باب النهي عن التكني بأبي القاسم وما يستحب من الأسماء.

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه؛ كقوله تعالى: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ (الحج ٢٦) وكقوله تعالى: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ (الشمس: ١٣)، وهذا القسم مخلوق

الثاني: أن يكون شيئا مضافا إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالى: ﴿وروح منه﴾ (النساء: ١٧١)؛ فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفا؛ فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءاً أو روحا من الله؛ إذ أن هذه الروح حلت في عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضا.

الثالث: أن يكون وصفا غير مضاف إلى عين مخلوقة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ (الأعراف: من الآية١٤٤)، فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة؛ فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق؛ لأنه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقه.

وقد اجتمع القسمان في قوله: (كلمته، وروح منه)؛فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا؛ فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين؛ لأن الروح حلت في عيسى؛ فهي مخلوقة.

(**ف**): قال شيخ الإسلام: المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب. وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره.

لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله. فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره. وكما يقال في مال الخمس والفيء: هو مال الله ورسوله. ومن هذا الوجه: فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره. فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. ا. هـ ملخصاً.

قوله: (والجنة حق والنار حق) أي وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعدها للمتقين حق، أي ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك

ثابتة، كما قال تعالى: '٥٧: ٢١' ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقال تعالى: '٢: ٢٤'﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ وفي الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافا للمبتدعة. وفيهما الإيمان بالمعاد.

(**ق**): **قوله:** "أدخله الله الجنة" إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين: الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل. الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل. فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذّبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذّبه، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ١١٦].

(**ف**): **وقوله:** (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) هذه الجملة جواب الشرط وفي رواية: أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء. قال الحافظ: معنى قوله: على ما كان من العمل أي من صلاح أو فساد، لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: على ما كان من العمل أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات.

قال القاضي عياض: ما ورد في حديث عبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة.

(**تم**): مناسبة هذا الحديث للباب قوله: (على ما كان من العمل) وقوله: "على ما كان" يعني على الذي كان عليه من العمل، ولو كان مقصرا في العمل، وعنده ذنوب وعصيان، فإن لتوحيده لله وشهادته لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة، ولعيسى بأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وإقراره بالغيب وبالبعث، إن لذلك فضلاً عظيماً، وهو أن يدخله الله الجنة، ولو كان مقصرا في العمل، فهذا الحديث فيه بيان فضل التوحيد على أهله.

ولهما في حديث عِتْبَانَ «فَإِنّ اللهَ قَدْ حَرّمَ عَلَى النّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

(**ف**): **قوله:** (ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما بكماله.وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان.

وعتبان بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة، ابن مالك بن عمرة بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف، صحابي مشهور، مات في خلافة معاوية.

(ق): كان يصلي بقومه، فضعف بصره، وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلي في مكان من بيته ليتخذه مصلى، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: "أين تريد أن أصلي؟". قال: صل ها هنا. وأشار إلى ناحية من البيت، فصلى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق. فقال رسول الله ﷺ: "لا تقل هكذا؛ أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!". ثم قال: "فإن الله حرم على النار..." الحديث. فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عما في قلبه؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، و لم يبرئ الرجل، إنّما أتى بعبارة عامة بأن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عباد الله الذي ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك؛ لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ فكثير من الناس نظن بهم سوءً، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: "فإن الله حرم على النار"، أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

قوله: "من قال: لا إله إلا الله"، أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: "يبتغي بذلك وجه الله"، أي: يطلب وجه الله، ومن طلب وجهاً؛ فلا بد أن يعمل كل ما في وسعه للوصول إليه؛ لأن مبتغي الشيء يسعى في الوصول إليه، وعليه؛ فلا نحتاج إلى قول الزهري رحمه الله بعد أن ساق الحديث؛ كما في "صحيح مسلم" [1]، حيث قال: "ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحُرّمت أمور؛ فلا يغتر مغترٌ بهذا"؛ فالحديث واضح الدلالة على شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا الله، حيث قال: "يبتغي بذلك وجه الله".

قال شيخ الإسلام: إنّ المبتغي لا بد أن يكمّل وسائل البغية، وإذا أكملها حرمت عليه النار تحريماً مطلقاً، وإن أتى بالحسنات على الوجه الأكمل؛ فإنّ النار تحرم عليه تحريماً مطلقاً، وإن أتى بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنعه ما معه من التوحيد من الخلود في النار، وكذا من زنى، أو شرب الخمر، أو سرق، فإذا فعل شيئاً من ذلك ثم قال حين فعله: أشهد أن لا إله إلا الله ابتغي بذلك وجه الله؛ فهو كاذب في زعمه؛ لأن النبي ﷺ قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"[2]، فضلاً عن أن يكون مبتغياً وجه الله. وفي الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يقولون: يكفي

---

[1] مسلم: كتاب المساجد/ باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر.

[2] الإمام أحمد في "المسند" ٢٤٢/٥، والهيثمي في "المجمع" ١٦/١، والخطيب في "المشكاة" ٩١/١، قال الهيثمي: "رواه أحمد والبزار وفيه انقطاع"، وضعفه الألباني في "الضعيفة" ٤٧٧/٣.

قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله. وفيه ردٌّ على الخوارج والمعتزلة؛ لأن ظاهر الحديث أن من فعل هذه المحرمات لا يخلد في النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار.

(**تم**): فوجه الشاهد-إذاً- من الحديث للباب أن هذه الكلمة، وهي كلمة التوحيد، لما ابتغى بها صاحبها وجه الله، وأتى بشروطها وبلوازمها تفضل الله عليه، وأعطاه ما يستحقه من أنه حرم عليه النار، وهذا فضل عظيم، نسأل الله -جل وعلا- أن يجعلنا من أهله.

(**ف**): وأخرج البخاري في صحيحه بسنده "عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ، قال لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثاً - قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار، قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذاً يتكلوا، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً ". وساق بسند آخر: "حدثنا معتمر قال: سمعت أبي، قال: سمعت أنساً قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ ابن جبل: من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة. قال: ألا أبشر الناس؟ قال: لا، إني أخاف أن يتكلوا ".

قلت: فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص.

قال شيخ الإسلام وغيره: في هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله: خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه "يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة" وتواترت بأن كثيراً ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، و لم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه. وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث "سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته"[1] وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: '٤٣: ٢٣' ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾.

[1] صحيح: أحمد(١٣٩/٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ابن ماجة (٤٢٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيئ، فإذاً لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله. وهذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا تترك له ذنباً إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيئ من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار. وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر ولكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مصراً على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بالآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك بل يقولونها من غير يقين وصدق ويحيون على ذلك، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة. فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غير الله، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث، ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقه عمله.

قال الحسن: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال)[1]. فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه.

وقال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه.

---

[1] أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٥٢٣٢) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٨٠): موضوع.

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوباً، وكان صادقاً في قولها موقناً بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته. والذين يدخلون النار ممن يقولها: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات فترجح سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصاً.

وقد ذكر هذا كثير من العلماء كابن القيم وابن رجب وغيرهم.

قلت: وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث.

قال: وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس، وفي تحريم النار على أهل التوحيد الكامل وفيه إن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله ﷺ.

(تنبيه): قال القرطبي في تذكرته: قوله في الحديث (من إيمان) أي من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان، والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه، ولم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والإخلاص بقول لا إله إلا الله ما في الحديث نفسه من قوله أخرجوا – ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط يريد بذلك التوحيد المجرد من الأعمال أ.هـ.ملخصاً من شرح سنن ابن ماجة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى: يا رب علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى لا إلَه إلا الله، قال موسى: يا رب كل عبادك يقول هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إلَه إلا الله في كفة مالت بهنّ لا إلَه إلا الله. رواه ابن حبان والحاكم وصححه.[1]

(**ف**): قال المصنف رحمه الله (وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله رواه ابن حبان والحاكم وصححه).

أبو سعيد: اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل وأبوه كذلك، استصغر أبو سعيد بأحد وشهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين وقيل سنة أربع وسبعين.

(**ق**): **قوله:** "أذكرك وأدعوك به"، صفة لشيء، وليست جواب الطلب؛ فموسى عليه السلام طلب شيئاً يحصل به **أمران:**

١- ذكر الله. ٢- دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: "قل لا إله إلا الله"، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته إذاً؛ فهو متضمن للدعاء، قال الشاعر: أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء. يعني: عطاؤك. واستشهد ابن عباس على أن الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يوماً كفاه من تعرضه الثناء

(**ف**): قوله (قل يا موسى لا إله إلا الله) فيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على (هو) كما يفعله غلاة جهال المتصوفة، فإن ذلك بدعة وضلال.

قوله: (كل عبادك يقولون هذا) ثبت بخط المصنف بالجمع، والذي في الأصول يقول بالإفراد مراعاة للفظة كل وهو في المسند من حديث عبد الله بن عمر بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى كل

---

[1] ابن حبان (٢٣٢٤)، والحاكم (٥٢٨/١) – وصححه ووافقه الذهبي –، وقال الحافظ في "الفتح": أخرجه النسائي بسند صحيح. قال الألباني في تحقيقه لكتاب : (كلمة الإخلاص وتحقيق معناها) للحافظ ابن رجب الحنبلي، (ضعيف).

ومعنى قوله كل عبادك يقولون هذا أي إنما أريد شيئاً تخصني به من بين عموم عبادك، وفي رواية بعد قوله كل عبادك يقولون هذا - قل لا إله إلا الله، قال لا إله إلا أنت يا رب، إنما أريد شيئاً تخصني به.

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى. والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة.

(**ق**): **قوله:** "كل عبادك يقولون هذا"، ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظَم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعة؛ فبين الله لموسى أنه مهما أعطي فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأنّ لا إله إلا الله أعظم من السماوات والأرض وما فيهن؛ لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظَمها، لكن لابد من الإتيان بشروطها، أما مجرد أن يقولها القائل بلسانه؛ فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئاً؛ لأنّه لم يقلها على الوجه الذي تمت به الشروط وانتفت به الموانع.

قوله: "والأرضين السبع"، في بعض النسخ بالرفع، وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف على اسم أنّ قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: "مالت"، أي: رجحت حتى يملن.

قوله: "عامرهن"، أي: ساكنهن، فالعامر للشيء هو الذي عمر به الشيء.

قوله: "غيري"، استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأن قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء؛ فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء؛ لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانٌّ أن السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظل لهم، أما بالنسبة لله؛ فهي جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يقله شيء من خلقه.

(**تم**): أن قوله: (وعامرهن غيري) راجع إلى عمارة السماء بصفات الله -جل وعلا- وبما يستحقه سبحانه من التأله والعبودية، وما فيها من علم الله ورحمته وقدرته وتصريفه للأمر وتدبيره ونحو ذلك من المعاني.

(**ف**): قوله (وعامرهن غيري) هو بالنصب عطف على السموات، أي لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى، والأرضين السبع ومن فيهن، وضعوا في كفة الميزان ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن "عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله".

قوله: (في كفة) هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أي كفة الميزان.

(**تم**): - والأرضين السبع في كفة- يعني لو تمثلت السماوات والأرضون أجساما- ووضع الجميع في ميزان له كفتان وجاءت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لمالت بهن لا إله إلا الله.

فلا إله إلا الله كلمة توحيد فيها ثقل لميزان من قالها، وعظم في الفضل لمن اعتقدها، وما دلت عليه؛ فلهذا قال: (مالت بهن لا إله إلا الله).

(**ف**): **قوله:** (مالت بهن) أي رجحت. وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال. وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيئ، كما قال الله تعالى: '٤٦: ١٣' ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

ودل الحديث على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر. كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيئ قدير[1] رواه أحمد والترمذي.

(**تم**): وجه الدلالة أنه لو تصور أن ذنوب العبد بلغت ثقل السماوات السبع وثقل ما فيها من العباد والملائكة وثقل الأرض، لكانت لا إله إلا الله مائلة بذلك الثقل من الذنوب، وهذا هو الذي دل عليه حديث البطاقة حيث جعل على أحد العصاة سجلات عظيمة (فقيل له: هل لك من عمل؟ فقال: لا؟ فقيل له: بلى ثم أخرجت له بطاقة فيها لا إله إلا الله فوضعت في الكفة الأخرى فطاشت سجلات الذنوب وثقلت البطاقة).

وهذا الفضل العظيم لكلمة التوحيد إنما هو لمن قويت في قلبه، ذلك أنها في قلب بعض العباد تكون قوية؛ لأنه مخلص فيها مُصَدِّق لا ريب عنده فيما دلت عليه، معتقد ما فيها محب لما دلت عليه فيقوى أثرها ونورها في القلب، فإذا كان كذلك فإنها تحرق ما يقابلها من الذنوب.

وأما من لم يكن من أهل تمام الإخلاص فيها، فإنه لا تطيش له سجلات الذنوب، فيكون هذا الحديث وحديث البطاقة يدلان على أن لا إله إلا الله لا يقابلها ذنب، ولا تقابلها خطيئة، لكن هذا في حق من

---

[1] الترمذي :كتاب الدعوات (٣٥٨٥): باب في دعاء يوم عرفة ،وحسنه الألباني لشواهده في الصحيحة (١٥٠٣)والحديث ليس في مسند أحمد كما عزاه المؤلف وإنما الذي عنده (٢/٢١٠) عن ان عمرو "كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ يوم عرفة :لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير ".

كملها وحققها بحيث لم يخالط قلبه في معناها ريب، ولا تردد ومعناها مشتمل على الربوبية بالتضمن وعلى الأسماء والصفات باللزوم، وعلى الإلهية بالمطابقة، فيكون من ينتفع بهذه الكلمة على وجه الكمال ولو بلغت ذنوبه ما بلغت، وكانت سجلاته كثقل السموات والأرضين السبع هو الذي كمل ما دلت عليه من التوحيد، وهذا معنى هذا الحديث، وحديث البطاقة، وهذا أيضا هو الذي دل عليه الحديث الآخر الوارد في الباب نفسه عن أنس.

وهذا أيضا هو الذي دل عليه الحديث الآخر الوارد في الباب نفسه عن أنس.

(**ف**): قال ابن القيم رحمه الله: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مدى البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

قوله: (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان اسمه a بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ، أبو حاتم التميمي البستي الحافظ صاحب التصانيف: كالصحيح، والتاريخ، والضعفاء، والثقات وغير ذلك. قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست - بضم الموحدة وسكون المهملة.

وأما الحاكم فاسمه a بن عبد الله بن a النيسابوري أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البيع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف، كالمستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

وللترمذي - وحسنه - عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى:

((يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة))[1]

(**ف**) :قال المصنف رحمه الله (وللترمذي - وحسنه - عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة).

[1] صححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٠٥) وكذلك في (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٢٧ و ١٢٨ ، الروض النضير ٤٣٢ ، المشكاة ٤٣٣٦ التحقيق الثاني التعليق الرغيب)

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال: "عن أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا بن آدم، إنك لو أتيتني – الحديث ".

الترمذي: اسمه a بن عيسى بن سَورة – بفتح المهملة – بن موسى بن الضحاك السلمي أبو عيسى، صاحب الجامع وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهناد والبخاري وخلق. مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

وأنس: هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين، وقال له: اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة مات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة.

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وهذا لفظه "ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي جعلت له مثلها مغفرة" ورواه مسلم، وأخرجه الطبراني[1] من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ.

(ق): قال الله تعالى: يا ابن آدم..." إلخ. هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله– عز وجل –**وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟ على قولين:**

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لاسيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانةً وأوثقهم روايةً.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظاً ومعنىً؛ لكان أعلى سنداً من القرآن، لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السياق، أما القرآن، فترل على النبي ﷺ بواسطة جبريل؛ كما قال تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﴿نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

---

[1] قال الشيخ الألباني : (صحيح) انظر حديث رقم : ٨١٤١ في صحيح الجامع.

الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله، لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية، فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئاً منها مدعياً أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ. وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى الله، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنىً لا لفظاً؛ كما في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنىً لا لفظاً، كما في "قصص الأنبياء" وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً. وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة في كلام الله تعالى؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى؛ فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى، لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى، فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه وليس بحرف وصوت، ولكن الله تعالى يخلق صوتاً يعبر به عن المعنى القائم بنفسه، ولا شك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة، لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام

الله وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام، فقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا – الكلام في الحديث القدسي –: إن الأولى ترك الخوض في هذا؛ خوفاً من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافياً، ولعله أسلم والله أعلم.

(فائدة): إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سمي(قدسياً)؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سمي مرفوعاً، وإذا انتهى إلى الصحابي سمي موقوفاً، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سمي مقطوعاً.

قوله: "بقراب الأرض"، أي: ما يقاربها؛ إما ملئاً، أو ثقلاً، أو حجماً.

قوله: "خطايا"، جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾ [البقرة: ٨١].

قوله: "لا تشرك بي شيئاً" جملة "لا تشرك" في موضع نصب على الحال في التاء، أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئاً.

قوله: "شيئاً" نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا شركاً أصغر ولا أكبر. وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري؛ فحب المال مثلاً بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراك، قال النبي ﷺ: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة...." الحديث[1]. فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه سماه: عبداً له.

قوله: "لأتيتك بقرابها مغفرة"، أي: أن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

(ف): **قال ابن رجب**: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة –إلى أن قال – فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أعقب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله: محبة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زبد البحر أ.هـ.ملخصاً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى الحديث: ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك. فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبته ربه بقراب الأرض

[1] البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث (٢٨٨٧).

خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده. فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شـــرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غســـل الذنوب ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوى. أ.هـــ.

وفى هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته والرد علـــى الخـــوارج الـــذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمترلة بين المترلتين، وهي الفسوق، ويقولون ليس بمؤمن ولا كافر، ويخلد في النار. والصواب قول أهل السنة: أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان، ولا يعطـــاه علـــى الإطلاق، بل يقال هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتـــاب والســـنة وإجماع سلف الأمة. و"عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى، فأعطي ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً: المقحمات " رواه مسلم.

قال المصنف رحمه الله: (تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله: لا إله إلا الله وتبين لك خطأ المغرورين).

وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقـــات، مـــع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه. وفيه إثبات الصفات خلافاً للمعطلة. وفيه أنك إذا عرفت حـــديث أنـــس وقوله في "حديث عتبان إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله " تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط.

(**تتم**): ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة، وهي أنه ممن أتى بذنوب عظيمة، ولـــو كانـــت كقـــراب الأرض خطايا يعني كعظم وقدر الأرض خطايا، ولكنه لقي الله لا يشرك به شيئا لأتى الله ذلك العبد بمقدار تلك الخطايا مغفرة، وهذا لأجل فضل التوحيد، وعظم فضل الله -جل وعلا- على عباده بـــأن هداهم إليه ثم أثابهم عليه.

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: (لا إله إلا الله) وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله) أنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: (على ما كان من العمل).

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

(**ق**): فيه مسائل

الأولى: "سعة فضل الله"، لقوله: "أدخله الله الجنة على ما كان من العمل".

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله، لقوله: "مالت بهن لا إله إلا الله".

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب، لقوله: "لأتيتك بقرابها مغفرة"؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بالظلم﴾؛ فالظلم هنا الشّرك، لقوله ﷺ: "ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾"[1].

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة:

١ - ٢ - الشهادتان.

٣ - أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

٤ - أن الجنة حق.

٥ - أن النار حق.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس؛ تبين لك معنى قوله: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين، لأنّه لا بد أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلابد أن تحمل المرء على العمل الصالح.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان، وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها و لم تنفعهم.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله، فغيرهم من باب أولى.

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (لقمان: من الآية١٢) حديث.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنه قد يكون اختل شرطٌ من الشروط؛ أو وجد مانع من الموانع؛ فإنها تخف بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسماوات، لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحاً أن السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿قل من رب السماوات السبع﴾ [المؤمنون: ٨٦]، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد. أما السنة؛ فهي صريحة جداً بأنها سبع؛ مثل قوله ﷺ: "من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين"[1] وقد اختلف في قوله ﷺ: "من سبع أرضين"؛ كيف تكون سبعاً؟ فقيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحيح؛ لأن هذا يمتنع بالنسبة لقوله: "طوقه من سبع أرضين"، وقيل: المراد المجموعة الشمسية، لكن ظاهر النصوص أنها طباق كالسماوات، وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأرضين؛ لأننا لا نعرفها.

الحادية عشرة: أن لهن عماراً، أي: السماوات، وعمارهن الملائكة.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية، وفي بعض النسخ خلافاً للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنها أعم، حيث تشمل الأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم؛ ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: "يبتغي وجه اللَّهِ"، وإثبات الكلام بقوله: "وكلمته ألقاها"، وإثبات القول في قوله: "قل لا إله إلا اللَّهُ".

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس؛ عرفت أن قوله في حديث عتبان: "فإن اللَّهَ حرم على النار من قال: لا إله إلا اللَّهُ يبتغي بذلك وجه اللَّهِ" أن ترك الشرك. وفي بعض النسخ: إذا ترك الشرك. أي: أن قوله: "حرم على النار من قال: لا إله إلا اللَّهُ يبتغي بذلك (يعني: ترك الشرك)"، وليس مجرد قولها باللسان؛ لأن من ابتغى وجه اللَّهِ في هذا القول لا يمكن أن يشرك أبداً.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كل من عيسى ومحمد عبدي اللَّهِ ورسوليه. عبدي: منصوب على أنه خبر كون؛ لأن كون مصدر كان وتعمل عملها.

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجميع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

---

[1] البخاري بلفظ "من ظلم قيد شبر....": كتاب المظالم/ باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، ومسلم: كتاب المساقاة/باب تحريم الظلم وغصب الأرض.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل a، وأنه عبد ورسول، وليس رباً ولا ابناً للرب -سبحانه- وقول المؤلف: "تأمل"؛ لأن هذا يحتاج إلى تأمل.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله، أي: أن عيسى انفرد عن a في أصل الخلقة؛ فقد كان بكلمة، أما a ﷺ؛ فقد خلق من ماء أبيه.

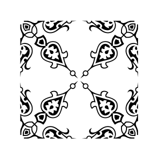
السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه، أي: أن عيسى روح من الله، و"من" هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قبل الله وليست بعضاً من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار، لقوله في حديث عبادة: "وأن الجنة حق، والنار حق"، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: "على ما كان من العمل"، أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قل، أو على ما كان من العمل السيئ ولو كثر، بشرط أن لا يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل. ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج، ولم تذكر أركان الإسلام هنا؛ لأن منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإن الصحيح أنه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روي عن الإمام أحمد أن جميع أركان الإسلام يكفر بتركها، لكن الصحيح خلاف ذلك.

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان، أخذها المؤلف من قوله: "لو أن السماوات.... إلخ، وضعت في كفّة ولا إله إلا الله في كفة"، والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل، يعني أن قول: لا إله إلا الله أرجح من كل شيء، وليس في الحديث أن هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

العشرون: معرفة ذكر الوجه، يعني: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأن من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالى أبعاض؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله -تعالى الله-.



باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

(**ق**): هذا الباب كالمتمم للباب الذي قبله؛ لأن الذي قبله: "باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب"، فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قوله: "من"، شرطية، وفعل الشرط: "حقق"، وجوابه: "دخل".

قوله: "بلا حساب"؛ أي: لا يحاسب لا على المعاصي ولا على غيرها. وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئاً قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [a: ١٩].

الثاني: الاعتقاد، فإذا علمت و لم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾. [ص: ٥]؛ فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت و لم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون۝ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]. فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأن هذا حكاية حكم ثابت شرعاً، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك في الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله. أما بالنسبة للرجل المعين؛ فإننا نقول: إن شاء الله. وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين، ومناسبتهما للباب الإشارة إلى تحقيق التوحيد، وأنه لا يكون إلا بانتفاء الشرك كله.

(**تم**): وهذا الباب أرفع رتبة من بيان فضل التوحيد، فإن فضل التوحيد يشترك فيه أهله، وأهل التوحيد هم أهل الإسلام، ولا شك أن لكل مسلم نصيب من التوحيد فيكون له تبعاً لذلك نصيب من فضل التوحيد وتكفير الذنوب.

أما خاصة هذه الأمة فهم الذين حققوا التوحيد؛ ولهذا عطف هذا الباب على ما قبله ؛ لأنه أخص، وتحقيق التوحيد هو مدار هذا الباب، وتحقيقه بمعنى تحقيق الشهادتين لا إله إلا الله a رسول الله.

ومعنى تحقيق الشهادتين تصفية الدين من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فصار تحقيق التوحيد يرجع إلى ثلاثة أشياء:

الأول: ترك الشرك بأنواعه الأكبر والأصغر والخفي.

والثاني: ترك البدع بأنواعها.

والثالث: ترك المعاصي بأنواعها.

فيكون تحقيق التوحيد على هذا على درجتين: درجة واجبة ودرجة مستحبة، وعليها يكون الذين حققوا التوحيد على درجتين أيضا، فالدرجة الواجبة أن يترك ما يجب تركه من الأشياء الثلاث التي ذكرت فيترك الشرك خفيه وجليه صغيره وكبيره، ويترك البدع، ويترك المعاصي هذه درجة واجبة.

والدرجة المستحبة في تحقيق التوحيد، وهي التي يتفاضل فيها الناس من المحققين للتوحيد أعظم تفاضل، هي ألا يكون في القلب شيء من التوجه أو القصد لغير الله -جل وعلا- يعني: أن يكون القلب متوجها إلى الله بكليته ليس فيه إلتفات إلى غير الله، فيكون نطقه لله وفعله وعمله لله، بل وحركة قلبه لله -جل جلاله-.

وقد عبر عنها بعض أهل العلم أعني: هذه الدرجة المستحبة أن يترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس، يعني في مجال أعمال القلوب وأعمال اللسان وأعمال الجوارح.

فإذا رجع تحقيق التوحيد الذي هذا فضله، وهو أن يدخل أهله الجنة بغير حساب ولا عذاب، رجع إلى تينك المرتبتين، وتحقيقه تحقيق الشهادتين "لا إله إلا الله، a رسول الله"؛ لأن في قوله: "لا إله إلا الله" الإتيان بالتوحيد، والبعد عن الشرك بأنواعه؛ ولأن في قوله: "أشهد أن محمدا رسول الله" البعد عن المعصية، والبعد عن البدع؛ لأن مقتضى الشهادة بأن محمدا رسول الله: أن يطاع فيما أمر، وأن يصدق فيما أخبر، وأن يجتنب ما عنه نهى وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، فمن أتى شيئا من المعاصي والذنوب، أو البدع ثم لم يتب منها، أو لم تكفر له، فإنه لم يحقق التوحيد الواجب، وإذا لم يأتِ شيئا من البدع، ولكن حسَّنها بقلبه، أو قال: لا شيء فيها، فإن حركة القلب من هذا شأنه لما كانت في غير تحقيق التوحيد، وفي غير تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله، فإنه لا يكون من أهل تحقيق التوحيد، وكذلك أهل الشرك بأنواعه ليسوا من أهل تحقيق التوحيد.

وأما مرتبة الخاصة التي ذكرت، ففيها يتنافس المتنافسون، وما ثم إلا عفو الله ومغفرته ورضوانه.

وقول الله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ [النحل: ١٢٠]

(**ق**): الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة...﴾ الآية.

قوله: ﴿أمة﴾، أي: إماماً، وقد سبق أن أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه، إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾، هذا ثناء من الله – سبحانه وتعالى – على إبراهيم بأنه إمام متبوع؛ لأنه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقي في النار فصبر.

ثم ابتلاه الله – سبحانه وتعالى – بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعي(أي: شب وترعرع)؛ فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال الله تعالى عنه: ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [الصافات: ١٠٢]، لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من بره بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، وأنظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله في قوله: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

فالسين في قوله: ﴿ستجدني﴾ تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله في قوله: ﴿إن شاء ﴾الله.

وامتثلا جميعاً وأسلما، وانقاداً لله – عز وجل –، وتله للجبين؛ أي: على الجبين، أي جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم۞قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [الصافات: ١٠٤– ١٠٥]، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديداً، ونحو ذلك.

قوله: ﴿قانتاً﴾، القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت على طاعته، مديم لها في كل حال. كما أن ابنه محمداً ﷺ يذكر الله على كل أحيانه[1]: إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام، وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله؛ فهو قانت آناء الليل والنهار.

قوله: ﴿حنيفاً﴾، أي: مائلاً عن الشرك، مجانباً لكل ما يخالف الطاعة، فوصف بالإثبات والنفي، أي: بالوصفين الإيجابي والسلبي.

قوله: ﴿ولم يك من المشركين﴾، تأكيد، أي لم يكن مشركاً طول حياته؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام معصوماً عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمراراً في قوله: ﴿حنيفاً﴾، وابتداءً في قوله: ﴿ولم يك من المشركين﴾، والدليل على ذلك: أن الله جعله إماماً، ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً.

(**تم**): في تفسير إمام الدعوة المصنف الشيخ a بن عبد الوهاب–رحمه الله–، في تفسيره لآخر سورة النحل، فسر هذه الآية، فقال –رحمه الله–: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة

---

[1] مسلم: كتاب الحيض/ باب ذكر الله تعالى حال الجنابة.

السالكين"، ﴿قانتا لله﴾: لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حنيفا﴾: لا يميل يمينا ولا شمالا، كحال العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: من الآية١٢٠) خلافا لمن كثَّر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين، وهو من التفاسير الرائقة الفائقة البعيدة المعاني ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥).

(**ف**): **قال العلامة ابن القيم(رحمه الله)في مفتاح دار السعادة في الوجه(١٤٧)من فضل العلم**: إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠) فهذه أربعة أنواع من الثناء، افتتحها بأنه "أمة" وهو القدوة الذي يؤتم به قال ابن مسعود: "الأمة: المعلم للخير"وهي فعلة – بضم الفاء– من الائتمام كالقدوة، وهو الذي يقتدى به والفرق بين "الأمة" والإمام" من وجهين.

أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً.كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ۝فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر: ٧٩) أي بطريق واضح لا يخفى على السالك.ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أي (الأمة) فيه زيادة معنى. وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل وهو الذي بقي فيها فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه، وتفرقها أو عدمها في غيره.ولفظ (الأمة) يشعر بهذا المعنى، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله. فإن الضم من الواو، ونخرجها فيضم عند النطق بها. وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة.ومنه الحديث: " إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده" فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة. ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله ﴿قَانِتاً﴾ قال ابن مسعود: " القانت: المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله ﴿حَنِيفاً﴾ والحنيف: المقبل على الله.ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لا أنه موضوعة لغة.

الرابع: قوله " شاكراً لأنعمه" والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة، وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب. فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الثلاثة.

والمقصود: انه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره.فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه.أ.هـ.

(ق): ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرى عليه وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأن النفس لا تدع شيئاً إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئاً إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت. ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان: الأول: محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيراً، كما أن من أثنى الله عليه شراً، فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إماماً حنيفاً قانتاً لله و لم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين، لأنهم عاصون لله وأعداء لنا ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنهم عاصون لله أيضاً وأعداء لله ولنا. الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه؛ لأنها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ [الممتحنة: ٦]. وهذه مسألة مهمة؛ لأن الإنسان أحياناً يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيراً، ولكن لا ينبغي أن يغيب؛ لأن الحب في الله، والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

فائدة: أبو إبراهيم مات على الكفر، والصواب الذي نعتقده أن اسمه آزر؛ كما قال الله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ [التوبة: ١١٤]؛ لأنه قال: ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾ [مريم: ٤٧]، ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾ [التوبة: ١١٤]، وفي سورة إبراهيم قال: ﴿ربنا أغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [إبراهيم: ٤١]، ولكن فيما بعد تبرأ منه. أما نوح؛ فقال: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ [نوح: ٢٨]، وهذا يدل على أن أبوي نوح كانا مؤمنين.

فائدة أخرى: قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير؛ فهذه الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ [الأعراف: ١٩٠]، وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك.

فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحي، قال تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ [إبراهيم: ٩].

وقال: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ [المؤمنون: ٥٩].

الآية الثانية: **قوله:** ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾. هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ [المؤمنون: ٥٧]. لكن المؤلف ذكر الشاهد. وقوله تعالى: ﴿من خشية ربهم﴾؛ أي: من خوفهم منه على علم، و﴿مشفقون﴾؛ أي: خائفون من عذابه إن خالفوه. فالمعاصي بالمعنى الأعم – كما سبق– شرك؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ [الجاثية: ٢٣].

أما بالنسبة للمعنى الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

١– شرك.

٢– فسوق.

وقوله: ﴿لا يشركون﴾، يراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٥].

(**تم**): قال بعد ذلك: وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٩) وهذه الآيات في سورة المؤمنون، وهي في مدح خاصة المؤمنين، ووجه الاستدلال من الآية على الباب أن الله قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٩) فقوله ﴿لا يشركون﴾ نفي للشرك،... وأن النفي إذا تسلط على الفعل المضارع، فإنه يفيد عموم المصدر الذي يدل عليه الفعل: فكأنه –جل وعلا– قال: "والذين هم بربهم لا يفعلون شركا، أو لا يشركون، لا بشرك أكبر، ولا أصغر، ولا خفي"، والذي لا يشرك هو الموحد، فصار عندنا لازم، وهو أن من لم يشرك أي نوع من أنواع من الشرك، فإنه ما ترك الشرك إلا لتوحيده.

قال العلماء: قدَّم هنا قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ في قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ ؛ لأن الربوبية تستلزم العبودية، فصار عدم الإشراك في الربوبية معناه عدم الإشراك في الطاعة، وعدم الإشراك في العبودية، وهذا وصف الذين حققوا التوحيد؛ لأنه يلزم من عدم الإشراك ألا يشرك هواه، لأن المرء إذا أشرك هواه أتى بالبدع، أو أتى بالمعصية، فصار نفي الشرك نفيا للشرك بأنواعه، ونفيا للبدعة، ونفيا للمعصية، وهذا

هو تحقيق التوحيد لله -جل وعلا-. فالآية -إذاً- دالة على ما ترجم له الإمام -رحمه الله- بقوله: "باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب".

عن حُصَيْنِ بْنُ عَبْدِ الرّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الّذِي انْقَضّ الْبَارِحَةَ؟ فقُلْتُ: أَنَا. ثُمّ قُلْتُ: أَمَا إِنّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاَةٍ. وَلَكِنّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدّثَنَاهُ الشّعْبِيّ.قَالَ: وَمَا حَدّثَكُمُ؟ قُلْتُ: حَدّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ، أَنّهُ قَالَ: لاَ رُقْيَةَ إِلاّ مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلى مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدّثَنَا ابْنُ عَبّاسٍ عَنِ النّبِيّ ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيّ الأُمَمُ. فَرَأَيْتُ النّبِيّ وَمَعَهُ الرّهَطُ. وَالنّبِيّ وَمَعَهُ الرّجُلُ وَالرّجُلاَنِ. وَالنّبِيّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ. إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ. فَظَنَنْتُ أَنّهُمْ أُمّتِي. فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَىَ وَقَوْمُهُ. فَنَظَرْتُ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ. فَقِيلَ لِي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ وَلاَ عَذَابٍ».

ثُمّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ. فَخَاضَ النّاسُ فِي أُولَئِكَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلّهُمُ الّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلّهُمُ الّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بالله شيئاً. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ... فَأَخْبَرُوهُ. فَقَالَ: «هُمُ الّذِينَ لايَسْتَرْقُونَ.ولا يكتوون وَلاَ يَتَطَيّرُونَ. وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ» فَقَامَ عُكّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ. فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكّاشَةُ».[1]

(**ف**): **قوله:** عن (حصين بن عبد الرحمن) هو السلمي، أبو الهذيل الكوفي. ثقة، مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

وسعيد بن جبير: هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة. وهو كوفي مولى لبني أسد، قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين و لم يكمل الخمسين.

(**ق**): **قوله:** "انقض البارحة"، أي: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال. وفي عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة لليلة التي نحن فيها.

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، حديث (٦٥٤١)ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب حديث (٢١٦).

بل بعض العامة يتوسع متى قام من الليل قال: البارحة؛ وإن كان في ليلته.

قوله: "فقلت أنا"، أي: حصين.

قوله: "أما إني لم أكن في صلاة"، أما: أداة استفتاح، وقيل: إنها بمعنى حقاً، وعلى هذا؛ فتفتح همزة "إن"، فيقال: أما أني لم أكن في صلاة، أي حقاً لم أكن في صلاة.

وقال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل، وهذا خلاف ما عليه بعضهم، يفرح أن الناس يتوهمون أنه يقوم يصلي، وهذا من نقص التوحيد.

وقول حصين رحمه الله ليس من باب المراءاة، بل هو من باب الحسنات، وليس كمن يترك الطاعات خوفاً من الرياء؛ لأن الشيطان قد يلعب على الإنسان، ويزيِّن له ترك الطاعة خشية الرياء، بل أفعل الطاعة، ولكن لا يكن في قلبك أنك ترائي الناس.

قوله: "لدغت"، أي: لدغته عقرب أو غيرها، والظاهر أنها شديدة؛ لأنه لم ينم منها.

قوله: "ارتقيت"، أي: استرقيت؛ لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: "استرقيت"؛ أي طلبت الرقية.

قوله: "فما حملك على ذلك"، أي: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

(**ف**): وقوله (حديث حدثناه الشعبي) اسمه: عامر بن شراحيل الهمداني ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم مات سنة ثلاث ومائة.

قوله: (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة. ابن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمي، صحابي شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد.

(**ق**): **قوله:** "حديث حدثناه الشعبي"، وهذا يدل على أن السلف رضي الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة، فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

قوله: "لا رقية"، أي: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب.

قوله: "إلا من عين"، وهي نظرة من حاسد، نفسه خبيثة، تتكيف بكيفية خاصة فينبعث منها ما يؤثر على المصاب، ويسميها العامة الآن: "النحاتة"، وبعضهم يسميها "النفس"، وبعضهم يسميها "الحسد".

قوله: "حُمَة"، بضم الحاء، وفتح الميم، مع تخفيفها: وهي كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس.. إلخ. إذن، فحصين استند على حديث: "لا رقية إلا من عين أو حمة"، وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرُّقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً، وكثير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذي بعثه النبي ﷺ في سرية، فاستضافوا قوماً، فلم يضيفوهم، فلدغ سيدهم لدغة عقرب، فقالوا: من يرقي؟ فقالواً: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقي لكم إلا بشيء من الغنم، فقالوا: نعطيكم. فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: "وما يدريك أنها رقية؟" (يعني: الفاتحة)[1]، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتي بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله. وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضاً، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره، أي: ما يلي جسمه من الثياب، كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مجرب. وأما العائن؛ فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يبرّك عليه؛ لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: "هلا برّكت عليه"[2]؛ أي: قلت: بارك الله عليك.

قوله "ولكن حدثنا": القائل سعيد بن جبير.

(**ف**): **قوله:** (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ. دعا له فقال: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل "[3] فكان كذلك. مات بالطائف سنة ثمان وستين.

(**ق**): **قوله:** "عرضت علي الأمم"، العارض لها الله - تعالى -، وهذا في المنام فيما يظهر. وأنظر: "فتح الباري"(١١/٤٠٧، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، كتاب الرقاق)، والأمم: جمع أمة وهي أمم الرسل.

قوله: "الرهط"، من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: "والنبي ومعه الرجل والرجلان"، الظاهر أن الواو بمعنى أو؛ أي: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغني أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبي ومعه الرجل، النبي الثاني ومعه الرجلان.

---

[1] البخاري: كتاب الطب/ باب الرقي بفاتحة الكتاب، ومسلم: كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن.

[2] مسند الإمام أحمد (٣/٤٨٦)، وموطأ الإمام مالك (٢١١/٩٣٨)، وشرح السنة (١٢١١/١٦٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٤٠٢٠).

[3] رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه.

قوله: "والنبي وليس معه أحد"، أي: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه ﷻ لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ، يعذر ﷻ من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: "إذ رفع لي"، هذا على تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

قوله: "سواد عظيم"، المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده، أي: شخصه، أي أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

قوله: "فظننت أنهم أمتي"، لأن الأنبياء عرضوا عليه بأممهم؛ فظن هذا السواد أمته – عليه الصلاة والسلام –.

قوله: "فقيل لي: هذا موسى وقومه"، وهذا يدل على كثرة أتباع موسى ؏ وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: "فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك"، وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى ؏.

قوله: "بغير حساب ولا عذاب"، أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: "فخاض الناس في أولئك"، هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

قوله: "الذين صحبوا رسول ﷻ"، يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أن المراد الذين صحبوه في هجرته، ويؤيده أنه لو كان المراد الصحبة المطلقة، لقالوا: نحن؛ لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد: "لا تسبوا أصحابي"[1]؛ فإن المراد بهم الذين صحبوه في هجرته، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفاً.

ويمنع الاحتمال الأول: أن الصحابة أكثر من سبعين ألفاً، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسول ﷺ إلى فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين ﷻ أفواجاً. وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

قوله: "الذين ولدوا في الإسلام"، أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

(**ف**): **قوله:** (فقال هم الذين لا يسترقون) هكذا ثبت في الصحيحين وهو كذلك فهي حديث ابن مسعود في مسند أحمد. وفى رواية لمسلم ولا يرقون قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الزيادة وهم من

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، حديث (٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي ﷻ عنه حديث (٢٥٤٠).

الراوي، لم يقل النبي ﷺ ولا يرقون وقد "قال النبي ﷺ وقد سئل عن الرقي: من استطاع منكم أن ينفـع أخاه فلينفعه"[١]. و"قال: لا بأس بالرقي ما لم تكن شركاً"[٢] قال: وأيضاً فقد "رقى جبريل الـنبي ﷺ" و"رقى النبي ﷺ أصحابه" قال والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقى سائل مستعطف ملتفت إلى غـير الله بقلب، والراقي محسن. قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهـم أن يرقيهم ولا يكويهم. وكذا قال ابن القيم.

(**ق**): واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجـوار، وهنـا استرقى؛ أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم، لما يلي:

١- لقوة اعتمادهم على الله.

٢- لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣- ولما في ذلك من التعلق بغير الله.

وقوله: "ولا يكتوون"، أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: "ولا يسترقون". أما بالنسبة لمن أعد للكي مـن قبـل الحكومة، فطلب الكي منه ليس فيه ذل؛ لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتاج إلى الكي، وليس سؤال تذلل.

(**ف**): قلت: والظاهر أن قوله لا يكتوون أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم. أما الكي في نفسه فجائز، كما في الصحيح "عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ بعث إلى أبى بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه".

وفى صحيح البخاري "عن أنس أنه كوى من ذات الجنب والنبي ﷺ حي" وروى الترمذي وغيره "عـن أنس أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة"[٣].

وفي صحيح البخاري "عن ابن عباس مرفوعاً الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نـار، وأنا أنهى أمتي عن الكي وفى لفظ: وما أحب أن أكتوي".

قال ابن القيم رحمه الله: قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع (أحدها) فعله. (والثاني) عدم محبتـه. (والثالث) الثناء على من تركه. (والرابع) النهي عنه. ولا تعارض بينها بحمد الله، فإن فعله يدل علـى جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضـل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة.

---

[١] مسلم (٢١٩٩) من حديث جابر ﷺ.

[٢] مسلم حديث(٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك ﷺ.

[٣] صحيح : الترمذي (٢٠٥٥)، ابن حبان (١٤٠٤- موارد).

قوله: (ولا يتطيرون) أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها.وسيأتي إن شاء ﷲ تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها.

(**ق**): **قوله:** "ولا يتطيرون"، مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان. وكانت العرب معروفة بالتطير، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده، ومنهم من إذا سمع صوتاً أو رأى شخصاً تشاءم، ومنهم من يتشاءم من شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضي ﷲ عنها: "عقد علي رسول ﷲ ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال؛ فأيكن كان أحظى عنده"[1]، ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر، وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لا يبالي بهذه الأمور، هذا هو التوكل على ﷲ، ولهذا ختم المسألة بقوله: "وعلى ربهم يتوكلون"؛ فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكلهم.

(**ف**): **قوله:** (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال وهو التوكل على ﷲ، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف: من المحبة والرجاء والخوف، والرضا به رباً وإلهاً، والرضا بقضائه.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل: مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: '٦٥: ٣' "ومن يتوكل على ﷲ فهو حسبه" أي كافيه وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها، توكلاً على ﷲ تعالى، كالاكتواء والاسترقاء، فتركهم له لكونه سبباً مكروهاً، لا سيما والمريض يتشبث -فيما يظنه سبباً لشفائه - بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعاً، لما في الصحيحين "عن أبي هريرة مرفوعاً ما أنزل ﷲ من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله". "وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا يا رسول ﷲ أنتداوى؟ قال: نعم. يا عباد ﷲ تداووا، فإن ﷲ ﷻ لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد. قالوا: وما هو؟ قال: الهرم"[2] رواه أحمد.

---

[1] أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، حديث(١٤٢٣).

[2] رواه أحمد في المسند (٢٧٨/٤) وصححه الألباني في غاية المرام(١٧٩).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، والحر والبرد: بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة. ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه. ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً.

وقد اختلف العلماء في التداوي هل هو مباح، وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟

فالمشهور عند أحمد: الأول لهذا الحديث وما في معناه، **والمشهور عند الشافعية الثاني**، حتى ذكر النووي في شرح مسلم: أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف، واختاره الوزير أبو الظفر. **قال**: **ومذهب أبي حنيفة** أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب. **قال**: **ومذهب مالك** أنه يستوي فعله وتركه فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه.**وقال شيخ الإسلام**: ليس بواجب عند جماهير الأئمة وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

(ق): وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج، فالظاهر أنه مثله لأنّه عام، وقد يقال: إنّه لولا قوله: "ولا يسترقون"؛ لقلت: إنه لا يدخل؛ لأن الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة "يسترقون" مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول: الدواء مثلها، لأن الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضاً؛ لأن الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره. وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً: ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه؛ فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة وغيرها. ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هذا الحديث، وهو أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل والحبة السوداء؛ لكان له وجه.

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وهو أكمل الخلق توكلاً على الله وثقةً به، ولأن هذا الحديث: "لا يسترقون..." إلخ إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب.

(**ف**): **فقوله:** (فقام عكاشة بن محصن) هو بضم العين وتشديد الكاف، ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ابن حرثان – بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة – الأسدي: من بني أسد بن خزيمة. كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال، هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها، واستشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة.

قوله: (فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال أنت منهم) وللبخاري في رواية: فقال اللهم اجعله منهم وفيه: طلب الدعاء من الفاضل.

(**ق**): **قوله:** "فقال: أنت منهم"، وقول الرسول ﷺ هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟ مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحياً إقرارياً.

لكن رواية البخاري: "اللهم اجعله منهم" تدل على أن الجملة: "أنت منهم" خبر بمعنى الدعاء.

قوله: "ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة"، لم يرد النبي ﷺ أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها، أي: بهذه المنقبة والفضيلة، أو بهذه المسألة عكاشة بن محصن.

وقد اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام؟

فقيل: إنه كان منافقاً، فأراد الرسول ﷺ ألا يجابهه بما يكره تأليفاً. وقيل: خاف أن ينفتح الباب فيطلبها من ليس منهم؛ فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلاً، وهذا أقرب.

(**ف**): **قوله:** (فقال سبقك بها عكاشة) قال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجبه، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر، فسد الباب بقوله ذلك. أ. هـ.

(**تم**): هذا فيه دليل على أن أهل تحقيق التوحيد قليل، وليسوا بكثير ؛ ولهذا جاء عددهم في هذا الحديث بأنهم سبعون ألفا، قد جاء في بعض الروايات عند الإمام أحمد وعند غيره بأن الله –جل وعلا– أعطى النبي ﷺ مع كل ألف من السبعين ألفا أعطاه سبعين ألفا[1]، فيكون العدد قرابة خمسة ملايين من هذه الأمة، فإن كان ذلك الحديث صحيحا، فقد صحَّح إسناده بعض أهل العلم، فإنه لا يكون للعدد في هذا الحديث مفهوم، أو كان ذلك قبل سؤال النبي ﷺ أن يُزاد في عدد أولئك الذين حققوا التوحيد.

---

[1] أخرجه أحمد في المسند(٢/٣٥٩) والبيهقي في الشعب (٤١٦).

فإن قيل: ما معنى أن يُزاد في عددهم؟ فالجواب: يعني: أن المعنى أن الله -جل وعلا- يمن على أناس من هذه الأمة -غير السبعين ألفا- ممن سيأتون بعد، فيوفقهم لعمل تحقيق التوحيد، فالله -جل وعلا- هو الذي يوفق، وهو الذي يهدي، ثم هو الذي يجازي، فما أعظمه من محسن بَرٍّ كريم رحيم.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد .

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكن من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء .

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: (أنت منهم) علم من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.

(**ق**): **قوله**: "فيه مسائل"، أي: في هذا الباب مسائل:

المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد، وهذه مأخوذة من قوله: "يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب". ثم قال: "هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون".

الثانية: ما معنى تحقيقه؟ أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب أن تحقيقه: تخليصه من الشرك.

الثالثة: ثناؤه - سبحانه - على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين، وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك على أن كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله - سبحانه وتعالى -.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، لقوله تعالى: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾، وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد رحمه الله السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذي هم سادات الخلق.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد، لقوله: "الذين لا يسترقون ولا يكتوون"؛ فالمراد بقول المؤلف: "الرقية والكي": الاسترقاء والاكتواء.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل، والخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير، يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله – عز وجل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل، أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم على الخير، وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميّة والكيفيّة، أما الكميّة، فلأن النبي ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفيّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى، وهو مأخوذ من قوله: "إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ"، ولكن قد يقال: إن التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأن الحديث يقول: "سواد عظيم فظننت أنهم أمتي"، وهذا يدل على الكثرة.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه – عليه الصلاة والسلام –، **وهذا له فائدتان:**

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد، فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثر أتباعاً وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها، لقوله: "رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان، ، ولولا أنّ كل نبي متميز عن النبي الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، و لم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وترى كل أمةٍ جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ فإنه يدل على أن كل أمة تكون وحدها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء، وهو واضح من قوله: "والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد".

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده، لقوله: "والنبي وليس معه أحد".

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة.. إلخ، فإن الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [الأنعام: ١١٦]، وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغتر الإنسان بكثرة وظن لن يغلب أو أنّه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان؛ فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضلال لا تغتر بهم، فلا تقل: إن الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟. كذلك أيضاً لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ **فكلام المؤلف له وجهان:**

الوجه الأول: أن لا نغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لا نغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة، أي أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيراً من الكثرة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة، مأخوذ من قوله: "لا رقية إلا من عين أو حمة".

السابعة عشرة: عمق علم السلف، لقوله: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا"؛ فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني، لأن قوله: "لا رقية إلا من عينٍ أو حمة" لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه و لم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: "ولا يسترقون"، **لأن هناك ثلاث مراتب:**

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق و لم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحداً أن يرقيهم؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل.

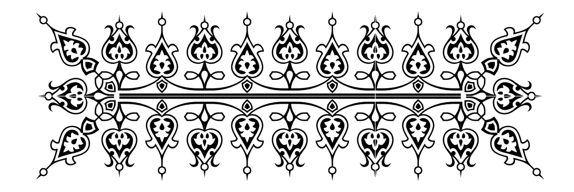
الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه، يؤخذ من قوله: "أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت"؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظان، واليقظان: إما أن يصلي، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما أن يكون لديه مانع من النوم.

التاسعة عشرة: **قوله:** "أنت منهم" علم من أعلام النبوة. يعني: دليلاً على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟، لأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه بقي محروساً من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون في هذا علم، يعني: دليلاً من دلائل نبوة الرسول ﷺ، هذا إذا قلنا: إن الجملة خبرية وليس جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية، فقد نقول أيضاً: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي، وحينئذ لا يمكن أن تكون علماً من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

العشرون: فضيلة عكاشة، بكون ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم، لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: "سبقك بها عكاشة"؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقاً فلم يرد النبي ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما خوفاً من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ. وذلك لأنه رد هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.



باب الخوف من الشرك

(**تم**): كل من حقق التوحيد فلا بد أن يخاف من الشرك؛ ولهذا كان سيد المحققين للتوحيد a -عليه الصلاة والسلام- يكثر من الدعاء بأن يبعد عنه الشرك، وكذلك كان إبراهيم -عليه السلام- يكثر من الدعاء لئلا يدركه الشرك، أو عبادة الأصنام.

فمناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة وهي أن تحقيق التوحيد عند أهله لا بد أن يقترن معه الخوف من الشرك، وقل من يكون مخاطراً بتوحيده، أو غير خائف من الشرك، ويكون مع هذا على مراتب الكمال، بل لا يوجد، فكل محقق للتوحيد، وكل راغب فيه حريص عليه: يخاف من الشرك، وإذا خاف من الشرك، فإن الخوف الذي هو فزع القلب وهلعه يجعل العبد حريصاً كل الحرص على البعد عن الشرك والهروب منه.

والخوف من الشرك يثمر ثمرات منها:

- ✓ أن يكون متعلما للشرك بأنواعه حتى لا يقع فيه.
- ✓ ومنها: أن يكون متعلما للتوحيد بأنواعه حتى يقوم في قلبه الخوف من الشرك، ويعظم ويستمر على ذلك.

ومنها: أن الخائف من الشرك يكون قلبه دائم الاستقامة على طاعة الله مبتغيا مرضاة الله، فإن عصى أو غفل كان استغفاره استغفار من يعلم عظم شأن الاستغفار، وعظم حاجته للاستغفار؛ لأن الناس في الاستغفار أنواع، لكن من علم منهم حق الله -جل وعلا- وسعى في تحقيق التوحيد، وتعلم ذلك وسعى في الهرب من الشرك، فإنه إذا غفل وجد أنه أشد ما يكون حاجة إلى الاستغفار؛ ولأجل صلاح هذا بوَّب الشيخ-رحمه الله- هذا الباب الذي عنوانه "باب الخوف من الشرك"، فكأنه يقول لك: إذا كنت تخاف من الشرك كما خاف منه إبراهيم -عليه السلام-، وعرفت ما توعد الله به أهل الشرك من أنه لا يغفر لهم شركهم، فينبغي لك أن تعلم وأن تتعلم ما سيأتي في هذا الكتاب، فإن هذا الكتاب موضوع لتحقيق التوحيد، وللخوف من الشرك، والبعد عنه، فما بعد هذين البابين -باب من حقق التوحيد، وباب الخوف من الشرك- تفصيل لهاتين المسألتين العظيمتين اللتين هما-تحقيق التوحيد، والخوف من الشرك ببيان معناه، وبيان أنواعه-.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الشرك: هو إشراك غير الله معه في نوع من أنواع العبادة، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر، وقد يكون خفيا.

(ت): لما كان الشرك أعظم ذنب عصي الله به ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه ولهذا قال حذيفة كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه رواه البخاري وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فأما أن يقع فيه وأما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية قال شيخ الإسلام وهو كما قال عمر فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله ومن نشأ في المعروف فلم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره ولهذا كان الصحابة أعظم إيمانا وجهادا ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح وقبح حال الكفر والمعاصي.

وقول الله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨)

(ق): الأولى **قوله:** (إن الله لا يغفر أن يشرك به). (لا): نافية، (أن يشرك به): فعل مضارع مقرون بأن المصدرية، فيحول إلى مصدر تقديره: أن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكاً به.

(تم): والمغفرة: هي الستر لما يخاف وقوع أثره، ويقال في اللغة: غفر إذا ستر، ومنه سمي ما يوضع على الرأس "مغفرا"؛ لأنه يستر الرأس، ويقيه الأثر المكروه من وقع السيف ونحوه، فمادة (المغفرة) راجعه إلى ستر الأثر الذي يخاف منه، والشرك والمعصية لها أثرهما إما في الدنيا، وإما في الآخرة، أو فيهما جميعا، وأعظم ما يمن به على العبد أن يغفر ذنبه، وذلك بأن يستر عليه، ويمحى عنه أثره، فلا يؤاخذ به الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة، فلولا المغفرة لهلك الناس.

ومعنى قوله –جل وعلا– في هذه الآية ﴿لا يغفر﴾ أي: أبدا فقوله ﴿لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: من الآية٤٨) هذا وعيد بأنه – تعالى– لم يجعل مغفرته لمن أشرك به.

(ت): قال ابن كثير أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء من عباده قلت فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب لأن الله تعالى

أخبر أنه لا يغفره أي إلا بالتوبة منه وما عداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبة وإن شاء عذب به وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا لذنب الذي هذا شأنه عند الله وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وصرف خالص حقه لغيره وعدل غيره به كما قال تعالى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه وذلك غاية المعاندة لرب العالمين والاستكبار عن طاعته والذل له والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة كما قال ﷺ لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله رواه مسلم ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فضلا عن غيره شبيها بمن له الخلق كله وله الملك كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله فأزمة الأمور كلها بيديه سبحانه ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ولك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لله وحده ويمتنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره فمن فعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ند له وذلك أقبح التشبيه وأبطله فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

(ق): فالشرك لا يغفره الله أبداً، لأنه جناية على حق الله الخاص، وهو التوحيد. أما المعاصي، كالزنى والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك، فهو اعتداء على حق الله تعالى، وليس للإنسان فيه حظ نفس، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال الله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان: ١٣].

(ت): وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولا بد ولا يخرجون منها وهم أصحاب المترلة بين المترلتين ووجه ذلك أن الله تعالى جعل مغفرة ما دون الشرك معلقة بالمشيئة ولا يجوز أن يحمل هذا على التأكيد فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى في الآية الأخرى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب وهناك خص وعلق لأن المراد به ما لم يتب قاله شيخ الإسلام.

(**ق**): وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟ قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كل شرك ولو كان أصغر، كالحلف بغير الله، فإن الله لا يغفره، أما بالنسبة لكبائر الذنوب، كالسرقة والخمر، فإنها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل اختلف كلامه في هذه المسألة، فمرة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر.

(**تم**): **قال آخرون من أهل العلم**: إن قوله هنا: ﴿لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾(النساء: من الآية٤٨) دالة على العموم، لكنه عموم مراد به خصوص الشرك الأكبر، فالمقصود بالشرك في قوله ﴿لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: من الآية٤٨) هو الشرك الأكبر فقط دون غيره، وأما ما دون الشرك الأكبر، فإنه يكون داخلا تحت المشيئة، فيكون العموم في الآية مرادا به الخصوص لأنه غالباً ما يرد في القرآن هذا اللفظ ﴿أن يشرك به﴾ ونحو ذلك، ويراد به الشرك الأكبر دون الأصغر وهذا في الغالب كما سبق.

فالشرك غالبا ما يطلق في القرآن على الأكبر دون الأصغر، ومن شواهد ذلك قوله –جل وعلا–: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: من الآية٧٢) فقوله في الآية ﴿يُشْرِكْ﴾ هو–أيضا– فعل داخل في سياق الشرط فيكون عاما، لكن هل يدخل فيه الشرك الأصغر والخفي؟ الجواب: إنه لا يدخل بالإجماع لأن تحريم الجنة، وإدخال النار والتخليد فيها إنما هو لأهل الموت على الشرك الأكبر، فدلنا ذلك على أن المراد بقوله ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: من الآية٧٢) أهل الإشراك بالله الشرك الأكبر، فلم يدخل فيه الأصغر، و لم يدخل ما دونه، من أنواع الأصغر، فيكون المفهوم إذاً من آيتي سورة "النساء" كالمفهوم من آية سورة "المائدة" ونحوها، وهذا كقوله في سورة الحج﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: من الآية٣١)، فهذا ونحوه وارد في الشرك الأكبر، فيكون على هذا القول المراد بما نفي هنا في قوله﴿لا يغفر أن﴾ الشرك الأكبر.

ولما كان اختيار إمام الدعوة كما هو اختيار عدد من المحققين كشيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما أن العموم هنا شامل لأنواع الشرك: الأكبر، والأصغر، والخفي، كان الاستدلال بهذه الآية صحيحا؛ لأن الشرك أنواع، وإذا كان الشرك بأنواعه لا يغفر، فهذا يوجب الخوف منه أعظم الخوف، فإذا كان الشرك الأصغر كالحلف بغير الله، وتعليق التميمة والحلقة والخيط، ونحو ذلك من أنواع الشرك الأصغر، كقولك، ما شاء الله وشئت، ونسبة النعم إلى غير الله، إذا كان ذلك لا يغفر، فإنه يوجب أعظم الخوف، كالشرك الأكبر، وإذا كان كذلك فيقع في الخوف من الشرك من هم على غير التوحيد كمن يعبدون غير الله، ويستغيثون بغير الله، ويتوجهون إلى غيره، ويذبحون وينذرون لغيره، ويحبون غير الله

محبة العبادة، ويرجون غير الله رجاء العبادة، ويخافون خوف السر من غير الله إلى غير ذلك، يكون هؤلاء أولى بالخوف من الشرك، لأنهم وقعوا فيما هو اتفق عليه أنه لا يغفر، كما يقع في الخوف من الشرك أهل الإسلام، الذين قد يقعون في بعض أنواع الشرك الخفي، أو الشرك الأصغر بأنواعه، وهم لا يشعرون، أو وهم لا يحذرون.

فإذا علم العبد المسلم أن الشرك بأنواعه لا يغفر وأنه مؤاخذ به، وأن الصلاة إلى الصلاة والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان لا تكفر ذنب الوقوع في الشرك الأصغر فيجب أن يعظم في قلبه الخوف منه فإن قيل فبماذا يغفر إذا؟ فالجواب: إنه لا يغفر إلا بالتوبة فقط، فإن لم يتب، فثمة الموازنة بين الحسنات والسيئات، ولكن ما ظنكم بسيئة فيها التشريك بالله مع حسنات؟ فمن ينجو من ذلك؟!! لا ريب إنه لا ينجو إلا من عظمت حسناته، فزادت على سيئة ما وقع فيه من أنواع الشرك، ولا شك أن هذا يوجب الخوف الشديد من الشرك بعامة ؛ لأن المرء يكون على خطر عظيم إذا وزنت حسناته وسيئاته، ثم كان في سيئاته نوع من أنواع الشرك، لان من المعلوم أن الشرك بأنواعه من حيث الجنس أعظم من، كبائر الأعمال المعروفة.

فوجه الاستدلال من آية "النساء" وهي قوله -جل وعلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: من الآية٤٨)أن فيها عموما يشمل أنواع الشرك جميعا، وأنها كلها لا تغفر؛ فيكون ذلك موجبا للخوف من الشرك، وإذا وقع أو حصل الخوف والوجل من الشرك في القلب، فإن العبد سيحرص على معرفة أنواعه حتى لا يقع فيه، ويطلب معرفة أصنافه وأفراده حتى لا يقع فيها، وحتى يحذر أحبابه، ومن حوله منها؛ لذلك كان أحب الخلق، أو أحب الناس، وخير الناس للناس من يحذرهم من هذا الأمر، ولو لم يشعروا به، ولو لم يعقلوه، قال -جل وعلا- : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: من الآية١١٠)؛ لأنهم يدلون الخلق على ما ينجيهم، فالذي يحب للخلق النجاة هو الذي يحذرهم من الشرك بأنواعه، ويدعوهم إلى التوحيد بأنواعه؛ لأن هذا أعظم ما يدعى إليه.

ولهذا لما حصل من بعض القرى في زمن إمام الدعوة تردد، وشك، ورجوع عن مناصرة الدعوة، وفهم ما جاء به الشيخ-رحمه الله-، وكتبوا للشيخ وغلظوا له القول، وقالوا: إن ما جئت به ليس بصحيح، وإنك تريد كذا وكذا، لما حصل منهم ذلك أجابهم بكتاب قال في آخره: بعد أن شرح التوحيد وضده ورغَّب ورهَّب ((**ولو كنتم تعقلون حقيقة ما دعوتكم إليه لكنت أغلى عندكم من آبائكم وأمهاتكم وأبنائكم، ولكنكم قوم لا تعقلون**)) أ.هـ.، وهذا كلام صحيح، ولكن لا يعقله إلا من عرف حق الله - جل وعلا-، فرحمه الله تعالى-، وأجزل له المثوبة، وجزاه عنا وعن المسلمين خير الجزاء، ورفع درجته في المهديين والنبيين والصالحين.

(**ق**): **قوله:** (ويغفر ما دون ذلك)، المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

(ف): في قرة عين الموحدين قال النووي (رحمه الله تعالى) أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصراً عليها ومات على ذلك فهو تحت المشيئة فإن عفي عنه دخل الجنة أو لا وإلا عذب في النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة.أ.هـ.

قلت: هذا قول أهل السنة والجماعة، لا اختلاف بينهم في ذلك. وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق و لم يقيد، ثم قال ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: من الآية٤٨)، فخصص وقيد فيما دون الشرك، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمل أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة، إن لم يتب منه قبل الوفاة.

وقال الخليل عليه السلام ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم: من الآية٣٥)

(ق): الآية الثانية: **قوله:** (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام). قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق، وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم فلم يجب الله دعاءه. وأيضاً يمنع من الأول أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل. ومعنى: (اجنبني)، أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبني من عبادة الأصنام، لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد.

(تم): ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: من الآية٣٥)، وصاحب هذه الدعوة هو إبراهيم – عليه السلام–، ومر بنا في الباب قبله: أن إبراهيم قد حقق التوحيد، وقد وصفه الله بأنه كان أمة قانتا لله حنيفا، وبأنه لم يك من المشركين، فهل يطمئن من كان على هذه الحال إلى أنه لن يعبد غير الله ، ولن يعبد الأصنام ، أو يظل مقيما على خوفه؟؟!! وهل حال الكمّل الذين حققوا التوحيد أنهم يطمئنون أم يخافون؟؟! هذا إبراهيم– عليه السلام –كما في هذه الآية خاف الشرك، وخاف عبادة الأصنام، فدعا الله بقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ۞رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ (إبراهيم: من الآية٣٦)

فكيف ممن دون إبراهيم ممن ليس من السبعين ألفا فهم عامة هذه الأمة؟ والواقع أن عامة الأمة لا يخافون من الشرك فمن الذي يخاف-إذاً؟ هو الذي يسعى في تحقيق التوحيد.

قال إبراهيم التيمي-رحمه الله من سادات التابعين- لما تلا هذه الآية قال: "ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم"[١]، إذا كان إبراهيم -عليه السلام- هو الذي حقق التوحيد، وهو الذي وصف بما وصف به، وهو الذي كسَّر الأصنام بيده، يخاف من الفتنة بها فمن يأمن البلاء بعده؟

إذا ما ثم إلا غرور أهل الغرور. والمقصود أن هذا يوجب الخوف الشديد من الشرك؛ لأن إبراهيم (عليه السلام) مع كونه سيد المحققين للتوحيد في زمانه بل وبعد زمانه إلى نبينا ﷺ ما أعطي الضمان والأمان من الوقوع في الشرك، وألا يزيغ قلبه، وكذلك الحال مع نبينا a ﷺ.

(**ف**): فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به[٢].

(**تم**): قوله هنا ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: من الآية٣٥) **الأصنام**: جمع صنم، والصنم هو: ما كان على صورة مما يعبد من دون الله، يصور صورة على شكل وجه رجل، أو على شكل جسم حيوان، أو رأس حيوان، أو على شكل صورة كوكب، أو نجم، أو على شكل الشمس والقمر ونحو ذلك، فإذا صوَّر صورة، فتلك الصورة يقال لها: صنم.

---

[١] أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور(٥/٤٦).

[٢] في قرة العيون: فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة واحدة، وابتلاه بكلمات فأتمهن، وقال {وإبراهيم الذي وفى} (النجم: ٣٧) وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه، وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام، لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدايته وتوفيقه، لا بحوله وقوته.

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه، فقد وقع فيه من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأصنام وعبدت، فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور، وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتخذ ذلك ديناً، وهي أوثان وأصنام كأصنام نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم، فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم، بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عده، فذكر عليه السلام السبب الذي أوجب الخوف عليه وعلى ذريته بقوله﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾(إبراهيم: ٣٦) وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبله وبعده. فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه والوعيد على فعله، والثواب على تركه.وقد هلك من هلك باعراضه عن القرآن، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه.نسأل الله الثبات على الإسلام والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة بالله إ لا بالله العلي العظيم، وقال تعالى عن عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]رد أمرهم إلى الله كما رده a عليه السلام، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه a ﷺ حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة، وقد بين حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢]. فإن أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب الغوث يتصرفون في الكون بالإحياء والإماتة والرزق والضر والنفع: وأن مجلس أوليائهم تعرض عليه شؤون العالم.إقرأ كتاب الشعراني و"الابريز" للدباغ وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المضلين، تجد الشرك الذي ما كان يخطر على بال أبي جهل وإخوانه، لانهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم.

والوثن: هو ما عبد من دون الله مما هو ليس على شكل صورة، فالقبر وثن، وليس بصنم، والمشـــهد، مشاهد القبور عند عبادها هذه أوثان، وليست بأصنام، وقد يطلق على الصنم أنه وثن، كما قال -جـــل وعلا- في قصة إبراهيم في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانــاً وَتَخْلُقُــونَ إِفْكــاً﴾ (العنكبوت: من الآية١٧) ولكن هذا يطلق على قلة، وقال بعض أهل العلم: هم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأوثان جميعا، فصار في بعض الآيات ذكر الأصنام لعبادتهم الأصنام، وفي بعض ذكر الأوثان لعبـــادتهم الأوثان، والأول أظهر في أنه قد يطلق على الصنم أنه وثن؛ ولهذا قال النبي ﷺ (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)[1]فدعا الله أن لا يجعل قبره وثنا، فصار الوثن ما يعبد من دون الله مما ليس على هيئة صورة.

(ق): الشاهد من هذه الآية: أن إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رســـول الله ﷺ.

قوله: "وفي الحديث". الحديث: ما أضيف إلى الرسول، والخبر: ما أضيف إليه والى غيره، والأثـــر: مـــا أضيف إلى غير الرسول ﷺ، أي: إلى الصحابي فمن بعده، إلا إذا قيد فقيل: وفي الأثر عن رســـول الله ﷺ، فيكون على ما قيد به.

قوله: "أخوف ما أخاف عليكم".

وفي الحديث [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه، فقال: الرياء][2]

(ق): الخطاب للمسلمين، إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

(ت): هكذا أورد المصنف هذا الحديث مختصرا غير معرف وقد رواه الإمام أحمد والطـــبراني وابـــن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد وهذا لفظ أحمد قال حدثنا يونس ثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا ومـــا الشـــرك الأصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنـــتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء قال المنذري ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ و لم يصح له منه سماع فيما أرى وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال له صحبة قال وقال أبي لا تعرف لـــه صـــحبة

---

[1] أخرجه أحمد (٢/٢٤٦).

[2] صحيح: أخرجه النسائي (٥/٤٢٨)، حديث (٢٣٦٨٠) والبيهقي في الشعب (٥/٣٣٣)، حديث (٦٨٣١)من حديث محمود بن لبيد، وأرجه الطبراني في الكبير (٤/٢٥٣)، حديث (٤٣٠١) من حديث محمود بن لبيد بن رافع بن خديج.وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٥).

ورجح ابن عبد البر والحافظ أن له صحبه وقال رجل روايته عن الصحابة وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود ابن لبيد عن رافع بن خديج وقيل إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع.

(ق): **قوله:** "الرياء"، مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياء، كقاتل يقاتل قتالاً. والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس، لأنه لو أراد ذلك، لكان شركاً أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا، فقد يكون رياء، وقد يكون سماعاً، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب. أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله – عَجَلّ –، والرسول ﷺ يقول: "فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي"[١].

(تم): والرياء قسمان: رياء المسلم، ورياء المنافق، رياء المنافق: رياء في أصل الدين. يعني: راءى بإظهار الإسلام، وأبطن الكفر ، قال تعالى ﴿ يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (النساء: من الآية١٤٢) ورياء المسلم الموحد أن يحسن صلاته من أجل نظر الرجل، أو أن يحسن تلاوته لأجل التثنية، أن يمدح ويثنَّى، لا لأجل التأثير.

فالرياء مشتق من الرؤية، فما كان من جهة الرؤية، يعني: أن يحسن عبادة لأجل أن يُرَى من المتعبدين، يطيل في صلاته، يطيل في ركوعه في سجوده، يقرأ في صلاته أكثر من العادة من أجل أن يُرَى ذلك منه، يقوم الليل لأجل أن يقول الناس عنه أنه يقوم الليل، هذا شرك أصغر، والشرك الأصغر هذا الذي هو الرياء قد يكون محبطا لأصل العمل الذي تعبد به، وقد يكون محبطا للزيادة التي زادها؛ فيكون محبطا لأصل العمل الذي تعبد به إذا ابتدأ النية بالرياء، يعني: فيما لو صلى دخل الصلاة لأجل أن يُرى أنه يصلي، ليس عنده رغبة في أن يصلي الراتبة، لكن لما رأى أنه يُرى، ولأجل أن يمدح بما يراه الناس منه صلى، فهذا عمله يعني: تلك الصلاة حابطة، ليس له فيها ثواب، وإن جاء الرياء في أثناء العبادة، فإن ما زاده لأجل الرؤية يبطل، كما قال عليه –الصلاة والسلام–: { قال الله –تعالى–: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه }[٢]. فالشاهد من الحديث قوله –عليه الصلاة والسلام–: (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) هو أخوف الذنوب التي خافها النبي –عليه الصلاة والسلام– على أهل التوحيد؛ لأنهم ما داموا أهل توحيد، فإنهم ليسوا من أهل الشرك الأكبر، فبقي أن يخاف عليهم الشرك الأصغر، والشرك الأصغر تارة يكون في النيات، وتارة يكون في الأقوال، وتارة يكون في الأعمال، يعني: في القلب يكون الشرك الأصغر، وفي المقال، وفي الفعال –أيضا–،

---

١ أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب: الخطبة على المنبر، حديث (٩١٧) ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب: جواز الخطوة والخطوتين، حديث (٥٤٤).

٢ مسلم: حديث(٢٩٨٥)

وسيأتي في هذا الكتاب بيان أصناف من كل واحدة من هذه الثلاث. إذن النبي –عليه الصلاة والسلام– قال: (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) فهو أخوف الذنوب على هذه الأمة؛ لماذا خافه –عليه الصلاة والسلام –، وكان أعظم الذنوب خوفا؟ لأجل أثره وهو أنه لا يغفر، ولأجل أن الناس قد يغفلون عنه؛ ولهذا خافه عليهم –عليه الصلاة والسلام–، والشيطان حرصه على أهل التوحيد أن يدخل فيهم الشرك الأصغر من جهة الرياء، ومن جهة الأقوال، والأعمال، والنيات أعظم من فرحه بغير ذلك من الذنوب.

(**ت**): هذا من رحمته ﷺ لأمته وشفقته عليهم وتحذيره مما يخاف عليهم فانه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه كما قال ﷺ فيما صح عنه ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين لقوة الداعي إلى ذلك والمعصوم من عصمه الله وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر وإما ضعيف هذا مع العافية وإما مع البلاء فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته دون الشرك الأكبر لما تقدم مع أنه أخبر أنه لا بد من وقوع عبادة الأوثان في أمته فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفا على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله.

(**ف**): خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله.

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال[1]: " الشرك أخفى من دبيب النمل. قال أبو بكر: يا رسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دعي مع الله؟ قال: ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل" الحديث. وفيه: أن تقول أعطاني الله وفلان، والند أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان أ.هـ. من الدر.

---

[1] صحيح :أبو يعلى ص (١٩-٢٠) مصورة المكتب الاسلامي ،وابن المنذر كما في الدرر المنثور(٥٤/٤) والحديث صححه الأرناؤوط في تخريج مسند أبي بكر (١٧) وذلك لشواهده الكثيرة.

وعن عبدِ الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

[من ماتَ وهوَ يَدعو من دون الله نِدّاً دخلَ النار].[1] **رواه البخاري.**

(ق): **قوله:** (من). هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى.

قوله: (يدعو من دون الله ندا).

(ف): **قال ابن القيم رحمه الله:** الند الشبيه، يقال: فلان ند فلان، وند يده، أي مثله وشبيهه.أ.هـ

(ق): أي: يتخذ لله نداً سواء دعاء عبادة أم دعاء مسألة، لأن الدعاء **ينقسم إلى قسمين:**

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام، فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال. ويدل لهذا القسم قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ [غافر: ٦٠]، فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله، فقد كفر كفراً مخرجاً له عن الملة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود، لكان مشركاً، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عن الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن يحني له؟ قال: "لا"[2]. خلافاً لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنى لك، فيجب على كل مؤمن بالله أن ينكره، لأنه عظمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة، فهذا ليس كله شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك، فليس بشرك، كقوله: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال ﷺ: "من دعاكم فأجيبوه"[3]، وقال تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ [النساء: ٨]. فإذا مد الفقير يده، وقال: ارزقني، أي: اعطني، فليس بشرك، كما قال تعال: ﴿فارزقوهم منه﴾، وأما أن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله، فإن دعوته شرك مخرج عن الملة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن يترل الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك.

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، حديث (٤٤٩٧).

[2] مسند الإمام أحمد (١٩٨/٣)، والترمذي: كتاب الاستئذان/ باب ما جاء في المصافحة، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجة: كتاب الأدب/ باب في المصافحة.

[3] مسند الإمام أحمد (٦٨/٢)، وأبو داود (١٧/٣)، والنسائي (٢٨/٥)، والحاكم وصحح، وهذا اللفظ أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، حديث (١٦٧٢)، وفي الأدب، باب: في الرجل يستعيذ بالرجل، حديث (٥١٠٩).

والمراد بقول الرسول ﷺ: "من مات وهو يدعو من دون لله نداً" المراد الند في العبادة، أما الند في المسألة، ففيه التفصيل السابق. ومع الأسف، ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقى جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا – والعياذ بالله – شرك أكبر مخرج من الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا واللواط، لأنه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

(**ف**): **واعلم أن اتخاذ الند على قسمين:**

الأول: أن يجعله لله شريكاً في أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم، وهو شرك أكبر.

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء، فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل: "ما شاء الله وشئت، قال: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده" رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجه[1]. وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد.

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي، كطلب الشفاعة من الأموات، فإنها ملك لله تعالى وبيده، ليس بيد غيره منها شيئ، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

(**ق**): **قوله:** "دخل النار". أي: خالداً، مع أن اللفظ لا يدل عليه، لأن دخل فعل، والفعل يدل على الإطلاق.

(**تم**): **وقوله:** "دخل النار" يعني: كحال الكفار "فيكون خالدا فيها"؛ لأن المسلم إذا وقع في الشرك الأكبر: فإنه يحبط العمل بذلك، ولو كان أصلح الصالحين، وقد قال –جل وعلا– لنبيه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَالى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين۞بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥–٦٦)فالله فإن الله عظيم، والله أكبر، وخلقه كلهم محتاجون إليه، وعبيد له سبحانه، بمن فيهم أفضلهم وهم الأنبياء والمرسلون، فلو فرض أن أشرك النبي – عليه الصلاة والسلام – لحبط عمله، ولكان في الآخرة من الخاسرين، أفلا يوجب هذا أن يخاف من هو دونه ممن يدعي الصلاح والعلم من الشرك؟!! بل قد شاع في هذه الأمة أن بعض المنتسبين إلى العلم يدعو إلى الشرك، ويحض عليه، ويكره ويبغض في التوحيد، وهذا كما قال الله –جل وعلا– عن أسلافهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

[1] حسن: أحمد(١/٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، البخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، النسائي في (عمل اليوم والليلة) (٩٨٨)، ابن ماجة(٢١١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر: ٤٥).

(**ق**): وأيضاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢]، وإذا حرمت الجنة، لزم أن يكون خالداً في النار أبداً، فيجب أن نخاف من الشرك مادامت هذه عقوبته، فالمشرك خسر الآخرة، لأنه في النار خالد، وخسر الدنيا أيضاً، لأنه لم يستفد منها شيئاً، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر – والعياذ بالله –، ما استفاد شيئاً من الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ﴾[فاطر: ٣٧]، وقال الله – ﷻ –: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر: ١٥]. فخسر نفسه، لأنه لم يستفد منها شيئاً، وخسر أهله، لأنهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك، لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جداً، فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: "ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص". فالشرك أمره صعب جداً ليس بالهين، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس أو ذمهم أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبداً، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال ﷺ: "يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان: أهله وماله، ويبقى عمله". وكذلك أيضاً من المهم أن الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله لأنه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله، لأنه حينئذ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

فالإخلاص صعب جداً، إلا أن الإنسان إذا كان متجهاً إلى الله اتجاهاً صادقاً سليماً على صراط مستقيم، فإن الله يعينه عليه، ويسره له.

(**تم**): فوجه الاستدلال ظاهر، –إذاً – في قوله ﷺ (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) وأنه يوجب الخوف؛ لأن قصد المسلم، بل قصد العاقل أن يكون ناجيا من النار، ومتعرضا لثواب الله في الجنة.

ولفظ: (من دون الله) يكثر في القرآن والسنة، "ومن دون الله" عند علماء التفسير وعلماء التحقيق، يراد بها شيئان:

الأول: أن تأتي بمعنى (مع): فيكون معنى: (من دون الله) أي مع الله، وعبر عن المعية بلفظ "من دون الله"؛ لأن كل من دُعي مع الله فهو دون الله -جل وعلا - فهم دونه والله -جل وعلا - هو الأكبر، وهوالأعظم وفي هذا دليل على بشاعة عملهم.

والثاني: أن تأتي بمعنى: (غير) فيكون معنى: (من دون الله) أي: يدعو إلهاً غير الله، يعني: أنه لم يعبد الله، وأشرك معه غيره، بل دعا غيره استقلالا، فشملت ((من دون الله)) الحالين: من دعا الله ودعا غيره، ومن دعا غير الله وتوجه إليه استقلالاً.

ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال:

[من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار] [1].

(**ف**): قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار").

جابر: هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام -بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي - بفتحتين - صحابي جليل هو وأبوه، ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره، وله أربع وتسعون سنة.

(**ق**): **قوله:** "من". شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: "لقي"، وجوابه قوله: "دخل الجنة"، وهذا الدخول لا ينافي أن يعذب بقدر ذنوب إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له، لأنه داخل تحت المشيئة.

قوله: "لا يشرك". في محل نصب على الحال من فعل "لقي".

قوله: "شيئاً". نكرة في سياق الشرط، فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول ﷺ دخل النار، فكيف بمن يجعل الرسول ﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد، ولا يلجأ إلى الله، بل ربما يلجأ إلى ما دون الرسول ﷺ؟! وهناك من لا يبالي بالحلف بالله صادقاً أم كاذباً، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكن لا يحلف بملته أو بما يعظمه إلا صادقاً، فلزمته يمين، هل يحلف بالله أو يحلف بهذا؟ فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولا يعان على الشرك، وهو الصحيح. وقيل:

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق/ باب سكرات الموت، ومسلم (كتاب الزهد والرقاق.

يحلف بغير الله، لأن المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذباً لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقاً حلف ووقع في الشرك.

(ق): مسألة: هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر كما دلت على ذلك النصوص، فإنه لا يلزم من ذلك الخلود في النار. وإن كان أكبر، فإنه يلزم منه الخلود في النار. لكن لو حمَّلنا الحديث على الشرك الأكبر في الموضعين في قوله: "من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة"، وفي قوله: "ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار"، وقلنا: من لقي الله لا يشرك به شركاً أكبر دخل الجنة، وإن عذب قبل الدخول في النار بما يستحق، فيكون مآله إلى الجنة، ومن لقيه يشرك به شركاً أكبر دخل النار مخلداً فيها لم نحتج إلى هذا التفصيل.

(تم): وعلى المرء أن يستعيذ بالله -جل وعلا- من الشرك الأصغر والخفي، بقوله: (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه)؛ لأنه إذا علم، فأشرك، فإنه سيترتب الأثر الذي ذكرناه، وهو عدم المغفرة ففي هذا الدعاء الذي علمناه رسولنا -عليه الصلاة والسلام- فيه التفريق بين الشرك الأصغر مع العلم، والشرك الأصغر مع الجهل، فقال: (أعوذ بك أن أشرك بك شيئا أعلمه)؛ لأن أمر الشرك الأصغر مع العلم عظيم؛ فيجب أن يستعيذ المرء بالله من أن يشرك شركا أصغر، وما هو أعلى منه من باب أولى، وهو يعلم.

ثم قال: (وأستغفرك لما لا أعلم) لأن المرء قد يكون شيئا على فلتات لسانه، وهو لا يعلم و لم يقصد ذلك، ويستغفر الله -جل وعلا- منه، هذا يدلكم على أن الشرك أمره عظيم، ولا يتهاون أحد بهذا الأمر؛ لأن من تهاون بالشرك وبالتوحيد، فإنه تهاون بأصل دين الإسلام، بل تهاون بدعوة النبي -صلى الله على وسلم- في مكة سنين عددا، بل تهاون بدعوة الأنبياء والمرسلين، فإنهم اجتمعوا على شيء ألا وهو العقيدة، وهو توحيد العبادة، والربوبية، والأسماء والصفات، وأما الشرائع فشتى؛ لهذا وجب عليك الحذر كل الحذر من الشرك بأنواعه، وأن تتعلم ضده، وأن تتعلم -أيضا- أفراد الشرك، وأفراد التوحيد، وإنما يستقيم العلم بذلك إذا تعلمت الأفراد، أما التعلم الإجمالي بذلك، فهذا كما يقال نحن على الفطرة، لكن إذا أتت الأفراد ربما رأيت بعض الناس يخوضون في بعض الأقوال، أو الأعمال التي هي من جنس الشرك، وهم لا يشعرون؛ وذلك لعدم خوفهم وهربهم من الشرك، نسأل الله -جل وعلا- العفو والعافية.

أحرص إذن على تعلم هذا الكتاب، ومدارسته، وعلى كثرة مذاكرته، وفهم ما فيه من الحجج والبينات؛ لأنه أفضل ما تدعوه صدرك بعد كتاب الله -جل وعلا- وسنة نبيه ﷺ. فلعله أن يكون إن شاء الله سبباً عظيما من اسباب النجاة والفلاح.

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾.

العاشرة: فيه تفسير (لا إله إلا الله) كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك. لقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به)، ولقوله: (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام).

الثانية: أن الرياء من الشرك. لحديث: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، فسئل عنه فقال "الرياء"، وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر، لأن النبي ﷺ لما سئل عنه فقال: "الرياء"، فسماه شركاً أصغر، وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟ ظاهر الحديث لا يمكن، لأنه قال: "الشرك الأصغر"، فسئل عنه، فقال:

"الرياء". لكن في عبارات ابن القيم رحمه الله أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء، فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية، فنعم، لأنه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية، فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقاً.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين. وتؤخذ من قوله: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر"، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيراً من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد لله.

الخامسة: قرب الجنة والنار. لقوله: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً، دخل النار".

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد. "من لقي الله لا يشرك به شيئاً...." الحديث.

السابعة: أن من لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس. تؤخذ من العموم في قوله: "من لقي الله"، لأن "من" للعموم، لكن إن كان شركه أكبر، لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس، لقوله تعالى: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) [المائدة: ٧٢]، وإن كان أصغر، عذب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام، تؤخذ من قوله تعالى: (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام).

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس). وفيه إشكال، إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: (كثيراً من الناس)، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) [الإسراء: ٧٠]، فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق، فالآدميون فضلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرمهم.

العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري. الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب، لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك. لقوله: (ويغفر ما دون ذلك)، وقوله: "من لقي الله لا يشرك به شيئاً، دخل الجنة".

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إِلهَ إلاّ اللهُ

(**تم**): هذا الباب هو باب "الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله"، باب الدعوة إلى التوحيد، وقد ذكر في الباب قبله الخوف من الشرك، وقبله ذكر فضل التوحيد، وما يكفر من الذنوب، وباب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، ولما ذكر بعده باب الخوف من الشرك اجتمعت معالم حقيقة التوحيد في النفس، في نفس الموحد، فهل من اجتمعت حقيقة التوحيد في قلبه بأن عرف فضله، وعرف معناه، وخاف من الشرك، واستقام على التوحيد، وهرب من ضده، هل يبقي مقتصرا بذلك على نفسه ويظن به على غيره وهل تتم حقيقة التوحيد في القلب إلا بأن يدعو إلى حق الله الأعظم؟، ألا وهو إفراده – جل وعلا– بالعبادة، وبما يستحقه –سبحانه وتعالى– من نعوت الجلال، وأوصاف الجمال.

بوَّب الشيخ (رحمه الله)بهذا الباب ليدل على أن من تمام الخوف من الشرك، ومن تمام التوحيد أن يدعو المرء غيره إلى التوحيد، فإنه لا يتم في القلب حتى تدعو إليه، وهذه حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله علمت حيث شهد العبد المسلم لله بالوحدانية، بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وشهادته معناها اعتقاده، ونطقه، وإخباره الغير بما دلت عليه، فلا بد –إذن– في حقيقة الشهادة وفي تمامها من أن يكون المرء المكلف الموحد أن يكون داعيا إلى التوحيد؛ لهذا ناسب أن يذكر هذا الباب بعد الأبواب قبله، ثم إن له مناسبة أخرى لطيفة، وهي أن ما بعد هذا الباب هو تفسير للتوحيد وبيان أفراده، وتفسير للشرك وبيان إفراده، فتكون الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله والى التوحيد دعوة إلى تفاصيل ذلك، وهذا من المهمات؛ لأن كثيرين من المنتسبين للعلم من أهل الأمصار يسلمون بالدعوة إلى التوحيد إجمالا، ولكن إذا أتى التفصيل في بيان مسائل التوحيد، أو جاء التفصيل ببيان أفراد الشرك، فإنهم يخالفون في ذلك وتغلبهم نفوسهم في مواجهة الناس في حقائق إفراد التوحيد وإفراد الشرك.

إذن فالذي تميزت بها هذه الدعوة –دعوة الإمام المصلح رحمه الله– أن الدعوة فيها إلى شهادة أن لا إله إلا الله دعوة تفصيلية، ليست إجمالية، أما الإجمال فيدعو إليه كثيرون، ممن يقولون: نهتم بالتوحيد، ونبرأ من الشرك، لكن لا يذكرون تفاصيل ذلك، والذي ذكره الإمام–رحمه الله– في بعض رسائله أنه لما أراد عرض هذا الأمر يعني: الدعوة إلى التوحيد على علماء الأمصار قال: وافقوني على ما قلت، وخالفوني في مسألتين: في مسألة التكفير، وفي مسألة القتال، وهاتان المسألتان سبب المخالفة –مخالفة أولئك العلماء للشيخ– لأنهما فرعان ومتفرعتان عن البيان والدعوة إلى أفراد التوحيد، والنهى عن أفراد الشرك.

فالدعاء إذن إلى شهادة أن لا إله إلا الله، هو الدعاء إلى ما دلت عليه من التوحيد، والدعاء إلى ما دلت عليه من نفي الشريك في العبادة، وفي الربوبية، وفي الأسماء والصفات عن الله -جل وعلا-، وهذه الدعوة دعوة تفصيلية لا إجمالية؛ ولهذا فصَّل الإمام-رحمه الله- في هذا الكتاب أنواع التوحيد، وأفراد توحيد العبادة، وفصل الشرك الأكبر والأصغر، فبيَّن أفرادا من ذا وذاك.

وسيأتي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله في الباب الذي بعده؛ لأنه باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله.

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨)

(ق): **قوله:** ﴿قل هذه سبيلي﴾، المشار إليه ما جاء به النبي ﷺ من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

سبيلي: طريقي.

قوله: ﴿أدعو﴾، حال من الياء في قوله: ﴿سبيلي﴾، ويحتمل أن تكون استئنافاً لبيان تلك السبيل.

وقوله: ﴿إلى الله ﴾، **لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:**

داع إلى الله.

داع إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يريد أن يوصل الناس إلى الله تعالى. والداعي إلى غيره قد يكون داعياً إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يعظم بين الناس ويحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهياً أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه. وقد يكون داعياً إلى رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعو إلى رؤسائهم. من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة، فهؤلاء دعوا إلى غير الله. ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه، فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلي: "انفذ على رسلك، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"، يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يجب، فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يتبع، لا لأنه لم يجب، فإذا كان يغضب لهذا، فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد، كفى، وإذا لم يستجب أحد، فقد أبرأ ذمته أيضاً، وفي الحديث: "والنبي وليس معه أحد".

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل، لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقروا الباطل مع طول الزمن، ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

قوله: ﴿على بصيرة﴾، أي: علم، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم، لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله ﴿على بصيرة﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل، العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: "إنك تأتي قوماً أهل كتاب". وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي، لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة باللين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع، كقوله ﷺ: "من قتل قتيلاً، فله سلبه"[1]، أو بالتأليف، فالنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم في غزوة حنين إلى مئة بعير، فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿أنا ومن اتبعني﴾، ذكروا فيها رأيين:

الأول: "أنا" مبتدأ، وخبرها "على بصيرة"، "ومن اتبعني" معطوفة على "إنا" أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة، أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: "أنا" توكيد للضمير المستتر في قوله: "أدعو"، أي: أدعو أنا إلى اللهُ ومن اتبعني يدعو أيضاً، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى اللهُ ويدعو من اتبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: ﴿وسبحان اللهُ ﴾، أي: أن أكون أدعو على غير بصيرة! وإعراب "سبحان": مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿وما أنا من المشركين﴾، محلها مما قبلها في المعنى توكيد، لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

(**ف**): قال أبو جعفر ابن جرير: يقول تعالى ذكره لنبيه a ﷺ ﴿قل﴾ يا a ﴿هذه﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد اللهُ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان. والإنتهاء إلى طاعته وترك معصيته ﴿سبيلي﴾ طريقتي، ودعوتي ﴿أدعو إلى اللهُ ﴾ تعالى وحده لا شريك له ﴿على بصيرة﴾ بذلك، ويقين علم مني به ﴿أنا﴾ ويدعو إليه على بصيرة أيضاً من اتبعني وصدقني وآمن بي ﴿وسبحان اللهُ ﴾ يقول له تعالى ذكره: وقل. تتريهاً لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريك في

[1] البخاري، كتاب الغزوات: باب قول اللهُ تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم...﴾ ومسلم: كتاب الجهاد/ باب استحقاق القاتل سلب القتيل.

ملكه أو معبود سواه في سلطانه ﴿وما أنا من المشركين﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك بــه. لســت منهم ولاهم مني انتهى.

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- في معنى قوله تعالى: '١٦: ١٢٥' " ادع إلى ســبيل ربــك بالحكمة والموعظة الحسنة " الآية. ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له. مؤثراً له على غيره إذا عرفه. فهذا يدعى بالحكمة. ولا يحتــاج إلى موعظة وجدال. وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق. لكن لو عرفه آثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظــة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادل بالتي هي أحسن. فإن رجع وإلا انتقــل معه إلى الجلاد إن أمكن. انتهى.

(**تم**): فأحسن الأقوال قول من دعا إلى الله، وأحسن الأعمال عمل من دعا إلى الله -جل وعــلا-؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِــي مِــنَ الْمُسْــلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣).

قال الحسن البصري-رحمه الله- في تفسير هذه الآية ما معناه "هذا حبيب الله، هــذا ولي الله، هــذا صفوة الله من خلقه، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، هذا حبيــب الله"، وهذا أمر عظيم فالداعي إلى الله هو أحسن أهل الأقوال قولا، كما دلت عليه الآية السابقة.

و عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي اللهُ عنهما: أَنّ رَسُولُ اللهِ ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قَالَ له: «إِنّكَ تَــأْتِي قَوْما مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فليكن أول ما تدعوهم إِلَيه شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ ...الله "وَفي روايــة: "إلى أن يوحدوا اللهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ. فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلّ يَــوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِــنْ أَغْنِيَــائِهِمْ وتُــرَدّ علىفُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوك لِذَلِكَ، فَإِيّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنّهُ لَيْسَ بَيْنَهَــا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ».أخرجاه [1]

(**ق**): وقوله (أي: قول ابن عباس): "بعث معاذاً" أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشرة من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشــعري رضــي

[1] أخرجه البخاري كتاب التوحيد: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك الله وتعالى، حديث (٧٣٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (١٩).

اللَّهُ عنهما، بعث معاذاً إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها، وأمرهما: "أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا وذكرا ولا تنفرا"[١].

قوله: "لما"، إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود، و"لو": حرف امتناع لامتناع، و"لولا" حرف امتناع لوجود.

قوله: "إنك تأتي قوماً من أهل كتاب"، قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم، **فله طريقان: ١- الوحي. ٢- العلم والتجربة.**

قوله: "من" بيانية، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر. وأخبره النبي ﷺ بذلك، **لأمرين:**

الأول: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعداً لهم، لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: "فليكن"، الفاء للاستئناف أو عاطفة، واللام للأمر، و"أول": اسم يكن، وخبرها "شهادة"، وقيل العكس، يعني "أول" خبر مقدم و"شهادة" اسم يكن مؤخراً. والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول ما يكون هي الشهادة، وإذا كان كذلك، يكون "أول" مرفوعاً على أنه اسم يكن، أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّهُ.

قوله: "شهادة"، الشهادة هنا من العلم، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ [الزخرف: ٨٦]، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان، لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لابد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان، أي: انقياد.

فلو اعتقد بقلبه، و لم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا اللَّهُ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى ينطق بها، لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلابد من النطق، فالنية فقط لا تجزئ، ولا تنفعه عند اللَّهُ حتى ينطق، والنبي ﷺ قال لعمه أبي طالب: "قل"[٢]، و لم يقل: اعتقد أن لا إله إلا اللَّهُ.

قوله: "لا إله"، أي: لا معبود، فإله بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، وعند المتكلمين، إله بمعنى آله، فهو اسم فاعل، وعليه يكون معنى لا إله، أي: لا قادر على الاختراع، وهذا باطل، ولو قيل بهذا المعنى،

---

[١] البخاري: كتاب المغازي/باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن.

[٢] البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا اللَّهُ، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

لكان المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ موحدين لأنهم يقرّون به، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللهُ﴾ [الزمر: ٣٨]. فإن قيل: كيف يقال: لا معبود إلا اللهُ، والمشركون يعبدون أصنامهم؟! أجيب: بأنهم يعبدونها بغير حق، فهم وإن سموها آلهة، فألوهيتها باطلة، وليست معبودات بحق، ولذلك إذا مسهم الضر، لجؤوا إلى اللهُ تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هذا لا تستحق أن تسمى آلهة. فهم يعبدونها ويعترفون بأنهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقربهم إلى اللهُ فقط، فجعلوها وسيلة وذريعة، وبهذا التقدير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم ﴿اعبدوا اللهُ ما لكم من إله غيره﴾ [الأعراف: ٥٩]، لأن هذه المعبودات لا تستحق أن تعبد، بل الإله المعبود حقاً هو اللهُ – ﷻ –. وفي قوله: "لا إله إلا اللهُ" نفي الألوهية لغير اللهُ، وإثباته لله، ولهذا جاءت بطريق الحصر.

(**ف**): قلت: **لا بد في شهادة أن لا إله إلا اللهُ من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها،**

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

وفيه دليل على أن التوحيد – الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه – هو أول واجب. ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام: "أن اعبدوا اللهُ ما لكم من إله غيره" وقال نوح: "أن لا تعبدوا إلا اللهُ" وفيه معنى (لا إله إلا اللهُ) مطابقة.

قال شيخ الإسلام: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا اللهُ، وأن محمداً رسول اللهُ، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً، والمباح دمه وماله: معصوم الدم والمال. ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء.أ. هـ.

قال المصنف رحمه اللهُ تعالى: (وفيه أن الإنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا اللهُ أو يعرفه ولا يعمل به).

قلت: فما أكثر هؤلاء – لا كثرهم اللهُ تعالى.

قوله: (فإن هم أطاعوك لذلك) أي شهدوا وانقادوا لذلك (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات) فيه: أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين. قال النووي ما معناه: أنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام. ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة. والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه. وهذا قول الأكثرين أ.هـ.

قوله: (فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم).

فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء، وإنما خص النبي ﷺ الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية.

وفيه: أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها: إما بنفسه أو نائبه، فمن امتنع عن آدائها إليه أخذت منه قهراً.

في الحديث دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد، كما هو مذهب مالك وأحمد.

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا إلى كافر غير المؤلف، وإن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون، كما هو قول الجمهور، لعموم الحديث.

قلت: والفقير إذا أفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره. كما قرره شيخ الإسلام.

قوله (إياك وكرائم أموالهم) بنصب كرائم على التحذير، وجمع كريمة قال صاحب المطالع هي الجامعة للكمال الممكن في حقها، من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف. ذكره النووي (قلت) وهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمناً.

وفيه: أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال. بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز.

قوله: (واتق دعوة المظلوم) أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم، وهذان الأمران يقيان من رزقهما من جميع الشرور دنيا وأخرى.

وفيه تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: (فإنه) أي الشأن (ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن، أي فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها.

وفى الحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به. وبعث الإمام العمال لجباية الزكاة. وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمرهم بتقوى الله تعالى، ويعلمهم، وينهاهم عن الظلم ويعرفهم سوء عاقبته. والتنبيه على التعليم بالتدريج. قاله المصنف.

قلت: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصوم والحج، فأشكل ذلك على كثير من العلماء. قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس: أن بعض الرواة اختصر الحديث وليس كذلك. فإن هذا طعن في الرواة. لأن ذلك إنما يقع في الحديث الواحد، مثل حديث وفد عبد القيس[١] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره، فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيها كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة. فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي، ولهذا لم يذكر وجوب الحج، كعامة الأحاديث، إنما جاء في الأحاديث المتأخرة.

الجواب الثاني: أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه. فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها: كالصلاة والزكاة. ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم. فإما أن يكون قبل فرض الحج، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه، وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما، لأنهما عبادتان ظاهرتان، بخلاف الصوم بأنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، وهو يذاكر في الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ويصيرون مسلمين بفعلها. فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم، وإن كان واجباً كما في آيتي براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم، لأنه تبع وهو باطن، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، ولا يجب في العمر إلا مرة. انتهى بمعناه.

قوله (أخرجاه) أي البخاري ومسلم، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

---

[١] متفق عليه: ونص الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من القوم ؟ أو : من الوفد ؟ " قالوا : ربيعة . قال : " مرحبا بالقوم أو : بالوفد غير خزايا ولا ندامى " . قالوا : يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة . فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالإيمان بالله وحده قال : " أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس" ونهاهم عن أربع : عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وقال : " احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم " ولفظه للبخاري.

ولهما عن سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومَ خَيبرَ: لأُعطِيَنّ الرايةَ غداً رجلاً يُحِبّ الله ورسوله ويُحبّه الله ورسولهُ يَفتحُ الله على يديهِ. فباتَ الناسُ يدُوكون لَيلَتَهم أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غَدَوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلّهم يَرجو أن يُعطاها، فقال: أين عليّ؟ فقِيل: يَشتَكي عينيهِ، فأرسلوا إليه فأتى به فبصَقَ في عَينيهِ ودَعا لهُ فبَرأَ كأنْ لم يكن بهِ وجَعٌ، فأعطاهُ الراية ، قال: انفُذ على رِسْلكَ حتّى تنزلَ بساحتِهم، ثمّ ادعُهم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يَجبُ عليهم، من حق الله تعالى فيه فوالله، لأن يَهدِيَ الله بكَ رجُلاً واحداً خَيرٌ لكَ من حُمْرُ النّعَم».[1] يدُكون: أي يخوضون.

(**ف**): **قوله:** (عن سهل بن سعد) أي ابن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى، أبي العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضاً، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: (قال يوم خيبر) وفى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال: "كان علي رضي الله عنه قد تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم فى خيبر، وكان أرمد، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل فى صباحها قال صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية – أو ليأخذن الراية – غداً رجل يحبه الله ورسوله، أو قال: يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه. فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ففتح الله عليه".

(**ق**): **قوله:** "لأعطين"، هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطين.

قوله: "الراية"، العلم، وسمي راية، لأنه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه. واللواء، قيل: إنه الراية، وقيل ما لوي أعلاه، أو لوي كله، فيكون الفرق بينهما، أن الراية مفلولة لا تطوى، واللواء يطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهذا يسمى علماً.

(**ف**): قال الحافظ: في رواية بريدة: "إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله" وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفها، ولكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس "كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[1] أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر حديث (٤٢١٠) ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب حديث (٢٤٠٦).

سوداء، ولواؤه أبيض" ومثله عند الطبراني عن بريدة[1]. وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد مكتوب فيه: لا إله إلا اللَّهُ a رسول اللَّهُ [2].

(ق): **قوله:** "غداً"، يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله. والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يراد بالغد ما وراء ذلك، قال تعالى: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ [الحشر: ١٨]، أي: يوم القيامة. وكذلك بالأمس قد يراد به ما وراء ذلك، أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

قوله: "يحب اللَّهُ ورسوله، ويحبه اللَّهُ ورسوله". أثبت المحبة لله من الجانبين، أي أن اللَّهُ تعالى يحب ويحب، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة اللَّهُ للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة اللَّهُ تعالى ثابتة له حقيقة وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات اللَّهُ يكون له سبب، فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب، فقد يبغض اللَّهُ إنساناً في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

(ف): **قوله:** (يحب اللَّهُ ورسوله ويحبه اللَّهُ ورسوله) فيه فضيلة عظيمة لعلي رضي اللَّهُ عنه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة، فإن اللَّهُ ورسوله يحب كل مؤمن تقي، يحب اللَّهُ ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه، أو يكفرونه أو يفسقونه، كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردقم، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، ولكن هذا باطل، فإن اللَّهُ تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم اللَّهُ أنه يموت كافراً.

قوله: (يفتح اللَّهُ على يديه) صريح في البشارة بحصول الفتح، فهو علم من أعلام النبوة.

(ق): **قوله:** "على يديه"، أي يفتح خيبر على يديه.

(تم): **قوله:** "بات" البيتوتة: هي المكث في الليل، سواء أكان نوم، أم لم يكن ومعنى قوله: (يدوكون ليلتهم) أي: يخوضون في تلك الليلة، و(باتوا) يعني: ظلوا ليلا يتحدثون من دون نوم لعِظم هذا الفضل الذي ذكره عليه الصلاة والسلام.

(ق): وجملة يدوكون خبر بات.

---

[1] الطبراني (١١٦١). (حسن).

[2] ابن عدي في الكامل (٢/٦٥٨). (ضعيف).

(ف): وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان.

قوله: (أيهم) هو برفع أي على البناء لإضافتها وحذف صدر صلتها.

قوله: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها) وفى رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال: "ما أحببت الإمارة إلا يومئذ".

قال شيخ الإسلام: إن في ذلك شهادة النبي ﷺ لعلي بإيمانه باطناً وظاهراً وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له، وإذا شهد النبي ﷺ لمعين بشهادة، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ومثل ذلك الدعاء، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو لخلق كثير، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس وعبد الله بن سلام وإن كان شهد بالجنة لآخرين، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الخمر.

(ق): **قوله:** "غدوا على رسول الله"، أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها لينال محبة الله ورسوله. قوله "فقال: أين علي؟". القائل: الرسول ﷺ.

(ف): فيه سؤال الإمام عن رعيته، وتفقد أحوالهم.

قوله: (فقيل هو يشتكي عينيه) أي من الرمد، كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال: ادعوا لي علياً فأتي به أرمد الحديث، وفى نسخة صحيحة بخط المصنف: فقيل هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه مبني للفاعل، وهو ضمير مستتر في الفعل راجع إلى النبي ﷺ ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله.

(ق): **وقوله:** "فأرسلوا إليه": بأمر الرسول ﷺ.

قوله: "فأتى به"، كأنه ﷺ قد عمم على عينيه، لأن قوله: "أتي به"، أي: يقاد.

(ف): ولمسلم من طريق إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: فأرسلني إلى علي فجئت به أقوده أرمد.

قوله: (فبصق) بفتح الصاد، أي تفل.

وقوله: (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة، أي عوفي في الحال، عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر.

وعند الطبراني من حديث علي (فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي ﷺ إلي الراية)[1] وفيه دليل على الشهادتين.

---

[1] حسن : أحمد(١/٧٨)، الطيالسي(١٨٩)، وبنحوه الطبراني في الأوسط (٩/١٢٢-مجمع).

(ق): هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسوله ﷺ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله: لتخصيص النبي ﷺ له ذلك من بين سائر الصحابة.

(ف): قوله (فأعطاه الراية) قال المصنف: فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ومنعها عمن سعى. وفيه أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل.

(ق): **قوله:** "انفذ على رسلك"، أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة، أي: حليبها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امش هويناً هويناً، لأن المقام خطير، لأنه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

(ف): وفيه: الأدب عند القتال وترك العجلة والطيش، والأصوات التي لا حاجة إليها.

(ق): **قوله:** "حتى تنزل بساحتهم"، أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي ﷺ يقول: "إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"[1].

وهذا إذا كنا على الوصف الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا في أحضانهم، فمن الممكن أن يقوموا ونكون في الأسفل.

قوله: "ثم ادعهم"، أي: أهل خيبر، "إلى الإسلام"، أي: الاستسلام لله.

قوله: "وأخبرهم بما يجب عليهم"، أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا، فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره. وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع، فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه، لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون. ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

(ف): وفيه: أمر الإمام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة، كما يشير إليه قوله ثم ادعهم إلى الإسلام أي الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإن شئت قلت الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده،

[1] البخاري: كتاب الأذان/ باب ما يحقن بالأذان من الدماء، ومسلم: كتاب الحج/باب فضل المدينة.

وإخلاص الطاعة لرسوله ﷺ. ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسـوله: '٣: ٦٤' " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا اللَّهُ ولا نشرك به شيئا ولا يتخـذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللَّهُ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ".

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّهُ: والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له والعبودية له. كذا قال أهل اللغة.

وقال رحمه اللَّهُ تعالى: ودين الإسلام الذي ارتضاه اللَّهُ وبعث به رسله: هو الاستسلام له وحده، فأصله في القلب. والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده وعبد معه إلهـاً آخـر لم يكـن مسلماً. ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، وفي الأصل: هو من بـاب العمـل، عمـل القلـب والجوارح. وأما الإيمان فأصله تصديق القلب، وإقراره ومعرفته، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب. انتهى.

فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة وهو دعوة جميع المرسلين، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله، كما قال تعـالى عـن نـوح أول رسول أرسله: '٧١: ٣' "أن اعبدوا اللَّهُ واتقوه وأطيعون".

وفيه: مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون[1] وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوقم.

قوله: "وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّهُ تعالى فيه" أي في الإسلام إذا أجابوك إليه فـأخبرهم بمـا يجب من حقوقه التي لابد لهم من فعلها: كالصلاة والزكاة، كما في حديث أبي هريرة: "فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها "[2] ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله مانعي الزكـاة: " كيـف تقاتل الناس وقد قال رسول اللَّهُ صلى اله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّهُ. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها. قال أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعـوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّهُ ﷺ، لقاتلتهم على منعها "[3].

وفيه: بعث الإمام الدعاة إلى اللَّهُ تعالى، كما كان النبي ﷺ وخلفائه الراشدون يفعلون.

(ق): **قوله:** "لأن يهدي اللَّهُ"، اللام واقعة في جواب القسم، وأن بفتح الهمزة مصدرية، ويهدي مؤول بالمصدر مبتدأ، "وخير": خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وإن تصوموا خير لكم﴾ [البقرة: ١٨٤].

---

[1] الغار: الغافل

[2] مسلم :حديث(٢١).

[3] البخاري، حديث (١٣٣٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠).

قولـه: "حمر النعم" بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد بالأول. وحمر النعم: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: "لأن يهدي اللهُ بك"، و لم يقل: لأن تهدي، لأن الذي يهدي هو اللهُ. والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

(**ف**): قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها.

وفيه: فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يستحلف.

(**ق**): **وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟**

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأن من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام، لأن علياً موجه إلى قوم كفار يدعوهم الإسلام، والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى ٱللَّهُ طريق من اتبعه ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه ٱللَّهُ تعالى عن المسبة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله.

السادسة: وهي من أهمها – إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: (أن يوحدوا ٱللَّهُ)، معنى شهادة: أن لا إله إلا ٱللَّهُ.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: (لأعطين الراية) إلخ. علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً.

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: (على رسلك).

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: (أخبرهم بما يجب عليهم).

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله تعالى في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يده رجل واحد.

الثلاثون: الحلف على الفتيا.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ، وتؤخذ من قوله تعال: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾. والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

الثانية: التنبيه على الإخلاص، وتؤخذ من قوله: "أدعو إلى الله"، ولهذا قال: "لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه"، فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿أدعو إلى اللهِ على بصيرة﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض، لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة. فيكون العلم بذلك فريضة.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تتريهاً لله عن المسبة، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سبحان اللهِ وما أنا من المشركين﴾، فسبحان اللهِ دليل على أنه واحد لكماله. ومعنى عن المسبة، أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق، إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصاً، قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا؟

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وما أنا من المشركين﴾ بعد قوله: ﴿وسبحان اللهِ ﴾.

السادسة – وهي من أهمها –: إبعاد المسلم عن المشركين، لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك. لقوله تعالى: ﴿وما أنا من المشركين﴾، ولم يقل: "وما أنا مشرك"، لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركاً، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال اللهُ للملائكة: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾ [البقرة: ٣٤]، توجه الخطاب له ولهم.

السابعة: كون التوحيد أول واجب، تؤخذ من قوله ﷺ: "فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا اللهُ"، وفي رواية: "أن يوحدوا اللهَ". وقال بعض العلماء، أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، تؤخذ من قوله ﷺ: "ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللهِ تعالى فيه".

التاسعة: أن معنى أو يوحدوا اللهَ معنى شهادة أن لا إله إلا اللهُ، تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في رواية بقوله: "شهادة أن لا إله إلا اللهُ"، وفي رواية عبر بقوله: "أن يوحدوا اللهَ".

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها، ومراده بقوله: "لا يعرفها، أو يعرفها" شهادة أن لا إله إلا اللهُ، وتؤخذ من قوله: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللهُ"، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا اللهُ ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج. تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: "ادعهم إلى أن يوحدوا اللهَ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن اللهَ افترض عليهم..." إلخ الحديث.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم. تؤخذ من أمره ﷺ معاذاً بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة. تؤخذ من قوله: "فترد على فقرائهم".

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم. المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل. تؤخذ من قوله: "إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم"، فبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال. تؤخذ من قوله: "فإياك وكرائم أموالهم"، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم. تؤخذ من قوله: "واتق دعوة المظلوم".

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب. تؤخذ من قوله: "فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"، فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيباً، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيباً، لقوله: "اتق دعوة المظلوم"، فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب، خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جري على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء. والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها في عهد النبي ﷺ جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأما الوباء، فهو ما وقع في عهد علي ﷺ، وأما المشقة، فظاهرة. ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أن الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء.

التاسعة عشرة: قوله: "لأعطين الراية" علم من أعلام النبوة. لأن هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً. لأن بصق في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.

الحادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب ﷺ. وهذا ظاهر، لأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح. لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى. لأن الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها و لم يعطوها، وعلى بن أبي طالب مريض و لم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: "على رسله". ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال. لقوله: "انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام".

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: "أخبرهم بما يجب عليهم". لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام، لأنه قد يطبق هذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام. تؤخذ من قوله: "وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه".

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد. لقوله: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"، أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم، خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

الثلاثون: الحلف على الفتيا. لقوله: "فوالله لأن يهدي الله...." إلخ، فأقسم النبي ﷺ هو لم يستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه. ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة، لأنه قد يفهم السامع أن المفتي لم يحلف إلا لشك عنده. والإمام أحمد رحمه الله أحياناً يقول في إجابته: إي والله، **وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن**:

في قوله تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق﴾ [يونس: ٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن﴾. [التغابن: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بل وربي لتأتينكم﴾ [سبأ: ٣].

فإذا كان في القسم مصلحة ابتداءاً، أو جواباً لسؤال، جاز وربما يكون مطلوباً.



باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلهَ إلاّ الله

(ق): التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فسرت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فسرت ثوبي، فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم. والتوحيد تقدم تعريفه، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد في ألوهيته.

وقوله: "شهادة أن لا إله إلا الله"، معطوف على التوحيد، أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله. والعطف هنا من باب عطف المترادفين، لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله. وهذا الباب مهم، لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذي بوب له هذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه). فيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد.

(ف): قلت: هذا من عطف الدال على المدلول.

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى لا إله إلا الله وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى '١٧: ٢٣' " وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه " وسابقها ولاحقها، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها، فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة. وفيها: الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم. لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى: '١٧: ٥٦' "قل ادعوا الذين زعمتم من دونه" أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه، والعزير والملائكة، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي، كما في هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك. وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد وينافي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده.وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له.

وفي هذه الآية: أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة.ولو كان المدعو نبياً أو ملكاً. وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان، لأن دعوته تكون داعيه أحوج ما كان إليها، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله.

(**تم**): ولهذا قال العلماء: إن العطف في قوله (التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله) من عطف المترادفات، ولكن هذا فيه نظر من جهة أن الترادف غير موجود، أعني: الترادف الكامل، لكن الترادف الناقص موجود، فيكون إذا باب تفسير التوحيد، يعني: الكشف والإيضاح عن معنى التوحيد، وقد تقدم: إن التوحيد هو اعتقاد أن الله -جل وعلا- واحد في ربوبيته لا شريك له واحد في إلاهيته لا نِدَّ له، واحد في أسمائه وصفاته لا مثل له ﷻ، قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١)

وذلك يشمل أنواع التوحيد جميعا، فالتوحيد إذاً هو اعتقاد أن الله واحد في هذه الثلاثة أشياء.

قوله: (وشهادة أن لا إله إلا الله) يعني: تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فهذه الشهادة هي أعظم كلمة قالها مكلف، ولا شيء أعظم منها؛ وذلك لأن معناها هو الذي قامت عليه الأرض والسماوات، وما تعبَّدَ المتعبدون إلا بتحقيقها ولامتثالها، والشهادة تارة تكون شهادة حضور وبصر، وتارة تكون شهادة عن علم بمعنى أنه، إما أن يشهد على شيء حضره ورآه أو يشهد على شيء علمه، فهذان معنيان للشهادة.

فإذا قال قائل: أشهد فيحتمل أنها بمعنى: المشاهدة والرؤيا، ويحتمل أنها بمعنى العلم ومعنى الشهادة في قولنا: أشهد أن لا إلهَ إلاّ الله شهادة علمية، ولهذا تضمَّن قوله: أشهد، العلم.والشهادة في اللغة والشرع، وفي تفاسير السلف لآي القرآن التي فيها لفظ شهد كقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨) وكقوله ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: من الآية٨٦) **تتضمن أشياء:**

الأول: الاعتقاد بما سينطق به، والاعتقاد بما شهده، فكونه يشهد أن لا إله إلا الله يستلزم: أنه اعتقد بقلبه معنى هذه الكلمة، عن علم، ويقين، لأن الشهادة فيها الاعتقاد، والاعتقاد لا يسمى اعتقادا إلا إذا كان ثم علم ويقين.

الثاني: التكلم بها فالشهادة كما أنها تقتضي اعتقادا، فإنها تقتضي أيضاً إعلاما ونطقاً.

والثالث: الإخبار بذلك، والإعلام به فينطقه بلسانه وهذا من جهة الواجب، وأيضا لا يسمى شاهدا حتى يخبر غيره بما شهد، هذا من جهة الشهادة، فيكون: أشهد أن لا إله إلا الله: أعتقد وأتكلم وأعلم، وأخبر بأن لا إله إلا الله.

فافترقت بذلك عن حال الاعتقاد، وافترقت عن حال القول، كما افترقت أيضاً عن حال الإخبار المجرد عن الاعتقاد، فلا بد لتحققها من حصول الثلاثة مجتمعة؛ ولهذا نقول في الإيمان: إنه اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

فـ(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، وهي مشتملة من حيث الألفاظ على أربعة ألفاظ:

١. (لا).
٢. (إله).
٣. (إلا).
٤. لفظ الجلالة (ﷲ).

أما لا هنا فهي النافية للجنس تنفى جنس الألوهية الحقة عن أحد إلا ﷲ -جل وعلا- يعني في هذا السياق وإذا أتى بعد النفي "إلا" وهي أداة الاستثناء صارت أفادت معنى زائدا وهو الحصر والقصر، فيكون المعنى الإلهية الحقة أو الإله الحق هو ﷲ، بالحصر والقصر ليس ثم إله حق إلا هو دون من سواه.

وكلمة (إله) على وزن فِعَال وتأتى أحيانا بمعنى فاعل، وتأتى أحيانا بمعنى مفعول، وهي لغة مشتقة من آله بمعنى عبد، وقال بعض اللغويين: أنها من أله يأله إذا تحير، فـ(أله) فلان يأله أو تأله إذا تحير، وسمي الإله عندهم إلها؛ لأن الألباب تحيرت في كنه وصفه، وكنه حقيقته.

وهذا القول ليس بجيد، بل الصواب أن كلمة إله فعال بمعنى مفعول وهو المعبود ويدل على ذلك ما جاء في قراءة ابن عباس أنه قرأ في سورة الأعراف: ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وإلهتك﴾.

كان ابن عباس يقرأها هكذا "ويذرك وإلهتك" قال: لأن فرعون كان يُعْبَد و لم يكن يَعْبُد، فصوب القراءة بـ ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلِهَتَكَ ﴾(الأعراف: من الآية١٢٧) يعني وعبادتك، وقراءتنا وهي قراءة السبعة ﴿وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ (الأعراف: من الآية١٢٧) يعني المتقدمين، فهذا معناه أن ابن عباس فهم من الإلهة معنى العبادة، وقد قال الراجز:

لله درُّ الغانيات المدَّه سبحن واسترجعن من تأله

يعني: من عبادتي، فيكون إذن الإله هو المعبود، فمعنى لا إله (لا معبود إلا ﷲ فـ(لا) في قوله (لا معبود) هي: النافية للجنس وهي -كما تعلمون- تحتاج إلى اسم وخبر؛ لأنها تعمل عمل "إن" كما قال ابن مالك في الألفية

عمل (إن) اجعل لـ (لا) في نكرة.........

فإن قيل فأين خبر لا النافية للجنس؟

فالجواب أن كثير من المنتسبين للعلم قدروا الخبر بـ(لا إله موجود إلا ﷲ).

ووجه هذا التقدير، وسببه: يحتاج إلى مقدمة قبله، وهي أن المتكلمين والأشاعرة والمعتزلة ومن ورثوا علوم اليونان قالوا: إن كلمة إله هي بمعنى فاعل؛ لأن فعال تأتي بمعنى مفعول أو فاعل.

فقالوا: هي بمعنى أله، والإله هو القادر ففسروا الإله بأنه القادر على الاختراع، وهذا تجده في مسطوراً في عقائد الأشاعرة كما في شرح العقيدة السنوسية التي تسمى عندهم بـ "أم البراهين" إذ قال فيها ما

نصه: " الإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، قال: فمعنى لا إله إلا الله: لا مستغنيا عما سواه ولا مفتقرا إليه كل ما عداه إلا الله، ففسروا الألوهية بالربوبية، وفسروا الإله بالقادر على الاختراع أو بالمستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه.

ولذلك يقدرون الخبر موجود، فـ(لا إله) خبرها موجود، يعني: لا قادر على الاختراع والخلق موجود إلا الله، ولا مستغنيا عما سواه، ولا مفتقرا إليه كل ما عداه موجود إلا الله؛ لأن الخلق جميعا محتاجون إلى غيرهم، وهذا الذي قالوه هو الذي فتح باب الشرك على المسلمين؛ لأنهم ظنوا أن التوحيد هو إفراد الله بالربوبية؛ فإذا اعتقد المرء أن القادر على الاختراع هو الله وحده صار موحدا، إذا اعتقد أن المستغني عما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه هو الله وحده صار عندهم موحدا، وهذا من أبطل الباطل. لأن مشركي قريش كانوا على إقرار بالربوبية كما دل القرآن على ذلك كقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ﴾الله (العنكبوت: ٦١) وفي آية أخرى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩) ونحو ذلك من الآيات وهي كثيرة كقوله ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ۞فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلال﴾ (يونس٣١-٣٢) الآيات من سورة يونس.

فعلم بذلك أن مشركي قريش لم يكونوا ينازعون في الربوبية، فصارت هذه الكلمة إذاً دالة على غير ما أراد أولئك المتكلمون، وهو ما ذكرناه آنفا من أن معنى (لا إله): هو (لا معبود)، وأن تقدير الخبر: (موجود) فيكون المعنى: لا معبود موجود إلا الله، وهذا باطل؛ لأننا نرى أن المعبودات كثيرة وقد قال جل وعلا: مخبرا عن قول الكفار ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ (صّ: من الآية٥) فدل ذلك أن المعبودات كثيرة والمعبودات موجودة.

فتقدير الخبر بـ(موجود) غلط، ومن المعلوم أن المتقرر في علم العربية أن خبر لا النافية للجنس يكثر حذفُه في لغة العرب، وفي نصوص الكتاب والسنة؛ ذلك أن خبر لا النافية للجنس يحذف إذا كان المقام يدل عليه، وإذا كان السامع يعلم ما المقصود من ذلك.

وقد قال ابن مالك في آخر باب لا النافية للجنس لما ساق هذه المسألة:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر إذا المراد مع سقوطه ظهر

فإذا ظهر المراد مع حذف الخبر فإنك تحذف الخبر؛ لأن الأنسب أن يكون الكلام مختصرا كما قال -عليه الصلاة والسلام-: (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول).

فأين الخبر فيما تقدم؟.

الجواب: إنه في كل ذلك محذوف لكونه معلوماً لدى السامع؛ إذن فخبر (لا إله) هنا معلوم، ولا يصح تقديره: بـ(موجودا)، لأن الآلهة التي عبدت مع الله موجودة، فالصحيح تقدير الخبر بقولك بحق، أو حق يعني لا إله بحق، أولا معبود بحق أو لا معبود حق إلا الله.

وإن قدرت الظرف فلا بأس، أو قدرت كلمة مفردة فلا بأس، فلا معبود حق إلا الله، هذا معنى كلمة التوحيد فيكون كل معبود غير الله -جل وعلا- قد عبد، ولكن هل عبد بالحق أم عبد بالباطل، والظلم والطغيان والتعدي الجواب عبد بالباطل، والظلم والطغيان والتعدي، وهذا يفهمه العربي بمجرد سماعه كلمة لا إله إلا الله.

ولهذا قال الشيخ a بن عبد الوهاب -رحمه الله-: بئس قومٍ أبو جهل أعلم منهم بـ(لا إله إلا الله)، فأبو جهل كان يفهم هذه الكلمة وأبى أن يقولها، ولو كان معناه (لا إله موجود)كما يزعم كثير من أهل هذا العصر وما قبله لقالوها بسهولة، و لم يدروا ما تحتها من المعاني لكنهم كانوا يعلمون أن معناها لا معبود حق إلا الله، وأن عبادة غيره إنما هي بالظلم، فهل يقرون على أنفسهم بالظلم وبالبغي والعدوان، فحقيقة معنى لا إله إلا الله، هي ما شرحناه وبيناه وفيها الجمع بين النفي والإثبات، كما سيأتي في بيان آية الزخرف: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧).

وقول الله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (الإسراء: من الآية٥٧)

(ق): وقد ذكر المؤلف خمس آيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿أولئك﴾.

"أولاء": مبتدأ.

﴿الذين﴾: اسم موصول بدل منه. ﴿الذين﴾: صلة الموصول.

وجملة ﴿يبتغون﴾: خبر المبتدأ، أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلى رهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعوهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دعي وهو داع، كعيسى بن مريم، والملائكة، والأولياء، والصالحين، وأما الشجر والحجر، فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان، لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال تعالى مبيناً حال هؤلاء المدعوين: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

قوله: ﴿يدعون﴾، أي: دعاء مسألة، كمن يدعو علياً عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة، كمن يتذلل لهم بالتقرب، والنذر، والركوع، والسجود.

قوله: ﴿يبتغون﴾: يطلبون.

قوله: ﴿الوسيلة﴾، أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله، يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله – سبحانه وتعالى – أيهم اقرب إلى الله، وكذلك أيضاً يرجون رحمته ويخافون عذابه.

(**تتم**): وفي مسائل نافع بن الأزرق المعروفة لابن عباس –رضي الله عنهما– إنه سئله عن قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(المائدة: من الآية٣٥) ما معنى الوسيلة؟ فقال: الوسيلة الحاجة، فقال له: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، ألم تسمع قول الشاعر، وهو عنترة يخاطب امرأة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

فقول عنترة: (لهم إليك وسيلة) يعني: لهم إليك حاجة.

ووجه الاستدلال من آية المائدة أنه قال: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ فقدم الجار والمجرور على لفظ الوسيلة، وتقديم الجار والمجرور، وحقه التأخير يفيد الحصر والقصر، وعند عدد من علماء المعاني يفيد الاختصاص، وسواء أكان هذا أم ذاك، فوجه الاستدلال ظاهر في أن قوله تعالى في آية الإسراء ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (الإسراء: من الآية٥٧) معناه أن حاجاتهم إنما يبتغونها عند الله، وقد اختص الله –جل وعلا– بذلك، فلا يتوجهون إلى غيره.

وقد حصروا وقصروا التوجه لله –جل وعلا– وقد جاء بلفظ الربوبية دون لفظ الألوهية قوله تعالى ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ولم يقل يبتغون إلى الله الوسيلة؛ لأن إجابة الدعاء والإثابة هي من مفردات الربوبية؛ لأن ربوبية الله على خلقه تقتضي أن يجيب دعائهم، وأن يعطيهم سؤلهم؛ فظهر من قوله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أن فيها تفسير التوحيد، وهو أن كل حاجة من الحاجات إنما تنزلها بالله – جل وعلا– وكذلك قوله "يدعون" فيه تفسير التوحيد أيضاً لأن معنى ﴿يَدْعُونَ﴾ يعبدون.

فهم إنما يطلبون حاجاهم من ﷲ -جل وعلا-، فلا يعبدون غير ﷲ، بنوع من العبادات ولا يتوجهون بها لغير ﷲ، فإذا نحروا فإنما ينحرون يبتغون إلى ربهم الحاجة، وإذا صلوا فإنما يصلون يبتغون إلى ربهم القربة، وإذا استغاثوا فإنما يستغيثون بالله يبتغون إليه رفيع الدرجات دونما سواه، إلى آخر مفردات توحيد العبادة.

فهذه الآية دالة بظهور على أن قوله: ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (الاسراء: من الآية٥٧)أنه هو التوحيد، وقد استشكل بعض أهل العلم إيراد هذه الآية في هذا الباب وقال: ما مناسبة هذه الآية لهذا الباب، وبما ذكرت لك تتضح المناسبة جلية وقوله جل وعلا: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (الإسراء: من الآية٥٧) فيه بيان لحال خاصة عباد ﷲ الذين جمعوا بين العبادة والخوف والرجاء فيرجون رحمته ويخافون عذابه، وهم إنما توجهوا إليه وحده دون ما سواه فأنزلوا الخوف والمحبة والدعاء والرغب والرجاء في ﷲ -جل وعلا- وحده دون ما سواه، وهذا هو تفسير التوحيد.

(**ف**): **قال العلامة ابن القيم رحمه ﷲ تعالى**: في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه. والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف. وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ " والله يا رسول ﷲ ما أتيتك إلا بعد ما حلفت عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما بعثك به؟ قال: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى ﷲ، وأن تصلى الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة"[1] وأخرج a بن نصر المروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷲ ﷺ " إن للإسلام صوى ومناراً كمنار الطريق. من ذلك أن تعبد ﷲ ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[2] وهذا معنى قوله تعالى: '٣١: ٢٢' "ومن يسلم وجهه إلى ﷲ وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى ﷲ عاقبة الأمور".

وروى البخاري في الآية عن ابن مسعود ﷺ قال: "ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا " وفى رواية: "كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم".

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هي الإسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال: عيسى وأمه وعزير وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: هم عيسى وعزير والشمس والقمر وقال مجاهد: عيسى وعزير والملائكة.

---

[1] حسن: أحمد(٥/٣).

[2] صحيح: المروزي في (تعظيم قدر الصلاة)(٤٠٥). والحاكم في المستدرك(١/٢١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، في هذه الآية، لما ذكر أقوال المفسرين: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، والسلف في تفسيرهم يذكرون تفسير جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى الخبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع من شمول الآية، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً، وذلك المدعو يبتغي الى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، فقد نهى الله تعالى من دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: (ولا تحويلا) فذكر نكرة تعم أنواع التحويل، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله أ.هـ.

وفي هذه الآية رد على من يدعو صالحاً ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئاً، الشرك عبادة الأصنام.

(ق): وجه مناسبة الآية للباب باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله:

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى، فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم، فكيف يغنون غيرهم؟!

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ۞إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٧)

(ق): **الآية الثانية والثالثة**: قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾... الآيتين.

قوله: ﴿براء﴾: على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التخلي، أي: إنني متخل غاية التخلي عما تعبدون إلا الذي فطرني، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذلك معلناً به لأبيه وقومه، وأبوه هو آزر.

قوله: ﴿تعبدون﴾: العبادة هنا التذلل والخضوع، لأن في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

قوله: ﴿إلا الذي فطرني﴾: جمع بين النفي والإثبات، فالنفي: ﴿براء مما تعبدون﴾، والإثبات: ﴿إلا الذي فطرني﴾، فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده، ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾[البقرة: ٢٥٦]، وهؤلاء يعبدون الله ويعبدون غيره، لأنه قال: ﴿إلا الذي فطرني﴾، والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

(**تم**): قال: بعض أهل العلم تبرأ من العبادة ومن المعبودين قبل أن يتبرأ من العابدين لأنه إذا تبرأ من أولئك فقد بلغ به الحنق والكراهة والبغضاء، والكفر بتلك العبادة مبلغها الأعظم.

وقد جاء تفصيل ذلك في آية الممتحنة كما هو معلوم. إذن فمناسبة هذه الآية للباب أن قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ۞إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧)

اشتملت على نفي وإثبات فهي مساوية لكلمة التوحيد بل هي التوحيد ففي هذه الآية تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ ولهذا قال-جل وعلا- بعدها: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾(الزخرف: من الآية٢٨)فما هذه الكلمة؟ هي قول لا إله إلا الله كما عليه تفاسير السلف.

فقوله جل وعلا: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (الزخرف: من الآية٢٦) فيه النفي الذي نعلمه من قوله "لا إله" وقوله "إلا الذي فطرني" فيه الاثبات الذي نفهمه من قولنا "إلا الله" فتفسير شهادة أن لا إله إلا الله هو في هذه الآية لأن: "لا إله" معناها أنني براء مما تعبدون و"إلا الله" معناها إلا الذي فطرني.

ففي آية سورة الزخرف هذه أن إبراهيم -عليه السلام- شرح لهم معنى كلمة التوحيد بقوله: إنني براء مما تعبدون، والبراءة هي الكفر والبغضاء، والمعاداة والتبرأ من عبادة غير الله، فهذه البراءة لا بد منها، لا يصح إسلام أحد حتى تقوم هذه البراءة في قلبه؛ لأنه إن لم تقم هذه البراءة في قلبه، فلا يكون موحدا، والبراءة هي أن يكون مبغضا لعبادة غير الله، كافرا بعبادة غير الله، معاديا لعبادة غير الله.

كما قال في الآية هنا: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أما البراءة من العابدين فإنها من لوازم التوحيد، وليست من أصل كلمة التوحيد، بمعنى أنه قد يعادي، وقد لا يعادي، وهذه لها مقامات منها ما هو مُكَفِّر، ومنها ما هو نوع موالاة، ولا يصل بصاحبه إلى الكفر.

فتَحَصَّل لك إذاً أن البراءة التي هي مضمَّنَة في النفي في قول"لا إله" تقتضي بغض لعبادة غير الله، وكفر بعبادة غير الله، وعداوة لعبادة غير الله. وهذا القدر لا يستقيم إسلام أحد حتى يكون في قلبه ذلك.

(**ق**): وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية من يصلى ويزكي ويصوم ويحج، ومع ذلك يذهبون إلى القبور يسجدون لها ويركعون، فهم كفار غير موحدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية، لأن الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم، لأن العامي لا يأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس -والعياذ بالله - عالم دولة لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم ﷺ: ﴿إلا الذي فطرني﴾، ولم يقل إلا الله لفائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة، لأنه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، لأنها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام. يستفاد من الآية أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لا بد من إخلاصه لله، **والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام**:

- قسم يعبد الله وحده.
- وقسم يعبد غيره فقط.
- وقسم يعبد الله وغيره.
- والأول فقط هو الموحد.

وقوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١)

(**ق**): **الآية الرابعة**: قوله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله...﴾ الآية.

قوله: ﴿أحبارهم﴾: والمعطوف عليها المفعول الأول لـ﴿اتخذوا﴾، والثاني: "أرباباً" أي: هؤلاء اليهود والنصارى صيروا أحبارهم ورهبانهم أرباباً. والأحبار: جمع حبر، وهو العالم، ويقال للعالم أيضاً بحر لكثرة علمه. والحبر، بفتح الحاء، وكسرها يقال: حبر، وحبر. قوله تعالى: ﴿ورهبانهم﴾، أي: عبادهم.

وقوله: ﴿أرباباً﴾: جمع رب، أي يجعلونهم أرباباً من دون الله، فيجعلون الأحبار أرباباً لأنهم يأتمرون بأمرهم في مخافة أمر الله، فيطيعونهم في معصية الله. وجعلوا الرهبان أرباباً باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: ﴿من دون الله ﴾، أي: من غير الله.

(**تم**): والربوبية هنا هي العبادة، يعني اتخذوا أحبارهم ورهبانهم معبودين من دون الله يعني مع الله، وذلك أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، والطاعة من التوحيد، وفرد من أفراد العبادة، فإذا أطاع غير الله في التحليل وفي التحريم، فإنه يكون قد عبد ذلك الغير فهذه الآية فيها ذكر أحد أفراد التوحيد، وأحد أفراد العبادة وهو الطاعة.

(**ف**): قال شيخ الإسلام في معنى قوله "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت "عن النبي ﷺ أنه قال: إنما الطاعة في المعروف"[1].

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسل لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول. فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان مع علمه أنه مخالف للرسول. فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال. وإن كان عاجز عن إظهار الحق الذي يعلمه. فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى: '٣: ١٩٩ ' "وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم" وقوله: '٥: ٨٣ ' "وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " الآية وقوله '٧: ١٥٩ ' "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ". وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثله: من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة. وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً. كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء فيكون

---

[1] البخاري، حديث(٤٣٤٠، ٧١٤٥، ٧٢٥٧)،مسلم ، حديث(١٨٤٠)، من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

فيهم شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك، وفي الحديث: "إن يسير الرياء شرك"[١] وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب. انتهى.

(**ق**): **قوله:** ﴿والمسيح ابن مريم﴾: معطوف على أحبارهم، أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضاً رباً حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾، أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.

قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾، أي: لا معبود حق إلا هو.

قوله: ﴿سبحانه﴾: تنزيه لله عما يشركون. وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، وهذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف رحمه الله، فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا. إذاً، فتفسير التوحيد أيضاً بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر، قال: "إنما الطاعة في المعروف"[٢].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾(البقرة: ١٦٥)

(**ق**): **الآية الخامسة**: قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله...﴾ الآية.

قوله: ﴿من الناس﴾: من للتبعيض، وعلامتها أن يصح أن يحل محلها بعض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿من يتخذ﴾ مبتدأ مؤخر، أي من يجعل لله أنداداً، ومفعولها الأول "أنداداً" مؤخراً، ومفعولها الثاني "من دون الله" مقدماً.

وقوله: ﴿يتخذ﴾: جاءت بالإفراد مراعاة للفظ "من".

وقوله: ﴿يحبونهم﴾: بالجمع مراعاة للمعنى.

---

[١] صحيح بطرقه وشواهده: ابن ماجه(٣٩٨٩)، الحاكم (٤/١)(٣٢٨/٤) من حديث معاذ ﷺ.

[٢] البخاري: كتاب الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم: كتاب الإمام/ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

وقوله: ﴿أنداداً﴾: جمع ند، وهو الشبيه والنظير، ولهذا قال النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت: "أجعلتني لله نداً؟! بل ما شاء الله وحده"[١].

وقوله: ﴿يحبونهم كحب الله ﴾: هذا وجه المشابهة، أي: الندية في المحبة يحبونهم كحب الله.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿كحب الله ﴾:

فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبة لله ومحبة للأصنام، ويجعلون محبة الأصنام كمحبة الله، فيكون المصدر مضافاً إلى مفعوله، أي يحبون الأصنام كحبهم لله.

(**تم**): أي أنهم سووا تلك الآلهة بالله تعالى في المحبة، فهم يحبون الله حبا عظيما، ولكنهم يحبون تلك الآلهة أيضا حبا عظيما، وهذا التسوية هي الشرك، وهي التي جعلتهم من أهل النار كما قال جل وعلا في سورة الشعراء مخبرا عن قول أهل النار: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٩٧-٩٨)

ومعلوم أنهم ما سووا تلك الآلهة برب العالمين في الخلق والرزق ومفردات الربوبية، وإنما سووهم برب العالمين في المحبة والعبادة.

فيكون معنى قوله جل وعلا: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (البقرة: من الآية١٦٥): أنهم يحبونهم محبة مثل محبتهم لله.

(**ق**): وقيل: يحبون هذه الأصنام محبة شديدة كمحبة المؤمنين لله.

(**تم**): فـ(الكاف) هنا بمعنى: (مثل)، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: من الآية٧٤)، فـ(الكاف) هنا اسم بمعنى: مثل، لانه عطف عليها اسماً آخر وهو قوله ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

(**ف**): هم في الواقع ما أحبوا الله حقيقة لأن حب الله لا يكون إلا عن معرفة بالله بأسمائه وصفاته ومن أحب الله ﷻ حقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه نداً. وليس معنى ﴿كحب الله ﴾ أي كحبهم لله ولكن معناها والله أعلم: يحبونهم حباً من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله وهو حب العبادة: غاية الحب في غاية الحب والتعظيم فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء واللجأ والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها مما يجرده المؤمنون لله وحده وهم أشد حباً لله. والمشركون يجردونه لأوليائه أو يشركونهم مع الله ولا يرجون لله وقاراً.

---

[١] صحيح أخرجه النسائي في الكبرى (٢٤٥/٦)، حدي (١٨٢٥)وفي عمل اليوم والليلة (٩٨٨)وأحمد في مسنده (٢١٤/١)حديث (١٨٣٩)والخطيب في التاريخ (١٠٤/٨) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله **ما معناه:** فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة: لزم أن يكون محباً له ومحبته هي الأصل في ذلك. انتهى.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله **تعالى:** فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه، أي مع الله تعالى بعبادته له، وتوحيد الحب: أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب – وإن سمى عشقاً – فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يحب إلا الله، ولا يحب إلا لله، كما في الحديث الصحيح (ثلاث من كن فيه...)[1] الحديث.

ومحبة رسول الله ﷺ هي من محبة الله، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها، ويصدق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر – بمترلة كراهيته لإلقائه في النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئاً، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وبين إلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر، كان أحب إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة. كما لا مثل لمن تعلقت به، وهى محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد. وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً. وهذا لا نظير له في محبة المخلوق، ولو كان المخلوق من كان. ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله. كما قال تعالى: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبوهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله" والصحيح: أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم. كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته. وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين محبته. ومن ضرب لمحبته الأمثال التي في محبة المخلوق للمخلوق: كالوصل، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً. فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. انتهى.

(**ق**): وسياق هذه الآية يؤيد القول الأول.

وقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾. على الرأي الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله، لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم.

---

[1] البخاري، حديث(١٦)، مسلم ، حديث(٤٣).من حديث أنس ﷺ.

وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم، لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين، فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر. فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم، فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: أحلف بالله، حلف صادقاً أو كاذباً، أما الولي، فلا يحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثيراً منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر الرسول ﷺ أعظم من زيارة البيت، لأنهم يجدون في نفوسهم حباً لرسول الله ﷺ كحب الله أو أعظم، وهذا شرك، لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله ﷺ إلا لحب الله، ولأنه رسول الله، ما أحببناه لأنه a بن عبدالله، لكننا أحببناه، لأنه رسول الله ﷺ، فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول ﷺ إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله في المحبة، وفيه أناس أيضاً أشركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية، لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث، وهي محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم، لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذي جاء يصلى هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، لو حاسب الإنسان نفسه لماذا خلق؟ لعلم أنه خلق لعبادة الله، وأيضاً خلق لدار أخرى ليست هذه الدار، فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خلق لها والتي يجب أن يعنى بالعلم لها، يا ليت شعري متى يوماً من الأيام فكر الإنسان ماذا عملت؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي ولا أدري هل ازددت قرباً من الله أو بعداً من الله؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟.

فلا بد لكل إنسان عاقل من غاية، فما هي غايته؟.

نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا، فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصوراً كثيراً وتقصيراً، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعو عباد الله إليها؟ هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك، فإن على طالب العلم مسؤولية ليست هينة، عليه أكثر من زكاة المال، فيجب أن يعمل ويتحرك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلا انحرفت عن شرع الله.

قال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة، فأنت مثلاً لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لا تأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إن جميع الحركات مبناها على المحبة، فالمحبة أساس العمل، فالإشراك في المحبة إشـــراك بـــالله.

والمحبة أنواع

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله. والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء، لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمـــام التوحيد.

قال مجنون ليلي:

أمر على الديار ديار ليـــلى   أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله، كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: "عائشة". قيـــل: فمـــن الرجـــال؟ قـــال: "أبوها"[١]. ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبـــة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة نداً لمحبة الله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها. الشاهد من هذه الآية: أن الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً.

وفي الصحيح عَنْ النبي ﷺ إنه قال:

«مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاّ الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ. وَحِسَابُهُ عَلَى الله ﷻ»[٢].

(**ش**): قوله في الصحيح: أي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺفذكره.

وأبو مالك اسمه سعد بن طارق، كوفي ثقة مات في حدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بـــن أشـــيم – بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر – ابن مسعود الأشجعي، صحابي له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه. وفى مسند الإمام أحمد عن أبي مالك قال: وسمعته يقول للقوم: "من وحد الله وكفر بما يعبـــد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله ﷻ" ورواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون قـــال

---

[١] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، ومسلم: كتاب الفضائل / باب فضائل أبي بكر.

[٢] مسلم: كتاب الإيمان/ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله.

أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن أبيه. ورواه أحمد عن عبد الله بن إدريس قال: سمعت أبا مالك قال: قلت لأبي – الحديث. ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر: لا إله إلا الله.

(ق): قوله ﷺ: "من قال لا إله إلا الله" أي لا معبود حق إلا الله، فلفظ الجلالة بدل من الضمير المستتر في الخبر، ومن يرى أن "لا" تعمل في المعرفة يقولون: هو الخبر.

قوله: "وكفر بما يعبد من دون الله"، أي: بعبادة من يعبد من دون الله، قلنا ذلك، لأن عيسى بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب۞ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم﴾ [المائدة: ١١٦].

(ف): **قوله:** (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين.

الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث كما تقدم.

والثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها.

قلت: وفيه معنى '٢: ٢٥٦' "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها".

(ق): وفي **قوله:** "وكفر بما يعبد من دون الله" دليل على أنه لا يكفي مجرد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لا بد أن تكفر بعبادة من يعبد من دون الله بل وتكفر أيضاً بكل كفر فمن يقول لا إله إلا الله ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح، فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكاراً يختار منها ما يريد، فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مفروضة من قبل الله – عز وجل –، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض الناس في تعبيره بقوله: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية، ولا بأس بقول المفكر الإسلامي، لأنه وصف للشخص نفسه لا للدين الذي هو عليه.

(ف): **قال المصنف رحمه الله تعالى:** (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع) انتهى.

قلت: وهذا هو الشرط المصحح لقوله: لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذا الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً. قال تعالى: '٨: ٣٩' "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" وقال: " فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم" أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً.

وفي صحيح مسلم عن "أبي هريرة مرفوعاً أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" وفي "الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" وهذان الحديثان تفسير الآيتين: آية الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله و لم يعتقد معناها و لم يعمل بمقتضاها. أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات.

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.

وقال القاضي عياض: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد، فلا يكتفي في عصمته بقول لا إله إلا الله إذ كان يقولها في كفره.

انتهى ملخصاً.

وقال النووي: لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء في الرواية ويؤمنوا بي وبما جئت به.

وقال شيخ الإسلام، لما سئل عن قتال التتار فقال: كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه. كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم. قال: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام، أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال أو الخمر، أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار. أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد

بجحودها. فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء. قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمترلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى.

(**تم**): في هذا الحديث بيان التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله؛ ذلك أن ثمة فرقا بين قول لا إله إلا الله، وبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله فالتوحيد والشهادة أرفع درجة، ويختلفان عن مجرد القول.
وهذا الحديث فيه قيد زائد عن مجرد القول، وهو قوله –عليه الصلاة والسلام–: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) فتكون الواو هنا عاطفة ويكون ما بعدها غير ما قبلها؛ لأن الأصل في العطف المغايرة، فتضمن قوله (كفر بما يعبد من دون الله) أمراً زائداً على مجرد القول، فيكون المعنى: أنه قال لا إله إلا الله ومع قوله: (كفر بما يعبد من دون الله) يعني تبرأ مما يعبد من دون الله، هذا قول.
والقول الثاني: أن الواو هنا وإن كانت عاطفة فليست لتمام المغايرة، وإنما هي من باب عطف التفسير فيكون ما بعدها بعض ما قبلها كقوله جل وعلا: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٩٨)، جبريل وميكال بعض الملائكة فعطفهم وخصهم بالذكر، وأظهر اسم جبريل وميكال؛ لبيان أهمية هذين الاسمين وأهمية هذين الملكين؛ لأن أولئك اليهود لهم كلام بالقدح في جبريل وميكال.
فالمقصود: أن العطف هنا عطف خاصٍ بعد عام، أو عطف تفسير؛ لأن ما بعدها داخل فيما قبلها، وهذا تفسير لقوله: "لا إله إلا الله".
فيكون إذن لا إله إلا الله، على هذا القول الثاني متضمنة للكفر بما يعبد من دون الله، وهذا سبق ذكره لك في تفسير معنى البراء المذكورة في آية سورة الزخرف وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ۞إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧). إذ قلنا: إن البراءة تتضمن البغض والكفر والمعاداة، والكفر يكون بما يعبد من دون الله، وهذا تفسير ظاهر لكلمة التوحيد، والوجه الثاني هو الأظهر والأنسب لسياق الشيخ –رحمه الله تعالى– بل هو الذي يتوافق مع ما قبله من الأدلة.

(**ف**): **قوله:** (وحسابه على الله) أي الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد و لم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الإسلام وجب الكف عنه.

قلت: وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبدون من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث.

(ق): **قوله:** "وشرح هذه الترجمة"، المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنها تطلق باصطلاح المؤلفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا، أي: بوب له.

(**ف**): قلت: وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى لا إله إلا الله وفيه أيضاً: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركه من مضمون لا إله إلا الله فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى لا إله إلا الله وما دلت عليه من الإخلاص ونفى الشرك، وبضدها تتبين الأشياء، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقاً، وبمعرفة وسائل الشرك والنهى عنها لتجتنب تعرف الغايات التي نهى عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه. وفيه أيضاً من أدلة التوحيد إثبات الصفات وتتريه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة، وبيّنَها بأمور واضحة.

منها: آية الإسراء، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء والعباد في المعصية، لادعائهم إياهم.

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إنني برآء مما تعبدون * إلا الذي فطرني﴾ فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله. فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾.

ومنها: آية البقرة: في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! فكيف لمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

ومنها قوله ﷺ: (من قال: لا إله إلا اللَّهُ وكفر بما يعبد من دون اللَّهِ حرم ماله ودمه، وحسابه على اللَّهِ) وهذا من أعظم ما يبيِّن معنى (لا إله إلا اللَّهُ) فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا اللَّهَ وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون اللَّهِ، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

(**ق**): **قوله:** "فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد". فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: نفي الألوهية عما سوى اللَّهِ- ﷻ -.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده، فلا بد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد، لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيدة والعمل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات. فإذا قلت: زيد قائم، أثبت لـه القيام و لم توحده، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد، أثبت له القيام ووحدته به. وإذا قلت: اللَّهُ إله أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره، فالتوحيد لم يتم، وإذا قلت: لا إله إلا اللَّهُ، أثبت الألوهية لله ونفيتها عما سواه.

قوله: "تفسير الشهادة". الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه فقول: أشهد أن لا إلـه إلا اللَّهُ. أي أنطق بلساني معبراً عما يكنه قلبي من اليقين وهو أنه لا إله إلا اللَّهُ.

قوله: "منها آية الإسراء. وهو قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون....﴾ [الإسراء: ٥٧]، فبين فيها الـرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هو الشرك الأكبر، لأن الدعاء من العبـادة، قـال تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [غافر: ٦٠]، فدل على أن الدعاء عبادة، لأن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحداً غير اللَّهِ حياً أو ميتاً، فهـو مشرك شركاً أكبر.

ودعاء المخلوق ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقاً بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة، فهـذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: "وإذا دعاك فأجبه"[1].

الثاني: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً، سواء كان حياً أو ميتاً فيما لا يقدر عليه إلا اللَّهُ، فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لا يقدر عليه إلا اللَّهُ، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكراً.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/ باب الأمر بإتباع الجنائز، ومسلم: كتاب السلام/ باب من حق المسلم للمسلم رد السلام.

الثالث: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة، فهذا شرك أكبر أيضاً لأنه لا يدعو من كان هذه حاله حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً في الكون.

قوله: "ومنها آية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله". وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية، لأن الحكم شرعياً كان أو كونياً إلى الله تعالى، فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾ [القصص: ٧٠].

والشيخ رحمه الله جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتي إن شاء الله في باب من أطاع الأمراء والعلماء في تحليل ما حرم الله أو بالعكس.

قوله: "ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾، فاستثنى من المعبودين ربه". فدل هذا على أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحدة.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾، وهي لا إله إلا الله، فكان معنى قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ هو معنى قول: لا إله إلا الله.

قوله: "ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾. فجعل الله المحبة شركاً إذا أحب شيئاً سوى الله كمحبته لله، فيكون مشركاً مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ، فلولا أنه رسول ما وجب طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته، كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك محبة الله، قال المؤلف: "فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده و لم يحب الله؟!".

فالأقسام الأربعة:

الأول: أن يحب الله حباً أشد من غيره، فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس في قلبه محبة لله تعالى، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب، فليس هذا كفرحه بذكر ﷲ ونحوه. حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب ﷲ ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتي إن شاء ﷲ لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف ﴿ومن الناس من يتخذ من دون ﷲ أنداداً﴾.

قوله: "ومنها: قول النبي ﷺ: "من قال: لا إله إلا ﷲ...." إلخ. إذاً، فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله: "وكفر بما يعبد من دون ﷲ". أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقاً، فلا يكفي أن يقول: لا إله إلا ﷲ، ولا أعبد صنماً، بل لا بد أن يقول: الأصنام التي تعبد من دون ﷲ أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لا يكفي أن يقول: لا إله إلا ﷲ ولا أعبد اللات، ولكن لا بد أن يكفر بها ويقول: إن عبادتها ليست بحق، وإلا، كان مقراً بالكفر.

فمن رضي دين النصارى ديناً يدينون ﷲ به، فهو كافر لأنه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام، فقد كذب قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥].

وبهذا يكون كافراً، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحاً ومساءاً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم: ٩]، وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه.



باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

(**تم**): هذا باب شرع به الشيخ -رحمه الله- في تفصيل ما سبق فقال: وهو بيان التوحيد ببيان ضده، ومن المعلوم أن الشيء يعرف ويتميز بشيئين بحقيقته، وبمعرفة ضده، والتوحيد يتميز بمعرفته في نفسه أي: بمعرفة معناه، وإفراده وبمعرفة ضده أيضا.

وقد قال الشاعر:

.... **وبضدها تتميز الأشياء**

وهذا صحيح فإن التوحيد يعرف حسنه بمعرفة قبح الشرك، وقد بدأ الإمام -رحمه الله- في ذكر ما هو مضاد للتوحيد، وما يضاد التوحيد، منه ما يضاد أصله، وهو الشرك الأكبر الذي إذا أتى به المكلف فإنه ينقض توحيده، ويكون مشركا شركا أكبر مخرجا من الملة، فمثل هذا يقال فيه: أنه قد أتى بما ينافي التوحيد، أو ينافي أصل التوحيد.

والثاني: ما ينافي كمال التوحيد الواجب، وهو ما كان حاصلاً من جهة الشرك الأصغر فإنه ينافي كماله الواجب، فإذا أتي بشيء منه فقد نافى بذلك كمال التوحيد؛ لأن كمال التوحيد إنما يكون بالتخلص من أنواع الشرك جميعا، وكذلك الرياء، فإنه من أفراد الشرك الأصغر أعني يسير الرياء، وهذا ينافي كمال التوحيد.

ومنها أشياء يقول العلماء عنها: إنها نوع شرك فيعبرون عن بعض المسائل من الشركيات بأنها نوع شرك، أو نوع تشريك، **فصارت ألفاظهم عندنا في هذا الباب أربعة:**

الأول: الشرك الأكبر.

الثاني: الشرك الأصغر.

الثالث: الشرك الخفي.

الرابع: قولهم: في بعض المسائل: فيها نوع شرك أو نوع تشريك.

وذلك مثل ما سيأتي في قوله جل وعلا: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ (النحل: من الآية٨٣)وفي نحو قوله ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف: ١٩١) وهذا يدخل في باب الطاعة كما سيأتي بيانه مفصلا إن شاء الله.

ابتدأ الشيخ -رحمه الله- في هذا الباب: بتفصيل وبيان صور من الشرك الأصغر التي يكثر وقوعها، وقدم الأصغر على الأكبر انتقالا من الأدنى إلى الأعلى؛ لأن الشبهة في الأدنى ضعيفة بخلاف الشبهة في

الأعلى فإنها أقوى لأن شبهة المتعلق بالخيط، وبالتمائم، أضعف من شبهة المتعلق بالأولياء والصالحين، فإذا علم المتعلق بالخيط، والتمائم ونحوها خطأه وبطلان تعلقه سهل بعد ذلك إقناعه ببطلان التعلق بغير الله من الأولياء والصالحين وبأنه أقبح من الأول، كما هو الحال في الشرك الأكبر، أما إذا جاء إلى من هو متلبس بالشرك الأكبر كالذي يتعلق بالأولياء ويدعوهم، ويسألهم، ويذبح لهم فلا يحسن فيمن هذه حاله أن يُنتقل في إقناعه ببطلان ما هو عليه من الأعلى إلى الأدنى لقوة الشبهة عنده تجاه من أشرك بهم، وهي بزعمه أن أولئك لهم مقامات عند الله -جل وعلا- فهذه حقيقة حال الذين يتوجهون إلى أولئك، المدعوين ويشركون بهم الشرك الأكبر المخرج من الملة، والعياذ بالله، فإنهم يقولون: إنما أردنا الوسيلة، وهؤلاء الذين ندعوهم لهم مقامات عند الله، وإنما أردنا الوسيلة، فحال هؤلاء كحال المشركين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ الذين قال الله -جل وعلا- فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى﴾ (الزمر: من الآية٣) والمقصود أن الشيخ -رحمه الله- بدأ أولاً بتفصيل الشرك الأصغر انتقالا من الأدنى إلى الأعلى، حتى يكون ذلك أقوى في الحجة، وأمكن في النفوس من جهة ضرورة التعلق بالله، وإبطال التعلق بغيره.

قال -رحمه الله-: باب من الشرك "من" هنا تبعيضية، يعني: أن هذه الصورة التي في الباب هي بعض الشرك لكن. هل هي بعض أفراده أو بعض أنواعه؟ الجواب: أنها شاملة للأمرين، لأن ما ذكر وهو لبس الحلقة أو الخيط هو أحد أنواع الشرك، وهو الشرك الأصغر، وهو أيضاً أحد أفراد الشرك بعمومه، لأنها صورة من صور الإشراك.

(ق): ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك، لأن كل من أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً شرعياً ولا قدرياً، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله. فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء. وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدري، لأنه يعلم بالتجارب والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله، كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالثة: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سبباً شرعياً أو كونياً.

ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقياً، وآمنوا بحكمته، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة. ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركاً أكبر في توحيد الربوبية، لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً غيره. وإن اعتقد أنها

سبب، ولكنه ليس مؤثراً بنفسه، فهو مشرك شركاً أصغر لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سبباً فقد شارك ﷻ تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سبباً. وطريق العلم بأن الشيء سبب، إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل ﴿فيه شفاء للناس﴾ [النحل: ٦٩]، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال ﷻ تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ [الإسراء: ٨٢]. وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعاً في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهراً مباشراً كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أن جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشراً، كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع لأن للانفعال النفسي للشيء أثراً بيناً، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً على اعتقادهم نفعها. وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسي ليس طريقاً شرعياً لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس طريقاً للتشريع.

(**تم**): قوله: باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما، المقصود بقوله(ونحوهما) ما يكون نحو الحلقة والخيط مثل الخرز والتمائم والحديد، ونحو ذلك مما قد يلبس.ومثله أيضاً ما يعلق في البيوت، أو في السيارات، أو يعلق على الصغار، ونحو ذلك مما فيه لبس أو تعليق، فكل ذلك يدخل في هذا الباب، وإنه من الشرك.

والحلقة: إما أن تكون من صفر يعني من نحاس، وإما أن تكون من حديد، أو تكون من أي معدن، والخيط معروف، والمراد عقدهُ في اليد على وجه الاعتقاد، وليس المراد خيطا بعينه.

(**ق**): **قوله:** "لرفع البلاء، أو دفعه"، الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام a بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنما ينكر السبب غير الصحيح.

(**تم**): وكان للعرب اعتقاد في الحلقة والخيط ونحوهما كالتمائم وغيرها إذ كانوا يعتقدون أن من تعلق شيئاً من ذلك أثر فيه ونفع، إما من جهة دفع البلاء قبل وقوعه، وإما من جهة رفع البلاء أو المرض بعد وقوعه.

ولهذا قال الشيخ –رحمه ﷻ– لرفع البلاء أو دفعه؛ لأن الحالتين موجودتان فمنهم من يعلق الحلق والخيوط ونحوهما قبل وقوع البلاء لدفعه، ولا شك أن هذا أعظم إثما وذنباً من الذي يعلق هذه الأشياء لرفع البلاء بعد حصوله لأنه يعتقد أن هذه الأشياء الخسيسة الوضيعة تدفع قدر ﷻ جل وعلا.

فالصنف الأول هم من ذكرنا والصنف الثاني: هم الذين يلبسون تلك الأشياء ويعلقونها لرفع البلاء بعد حصوله كمن مرض فلبس خيطا ليرفع ذلك المرض، أو أصابته عين فلبس الخيط؛ ليرفع تلك العين، وهكذا في أصناف شتى من أحوال الناس في ذلك.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر: ٣٨)

(**ق**): وقول الله تعالى: "أفرأيتم"، أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم، لأن من رأى أخبر، وإلا، فهي استفهام عن رؤية، قال تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ [الماعون: ١]، أي: أخبرني ما حال من كذب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين، الأول مفرد، والثاني جملة استفهامية.

(**تم**): قال بعض أهل العلم: إن الفاء إذا جاءت بعد همزة الاستفهام، فإنها تكون عاطفة على جملة محذوفة يدل عليها السياق.

وهذه الآية أولها: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ (الزمر: من الآية٣٨) يعني: قل: أتقرون بأن الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده ومع ذلك تدعون غيره، وتتوجهون لغيره؟! أتقرون بذلك فتفعلون هذه الأشياء؟.

أو يكون التقدير: أتقرون بأن الله هو الواحد في ربوبيته، وأنه هو الذي خلق السموات والأرض وحده؟؟ إذا أقررتم بهذا أفرأيتم هذه الأشياء التي تتوجهون لها من دون الله هل هي قادرة على دفع المضار عنكم؟ أو هل تجلب لكم رحمة من دون الله ؟؟!!.

فعلى هذا تكون الفاء هنا ترتيبية رتبت ما بعدها على ما قبلها، وهذا هو المقصود هنا من هذا الاحتجاج؛ لأن طريقة القرآن أنه يحتج على المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية.

وهم أقروا بالربوبية فرتب على إقرارهم بهذا، أنه يلزمهم أن يبطلوا عبادة غير الله -جل وعلا- ومعنى **قوله:** ﴿تَدْعُونَ﴾ (الزمر: من الآية٣٨) أي تعبدون، وقد تكون العبادة بدعاء المسألة، وقد تكون بأنواع العبادة الأخرى.

وقوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة؛ لأنهما حالتان من أحوال أهل الإشراك بالله.

و﴿ما﴾ في قوله ﴿ما تَدْعُونَ﴾ عامة؛ لأنها اسم موصول بمعنى الذي، أي أفرأيتم الذي تدعونه من دون الله، والذي يدعونه من دون الله – الذي شملته هذه الآية– أنواع، وهو كل ما دعي من دون الله مما

جاء بيانه في القرآن. وقد جاء في القرآن بيان الأصناف التي أشرك بها من دون الله -جل وعلا- وتوجه لها بالعبادة **وهي أنواع:**

الأول: بعض الأنبياء والرسل والصالحون كما قال جل وعلا في آخر سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ (المائدة: من الآية١١٦)، فهذا فيه بيان هذا النوع من المعبودين.

الثاني: الملائكة كما جاء بيان ذلك في آخر سورة سبأ في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ۞قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤٠-٤١).

ونوع آخر من المشركين كانوا يتوجهون للكواكب بالعبادة مثل من يعبد: الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب.

ونوع آخر كانوا يتوجهون إلى الأشجار والأحجار.

ونوع كانوا يتوجهون للأصنام والأوثان.

فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (الزمر: من الآية٣٨) يدخل فيه كل من توجه إليه بشيء من أنواع العبادة، وذلك يفيدنا في معرفة وجه الاستدلال من هذه الآية، كما سيأتي.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ (الزمر: من الآية٣٨) فيه إبطال أن يكون لتلك الآلهة- بأنواعها- إضرار أو نفع ومعنى قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ أي لا يستطيعون ذلك، كما إنه إن أرادني الله -جل وعلا- برحمة فهل تستطيع هذه الآلهة أن تدفع رحمة الله؟! الجواب: أنها لا تستطيع أيضا، فبطل إذاً أن يكون ثم تعلق بتلك الآلهة العظيمة التي يظن أن لها مقامات عند الله -جل وعلا - موجبة لشفاعتها.

(**ق**): **وقوله:** ﴿كاشفات﴾، يشمل الدفع والرفع، فهي لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

(**تم**): إذا تبين ذلك فقد قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية واردة في الشرك الأكبر فلم جعلها الشيخ -رحمه الله- في سرد بيان أصناف من الشرك الأصغر؟؟ والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن الآيات الواردة في الشرك الأكبر، دلت من جهة المعنى، على وجوب التعلق بالله – جل وعلا – وبطلان التعلق بغيره، وهذا المعنى متحقق في الشرك الأصغر – أيضا – ولذا فإن من السلف من نزَّل الآيات الواردة في الشرك الأكبر، على الشرك الأصغر، بجامع أن في كلا الشركين تعلقا بغير الله – جل وعلا-، فإذا بطل التعلق في الأعظم بطل التعلق فيما هو دونه من باب أولى.

الوجه الثاني: أن هذه الآية واردة في الشرك الأكبر، ولكن المعنى الذي دارت عليه هو تقرير أن كل من يدعي من دون الله لا يستطيع من الأمر شيئاً، فلا يقدر أن يرفع ضراً ولا بلاء، ولا أن يمنع رحمة وفضلاً عمن أراده الله بذلك.

وهذا المعنى – الذي هو التعلق بما يعتقد أنه يضر وينفع – هو المعنى الذي من أجله تعلق المشرك –الشرك الأصغر– بالحلقة وبالخيط؛ لأنه ما علق الخيط ولا علق الحلقة؛ وغيرهما إلا لأنه يعتقد أن لهما تأثيراً من جهة رفع البلاء، أو دفع الضر، وأنهما يجلبان النفع أو يدفعان الضر.

مع أن هذه أشياء مهينة وأمور وضيعة فإذا نفي عن الأشياء العظيمة كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين أو الأوثان التي لها روحانيات كما يقولون، فإن انتفاء النفع والضر عما سواها مما هو أدنى لا شك أنه أظهر في البرهان وأبين.

وقوله: ﴿بِضُرٍّ﴾ الواردة في سياق قوله تعالى ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ (الزمر: من الآية٣٨)، نكرة في سياق الشرط فهو يعم جميع أنواع الضرر يعني: أن غير الله –جل وعلا– لا يستطيع أن يرفع ضرا –أي ضرٍّ– أنزله الله –جل وعلا– إلا بإذنه سبحانه.

(**ق**): **وقوله:** ﴿قل حسبي الله ﴾، أي: كافيني، والحسب: الكفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿جزاء من ربك عطاء حساباً﴾ [النبأ: ٣٦]، من الحسب، وهو الكفاية، وحسبي، مبتدأ ولفظ الجلالة خبر، وهذا أبلغ. وقيل العكس، والراجح الأول، لوجهين: الأول: أن الأصل عدم التقديم والتأخير. الثاني: أن قولك: حسبي الله فيه حصر الحسب في الله، أي حسبي الله لا غيره، فهو كقولك: لا حسب لي إلا الله، بخلاف قولك: الله حسبي، فليس فيه الحصر المذكور، فلا يدل على حصر الحسب في الله.

قوله: ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾. قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر. والمعنى أن المتوكل حقيقة هو المتوكل على الله، أما الذي يتوكل على الأصنام والأولياء والأضرحة، فليس بمتوكل على الله تعالى. وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنساناً في شيء ويعتمد عليه، لأن هناك فرقاً بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئاً بأمرك، وبين توكلك على الله، لأن توكلك على الله اعتقادك أن بيده النفع والضر، وأنك متذلل، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه. والشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع ولا بدفع ضر، فليست أسباباً لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري، فيعتبر اتخاذه سبباً إشراكاً بالله. وهناك شاهد آخر في **قوله:** ﴿حسبي الله ﴾، فإن فيه تفويض الكفاية إلى الله دون الأسباب الوهمية، وأما الأسباب الحقيقية، فلا ينافي تعاطيها توكل العبد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنها من عنده.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ أَنّ النّبيّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةً مِنْ صُفْرٍ. فَقَالَ: «مَا هَذِا؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فقَالَ: «انْزِعْهَا، فَإِنّهَا لاَ تَزِيدُكَ إِلاّ وهنا فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً" [1]**.رواه أحمد بسند لا بأس به.**

(**ف**): قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن "الحسن قال: أخبرني عمران بن حصين أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة – قال أراها من صفر – فقال: ويحك ما هذه؟ قال: من الواهنة. قال: أما إنها لا تزيدك إلا وهناً. انبذها عنك فإنك لو إن مت وهي عليك ما أفلحت أبداً " رواه ابن حبان في صحيحه فقال: فإنك لو مت وكلت إليها والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، وقال الحاكم: أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران، وقوله في الإسناد: أخبرني عمران يدل على ذلك.

قوله (عن عمران بن حصين) أي ابن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نجيد -بنون وجيم- مصغر، صحابي ابن صحابي، أسلم عام خيبر، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة.

قوله (رأى رجلاً) في رواية الحاكم (دخلت على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: ما هذه) الحديث فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث.

(**ق**): **قوله:** "حلقة من صفر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة"، والحلقة والصفر معروفان، وأما الواهنة، فوجع في الذراع أو العضد.

(**ف**): **قوله:** (من الواهنة) قال أبو السعادات: الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها، فيرقى منها، وقيل هو مرض يأخذ في العضد، وهي تأخذ الرجال دون النساء وإنما نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم، وفيه اعتبار المقاصد.

(**تم**): وقوله -عليه الصلاة والسلام-: (انزعها)، هذا أمر، وفيه أن تغيير المنكر يكون باللسان، إذا كان المأمور يطيع الآمر، ويكتفي بذلك عن تغييره باليد، لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- له حق الولاية وبإمكانه تغيير هذا المنكر بيده، لكن لما علم من حال ذلك المأمور أنه يمتثل الأمر، قال له: (انزعها) فلا

---

[1] ضعيف: مسند الإمام أحمد (٤/٤٤٥) ـــ واللفظ له ـــ، وابن ماجة (كتاب الطب، باب تعليق التمائم) وليس فيه: (فإنك لو مت ...) إلخ. وفي (الزوائد): (إسناده حسن؛ لأبن مبارك هذا هو ابن فضالة). ورواه ابن حبان أيضاً (١٤١٠) بلفظ (إنك إن نمت وهي عليك وكلت إليها). ومن طريق أبي عامر الخراز عن الحسن عن عمران بنحوه، رواه ابن حبان(١٤١١) والحاكم (٤/٢١٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٠٢٩).

تعارُض بين هذا، وبين ما سيأتي من أن حذيفة ﷺ قطع خيطا من يد رجل، فإن ذلك مبني على حال أخرى.

قوله: (فإنها لا تزيدك إلا وهنا) يعني: أن ضررها أقرب من نفعها، وهذا شامل لجميع أنواع الشرك. فإن ما أشرك به ضرره أعظم من نفعه لو فرض أن فيه نفعا.

وقد قال العلماء في قوله -هنا-: (انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا) يعني لو كان فيها أثر، فإن أثرها الإضرار بدنيا، وروحيا، ونفسيا لأنها تضعف الروح والنفس عن مقابلة الوهن والمرض؛ فيكون تعلقه بذلك الحلقة أو الخيط سبباً في حصول الضعف.

قوله: (فإنها لا تزيدك إلا وهنا) وهذا حال كل من أشرك فإن شركه يجره من ضررٍ إلى ضررٍ أكثر منه، وإن ظن أنه في انتفاع. قوله ﷺ: (فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا)

(**ق**): "ما أفلحت": الفلاح هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

(**تم**): لأن حال المعلق يختلف، فقد يكون علقها لاعتقاده أنها تؤثر استقلالا، وقد يكون علقها من جهة التسبب فإذا كان الذي رئيت في يده صحابياً، تعين أن تعليقه لها من جهة التسبب لا من جهة اعتقاده تأثيرها استقلالاً، ولكن الفائدة من قوله (ما أفلحت أبدا) حصول العبرة له، ولغيره، وبيان عاقبة ذلك.

والفلاح المنفي – في هذا الحديث – يختلف معناه باختلاف حال المعلق، فيكون المراد: إما نفي الفلاح المطلق، بمعنى: الحرمان من دخول الجنة والخلود في النار وهذا في حق من اعتقد أن تعليق الحلقة أو الخيط ينفع استقلالاً فهذا شرك أكبر وأما نفي مطلق الفلاح أو نفي نوع منه أو درجة من درجاته فيكون واقعاً في الشرك الأصغر وهذا إن اعتقد أن تعليق الحلقة أو الخيط سبب لحصول النفع، فهذا: قد اتخذ من الأسباب ما لم يجعله الله -ﷻ- سببا لا شرعا، ولا قدرا.

ومطلق الشيء، والشيء المطلق: مصطلحان يكثر ورودهما في كتب أهل العلم، وفي كتب التوحيد خاصة: فتجدهم يقولون مثلا: التوحيد المطلق، ومطلق التوحيد، والإسلام المطلق، ومطلق الإسلام، والإيمان المطلق، ومطلق الإيمان، والشرك المطلق، ومطلق الشرك، والفلاح المطلق، ومطلق الفلاح، والدخول المطلق، ومطلق الدخول، والتحريم المطلق يعني: تحريم دخول الجنة، أو تحريم دخول النار، ومطلق التحريم.

ومن المهم أن تعلم أن الشيء المطلق هو الكامل، فالإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، والإسلام المطلق هو الإسلام الكامل، والتوحيد المطلق هو التوحيد الكامل، الفلاح المطلق هو الفلاح الكامل، وأما مطلق الشيء فهو أقل درجاته، أو درجة من درجاته، فمطلق الإيمان هو أقل درجاته فنقول: مثلا هذا ينافي الإيمان المطلق، يعني: ينافي الإيمان، أو نقول: هذا ينافي مطلق الإيمان يعني: ينافي أقل درجات الإيمان.

وإذا تقرر هذا فإنا نقول الفلاح المنفي يحتمل أن يكون المنفي الفلاح المطلق، يعني: كل الفلاح أو يكون المنفي: مطلق الفلاح أي درجة من درجاته وقد تقدم أن هذا يعتبر بحسب حال المعلق، فإن كان معتقدا فيها أنها تنفع استقلالاً، فهو من أهل النار، وإن كان يعتقد أنها سبب فهو من أهل النار، لكنه لا يُخلد فيها، كعصاة الموحدين.

(ق): وهذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة، لأن هذا الرجل لبس حلقة من صفر، إما لدفع البلاء أو لرفعه. والظاهر أنه لرفعه، لقوله: "لا تزيدك إلا وهناً"، والزيادة تكون مبنية على أصل. ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١. أن ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال، لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكراً، ودليله أن الرسول ﷺ قال: "ما هذه". والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار، وقول الرجل: "من الواهنة": من للسببية، أي: لبستها بسبب الواهنة، وهي مرض يوهن الإنسان ويضعفه، قد يكون في الجسم كله وقد يكون في بعض الأعضاء كما سبق.
٢. وجوب إزالة المنكر، لقوله: "انزعها"، فأمره بنزعها، لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله: "إنها لا تزيدك إلا وهناً"، أي: وهناً في النفس لا في الجسم، وربما تزيده وهناً في الجسم، أما وهن النفس، فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله – عز وجل –، والانفعال النفسي له أثر كبير في إضعاف الإنسان، فأحياناً يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحياناً يتناسى الإنسان المرض وهو مريض فيصبح صحيحاً، فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا، فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة. فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلى وهناً، لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف في النفس.
٣. أن الأسباب لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.
٤. أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك، لقوله: "لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً"، وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران. ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟. سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.
٥. أن الأعمال بالخواتيم، لقوله: "لو مت وهي عليك"، فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

(ف): **قوله:** (رواه أحمد بسند لا بأس به) هو الإمام أحمد بن a بن حنبل بن هلال ابن أسد بن إدريس بن عبد ﷲ بن حسان بن عبد ﷲ بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن ابن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان – الإمام العالم أبو عبد ﷲ الذهلي ثم الشيباني المروزي ثم البغدادي، إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشبه فنفاها، خرج به من مرو وهو حمل فولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول.

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك، وهي سنة تسع وسبعين فسمع من هشيم وجرير بن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن إدريس الشافعي ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدي وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد. روى عنه ابناه صالح وعبد ﷲ، والبخاري ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وأبو زرعة الرازي وأبو زرعة الدمشقي وعبد ﷲ بن أبي الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمي وأبو القاسم البغوي، وهو آخر من حدث عنه، وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدي والأسود بن عامر، ومن أقرانه علي بن المديني ويحيى بن معين. قال البخاري: مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه، وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. وقال ابنه عبد ﷲ والفضل بن زياد: مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه ﷲ تعالى.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له] [١] وفي رواية. [من تعلق تميمة فقد أشرك] [٢].

(**ف**): **قوله:** (وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له وفي رواية: من تعلق تميمة فقد أشرك) الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضاً أبو يعلى والحاكم وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

قوله: (وفي رواية) أي من حديث آخر رواه أحمد فقال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور عن دجين الحجري عن عقبة بن عامر الجهني "أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: من تعلق تميمة فقد أشرك" ورواه الحاكم ونحوه. ورواته ثقات.

قوله: (عن عقبة بن عامر)صحابي مشهور فقيه فاضل، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريباً من الستين.

(**تم**): المقصود من هذا الحديث ذكر لفظ التعلق، وتعلق يعني: أنه علق وتعلق قلبه بما علق، ولفظ (تعلق) يشمل التعليق وتعلق القلب بما علق فهو نوع لبس. والمعنى: أنه تعلق قلبه بما لبس، سواء كان المعلق في صدره أو يده أو في أي موضع آخر، فالمقصود أن يكون قلبه معلقاً بما تعلقه. والتميمة لها معنى سيأتي شرحه لاحقاً -إن شاء الله تعالى- لكن هي نوع خرزات وأشياء توضع على صدور الصغار غالباً، وقد يضعها الكبار لأجل دفع العين أو دفع الضرر أو الحسد أو أثر الشياطين ونحو ذلك.

وقوله: (فلا أتم الله له) دعاء منه ﷺ على معلقها بألا يتم الله له مراده؛ لأن التميمة أخذت من تمام الأمر وسميت تميمة؛ لاعتقاده فيها أنه بها يتم له الأمر الذي أراد فدعا عليه الرسول-عليه الصلاة والسلام- بألا يتم الله -جل وعلا- له ما أراد.

[١] ضعيف: أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٤٠/٤)حديث (٧٥٠١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. وابن حبان (٤٥٠/١٣)حديث (٨٠٨٦)والبيهقي في الكبرى (٣٥٠/٩)، وأحمد في مسنده (١٥٤/٤) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٢٥/٤)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٢٦٦).

[٢] صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٤٣/٤)، حديث (٧٥١٣)وأحمد في مسنده (١٥٦/٤)، وصححه الألباني في الصحيحة(٤٩٥).

وقوله: (ومن تعلق ودعة فلا ودع ﷲ له) الودعة نوع من الصدف أو الخرز يوضع على صدور الناس أو يعلق على العضد ونحو ذلك، لأجل دفع أو رفع العين ونحوها من الآفات ومعنى **قوله**: (فلا ودع ﷲ له) دعاء عليه – أيضاً– ومعناه: فلا تركه ذلك ولا جعله في دعة وسكون وراحة، وإنما دعا –عليه الصلاة والسلام– عليه بذلك؛ لأن ذاك المعلق أشرك بالله –جل وعلا–.

(**ق**): وقيل: لا ترك ﷲ له خيراً، فعومل بنقيض قصده.

وفي رواية: (من تعلق تميمة فقد أشرك)

(**تم**): قال: وفي رواية: (من تعلق تميمة فقد أشرك)؛ لأن تعليق التمائم والتعلق بها شرك أصغر، وقد يكون أكبر بحسب حال المعلق.

(**ف**): قال أبو السعادات: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير ﷲ الذي هو دافعه.

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله:
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)

(**ف**): قال المصنف رحمه ﷲ (ولابن أبي حاتم عن حذيفة) أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله تعالى: [١٢: ١٠٦] " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ".

قال ابن أبي حاتم: حدثنا a بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب حدثنا يونس بن a حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه. ثم قال: " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ".

وابن أبي حاتم هو الإمام أبو a عبد الرحمن بن أبي حاتم a بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي الحافظ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرهما مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وحذيفة هو ابن اليمان. واسم اليمان: حسيل بمهملتين مصغراً، ويقال حسل – بكسر ثم سكون – العبسي بالموحدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين ويقال له صاحب السر وأبوه أيضاً صحابي، مات حذيفة في أول خلافة علي ﷺ سنة ست وثلاثين.

(**ق**): **قوله:** "من الحمى"، "من" هنا للسببية، أي: في يده خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه، أو يشفى منها.

(**ف**): **قوله:** (رأى رجلاً في يده خيط من الحمى) أي عن الحمى. وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى وروى وكيع عن حذيفة: أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيئ رقى لي فيه، فقطعه وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك وفيه إنكار مثل هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه.

(**ق**): **قوله:** "فقطعه" أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح وقوتهم في تغيير المنكر باليد وغيرها.

وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، أي وتلا حذيفة هذه الآية. والمراد بها المشركون الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية.

وقوله: ﴿وهم مشركون﴾ في محل نصب على الحال، أي: وهم متلبسون بالشرك، وكلام حذيفة في رجل مسلم لبس خيطاً لتبريد الحمى أو الشفاء منها. وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر، لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم.

(**تم**): ومع أن هذه الآية واردة في الشرك الأكبر إلا أنه يصح الاستدلال به على الشرك الأصغر والى هذا أشار المصنف -رحمه الله-: بقوله: فيه أن الصحابة يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: (لا تزيدك إلا وهناً).

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر بن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة، أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي لا ترك الله له.

(**ق**): فيه مسائل: أي في هذا الباب مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك، لقوله ﷺ: "أنزعها -لا تزيدك إلا وهناً-، لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً"، وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، هذا وهو صحابي، فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح. قال المؤلف: "فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر".

قوله: "لكلام الصحابة"، أي: لقولهم، وهو كذلك، فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً"[1]، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة، لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر، فإنها تحت المشيئة.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة. هذا فيه نظر، لأنه قوله ﷺ: "لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً" ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: "لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً"، أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها.

وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل، فنقول: الجهل نوعان:

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشئا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم، فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئا عن خلاف ذلك، أي أنه لم يهمل و لم يفرط و لم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام فإنه يعذر فيه فإن كان منتسباً إلى الإسلام، لم يضره، وإن كان منتسباً إلى الكفر، فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلى الله تعالى على القول الراجح، يمتحن، فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيد ليس عنده علماء و لم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب، فهذا يعذر، **وله أمثلة منها:**

رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم، و لم يسمع عن العلم شيئاً، ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشر سنة، فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابه، فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم و لم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل و لم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة، فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي. وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة، فهذا لا يعذر، لأن الغالب

---

[1] مصنف عبد الرزاق (٨/٤٦٩)، والهيثمي في "مجمع الزوائد" (٤/١٧٧)، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح". (١) مسند الإمام أحمد (٤/٣١٠)، والترمذي (أبواب الطب، باب ما جاء في كراهة التعليق (٢٠٧٣).

في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة، فهو مفرط، فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر، لقوله: "لا تزيدك إلا وهناً". والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك، أي: ينبغي أن ينكر إنكاراً مغلظاً على من فعل مثل هذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضاً قوله: "من تعلق تميمة، فلا أتم الله له".

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وكل إليه. تؤخذ من قوله: "من تعلق تميمة، فلا أتم الله له" إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة، فإن الله لا يتم له، فيكون موكولاً إلى هذه التميمة، ومن وكل إلى مخلوق، فقد خذل، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة، "من تعلق شيئاً وكل إليه"[1].

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة، فقد أشرك. وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك. يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة. أي أن قوله تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر على الأصغر، لأن الأصغر شرك في الحقيقة وإن كان لا يخرج من الملة، ولهذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله: "كما ذكر ابن عباس في آية البقرة"، وهي قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله...﴾ [البقرة: ١٦٥]، فجعل المحبة التي تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله- عز وجل -.

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك، وقوله: "من ذلك"، أي: من تعليق التمائم الشركية، لأنه لا أثر لها ثابت شرعاً ولا قدراً.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي: ترك الله له.

تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعاً، وليس هذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خالف وعصى، فقد قال النبي ﷺ: "إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد، فقولوا: لا ردها الله

[1] مسند الإمام أحمد (٤/١٣٠)، والترمذي (أبواب الطب، باب ما في كراهة التعليق (٧٣٠٢).

عليك"[١]، "وإذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك"[٢]. فهنا أيضاً تقول له: لا أتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول ﷺ على سبيل العموم، فلا نخاطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة: لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعيين سوف يكون سبباً لنفوره، ولكن نقول دع التمائم أو الودع، فإن النبي ﷺ يقولك "من تعلق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له".



---

[١] أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله في سمع الناشد حديث (٥٦٨).

[٢] الترمذي: كتاب البيوع /باب النهي عن البيع في المسجد، ٤٧٢/٢، وحسنه وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: (حديث صحيح) الإرواء ١٣٤/٥.

باب ما جاء في الرقى والتمائم

(**تم**): في الباب السابق قال الإمام -رحمه الله-: باب من الشرك لبس الحلقة والخيط وقال هنا: باب ما جاء في الرقى والتمائم، و لم يقل باب من الشرك الرقى والتمائم وذلك؛ لأن الرقى منها ما هو جائز مشروع ومنها ما هو شرك ممنوع والتمائم منها ما هو متفق عليه أنه شرك ومنها ما قد اختلف الصحابة فيه هل هو من الشرك أو لا؟ لهذا عبر -رحمه الله- بقوله: باب ما جاء في الرقى والتمائم وهذا من أدب التصنيف العالي.

والرقى جمع رقية، وهي معروفة وقد كانت العرب تستعملها، وحقيقتها أنها أدعية وألفاظ تقال أو تتلى ثم ينفث بها، ومنها ما له أثر عضوي في البدن ومنها ما له أثر في الأرواح ومنها ما هو جائز مشروع ومنها ما هو شرك ممنوع وثبت أنه -عليه الصلاة والسلام- رَقى نفسه ورَقى غيره، بل ثبت أنه رُقي أيضا رقاه جبريل ورقته عائشة فهذا الباب باب ما جاء في الرقى والتمائم، معقود لبيان حكم الرقى، وقد رخص الشارع في الرقى ما لم تكن شركاً، وهي الرقى التي خلت من الشرك، وقد سأل بعض الصحابة النبي -عليه الصلاة والسلام- عن حكم الرقى: فقال: (اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك).

وقد قال العلماء: الرقية تجوز بثلاثة شروط مجمع عليها:

الأول: أن تكون بالقرآن أو بأسماء الله أو بصفاته.

الثاني: أن تكون بالكلام العربي أي بلسان عربي معلوم المعنى.

والثالث: ألا يعتقد أنها تنفع بنفسها بل بتقدير الله -عز وجل-.

قال بعض العلماء: يدخل في الشرط الأول أيضا أن تكون بما ثبت في السنة وعلى هذا فيكون الشرط الأول أن تكون من القرآن أو السنة أو بأسماء الله وبصفاته فلا تكون الرقي جائزة إلا باجتماع هذه الشروط الثلاثة.

فإذا تخلف الشرط الأول أو الثاني: ففي جواز الرقية خلاف بين أهل العلم، والشرط الثالث متفق عليه بينهم وأما اشتراط كونها بأسماء الله وصفاته أو بالكتاب والسنة، أو أن تكون بلسان عربي مفهوم، فإن هذا مختلف فيه كما تقدم.

وقال بعضهم: يسوغ أن تكون الرقية بما يعلم معناه ويصح المعنى بلغة أخرى ولا يشترط أن تكون بالعربية ولا يشترط أن تكون من القرآن أو السنة وهذه مسائل فيها خلاف وبحث وما من جهة تأثير

غير القرآن على المرقي وما سبق من الخلاف ففيه مسائل نرجئ تفصيل الكلام فيها إلى موضع آخر إن شاء الله فالمقصود أن الرقى الجائزة بالإجماع هي ما اجتمعت فيها الشروط الثلاثة.

وأما الرقى الشركية المحرمة فهي التي فيها استعاذة أو استغاثة بغير الله، أو كان فيها شيء من أسماء الشياطين، أو اعتقد المرقي فيها بأنها تؤثر بنفسها، وهي التي قال -عليه الصلاة والسلام- فيها (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) كما سيأتي بيانه فالحاصل من ذلك أن الرقى منها ما هو جائز مشروع ومنها ما هو شركي ممنوع، وقد علمت ضابط الرقى الجائزة المشروعة، والمحرمة الشركية الممنوعة.

والتمائم جمع تميمة وقد ذكر تفسيرها مختصرا من قبل وهي تجمع أنواعا كثيرة، فالتمائم تجمع كل ما يعلق أو يتخذ مما يراد منه تتميم أمر الخير للعبد أو دفع الضرر عنه، ويعتقد فيه أنه سبب و لم يجعل الله -جل وعلا- ذلك الشيء سببا لا شرعا ولا قدرا، فالتميمة إذاً شيء يتخذ من جلد أو ورق ويكون فيه أذكار وأدعية وتعوذات تعلق على الصدر أو في العضد وقد تتخذ التميمة من خرزات وحبال ونحو ذلك يعلق على الصدر وقد تكون التميمة باتخاذ شيء يجعل على باب البيت أو في السيارة أو أي مكان ما، فالحاصل: أن التمائم يجمعها أنها: شيء يراد منه تتميم أمر الخير وتتميم أمر دفع الضر وذلك الشيء لم يؤذن به شرعا ولا قدرا.

فالتميمة إذاً ليست خاصة بصورة معينة بل تشمل أموراً كثيرة وتعم أصنافا عديدة مثل ما نراه على الكثيرين من أهل زماننا من تعليقهم أشياء على صدورهم مثل جلود صغيرة يجعلونها على رقابهم أو تكون على العضد أو يربطونها على بطونهم لرفع الأمراض الباطنية كالإسهال والقيء ونحوهما.

ومنهم من يجعل في السيارة رأس دب أو أرنب أو غيرها من الأشكال كحدوة فرس، أو يعلق خرزات ومسابح خشبية ونحو ذلك على المرايا الأمامية للسيارة ومنهم من يلبس سلسلة يجعل فيها شكل عين صغيرة وبعضهم قد يعلق على مدخل الباب رأس ذئب أو غزال أو يضع على مطرق الباب حذوة فرس اعتقاداً من أصحابها أنها تدفع العين أو أن تجلب لهم نفع فكل هذه أنواع وأصناف وصور للتمائم على اختلاف الأزمان.

لكن من الناس من يقول: إنما أعلق هذه الأشياء للزينة ولا أستحضر هذه المعاني المحضورة فهذا يقوله طائفة قليلة من الناس فنقول: إن علق التمائم لدفع الضرر واعتقد أنها سبب فيكون قد أشرك الشرك الأصغر، وإن علقها للزينة فهو محرم؛ لأجل مشابهته من يشرك الشرك الأصغر، فدار الأمر إذاً على النهي على التمائم كلها سواء اعتقد فيها أو لم يعتقد؛ لأن حاله إن اعتقد أنها سبب فهو شرك أصغر، وإن لم يعتقد فيكون قد شابه أولئك المشركين وقد قال عليه الصلاة والسلام- (من تشبه بقوم فهو منهم).

وفي الصحيح عن أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيّ ﷺ أَنّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ. فَأَرْسَلَ رَسُولاً (أن لاَ يَبْقَيَنّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِنْ وَتَرٍ، أَوْ قِلاَدَةٌ، إِلاّ قُطِعَتْ)[1].

(**ف**): **قوله:** (عن أبي بشير) بفتح أوله وكسر المعجمة، قيل اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: (في بعض أسفاره) قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

(**ق**): **قوله:** "أسفاره"، السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمي سفراً، لأمرين: الأول: حسي، وهو أنه يسفر ويظهر عن بلده لخروجه من البنيان. الثاني: معنوي، وهي أن يسفر عن أخلاق الرجال، أي: يكشف عنها وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

(**ف**): **قوله:** (فأرسل رسولاً) هو زيد بن حارثة. روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده قاله الحافظ.

(**ق**): **قوله:** "قلادة من وتر، أو قلادة"، شك من الراوي، والأولى أرجح، لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد، لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك، لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سبباً لم يثبته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ أن نقطع هذه القلائد. أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام، فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

قوله: "في رقبة بعير"، ذكر البعير، لأن هذا هو الذي كان منتشراً حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل حديث (٣٠٠٥)ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب كراهة قلادة الوتر في رقبة البعير حديث (٢١١٥).

يستفاد من الحديث:

١. أنه ينبغي لكبير القوم أن يكون مراعياً لأحوالهم، فيتفقدهم وينظر في أحوالهم.
٢. أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة، فإذا فعلوا محرماً منعهم منه، وإن تهاونوا في واجب حثهم عليه.
٣. أنه لا يجوز أن تعلق في أعناق الإبل أشياء تجعل سبباً في جلب منفعة أو دفع مضرة، وهي ليس كذلك لا شرعاً ولا قدراً، لأنه شرك، ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جعلت في اليد أو الرجل، فلها حكم الرقبة، لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها، فالمكان لا يؤثر.
٤. أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده.

(**تم**): وجه الاستدلال بهذا الحديث أن تعليق القلادة من الوتر على البعير مأمور بقطعه، والأمر بقطعه؛ لأجل أن العرب تعتقد أنها تدفع العين عن الأبعرة، والنعم فيعلقون عليها الأوتار على شكل قلائد وربما ناطوا بالأوتار أشياء من خرز أو من شعر أو نحو ذلك لدفع العين، فهذا نوع من أنواع التمائم.
فمناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة وهي أن قوله: (لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت) ظاهر في النهي عن التمائم وأن هذا النوع يجب قطعه وإنما يجب قطعه؟؛ لأن في تعليقه اعتقاد أنه يدفع الضر أو أنه يجلب النفع وهذا الاعتقاد اعتقاد شركي.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
((إِنّ الرّقَى وَالتّمَائِمَ وَالتّوَلَةَ شِرْكٌ)) [1] رواه أحمد وأبو داود.

(**ف**): قال المصنف: "(وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتولة شرك رواه أحمد وأبو داود) ".
وفيه قصة، ولفظ أبي داود: عن "زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: إن عبد الله رأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقى لي فيه. قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتولة شرك. فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا كف عنها. إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: (أذهب

[1] مسند الإمام أحمد (٣٨١/١) وحسن إسناده أحمد شاكر (٣٦١٥)، وأبو داود (كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، ٢١٢/٥)، والحاكم في (الرقى والتمائم، ٤١٨/٤) ـــ وقال: (صحيح الإسناد على شرط الشيخين)، وأقره الذهبي، وصححه الألباني.

البأس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً)[1] ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

(**تم**): **قوله:** وعن ابن مسعود ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك).

فهذا الحديث تضمَّن تأكيداً لأن دخول "إن" على الجملة الخبرية بعدها يفيد تأكيد ما تضمنته.

وقوله هنا: (الرقى) لما دخلت عليها الألف واللام أفادت العموم، فهذا الحديث أفاد بعمومه أن كل الرقى من الشرك، وأن كل التمائم من الشرك وأن كل التولة من الشرك، فتكون هذه الأنواع كلها من الشرك، وهذا العموم خص الدليل منه الرقى وحدها، وهو قوله: (لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً) وبأن النبي -عليه الصلاة والسلام- رقى ورقي -عليه الصلاة والسلام-.

فدل الدليل إذاً على أن العموم هاهنا مخصوص، فليس كل أنواع الرقية شرك، بل بعض أنواع الرقية، وهي: التي اشتملت على شرك، فالعموم هنا مخصوص، وقد خرج منه ما لم يكن فيه شرك وقد جاء الحديث بلفظ (لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا) وفي لفظ آخر قال: (لا بأس بالرقى ما لم يكن شرك).

أما التمائم فلم يخص الدليل بالجواز منها نوعا دون نوع فتكون التمائم بكل أنواعها شركاً لعدم ورود ما يخصص بعضها، إذ لم يستثن الشارع منها شيئاً والأصل بقاء العام على عمومه، والتخصيص يكون بالشرع، و لم يرد هنا، فيبقى على الأصل.

(**ف**): قوله (فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) كما تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد. وكذا رخص في الرقى من غيرها، كما في صحيح مسلم عن "عوف بن مالك: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا علي رقاكم. لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً" وفى الباب أحاديث كثيرة.

قال الخطابي: وكان ﷺ قد رقى ورقى، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله شرك.

قلت: من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم. وبنحو هذا ذكر الخطابي.

---

[1] صحيح :أحمد (١/٣٨١)، وأبو داود: كتاب الطب(٣٨٨٣): باب في تعليق التمائم وابن ماجة :كتاب الطب (٣٥٣٠): باب في تعليق التمائم والحاكم (٤/٤١٧، ٤١٨)وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وابن حبان (١٤١٢- موارد)وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣١).

وقال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به فضلاً أن يدعو به، ولو عرف معناه: لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام.

وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند **اجتماع ثلاث شروط**:

١. أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته.
٢. وباللسان العربي: ما يعرف معناه.
٣. وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى.

(**ق**): **قوله:** "التمائم"، فسرها المؤلف بقوله: "شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين"، وهي من الشرك، لأن الشارع لم يجعلها سبباً تتقى به العين. وإذا كان الإنسان يلبس أبناءه ملابس رثة وبالية خوفاً من العين، فهل هذا جائز؟ الظاهر أنه لا بأس به، لأنه لم يفعل شيئاً، وإنما ترك شيئاً، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في "زاد المعاد" أن عثمان رأى صبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته، والنونة: هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقرة، ومعنى دسموا، أي: سودوا. وأما الخط: وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل على يده أو رقبته، ففيها خلاف بين العلماء. وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز. ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث، فهو إهانة للقرآن الكريم، لأن هذا الصبي سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن. ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعاً من التبرك فقط، مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل وصدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحجر: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك"[١].

قوله: "التولة"، شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك، لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحب.

(**ف**): **قوله:** (التولة)، قال المصنف: (هي شيئ يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته وبهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث: كما في صحيح ابن حبان والحاكم[٢] قالوا: يا أبا

---

[١] البخاري: كتاب الحج/باب تقبيل الحجر، ومسلم: كتاب الحج/ باب استحباب تقبيل الحجر.

[٢] تفسير ابن مسعود راوي الحديث عند ابن حبان (١٤١٢)، الحاكم (٤/٤١٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

عبد الرحمن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة؟ قال: شيئ نصنعه للنساء يتحببن به إلى أزواجهن.

قال الحافظ: التولة: بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً – شيئاً كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، والله أعلم وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى.

(**ق**): ومثل ذلك الدبلة، والدبلة: خاتم يشترى عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج، قالت المرأة: إنه لا يحبها، فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج، فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية، فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية – وهي بعيدة ألا تصحبها –، ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم. وإن كانت من الذهب، فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب، فهي إما من الشك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك، فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: "شرك"، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟ نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله، فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها، فهي شرك أكبر.

(التمائم): شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و(الرقى): هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العين والحمة.

و(التولة): شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

(**تم**): **قوله:** (التمائم شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين) (شيء) هنا شاملة لأي شيء يعلق دون صفة معينة، وخصَّ بعض العلماء التمائم بما كان متخذاً من الخرز، وبعضهم خصه بما كان مصنوعاً من الجلد ونحوه، وهذا ليس بجيد، بل التمائم اسم يعم كل ما يعلق لدفع العين واتقاء الضرر أو لجلب خير نفسي.

ثم قال: (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف) يعني: إذا كان المعلق من القرآن بمعنى أنه جعل في منزله مصحفا ليدفع العين أو علق على صدره شيئا كسورة الإخلاص أو آية الكرسي؛ ليدفع العين، أو ليدفع الضرر عنه فهذا من حيث التعليق يسمى تميمة فهل هذه التميمة جائزة؟ أم غير جائزة؟

قال الشيخ - رحمه الله - إن التمائم إذا كانت من القرآن فقد اختلف فيها السلف، فجوزها ورخص فيها بعض السلف، ويعني ببعض السلف: بعض كبار الصحابة، ومال إلى هذا القول بعض أهل العلم الكبار وبعضهم لم يرخص فيها كابن مسعود ﷺ وكأصحاب ابن مسعود الكبار منهم: إبراهيم النخعي، وعلقمة وعبيدة والربيع بن خثيم والأسود وأصحاب ابن مسعود جميعا فالحاصل أن السلف اختلفوا في ذلك.

ومن المعلوم أن القاعدة أن السلف إذا اختلفوا في مسألة وجب الرجوع فيها إلى الدليل، والدليل قد دل على أن كل أنواع التمائم منهي عنها كما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: (من تعلق شيئا وكل إليه)، وقوله (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) فمن تعلق القرآن أو شيئاً منه كان داخلا في النهي، لكن إذا كان المعلق للقرآن فلا يكون مشركاً؛ لأنه علق شيئا من صفات الله -جل وعلا- وهو كلام الله -جل وعلا- فلا يكون قد أشرك مخلوقا؛ لأن الشرك معناه أن تشرك مخلوقا مع الله -جل وعلا-، والقرآن ليس بمخلوق بل هو كلام الباري -جل وعلا- منه بدأ وإليه يعود.

فإذا أخرجت التميمة المتخذة من القرآن عن كونها شركاً من عموم **قوله**: (إن التمائم شرك) فلأجل كون القرآن كلام الله ليس بمخلوق. لكن هل هي منهي عنها، أو غير منهي عنها؟؟ الجواب: أن قوله -عليه الصلاة والسلام-: (من تعلق شيئا وكل إليه) ونهيه عن التمائم بأنواعها، دليل على أن تخصيص القرآن بالإذن من بين التمائم ومن بين ما يعلق: يحتاج إلى دليل خاص، لأن إبقاء العموم على عمومه هو إبقاء لدلالة ما أراد الشارع الدلالة عليه بالألفاظ اللغوية، والتخصيص نوع من أنواع التشريع، فلا بد فيه من دليل واضح؛ لهذا صارت الحجة مع من يجعل التمائم التي من القرآن مما لا يرخص فيه كابن مسعود وكغيره من الصحابة -رضوان الله عليهم- وكذلك هو قول عامة أهل العلم، وهو رواية عن الإمام أحمد اختارها المحققون من أصحابه، وعليها المذهب عند المتأخرين.

بقي أن نقول: إن تجويز اتخاذ التمائم من القرآن يترتب عليه مفاسد منها:

أولاً: أنه يفضي إلى الاشتباه، فقد نرى من عليه التميمة فيشتبه علينا الأمر هل هذه تميمة شركية أو من القرآن؟ وإذا ورد هذا الاحتمال، فإن المنكر على الشركيات يضعف عن الإنكار لأنه سيقول: يحتمل أنه تكون من القرآن، فإجازة تعليق التمائم من القرآن فيه إبقاء للتمائم الشركية؛ لأن التمائم تكون مخفية غالبا، واما في جلد أو في نوع من القماش ونحو ذلك، فإذا رأينا من علق تميمة: وقلنا: يحتمل أن تكون من القرآن، أو غيره، فإذا استفصلت منه وقلت له: هل هذه تميمة شركية أو من القرآن؟ فمعلوم أن

صاحب المنكر سيجيب أنها من القرآن حتى ينجو من الإنكار؛ لأنه يريد أن يسلم لـه تعليقهـا، فمـن المفاسد العظيمة أن في إقرار التمائم من القرآن إبقاء للتمائم الشركية، وفي النهي عنـها سـد لذريعـة الإشراك بالتمائم الشركية ولو لم يكن إلا هذا لكان كافيا.

ثانياً: أن الجهلة من الناس إذا علقوا التمائم من القرآن تعلقت قلوبهم بها، فلا تكون عندهم مجرد أسباب، بل يعتقدون أن فيها خاصية بنفسها بجلب النفع أو دفع الضرر ولاشك أن في هذا فتحاً لباب الاعتقادات الفاسدة على الناس يجب وصده ومن المعلوم أن الشريعة جاءت بسد الذرائع.

ثالثاً: ومن المفاسد المتحققة أيضاً أنه إذا علق شيئا من القرآن فإنه يعرضه للامتهان فقد ينـام عليـه أو يدخل به مواضع قذرة أو يكون معه في حالات لا يليق أن يكون معه فيها شيء من القرآن فهـذا ممـا ينبغي اجتنابه وتركه. فتحصل -بالدليل وبالتعليل- أن تعليق التمائم بكل أنواعها لا يجوز فما كان منها من القرآن فنقول: يحرم على الصحيح ولا يجوز ويجب إنكاره، وما كان منها من غير القرآن فهذا نقول فيه: إنه من الشرك بالله لقول النبي ﷺ (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) والتخصيص نوع مـن العلـم فيجب أن يكون فيه دليل خاص.

(**ق**): أقسام التعلق بغير الله: الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتماداً معرضاً عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عنـد حلـول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! أنقذنا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخـرج من الملة. الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مـع الغفلـة عـن المسبب، وهو الله -عز وجل-، وعدم صرف قلبه إليه، فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر، لأن هذا السبب جعله الله سبباً. الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط، مع اعتماده الأصلي على الله، فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، ولو شاء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله -عز وجل-، فهذا لا ينافي التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً، وعلى هذا لا إثم فيه. ومـع وجـود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله. فالموظف الـذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقاً كاملاً، مع الغفلة عن المسبب، وهو، قد وقع في نوع من الشرك، أما إذا اعتقد ان المرتب سبب، والمسبب هو الله -سبحانه وتعالى-، وجعل الاعتماد على الله، وهو يشعر أن المرتب سبب، فهذا لا ينافي التوكل. وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب، وهـو الله- عز وجل -. وجاء في الحديث: "من تعلق"، ولم يقل: من علق، لأن المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث يترل خوفه ورجاءه وأمله به، وليس كذلك من علق.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: (من تعلق شيئاً وكل إليه). رواه أحمد والترمذي.

(ف): قال المصنف: (وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً من تعلق شيئاً وكل إليه رواه أحمد والترمذي) ورواه أبو داود والحاكم[1]، وعبد الله بن عكيم هو بضم المهملة مصغراً، ويكنى أبا معبد، الجهني الكوفي. قال البخاري: أدرك زمن النبي ﷺ ولا يعرف له سماع صحيح وكذا قال أبو حاتم. قال الخطيب سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة، وذكر ابن سعد من غيره أنه مات في ولاية الحجاج.

(تم): وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا (من تعلق شيئا وكل إليه) (شيئا)- هنا- نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الأشياء، فكل من علق شيئا وكل إليه فمن أخرج صورة من صور التعليق عن هذا العموم كانت الحجة عليه؛ لأن هذا الدليل عام.

ويفيد أن من تعلق أي شيء من الأشياء فإنه يوكل إليه والعبد إذا وكل إلى غير الله -جل وعلا- فإن الخسارة أحاطت به من جنباته، والعبد إنما يكون عزه ويكون فلاحه ونجاحه وحسن قصده وحسن عمله في تعلقه بالله وحده، فيتعلق بالله وحده في أعماله وفي أقواله وفي مستقبله وفي دفع المضار عنه فيكون انس قلبه بالله وسروره بالله وتعلقه بالله وتفويض أمره إلى الله وتوكله على الله -جل وعلا-.

فمن كان كذلك وتوكل على الله وطرد الخلق من قلبه فإنه لو كادته السماوات والأرض لجعل الله - جل وعلا- له من بينها مخرجا؛ لأنه توكل وفوض أمره على العظيم -جلَّ جلاله- وتقدست أسماؤه فقال هنا (من تعلق شيئاً وكل إليه) فإذا تعلق العبد تميمة وكل إليها فما ظنك بمن وكل إلى خرقة أو إلى خرز أو إلى حدوة حصان أو إلى شكل حيوان ونحو ذلك لا شك أن خسارته أعظم الخسارة.

ووجه الاستدلال هنا في قوله (من تعلق شيئاً) أنه ذكر نتيجة التعلق وهو أنه يوكل إلى ذلك الشيء الذي تعلقه فمن تعلق شيئا وكل إليه، وإذا وكل إليه فمعنى ذلك أنه خسر في ذلك الخسران المبين.

والشيخ -رحمه الله- لم يصدر الباب بحكم فيكون الاستدلال على حكمها مستفاد من هذه الأحاديث.

---

[1] حسن :الترمذي : كتاب الطب (١٠٧٢) باب ما جاء في كراهية التعليق وأحمد(٣١٠/٤، ٣١١) ،الحاكم(٢١٦/٤) وحسنه الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول (٥٧٥/٧) والحديث لا يوجد عند أبي داود كما أشار إلى ذلك المصنف ووهم في ذلك أيضاً ابن الأثير في جامع الأصول.

وروى أحمد عن رُوَيْفِعُ قال: قال لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا رُوَيْفِعُ لَعَلّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ فَأخْبِرْ النّاسَ أنّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابّةٍ أَوْ عَظْم، فإنّ مُحمّداً بَرِيءٌ مِنْهُ) .[١]

(**ف**): قال المصنف: وروى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ " يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه ".

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة. وفيه قصة اختصرها المصنف. وهذا لفظ حسن: حدثنا ابن لهيعة حدثنا عياش بن عباس عن شييم بن بيتان قال: حدثنا رويفع بن ثابت قال: كان أحدنا في زمن رسول اللَّهِ ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما غنم وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش وللآخر القدح. ثم قال لي رسول اللَّهِ ﷺ... الحديث.

ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثني الفضل حدثنا عياش بن عباس أن شييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني – الحديث. ابن لهيعة فيه مقال. وفي الإسناد الثاني شيبان القتباني، قيل فيه مجهول. وبقية رجالها ثقات.

قوله: (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصاً برويفع، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبو زرعة في شرح سنن أبي داود.

قوله: (لعل الحياة ستطول بك) فيه علم من أعلام النبوة، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار. وقيل مات سنة ثلاث وخمسين.

(**ق**): **قوله:** "من عقد لحيته"، اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم **لأسباب**:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد في قومه.

---

[١] أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب ما ينص عنه أن يستنجي به حديث (٣٦) والنسائي حديث (٥٠٦٧)، وصححه الألباني.

الثاني: الخوف من العين، لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لـذلك، فإن الرسول ﷺ بريء منه. وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئاً منه يرمونه في الأرض، دفعاً للعين، وهذا اعتقاد فاسد ومخالف لقول النبي ﷺ: "إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها"[١].

(**ف**): قال الخطابي: أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين.

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعجباً.

ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث وقال أبو زرعة بن العراقي: والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة، كما دلت عليه رواية a بن الربيع. وفيه أن من عقد لحيته في الصلاة.

(**ق**): **قوله:** "أو تقلد وتراً"، الوتر: سلك من العصب يؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وتراً، ويستعملونها في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

(**ف**): وفي رواية a بن الربيع أو تقلد وتراً – يريد تميمة.

فإذا كان هذا فيمن تقلد وتراً فكيف بمن تعلق بالأموات وسألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، الذي جاء النهى عنه وتغليظه في الآيات المحكمات؟.

(**ق**): **قوله:** "أو استنجى برجيع دابة". الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين، لأن الإنسان الذي يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره. ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: "أو عظم". العظم معروف وإنما تبرأ النبي ﷺ ممن استنجى بهما، لأن، الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أو ما يكون لحماً.

(**ف**): وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: " لا تستنجوا بالروث ولا العظام فإنه زاد إخوانكم من الجن.

(**تم**): وقوله في هذا الحديث: (فإن محمداً بريء منه): هذا من الألفاظ التي تدل على أن هذا الفعل من الكبائر، لان مما يستدل به على كون الفعل، أو القول، من الكبائر: أن يقال عن مرتكبه: الله ورسوله منه بريئان، أو يتبرأ النبي ﷺ منه، لان ذلك يدل على عظم المعصية، وأن الشرك الأصغر من الكبائر كما أن الشرك الأكبر من الكبائر، والكبائر العملية –التي ليس معها اعتقاد– كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر:

---

١ مسلم: كتاب الأشربة/ باب استحباب لعق الأيادي والقصعة وأكل اللقمة، حديث (٢٠٣٣).

هي من حيث جنس المحرم والكبيرة، أقل مرتبة من الشرك الأصغر فضلاً عن الشرك الأكبر، ولهذا نقول: إن جنس الشرك الأصغر- كاتخاذ التمائم، أو نحو ذلك- هذا جنسه أعظم من حيث الذنب والكبيرة من جنس الكبائر العملية التي لا يصحب فاعلها حين فِعلها اعتقاد، كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وما أشبه ذلك.

(**ف**): قوله: (وعن سعيد بن جبير قال: " من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة " رواه وكيع) هذا عند أهل العلم له حكم الرفع، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ويكون هذا مرسلاً لأن سعيداً تابعى. وفيه فضل قطع التمائم لأنها شرك. ووكيع هو ابن الجراح ابن وكيع الكوفى، ثقة إمام، صاحب تصانيف منها الجامع وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

وعن سعيد بن جبير ﷺ، قال: (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع.

(**تم**): **قوله:** (وعن سعيد بن جبير قال: (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة): يعني كان كتحرير رقبة، وهذا فيه فضيلة قطع التمائم وذلك لأنها شرك بالله - جل وعلا -، والشرك الأصغر مُدخل للنار، وفاعله متوعّدٌ بالنار كما في قوله - جل وعلا - ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ٤٨-١١٦) ونحو قوله ﷺ: (ن مات وهو يدعو من دون اللَّهَ نداً دخل النار) وفي نحو قوله -أيضاً-: (ن مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار)فمن قطع تميمة من عنق من علقها: فهو في مقام إعتاق رقبة ذاك الذي قطعت منه التميمة لأنه استوجب بذلك الفعل الوعيد بالنار، فإذا قطع التميمة كان جزاؤه من جنس فعله، فكما أنه أعتق رقبة هذا المسلم من النار أثيب بأن له مثل إعتاق رقبة أي: في الأجر.

وهذا القول من سعيد بن جبير محمول على أنه مما سمعه من الصحابة رضوان اللَّهَ عليهم، لأن هذا مما لا يقال بالرأي، وإذا كان كذلك فله حكم المرسل، لأن فيه فضيلة خاصة جعلها سعيد بن جبير لمن قطع تميمة من رقبة إنسان، فيكون ذلك من قبيل المرسل، يعني: من قبيل المرفوع، وسعيد بن جبير تابعي من أصحاب ابن عباس فيكون مرسلاً.

وفي حجية المرسل كلام: فالإمام أحمد، ومالك، يحتجون بالمرسل وكذلك الإمام أبو حنيفة يحتج بالمرسل، ومنهم من يجعل له شروطاً كالشافعي، ومنهم من يحتج بالمرسل إذا كان المعنى معروفاً في الباب كما هاهنا.

وقال بعض أهل العلم: قول التابعي في الأشياء التي لا تدرك بالاجتهاد ولا يناط بها الرأي يكون محمول على أنه قول صحابي، يعني: انه سمعه من الصحابي، فيكون اجتهاد صحابي، وهذا ليس بقوي، لأنه إذا

كان محمولاً على أنه سمعه من الصحابي، فنقول أيضاً: الصحابي لا يقوله من جهة الرأي، فلا بد أن يكون -إذاً - سمعه من الرسول ﷺ، لأن مثل هذا لا مدخل فيه للاجتهاد، والقول الأول هو المعروف، وهو أن هذه الصيغة من قبيل المرسل.

وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

(**تم**): قوله (وله) يعني لوكيع.

(عن إبراهيم) وهو النخعي، تلميذ ابن مسعود وإبراهيم النخعي عالم أهل الكوفة بعد ابن مسعود.

(**ف**): **قوله:** وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن وإبراهيم: هو الإمام بن يزيد النخعي الكوفي، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء. قال المزي: دخل على عائشة، و لم يثبت له سماع منها. مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: كانوا يكرهون التمائم إلى آخره، مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود، كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد، وعبيد السلماني ومسروق والربيع بن خثيم، وسويد بن غفلة وغيرهم، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحافظ العراقي وغيره.

(**ق**): **قوله:** "التمائم"، هي ما يعلق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيره للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق على الحيوانات. وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء، بل لمجرد التبرك والزينة، كالقلائد الذهبية، أو الحي التي يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً، فهذا كله من البدع. فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنما يستشفى به على ما جاء به الشرع.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقي والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين، من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

فيه مسائل:

قوله: الأولى: تفسير الرقى والتمائم، وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير التولة، وقد سبق ذلك، وعندي أن منها ما يسمى بالدبلة إن اعتقدوا إنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة: أنه هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء، ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر، لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقى ويرقى، ولكنه لا يسترقي، أي: لا يطلب الرقية، فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر، وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم، فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضاً. وأما على رأي ابن مسعود، فصحيح، وبالنسبة للتولة، فهي شرك بدون استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

قوله: (الكلام الحق)، ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل. والمؤلف رحمه الله تعالى خصص العين أو الحمة فقط استناداً لقول الرسول ﷺ: "لا رقية إلى من عين أو حمة"[1]، ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما، كالسحر.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن، فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟

قوله: "ذلك" المشار إليه: التمائم المحرمة. وقد سبق بيان هذا الخلاف، والأحوط مذهب ابن مسعود، لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك، أي: من الشرك.

(تنبيه): ظهر في الأسواق في الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنها تنفع من الروماتيزم، يزعمون الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح، لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلك، وهي لا تؤثر على الجسم، فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة وينتفع بها، فالأصل أنها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً. وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وتراً، بل ظاهره أنه كفر مخرج من الملة، قال: (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله) [التوبة: ٣]، لكن قال أهل العلم: إن البراءة هنا براءة من هذا الفعل، كقوله ﷺ: "من غشنا، فليس منا"[2].

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان، لقول سعيد بن جبير: "كان كعدل رقبة"، ولكن هل قوله حجة أم لا؟.

إن قيل: ليس بحجة، فكيف يقول المؤلف: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؟!

فيقال: أنه إنما كان كذلك، لأنه إنقاذ له من رق الشرك، فهو كمن أعتقه، بل أبلغ. فهو من باب القياس، فمن أنقذ نفساً من الشرك، فهو كمن أنقذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

فائدة:

إذا قال التابعي: من السنة كذا، فهل يعتبر موقوفاً متصلاً ويكون المراد من السنة أي سنة الصحابة، أو يكون مرفوعاً مرسلاً؟ اختلف أهل العلم في هذا، فبعضهم قال: إنه يكون موقوفاً. وبعضهم قال: يكون

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، حديث (٥٧٠٥)ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة، حديث(٢٢٠).

[2] مسلم: كتاب الإيمان/ باب قول النبي ﷺ: "من غشنا فليس منا".

مرفوعاً مرسلاً. وتقدم لنا أنه ينبغي أن يفصل في هذا، وإن التابعي إذا قاله محتجاً به، فإنه يكون مرفوعاً مرسلاً، أما إذا قاله في سياق غير الاحتجاج، فهذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذي ينسب إلى الصحابي.

التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعي لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود، وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً.



باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

(**تم**): (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) يعني: ما حكم هذا الفعل؟ الجواب هو مشرك، يعني: باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فهو مشرك وقوله: (من تبرك) التبرك تفعل من البركة وهو طلب البركة.

والبركة مأخوذة من حيث الاشتقاق من مادة بروك أو من كلمة (برْكَة)، أما اشتقاقها من البروك: فبروك البعير يدل على ملازمته وثبوته في ذلك المكان، وأما اشتقاقها من البِرْكة: فالبِرْكَة: هي مجتمع الماء وهي تدل على كثرة الماء في هذا الموضع وعلى لزومه له وعلى ثباته فيه.

فيكون معنى البركة-إذاً- كثرة الشيء الذي فيه الخير وثباته ولزومه، فالتبرك هو طلب الخير الكثير وطلب ثباته وطلب لزومه، فتبرك يعني: طلب البركة.

(**ق**): والتبرك طلب البركة، **وطلب البركة لا يخلو من أمرين**:

١. أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن، قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ [ص: ٢٩]، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمماً كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.
٢. أن يكون بأمر حسي معلوم، مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه، فهذا الرجل يتبرك بعمله ودعوته إلى الخير، فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيراً كثيراً.

وقال أسيد بن حضير: "ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر"[1]، فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر. وهناك بركات موهومة باطلة، مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلاناً الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك، فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر، لكنا لا تعدو أن تكون آثاراً حسية، بحيث أن الشيطان يخدم هذا الشيخ، فيكون في ذلك فتنة.

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة، فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة، فإن الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره. ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة / باب قوله ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، ومسلم: كتاب الحيض/ باب التميم.

حياته وبعد موته. أما إن كان مخالفاً للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل، فإن بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أن يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرون بالميقات ولا يحرمون منه[1].

(**تتمة**): والنصوص في القرآن والسنة دلت على أن البركة من الله -جل وعلا- وأن الله -جل وعلا- هو الذي يبارك، وأنه لا أحد من الخلق يبارك أحدا، قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ (الفرقان: من الآية١) يعني: عظم خير من نزل الفرقان على عبده، وكثر ودام وثبت وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ (الملك: من الآية١) وقال سبحانه: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ (الصافات: من الآية١١٣)وقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً﴾ (مريم: من الآية٣١) فالذي يبارك هو الله -جل وعلا- فلا يجوز للمخلوق أن يقول باركت على الشيء أو أبارك فعلكم؛ لأن البركة وكثرة الخير ولزومه وثباته إنما ذلك من الذي بيده الأمر، وهو الله ﷻ. وقد دلت النصوص في الكتاب والسنة على أن الأشياء التي أحل الله -جل وعلا- البركة فيها قد تكون أمكنة أو أزمنة، وقد تكون مخلوقات آدمية، **فهذان قسمان:**

القسم الأول: أن الله تعالى بارك بعض الأماكن كبيت الله الحرام، وحول بيت المقدس كما قال سبحانه ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء: من الآية١) ومعنى كون الأرض مباركة، أن يكون فيها الخير الكثير اللازم الدائم لها ليكون ذلك أشجع في أن يلازمها أهلها الذين دعوا إليها، وهذا لا يعني أبداً أن يتمسح بأرضها أو أن يتمسح بحيطانها، لأن بركتها لازمة لا تنتقل بالذات.

فبركة الأماكن أو بركة الأرض ونحو ذلك بركة لازمة لا تنتقل بالذات يعني أنك إذا لامست الأرض أو دفنت فيها أو تبركت بها فإن بركتها لا تنتقل إليك بالذات، وإنما بركتها من جهة المعنى فقط.

كذلك بيت الله الحرام هو مبارك لا من جهة ذاته يعني ليس كما يعتقد البعض أن من تمسح به انتقلت إليه البركة وإنما هو مبارك من جهة المعنى، يعني اجتمعت فيه البركة التي جعلها الله في هذه البنية من جهة تعلق القلوب بها وكثرة الخير الذي يكون لمن أرادها وأتاها وطاف بها وتعبد عندها وكذلك الحجر الأسود هو حجر مبارك، ولكن بركته لأجل العبادة يعني أن من استلمه تعبدا مطيعا للنبي ﷺ في استلامه له وفي تقبيله فإنه يناله به بركة الإتباع، وقد قال عمر ﷺ لما قبل الحجر: (إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر).

---

[1] (مجموع الفتاوى) (٨٣/١).

فقوله: لا تنفع ولا تضر يعني لا يجلب لمن قبله شيئا من النفع ولا يدفع عن أحد شيئا من الضر، وإنما الحامل على التقبيل مجرد الاتِّساء تعبداً لله ولذلك قال (ولولا أني رأيت رسول ﷲ ﷺ يقبلك ما قبلتك) فهذا معنى البركة التي جعلت في الأمكنة وأما معنى كون الزمان مباركا مثل شهر رمضان أو بعض أيام ﷲ الفاضلة، فيعني: أن من تعبد فيها ورام الخير فيها فإنه ينال من كثرة الثواب ما لا يناله في غيرها من الأزمنة.

القسم الثاني: البركة المنوطة ببني آدم وهي البركة التي جعلها ﷲ -جل وعلا- في المؤمنين من الناس، وعلى رأسهم: سادة المؤمنين من الأنبياء والرسل، فهؤلاء بركتهم بركة ذاتية يعني أن أجسامهم مباركة فالله -جل وعلا- هو الذي جعل جسد آدم مباركا وجعل جسد إبراهيم -عليه السلام- مباركا، وجعل جسد نوح مباركا، وهكذا جسد عيسى وموسى -عليهم جميعا الصلاة والسلام- جعل أجسادهم جميعاً مباركة بمعنى أنه لو تبرك أحد من أقوامهم بأجسادهم، إما بالتمسح بها أو بأخذ عرقها أو بالتبرك ببعض أشعارهم فهذا جائز؛ لأن ﷲ جعل أجسادهم مباركة بركة متعدية وهكذا نبينا a بن عبد الله ﷺ جسده أيضا جسد مبارك ولهذا ورد في السنة أن الصحابة كانوا يتبركون بعرقه، ويتبركون بشعره، وإذا توضأ اقتتلوا على وضوءه إلى آخر ما ورد في ذلك، ذلك أن أجساد الأنبياء فيها بركة ذاتية ينتقل أثرها إلى غيرهم، وهذا مخصوص بالأنبياء والرسل، أما غيرهم فلم يرد دليل على أن من أصحاب الأنبياء من بركتهم بركة ذاتية حتى أفضل هذه الأمة أبو بكر وعمر فقد جاء بالتواتر القطعي أن الصحابة والتابعين والمخضرمين لم يكونوا يتبركون بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي كما كانوا يتبركون بشعر النبي ﷺ أو بوضوئه أو بنخامته أو بعرقه أو بملابسه ونحو ذلك.

فعلمنا بهذا التواتر القطعي أن بركة أبي بكر وعمر إنما هي بركة عمل ليست بركة ذات تنتقل كما هي بركة النبي ﷺ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: (إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم) فدل هذا على أن في كل مسلم بركة وفي البخاري أيضاً قول أسيد بن حضير: (ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر) فهذه البركة التي أضيفت لكل مسلم وأضيفت لآل أبي بكر هي بركة عمل، هذه البركة راجعة إلى الإيمان والى العلم والدعوة والعمل.

فكل مسلم فيه بركة وهذه البركة ليست بركة ذات وإنما هي بركة عمل وبركة ما معه من الإسلام والإيمان وما في قلبه من الإيقان والتعظيم لله -جل وعلا- والإجلال له والاتباع لرسوله ﷺ فهذه البركة التي في العلم أو العمل أو الصلاح لا تنتقل من شخص إلى آخر، وعليه فيكون معنى التبرك بأهل الصلاح هو الاقتداء بهم في صلاحهم والتبرك بأهل العلم هو الأخذ من علمهم والاستفادة منه وهكذا، ولا يجوز أن يتبرك بهم بمعنى يتمسح بهم أو يتبرك بريقهم؛ لأن أفضل الخلق من هذه الأمة وهم الصحابة لم يفعلوا ذلك مع خير هذه الأمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وهذا أمر مقطوع به.

فمعنى تبرك المشركين أهم كانوا يرجون كثرة الخير ودوام الخير ولزوم الخير وثبات الخير بالتوجه إلى الآلهة، وهذه الآلهة يكون منها الصنم الذي من الحجارة، والقبر من التراب ويكون منها الوثن، والشجر، ويكون منها البقاع المختلفة كالغار أوعين ماء أو نحو ذلك فهذه التبركات المختلفة جميعها تبركات شركية، ولهذا قال الشيخ –رحمه الله–: (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) والشجر جمع شجرة والحجر معروف ذلك أن المشركين كانوا يتبركون بالأشجار والأحجار حتى في أول الدعوة في هذه البلاد كانت الأشجار والأحجار التي يتبرك بها كثيرة.

(**ق**): **قوله:** قوله: "شجر" اسم جنس، فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: "وحجر"، اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس، فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد الله بمسحه وتقبيله، اتباعاً للرسول ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب. ولهذا قال عمر ﷺ: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك، ما قبلتك"[1]. فتقبيله عبادة محضة خلافاً للعامة، يظنون أن به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركاً بذلك.

(**تم**): **قوله**: (ونحوهما) يعني نحو الشجر والحجر مثل البقاع المختلفة أو غار معين أو قبر أو عين ماء أو نحو ذلك من الأشياء التي يعتقد فيها أهل الجهالة. فما حكم فاعل ذلك؟ الجواب أنه مشرك كما صرح به الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه [فتح المجيد (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما)] حيث قال رحمه الله أي فهو مشرك.

لم يفصح الشراح في هذا الموضوع عن نوع شرك المتبرك بالشجر والحجر هل هو شرك أكبر أو شرك أصغر؟ وإنما أدار الشيخ سليمان –رحمه الله– المعنى في التيسير بعد أن ساق تفسير آية النجم ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ (النجم: ١٩) على الاحتمالين. فقال في آخره: مناسبة الآية للترجمة أنه إن كان التبرك شركا أكبر فظاهر، وإن كان شركا أصغر، فالسلف يستدلون بالآيات التي نزلت في الأكبر على الأصغر.

وتحقيق المقام أن التبرك بالشجر أو بالحجر أو بالقبر أو ببقاع مختلفة قد يكون شركا أكبر، وقد يكون شركا أصغر. فيكون شركا أكبر: إذا طلب بركتها معتقدا أنه بتمسحه بهذا الشجر أو الحجر أو القبر أو تمرغه عليه أو التصاقه به يتوسط له عند الله، فإذا اعتقد فيه أنه وسيلة إلى الله فهذا اتخاذ إله مع الله –جل وعلا– وشرك أكبر، وهذا هو الذي كان يعتقده أهل الجاهلية بالأشجار والأحجار التي يعبدونها

[1] سبق تخريجه.

وفي القبور التي يتبركون بها يعتقدون أنهم إذا عكفوا عندها وتمسحوا بها أو نثروا ترابها على رؤسهم فإن هذه البقعة أو صاحب هذه البقعة أو الروحانية وهي الروح التي تخدم هذه البقعة أنه يتوسط له عند الله -جل وعلا- فهذا الفعل -إذاً- راجع إلى اتخاذ أنداد مع الله -جل وعلا- وقد قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: من الآية٣).

ويكون التبرك شركا أصغر إذا كان يتخذ هذا التبرك بنثر التراب عليه أو إلصاق الجسم به أو التبرك بعين ونحوها، أسباباً لحصول البركة بدون اعتقاد أنها توصل وتقرب إلى الله يعني: أنه جعلها أسباباً فقط كما يفعل لابُس التميمة أو الحلقة أو الخيط فكذلك هذا المتبرك يجعل تلك الأشياء أسباباً، فإذا أخذ – من هذه حالُهُ– تراب القبر ونثره عليه لاعتقاده أن هذا التراب مبارك وإذا لامس جسمه فإن جسمه يتبارك به أي من جهة السببية فهذا شرك أصغر؛ لأنه لا يكون عبادة لغير الله جل علا وإنما اعتقد ما ليس سببا مأذونا به شرعا سببا، وأما إذا تمسح بها كما هي الحال الأولى وتمرغ والتصق بها لتوصله إلى الله -جل وعلا- فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

ولهذا قال الشيخ سليمان كما تقدم: إن كان التبرك شركا أكبر فظاهر في الاستدلال بالآية وإن كان شركا أصغر فالسلف يستدلون بما نزل في الأكبر على ما يريدون من الاستدلال في مسائل الشرك الأصغر.

وقول الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ الآيات (النجم: ١٩–٢٠)

(**ق**): **قوله:** ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾، لما ذكر الله – ﷻ – المعراج بقوله: ﴿والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى..﴾ [النجم: ١-٢]، قال: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم ١٨]، أي رأى النبي ﷺ من آيات الله الكبرى. وقد اختلف العلماء في قوله: ﴿الكبرى﴾: هل هي مفعول لـ ﴿رأى﴾، أو صفة لـ ﴿آيات﴾؟

وقوله: ﴿الكبرى﴾ قيل: أنها مفعول: لـ﴿رأى﴾، والتقدير: لقد رأى من آيات الله الكبرى.

فعلى الأول: يكون المعنى: أنه رأى الكبرى من الآيات.

وعلى الثاني: يكون المعنى أنه رأى بعض الآيات الكبرى، وهذا هو الصحيح، أن الكبرى صفة لـ ﴿آيات﴾، وليست مفعولاً لـ ﴿رأى﴾، إذا إن ما رآه ليس أكبر آيات الله. وبعد أن ذكر الله ما رأى النبي ﷺ من هذه الآيات، قال: ﴿أفرأيتم اللات والعزى۞ومناة الثالثة الأخرى﴾، أي: أخبروني ما

شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، إنها ليست بشيء. والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام.

(**ف**): وكانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال. وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة.

فأما اللات فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس بتشديد التاء.

فعلى الأولى قال الأعمش: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من الله تعالى، قالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً قال: وكذا العزى من العزيز.

وقال ابن كثير: اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت الطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

وعلى الثانية قال ابن عباس: كان رجلاً يلت السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره ذكره البخاري قال ابن عباس: كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلؤه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق وعن مجاهد نحوه وقال: فلما مات عبدوه رواه سعيد بن منصور. وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم عبدوه وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم.

قلت: لا منافاة بين القولين. فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتعظيماً.

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً. وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام.

وأما العزى فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة – بين مكة والطائف – كانت قريش يعظمونها... كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ " قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم "[١] وروى النسائي[٢] وابن مردويه عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة – وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات – فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره. فقال ارجع فإنك لم تصنع شيئاً،

[١] البخاري، كتاب المغازي : ،حديث(٤٠٤٣)، باب غزوة أحد من حديث البراء بن عازب ﷺ.

[٢] إسناده حسن : النسائي في الكبرى (كما في تحفة الأشراف (٢٣٥/٤))وإسناده حسن من أجل الوليد بن جميع قال في التقريب(٣٣٣/٢) صدوق يهم.

فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى، فأتاها خالد فإذا امـــرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره. فقال: تلك العزى قلت: وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضـــرائح الأمـــوات وفي المشاهد.

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعـــة والأوس والخـــزرج يعظمونهـــا ويهلون منها للحج، وأصل اشتقاقها: من اسم الله المنان، وقيل: لكثرة ما يمنى – أي يراق – عندها من الدماء للتبرك بها.

قال البخاري رحمه الله، في حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها: إنها صنم بين مكة والمدينة قـــال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح فمعنى الآية كما قال القرطبي: أن فيها حـــذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة، أنفعت أو ضرت، حتى تكون شركاء لله تعالى؟.

(**ق**): **قوله:** ﴿الثالثة الأخرى﴾، إشارة إلى أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثـــر إراقـــة الـــدماء حولها: أنها أخرى بمعنى متأخرة، أي: ذميمة حقيرة، مأخوذة من قولهم: فلا أخر، أي: ذمـــيم، حقـــير، متأخر. فهذه الأصنام الثلاثة المعبودة عند العرب ما حلها بالنسبة لما رأى النبي ﷺ؟ لا شيء، وإنما ذكـــر هذه الأصنام الثلاثة لأنها اشهر الأصنام وأعظمها عند العرب.

قوله: "الآيات"، أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: "ألكم الذكر وله الأنثى"، هذا أيضاً استفهام إنكاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله، فيجعلون البنات لله – والعياذ بالله – ولهم ما يشتهون.

قوله: ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾، ضيزى: جائرة، لأنه على الأقل إذا أردتم القسمة، فاجعلوا لكم مـــن البنات نصيباً، واجعلوا لله من البنين نصيباً، أما أن تجعلوا ما تختارونه لأنفسكم، وهم البنون، وتجعلون ما تكرهون لله، فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنت وآباؤكم ما أنزل إله بها من سلطان﴾، الضمير في ﴿هي﴾ يعـــود إلى الأصنام، أي: هذه الأصنام ﴿اللات والعزى ومناة﴾ التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هـــي مجرد أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان، أي: من حجة ودليل.

بل أبطلها الله – سبحانه –، قال تعالى: ﴿ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطـــل وأن الله هو العلي الكبير﴾ [الحج: ٦٢]. وأصل السلطان في اللغة العربية: ما به سلطة، فـــإن كـــان في مقام العلم، فهو العلم، وإن كان في مقام القدوة، فهو القدوة، وإن كان في مقام الأمر والنهي، فهو مـــن

له الأمر والنهي، فمثلاً قوله تعالى: ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [الرحمن: ٣٣]، أي: بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالى: ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ [النجم: ٢٣]، أي: من حجة وبرهان. وفي الحديث: "السلطان ولي من لا ولي له"[1]، أي: من له الأمر والنهي.

قوله: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾، ﴿إن﴾ هنا بمعنى ما، وعلامة إن التي بمعنى ما تأتي بعدها إلا، قال تعالى: ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ [يوسف: ٣١]، يعني ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى: ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ [المدثر: ٢٥]، أي: ما هذا إلا قول البشر، وقال تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ [النجم: ٢٣]، أي: ما يتبعون إلا الظن. والظن الذين يتبعونه هو أنها آلهة، وأن لله البنات ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئاً، كما قال تعالى في آية أخرى.

قوله: ﴿وما تهوى الأنفس﴾، كذلك أيضاً يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى، فالإنسان الذي يعبد الله بالهوى، فإنه لا يعبد الله حقاً، إنما يعبد عقله وهواه، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [الجاثية: ٢٣]، لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

قوله: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾، أي: على يد النبي ﷺ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

مناسبة الآية للترجمة: أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها، يدعونها، ويذبحون لها، ويتقربون إليها، وقد يبتلي الله المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك، ابتلاءً من الله وامتحاناً، وهذا قد تقدم لنا له نظائر أن الله يبتلي المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب.

(تتم): أن ما كان يفعله المشركون عند هذه الثلاث هو عين ما يفعله المشركون في الأزمنة المتأخرة عند الأحجار والأشجار والغيران والقبور، ومن قرأ شيئا مما يصنعه المشركون علم غربة الإسلام في هذه البلاد قبل هذه الدعوة وأن الناس كانوا على شرك عظيم. وإذا تأملت أحوال ما حولك من البلاد التي ينتشر فيها الشرك وجدت من اتخاذ الأشجار والأحجار آلهة والتبرك بها الشيء الكثير وأعظم من ذلك اتخاذ القبور آلهة يتوجه إليها ويتعبد عندها.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٤٧/١) وسنن أبي داود: كتاب النكاح/ باب في الولي، ٥٦٨/٢ ــ وسكت عنه ــ، والترمذي: كتاب النكاح / باب لا نكاح إلا بولي، رقم ١١٠٢ ــ وقال: (حديث حسن) ــ وصححه الألباني.

وعن أبي واقدٍ اللّيْثيّ قالَ: خرجْنَا مَعَ رسول اللهِ ﷺ إلى حُنَيْنٍ،ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سِدْرَةٍ يعْكُفُونَ عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذاتُ أنْواطٍ فمرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فقُلنا: يا رسول اللهِ، اجْعَل لنا ذاتَ أنْواطٍ كَما لهم ذاتُ أنْواطٍ، فقال رسول اللهِ ﷺ: «اللهُ أكْبَرُ!، إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كَمَا قَالتْ بَنُو إسْرائيلَ لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قال إنكم قوم تجهلون﴾ (الأعراف: ١٣٨) . لترْكَبُنَّ سَنَنَ منْ كان قبْلِكُمْ» رواه الترمذي وصححه[١] .

(**ف**): **قوله:** (عن أبي واقد) اسمه الحارث بن عوف وهو صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة.

(**ق**): **قوله:** "خرجنا مع النبي ﷺ"، أي: بعد غزوة الفتح، لأن النبي ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثير جداً. فقصدهم ﷺ ومعه اثنا عشر ألفاً: ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة، قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بين اللهُ أن النصر من عنده سبحانه وليس بالكثرة، قال تعالى: ﴿لقد نصركم اللهُ في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت...﴾ الآيتين [التوبة: ٢٥]، ثم لما انحدروا من وادي حنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا في الوادي، فحصل ما حصل، وتفرق المسلمون عن رسول اللهِ ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مئة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي ﷺ، والحمد لله.

قوله: "حدثاء"، جمع حديث، أي: أننا قريبوا عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك ؓ للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قوله: "يعكفون عندها"، أي: يقيمون عليها، والعكوف: ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنتم عاكفون في المساجد﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

[١] مسند الإمام أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي: أبواب الفتن/ باب ما جاء: (لتركبن سنن من كان قبلكم)، ٣٤٣/٦ ـ وقال (حسن صحيح) وصححه الألباني.

(**ف**): ومنه قول الخليل عليه السلام: '٢١: ٥٢' " ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون " وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركاً بها وتعظيماً لها وفي حديث عمرو كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله.

قوله: وينوطون بها أسلحتهم أي يعلقونها عليها للبركة.

قلت: ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها.

(**ق**): **قوله:** "يقال: لها ذات أنواط"، أي: أنها تلقب بهذا اللقب لأنه تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها، فالصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط"، أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركاً بها.

(**ف**): **قال أبو السعادات**: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمى بها المنوط. ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

قوله: فقال رسول الله ﷺ الله أكبر وفي رواية سبحان الله والمراد تعظيم الله تعالى وتتريهه عن هذا الشرك بأي نوع كان، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيماً لله وتتريهاً له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هضم للربوبية أو الإلهية.

(**ق**): لكن: "إنها السنن"، أي: الطرق التي يسلكها العباد.

قوله: "قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾"، أي: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده" المراد أن نفسه بيد الله، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضاً، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها – سبحانه وتعالى –.

(**ف**): ففيه الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلى من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها، ويحسبون أنهم على شيئ وهو الذنب الذي لا يغفره الله.

قال الحافظ أبو a عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بابن أبي شامة في كتاب البدع والحوادث: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد، يحكى لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض اللَّهُ تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر. وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل اللَّهُ قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث. انتهى.

وذكر ابن القيم رحمه اللَّهُ نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون اللَّهُ ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون اللَّهُ، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، وسيأتي ما يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ: " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد".

وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل: ' ٧: ١٣٨ ' ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟ ! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية، فأكبروا فعله واتخذوه قربة.

وفيها أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، و لم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط. فالمشرك مشرك وإن سمى شركه ما سماه. كمن يسمى دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك.

قوله: لتركبن سنن من كان قبلكم بضم الموحدة وضم السين أي طرقهم ومناهجهم وقد يجوز فتح السين على الإفراد أي طريقهم. وهذا خبر صحيح. والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له.

وفيه علم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ.

وفي الحديث: النهى عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دل الدليل على أنه من شريعة a ﷺ.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التنبيه على مسائل القبر، أما: من ربك؟ فواضح. وأما: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما: ما دينك؟ فمن قولهم اجعل لنا إلهاً إلخ. وفيه: أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك، وفيه الغضب عند التعليم، وإن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه قال لنا لنحذره) قاله المصنف رحمه الله.

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه:

منها: أن السابقين الأولين من الصحابة ومن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي ﷺ، لا في حياته ولا بعد موته. ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة، وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين وأهل الأسوة. فلا يجوز أن يقاس على رسول الله ﷺ أحد من الأمة، وللنبي ﷺ في حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم في الأمر، بل رد عليهم بقوله: (الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم) فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى (لا إله إلا الله)، مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: (ونحن حدثاء عهد بكفر) فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية، لقوله (إنها السنن) .

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا .

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما (من ربك) ؟ فواضح، وأما (من نبيك) ؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما (ما دينك) ؟ فمن قولهم: (اجعل لنا إلهاً) إلخ.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

(ق): **الأولى**: تفسير آية النجم، أي: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى۞وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۞أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ۞ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ....﴾ [النجم: ١٩- ٢٣] الآية، وسبق تفسيرها، وأن الله تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الاستفهام الدالة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا، وهو أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبركوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها، فدل ذلك على أن التبرك بالأشجار ممنوع، وأن هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا، أي: لم يعلقوا أنواطاً على الشجرة، ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يقرهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذلك.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه، "بذلك"، أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول ﷺ، ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا المعنى العبادة.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا، فغيرهم أولى بالجهل، لأن الصحابة لا شك أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أن التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهاً، فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف رحمه

الله بهذا أن لا نغتر بعمل الناس، لأن عمل الناس قد يكون عن جهل، فالعبرة بما دل عليه الشرع لا بعمل الناس.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾ [الحديد: ١٠]، فالصحابة رضي الله عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي ﷺ بهذا الطلب. بل رد عليهم بقول[الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم].

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: "الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم"، فغلظ الأمر بهذه الثلاث، وهي قوله: "الله أكبر"، وقوله: "إنها السنن"، وقوله: "لتركبن سنن من كان قبلكم"، فغلظ الأمر بهذا لأن التكبير استعظاماً للأمر الذي طلبوه، و"أنها السنن": تحذير، و"لتركبن سنن من كان قبلكم" كذلك أيضاً تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة). فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها كما يتبرك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهاً كما لهم آلهة، فيكون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد، لأن التبرك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذه إلهاً شرك واضح.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى: لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك، أي: أن نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إله إلا الله، فإن لا إله إلا الله تنفي كل إله سوى الله، وتنفي الألوهية عما سوى الله – عز وجل –، فكذلك البركة لا تكون من غير الله – سبحانه وتعالى –.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة، أي: أن النبي ﷺ حلف على الفتيا في قوله: "قلتم، والذي نفسي بيده"، والنبي ﷺ لا يحلف إلا لمصلحة، أو دفع مضرة ومفسدة، فليس ممن يحلف على أي سبب يكون، كما هي عادة بعض الناس.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكبر، لأنهم لم يرتدوا بهذا، حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بها، والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي.

فالشرك الأكبر: ما يخرج الإنسان من الله.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة ﴿ما دون ذلك﴾ ليس ميزاناً واضحاً.

ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أن الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنه شرك ودلت النصوص على أنه ليس من الأكبر، مثل: "من حلف بغير الله، فقد أشرك"[١]، فالشرك هنا اصغر، لأنه دلت النصوص على أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله، لكنه لم يتخذه إلهاً، فهذا شرك أصغر، لأن هذا الاعتماد الذي يكون كاعتماده على الله يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول، لأن الأول يمنع أن تطلق على شيء أنه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف: إن المعاصي كلها شرك أصغر، لأن الحامل عليها الهوى، وقد قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ من إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ [الجاثية: ٢٣]، ولهذا أطلق النبي ﷺ الشرك على تارك الصلاة، مع أنه لم يشرك، فقال: "بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة"[٢].

فالحاصل أن المؤلف رحمه الله يقول إن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

الجلي والخفي، فبعضهم قال: إن الجلي والخفي هو الأكبر والأصغر، وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر، كالحلف بغير الله، والسجود للصنم.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر، كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهاً آخر.

وقد يقال: إن الجلي ما انجلى أمره وظهر كونه شركاً، ولو كان أصغر، والخفي: ما سوى ذلك.

وأيهما الذي لا يغفر؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الشرك لا يغفره الله لو كان أصغر، لعموم قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [النساء: ١١٦]، و﴿أن يشرك به﴾ مؤول بمصدر تقديره: شركاً به، وهو نكرة في سياق النفي، فيفيد العموم. وقال بعض العلماء: إن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وإن المراد بقوله: ﴿إن يشرك به﴾ هو الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر، فإنه يغفر لأنه لا يخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة، فإنه تحت المشيئة، وعلى كل، فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود ﷺ: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً".

---

[١] مسند الإمام أحمد (١٢٥/٢)، وسنن أبي داود: كتاب الأيمان / باب من كراهية الحلف بالآباء ــ وسكت عنه ــ، والترمذي: النذور / باب كراهية الحلف بغير الله تعالى ــ وحسنه ــ

[٢] مسلم: كتاب الإيمان / باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

الثانية عشرة: قولهم: "ونحن حدثاء عهد بكفر..."، معناه: أنه يعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط، فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه، فلا يجهل ذلك.

وعلى هذا، فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يعرض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيه، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول ﷺ وهو معتكف، فمر رجلان من الأنصار، فقال: "إنها صفية بنت حيي"[١].

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب.. إلخ، تؤخذ من قوله: "الله أكبر"، أي: الله أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: "سبحان الله"، أي: تتريهاً لله عما لا يليق به.

الرابعة عشرة: سد الذرائع، الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان:

١. ذرائع إلى أمور مطلوبة، فهذه لا تسد، بل تفتح وتطلب.
٢. ذرائع إلى أمور مذمومة، فهذه تسد، وهو مراد المؤلف رحمه الله تعالى.

وذات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبركوا بها، يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سد النبي ﷺ الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية، تؤخذ من قوله: "قلتم كما قالت بنو إسرائيل"، فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختص بمن كان قبل زمن النبي ﷺ، بل كان من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين، فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم، والحديث ليس بصريح في ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: "الله أكبر إنها السنن...."، لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: "إنها السنن"، أي: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحل والإباحة، ولكنه للتحذير، كما قال الرسول ﷺ: "ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة"، وقال: "ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير..."[٢] الحديث، وقال: "إن الظعينة تذهب من كذا إلى كذا لا تخشى إلا الله"[٣]، وما أشبه ذلك من الأمور التي أخبر النبي ﷺ عن وقوعها مع تحريمها.

---

[١] البخاري: كتاب الاعتكاف / باب هل يخرج المعتكف، ومسلم: كتاب السلام / باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة...

[٢] البخاري تعليقا: كتاب الأشربة /باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.

[٣] البخاري: كتاب المناقب / باب علامات النبوة.

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكون وقع كما أخبر، يعني اتباع سنن من كان قبلنا.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ قد خطب الناس بعرفة، وقال: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب"[١]، فكيف تقع عبادته.

فالجواب: أن إخبار النبي ﷺ بيأسه لا يدل على عدم الوقوع، بل يجوز أن يقع، على خلاف ما توقعه الشيطان، لأن الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوي الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، يئس أن يعبد سوى الله في هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولا بد، لئلا يقال: إن جميع الأفعال التي تقع في الجزيرة العربية لا يمكن أن تكون شركاً، ومعلوم أن الشيخ a بن عبد الوهاب رحمه الله جدد التوحيد في الجزيرة العربية، وأن الناس كانوا في ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك. فالحديث أخبر عما وقع في نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لا يدل على عدم الوقوع، وهذا الرسول ﷺ يقول: "لتركبن سنن من كان قبلكم"، وهو يخاطب الصحابة وهم في جزيرة العرب.

التاسعة عشرة: أن ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا، هذا ليس على إطلاقه وظاهرة بل يحمل قوله: "لنا"، أي: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع، كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل كانوا من الإنس فقط.

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى، فإن الذم الذي يكون لهم يكون لنا، وما من أحد من الناس غالباً إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى، فالذي يعصي الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذي يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذي يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، وهلم جرأ.

وإن كان يقصد رحمه الله أنه لا بد أن يكون في الأمة خصلة، فهذا على إطلاقه وظاهره، لأنه قل من يسلم. وإن أراد أن كل ما ذم به اليهود والنصارى، فهو لهذه الأمة على سبيل العموم، فلا.

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر... الخ"، وهذا واضح، فالعبادات مبناها على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع، فهو بدعة، قال ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد"[٢]، وقال: "إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"[٣].

---

[١] مسلم: كتاب صفات المنافقين /باب تحريش الشيطان.

[٢] مسلم: كتاب الأقضية /باب نقض الأحكام الباطلة.

[٣] مسند الإمام أحمد (١٢٦/٤)، وسنن أبي داود: كتاب السنة /باب لزوم السنة، ١٣/٥، والترمذي: العلم /باب الأخذ بالسنة، رقم ٢٦٧٨- وقال: (حسن صحيح) -وصححه الألباني.

فمن تعبد بعبادة طولب بالدليل، لأن الأصل في العبادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها. وأما الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها، فالأصل فيها الإباحة، إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقوله: "مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟". ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلاً على أن الإنسان يسأل في قبره، بل فيها دليل على إثبات الربوبية والنبوة والعبادة. أما "من ربك"، فواضح، يعني أنه لا رب إلا الله تعالى. وأما "من نبيك" فمن إخباره بالغيب، قال ﷺ: "لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة"[١]، فوقع كما أخبر.

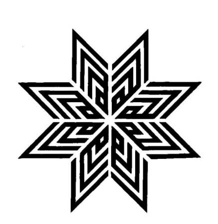
أما "ما دينك"، فمن قولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً﴾، أي: مألوهاً معبوداً، والعبادة هي الدين. والمؤلف a بن عبد الوهاب رحمه الله فهمه دقيق جداً لمعاني النصوص، فأحياناً يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين، تؤخذ من قوله: "كما قالت بنو إسرائيل لموسى".

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العبادة، وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء، سواء كان باطلاً أو لا، لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا

تزول إلا بعد مدة، لقول: "ونحن حدثاء عهد بكفر"، فكأنه يقول: ما سألناه إلا لأن عندنا بقية من بقايا الجاهلية،

ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة، لئلا يعود إليها. فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشرك والفسوق، حتى لا يقع في قلبه شيء منها.



[١] أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم) حديث (٧٣٢٠) ومسلم في كتاب العلم باب: إتباع سنن اليهود والنصارى، حديث (٢٦٦٩).

باب ما جاء في الذبح لغير الله

(**ش**): **قول الشيخ -رحمه الله-**: باب: ما جاء في الذبح لغير الله، الذبح معروف، وهو إراقة الدم.

وقوله (لغير الله): يعني: متقربا به إلى غير الله، أي ذبح لأجل غير الله، والذبح فيه شيئان مهمان، وهما نكتة هذا الباب وعقدته.

الأول: الذبح بسم الله، أو الذبح بالإهلال باسم ما.

والثاني: أن يذبح متقربا لما يريد أن يتقرب إليه؛ فإذا ثَمَّ تسمية، وثم القصد وهما شيئان.

أما التسمية فظاهر أن ما ذكر عليه اسم الله فإنه جائز كما قال الله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام: ١١٨)، وأن ما لم يذكر اسم الله عليه فهذا الذي أُهِلَّ لغير الله، يعني: ذكر غير اسم الله عليه، فهذا مما أهل لغير الله به كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية١٧٣) وقوله ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (المائدة: من الآية٣).

فالتسمية على الذبيحة من جهة المعنى استعانة، فإذا سمَّى الله: فإنه استعان في هذا الذبح بالله -جل وعلا-؛ لأن الباء في قولك: بسم الله يعني: أذبح متبركا ومستعينا بكل اسم لله -جل وعلا-، أو بالله -جل وعلا- الذي له الأسماء الحسنى.

فجهة التسمية إذاً جهة استعانة، وأما القصد فهذه جهة عبودية، ومقاصد فمن ذبح باسم الله لله كانت الاستعانة بالله، والقصد من الذبح أنه لوجه الله، تقرب لله -جل وعلا- فصارت الأحوال عندنا أربعة:

١) أن يذبح باسم الله، لله، فهذا هو التوحيد.

٢) أن يذبح باسم الله لغير الله، وهذا شرك في العبادة.

٣) أن يذبح باسم غير الله لغير الله، وهذا شرك في الاستعانة، وشرك في العبادة -أيضا-.

٤) أن يذبح بغير اسم الله، ويجعل الذبيحة لله، فهذا شرك في الربوبية.

فإذن الأحوال عندنا أربعة، إما أن يكون هناك تسمية بالله مع القصد لله -جل وعلا- وحده، وهذا هو التوحيد، وهو العبادة، فالواجب أن يذبح لله قصدا تقربا، وأن يسمي الله -جل وعلا- على الذبيحة، فإن لم يسم الله -جل وعلا-، وترك التسمية عمدا، فإن الذبيحة لا تحل، وإن لم يقصد بالذبيحة التقرب إلى الله -جل وعلا-، ولا التقرب لغيره، وإنما ذبحها لأجل أضياف عنده، أو لأجل أن يأكلها،

يعني: ذبحها لقصد اللحم، لم يقصد بها التقرب، فهذا جائز، وهو من المأذون فيه؛ لأن الذبح لا يشترط فيه أن ينوي الذابح التقرب بالذبيحة إلى الله - جل وعلا-.

فالحاصل من **الحالة الأولى** أن ذكر اسم الله على الذبيحة واجب، وأن يكون قصد الذابح بها التقرب إلى الله إن كان - قد نوي بها تقربا - وهذا مثل ما يذبح من الأضاحي، أو يذبح من الهدي، ونحو ذلك مما يذبحه المرء تعظيما لله - جل وعلا - مما أمر به شرعا، فهذا الذي تذبحه لله، تقصد التقرب به إليه -سبحانه- فهذا من العبادات العظيمة التي يحبها الله -جل وعلا-، وهي عبادة النحر والذبح.

لكن قد يذبح المرء باسم الله، ولكن يقول: أريدها للأضياف، أو أريدها للحم، يعني للأكل، و لم أتقرب بها لغير الله، وأيضا لم أتقرب بها لله، فنقول: هذه الحالة جائزة؛ لأنه سمى وقال باسم الله، و لم يذبح لغير الله، فليس داخلا في الوعيد، ولا في النهي، بل ذلك من المأذون فيه.

الحالة الثانية: أن يذبح باسم الله، ويقصد بذلك التقرب لغير الله، فيقول -مثلا-: باسم الله، وينحر الدم، وهو ينوي بإزهاق النفس، وبإراقة الدم ينوي التقرب لهذا العظيم المدفون، أو لهذا النبي، أو لهذا الصالح فهذا وإن ذكر اسم الله، فإن الشرك حاصل من جهة أنه أراق الدم تعظيما للمدفون، وتعظيما لغير الله، ويدخل في ذلك أيضاً أن يذكر اسم الله على الذبيحة، أو على المنحور، ويكون قصده بالذبح أن يتقرب به للسلطان، أو للملك، أو لأمير ما، كما يحدث عند بعض البادية.

وكذلك بعض الحضر إذا أرادوا أن يعظموا ملكا قادما، أو أميرا، أو سلطانا، أو شيخ قبيلة، فإنهم يستقبلونه بالجمال، أو بالبقر، أو بالشياه، ويذبحونها في وجهه؛ فيسيل الدم عند إقباله فهذا الذبح، وإن سمى الله عليه، فإن الذبيحة قصد بها غير الله -جل وعلا-، ولذا أفتى العلماء بتحريمها؛ لأن فيها إراقة دم لغير الله -جل وعلا- فلا يجوز أكلها، ومن باب أولى قبل ذلك لا يجوز تعظيم أولئك بمثل هذا التعظيم؛ لأن إراقة الدم إنما يعظم به الله -جل وعلا- وحده؛ لأنه -سبحانه- هو الذي يستحق العبادة، والتعظيم بهذه الأشياء وحده، فهو الذي أجرى الدماء في العروق -سبحانه وتعالى-.

الحالة الثالثة: أن يذكر غير اسم الله على الذبيحة، وأن يقصد بها غير الله -جل وعلا- فيقول -مثلا- : باسم المسيح، ويحرك يده، ويقصد بها التقرب للمسيح، فهذا الذبح جمع شركا في الاستعانة، وشركا في العبادة، ومثله الذين يذبحون باسم البدوي، أو باسم الحسين، أو باسم السيدة زينب، أو باسم العيدروس، أو باسم الميرغياني، أو غيرهم من الذين توجه إليهم بعض الخلق بالعبادة، فيذبح باسمهم، ويقصد بذبحه هذا المخلوق، وينوي حين ذبح أن يريق الدم تقربا لهذا المخلوق، فهذا الشرك جاء **من جهتين**:

الجهة الأولى: جهة الاستعانة.

والجهة الثانية: جهة العبودية والتعظيم وإراقة الدم لغير الله -جل وعلا-.

والحالة الرابعة: أن يذبح باسم غير الله، ويجعل ذلك لله -جل وعلا-، وهذا نادر الوقوع، وربما يحصل كمن يذبحون لمعظميهم كالبدوي، أو العيدروس، أو الشيخ عبد القادر أو غيرهم، فينوون بذلك الذبح التقرب إلى الله -جل وعلا-، وهذا في الحقيقة راجع إلى الشرك في الاستعانة، والشرك في العبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في معرض كلام له في هذه المسائل قال: "ومعلوم أن الشرك في العبودية أعظم من الاستعانة بغير الله "، فهذه المراتب كلها شرك بالله -جل وعلا-.

والصورة المتقدمة في الحالة الثانية وهي أن يذبح لسلطان، ونحوه، فبعض العلماء لم يطلق القول عليها بأنها شرك، وإنما قال: تحرم لأجل أنه قد لا يقصد بذلك تعظيم المذبوح له كتعظيم الله -جل وعلا-.

فالمقصود أن قصد غير الله بالذبح شرك في العبودية، وذكر غير اسم الله على الذبيحة شرك في الاستعانة؛ ولهذا قال - جل وعلا -: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٢١) يعني: إن أطعتموهم في الشرك، فإنكم مشركون كما أنهم مشركون.

وأنبه هنا على مسألة مهمة وهي أن الكلام في مسائل التوحيد تقريرا واستدلالا وبيان وجه الاستدلال من الأمور الدقيقة، والتعبير عنها يحتاج إلى دقة من جهة المعبِّر، وأيضا من جهة المتلقي.

أقول هذا لأن بعض الناس قد استشكلوا بعض العبارات، ومدار الاستشكال: أنهم لم يدققوا و لم يقيدوا ما يقال، فهم إما أن يحذفوا قيدا، أو يحذفوا كلمة، أو يأخذوا المعنى الذي دل عليه الكلام، ويعبر عنه بطريقتهم، وهذا غير مناسب؛ لهذا ينبغي أن يكون المتلقي لهذا العلم دقيقا فيما يسمع؛ لأن كل مسألة لها ضوابطها، ولها قيودها، وأيضا فإن بعض المسائل يكون الكلام عليها تارة مجملا، ويكون المتلقي قد سمع أحد أحوال المسألة، وهي تحتمل تفصيلاً، لكن كان الكلام فيها مجملاً ومن المعلوم أن الكلام في مقام الاجمال غير الكلام في مقام التفصيل.

(**ق**): وقوله في الترجمة: "باب ما جاء في الذبح لغير الله"، أشار إلى الدليل دون الحكم، ومثل هذه الترجمة يترجم بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأما الأمور التي يجزمون بها، فإنهم يقولونها بالجزم، مثل باب وجوب الصلاة، وباب تحريم الغيبة، ونحو ذلك. والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنه يرى تحريم الذبح لغير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب على أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحاً، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب، فيحكم به على حسب ما سيق له من هذه الأدلة.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)

(**ق**): **قوله:** ﴿قل﴾: الخطاب للنبي ﷺ، أي: قل لهؤلاء المشركين معلناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية.

قوله: ﴿إن صلاتي﴾، الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة لله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿ونسكي﴾، النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان. فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟ سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أن ما جاء في لسان العرف، فهو محمول على الحقيقة العرفية وفي لسان العرب على الحقيقة اللغوية. فعندما أقول لشخص: عندك شاة؟ يفهم الأنثى من الضأن، لكن في اللغة العربية الشاة تطلق على الواحدة من الضأن والمعز، ذكراً كان أو أنثى، وعلى هذا، فيحمل النسك في الآية على المعنى الشرعي.

(**تم**): والنسك في قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ (الأنعام: من الآية١٦٢)هو الذبح، أو النحر يعني: التقرب بالدم، والتقرب بالدم لله -جل وعلا- عبادة عظيمة؛ لأن الذبائح أو المنحورات، من الإبل، أو البقر، أو الغنم أو الضأن، مما تعظم في نفوس أهلها، ونحرها تقربا إلى الله -جل وعلا-، والصدقة بها عبادة عظيمة فيها إراقة الدم لله، وفيها تعلق القلب بحسن الثواب من الله -جل وعلا-، وفيها حسن الظن بالله -تبارك وتعالى-، وفيها التخلص من الشح، والرغب فيما عند الله -سبحانه- بإزهاق نفس عزيزة عند أهلها، ولهذا كان النحر والذبح عبادة من العبادات العظيمة التي يحبها الله -جل وعلا-.

وقد دلت هذه الآية على أن النحر والصلاة عبادتان؛ لأنه جعل النسيكة لله، والله -جل وعلا- له من أعمال خلقه العبادات؛ فدل قوله: "ونسكي" على أن النسك عبادة من العبادات، وأنه مستحق لله -جل علا-.

(**ق**): وقيل: تحمل على المعنى اللغوي، لأنه أعم، فالنسك العبادة، كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد. وإذا حملت على المعنى الشرعي، صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي: الصلاة، والنسك، ويكون هذا كمثال، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية، والذبح أعلى العبادات المالية، لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلى قربة، هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه

المسألة. ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أن القربان أعلى أنواع العبادات المالية، فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية. وهناك رأي ثالث يقول: إن الصلاة هي الصلاة المعروفة شرعاً، والنسك: العبادة مطلقاً، ويكون ذلك من عطف العام على الخاص.

(**تم**): واللام هنا في قوله: ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: من الآية١٦٢)متعلقة بمحذوف خبر إن في قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ (الأنعام: من الآية١٦٢) وهي تفيد الاستحقاق واللام في اللغة تأتي لمعاني واستعمالات فتأتي للملك كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ (الكهف: من الآية٧٩)يعني: يملكونها، وتأتي للاختصاص، وهو شبه الملك، وتأتي للاستحقاق كما في قوله تعالى ﴿الحمد لله﴾ يعني: أن جميع أنواع المحامد مستحقة لله، فكذلك اللام في قوله سبحانه: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ (الأنعام: من الآية١٦٢) والمعنى أنها مستحقة لله –جل وعلا–.
واللام في قوله سبحانه: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ (الأنعام: من الآية١٦٢)مع أنها واحدة، لكن يكون برجوعها للأول غير معناها برجوعها للمحيا والممات، فإن الله –جل وعلا– قال في هذه الآية من آخر سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّه﴾ والمحيا والممات يعني: الإحياء والإماتة، وهذه بيد الله –جل وعلا– وملك له فهو الذي يملكها –سبحانه وتعالى–؛ لأنها من أفراد ربوبيته –جل وعلا– على خلقه.
فهذه الآية بما اشتملت عليه من هذه الألفاظ الأربع دلت على توحيد الإلهية، وعلى توحيد الربوبية فقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ يدل على توحيد العبادة، وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ يدل على توحيد الربوبية واللام في قوله ﴿لِلَّه﴾ إذا أرجعتها للأوليين وهما الصلاة والنسك كان معناها الاستحقاق، وإذا أرجعتها للأخير كان معناها الملك؛ ولهذا يقول أهل التفسير هنا: قل إن صلاتي ونسكي لله استحقاقا، ومحياي ومماتي لله ملكا وتدبيرا وتصرفا

(**ق**): **قوله:** ﴿لله﴾، خبر إن، والله: علم على الذات الإلهية، وأصله: الإله، فحذفت الهمزة، لكثرة الاستعمال تخفيفاً. وهو بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول، مثل غراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: المحبوب المعظم.
قوله: ﴿رب العالمين﴾، المراد بـ ﴿العالمين﴾: ما سوى الله، وسمي بذلك، لأنه علم على خالقه. قال الشاعر:

فوا عجباً كيف يعصى الإله	**أم كيف يجحده الجاحد**
وفي كل شيء له آيــــــة	**تــدل على أنه واحد**

وهي تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين في وقت معين، مثل قوله تعالى: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ [البقرة: ٤٧]، يعني: عالمي زمانهم. والرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة.

الآية الثانية: **قوله:** ﴿لا شريك له﴾، الجملة حالية من قوله: (الله)، أي: حال كونه لا شريك له، والله - سبحانه- لا شريك له في عبادته ولا في ربوبيته ولا أسمائه وصفاته، ولهذا قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١]. وقد ضل من زعم أن لله شركاء كمن عبد الأصنام أو عيسى بن مريم عليه السلام، وكذلك بعض غلاة الشعراء الذين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق، كقول بعضهم يخاطب ممدوحاً له:

فكن كمن شئت يا من لا شبيه له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وكقول البوصيري في قصيدته في مدح الرسول ﷺ:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا من أعظم الشرك، لأنه جعل الدنيا والآخرة من جود الرسول، ومقتضاه أن الله جل ذكره ليس له فيهما شيء. وقال: إن "من علومك علم اللوح والقلم"، يعني: وليس ذلك كل علومك، فما بقي لله علم ولا تدبير -والعياذ بالله-.

قوله: ﴿بذلك﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿أمرت﴾، فيكون دالاً على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك، لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله - سبحانه وتعالى - في جميع الأمور.

قوله: ﴿أمرت﴾، إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا، فمن المعلوم أن الآمر هو الله تعالى.

قوله: ﴿وأنا أول المسلمين﴾، يحتمل أن المراد الأولية الزمنية، فيتعين أن تكون أولية إضافية ويكون المراد أنا أول المسلمين من هذه الأمة، لأنه سبقه في الزمن من أسلموا. ويحتمل أن المراد الأولية المعنوية، فإن أعظم الناس إسلاماً وأتمهم انقياداً هو الرسول ﷺ، فتكون الأولية أولية مطلقة.

ومثل هذا التعبير يقع كثيراً أن تقع الأولية أولية معنوية، مثل أن تقول: أنا أول من يصدق بهذا الشيء، وإن كان غيرك قد صدق قبلك، لكن تريد أنك أسبق الناس تصديقاً بذلك، ولن يكون عندك إنكاراً أبداً، ومثل قوله ﷺ: "نحن أولى بالشك من إبراهيم حينما قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠]"، فليس معناه أن إبراهيم شاك، لكن إن قدر أن يحصل شك، فنحن أولى بالشك منه وإلا، فلسنا نحن شاكين، وكذلك إبراهيم ليس شاكاً.

قوله: ﴿المسلمين﴾، الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، لأن المراد به الاستسلام لله ظاهراً وباطناً، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ [البقرة: ١١٢]، وهذا إسلام الباطن.

وقوله: ﴿وهو محسن﴾، هذا إسلام الظاهر، وكذا قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥] يشمل الإسلام الباطن والظاهر، وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، قال تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [التوبة: ٧٢].

ومتى وجد الإيمان حقاً لزم من وجوده الإسلام. وأما إذا قرنا جميعاً صار الإسلام في الظاهر والإيمان في الباطن، مثل حديث جبريل، وفيه: أخبرني عن الإسلام، فأخبره عن أعمال ظاهرة، وأخبرني عن الإيمان، فأخبره عن أعمال باطنة. وكذا قوله تعالى: ﴿قالت الأعرب آمناً قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ [الحجرات: ١٤]

والشاهد من الآية التي ذكرها المؤلف: أن الذبح لابد أن يكون خالصاً لله.

(**ف**): **قال ابن كثير**: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذي يعبدون غير الله ويذبحون له: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته. لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والإنحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. قال مجاهد: النسك الذبح في الحج والعمرة. وقال الثوري عن السدى عن سعيد ابن جبير: ونسكي ذبحي. وكذا قال الضحاك. وقال غيره " ومحياي ومماتي " أي وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح " لله رب العالمين " خالصاً لوجهه " لا شريك له وبذلك " الإخلاص " أمرت وأنا أول المسلمين " أي من هذه الأمة لأن إسلام كل نبي متقدم.

قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ' ٢١: ٢٥ ' " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " وذكر آيات في هذا المعنى.

ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن الله تعالى تعبد عباده بأن يتقربوا إليه أتنسك، كما تعبدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكاً في عبادته، ظاهر في قوله: " لا شريك له " نفي أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح.

وقوله ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ (الكوثر: ٢)

(ق): الآية الثالثة: **قوله:** ﴿فصل﴾، الفاء للسببية عاطفة على قوله: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ [الكوثر: ١]، أي: بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكراً لله تعالى على هذه النعمة. والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعاً.

وقوله: ﴿وانحر﴾، المراد بالنحر: الذبح، أي اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

وقوله: ﴿وانحر﴾، مطلق، فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته، وهي **ثلاثة أشياء**: الأضاحي، والهدايا والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان أن يفعلها. أما الهدايا، فمنها واجب، ومنها مستحب، فالواجب كما في التمتع: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ [البقرة: ١٩٦] وكما في حلق الرأس: ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، وكما في المحصر: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ [البقرة: ١٩٦]، هذا إن صح أن نقول: إنها هدي، ولكن الأولى أن نسميها فدية كما سماها الله – عز وجل –، لأنها بمنزلة الكفارة.

وأما الأضاحي، فاختلف العلماء فيها: فمنهم من قال: إنها واجبة. ومنهم من قال: إنها مستحبة.

وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة، وأنه يكره للقادر تركها. ومذهب أبي حنيفة رحمه الله أنها واجبة على القادر، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية. والأضحية ليست عن الأموات كما يفهمه العوام، بل هي للأحياء، وأما الأموات، فليس من المشروع أن يضحي لهم استقلالاً، إلا إن أوصوا به، فعلى ما أوصوا به لأن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ. وأما العقيقة: وهي التي تذبح عن المولود في يوم سابعه إن كان ذكراً فاثنتان، وإن كان أنثى فواحدة، وتجزئ الواحدة مع الإعسار في الذكور. وهي سنة عند أكثر أهل العلم، وقال بعض أهل العلم: إنها واجبة، لأن النبي ﷺ قال: "كل غلام مرتهن بعقيقته"[1].

(ف): **قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى**: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله والى عدته، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر، ولهذا جمع بينهما في قوله: " قل إن صلاتي ونسكي " الآية

[1] مسند الإمام أحمد (٥/٧)، والترمذي: كتاب الأضحية /باب في العقيقة ـــ وقال: (حديث حسن صحيح)، وصححه الألباني في الإرواء، ٤/٣٨٥، وفي صحيح الجامع (٤٥٤١).

والنسك الذبيحة لله تعالى إبتغاء وجهه. فإنهما أجل ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب، لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر. وأجل العبادات البدنية: الصلاة، وأجل العبادات المالية: النحر. وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص، من قوة اليقين وحسن الظن: أمر عجيب، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر.أ.هـ.

قلت: وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيراً، فمن ذلك الدعاء والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجود والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالى، والإقبال عليه بالقلب، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يصرف منها شيئ لغير الله: وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

عن عَلِيّ رضي الله عنه قال حَدّثَنِي رسول الله ﷺ بأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ. «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ. . لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً. لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رواه مسلم[1].

(ف): **قوله:** وعن علي بن أبي طالب قال: " حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض " رواه مسلم من طرق وفيه قصة.

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبي طفيل قال قلنا لعلى: أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله ﷺ فقال: ما أسر إلى شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير تخوم الأرض، يعنى المنار.

وعلى بن أبي طالب: هو الإمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء، كان من أسبق السابقين الأولين ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين.

(ق): **قوله:** "كلمات": جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد. أما في اللغة، فهي كل قول مفيد، قال الرسول ﷺ: "أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل"[2]، وقال

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي باب (تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله)حديث (١٩٧٨).

[2] أخرجه البخاري في كتاب الرقائق باب "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك "حديث (٦٤٨٩).

تعالى: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾، وهي قوله: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. قال شيخ الإسلام: لا تطلق الكلمة في اللغة العربية إلا على الجملة المفيدة.

قوله: "لعن الله"، اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قيل: لعنه الله، فالمعنى: طرده وأبعده عن رحمته، وإذا قيل: اللهم العن فلاناً، فالمعنى أبعده عن رحمتك واطرده عنها.

(**ف**): **قال أبو السعادات**: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه: إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلى سبحانه على من استحق الصلاة من عباده قال تعالى: ' ٣٣: ٤٣، ٤٤ '﴿هو الذي يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما * تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾وقال: ' ٣٣: ٦٤ ' ﴿إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ﴾ وقال: ' ٣٣: ٦١ '﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾ والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبلغه رسوله محمداً ﷺ، وجبريل سمعه منه كما سيأتي في الصلاة إن شاء الله تعالى، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم. فالله تعالى هو المصلى وهو المثيب، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة. قال الإمام أحمد رحمه الله: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

(**ق**): **قوله:** "من ذبح لغير الله"، عام يشمل من ذبح بعيراً، أو بقرة، أو دجاجة، أو غيرها.

قوله: "لغير الله"، يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جنى، أو غيرهم.

(**ف**): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ' ٢: ١٧٣ ' " وما أهل به لغير الله " ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا. وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للصنم وقال فيه: باسم المسيح أو نحوه. كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله. وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم، وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك وإن هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال. **لكن يجتمع في الذبيحة مانعان:**

الأول: أنه مما أهل به لغير الله.

والثاني: أنها ذبيحة مرتد.

ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن، ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن[1] أ.هـ.

قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزي: أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه، أفتى أهل بخارى بتحريمه، لأنه مما أهل به لغير الله.

(ق): **وقوله:** "لعن" يحتمل أن يكون الجملة خبرية، وأن الرسول ﷺ يخبر أن الله لعن من ذبح لغير الله، ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر، أي: اللهم العن من ذبح لغير الله، والخبر أبلغ، لأن الدعاء قد يستجاب، وقد لا يستجاب.

قوله: "والديه"، يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهم. والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى، لأنه أولى بالبر، ولعنه ينافي البر.

قوله: "من لعن والديه"، أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنساناً أو شتمته، فهذا لعنه لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: "يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه"[2]. وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة، وهي: أن السبب بمنزلة المباشرة في الإثم، وإن كان يخالفه في الضمان على تفصيل في ذلك عند أهل العلم.

قوله: "من آوى محدثاً"، أي: ضمه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم. والإحداث في الأمر: أي في شؤون الأمة، كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثاً، فهو ملعون، وكذا من ناصرهم، لأن الإيواء أن تأويه لكف الأذى عنه، فمن ناصره، فهو أشد وأعظم. والمحدث أشد منه، لأنه إذا كان إيواؤه سبباً للعنة، فإن نفس فعله جرم أعظم. ففيه التحذير من البدع والإحداث في الدين، قال النبي ﷺ: "إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"، وظاهر الحديث: ولو كان أمراً يسيراً.

---

[1] موضوع: رواه البيهقي في سننه (٩/٣١٤) عن أبي هريرة مرفوعاً وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وحكم بوضعه الشيخ الألباني في الضعيفة (٢٤٠)وقال : (فالعمدة في النهي عن هذه الذبائح الأحاديث الصحيحة في النهي عن الطيرة والله أعلم) أ.هـ.

[2] أخرجه البخاري في كتاب الأدب (باب لا يسب الرجل والديه، حديث (٥٩٧٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر أكبرها حديث (٩٠).

(**ف**): **قال ابن القيم رحمه الله تعالى**: هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم.

(**ق**): **قوله:** "منار الأرض"، أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيرها ظلماً، فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض، لا سيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: "من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً، طوقه من سبع أرضين"[1]، فالأمر عظيم، مع أن هذا الذي يقتطع من الأرض ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري: قد يستفيد منها في دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ. فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبي ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم، وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله - سبحانه وتعالى - حتى لا يقع فيه.

(**ف**): ففيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين.**وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان:**

أحدهما: أنه جائز. اختاره ابن الجوزي وغيره.

ثانيهما: لا يجوز، اختاره، أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام.

[1] تقدم تخريجه.

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: "دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب" قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء أقربه. قالوا له: قرب ولو ذباباً. فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ. فضربوا عنقه، فدخل الجنة" رواه أحمد[١].

(ق): قوله (عن طارق بن شهاب).

(ف): وطارق بن شهاب: هو البجلي الأحمس، أبو عبد الله. رأى النبي ﷺ وهو رجل.
قال البغوي: نزل الكوفة. وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ و لم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقي النبي فهو صحابي. وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي وهو مقبول على الراجح، وكانت وفاته – على ما جزم به ابن حبان – سنة ثلاث وثمانين.

قوله: "دخل الجنة رجل في ذباب أي من أجله".

قوله: قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله كأنهم تقالوا ذلك، وتعجبوا منه. فبين لهم النبي ﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.

قوله: "فقال: مر رجلان على قوم لهم صنم" ، الصنم ما كان منحوتاً على صورة ويطلق عليه الوثن كما مر.

قوله: لا يجاوزه أي لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئاً وإن قل.

قوله: قالوا له قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار في هذا بيان عظمة الشرك، ولو في شيئ قليل، وأنه يوجب النار. كما قال تعالى: ' ٥: ٧٢ ' " إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ".

---

[١] أخرجه أحمد في الزهد.

(**تم**): ووجه **الدلالة منه** أن التقريب للصنم بالذبح كان سببا لدخول النار، وذلك أن ظاهر المعنى يدل أن من فعله كان مسلما، وإنه دخل النار بسبب ما فعل، وهذا يدل على أن الذبح لغير الله شرك أكبر لأن ظاهر **قوله**: (دخل النار) يعني: استوجبها مع من يخلد فيها.

وفيه وجه آخر للدلالة وهو أنه إذا كان تقريب هذا الذي لا قيمة له -وهو الذباب- سبباً في دخول النار فإنه يدل على أن من قرَّب ما هو أبلغ وأعظم منفعة، عند أهله، وأغلى أنه سبب أعظم لدخول النار، وقولهم هنا: "قرِّب" يعني: اذبح تقربا، والملاحظ هنا في هذا الحديث إنه لم يدل على أنهم أكرهوه على هذا الفعل؛ لأنه قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا) فظاهر قوله: (لا يجوزه أحد) يعني: أنهم لا يأذنون لأحد بمجاوزته عن ذلك الطريق حتى يقرب، وهذا ليس إكراها، إذ يمكن أن يقول: سأرجع من حيث أتيت، ولا يجوز ذلك الموضع، ويتخلص من آذاهم.

فهذا يدل على أن الإكراه بالفعل لم يحصل من أولئك، فلا يدخل هذا في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ (النحل: من الآية١٠٦)؛ لأنه ليس في الحديث دلالة -كما هو ظاهر- على حصول الإكراه، وإنما قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا) فما صفة عدم السماح، بعدم المجاوزة، هل هي أنه لا يجوزه حتى يقتل، أو يقرب؟ أو لا يجوزه حتى يقرب، أو يرجع؟

استظهر بعض العلماء من قتلهم لأحد الرجلين أن المعنى أنه لا يجوزه حتى يقرب أو يقتل، وأن هذا علم بالسياق، فصار ذلك نوع إكراه؛ فلهذا استشكلوا كون هذا الحديث دالا على أن من فعل هذا الفعل يدخل النار مع أنه مكره.

والجواب عن هذا الإشكال: أن هذا الحديث على هذا القول، وما فيه من عدم إعذار المكره ولو بالقتل كان في شرع من قبلنا أما رفع الإكراه أو جواز قول كلمة الكفر، أو عمل الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان، فهذا خاص بهذه الأمة، هذا ما أجاب به بعض أهل العلم.

وعلى القول الاول الذي قدمناه وهو أن السياق ليس فيه ما يعين أنهم هددوه بالقتل، فيكون الحديث مجملاً فكيف يحمل الحديث على شيءٍ مجمل لم يعين.

قوله: (فضربوا عنقه) ليس فيه اشكال ولا يرد على ما قلنا لانهم ربما قتلوا الذي لم يقرب شيئاً لأنه أهان صنمهم بقوله (ما كنت لأقرب لأحد شيئاًدون الله -عز وجل-) لهذا استشكل هذا الحديث طائفة من أهل العلم كما سبق، وهو -بحمد الله- ليس بمشكل، لأنه إما أن يحمل على أنه فيمن كان قبلنا، فلا وجه -إذن- لدخول الإكراه، أو يحمل على أنهم لم يكرهوه حين أراد المحاوزة، ولكن قتلوه لأجل قوله: (لم أكن لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل).

إذن فهذا الباب -وهو **قوله**: باب: "ما جاء في الذبح لغير الله"- ظاهر في الدلالة على أن التقرب لغير الله -جل وعلا- بالذبح شرك به -سبحانه- في العبادة، فمن ذبح لغير الله تقربا وتعظيما، فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة.

(ق): في الحديث علتان:

الأولى: أن طارق بن شهاب اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ، واختلفوا في صحبته، والأكثرون على أنه صحابي. لكن إذا قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ، لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي، فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين، وهذا آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين. ثم للحديث علة ثالثة، وهي أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفاً من قوله، وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل.

قوله: "في ذباب"، في: للسببية، وليست للظرفية، أي: بسبب ذباب، ونظيره قول النبي ﷺ: "دخلت النار امرأة في هرة حبستها"..." الحديث، أي: بسبب هرة.

قوله: "فدخل النار"، مع أنه ذبح شيئاً حقيراً لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم، صار مشركاً، فدخل النار.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوى محدثاً وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجيء إلى من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك في الأرض وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن، ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: (دخل النار في ذباب).

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك).

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: تفسير: ﴿فصل لربك وانحر﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله، بدأ به، لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد، لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ [الإسراء: ٢٣]، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته.

الرابعة: لعن من لعن والديه.

ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه، لأن الرسول ﷺ فسره بقوله: "يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه".

الخامسة: لعن من آوى محدثاً، وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوى محدثاً ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثاً بجريمة، فهو داخل في ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وسواء كانت بينك وبين جارك أو بينك وبين السوق مثلاً، لأن الحديث عام.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم، فالأول ممنوع، والثاني جائز، فإذا رأيت من آوى محدثاً، فلا تقل: لعنك الله، بل قل: لعن الله من آوى محدثاً على سبيل العموم، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما صار يلعن أناساً من المشركين من أهل الجاهلية بقولك: "اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً" نهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾[1] [آل عمران: ١٢٨]، فالمعين ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن، فجاء هذا الحديث لاعناً للعموم، فيبقى الخصوص على أصله، لأن المسلم ليس بالطعان ولا باللعان، والرسول ﷺ ليس طعاناً ولا لعاناً، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلا، فالحديث لا تفريق فيه.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب، كأن المؤلف رحمه الله يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكماً، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير /باب قول الله تعالى: (وليس لك من الأمر شيء).

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم، هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قرب ولو ذباباً يقتضي أنه فعله قاصداً التقرب، أما لو فعله تخلصاً من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهذا قال الفقهاء: لو أكره على طلاق امرأته فطلق تبعاً لقول المكره، لم يقع الطلاق، بخلاف ما لو نوى الطلاق، فإن الطلاق يقع، وإن طلق دفعاً للإكراه، لم يقع، وهذا حق لقوله ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات"[1].

وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب، لأن الأصل أن الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف رحمه الله، أي أنه لو فعله بقصد التخلص و لم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر، لعموم قوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ [النحل: ١٠٦] وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصاً مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضاً: أنه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره على القول لم يكفر، وإذا أكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها، وفيها نظر من حيث الدلالة، لما سبق أن الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصاً من شرهم، فإن لدينا: نصاً محكماً في الموضوع، وهو قوله تعالى: ﴿من كفر بالله...﴾ [النحل: ١٠٦] الآية، و لم يقل: بالقول، فما دام عندنا نص قرآني صحيح، فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه، فإنها تحمل على النص المحكم.

والخلاصة أن من أكره على الكفر، لم يكن كافراً ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان و لم يشرح بالكفر صدراً.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل و لم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر؟!

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين.. إلخ، وقد بينها المؤلف رحمه الله تعالى.

مسألة: هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهراً وباطناً، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانياً: أن يوافق ظاهراً لا باطناً، ولكن يقصد التخلص من الإكراه، فهذا جائز.

ثالثاً: أن لا يوافق لا ظاهراً ولا باطناً ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الوحي /باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم: كتاب الإمارة /باب قول النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات).

لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهراً؟

فيه تفصيل: إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة، فإن الأولى أن يوافق ظاهراً لا باطناً، لا سيما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما نفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتى وإن لم يكن فيه مصلحة، ففي بقائه على الإسلام زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رخص له أن يكفر

ظاهراً عند الإكراه، فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهراً لا باطناً.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام، فإنه يصبر، وقد يجب الصبر، لأنه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين، قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد[1] ويصبر، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى. ولو حصل من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة، لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام. والإمام أحمد رحمه الله في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهراً، لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: دخل النار في ذباب، وهذا صحيح، أي أنه كان مسلماً ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار. ولو كان كافراً قبل أن يقرب الذباب، لكان دخوله النار لكفره أولى، لا بتقريبه الذباب.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك"[2]، والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا علم أن الجنة أقرب إليه من شراك النعل، فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيدة، كقوله ﷺ لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه"[3]، والنار إذا قيل له: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشية لئلا يزل فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان، والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض، لأنه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر، فقال: بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصاً من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله حق بالنسبة

---

[1] البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه.

[2] البخاري: كتاب الرقاق/باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله.

[3] أخرجه الترمذي في كتاب اليمان حديث (٢٦١٦) وابن ماجة حديث (٣٩٧٣) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع(٥١٣٩).

إلى أن المدار على القلب. والحقيقة أن العمل مركب على القلب، والناس يختلفون في أعمال القلوب أكثر من اختلافهم في أعمال الأبدان، والفرق بينهم قصداً وذلاً أعظم من الفرق بين أعمالهم البدنية، لأن من الناس من يعبد الله لكن عنده من الاستكبار ما لا يذل معه ولا يذعن لكل حق، وبعضهم يكون عنده ذل للحق، لكن عنده نقص في القصد، فتجد عنده نوعاً من الرياء مثلاً.

فأعمال القلب وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلى الإنسان أن يخلصها لله. وأقوال القلب هي اعتقاداته، كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وأعماله هي تحركاته، كالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب. ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدنيا.



باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

(**ق**): هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون، ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله، فنفس الفعل لغير الله. وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه، لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

(**تم**): **قال الإمام -رحمه الله-**: باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله، **قوله**: "لا يذبح لله" هذا على جهة النفي المشتمل على النهي؛ لأن من أساليب اللغة العربية أنه يعدل عن التصريح بالنهي إلى التصريح بالنفي؛ ليدل دلالة أبلغ على أن النفي والنهي معا مقصودان، فكأنه لا يصح أن يقع أصلا؛ ولهذا أتى بصيغة النفي فقال باب: "لا يذبح لله...".

وقال بعض أهل العلم: يحتمل أن تكون (لا) للنهي فيكون الفعل المضارع بعدها مجزوماً أي: باب: "لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله"، وقوله: لله، يعني: أن تكون النسيكة، أو أن تكون الذبيحة مراداً بها وجه الله -جل وعلا. (بمكان يذبح فيه لغير الله)، و(الباء) هنا لها معنى زائد على كلمة (في)، وهذا المعنى الزائد أنها أفهمت معنى الظرفية، ومعنى المجاورة جميعا؛ لأن الباء تكون للمجاورة -أيضا- كما تقول: مررت بزيد يعني: بمكان قريب من مكان زيد، أو بمكان مجاور لمكان زيد، والظرفية بـ "في" تفيد أنه في المكان نفسه، فاستعمال حرف (الباء) يفيد أنه مجاور لذلك المكان، وهذان المعنيان معا مقصودان، وهو أنه لا يذبح لله بمجاورة المكان الذي يذبح فيه لغير الله، ولا في نفس المكان الذي يذبح فيه لغير الله؛ لأنهما -بهذا- يشتركان مع الذين يذبحون لغير الله -جل وعلا-.

وصورة المسألة أن يوجد مكان يذبح فيه لغير الله كمكان عند قبر، أو عند مشهد، أو عند مكان معظم، واعتاد المشركون التقرب بالذبائح لأصنامهم وأوثانهم في هذا المكان، فإذا كانوا يتقربون في هذا المكان للقبر، أو نحوه، ويذبحون لصاحبه يعني: من أجله، فإنه لا يحل أن يذبح المسلم الموحد في هذا المكان، ولو ذبحه خالصا لله -عز وجل-؛ لأنه يكون قد شابه أولئك المشركين في تعظيم الأمكنة التي يتعبدون فيها بأنواع العبادات، التي يصرفونها لغير الله -جلا وعلا-.

فالذبح لله وحده وإن كان خالصاً له إن كان في المكان الذي يتقرب فيه لغير الله فإنه لا يحل، ولا يجوز بل هو من وسائل الشرك، ومما يغري بتعظيم ذلك المكان، وحكمه أنه محرم، ووسيلة من وسائل الشرك.

وقول الله تعالى ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨)

(ق): **قوله:** ﴿لا تقم فيه﴾، ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بني على نية فاسدة، قال تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ [التوبة: ١٠٧]، والمتخذون هم المنافقون، **وغرضهم من ذلك:**

١- مضارة مسجد قباء: ولهذا يسمى مسجد الضرار.

٢- الكفر بالله: لأنه يقرر فيه الكفر - والعياذ بالله -، لأن الذين اتخذوه هم المنافقون.

٣- التفريق بين المؤمنين: فبدلاً من أن يصلى في مسجد قباء صف أو صفان يصلى فيه نصف صف، والباقون في المسجد الآخر، والشرع له نظر في اجتماع المؤمنين.

٤- الإرصاد لمن حارب الله ورسوله يقال: إن رجلاً ذهب إلى الشام، وهو أبو عامر الفاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول ﷺ وأصحابه، قال الله تعالى: ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ [التوبة: ١٠٧]، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة.

﴿إن﴾: نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أي: ما أردنا إلا الحسنى، والجواب على هذا اليمين الكاذب: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ [التوبة: ١٠٧]. فشهد الله تعالى على كذبهم، لأن ما يسرونه في قلوبهم ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، فكأن هذا المضمر في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يرى بالعين كما قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: ١].

وقوله: ﴿لا تقم فيه﴾، لا: ناهية وتقم: مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، وحذفت الواو، لأنه سكن آخره، والواو ساكنة، فحذفت تخلصاً من التقاء الساكنين.

قوله: ﴿أبداً﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾، اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ، وخبره: قول الله ﴿أحق أن تقوم فيه﴾، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل

قوله: ﴿أسس على التقوى﴾، اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ، بدليل قوله: ﴿أسس على التقوى﴾ [التوبة: ١٠٩]، أي: جعلت التقوى أساساً له، فقام عليه. وهذه الأحقية ليست على بابها، وهو أن اسم التفضيل يدل على مفضل ومفضل عليه اشتركا في أصل الوصف، لأنه هنا لا حق لمسجد الضرار أن يقام

فيه، وهذا)أعني: كون الطرف المفضل عليه ليس فيه شيء من الأصل الذي وقع فيه التفضيل(موجود في القرآن كثيراً، كقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤].

(**ف**): قال المفسرون إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار، والأمة تبع له في ذلك، ثم إنه تعالى حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنى على التقوى، وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: " صلاة في مسجد قباء كعمرة " وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة، وعطية، والشعبي، والحسن وغيرهم.

قلت: ويؤيده قوله في الآية " فيه رجال يحبون أن يتطهروا " وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد قال: " تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء. وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: هو مسجدي هذا " رواه مسلم، وهو قول عمر وابنه وزيد ابن ثابت وغيرهم.

قال ابن كثير: وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية والحديث. لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى: ' ٩: ١٠٧ ' " والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ". فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة. وكان الذين بنوه جاءوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلى فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية، فقال: " إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله " فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة.

(**ق**): **قوله:** ﴿فيه﴾، أي: في هذا المسجد المؤسس على التقوى.

قوله: ﴿يحبون أن يتطهروا﴾، بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس﴾ [التوبة: ٩٥].

قوله: ﴿يتطهروا﴾، يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقذار والنجاسات والأحداث.

(**ف**): **قوله:** " فيه رجال يحبون أن يتطهروا " روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الأنصاري " أن النبي ﷺ آتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟ فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا "[1] وفي رواية عن جابر وأنس (هو ذاك فعليكموه) رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والدار قطني والحاكم[2].

(**ق**): **قوله:** ﴿والله يحب المطهرين﴾، هذه محبة حقيقية ثابتة لله – عز وجل – تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته، فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ. **وقوله:** ﴿المطهرين﴾ أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفية معروفة.

(**ف**): **قال أبو العالية**: إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المتطهرون من الذنوب.

(**ق**): **وجه المناسبة من الآية**: أنه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، نهى الله ورسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله، فدل على أن كل مكان يعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، مع أن صلاته فيه لله، فدل على أن كل مكان يعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية، فلا تقام فيه الصلاة. وكذا لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يذبح فيه لغير الله كان حراماً، لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار. وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس، فهذا باعتبار الزمن والوقت والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان.

---

[1] حسن بشواهده: أحمد (٤٢٢/٣) ،وابن خزيمة(٨٣)، والحاكم في المستدرك (١٥٥/١).

[2] حسن بشواهده :ابن ماجة(٣٥٥)، سنن الدار قطني(٦٢/١)، والحاكم في المستدرك(١٥٥/١)(٣٣٤/٢)، والبيهقي (١٠٥/١).

عن ثَابِتُ بنُ الضّحّاكِ رضي الله عنه قال: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحرَ إبلاً بُبوَانَةَ، فَسأَل النّبيّ ﷺ فقالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيّةِ يُعْبَدُ؟ قالُوا: لاَ. قالَ: فهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟ قالُوا: لاَ. فقالَ النّبيّ ﷺ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنّهُ لاَ وَفَاءَ لِنذرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابنُ آدَمَ» رواه أبو داود وإسناده على شرطهما[1].

(ف): **قوله:** عن ثابت بن الضحاك أي ابن خليفة الأشهلي، صحابي مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره. مات سنة أربع وستين.

(ق): **قوله:** "نذر"، النذر في اللغة: الإلزام والعهد. واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله شيئاً غير واجب. وقال بعضهم: لا نحتاج أن نقيد بغير واجب، وأنه إذا نذر الواجب صح النذر وصار المنذور واجباً من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء. والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه، لأن النبي نهى عنه، وقال: "لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل"[2]، ولأنه إلزام لنفس الإنسان لما جعله الله في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه. ولأن الغالب أن الذي ينذر يندم، وتجده يسأل العلماء يميناً وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة يريدها، تجده ينذر كأنه يقول: إن الله لا ينعم عليه بجلب خير أو دفع الضرر إلا بهذا النذر.

قوله: "إبلاً" اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قوله: "ببوانه"، الباء بمعنى في، وهي للظرفية، والمعنى: بمكان يسمى بوانه.

(ف): **قال البغوي:** موضع في أسفل مكة دون يلملم. **قال أبو السعادات:** هضبة من وراء ينبع.

(ق): **قوله:** "هل كان فيها وثن"، الوثن: كل ما عبد من دون الله، من شجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت. والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: "الجاهلية"، نسبة إلى ما كان قبل الرسالة، وسميت بذلك، لأنهم كانوا على جهل عظيم.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٤١٩/٣)، وسنن أبي داود: كتاب الأيمان والنذور/باب ما يؤمن به من الوفاء بالنذر حديث (٣٣١٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥١).

[2] البخاري: كتاب القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، ومسلم: كتاب النذر/ باب النهي عن النذر.

قوله: "يعبد"، صفة لقوله: "وثن"، وهو بيان للواقع، لأن الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

(**ف**): فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله. قاله المصنف رحمه الله.

(**ق**): **قوله:** "قالوا: لا"، السائل واحد، لكنه لما كان عنده ناس أجابوا النبي ﷺ، ولا مانع أن يكون المجيب غير المسؤول.

قوله: "عيد"، العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع، أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيداً وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا. فسأل النبي ﷺ **عن أمرين**: عن الشرك، ووسائله. فالشرك: هل كان فيها وثن؟ ووسائله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

(**ف**): **قوله:** فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد، إما بعود السنة أو الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك والمراد به هنا الإجماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية. فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات، وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقاً، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً. فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة "إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً " والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس شهدت العيد مع رسول الله ﷺ والمكان كقول النبي ﷺ " لا تتخذوا قبرى عيداً " وقد يكون لفظ العيد إسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب، كقول النبي ﷺ: " دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً" انتهى.

قال المصنف: وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله.

قلت: وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

(**ق**): **قوله:** "أوف بنذرك"، فعل أمر مبني على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنى الحقيقي، فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي. وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة، لأنه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان، إذ إنه لا يتعين أي مكان في الأرض إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة، فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر اجب. وبالنسبة للمكان، فالأمر للإباحة، بدليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم، لقال: لا توف، فإذا كان المقام يحتمل النهي والترخيص، فالأمر للإباحة.

وقوله: "أوف بنذرك" علل ﷺ ذلك بانتفاء المانع، فقال: "فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله".

قوله: "لا وفاء لنذر"، لا: نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: "في معصية الله"، صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله، لأنه لا يتقرب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها.

أقسام النذر:

الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة، لقوله ﷺ: "من نذر أن يطيع الله، فليطعه"[1].

الثاني: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية، لقوله ﷺ: "ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه"[2]، وقوله: "فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله"[3].

الثالث: ما يجري مجرى اليمين، وهو نذر المباح، فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب، فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسمي بهذا الاسم، لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالباً، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذي يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً، فعلي لله نذر أن أصوم سنة، فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل، فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين، لأنه إن صام فقد وفى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث في اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذي ذكر فيه صيغة النذر، مثل أن يقول: لله علي نذر، فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبي ﷺ: "كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين"[4].

مسألة: هل ينعقد نذر المعصية؟

الجواب: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: "من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه"، ولو قال: من نذر أن يعصي الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففي قوله: "فلا يعصه" دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

---

[1] البخاري: كتاب الأيمان والنذور/ باب النذر في الطاعة.

[2] انظر التخريج السابق.

[3] مسلم: كتاب النذر/ باب لا وفاء لنذر في معصية الله.

[4] رواه ابن ماجة والترمذي وصححه، وأصله في مسلم

وإذا انعقد: هل تلزمه كفارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد: فقال بعض العلماء: إنه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: "لا وفاء لنذر في معصية الله". وبقوله ﷺ: "ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه"، ولم يذكر النبي ﷺ كفارة، ولو كانت واجبة، لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب، لأن الرسول ﷺ ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفارته كفارة يمين وكون الأمر لا يذكر في حديث لا يقتضي عدمه، فعدم الذكر ليس ذكراً للعدم، نعم، لو قال الرسول: لا كفارة، صار في الحديثين تعارض، وحينئذ نطلب الترجيح، لكن الرسول لم ينف الكفارة، بل سكت، والسكوت لا ينافي المنطوق، فالسكوت وعدم الذكر يكون اعتماداً على ما تقدم، فإن كان الرسول قاله قبل أن ينهى هذا الرجل، فاعتماداً عليه لم يقله، لأنه ليس بلازم أن كل مسألة فيها قيد أو تخصيص يذكرها الرسول عند كل عموم، فلو كان يلزم هذا، لكانت تطول السنة، لكن الرسول ﷺ إذا ذكر حديثاً عاماً وله ما يخصصه في مكان آخر حمل عليه، وإن لم يذكره حين تكلم بالعموم. وأيضاً من حيث القياس لو أن الإنسان اقسم ليفعلن محرماً، وقال: والله، لأفعلن هذا الشيء وهو محرم، فلا يفعله، ويكفر كفارة يمين، مع أنه أقسم على فعل محرم، والنذر شبيه بالقسم، وعلى هذا، فكفارته كفارة يمين، وهذا القول أصح.

وقوله: "ولا فيما لا يملك ابن آدم" الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعاً، كما لو قال: لله على أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدراً كما لو قال: لله عليّ نذر أن أطير بيدي فهذا لا يصح لأنه لا يملكه والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البيِّنة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة، أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حرم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل، بخلاف الذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلى في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا، فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال، فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل لكن الرسول ﷺ بين ذلك بالاستفصال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك، لأن النبي ﷺ استفصل.

لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال، لأننا لو استفصلنا في كل مسألة، لطال الأمر. فمثلاً: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن: هل هو معلوم؟ وعن المثمن: هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلقاً أو غير معلق؟ وهل كان ملكاً للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟.

أما إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق أو لأم؟ فإن كان لأم، سقط، وأخذ الباقي العم، وإلا، سقط العم، وأخذ الباقي الأخ.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع، لقوله: "أوف بنذرك"، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية. والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه، فإذا خشي، كان ممنوعاً، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشي أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزية، كان ممنوعاً.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله، لقوله: "هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟"، لأن "كان" فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنه ربما يعاد.

السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله، لقوله: "فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟".

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية، لقوله: "فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله".

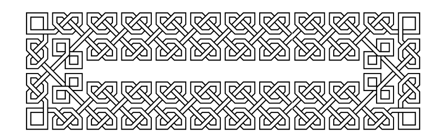
التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده، وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد، فإنه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشد إثماً، ولهذا قال شيخ الإسلام a عبد الوهاب: ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية الله، هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: "لا وفاء لنذر"، وبينهما فرق. فإذا قيل لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد.

وإذا قيل: لا وفاء، فالمعنى أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا. لكن: "لا نـــذر" يحمل على أن المراد لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: "ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه".

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، يقال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.

والمعنى: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعاً، وما لا يملكه قدراً.



باب من الشرك النذر لغير الله

(**تم**): **قوله:** "باب: من الشرك النذر لغير الله تعالى"، (من) ها هنا تبعيضية، قوله (من الشرك النذر)، (النذر) مبتدأ مؤخر، والخبر قبله وأصل الجملة، النذر لغير الله كائن من الشرك، والشرك هنا: المقصود: به الشرك الأكبر.

(**ق**): النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله على نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي، لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرم، مثل: والله، لأسرقن، ونظيره نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك، لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة، فقد صرفها لغير الله، فيكون مشركاً. وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقاً، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله فلا ينعقد وليس فيه كفارة. وأما نذر المعصية، فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله على المحرم ينعقد، وفيه كفارة.

(**ف**): إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عباد القبور، تقرباً بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب. كما قال تعالى: ' ٦: ١٣٦ ' " وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ".

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما ما نذر لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات. والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوقات. فإن كلاهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قال النبي ﷺ: " من حلف وقال في حلفه: واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله "[1].

---

[1] البخاري، كتاب الايمان والنذور : ،حديث(٦٦٥٠) باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت ،ومسلم، كتاب الايمان :حديث (١٦٤٧)، (٥): باب من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دهناً لتنور به ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين -: وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به وكذلك إذا نذر مالاً للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة. فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل ﷲ. والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: " ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون " والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ' ٧: ١٣٨ ' " وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم " فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد في الهند والمجاورين عندها.

وقال الرافعي في شرح المنهاج: وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولى أو شيخ أو على إسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت، ويقولون إنها تقبل النذر كما يقوله البعض يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً. ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً، ظاناً أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا.

قال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه ستره، ويقول: يا سيدي فلان إن رد ﷲ غائبي أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا. فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه، منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز، لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أن المنذور له ميت، والميت لا يملك، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون ﷲ، واعتقاد ذلك كفر - إلى أن قال: إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها فحرام بإجماع المسلمين.

نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق، ونقله المرشدي في تذكرته وغيرهما عنه وزاد: قد ابتلى الناس بهـذا لا سيما في مولد البدوي.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفي التتريل ' ٦: ١٢١ ' " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " ' ٦: ١٦٢ ' " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك لـه " والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره.

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾(الإنسان: من الآية٧)

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ (البقرة: من الآية٢٧٠)

(ق): وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولى: قوله: ﴿يوفون بالنذر﴾، هذه الآية سيقت لمدح الأبرار، ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كـان مزاجها كافوراً﴾ [الإنسان: ٥]. ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبـادة، لأن الإنسـان لا يمـدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عباده. ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعـالى: ﴿وليوفـوا نذورهم﴾ [الحج: ٢٩]، لكان أوضح، لأن قوله: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنـه عبادة، لأن العبادة ما أمر به شرعاً. وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشـرك: أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سبباً يـدخلون بـه الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك.

الآية الثانية قوله: ﴿وما أنفقتم﴾. ﴿ما﴾: شرطية، و﴿أنفقتم﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فإن الله يعلمه﴾.

قوله: ﴿من نفقة﴾، بيان لـ ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما أنفقتم﴾، والنفقة: بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: ﴿أو نذرتم﴾، معطوف على قوله: ﴿وما أنفقتم﴾. قوله ﴿فإن الله يعلمه﴾، تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليـه يدل على أنه من العبادة التي يجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

(**تم**): وهاهنا سؤال معروف قد يرد في هذا المقام، وهو أن النذر مكروه، قد كرهه النبي ﷺ، وسئل عنه فقال: (إنه لا يأتي بخير)[1] فكيف يكون عبادة، وقد كرهه - عليه الصلاة والسلام -؟.

والجواب: أن النذر قسمان: نذر مطلق، ونذر مقيد، والنذر المطلق هو أن يلزم العبد نفسه بعبادة لله - جل وعلا- هكذا بلا قيد، كأن: يقول -مثلا-: لله علي نذر أن أصلي ركعتين، وليس هذا النذر في مقابلة شيء يحدث له في المستقبل، أو شيء حدث له، فيلزم نفسه بعبادة كصلاة، أو صيام، أو نحو ذلك، فهذا هو النذر المطلق، وهو إلزام العبد نفسه بطاعة لله -جل وعلا- أو بعبادة. وليس هذا النذر هو الذي كرهه -عليه الصلاة والسلام-؛ بل النذر المكروه هو القسم الثاني: وهو النذر المقيد وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: (إنما يستخرج به من البخيل)[2] وحقيقته أن يلزم العبد نفسه بطاعة لله -جل وعلا- مقابل شيء يحدثه اللَّهُ -جل وعلا- له، ويقدره ويقضيه له.

كأن يقول -مثلا-: إن شفى اللَّهُ مريضي فلله علي نذر أن أتصدق بكذا وكذا، أو إن نجحت فأصلي ليلة، أو إن عُينت في هذه الوظيفة، فسأصوم أسبوعا، ونحو ذلك، فهذا كأنه يشترط بهذا النذر على اللَّهُ -جل وعلا- فيقول: يا رب إن أعطيتني كذا وكذا صمت لك، وإن أنجحتني صليت أو تصدقت، وإن شفيت مريضي فعلت كذا وكذا، يعني: مقابلة للفعل بالفعل، وهذا هو الذي وصفه النبي -عليه الصلاة والسلام- **بقوله**: (إنما يستخرج به من البخيل)؛ لأن البخيل هو الذي لا يعمل العبادة حتى يقاضى عليها، فصار بما أعطاه اللَّهُ من النعمة، أو بما دفع عنه من النقمة كأنه - في حس ذلك الناذر - قد أعطي الأجر، وأعطي ثمن تلك العبادة.

وهذا المعنى الخاطىء يستحضره كثير من العوام، الذين يستعملون النذور، فإنهم يظنون أن حاجاتهم لا تحصل إلا بالنذر، وقد قال شيخ الإسلام -رحمه اللَّهُ-، وغيره من أهل العلم: إن من ظن أنه لا تحصل حاجة من حاجاته إلا بالنذر فإن اعتقاده هذا محرم؛ لأنه ظن أن اللَّهُ لا يعطي إلا بمقابل، وهذا سوء ظن بالله -جل وعلا-، وسوء اعتقاد فيه -سبحانه وتعالى-، بل هو المتفضل المنعم على خلقه.

فإذا تبين لك ذلك فاعلم أن النذر المطلق لا يدخل في الكراهة، لكن إذا أطلقنا القول بأن النذر عبادة، **فهل يدخل في هذا الإطلاق النذر المقيد؟.والجواب: أن النذر المقيّد له جهتان:**

الأولى: وفاءه بالنذر الذي ألزم نفسه به فإنه يكون بذلك قد تعبَّد اللَّهُ عبادة من هذه الجهة - فيما يظهر-.

---

[1] أخرجه البخاري (٦٦٩٣)ومسلم (١٦٣٩)(٤).

[2] أخرجه مسلم (١٦٣٩)(٢).

الجهة الثانية: جهة الكراهة المتعلقة بهذا النذر المقيد، وهي إنما جاءت لصفة الاعتقاد لا لصفة أصل العبادة، فإنه في النذر المقيد إذا قال: إن كان كذا وكذا فلله علي نذر كذا وكذا، كانت الكراهة راجعة إلى ذلك التقييد لا إلى أصل النذر، دل على ذلك التعليل حيث قال: (فإنما يستخرج به من البخيل).

فلا إشكال إذاً، فالنذر عبادة من العبادات العظيمة، وهنا قاعدة في أنواع الاستدلال على أن عملا ما من الأعمال صرفه لغير الله -جل وعلا- شرك أكبر، وذلك أن الاستدلال نوعان:

النوع الأول: استدلال عام: يعني: أن كل دليل من الكتاب أو السنة فيه إفراد الله بالعبادة، يكون دليلا على أن كل عبادة لا تصلح إلا لله، فيكون الاستدلال بهذا النوع من الأدلة، على تحريم النذر لغير الله، وأنه شرك كالأتي:

دل الدليل على وجوب صرف العبادة لله وحده، وعلى أنه لا يجوز صرف العبادة لغير الله -جل وعلا- ، وأن من صرفها لغير الله -جل وعلا- فقد أشرك، والنذر عبادة من العبادات فمن نذر لغير الله: فقد أشرك.

والنوع الثاني: من الاستدلال أن تستدل على المسائل بأدلة خاصة، وردت فيها، كأن تستدل على تحريم الذبح لغير الله بأدلة خاصة وردت في ذلك، وكأن تستدل على وجوب الاستغاثة بالله وحده دون ما سواه بأدلة خاصة وردت بذلك، وكذا في الاستعاذة ونحو ذلك.

فالدليل على وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة تفصيلا وإجمالا، وعلى أن صرفها لغير الله شرك أكبر يستقيم بهذين النوعين من الاستدلال، استدلال عام بكل آية، أو حديث فيهما الأمر بإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الشرك، فتدخل هذه الصورة فيها؛ لأنها عبادة بجامع تعريف العبادة.

والثاني: أن تستدل على المسألة بخصوص ما ورد فيها من الأدلة، ولهذا قال الشيخ -رحمه الله- هنا: باب: "من الشرك النذر لغير الله"، واستدل على ذلك بخصوص أدلة وردت في النذر، وأما الآيات التي قدمها في أول الكتاب كقوله -جل وعلا-: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: من الآية٢٣) وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) وكقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾(النساء: من الآية٣٦) وكقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ (الأنعام: من الآية١٥١).

فهذه أدلة تصلح لأن يستدل بها على أن صرف النذر لغير الله شرك، فتقول: النذر لغير الله عبادة، والله -جل وعلا- نهى أن تصرف العبادة لغيره، وأن من صرف العبادة لغير الله فهو مشرك، فتقول: النذر عبادة؛لأنه داخل في حد العبادة لأن الله -جل وعلا-، يرضاها ومدح الموفين به.

فالدليل الخاص إذاً هو: أن تستدل بخصوص ما جاء في الكتاب والسنة من الأدلة على النذر؛ ولهذا أورد الشيخ هنا الدليل التفصيلي، وفي أول الكتاب أتى بالأدلة العامة على كل مسائل العبادة، وهذا من الفقه

الدقيق في التصنيف، ومن الفقه في الأدلة الشرعية، أن المستدل على مسائل التوحيد ينبغي له أن يراعي التنويع؛ لأن تنويع الاستدلال، وإيراد الأدلة من عدة وجوه من شأنه أن يضعف حجة الخصوم الذين يدعون الناس لعبادة غير الله، وللشرك به -جل وعلا-، فإذا أوردت على الخصم مرة دليلاً خاصاً وتارة دليلاً عاماً، ونوَّعت في ذلك، فإن هذا مما يضيق به المخاصم، ويقطع حجته، أما إذا لم تورد إلا دليلاً واحداً فربما أوَّله لك، أو ناقشك فيه؛ فيحصل عند المستدل ضعف عند المواجهة، أما إذا انتبه لمقاصد أهل العلم، وحفظ الأدلة، فإنه يقوى على مجادلة الخصوم، والله -جل وعلا- وعد عباده بالنصر كما في **قوله**: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١). وقد قال الشيخ -رحمه الله- في "كشف الشبهات": (والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين، وهذا صحيح فإن عند العوام الذين علموا مسائل التوحيد، وأخذوها عن أهلها عندهم من الحجج، ووضوح البينات في ذلك ما ليس عند بعض المتعلمين).

وقول الله -تعالى-: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (الإنسان: من الآية٧) وجه الاستدلال على كون النذر عبادة: ظاهر: وهو أن الله -جل وعلا- مدح الموفين للنذر، ومدحه للموفين بالنذر يقتضي أن الوفاء بالنذر محبوبة له -جل وعلا-، وأنه مشروع، وما كان كذلك فهو من أنواع العبادات، فيكون صرفه لغير الله -جل وعلا- شركاً أكبر.

وكذلك **قوله**: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: من الآية٢٧٠] فإن الله عظَّم النذر **بقوله**: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ وعظَّم أهله، وهذا يدل على أن الوفاء به عبادة محبوبة لله -جل وعلا-.

وفي الصحيح عن عائشة (رضي الله عنها)، أن رسول الله قال: « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلا يَعْصِهِ »[1].

(**ف**): قوله (في الصحيح): أي صحيح البخاري.

قوله: عن عائشة هي أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع سنين، ودخل بها وهي ابنة تسع وهي أفقه النساء مطلقاً، وهي أفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح رضي الله عنها.

---

[1] أخرجه البخاري: في كتاب الأيمان والنذور /باب النذر في الطاعة.

(ق): **قوله:** "من نذر"، جملة شرطية تفيد العموم، وهل تشمل الصغير؟ قال بعض العلماء: تشمله، فينعقد النذر منه. وقيل: لا تشمله، لأن الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبناء على هذا يخرج الصغير من هذا العموم، لأنه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قوله: "أن يطيع الله"، الطاعة: هي موافقة الأمر، أي: توافق الله فيما يريد منك إن أمرك، فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك، فالطاعة ترك المنهي عنه، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة. أما إذا قيل: طاعة ومعصية، فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي.

قوله: "فليطعه"، الفاء واقعة في جواب الشرط، لأن الجملة إنشائية طلبية، واللام لام الأمر. وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب، كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب، كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب الوفاء بالنذر إلا إذا كان جنس الطاعة واجباً، وعموم الحديث يرد عليهم. وظاهر الحديث أيضاً يشمل من نذر طاعة نذراً مطلقاً ليس له سبب، مثل: "لله علي أن أصوم ثلاثة أيام". ومن نذر نذراً معلقاً، مثل: إن نجحت، فلله علي أن صوم ثلاثة أيام. ومن فرق بينهما، فليس ببعيد لأن الحديث عام. وأعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يستخرج به من البخيل، ولهذا نهى عنه النبي ﷺ، وبعض العلماء يحرمه، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية للنهي عنه، ولأنك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر وأخيراً ندم، وربما لم يفعل. ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد إيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن﴾ [النور: ٥٣]، فهذا التزام مؤكد بالقسم فيشبه النذر. قال الله تعالى: ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾ [النور: ٥٣]، أي: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذي لا يفعل الطاعة إلا بالنذر، أو حلف على نفسه يعني أن الطاعة ثقيلة عليه. ومما يدل على قوة القول بالتحريم أيضاً خصوصاً النذر المعلق: أن النادر كأنه غير واثق بالله – ﷻ –، فكأنه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابلة، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفي هذا سوء ظن بالله– ﷻ –. والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: أننا لا نقول: إن الوفاء هو المحرم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنما نقول: المحرم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما نذر.

قوله: "ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه"، لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حراماً، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه، لأن المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تتريه.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر، يعني: نذر الطاعة فقط، لقوله: "من نذر أن يطيع الله، فليطعه"، ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة، فصرفه إلى غير الله شرك، وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأي فعل كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، لقوله ﷺ: "من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه".

۞۞۞۞

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى

(**تم**): هذا الباب عنونه الإمام -رحمه الله تعالى- بقوله: (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى)، وهذا الباب مع الباب الذي قبله، والأبواب التي سلفت - أيضا - كلها في بيان المقصد من هذا الكتاب، وبيان الغرض من تأليفه، وأن التوحيد إنما يعرف بضده، فمن طلب التوحيد فليطلب ضده؛ لأنه - أعني: التوحيد - يجمع بين الإثبات والنفي، فيجمع بين الإيمان بالله، وبين الكفر بالطاغوت.

فمن جمع بين هذين الأمرين فإنه قد عرف التوحيد، ولهذا فصل الشيخ -رحمه الله- أفراد توحيد العبادة، وفصَّل أفراد الشرك، فبيَّن أصناف الشرك الأصغر: القولي والعملي وبيَّن أصناف الشرك الأكبر العملي والاعتقادي، فذكر الذبح لغير الله، وذكر النذر لغير الله، والذبح والنذر عبادتان عظيمتان.

فعبادة الذبح عبادة فعلية عملية، وعبادة النذر عبادة قولية إنشاءً، وعملية وفاءً، فالشرك الأكبر الذي يكون من جهة العمل أنواع، وقد ذكر منها -على سبيل التمثيل- الذبح لغير الله، كما أنه ذكر النذر لغير الله مثالاً على أنواع الشرك الأكبر الحاصل من جهة القول وكل من الذبح والنذر يصاحبهما اعتقاد تعظيم المخلوق كتعظيم الله -جل وعلا- وهذا شرك، قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ (البقرة: من الآية١٦٥) وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٩٧-٩٨) ثم عطف على ذلك (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله)، لأن الاستعاذة بغير الله تكون بالقول الذي معه اعتقاد، ولذلك ناسبت أن تكون بعد (باب من الشرك النذر لغير الله).

وقوله رحمه الله: "من الشرك "من" هاهنا تبعيضية كما ذكرنا فيما سبق من الأبواب، والشرك المقصود -هنا- هو الشرك الأكبر، أي من الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله؛ لأن (الألف واللام) أو (اللام وحدها) الداخلة على قوله (الشرك) هي للعهد فتكون عائدة إلى الشرك المعهود وهو الأكبر يعني: باب من الشرك الأكبر الاستعاذة بغير الله.

(**ق**): **قوله:** "من الشرك"، من: للتبعيض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز، كالاستعانة.

(**تم**): **والاستعاذة:** طلب العياذ، يقال: استعاذ إذا طلب العياذ، والعياذ ما يؤمِّن من الشر، كالفرار من شيء مخوف إلى ما يؤمن منه، أو إلى من يؤمن منه، ويقابلها اللياذ: وهو الفرار إلى طلب الخير والتوجه إليه والاعتصام به، والإقبال عليه لطلب الخير.

والاستعاذة: استفعال، ومادة (استفعل)موضوعة -في الغالب- للطلب. فغالب مجيء (الألف والسين والتاء) للطلب: فمعنى: استعاذ، واستعان، واستغاث، واستسقى طلب تلك الأمور، وتأتي أحيانا للدلالة على كثرة الوصف في الفعل كما في قوله جل وعلا: ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ (التغابن: من الآية٦) فـ(استغنى) ليس معناها طلب الغنى، وإنما جاء بالسين والتاء هنا للدلالة على عظم الاتصاف بالوصف الذي اشتمل عليه الفعل، وهو الغنى.

فـ(استعاذ)و(استغاث)و(استعان)، وأشباه ذلك فيها طلب. والطلب من أنواع التوجه والدعاء، لأن الطلب يدل على أن هناك من يُطلب منه والمطلوب منه لما كان أرفع درجة من الطالب كان الفعل المتوجه إليه يسمى دعاء، ولهذا فإن حقيقة الاستعاذة لغة، ودلالتها شرعاً هي: طلب العوذ، أو طلب العياذ، وهو الدعاء المشتمل على ذلك، والاستغاثة: هي طلب الغوث، وهو دعاء مشتمل على ذلك، وهكذا في كل ما فيه طلب نقول: إنه دعاء.

وإذا كان دعاء فإنه عبادة والعبادة حق لله وحده دون ما سواه كما قام الاجماع على هذا ودلت النصوص عليه: كقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (الجن: ١٨) وكقوله ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الاسراء: من الآية٢٣) وكقوله أيضاً: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ (النساء: من الآية٣٦)

إذاً فكل فعل من الأفعال أو قول من الأقوال فيه طلبٌ يكون عبادة، لأنه دعاء؛ وكل طلب: فهو دعاء.

والطلب يختلف نوعه ومسماه بإختلاف المطلوب منه: فإذا كان الطلب من مقارن: فيسمى التماساً وإذاكان ممن هو دونك: فيسمى أمراً، وإذا كان ممن هو أعلى منك؛ فيسمى دعاءً والمستعيذ والمستغيث لاشك أنه طالب ممن هو أعلى منه لحاجته إليه؛ فلهذا يصح أن يكون كل دليل فيه ذكر إفراد الله -جل وعلا- بالدعاء أو بالعبادة دليلاً على خصوص هذه المسألة، وهي أن الاستعاذة عبادة من العبادات العظيمة، وإذ كانت كذلك فإن إفراد الله بها واجب.

وقوله هنا: (من الشرك الاستعاذة بغير الله)، هذا الغير شامل لكل من يتوجه إليهم بالعبادة ويشركونهم مع الله ويدخل في ذلك بالأولية ما كان المشركون الجاهليون يتوجهون إليهم بالعبادة، من الجن، والملائكة، والرسل والأنبياء والصالحين، والأشجار والأحجار، وغير ذلك من معبوداتهم.

لكن هل مقصوده بقوله: (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله) شمول هذا الحكم على فاعله بالشرك لكل أنواع الاستعاذة ولو كان فيما يقدر عليه المخلوق؟.

والجواب: أن هذا فيه تفصيل، فمن العلماء من يقول: الاستعاذة لا تصلح إلا بالله وليس ثَمَّ استعاذةٌ بمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن الاستعاذة توجه القلب، واعتصامه والتجاؤه ورغبه وهذه المعاني جميعا لا تصلح إلا لله جل وعلا.

وقال آخرون: قد جاءت أدلة بأنه يستعاذ بالمخلوق فيما يقدر عليه؛ لأن حقيقة الاستعاذة طلب انكفاف الشر، وطلب العياذ، وهو أن يستعيذ من شر أحدق به، وإذا كان كذلك فقد يملك المخلوق شيئا من ذلك. وعلى هذا فتكون الاستعاذة بغير الله شركا أكبر إذا كان ذلك المخلوق لا يقدر على أن يعيذ، أو طُلِبتْ منه الإعاذة فيما لايقدر عليه إلا الله جل وعلا.

والذي يظهر أن المقام كما سبق فيه تفصيل؛ وهو أن الاستعاذة فيها عمل ظاهر؛ وفيها عمل باطن، فالعمل الظاهر أن يطلب العوذ، وأن يطلب العياذ، وهو أن يُعْصَم من هذا الشر، أو أن ينجو من هذا الشر، وفيها أيضاً عمل باطن، وهو توجه القلب وسكينته واضطراره، وحاجته إلى هذا المُسْتَعَاذ به، واعتصامه بهذا المستعاذ به وتفويض أمر نجاته إليه.

فإذا كانت الاستعاذة تجمع هذين النوعين فيصح أن يقال إن الاستعاذة لا تصلح إلا بالله، لأن منهما ما هو عمل قلبي كما تقدم وهو بالاجماع لايصلح التوجه به إلا لله.

وإذا قصد بالاستعاذة العمل الظاهر فقط وهوطلب العياذ والملجأ فيجوز أن يتوجه بها إلى المخلوق، وعلى هذا يحمل الدليل الوارد في جوازها.

فحقيقة الاستعاذة إذاً تجمع بين الطلب الظاهر، والمعنى الباطن. ولهذا اختلف أهل العلم في جواز طلبها من المخلوق، فالذي ينبغي أن يكون منك دائما على ذِكْرٍ: أنَّ توجُّهَ أهل العبادات الشركية لمن يشركون به من الأولياء، أو الجن، أو الصالحين أو الطالحين، أو غيرهم أنهم جمعوا بين القول باللسان، وأعمال القلوب التي لا تصلح إلا لله جل وعلا.

وبهذا يبطل ما يقوله أولئك الخرافيون من أن الاستعاذة بهم إنما هي فيما يقدرون عليه، وأن الله أقدرهم على ذلك، فيكون إبطال مقالهم راجعاً إلى **جهتين**:

الجهة الأولى: أن يبطل قولهم بأن يقال: أن هذا الميت أو هذا الجني يقدر على هذا الأمر الذي طلب منه، فإذا لم يقتطع بذلك، أو حصل عنده اشتباه ما، انتقل السُّنِّيُّ إلى **الجهة الثانية** من الابطال وهو إثبات أن الاستعاذة فيها توجه بالقلب إلى المستعاذ به واضطرار اليه واعتصام به، وافتقار اليه وهذا الذي توجه إلى ذلك الميت أو الولي قد قامت هذه المعاني بقلبه ولا يجوز أن يكون شيء من ذلك إلا لله وحده ﷻ.

فنقول اذا الاستعاذة بغير الله شرك أكبر؛ لأنها صرف عبادة لغير الله جل جلاله، لكن إن كان الاستعاذة في الظاهر فقط مع طمأنينة القلب بالله، وتوجهه إلى الله، وحسن ظنه بالله، وأن هذا العبد إنما هو سبب، وأن القلب مطمئن لما عند الله، فإن هذه تكون استعاذة في الظاهر، وأما القلب فإنه لم تقم به حقيقة الاستعاذة، وإذا كان كذلك كان هذا جائزا.

وقول الله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ٦)

(ق): وقول الله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾ [الجن: ٦]. قوله تعالى: ﴿وأنه كان رجال من الإنس﴾، الواو: حرف عطف، و﴿أن﴾: فتحت همزتها بسبب عطفها على **قوله:** ﴿أنه استمع نفر من الجن﴾. قال ابن مالك:

وهمز إن افتح لسد مصدر مسدها وفي سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر، أي: قل أوحي إلى استماع نفر وكون رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن.

قوله: ﴿من الإنس﴾، صفة لرجال، لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها.

قوله: ﴿يعوذون﴾، الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فالعياذ مما يخاف، واللياذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحة، ولا يصلح ما قاله إلا لله:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

قوله: ﴿يعوذون برجال من الجن﴾، أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه، يظنون أنهم يعيذونهم، ولكن زادوهم رهقاً، أي: خوفاً وذعراً، وكان العرب في الجاهلية إذا نزلوا في واد نادوا بأعلى أصواتهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

قوله: ﴿رهقاً﴾، أي: ذعراً وخوفاً، بل الرهق أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنهم مع ذعرهم وخوفهم أرهقهم وأضعفهم شيء، فالذعر والخوف في القلوب والرهق في الأبدان. وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام، لأنها لا تفيد المستعيذ، بل تزيده رهقاً، فعقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر، فتكون الواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنس.

وقيل: إن الإنس زادوا الجن رهقاً، أي: استكباراً وعتواً، ولكن الصحيح الأول.

قوله: ﴿برجال من الجن﴾، يستفاد منه أن للجن رجالاً، ولهم إناث، وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بني آدم، وكذلك العكس الرجل من بني آدم قد يجامع الأنثى من الجن، وقد ذكر الفقهاء الخلاف في وجوب الغسل بهذا الإجماع. والفقهاء يقولون في باب الغسل، لو قالت، أن بها جنياً يجامعها كالرجل، وجب عليها الغسل، وأما أن الرجل يجامع الأنثى من الجن، فقد قيل ذلك، لكن لم أره في كلام أهل العلم، وإنما أساطير تقال، والله أعلم. لكن علينا أن نصدق بوجودهم، وأنهم مكلفون، وبأن منهم

الصالحين ومنهم دون ذلك، وبأن منهم المسلمين والقاسطين، وبأن منهم رجالاً ونساء. وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير الله، والمستعيذ بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهـذا نوع من الشرك.

(**ف**): قال ابن كثير: أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً، أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم – إلى أن قال – قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم رهقاً أي خوفاً. وقال العوفي عن ابن عباس فزادوهم رهقاً أي إثماً، وكذا قال قتادة. ا هـ.

وذاك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد كبير الجن، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال ملا على قاري الحنفي: لا يجوز الاستعاذة بالجن. فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال: قال تعالى '٦: ١٢٨' " ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم " فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصاً.

قال المصنف: وفيه أن كون الشئ يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك.

وعَن خَوْلَةَ بِنْت الحَكِيمِ قالت: سمعت رَسُولِ الله ﷺ يقولَ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فقَالَ أَعُوذُ بِكلِمَاتِ الله التّامّاتِ مِن شَرّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرّهُ شيءٌ حَتّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذلِكَ» رواه مسلم[1].

(**ف**): هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها أم شريك، ويقال إنما هي الواهبة وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون.

قال ابن عبد البر: وكانت صالحة فاضلة.

[1] مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من سوء القضاء، حديث (٢٧٠٨).

قوله: أعوذ بكلمات الله التامات شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

(**ق**): **قوله:** "كلمات"، من جموع القلة، لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، والكثرة ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى ما لا نهاية له، فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان في الابتداء، ويختلفان في الانتهاء. قال ابن مالك:

أفعلة أفعل ثم فعله ... ثمت أفعال جموع قله

وبعض ذي بكثرة وضعاً يفي ... كأرجل والعكس جاء كالصفي

والراجح: أن جموع القلة تدل على الكثرة بالدليل.

و"كلمات": جمع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً﴾ [الكهف: ١٠٩]. وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ [لقمان: ٢٧].

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

وقوله: "من نزل منزلاً" يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: "أعوذ" بمعنى: ألتجئ وأعتصم.

قوله: "التامات"، تمام الكلام بأمرين:

١. **الصدق في الأخبار.**
٢. **العدل في الأحكام.**

قال الله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

(**ف**): **قال القرطبي**: قيل: معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل معناه: الشافية الكافية. وقيل الكلمات هنا هي القرآن. فإن الله أخبر عنه بأنه: ' ١٠: ٥٧ و١٧: ٨٢ و٤١: ٤٤ ' " هدى وشفاء " وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى. ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو

بأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخداماً، وصدق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به. أ.هـ.

(ق): قوله: "من شر ما خلق"، أي: من شر الذي خلق، لأن الله خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه، لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فكان خيراً. وعلى هذا تكون "ما" موصولة لا غير، أي: من شر الذي خلق، لأنك لو أولتها إلى المصدرية وقلت: من شر خلقك، لكان الخلق هنا مصدراً يجوز أن يراد به الفعل، ويجوز أيضاً المفعول، لكن لو جعلتها اسماً موصولاً تعين أن يكون المراد بها المفعول، وهو المخلوق. وليس كل ما خلق الله فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر، لأن مخلوقات الله **تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي**:

١. شر محض، كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله من أجلها، فهي خير.
٢. خير محض، كالجنة، والرسل، والملائكة.
٣. فيه شر وخير، كالإنس، والجن، والحيوان. وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر.

(ف): قال ابن القيم رحمه الله: أي من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره، إنسياً أو جنياً، أو هامة أو دابة، أو ريحاً أو صاعقة، أو أي نوع من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة.

و ما ههنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدي الوصفي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه.

(ق): قوله: "لم يضره شيء"، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم من شر كل ذي شر من الجن والإنس وغيرهم والظاهر الخفي حتى يرتحل من منزله، لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف، فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر. ونظير ذلك كل

ما أخبر به النبي ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت و لم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره. ومنه: التسمية عند الجماع، فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

(**ف**): **قوله:** لم يضره شيئ حتى يرتحل من منزله ذلك قال القرطبي: هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيئ إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات.

(**ق**): **والشاهد من الحديث:** قوله: "أعوذ بكلمات الله". والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، **ولم يستعذ بالله، فلماذا؟**

أجيب: أن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته غير مخلوق، لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي ﷺ إلى الاستعاذة بها. ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله، أي: أو صفة من صفاته. وفي الحديث: "أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر"[1]، وهنا استعاذ بعزة الله وقدرته، و لم يستعذ بالله، والعزة والقدرة من صفات الله، وهي ليست مخلوقة. ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته، لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات، فإن أراد الآيات الشرعية، فجائز، وإن أراد الآيات الكونية، فغير جائز.

أما الاستعاذة بالمخلوق، ففيها تفصيل، فإن كان المخلوق لا يقدر عليه، فهي من الشرك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة"، وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله، لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله، سوى الله. ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بأصحاب القبور، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون، فالاستعاذة بهم شرك أكبر، سواء كان عند قبورهم أم بعيداً عنهم.

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في "تيسير العزيز الحميد"، وهو مقتضى الأحاديث الواردة في "صحيح مسلم" لما ذكر النبي ﷺ الفتن، قال: "فمن وجد من ذلك ملجأ، فليعذ به"[2].

---

[1] مسلم: كتاب السلام/باب استحباب وضع يده على موضع الألم.

[2] البخاري: كتاب الفتن/باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، ومسلم: كتاب الفتن/باب نزول الفتن.

وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة[١]، والغلام الذي عاذ بالنبي ﷺ[٢]، وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة[٣]، وما أشبه ذلك. وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطاع طريق، فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم، فلا شيء فيه. لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه في الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ، فهذا شرك، لأن هذا لا يكون إلا لله. وعلى هذا، فكلام الشيخ رحمه الله في قوله: "إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق" مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقاً.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع - لا يدل على أنه ليس من الشرك.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: كونه من الشرك، أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك.

---

[١] مسلم: كتاب الحدود/ باب حد قطع السارق الشريف وغيره.

[٢] مسلم: كتاب الأيمان/ باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده.

[٣] مسلم: كتاب الفتن/ باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، وجه الاستشهاد: أن الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنها صفة من صفاته.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره، أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء ما دمت في هذا المترل.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك، ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة، فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك، فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك. مثال ذلك: الجن، فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة. مثال آخر:

قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصوراً، وهذا شرك مع أن فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم لأجل العطاء، فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين. قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لا نظير له ... وكيف شئت فما خلق يدانيك

وفي الحديث فائدة، وهي: أن الشرع لا يبطل أمراً من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه، ففي الجاهلية كانوا يستعيذون بالجن، فأبدل بهذه الكلمات، وهي: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. وهذه الطريقة هي الطريقة السليمة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية، أنه إذا سد الناس باب الشر، وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة في القرآن والسنة. فمن القرآن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فلما نهاهم عن قول ﴿راعنا﴾ ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو ﴿انظرنا﴾. ومن السنة قوله ﷺ لمن نهاه عن بيع الصاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: "بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيباً"[1]. فلما منعه من المحذور، فتح له الباب السليم الذي لا محذور فيه.



[1] البخاري: كتاب البيوع/باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل.

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

(**تم**): **قوله:** "باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره". الشرك المراد به-كما ذكرنا فيما سبق- الشرك الأكبر.

قوله: (أن يستغيث) يعني الاستغاثة؛ لأن (أنْ) مع الفعل تؤول بمصدر، يعني (باب من الشرك الاستغاثة بغير الله) أو (استغاثةٌ بغير الله)، وكذلك قوله (يدعو) يؤول بمصدر، يعني: من الشرك، (دعوة غيره)، أو (دعاء غيره). والاستغاثة كما ذكرنا طلب، والطلب نوع من أنواع الدعاء؛ ولهذا قال العلماء: إن في قوله: (أو يدعو غيره) بعد قوله (أن يستغيث بغير الله) عطفا للعام على الخاص؛ ومن المعلوم أن الخاص قد يعطف على العام، وأن العام قد يعطف على الخاص.

وقوله: (أن يستغيث بغير الله)، هذا أحد أفراد الدعاء، كما ذكرنا لأن الاستغاثة طلب والطلب دعاء.

وقوله: (أو يدعو غيره)، هذا لفظ عام يشمل الاستغاثة والاستعاذة ويشمل أصنافاً كثيرة من أنواع الدعاء.

قوله: (أن يستغيث)، الاستغاثة هي طلب الغوث والغوث يحصل لمن وقع في شدة وكرب يخشى معه المضرة الشديدة، أو الهلاك فيقال: أغاثه إذا فزع إليه وأعانه على كشف ما به، وخلَّصه منه، كما قال جل وعلا في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: من الآية١٥)، فقوله ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ﴾ يعني: أن من كان من شيعة موسى طلب الغوث من موسى على من كان عدوا لهما جميعا؛ فأغاثه موسى عليه السلام.

فالاستغاثة: طلب الغوث، وطلب الغوث لا يصلح إلا لله؛ إلا من الله فيما لا يقدر عليه إلا الله -جل جلاله- لأن الاستغاثة يمكن أن تطلب من المخلوق؛ فيما يقدر عليها.

لكن متى تكون الاستغاثة بغير الله شركاً أكبر؟ ضبطه بعض أهل العلم بقولهم: تكون شركاً أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه ذلك المخلوق. وقال آخرون: تكون شركاً أكبر إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهاتان العبارتان مختلفتان والأصح منهما الأخيرة؛ لأن المرء إذا استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهو يعلم أن هذا لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر بالله -جل وعلا- لأن حقيقة الأمر أنه لا يقدر عليه إلا الله.

أما قول من قال من أهل العلم: إن الاستغاثة شرك أكبر إذا استغاث بالمخلوق في ما لا يقدر عليه، فإن هذا يرد عليه أن ثَمَّتَ أشياء قد يكون المخلوق في ظاهر الأمر قادراً عليها، ولكنه في الحقيقة لا يقدر عليها؛ لكن هذا الضابط غير منضبط لأن مَن وقع في شدة، كغرق مثلا، وتوجه لرجل يراه بأنه يغثيه فقال مخاطباً إياه: أستغيث بك، أستغيث بك، أستغيث بك، وذاك لا يحسن السباحة ولا يُحْسِن الانجاء من الغرق، فهذا يكون قد استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه المخلوق، فهل يكون شركا أكبر؟! لا يكون منه؟ لأن الإغاثة من الغرق ونحوه يصلح -في الغالب- أن يكون المخلوق قادرا عليها، فيكون الضابط الثاني هو الصحيح، وهو أن يقال: الاستغاثة بغير الله شرك أكبر إذا كان قد استغاث بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله.

أما إذا استغاث به فيما يقدر عليه غير الله من المخلوقين، لكن هذا المخلوق المعين لم يقدر على هذا الشيء المعين، فإنه لا يكون شركا؛ لأنه ما اعتقد في المخلوق شيئا لا يصلح إلا لله -جل جلاله- فالاستغاثة بغير الله إذا كانت فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهي شرك أكبر، وإذا كانت فيما يقدر عليه المخلوق، فهي جائزة كما حصل من صاحب موسى إذ استغاث بموسى عليه السلام.

(**ف**): **وقوله:** أو يدعو غيره اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً، كقوله تعالى:﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة : ٧٦] وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ٧١] وقال: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف : ٥٥]وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ٤٠-٤١] وقال تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ [الرعد : ١٤] وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر، وهو يتضمن دعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه، طالب من الله في المعنى، فيكون داعياً عابداً.

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد قال الله تعالى عن خليله: وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ [مريم :٤٨- ٤٩] فصار الدعاء من أنواع العبادة، فإن قوله:﴿وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً﴾ كقول زكريا: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ [مريم : ٤]. وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه كقوله:﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف :٥٥- ٥٦] وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة، فإن الداعي يرغب إلى المدعو ويخضع له ويتذلل.

وضابط هذا: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله:﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر : ١٤] وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة السنية: فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقو: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني، أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل. فإن الله تعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليعبد وحده لا شريك له، ولا يدعى معه إله آخر. والذي يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزمر : ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ [يونس : ١٨] فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة.أ.هـ.

وقال أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً.

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم. وذكره شيخ الإسلام ونقلته عنه في الرد على ابن جرجيس في مسألة الوسائط.

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه – يعني الشرك – طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً،

فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

وقال الحافظ a بن عبد الهادي رحمه الله في رده على السبكي في قوله: إن المبالغة في تعظيمه – أي الرسول ﷺ – واجبة. إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظمياً، حتى الحج إلى قبره والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطى ويمنع لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء – فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين.

وفي الفتاوى البزازية من كتب الحنفية: قال علماؤنا: من قال أرواح المشائخ حاضرة تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي –رحمه الله – في كتابه الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدان ونقباء، وأوتاد ونجباء وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا فيهما الأجور، قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراد، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنزيل: ' ٤: ١١٤ ' " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ".

ثم قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيرده قوله تعالى: ' ٢٧: ٦١ – ٦٤ ' " أإله مع الله " ' ٧: ٥٤ ' " ألا له الخلق والأمر " ' ٣: ١٨٩ و٥: ١٩ و٢٠: ١٢٣ و٢٤: ٤٢ و٤٢: ٤٩ و٤٥: ٢٧ و٤٨: ١٤ ' " لله ملك السموات والأرض " ونحوها من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيئ لغيره في شيئ ما بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً، وإماتة وخلقاً. وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله: ' ٣٥: ٣ ' " هل من خالق غير الله؟ " ' ٣٥: ٤٠ ' " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير " وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قوله: فقوله في الآيات كلها من دونه أي من غيره. فإنه هام يدخل فيه من اعتقدته، ومن ولى وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره؟ إلى أن قال: إن هذا لقول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة.

قال جل ذكره: ' ٢٩: ٣٠ ' " إنك ميت وإنهم ميتون " ' ٣٩: ٤٢ ' " الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى " ' ٣: ١٨٥ و٢١: ٣٤ و٢٩: ٥٧ ' " كل نفس ذائقة الموت " ' ٧٤: ٣٨ ' " كل نفس بما كسبت رهينة " وفي الحديث: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث " الحديث فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصا، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه. فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ' ٢: ١٤٠ ' " قل أأنتم أعلم أم الله؟ ".

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيئ من عند الله يكرم به أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدى، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ' ٢٧: ٦٢ ' " أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله؟ " ' ٦: ٦٣، ٦٤ ' " قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون " وذكر آيات في هذا المعنى، ثم قال: فإنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير. فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة.

وأما الإستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال. وينادونهم ويستنجدون بهم. فهذا من المنكرات. فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولى أو روح أو غير ذلك في كشف كربة وغيره على وجه الإمداد منه: أشرك مع الله، إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ما قالوا إن منهم أبدالاً ونقباء وأوتاداً ونجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو الغوث للناس. فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين، وابن الجوزي وابن تيمية. انتهى باختصار.

والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء. فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب. والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل، ومن قال قولاً بلا برهان فقوله ظاهر البطلان، مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان المتمسكون بمحكم القرآن، المستجيبون لداعي الحق والإيمان. والله المستعان وعليه التكلان.

وقول الله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ۞وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس: ١٠٦)

(ق): وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات.

الآية الأولى **قوله:** ﴿ولا تدع من دون الله﴾. ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ، وسواء كان خاصاً به أو عاماً له ولغيره، فإن بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ، لأن الرسول ﷺ يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جداً، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول ﷺ والحكم له ولغيره، وإما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ. وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكناً منه، قال تعالى: ﴿ولقد أوحى إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ [الزمر: ٦٥]، فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنساناً وبشراً. إذاً، فالحكمة من النهي أن يكون غيره متأسياً به، فإذا كان النهي موجهاً إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله، فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

(تم): فقوله: ﴿وَلا تَدْعُ﴾ هذا نهي، والنهي-هنا-قد توجه إلى الفعل ﴿تَدْعُ﴾ ، وإذا كان كذلك فإنه يعم أنواع الدعاء، وسبق القول بأن الدعاء منه: دعاء مسألة، ومنه دعاء عبادة؛ والقاعدة: أن النكرة إذا جاءت في سياق النهي، أو في سياق النفي، أو في سياق الشرط فإنها تعم، و﴿تدع﴾ نكرة لأنه فعل مشتمل على مصدر، والمصدر حَدَثٌ نكرة. فهو يعم نوعيْ الدعاء، وهذا مراد الشيخ، أو أحد مراداته

من الاستدلال بهذه الآية، فقد نهى الله -جل وعلا- أن يتوجه لغير الله بدعاء المسألة أو بدعاء العبادة، أو بأي نوع من أنواع العبادات فلا يصلح طلب ما لا يقدر عليه إلا الله إلا منه -جل وعلا-، ويدخل في ذلك الاستعاذة، والاستغاثة التي هي طلب الغوث، وكذلك دعاء العبادة بأنواعه كالصلاة والزكاة والتسبيح، والتهليل، والسجود، وتلاوة القرآن والذبح، والنذر وكذلك. **أعمال القلوب**: كالتوكل، والمحبة التي هي عبادة، والرجاء الذي هو عبادة، وخوف السر، فهذه العبادات كلها لا تصلح إلا لله، وهي من أنواع دعاء العبادة.

فهذه الآية دلت على النهي أن يتوجه أحد إلى غير الله -جل وعلا- بدعاء مسألة أو بدعاء عبادة، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك أعظم النهي ووجّه إليه الخطاب بذلك، مع أنه إمام المتقين، وإمام الموحدين.

وقوله: ﴿مِنْ دُونِ﴾ يعني: مع الله، أو: من دون الله استقلالاً.

وقوله: ﴿مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ يعني: الذي لا ينفعك ولا يضرك، و﴿ما﴾ تشمل العقلاء وغير العقلاء.فالعقلاء: كالملائكة والأنبياء والرسل، والصالحين، وغير العقلاء: كالأصنام والأحجار والأشجار هذا من جهة الدلالة اللغوية لـ﴿ما﴾.

(**ق**): **وقوله:** ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾، أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، وهذا القيد ليس شرطاً بحيث يكون له مفهوم، فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرك، بل هو لبيان الواقع، لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال الله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]. ومن القيد الذي ليس بشرط، بل هو لبيان الواقع قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ [البقرة: ٢١]. فإن قوله: ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ لبيان الواقع، إذ ليس هناك رب ثان لم يخلقنا والذين من قبلنا. ومنه قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ [النساء: ٢٣]، فهذا بيان للواقع الأغلب. ومنه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهذا بيان للواقع، إذ دعاء الرسول ﷺ إيانا كله لما يحيينا. وكل قيد يراد به بيان الواقع، فإنه كالتعليل للحكم، فمثلاً قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ [البقرة: ٢١]، أي اعبدوه لأنه خلقكم. وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾، أي: لأنه لا يدعوكم إلا لما يحييكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾، أي: لأنه لا ينفعك ولا يضرك، فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطاً، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة.

قوله: ﴿فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾، أي: إن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، والخطاب للرسول ﷺ. و﴿إن﴾: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿فإنك إذاً﴾. و﴿إذاً﴾: أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد، لأن ﴿إذاً﴾ للظرف الحاضر، أي: فإنك حال فعله من الظالمين، لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم، فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالماً كما قال ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"[1]، فنفى الإيمان عنه حال الفعل. ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣]، وعبر الله بقوله: ﴿من الظالمين﴾، ولم يقل: من المشركين، لأجل أن يبين أن الشرك ظلم، لأن كون الداعي لغير الله مشركاً أمر بين، لكن كونه ظالماً قد لا يكون بيناً من الآية.

(**تم**): ثم قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (يونس: من الآية١٠٧) اعلم أن غرض من يلجأ إلى غيرَ الله أو يستغيث، أو يستعيذ بغيره: إنما هو طلب كشف الضرّ وقد أبطل الله تعالى هذا التعلق الشرعي بقاعدة عامة تقطع عروق الشرك من القلب حيث قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني: إذا مَسَّكَ الله بضر فمن يكشف الضر؟؟ الجواب يكشفه من قدَّره ومَن قضاه عليك، وهكذا كل أنواع التوجه لغير الله – جل وعلا– أياً كانت ولكن ما دام أنه أذن بالتوجه إلى المخلوق فيما يقدر عليه كالتوجه إليه بطلب الغوث، أو نحو ذلك؛ فإنه يكون مما رخص فيه، والحمد لله.

وقوله: في هذه الآية ﴿بِضُرٍّ﴾ نكرة جاءت في سياق الشرط فتعم جميع أنواع الضر، سواء أكان ضرا في الدين، أم كان ضرا في الدنيا، يعني كان ضرا في الدنيا من جهة الأبدان، أو من جهة الأموال، أو من جهة الأولاد، أو من جهة الأعراض، ونحو ذلك إذاً: فمعنى قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أيّ بأيّ نوع من أنواع الضر ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

أي الذي يكشف الضر في الحقيقة هو الله –جل وعلا– لا يكشف البلوى إلا هو –سبحانه وتعالى– وإذا كان المخلوق يقدر على ذلك الكشف فإنما هو من جهة أنه سبب فالله هو الذي جعله سببا يقدر على أن يكشف بإذن الله –جل وعلا– وإلا فالكاشف حقيقة هو الله –جل وعلا– والمخلوق، ولو كان يقدر، فإنما قدر بإقدار الله له؛ إذ هو سبب من الأسباب، فالحاصل أن الكاشف على الحقيقة هو الله وحده.

(**ق**): **قوله:** ﴿وإن يردك بخير﴾، هنا قال: ﴿يردك﴾، وفي الضر قال: ﴿يمسسك﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟.

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله، أي: مفعوله. فالمس من فعل الله، والضر من مفعولاته، فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريد لغيره، لما يترتب

---

[1] البخاري: كتاب الأشربة/باب قوله تعالى: (إنما الخمر والميسر...)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بالمعاصي.

عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، وفي الحديث القدسي: "إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى"[1].

أما الخير، فهو مراد الله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾ [الجن: ١٠].

فإذا أصيب الإنسان بمرض، فالله لم يرد به الضرر لذاته، بل أراد المرض، وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيراً من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة في نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة في غيره، كما قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ [الأنفال: ٢٥]. فالمهم أنه ليس لنا أن نتحجر حكمة الله، لأنها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أن الله لا يريد الضرر لأنه ضرر، فالضرر عند الله ليس مراداً لذاته، بل لغيره، ولا يترتب عليه إلا الخير، أما الخير، فهو مراد لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذي يتبين لي.

قوله: ﴿فلا راد لفضله﴾، أي: لا يستطيع أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، وفي الحديث: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت"[2]. وعليه، فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أن الأمة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله، فإنها لا تستطيع.

قوله: ﴿يصيب به من يشاء﴾، الضمير إما أن يعود إلى الفضل، لأنه أقرب، أو إلى الخير، لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿من يشاء﴾، كل فعل مقيد بالمشيئة، فإنه مقيد بالحكمة، لأن مشيئة الله ليس مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط، لأن من صفات الله الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ [الإنسان: ٣٠].

قوله: ﴿من عباده﴾، العبودية هنا عامة، لأن قوله: ﴿بخير﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفار.

قوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾، أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يتقى به السهام، والمغفرة فيه ستر ووقاية. والرحيم، أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله عز وجل،

---

[1] ضعيف: أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر(٢/٢٣٢) من حديث أنس، والخطيب في التاريخ (٦/١٤) من حديث عمر بن الخطاب. وضعفه الألباني في الضعيفة (١٧٨٣) وضعيف الجامع (٧٥).

[2] البخاري: كتاب الأذان / باب الذكر بعد الصلاة، حديث (٨٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة /باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته حديث (٥٩٣).

تقتضي الإحسان والإنعام. الشاهد قوله: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ في الآية الأولى، فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحداً من دون الله (أي: من سواه) لا ينفعه ولا يضره. وكذلك قوله في الآية الثاني: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾.

وقوله: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

(ق): **الآية الثالثة قوله:** ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾.

لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ لكان أولى، فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهي لا تملك لهم رزقاً أبداً، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بر، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق، فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾، أي: اطلبوا عند الله الرزق، لأنه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده، ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ [النحل: ٩٦]، والرزق هو العطاء كما قال تعالى: ﴿فارزقوهم منه﴾.

وقوله: ﴿عند الله ﴾: عند الله: حال من الرزق، وقدم الحال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر، إ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي: فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: ﴿واعبدوه﴾، أي: تذللوا بالطاعة، لأن العبادة مأخوذة من التعبيد، وهو التذليل، ومنه قولهم: طريق معبد، أي: مذلل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجار والأشجار المؤذية، لأنكم إذا تذللتم له بالطاعة، فهو من أسباب الرزق، قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ [الطلاق: ٣، ٤]، فأمر أن نطلب الرزق عنده، ثم أعقبه بقوله: ﴿واعبدوه﴾ إشارة إلى أن تحقيق العبادة من طلب الرزق، لأن العابد ما دام يؤمن أن من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، فعبادته تتضمن طلب الرزق بلسان الحال.

قوله: ﴿واشكروا له﴾، إذا أضاف الله الشرك له متعدياً باللام، فهو إشارة إلى الإخلاص، أي: واشكروا نعمة الله لله، فاللام هنا لإفادة الإخلاص، لأن الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعم، وهذا لا بأس به، ولكن كونه يشكر لله وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعاً هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم، وقالوا: إنه يكون في ثلاثة مواضع:

١- في القلب، وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله، فيرى لله فضلاً عليه بها، قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل: ٥٣]، وأعظم نعمة هي نعمة الإسلام، قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته.....﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

٢- اللسان، وهو أن يتحدث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفع على عباد الله، فيتحدث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بني إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله، قال "نعم، كنت أعمى فرد الله علي بصري، وكنت فقيراً فأعطاني الله المال"[1]، فهذا من باب التحدث بنعمة الله. والنبي ﷺ تحدث بنعمة الله عليه بالسيادة المطلقة، فقال: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"[2]

٣- الجوارح، وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختص بهذه النعمة. فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلمه الناس. وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به. وشكر الله على نعمة الطعام: أن تستعمله فيما خلق له، وهو تغذية البدن، فلا تبني من العجين قصراً مثلاً، فهو لم يخلق لهذا الشيء.

قوله: ﴿إليه ترجعون﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿ترجعون﴾، وتقديمه دل على الحصر، أي أن رجوعنا إلى الله – سبحانه –، وهو الذي سيحاسبنا على ما حملنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه. والشاهد من هذه الآية: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق﴾ [العنكبوت: ١٧]، فالفقير يستغيث بالله لكي ينجيه من الفقر، والله هو الذي يستحق الشكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق، فكيف تستغيث بها؟!.

[1] أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل حديث (٣٤٦٤)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، حديث(٢٩٦٤).

[2] أخرجه مسلم: في كتاب الفضائل/ باب تفضيل النبي ﷺ على جميع الخلائق حديث (٢٢٧٨).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: ٥)

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿ومن أضل﴾.

﴿من﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿أضل﴾: خبره، والاستفهام يراد به هنا النفي، أي لا أحد أضل.

و﴿أضل﴾: اسم تفضيل، أي: لا أحد أضل من هذا. والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح. وإذا كان الاستفهام مراد به النفي كان أبلغ من النفي المجرد، لأنه يحوله من نفي إلى تحد، أي: بين لي عن أحد أضل ممن يدعو من دون الله؟ فهو متضمن للتحدي، وهو أبلغ من قوله: لا أضل ممن يدعو، لأن هذا نفي مجرد، وذاك نفي مشرب معنى التحدي.

قوله: ﴿ممن يدعو﴾، متعلق بأضل، ويراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: ﴿من دون الله ﴾، أي: سواه.

قوله: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾، ﴿من﴾: مفعول يدعو، أي لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له، قال الله تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ [فاطر: ١٤]، والخبر هنا عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤]، يعني: نفسه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿من لا يستجيب﴾ أتى بـ﴿من﴾، وهي للعاقل، مع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهي غير عاقلة، لأنهم لما عبدوها نزلوها مترلة العاقل، فخوطبوا بمقتضى ما يدعون، لأنه أبلغ في إقامة الحجة عليهم في أنهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن، لأنه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليه، إذ لو قيل: ما لا يستجيب له، لقالوا: هناك عذر في عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

قوله: ﴿وهم عن دعائهم﴾، الضمير في قوله: ﴿هم﴾ يعود على ﴿من﴾ باعتبار المعنى، لأنهم جماعة، وضمير يستجيب يعود على ﴿من﴾ باعتبار اللفظ، لأنه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿من﴾، وجمعه باعتبار المعنى، لأن ﴿من﴾ تعود على الأصنام، وهي جماعة، و﴿من﴾ قد يراعى لفظها ومعناها في كلام واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ [الطلاق: ١١]، فهنا راعي اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: ﴿عن دعائهم﴾، الضمير في دعائهم يعود إلى المدعوين، وهل المعنى: ﴿وهم﴾، أي: الأصنام، ﴿عن دعائهم﴾، أي: دعاء الداعين إياهم، فيكون من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أو المعنى: و﴿هم﴾ عن دعاء العابدين لهم، فيكون "دعاء" مضافاً إلى فاعله، والمفعول محذوف؟ الأول أبلغ، أي عن دعاء العابدين إياهم أبلغ من دعاء العابدين على سبيل الإطلاق، فإذا قلت: ﴿عن دعائهم﴾، أي: عن دعاء العابدين إياهم، وجعلت الضمير هنا يعود على المدعوين، صار المعنى أن هذه الأصنام غافلة دعوة هؤلاء إياهم، ويكون هذا أبلغ في أن هذه الأصنام لا تفيد شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: ﴿وإذا حشر الناس﴾، أي: يوم القيامة، ﴿كانوا لهم أعداء﴾، هل المعنى: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟.

الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾، فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة، فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟! فبطل تعلق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم. فالذي يأتي للبدوي أو للدسوقي في مصر، فيقول: المدد! المدد! أو: أغثني، لا يغني عنه شيئاً، ولكن قد يبتلي فيأتيه المدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتي بالشيء وما يأتي عند الشيء.

مثال ذلك: امرأة دعت البدوي أن تحمل، فلما جامعها زوجها حملت، وكانت سابقاً لا تحمل، فنقول هنا: إن الحمل لم يحصل بدعاء البدوي، وإنما حصل عنده لقوله تعالى: ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾. أو يأتي للجيلاني في العراق، أو ابن عربي في سوريا، فيستغيث به، فإنه لا ينتفع، ولو بقي الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد. والعجب أنهم في العراق يقولون: عندنا الحسين، فيطوفون قبره ويسألونه، وفي مصر كذلك، وفي سوريا كذلك، وهذا سفه في العقول، وضلال في الدين، والعامة لا يلامون في الواقع، لكن الذي يلام من عنده علم من العلماء ومن غير العلماء.

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: من الآية٦٢)

(ق): **الآية الخامسة قوله تعالى:** ﴿أمن﴾، أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي:

١- المنقطعة بمعنى (بل)، والمتصلة بمعنى (أو).

٢- المتصلة لا بد فيها من ذكر المعادل، والمتصلة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ متصلة وقوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ منقطعة، لأنه لم يذكر لها معادل، فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿المضطر﴾، أصلها: المضتر، أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له﴾ [الأنبياء: ٨٤]، فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: ﴿إذا دعاه﴾، أما إذا لم يدعه، فقد يكشف الله ضره، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿ويكشف السوء﴾، أي: يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة، لأن الإنسان قد يساء بما لا يضره، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: ﴿ويكشف السوء﴾ هل هي متعلقة بما قبلها في المعنى، وإنه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلة يجيب المضطر إذا دعاه ثم أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعم، لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أعم كان أولى، ويؤيد العموم قوله: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾.

قوله: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾، الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ [النور: ٥٥].

قوله: ﴿أإله مع الله ﴾، الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي، وهما متقاربان، أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كان ذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.

- **إشكال وجوابه**: وهو أن الإنسان المضطر يسأل غير الله ويستجاب له، كمن اضطر إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟
- **الجواب**: أن هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنه مستقل، فالله يجعل لكل شيء سبباً، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويعطيك.

وروى الطبراني بإسناده[1] [أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين. فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله].

(**ف**): قوله (وروى الطبراني)..الطبراني: هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(**ق**): **قوله:** "بإسناده"، يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه، فيجب أن يراجع هذا الإسناد فليس كان إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول. وذكر الهيثمي في "مجمع الزوائد": "إن رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه"، و لم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: "في زمن النبي"، أي: عهده، وكان الكافر أولاً يعلن كفره ولا يبالي، ولما قوي المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفار، فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: "منافق"، المنافق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر. و لم يسم المنافق في هذا الحديث، فيحتمل أنه عبدالله بن أبي، لأنه مشهور بإيذاء المسلمين، ويحتمل غيره.

(**ف**): قلت: هو عبد الله بن أبي كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته.

(**ق**): واعلم أن أذية المنافقين للمسلمين ليست بالضرب أو القتل، لأنهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

(**ف**): **قوله:** فقال بعضهم أي الصحابة رضي الله عنهم، هو أبو بكر رضي الله عنه.

(**ق**): **قوله:** "نستغيث"، أي: نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (٣١٧/٥)، حديث (٢٢٧٥٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٧٨/١)من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وفيه "لا يقام لي إنما يقام لله تبارك وتعالى". وذكره الهيثمي في المجمع (١٥٩/١٠)وقال: "رواه الطبراني ورجاله زجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث".

قوله: "من هذا المنافق"، إما بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام. وفي الحديث إيجاز حذف دل عليه السياق، أي: فقاموا إلى رسول الله، فقالوا: يا رسول الله! إنها نستغيث بك من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: (إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله).

قوله: "إنه لا يستغاث بي"، ظاهر هذه الجملة النفي مطلقاً، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القضية المعينة.

فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأدب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم، لأن نفي الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعينة التي استغاثوا بالنبي ﷺ منها، فإنه يكون على الحقيقة، أي: على النفي الحقيقي، أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضية، لأن النبي ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقاماً ظاهراً، إذ إن المنافقين يستترون، وعلى هذا، فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

(**تم**): وحقيقة الاستغاثة على وجه الكمال إنما هي بالله –جل وعلا– لا بنبيه ﷺ فكأنه حصل منهم نوع التفات للنبي –عليه الصلاة والسلام– فيما يقدر عليه، فبين لهم أن الواجب عليهم أن يستغيثوا بالله –جل وعلا– أولاً، فقال: (إنه لا يستغاث بي) وهذا نفي فيه معنى النهي، يعني: لا تستغيثوا بي بل استغيثوا بالله في هذا الأمر، وإذا أغاثهم الله –جل وعلا– كف شر ذلك المنافق عنهم.

وقد أعل بعض العلماء هذا الحديث بأن في إسناده ابن لهيعة، وحاله معروف، لكن إيراد أئمة الحديث للأحاديث التي قد يكون في إسنادها بعض المقال، في مثل هذا المقام: لا بأس به، بل فعلهم هذا صواب إذا كان ما في الحديث من المعنى قد عضدته الأدلة من القرآن ومن السنة، كما في هذا الحديث فإن قوله –عليه الصلاة والسلام–: (أنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله) قد دلت عليه الآيات التي سلفت.

وهذا الذي درج عليه صنيع الراسخين في العلم من أهل الحديث، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض كلام له في (الفتاوى) قال: (أهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في أصل من الأصول، بل إما في تأييده يعني في تأييد ذلك الأصل أو في فرع من الفروع). وهذا هو صنيع الشيخ –رحمه الله– أيضاً في هذا الكتاب.

فإنه يستدل بأحاديث هي من جهة المعنى الذي اشتملت عليه صحيحة، –كما سبق إيضاحه– وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الحديث مستدلا به في رده على البكري المعروف بـ(الاستغاثة) أعني: كتاب "الاستغاثة الكبرى" أو "الرد على البكري" وقال: إن هذا الحديث هو في معنى ما جاء في النصوص.

فقوله عليه الصلاة والسلام: (إنه لا يستغاث بي) يعني: لا تستغيثوا بي، وإنما استغيثوا بالله؛ لأن لفظ(يستغاث) تقدمه نفي، والمراد منه النهي.

وهذا الباب ظاهر المناسبة لما قبله، ولما بعده أيضا في أن الاستغاثة بغير الله نوع من أنواع الدعاء، وأن الدعاء عبادة، وأن الاستغاثة عبادة، وصرف العبادة لغير الله -جل وعلا- كفر وشرك.

ومما يدل على أن الدعاء عبادة قول الله -جل وعلا-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ (البقرة: ١٨٦)، وقوله ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يدل على أن إجابة الدعوة تكون برفع المكروه أو بمنع وقوعه وتكون أيضاً بالعطاء، والاثابة فيما إذا عُبِدَ فيجيب الدعوة؛ بإعطاء السائل سؤله، ويجيب أيضا الدعاء بإثابة الداعي العابد على عبادته.

ولهذا يفسر السلف الآيات التي فيها إجابة الدعاء، ونحو ذلك بأن فيها إعطاء سؤل السائل، وإثابة العابد لأن الصحابة والسلف: يعلمون أن الدعاء يشمل هذا وهذا.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ يعني: إذا سألني أو عبدني مع أنها في السؤال ظاهرة وفي الدعاء بينة.

والآيات في مثل ذلك كثيرة كقوله -جل وعلا- في سورة إبراهيم فيما ذكره عن نبيه عليه السلام ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ (مريم: ٤٨)، قال الله -جل وعلا- بعدها: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (مريم: من الآية٤٩)، فإبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ وقال﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فدل على أن الدعاء هو العبادة، والعبادة هي الدعاء. والدعاء يُفَسَّرَ تارة بدعاء المسألة، وتارة بدعاء العبادة، وهذا حاصل من أولئك لأصنامهم وأوثانهم.

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد والتأدب مع الله عز وجل.

(ق): فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، يعني: حيث قال في الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بغير اللَّه أو يدعو غيره، ووجه ذلك في الاستغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذاً الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعم، فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم﴾ [الحج: ٧٧].

الثانية: تفسير قوله: ﴿ولا تدع من دون اللَّه ما لا ينفعك ولا يضرك﴾، الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعالى: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين﴾ [يونس: ١٠٥].

فإن قيل: كيف ينهاه اللَّه عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعاً؟

أجيب: إن الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعاً.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾، مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣].

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره، صار من الظالمين، تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاء لغيره، صار من الظالمين، حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاء لذلك المشرك، فإنه يكون مشركاً، إذا لا تجوز المحاباة في دين اللَّه.

الخامسة تفسير الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك اللَّه بضر فلا كاشف له إلا هو......﴾ الآية [الأنعام: ١٧]، فإن كان لا يكشف الضر إلا اللَّه، وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وإن يمسسك اللَّه بضر فلا كاشف له إلا هو﴾، فلا ينتفع من دعائه هذا، فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفره".

السابعة: تفسير الآية الثالثة، هي قوله تعالى: ﴿فابتغوا عند اللَّه الرزق﴾.

وقوله: ﴿عند اللَّه ﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند اللَّه وحده.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من اللَّه، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه، ﴿واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾، لأن العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار اللَّه إلى ذلك بقوله: ﴿إليه ترجعون﴾.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ [الأحقاف: ٥].

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ [الأحقاف: ٥]، لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه، لقوله تعالى: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾، ﴿وهم﴾، أي: المدعوون، ﴿عن دعائهم﴾، أي: دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إياهم، فالاحتمال في الضمير الثاني وهو قوله: ﴿عن دعائهم﴾، أما الضمير الأول، فإنه يعود إلى المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة، معنى كفر المدعو: رده وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره، تؤخذ من قوله: ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس، **وذلك لأمور، هي:**

١- أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.

٢- أن المدعوين غافلون عن دعائهم.

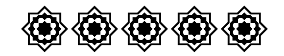
٣- أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.

٤- أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة، وهي قوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾، وقد سبق ذلك.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله... إلخ، وهو كما قال رحمه الله: وهذا موجود الآن، فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيماً، فإذا وقعوا في الشدة دعوا الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجئوا للأصنام لو كانت عبادتها حقاً، إلا أن المشركين اليوم من هو أشد شركاً من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم، كعلي والحسين، وإذا كان الأمر سهلاً دعوا الله، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه صادقون حلفوا بعلي أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمى التوحيد، والتأدب مع الله. اختار المؤلف أن قوله: "لا يستغاث بي" من باب التأدب بالألفاظ، والبعد عن التعلق بغير الله، وأن يكون تعلق الإنسان دائماً بالله وحده، فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده.



باب قول الله تعالى
﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ۝وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾
(الأعراف: ١٩١-١٩٢).

(**الشرح**): هذا الباب هو باب قول الله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ۝وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً...﴾ (الأعراف: ١٩١-١٩٢).

وإيراد هذا الباب بعد الأبواب المتقدمة هو من أحسن الإيراد ومن أعظمها فقها ورسوخا في العلم؛ ذلك أن برهان وجوب توحيد الله -جل وعلا- في إلاهيته هو ما ركز في الفِطَر من أنه جل وعلا واحد في ربوبيته.

وقد أقر بهذا وسلم به المشركون، بل كل أحد على الإقرار بهذا والاعتراف به فهي البرهان على أن المستحِق للعبادة هو من تَوَحَّد في الربوبية، فهذا الباب والباب الذي بعده أيضا: برهان لاستحقاق الله العبادة وحده دون ما سواه بدليل فطري، ودليل واقعي، ودليل عقلي.

ومن المعلوم أن الأدلة العقلية عندنا أهل السنة والجماعة تؤخذ من الكتاب والسنة؛ لأن في الكتاب والسنة من الأدلة العقلية ما يغني عن تكلف أدلة عقلية أخرى كما هو ظاهر لمن تأمل نصوص الوحيين.

فهذا الباب فيه بيان أن الذي يخلق هو الله وحده، والذي يرزق هو الله وحده، والذي يملك هو الله وحده، وأن غير الله -جل وعلا- ليس له نصيب من الخلق، وليس له نصيب من الرزق، وليس له نصيب من الإحياء، وليس له نصيب من الإماتة، وليس له نصيب من الأمر، وليس له ملك حقيقي في أمر من الأمور حتى أعلى الخلق مقاما، وهو النبي -عليه الصلاة والسلام- قال له الله -جل وعلا-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: من الآية١٢٨) يعني: لست مالكا لشيء من الأمر، وليس من الأمر شيء تملكه، فـ(اللام)هنا لام الملك، فمن الذي يملك إذاً؟ الذي يملك هو الله جل وعلا. فإذا كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يُنْفَى عنه ذلك الأمر، فإنه منفي عمن هو دونه من باب أولى.

والمتوجهون إلى أصحاب القبور أو إلى الصالحين والأولياء والأنبياء يعتقدون بأن هؤلاء المتوجه إليهم يملكون شيئاً من الرزق أو التوسط أوالشفاعة بدون إذن الله -جل وعلا- ومشيئته. فهذا الباب - إذاً- أحد الأبواب التي فيها البرهان على استحقاق الله للعبادة وحده دون ما سواه.

والقرآن فيه كثير من الأدلة والبراهين على أن المستحق للعبادة هو الله -جل وعلا- وحده دون ما سواه، فمن تلك الأدلة والبراهين ما في القرآن من أدلة فيها إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، فكل ذلك النوع من الأدلة فيه دليل على أن المستحق للعبادة هو من أقررتم له بالربوبية.

ومن الأدلة والبراهين على ذلك - أيضاً - ما جاء في القرآن من نصر الله -ﷻ- رسله وأولياؤه على أعدائهم، من طوائف الشرك وكيف أنهم ذلوا وخضعوا وغلبوا أمام طوائف أهل الإيمان وجند الله - جل وعلا- من الرسل والأنبياء وأتباعهم.

فهذا نوع آخر من الأدلة: وهو أنه ما من طائفة موحدة بعث الله -جل وعلا- إمامها ورسولها بقتال المشركين إلا نصرها وأظفرها حتى صارت العاقبة لهم.

وأدلة هذا في القرآن كثيرة، نقرؤها في قصص الأنبياء وقصص القرى، وما جاء في بيان عاقبة الأمم والقرى المخالفين لرسلهم فهذا دليل على أن التوحيد هو الحق، وأن الشرك باطل.

ومن الأدلة والبراهين على تقرير استحقاق الله تعالى للعبادة دون ما سواه: ما تضمنه القرآن من بيان ضعف المخلوق، الذي يعلم هذا، ويلمسه بنفسه، وكيف أنه جاء إلى الحياة بغير اختياره؛ بل الله -جل وعلا- الذي أتى به إلى هذه الحياة، وسيخرجه منها بغير اختياره أيضا، مما يدل على أنه مقهور، وهو يعلم قطعا أن الذي قهره وأذله وجعله على هذه الحالة ليس هي تلك الآلهة، وإنما هو الله -جل وعلا- وحده هو الذي يحيي ويميت، وهذا إقرار عام يعلمه كل أحد من فطرته.

ومن الأدلة والبراهين أيضا أن الله -جل وعلا- له الأسماء الحسنى، وله الصفات العلا، وأنه ذو النعوت الكاملة، وذو النعوت الجليلة، فنعوت الجلال، والجمال، والكمال، له سبحانه، وهو سبحانه له الكمال المطلق في كل اسم له، وفي كل نعت ووصف له، فله الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

فهذا الباب ذكر فيه الشيخ -رحمه الله- أحد أنواع أدلة الربوبية، أو براهين التوحيد، وأنه -جل وعلا- هو الواحد في ربوبيته، والباب الذي يليه هو باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (سبأ: من الآية٢٣) وفيه دليل على عظمة الله - جل وعلا- في صفاته.

ففي هذا الكتاب تنويع براهين توحيد العبادة، بأدلة متنوعة من القرآن - كما سيأتي - إن شاء الله.

(**ف**): قوله ﴿أيشركون﴾ أي في العبادة. قال المفسرون: في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا

وصف كل مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين. وأشرف الخلق a ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول " اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل " وهذا كقوله ' ٢٥: ٣ ' " واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا " وقوله ' ٧: ١٨٨ ' " قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون " وقوله ' ٧٢: ٢١ – ٢٣ ' " قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا * قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته ".

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان. فإن كان نبياً أو صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضا به رباً ومعبوداً، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك كما قال تعالى: ' ٢٨: ٨٨ ' " ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون " وقال ' ١٢: ٤٠ ' " إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه " فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره، وهذا هو دينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو دين الإسلام، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام قال " يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان " الحديث.

(ق): **قوله:** ﴿ما لا يخلق﴾، هنا عبر بـ ﴿ما﴾ دون "من"، وفي قوله: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾ [الأحقاف: ٥] عبر بـ ﴿من﴾. والمناسبة ظاهرة، لأن الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا، فالمدعو جماد، لأن الذي لا يخلق شيئاً ولا يصنعه جماد لا يفيد.

قوله: ﴿شيئاً﴾، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

قوله: ﴿وهم يخلقون﴾، وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والرب المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقاً، بل هو الخالق، فلا يجوز عليه الحدوث ولا الفناء. والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم، لأن ما جاز انعدامه أولاً، جاز عقلاً انعدامه آخراً. فكيف يعبد هؤلاء من دون الله، إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن، فهو ناقص في إيجاده وبقائه؟!.

- **إشكال وجوابه: قوله: ﴿ما لا يخلق﴾ الضمير بالإفراد، وقوله: ﴿وهم يخلقون﴾ الضمير بالجمع، فما الجواب؟**
- **أجيب**: بأن قوله: ﴿ما لا يخلق﴾ عاد الضمير على ﴿ما﴾ باعتبار اللفظ، لأن ﴿ما﴾ اسم موصول، لفظها مفرد، لكن معناها الجمع، فهي صالحة بلفظها للمفرد، وبمعناها للجمع، كقوله: ﴿من لا يستجيب له﴾.

وقوله: ﴿وهم يخلقون﴾ عاد الضمير على ﴿ما﴾ باعتبار المعنى، كقوله: ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾.

قوله: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾، أي: لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو، لأن هؤلاء المعبودين قاصرون. والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾، بنصب أنفسهم على أنه مفعول مقدم، وليس من باب الاشتغال، لأن العامل لم يشتغل بضمير السابق.

أي: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم؟!

فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، **هي:**

١- أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يعبد.

٢- أنهم مخلوقون من العدم، فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودواماً.

٣- أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿لا يستطيعون﴾ أبلغ من قوله: "لا ينصرونهم"، لأنه لو قال: "لا ينصرونهم"، فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤- أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣)

(**ق**): الآية الثالثة **قوله:** ﴿والذين تدعو من دونه﴾. يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و﴿من دونه﴾، أي: سوى الله.

قوله: ﴿ما يملكون من قطمير﴾، ﴿ما﴾: نافية، ﴿من﴾ حرف جر زائد لفظاً، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يقال: من: حرف صلة، وهذا فيه نظر، لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد، وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب، وجملة ﴿ما يملكون﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿الذين﴾.

وقوله: ﴿من قطمير﴾، القطمير: سلب نواة التمرة.

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء.

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي على النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أجيب: إنه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقياً، فلا يتصرف فيه إلا على حسب ما جاء به الشرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنهي عن إضاعة المال.

قوله: ﴿إن تدعوهم﴾، جملة شرطية، تدعو: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.

قوله: ﴿لا يسمعوا دعاءكم﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.

قوله: ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾، أي: إن هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت، لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ [مريم: ٤٢] فإذا كانت كذلك، فأي شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله ؟! بل هذا سفه، قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ هو كقوله تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٦]. فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون، فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيزاً والمسيح. وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها، فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها، فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وما ثبت في "الصحيحين" عن النبي ﷺ: "أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون الله"، فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتحصب في النار إهانة لعابديها وتحضر لتتبع إلى النار، فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

قوله: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤]، هذا مثال يضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكاً عند من خاطبه به، فيقول: ولا ينبئك مثل خبير، ومعناه: إنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله، لأنه لا يعلم أحد

ما يكون في يوم القيامة إلا الله، وخبره خبر صدق، لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]. والخبير: العالم ببواطن الأمور.

(**ف**): قلت: والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه، كما قال تعالى: ' ١٠: ٢٨ - ٣٠ ' " ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون " أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد " إن كنا عن عبادتكم لغافلين " قال يقول ذلك كل شيئ كان يعبد من دون الله.

فالكيس يستقبل هذه الآيات التي هي الحجة والنور والبرهان بالإيمان والقبول والعمل، فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً، فضلاً عن غيره.

(ق): مسألة: هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلم عليهم؟

- **اختلف في ذلك على قولين:**

❖ **القول الأول**: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول النبي ﷺ حين زيارة القبور: "السلام عليكم" دعاء لا يقصد به المخاطبة، ثم على فرض أنهم يسمعون كما جاء الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: "بأن الإنسان إذا سلم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام"، وعلى تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه، فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنهم يسمعون غير السلام، فإن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم، فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعاء من يدعون، لأن هذا كفر بالقرآن، فتبين هذا أنه لا تعارض بين قوله ﷺ: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين"، وبين هذه الآية. وأما قوله: ﴿ولو سمعوا﴾، فمعناه، لو سمعوا فرضاً ما استجابوا لكم، لأنهم لا يستطيعون.

❖ **القول الثاني**: أن الأموات يسمعون. واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة. وبما ثبت في "الصحيح" من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المشيع قرع نعالهم.

والجواب عن هذين الدليلين: أما الأول، فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلمون على النبي ﷺ في حياته في التشهد، وهو لا يسمعهم قطعاً.

أما الثاني: فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن.

وفي (الصحيح) عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته، فقال: (كيف يفلح قوم شَجُّوا نبيهم)؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾

(ف): **قوله:** في الصحيح أي الصحيحين. علقه البخاري. قال وقال حميد وثابت عن أنس. ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس. ووصله مسلم عن ثابت عن أنس. وقال ابن إسحاق في المغازي. حدثنا حميد الطويل عن أنس قال كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أحد وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟فأنزل الله الآية.

(ق): **قوله:** "أحد"، جبل معروف شمالي المدينة، ولا يقال: المنورة، لأن كل بلد دخله الإسلام فهو منور بالإسلام، ولأن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، لكن لو قيل: المدنية النبوية لحاجة تمييزها، فلا بأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هزم فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي ﷺ، كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون. وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال، إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعاً.

قوله: "شج"، الشجة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.

(ف): **قوله:** شج النبي ﷺ قال أبو السعادات: الشج في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء، وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته العليا وأن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه، وأن عبد الله بن قمئة جرحه في وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته وأن مالك ابن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده. فقال له: لن تمسك النار.

قال القرطبي: والرباعية بفتح الراء وتخفيف الياء - وهي كل سن بعد ثنية.

قال النووي رحمه الله: وللإنسان أربع رباعيات.

قال الحافظ: والمراد أنها كسرت، فذهب منها فلقة و لم تقلع من أصلها.

قال النووي: وفي هذا وقوع الأسقام والإبتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب. ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم.

قال القاضي: وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون. ولا يفتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم انتهى.

قلت: يعني من الغلو والعبادة.

(**ق**): **قوله:** "وكسرت رباعيته"، السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين. قوله فقال (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ﷺ) الاستفهام يراد به الاستبعاد، أي بعيد أن يفلح قوم شجوا نبيهم.

قوله: (يُفلح) من الفلاح وهو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

(**ف**): زاد مسلم كسروا رباعيته وأدموا وجهه.

(**ق**): **قوله:** "فنزلت: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾"، أي: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول ﷺ. و﴿شيء﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم.

قوله: ﴿الأمر﴾، أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ﷺ ليس له فيهم شيء. ففي الآية خطاب للرسول ﷺ وقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله - سبحانه - في كلمة واحدة: "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟"، فإذا كان الأمر كذلك، فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شيء، كالأصنام، والأوثان، والأولياء، والأنبياء، فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه، لأن المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملك لغيره؟

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان فيما إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلا نستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه. فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم، قيل له: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾. والرجل المطيع الذي يمر بالعاصي من بني إسرائيل ويقول: "والله، لا يغفر الله لفلان. قال الله له: من ذا الذي يتالى علي على أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحبطت عملك"، فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً

كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة؟!

وما دام الإنسان لم يمت، فكل شيء ممكن، كما أن المسلم – نسأل الله الحماية – قد يزيغ قلبه لما كان فيه من سريرة فاسدة. فالمهم أن هذا الحديث يجب أن يتخذ عبرة للمعتبر في أنك لا تستبعد رحمة الله من أي إنسان كان عاصياً.

قوله: "فنزلت"، الفاء للسببية، وعليه، فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: "كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟".

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: (اللهم العن فلاناً وفلاناً) بعدما يقول: (سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد) فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾

(**ف**): **قوله:** عن ابن عمر هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، صحابي جليل، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو في أول التي تليها.

قوله: أنه سمع رسول الله هذا القنوت على هؤلاء بعد ما شج وكسرت رباعيته يوم أحد.

(**ق**): **قوله:** "إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر"، قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر، ومكانه من الركعات بالأخيرة، ومكانه من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: "يقول: اللهم العن فلاناً وفلاناً" اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، أي: أبعدهم عن رحمتك، واطردهم منها. و"فلاناً وفلاناً": بينه من الرواية الثانية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

(**ف**): **قوله:** بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده قال أبو السعادات: أي أجاب حمده وتقبيله. وقال السهيلي: مفعول سمع محذوف، لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه: سمع الله لمن حمده باللام المتضمنة معنى استجاب لـه. ولا حـذف وإنما هو مضمن.

قوله: وربنا لك الحمد في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو. قال ابن دقيق العيد: كأن إثباتها دال على معنى زائد، لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد. فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضد الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له. كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.

وكذا قال ابن القيم: وفرق بينه وبين المدح بأن الأخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبار مجرداً عن حب وإرادة، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته. فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد. فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه. ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء بخلاف المدح، فإنه خبر مجرد. فالقائل إذا قال: الحمد لله أو قال ربنا ولك الحمد تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى بإسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

وفيه: التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة، وقالا: يقتصر على سمع الله لمن حمده.

قوله: وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام.

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيهم.

(ق): **قوله:** "فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾"، هنا قال: "فأنزل"، وفي الحديث السابق قال: "فنزلت"، وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ على هؤلاء، وقوله: "كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟"، ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحسن إسلامهم رضي الله عنهم، فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية، لأن القلوب بيد الله -سبحانه وتعالى-، ولو أن الأمر كان على ظن النبي ﷺ، لبقي هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة، لم يبق إلا العذاب. ولكن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله، ولهذا هدى الله هؤلاء القوم، وصاروا من أولياء الله الذابين عن دينه، بعد أن كانوا من أعداء الله القائمين ضده، والله – سبحانه – يمن على من يشاء من عباده.

وليس بعيداً من ذلك قصة أصيرم بن عبد الأشهل الأنصاري، حيث كان معروفاً بالعداوة لما جاء به الرسول ﷺ، فلما جاءت وقعة أحد ألقى الله الإسلام في قلبه دون أن يعلم به النبي ﷺ أو أحد من

قومه، وخرج للجهاد وقتل شهيداً، فلما انتهت المعركة جعل الناس يتفقدون قتلاهم، فإذا هو في آخر رمق، فقالوا: ما جاء بك يا فلان؟ أحدب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فأخبروا عني رسول الله ﷺ. فأخبروه، فقال: "هو من أهل الجنة"، فهذا الرجل لم يصل لله ركعة واحدة، ومع هذا جعله الله من أهل الجنة، فالله حكيم يهدي من يشاء لحكمة، ويضل من يشاء لحكمة، فالمهم أننا لا نستبعد رحمة الله – عز وجل – من أي إنسان.

(ف): وفي هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين. بل في الطواغيت من أنهم ينتفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم. فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب. وذلك عدله سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: (يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت a سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً).

(ف): **قوله:** وفيه أي وفي صحيح البخاري.

قوله: عن أبي هريرة اختلف في اسمه. وصحح النووي أن اسمه عبد الرحمن ابن صخر، كما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال: كان اسمي في الجاهلية عبد الرحمن وروى الدولابي بإسناده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سماه عبد الله وهو دوسي من فضلاء الصحابة وحفاظهم، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله: قام رسول الله ﷺ في الصحيح من رواية ابن عباس صعد رسول الله ﷺ على الصفا.

(ق): **قوله:** "قام"، أي: خطيباً.

قوله: "أنزل عليه"، أي: أنزل عليه بواسطة جبريل: ﴿وأنذر عشيرتك﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قوله: ﴿أنذر﴾، أي: حذر وخوف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: ﴿عشيرتك﴾، العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: ﴿الأقربين﴾، أي: الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل في عشيرة الرجل أولاده، ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه، وهكذا. ويؤخذ من هذا أن الأقرب فالأقرب أولى بالإنذار، لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين.

وقوله: "حين أنزل عليه" يفيد أنه لم يتأخر ﷺ، بل قام، فقال: "يا معشر قريش!"، أي: يا جماعة قريش. وقريش: هو فهر بن النضر بن مالك، أحد أجداد الرسول ﷺ.

قوله: "أو كلمة نحوها"، أي: أو قال كلمة نحوها، أي شبهها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكوا أدنى شك قالوا: أو كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك! وعليه فـ"أو": للشك والتردد.

قوله: "اشتروا أنفسكم"، أي: أنقذوها، لأن المشتري نفسه كأنه أنقذها من هلاك، والمشتري راغب، ولهذا عبر بالاشتراء كأنه يقول: اشتروا أنفسكم راغبين.

وفي قوله: "اشتروا أنفسكم" من الحض على هذا الأمر ما هو ظاهر، لأن المشتري يكون راغباً.

قوله: "لا أغني عنكم من الله شيئاً"، هذا هو الشاهد، أي: لا أدفع أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم، لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك، فقال: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دون ملتحداً﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

قوله: "شيئاً"، نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء.

قوله: "يا عباس بن عبد المطلب"، هو عم النبي ﷺ، وعبد المطلب جد النبي ﷺ، وعباس، بالضم، لأن المنادى إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافاً ينصب، وهنا ابن عبد المطلب مضاف، ولهذا نصب.

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله – عز وجل –؟

فالجواب: إن هذا ليس إنشاء، بل هو خبر، فاسمه عبد المطلب، و لم يسمه النبي ﷺ، لكن اشتهر بعبد المطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول ﷺ، فقال:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فلو فرض أن لك أباً يسمى عبد المطلب، أو عبد العزى، فإنك تنتسب إليه، ولا يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع، كما لو قلت: كفر فلان، نافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز.

قوله: "لا أغني عنك من الله شيئاً"، أي: لا أنفعك بشيء دون الله، ولا أمنعك من شيء أراده الله لك، فالنبي ﷺ لا يغني عن أحد شيئاً حتى عن أبيه وأمه.

قوله: "يا صفية عمة رسول الله!"، يقال في إعرابها كما قيل في عباس بن عبد المطلب.

قوله: "يا فاطمة بنت a! سليني من مالي ما شئت"، أي: اطلبي من مالي ما شئت، فلن أمنعك لأنه ﷺ مالك لماله، ولكن بالنسبة لحق الله قال: "لا أغني عنك من الله شيئاً".

فهذا كلام النبي ﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟! فعدم إغنائه عنهم شيئاً من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول ﷺ هو الإيمان به واتباعه. أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه، فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول ﷺ، وعن النجاة من عذاب الله. ففي الحديث امتثال النبي ﷺ لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام، فدعا وعم وخصص، وبيَّن أنه لا ينجي أحداً من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به. وإذا كان القرب من النبي ﷺ لا يغني عن القريب شيئاً، دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي ﷺ، لأن جاه النبي ﷺ لا ينتفع به إلا النبي ﷺ، ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي ﷺ.

(ف): وفيه: أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا. وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى، فإن ما عند الله لا ينال إلا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك، فغيرهم أولى وأحرى. وفي قصة عمه أبي طالب معتبر.

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن غيرهم – يتبين لك أنهم ليسو على شيئ ' ٧: ٣٠ ' " إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون " أظهر لهم الشيطان الشرك في قالب محبة الصالحين، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ولا ريب أن

محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين، لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكاً بالله، وعبادة لغير الله، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده، كما قال تعالى: ' ٥: ١١٦، ١١٧ ' " وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ".

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق: ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال " ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم " ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد الوفاة لا إطلاع له عليهم، وأن الله ﷻ المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال " وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد " وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم أ.هـ.

قلت: ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله من توحيده الذي هو دينهم الذي اتفقوا عليه، ودعوا الناس إليه، وفارقوا فيه إلا من آمن، فكيف يقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية. وتنقص للإلهية وسوء ظن برب العالمين؟.

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرأوا من كل مشرك ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم ' ٦: ١٠٩ '" قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ".

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار. منها: شجهم نبيهم وحرصهم على قتله، ومنها: التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعنه المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته صلى الله عليه وسلم لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾

الثانية عشرة: جدّه صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: (لا أغني عنك من الله شيئاً) حتى قال: (يا فاطمة بنت a لا أغني عنك من الله شيئاً) فإذا صرح صلى الله عليه وسلم وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن – تبين له التوحيد وغربة الدين.

(ق): فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين، وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أحد، يعني: حيث شج النبي ﷺ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين... إلخ، أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادت الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم، فكيف ينقذون غيرهم؟ وليس مراده رحمه الله مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات، فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجئون إلى الله – سبحانه – في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله، فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات؟ فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾، فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفاراً.

وهذه المسألة – أي أن المدعو عليهم كفار – ترمي إلى أن الرسول ﷺ وإن كان يرى أنه دعا عليهم بحق، فقد قطع الله –سبحانه وتعالى– أن يكون له من الأمر شيء لأنه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً، أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟.

نقول: حتى في هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئاً، هذا وجه قول المؤلف أن المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعلام بكفرهم، لأن هذا معلوم لا يستحق أن يعنون له، بل المراد في هذه الحال الذي كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبي ﷺ شيئاً بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، أي: إنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقهم:

﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، وإلا، فهم شجوا النبي ﷺ، ومثلوا بالقتلى مثل حمزة بن عبد المطلب، وكذلك أيضاً حرصوا على قتل النبي ﷺ، مع أن كل هؤلاء فيهم من بني عمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، أي: مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قطع عنه هذا الشيء، فغيره من باب أولى.

السابعة: **قوله:** ﴿أو يتوب عليهم﴾، فتاب عليهم، فآمنوا، وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته، فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأن الأمر كله بيده سبحانه، وهو

الذي يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضي الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى، فرسول الله ﷺ ومن دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من أمر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل، وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة، فإنه ينبغي أن يدعى لهم حتى تنكشف. وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره[1]، إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[2] رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنه شهادة، فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة. وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أما ما كان من فعل الله، فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف، فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يشرع له الاستسقاء، وهكذا. وما علمت لساعتي هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك، فإنه يقنت اتباعاً للسنة في هذا الأمر.

ثم من الذي يقنت، الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصل؟

المذهب: أن الذي يقنت هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح، لعموم قول النبي ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلى"[3]، وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هل هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز، وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم مصلحة، كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز، لأنه لا يعد من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس"[4].

---

[1] مسند الإمام أحمد (١/٣٠١)، والحاكم (١/٢٥٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

[2] البخاري: كتاب الحيل/باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون ...، ومسلم: كتاب السلام/باب الطاعون والطيرة.

[3] البخاري: كتاب الأذان/باب الأذان للمسافرين.

[4] مسلم: كتاب المساجد/باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته.

مسألة: هل الذي نهي عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عموماً، فلا بأس بـه، وقـد ثبت عن أبي هريرة أنه كان يقنت ويلعن الكفرة[١] عموماً، وما ورد عن أبي هريـرة ﷺ، أنـه قـال: "لأقربن صلاة النبي ﷺ، فكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخرى من صلاة الظهـر وصـلاة العشـاء وصلاة الصبح بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار"[٢]، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار، فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ على قريش بالهلاك، بـل قـال: "اللهم! عليك بهم، اللهم! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف"[٣]، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندي تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: "اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً"[٤] على جواز ذلـك، لأنه وقع في عهد الرسول ﷺ.

ولان الأمر وقع كما دعا، فإنه ما بقي منهم أحد على رأس الحول، و لم ينكر الله تعالى ذلك، ولا أنكره النبي ﷺ، بل إن إجابة الله دعاءه يدل على رضاه به وإقراره عليه. فهذا قد يستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن ينظر في القصة، فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتى في كل شيء.

ثم إن خبيباً دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

وفيه أيضاً إن صح الحديث: دعاؤه على عتبة بن أبي لهب: "اللهم! سلط عليه كلباً من كلابك"[٥]، فيـه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

العاشـرة: لعن المعين في القنوت، هذا غريب، فإن أراد المؤلف رحمه الله أن هذا أمر وقع، ثم نهي عنه، فلا إشكال، وإن أراد أنه يستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبداً، فهذا فيه نظر لأن الـنبي ﷺ نهي عن ذلك.

الحادية عشـرة: قصته ﷺ لما أنزل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين)، وهي أنه لما نزلت عليه الآيـة نـادى قريشاً، فعم، ثم خصص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

---

[١] أخرجه البخاري في كتاب الآذان باب فضل اللهم ربنا لك الحمد حديث (٧٩٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة حديث (٦٧٦).

[٢] البخاري: كتاب صفة الصلاة/ باب فضل اللهم ربنا ولك الحمد، ومسلم: كتاب المساجد/باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلـت بالمسلمين نازلة.

[٣] البخاري: كتاب الاستسقاء/باب دعاء النبي ﷺ: (اجعلها عليهم سنين كسني يوسف)، ومسلم: كتاب المساجد/باب استحباب القنوت...

[٤] البخاري: كتاب المغازي/باب فضل من شهد بدراً.

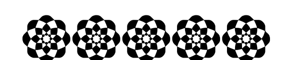
[٥] الحاكم في (المستدرك) (كتاب التفسير، تفسير سورة أبي لهب، ٥٣٩/٢)، وقال: (صحيح الإسناد)، و لم يخرجاه)، ووافقه الذهبي.

الثانية عشرة: جده ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، أي: اجتهاده ﷺ في هذا الأمر، بحيث قالوا: إن محمداً جن، كيف يجمعنا ويناديناً هذا النداء؟ وقوله: "وكذلك لو يفعله مسلم الآن"، أي: لو أن إنساناً جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ﷺ، لقالوا: مجنون، إلا إذا كان معتاداً عند الناس، قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ [النور: ٤٤]، فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم أنه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبي ﷺ قام بهذا الأمر و لم يبال بما رمي به من الجنون.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: "لا أغنى عنك من الله شيئاً"، صدق رحمه الله فيما قال، فإنه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق، وأنه لا يغني عن ابنته شيئاً، تبين لنا الآن أن ما يفعله خواص الناس ترك للتوحيد، لأنه يوجد أناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول ﷺ لكشف الضر وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشرك، وإذا أنكر عليهم ذلك ردوا على المنكر بأنه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند الله، وأنه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنه خلق من نور العرش، ويلبسون بذلك على العامة، فيصدقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له، لأن سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥]، ثم إن المؤمن عاطفته وميله للرسول ﷺ أمر لا ينكر، لكن الإنسان لا ينبغي له أن يحكم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسنة وأيده العقل الصريح السلام من الشبهات والشهوات. ولهذا نعى الله – سبحانه – على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق، فإن من تأمل ما عليه الناس اليوم في كثير من البلدان الإسلامية تبين له ترك التوحيد وغربة الدين.



باب قول الله تعالى
﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾
(سبأ: من الآية٢٣)

(**تم**): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد كما ذكرنا سابقاً: أن فيه برهانا على أن المستحق للعبادة هو الله -جل جلاله- لأنه هو المتصف بصفات الكمال والجلال.

(**ق**): أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكا مع الله؛ لأن الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله -عز وجل-، ما عدا خواص بني آدم يحصل منهم عند كلام الله -سبحانه- الفزع.

(**تم**): وهذا الباب فيه ذكر لصفات الجلال لله -جل وعلا- إذ كل من في السماوات والأرض خائف منه ووَجِلٌ لأنه سبحانه الجليل، ولذلك كان أعرف عمار السماء به هم الملائكة الذين قال الله في وصفهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠) وقال جل وعلا في وصفهم أيضاً ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: من الآية٢٨)، فصفات الجلال والكمال والجمال له -سبحانه- وهذه كلها دلائل على أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، لأنه المتصف بالعظمة الكاملة وهو الذي ينبغي أن يُهَاب وأن يُخَاف منه على الحقيقة؟ فكل ما في السماوات والأرض جار على وفق أمره سبحانه وتعالى.

فهو سبحانه وتعالى: ذو الأسماء الحسنى، وذو الصفات العلا.

(**ق**): قوله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾، قال ذلك و لم يقل: (فزعت قلوبهم)، إذ ﴿عن﴾ تفيد المجاوزة، **والمعنى**: جاوز الفزع قلوبهم؛ أي: أزيل الفزع عن قلوبهم. **الفزع**: الخوف المفاجئ؛ لأن الخوف المستمر لا يسمى فزعا. **وأصله**: النهوض من الخوف.

(**ف**): أي زال الفزع عنها. قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذين فزع عن قلوبهم: الملائكة قالوا: وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي وقال ابن عطية: في الكلام حذف ما يدل عليه الظاهر. كأنه

قال: ولا هم شفعاء كما تزعمون أنتم، بل هم عبدة مسلمون لله أبداً، يعني منقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم. والمراد الملائكة على ما اختاره ابن جرير وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار.

وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله: " حتى إذا فزع عن قلوبهم " إنما هي الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة. قال: وبهذا المعنى – من ذكر الملائكة في صدر الآية – تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: " الذين زعمتم " لم تتصل له هذه الآية بما قبلها.

(ق): وقوله تعالى: ﴿عن قلوبهم﴾؛ أي: قلوب الملائكة؛ لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من الرسول ﷺ.

(ف): **قوله:** " قالوا ماذا قال ربكم؟ " ولم يقولوا ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا: ماذا خلق؟

انتهى من شرح سنن ابن ماجة.

(ق): قوله تعالى: ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾ جواب الشرط، والمعنى: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن الكلام قائلا ومقولا له، فلو جعلنا الضمير في

قالوا عائدا على الجميع؛ فأين المقول له؟ والمعنى: أي شيء قال ربكم؟

وإعراب ماذا على أوجه:

١. ما: اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر؛ أي: ما الذي.
٢. ماذا: اسم استفهام مركب من ما وذا.
٣. ما اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك:

ومثل ماذا بعدما استفهام ... أو من إذا لم تلغ في الكلام

وقوله: ﴿قالوا الحق﴾، أي: قال المسؤولون.

والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق.

والمعنى: أن الله – سبحانه – قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ (الأنعام: من الآية١١٥).

ولا يفهم من قوله: ﴿قالوا الحق﴾ أنه قد يكون قوله باطلا، بل هو بيان للواقع، فإن قيل: ما دام بيانا للواقع ومعروفا عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق؛ فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أن هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق.

قوله تعالى: ﴿وهو العلي الكبير﴾، أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء، وهي العظمة التي لا يداينها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للتوحيد: أنه إذا كان منفردا في العظمة والكبرياء؛ فيجب أن يكون منفردا في العبادة.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من ينتسب للإسلام حتى الجهمية ونحوهم.

الثاني: علو الذات، وقد أنكره كثير من المنتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم؛ فإن المحققين منهم أثبتوا علو الذات.

وعلوه لا ينافي كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم؛ لأنه ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

(ف): كما قال عبدالله بن المبارك – لما قيل له: بما نعرف ربنا؟ قال بأنه على عرشه بائن من خلقه تمسكاً منه بالقرآن لقوله تعالى: '٢٠: ٥ ' " الرحمن على العرش استوى " ' ٢٥: ٥٩ ' " ثم استوى على العرش الرحمن " في سبعة مواضع من القرآن ' ٧: ٥٣ و١٤: ٢ و٣٢: ٤ و٥٧: ٤ '.

(ق): وفي الآية فوائد:

١. أن الملائكة يخافون الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: من الآية٥٠).
٢. إثبات القلوب للملائكة؛ لقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾.
٣. إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحا مجردة من الجسمية، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾(فاطر: من الآية١)، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح قد سد الأفق[1]؛ فالقول بأنهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل.
لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠)؛ ففي هذا دليل على أن ليلهم ونهارهم مملؤان بذلك، ولهذا جاء: ﴿يسبحون الليل﴾، ولم يقل يسبحون في الليل؛ أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

---

[1] أخرجه البخاري: في كتاب بدء الخلق /باب ذكر الملائكة، حديث (٣٢٣٢)، ومسلم في كتاب الإيمان باب في ذكر سدرة المنتهى، حديث (١٧٤).

٤. أن لهم عقولا؛ إذ إن القلوب هي محل العقول خلافا لمن قال: إنهم لا يعقلون، ولأنهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥. إثبات القول لله – ﷻ –، وأنه متعلق بمشيئته؛ لأنه جاء بالشرط: ﴿إذا فزع﴾، وإذا الشرطية تدل على حدوث الشرط والمشروط، خلافا للأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بمشيئة، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه؛ فهو قائم بالله أزلي أبدي؛ كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب أن هذا باطل، وأن حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: أن الله يتكلم بكلام نفسي أزلي أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذي سمعه موسى، وسمعه النبي ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول ﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا في الحقيقة قول الجهمية؛ كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهمية فرق، فإننا اتفقنا على أن هذا الذي بين دفتي المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

٦. إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء في القرآن: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(الأحزاب: من الآية٤)، وقال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (صّ: ٨٤)؛ فالله تعالى لا يقول إلا حقاً؛ لأنه هو الحق، ولا يصدر عن الحق إلا الحق.

وفي (الصحيح) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك. حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع – ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض – وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها عن لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)[1].

(**ف**): **قوله:** في الصحيح أي صحيح البخاري.

(**ق**): **قوله:** (قضي الله الأمر في السماء)، المراد بالأمر الشأن، ويكون القضاء بالقول؛ لقوله تعالى: (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) (آل عمران: ٤٧).

(**ف**): أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراد، كما صرح به في الحديث الآتي، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود " إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصة كجر السلسلة على الصفوان "[2].

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أوحى الجبار إلى a ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي. فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله. فقالوا: الحق. وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً[3].

(**ق**): **قوله:** (خضعاناً)، أي: خضوعا؛ لقوله: (كأنه)؛ أي: صوت القول في وقعه على قلوبهم.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير /باب (حتى إذا فزع عن قلوبهم).

[2] أخرجه البخاري معلقاً بنحوه في كتاب التوحيد (٤٥٢/٣١، ٤٥٣). ووصله أبو داود (٤٧٣٨) في السنة :باب في القرآن وابن خزيمة في التوحيد ص(١٤٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٢٠١) وغيرهم بإسناد صحيح وقد اختلف فيه على وقفه ورفعه كما في الفتح (٤٥٦/١٣).

[3] البخاري، كتاب بدء الخلق :حديث(٢٢١٠)، باب ذكر الملائكة.

قوله: (صفوان) هو الحجر الأملس الصلب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.
وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا؛ لأن الله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١)، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

قوله: (ينفذهم ذلك)، النفوذ: هو الدخول في الشيء، ومنه: نفذ السهم في الرمية؛ أي دخل فيها، والمعنى: إن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

(**ف**): وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس فلا يترل على أهل سماء إلا صعقوا وعند أبي داود وغيره مرفوعاً "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل " الحديث.

(**ق**): **قوله:** ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾، أي: أزيل عنها الفزع.

قوله: ﴿قالوا﴾، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾، أي: قالوا: قال الحق؛ أي: قال القول الحق؛ فالحق صفة لمصدر محذوف مع عامله، تقديره: قال القول الحق، وهذا الجواب الذي يقولونه هل هم يقولونه لأنهم سمعوا ما قال وعلموا أنه حق، وأنهم كانوا يعلمون أنه لا يقول إلا الحق؟
يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال، وقالوا: إنه الحق؛ فيكون هذا عائدا إلى الوحي الذي تكلم الله به.
ويحتمل أنهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله – سبحانه – لا يقول إلا الحق؛ فلذلك قالوا هذا لأن ذلك صفته سبحانه وتعالى.
وهذا الحديث مطابق للآية تماما، وعلى هذا يجب أن يكون هذا تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن يفسرها بغيره؛ لأن تفسير القرآن إذا كان بالقرآن
أو السنة؛ فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه.
وأما تفسير الصحابي؛ فإنه حجة عند أكثر المفسرين، وأما التابعين؛ فإن أكثر العلماء يقول: إنه ليس بحجة إلا من اختص منهم بشيء؛ كمجاهد؛ فإنه عرض المصحف على ابن عباس عشرين مرة أو أكثر، يقف عند كل آية ويسأله عن معناها، وأما من بعد التابعين؛ فليس تفسيره حجة على غيره، لكن إن أيده سياق القرآن كان العمدة سياق القرآن.
فلا يقبل أن يقال: إذا فزع عن قلوب الناس يوم القيامة، بل نقول: الرسول ﷺ فسر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيا وجاء به النص؛ فالواجب علينا قبوله، ولهذا نقول في مسألة ما يعذر

فيه بالاجتهاد وما لا يعذر: إنه ليس عائدا على أن هذا من الأصول وهذا من الفروع؛ كما قال بعض العلماء: الأصول لا مجال للاجتهاد فيها، ويخطئ المخالف مطلقا، بخلاف الفروع.

لكن شيخ الإسلام ابن تيميه أنكر تقسيم الدين إلى أصول وفروع، ويدل على بطلان هذا التقسيم: أن الصلاة عند الذين يقسمون من الفروع، مع أنها من أجل الأصول.

والصواب: أن مدار الإنكار على ما للاجتهاد فيه مجال وما لا مجال فيه؛ فالأمور الغيبية ينكر على المخالف فيها ولا يعذر، سواء كانت تتعلق بصفات الله أو اليوم الآخر أو غير ذلك؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيها.

أما الأمور العملية التي للاجتهاد فيها مجال؛ فلا ينكر على المخالف فيها إلا إذا خالف نصا صريحا، وإن كان يصح تضليله بهذه المخالفة؛ كقول ابن مسعود في بنت وبنت ابن وأخت: (للبنت النصف، ولابنة الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقي؛ فللأخت)؛ وذكر له قسمة أبي موسى: (للابنة النصف، وللأخت النصف)، وقوله: (ائت ابن مسعود؛ فسيتابعني)؛ فأخبر ابن مسعود بذلك، فقال: (قد ضللت إذا، وما أنا من المهتدين)[1].

قوله: (فيسمعها مسترق السمع)، أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة.

(**ف**): أي يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً. وفي صحيح البخاري عن عائشة مرفوعاً: " إن الملائكة تنزل في العنان – وهو السحاب – فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان".

قوله: ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه أي وصف ركوب بعضهم فوق بعض.

(**ق**): وتأمل كلمة (مسترق)؛ ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاسا بسرعة، ويؤيده قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: ١٠).

قوله: (ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض)، يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ، أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: (وصفه سفيان بكفه)، أي: أنها واحد فوق الثاني، أي الأصابع: فالجن يتراكبون واحدا فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ (الجن: ٩).

---

[1] البخاري: كتاب الفرائض /باب ميراث ابنة الابن مع البنت، حديث (٦٧٣٦).

(ف): وسفيان هو ابن عيينة أبو a الهلالي الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه، إمام حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: فحرفها بحاء مهملة وراء مشددة وفاء.

قوله: وبدد أي فرق بين أصابعه.

(ق): **قوله:** (فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته)، أي: سمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته؛ أي: يخبره بها، و(من): اسم موصول، وقوله: (تحته) شبه جملة صلة الموصول لأنه ظرف.

قوله: (ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها)، أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقى وتعوذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس على بعض طلبة العلم؛ فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضى؛ فهو كاهن، لكن ما مضى مما يقع في الأرض ليس غيبا مطلقا، بل هو غيب نسبي، مثل ما يقع في المسجد يعد غيبا بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيبا بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتصل الإنسان بجني، فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيدا؛

فيستخدم الجن، لكن ليس على وجه محرم؛ فلا يسمى كاهنا؛ لأن الكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع، إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة، أما إذا كان يخبر عما في الضمير استنادا إلى فراسة؛ فإنه ليس من الكهانة في شيء؛ لأن بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتمادا على أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه على وجه التفصيل، لكن يعلمه على سبيل الإجمال.

فمن يخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهان، ولكن ينظر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه؛ فإننا لا نصدقه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات: من الآية٦).

وإن كان موثوقا في دينه، ونعلم أنه لا يتوصل إلى ذلك بمحرم من شرك أو غيره؛ فإننا لا ندخله في الكهان الذين يحرم الرجوع إلى قولهم، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان و لم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجودا فيه؛ فلا يسمى كاهنا؛ لأنه لم يخبر عن مغيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره،

والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم؛ إما محبة لله - ﷻ -، أو لعلم يحصله منه، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة.

والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلى السماء الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾(الأنبياء: من الآية٣٢)؛ فلا يمكن نفوذه إلى ما فوقه.

قوله: (فربما أدركه الشهاب ....إلخ)، الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء في التفسير قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك:٥) أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها؛ فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدعا فيها. أما النجم، فلو وصل إلى الأرض؛ لأحرقها.

(**ف**): **قوله:** فيكذب معها مائة كذبة أي الكاهن أو الساحر.

وكذبة بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة.

قوله: فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ هكذا في نسخة بخط المصنف، وكالذي في صحيح البخاري سواء.

قال المصنف: وفيه قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة؟.

وفيه: أن الشيء إذا كان فيه شيئ من الحق فلا يدل على أنه حق كله، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ' ٢: ٤٢ ' "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ".

(**ق**): واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلى الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟

والثاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: (فيكذب معها مئة كذبة)، هل هذا على سبيل التحديد، أو المراد المبالغة، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟

الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص؛ فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ والناس في هذه الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقا، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان؛ قالوا: إذن لابد أن يصدق.

فوائد الحديث:

١. إثبات القول لله – ﷻ –.
٢. عظمة الله – سبحانه وتعالى –.
٣. إثبات الأجنحة للملائكة.
٤. خوف الملائكة من الله – ﷻ – وخضوعهم له.
٥. أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.
٦. أنه لا يصدر عن الله إلا الحق.
٧. أن الله – سبحانه – يمكن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وهي ما يلقونه على الكهان، فيحصل بذلك فتنة، والله – ﷻ – حكيم.
وقد يوجد الله أشياء تكون ضلالا لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى امتحانا وابتلاء.
٨. كثرة الجن؛ لأنهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جدا، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيرانا. وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيميه في السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات؛ فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التي تكنس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة؛ فيفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسيئون حتى من الناحية العملية؛ لأنهم يمرون الميقات ولا يحرمون منه.
٩. أن الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ما سمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجري عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.
١٠. أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التمويه والتلبيس، وأنهم إن صدقوا في شيء؛ فيجب الحذر منهم بكل حال.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم الوحي أخذت السماوات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفاً من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجداً. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل. فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)[1].

(**ف**): النواس بن سمعان، بكسر السين، بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري صحابي. ويقال: إن أباه صحابي أيضاً.

(**ق**): هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة؛ وهي في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة؛ فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم [2] وأحمد من حديث ابن عباس حديثا قد يكون شاهدا له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود؛ لكن يدل على أن له أصلا.

قوله: (إذا أراد أن يوحي بالأمر)، أي: بالشأن.

[1] أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣٣٦/١) حديث (٥٩١) وابن أبي عاصم في السنة (٢٧٧/١) حديث (٥١٥) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٣٦/١) حديث (٢١٦) وذكره الهيثمي في المجمع (٩٥/٧) وقال: رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن صالح وقد وثق وتكلم فيه بغير قادح معين وبقية رجاله ثقات وأخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن /باب: (حتى إذا فزع عن قلوبهم) حديث (٤٨٠٠) وأبو داود (٣٩٨٩) والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجة (١٩٤) من حديث أبي هريرة بنحوه.

[2] أخرجه مسام في كتاب السلام /باب تحريم الكهانة وإثبات الكهان حديث (٢٢٢٩).

قوله: (تكلم بالوحي)، جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط؛ فالإرادة سابقة، والكلام لاحق؛ فيكون فيه رد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي؛ كالسمع والبصر؛ ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يقال: إنه لا يتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله: (أخذت السماوات منه رجفة)، السماوات: مفعول به جمع مؤنث سالم، أو ملحق به؛ فيكون منصوبا بالكسرة، ورجفة: فاعل.

(**ف**): أي أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أي ارتجفت. وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة. قال إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السموات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سجداً.

قوله: أو قال رعدة شديدة شك من الراوي. هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: خوفاً من الله ﷻ وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها. وقد أخبر تعالى أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى: ' ١٧: ٤٤ ' " تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا " وقال تعالى: ' ١٩: ٩٠ ' " تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً " وقال تعالى: ' ٢: ٧٤ ' " وإن منها لما يهبط من خشية الله " وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة، مستدلاً بهذه الآيات وما في معناها.
وفي البخاري عن ابن مسعود قال كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي حديث أبي ذر " أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسمع لهن تسبيح..." الحديث وفي الصحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر. ومثل هذا كثير.

قوله: صعقوا وخروا لله سجداً الصعوق هو الغشي، ومعه السجود.

(**ق**): **فإن قيل**: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجدا؟

فالجواب: أن الصعق هنا – والله أعلم – يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: (فيكون أول من يرفع رأسه جبريل)، أول: بالنصب على أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخرا.

(ف): ويجوز العكس. ومعنى جبريل: عبد الله، كما روى ابن جرير وغيره عن على ابن الحسين قال: كان اسم جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل عبيد الله، وإسرافيل عبد الرحمن. وكل شيئ رجع إلى أيل فهو معبد لله عز وجل. وفيه فضيلة جبريل عليه السلام. كما قال تعالى: ' ٨١: ١٩ - ٢١ ' " إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين ".

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم. وقال أبو صالح في الآية جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن.

ولأحمد بإسناد صحيح[1] عن ابن مسعود قال رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم فإذا كان هذا عظم هذه - المخلوقات فخالقها أعظم وأجل وأكبر. فكيف يسوى به غيره في العبادة: دعاء وخوفاً ورجاء وتوكلاً وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ۞يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ۞وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٢٩].

(ق): **قوله:** (بما أراد)، أي: بما شاء؛ لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

قوله: (ثم يمر جبريل على الملائكة)، لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

قوله: (قال الحق وهو العلي الكبير)، سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعينة، أو قال الحق؛ لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأيا كان؛ فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحي الله إليه، بل يقول: قال الحق مبهما، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يبوح بالسر.

قوله: (وهو العلي الكبير)، تقدم الكلام عليه.

قوله: (فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل)، أي: قال الحق، وهو العلي الكبير.

قوله: (فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله - عز وجل -)، أي: يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل.

---

[1] صحيح: أحمد (١/٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤١٢، ٤٦٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٥٨)وأول الحديث حتى قوله "ستمائة جناح" عند البخاري، كتاب بدء الخلق : ،حديث(٣٢٣٢) باب إذا قال أحدكم آمين ...،ومسلم ، كتاب الايمان : ،حديث(١٧٤، ٢٨٠)، باب في ذكر سدرة المنتهى.

من فوائد الحديث:

١. إثبات الإرادة لقوله: (إذا أراد الله) **وهي قسمان: شرعية وكونية.والفرق بينهما:**

أولا: من حيث المتعلق؛ فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله – عز وجل–، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية؛ فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه.

ثانيا: الفرق بينهما من حيث الحكم، أي حصول المراد؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، أما الكونية؛ فيلزم منها وقوع المراد. فقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُم﴾ (النساء: من الآية٢٧) هذه إرادة شرعية؛ لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضا متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة. وقوله ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ (هود: ٣٤) هذه كونية؛ لأن الله لا يريد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً؛ فقد يريده.

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ (النساء: من الآية٢٦) هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية؛ لأنه قال: ﴿ويتوب عليكم﴾ (النساء: ٢٦).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: من الآية١٨٥) هذه شرعية؛ لأن قوله: ﴿ولا يريد بكم العسر﴾ لا يمكن أن تكون كونية؛ إذ إن العسر يقع ولو كان الله لا يريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

٢. أن المخلوقات وإن كانت جماداً تحس بعظمة الخالق، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء: من الآية٤٤).

٣. إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: (ماذا قال ربكم)؟ ويجابون: قال(الحق)، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤. إثبات تعدد السماوات؛ لقوله (كلما مر بسماء).

٥. أن لكل سماء ملائكة متخصصين؛ لقوله: (سأله ملائكتها).

٦. فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة بن نوفل: (هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى) [1]، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

٧. أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله – عز وجل –؛ فيكون فيه رد على الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحي إلى علي فأوحى إلى a ﷺ، ويقولون: خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان يقول

[1] البخاري: كتاب بدء الوحي/باب بدء الوحي، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان / باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

في غزوة خيبر: أنا الذي سمتني أمي حيدرة [1].وفي هذا تناقض منهم؛ لأن وصفه بالأمانة يقتضي عدم الخيانة.

٨. إثبات العزة والجلال لله – ﷻ –؛ لقوله: (ﷻ)، والعزة بمعنى الغلبة والقوة، **وللعزيز ثلاثة معان:**

أ- عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.

ب- عزيز: بمعنى ذي قدر لا يشاركه فيه أحد.

ج- عزيز: بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم في النونية:

وهو العزيز فلن يرام جنابه   أنى يرام جناب ذي السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب   لم يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه   فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التي ليس فوقها عظمة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً ما تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله: (قال كذا وكذا).

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل.

---

[1] أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير/باب غزوة ذي قرد حديث (١٨٠٧).

السابعة: أن يقول لأهل السماوات كلهم، لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

الثالثة عشرة: إرسال الشهاب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟!.

التاسعة عشرة: كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغشي كانا خوفاً من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

(**ق**): فيها مسائل:

الأولى: تفسير الآية، أي قوله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم...﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها.

الثانية: ما فيه من الحجة على إبطال الشرك، وذلك أن الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم ﷻ؛ فكيف بالأصنام التي تعبد من دون ﷻ وهي أقل منهم بكثير؛ فكيف يتعلق الإنسان بها؟ !

ولذلك قيل: إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب؛ لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي؛ فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها؟! وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعله تحت القدر، والرابع - وهو أحسنها - يجعلها إلهاً له.

الثالثة: تفسير **قوله:** ﴿قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾، وسبق تفسيرها.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك، فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا؛ أي: يقول: قال الحق.

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل، لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل.

السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه، وفي هذا دليل على عظمته بينهم.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم، تؤخذ من قوله: (فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخروا لله سجداً).

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام ﷻ: (أخذت السماوات منه رجفة)؛ أي: لأجله تعظيماً لله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره، أي: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين، أي: الذين يسترقون ما يسمع في السماوات، فيلقونه على الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً، وصفها سفيان رحمه ﷻ بأن حرف يده وبدد بين أصابعه.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب، يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر: ١٨).

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل ان يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان، لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء؛ صار صادقاً.

اعتراض وجوابه:

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بـ ((قال)) الحق فقط؟

والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ.

أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها؛ فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مئة كذبة، أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.

وقوله: (مئة كذبة) هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء، وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص؛ فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به على الناس.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟! وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفه؛ فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة؛ فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان ولهذا لما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(البقرة: من الآية٢١٩)، تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة؛ فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها..الخ، الكلمة: هي الصدق؛ لأنها هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة: الأشعرية هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة؛ فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامتهم، وإلا؛ فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة؛ فهم معطلة اعتباراً بالأكثر؛ لأنهم لا يثبتون من الصفات إلا سبعاً، وصفاته تعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف؛ فمثلاً: الكلام عند أهل السنة أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف.

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزومه الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئته، وهذا الذي يسمع عبارة عن كلام اللَّهُ وليس كلام اللَّهُ، بل هو مخلوق؛ فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام اللَّهُ؛ لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، وحجتهم في إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم في إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلي:

١- أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها؛ فنثبتها بالدليل السمعي.

٢- أنها ثابتة بالدليل العقلي بنظير ما أثبتم هذه السبع؛ فمثلاً: الإرادة ثابته لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن اللَّهُ جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماء والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سُبْحَانَهُ يريد؛ إذ لولا الإرادة؛ لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لحظة على الخلق إلا وهم في نعمة من اللَّهُ؛ فهذه النعم العظيمة من اللَّهُ تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس؛ فالمؤلف رحمه اللَّهُ لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف في إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفاً من اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً، أي: تعظيماً لله وإتقاء لما يخشونه؛ فتفيد تعظيم اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ- كالتي قبلها.



باب الشفاعة

(ق): ذكر المؤلف رحمه الله الشفاعة في كتاب التوحيد، لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله -سبحانه وتعالى- فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذلك. وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له، لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء. ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك، فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذلك، فإنه لا يحتاج إلى شفعاء. والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجرأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولكن الله - عز وجل - كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته. ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله - سبحانه - في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ولكن يقصد بها أمران، هما:

١- إكرام الشافع.

٢- نفع المشفوع له.

والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ [الفجر: ٣].

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

مثال دفعة المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

(**تم**): وإيراد هذا الباب بعد البابين قبله مناسب جدا؛ ذلك أن الذين يسألون النبي -عليه الصلاة والسلام- ويستغيثون به ويطلبون منه، أو يسألون غيره من الأولياء، أو الأنبياء، إذا أقيْمت عليهم الحجة بما ذكر من توحيد الربوبية.

قالوا: نحن نعتقد ذلك، ولكن هؤلاء الشفعاء مقرَّبون عند الله معظَّمُون، قد رفعهم الله -جل وعلا- عنده، ولهم الجاه عند الرب جل وعلا، وإذا كانوا كذلك فهم يشفعون عند الله؛ فمن توجه إليهم أرضوه بالشفاعة، لأنهم ممن رفعهم الله؛ ولهذا يقبل شفاعاتهم.

فكأن الشيخ -رحمه الله- رأى حال المشركين، والخرافيين واستحضر حججهم، وهو كذلك؛ إذ هو أَخْبَرُ أهلِ هذه العصورِ المتأخرةِ بحجج المشركين، فلما استحضر ذلك عقد باب الشفاعة....

والشفاعة هي الدعاء، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء، فإذا قال قائل: استشفع برسول الله، فكأنه قال: أطلب من الرسول ﷺ أن يدعو لي عند الله، فالشفاعة طلب؛ فمن استشفع فقد طلب الشفاعة والخلاصة إن الشفاعة دعاء؛ وهي طلب الدعاء أيضا.

وقد سبق أن قررنا أن كل دليل ورد في الشرع على إبطال أن يُدْعَى مع الله -جل وعلا- إله آخر فإنه يصلح أن يكون دليلا على إبطال الاستشفاع بالموتى، الذين غابوا عن دار التكليف؛ لأن حقيقة الشافع كما تقدم آنفاً أنه طالب؛ ولأن حقيقة المستشفع أنه طالب أيضاً، فالشافع في ظن المستشفع يدعو، والمستشفع يدعو من أراد منه الشفاعة.

يعني: إذا أتى آت إلى قبر نبي أو قبر ولي أو نحو ذلك فقال: أستشفع بك، أو أسأل الشفاعة، فمعناه: أنه طلب منه ودعا أن يدعو له، فلهذا كان صرفها، أو التوجه بها إلى غير الله -جل وعلا- شركا أكبر؛ لأنها في الحقيقة دعوة لغير الله؛ وسؤال من هذا الميت وتوجه بالطلب والدعاء منه.

فإذا عرفت معنى الشفاعة وحكم طلبها من الأموات وأن ذلك شرك أكبر؛ فأعلم أن الأحياء الذين هم في دار التكليف يجوز طلب الشفاعة منهم.

بمعنى أن يطلب منهم الدعاء لكن قد يجاب دعاؤهم، وقد لا يجاب، وهذا كما هو حاصلٌ في شفاعة الناس بعضهم لبعض بالشفاعة الحسنة أو بالشفاعة السيئة. كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ (النساء: من الآية٨٥) وقال: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ (النساء: من الآية٨٥)، فهذا يحصل؛لكن من الأحياء لأنهم في دار تكليف ويقدرون على الإجابة، وقد أذن الله في طلب الشفاعة منهم ولهذا كان الصحابة في عهد النبي ﷺ ربما أتى بعضهم النبي -عليه الصلاة والسلام- وطلب أن يشفع له يعني: أن يدعو له.

فمسألة الشفاعة من المسائل التي تخفى على كثيرين؛ بما في ذلك بعض أهل العلم ولذا وقع بعضهم في أغلاط في مسألة طلب الشفاعة من النبي -عليه الصلاة والسلام- فأوردوا قصصا في كتبهم فيها استشفاع بالنبي -عليه الصلاة والسلام- دون إنكار، كما فعل النووي وابن قدامة في المغني وغيرهما. وهذا لا يعد خلافا في المسألة؛ لأن هذا الخلاف راجع إلى عدم فهم حقيقة هذا الأمر.

ومسألة الشفاعة مسألة فيها خفاء؛ ولهذا يقول بعض أهل العلم من أئمة الدعوة -رحمهم الله-: إن إقامة الحجة في مسائل التوحيد تختلف بحسب قوة الشبهة، فأقل الشبهات ورودا، وأيسر الحجج قدوما على المخالف هو فيما يتعلق بأصل دعوة غير الله معه، وبالاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، ونحو ذلك.

ومن أكثرها اشتباها إلا على المحقق من أهل العلم مسألة الشفاعة ولهذا فإن الشيخ -رحمه الله- أتى بهذا الباب، وقال: باب الشفاعة، وبيَّن لك بما ساق من الأدلة من الكتاب والسنة أن الشفاعة التي تنفع لا تصح إلا بشروط، وكذلك فإن هناك شفاعة منفية فليست كل شفاعة مقبولة، بل منها ما يقبل ومنها ما لا يقبل، فالمقبول منها له شروط وضوابط والمردود منها فلقيام أوصاف توجب ردها فالحاصل أن الشفاعة الواردة في القرآن والسنة قسمان، شفاعة منفية وشفاعة مثبتة، فالشفاعة المنفية هي التي نفاها الله -جل وعلا- عن أهل الإشراك، وأول الأدلة التي ساقها الشيخ رحمه الله في بيان هذه المسألة.

وقول الله ﷻ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ٥١).

(**ق**): الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وأنذر به﴾، الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أما مجرد الخبر، فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

(**ف**): **قوله:** ﴿به﴾ قال ابن عباس " بالقرآن "

(**ق**): والضمير في ﴿به﴾ يعود للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ [الأعراف: ٢].

(**ف**): الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم " وهم المؤمنون وعن الفضيل بن عياض ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: " وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم " وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية.

(**ق**): **وقوله:** ﴿يخافون أن يحشروا﴾، أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر. والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء، فمعنى يحشرون، أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

(**تم**): فقوله هنا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ (الأنعام: من الآية٥١)يعني: أن الشفيع في الحقيقة هو الله -ﷻ- دونما سواه.

ولهذا أعقبها بالآية الأخرى فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ (الزمر: من الآية٤٤) فالشفاعة جميعا ملك لله، وأهل الإيمان وغيرهم في الحقيقة ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع، فليس من أحد يشفع لهم من دون الله -جل وعلا- بل لا بد أن تكون الشفاعة بالله يعني: بإذنه وبرضاه.

فإذا تقرر ذلك وان الشفاعة منفية عن أحد سوى الله -تعالى- لأنه هو الذي يملك الشفاعة وحده: بطل تعلق قلوب المشركين الذين يسألون الموتى الشفاعة، بمسألة الشفاعة لأن الشفاعة ملك لله، وهذا المدعو لا يملكها.

لكن هل تنفع الشفاعة مطلقا أم لا بد لها أيضا من قيود؟! نعم، الشفاعة تنفع لكن لا بد لها من شروط؛ ولهذا أورد الآيتين بعدها.

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ (الزمر: من الآية٤٤)

(**ق**): الآية الثانية قوله تعالى: ﴿لله الشفاعة﴾، مبتدأ وخبر، وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته، فأفادت الآية في قوله: ﴿جميعاً﴾ أن هناك أنواعاً للشفاعة. وقد قسم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة **إلى قسمين رئيسيين، هما:**

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ، **وهي أنواع:**

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله، فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر، فيذكرون من أوصافه التي ميزه الله بها: أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، فيقولون: اشفع لنا عند ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! فيعتذر لأنه عصى الله بأكله من الشجرة، ومعلوم أن الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه، فإنه لا يشفع لخجله من ذلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى ۝ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، لكن لقوة حيائه من الله اعتذر. ثم يذهبون إلى نوح، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ [هود: ٤٥]. ثم يذهبون إلى إبراهيم عليه السلام، فيذكرون من صفاته، ثم يعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات، لكنها حق حسب مراده، ثم يذهبون إلى موسى عليه السلام فيذكرون أوصافه ما يقتضي أن يشفع، لكنه يعتذر بقتل القبطي حين استغاثه الإسرائيلي، فوكز موسى القبطي فقتله فقضى عليه، ثم يذهبون إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، فلا يعتذر بشيء، لكن يحيل إلى

من هو أعلى مقاماً، فيقول: اذهبوا إلى a، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيحيلـــهم إلى a ﷺ دون أن يذكر عذراً يحول بينه وبين الشفاعة[1]، فيأتون محمداً ﷺ، فيشفع إلى ﷻ ليريح أهل الموقف.

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها[2]، لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجـــدوها مغلقـــة، فيطلبون من يشفع له، فيشفع النبي ﷺ إلى ﷻ في فتح أبواب الجنة لأهلها، ويشير إلى ذلك قوله تعـــالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾ [الزمر: ٧٣]، فقال: ﴿وفتحت﴾، فهنـــاك شـــيء محـــذوف، أي: وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أما النار، فقال فيها: ﴿حـــتى إذا جاؤوهـــا فتحـــت أبوابها...﴾ الآية.

الثالث: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب[3]، وهذه مستثناة من قوله تعـــالى: ﴿فمـــا تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن لـــه الـــرحمن ورضي له قولاً﴾ [طه: ١٠٩]، وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لكن خفف عنه حتى صار - والعياذ بالله - في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منـــهما دماغه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ لا أحد يشفع في كافر أبداً إلا النبي ﷺ، ومع ذلك لم تقبـــل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين. وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: "ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفعهم ﷻ فيه"[4]، فإن هـــذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم ﷻ في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمع عليها الصحابة، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين، وهما: المعتزلة والخوارج، فإنهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصـــي مطلقاً لأنهم يرون أن فاعل الكبيرة مخلد في النار، ومن استحق الخلود، فلا تنفع فيـــه الشـــفاعة، فهـــم ينكرون أن النبي ﷺ أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخولها أن يخرجوا منـــها، لكن قولهم هذا باطل بالنص والإجماع.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير /باب (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبد شكورا) حديث (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان /باب أدنى أهل الجنة منزلة حديث (١٩٣).

[2] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قول النبي ﷺ "أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً"، حديث (١٩٦).

[3] البخاري: كتاب: مناقب الأنصار/ باب قصة أبي طالب، حديث (٣٨٨٣) ومسلم: في كتاب الإيمان / باب شـــفاعة الـــنبي ﷺ لأبي طالـــب والتخفيف عنه بسببه، (٢٠٩).

[4] مسلم: كتاب الجنائز / باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه حديث (٩٤٨).

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال ﷺ في أبي سلمة: "اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه"[1]، والدعاء شفاعة، كما قال ﷺ: "ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفعهم الله فيه".

إشكال وجوابه: فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذن وزيادة. وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبوديهم، فهي شفاعة باطلة لأن الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

إذا قوله: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾ تفيد أن الشفاعة متعددة كما سبق.

وقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٥)

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

﴿من﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.

﴿ذا﴾: هل تجعل ذا اسماً موصولاً كما قال ابن مالك في "الألفية"، أو لا تصح أن تكون اسماً موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول ﴿الذي﴾؟ الثاني هو الأقرب، وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون ﴿الذي﴾ توكيداً لها.

والصحيح أن ﴿ذا﴾ هنا إما مركبة مع ﴿من﴾، أو زائدة للتوكيد، وأياً كان الإعراب، فالمعنى: إنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله. وسبق أن النفي إذا جاء في سياق الاستفهام، فإنه يكون مضمناً معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به.

قوله: ﴿عنده﴾، ظرف مكان، وهو سبحانه في العلو، فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقرباً، كالملائكة المقربين، إلا بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلا بعد الرضا. وأفادت الآية: أنه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلما كمل سلطان الملك، فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير إلا بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانة له ودليلاً على أنه ليس كبيراً في نفوس من عنده،

---

[1] مسلم: كتاب الجنائز /باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، حديث (٩٢٠).

كان الصحابة مع الرسول ﷺ كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلا إذا فتح الكلام، فإنهم يتكلمون.

(**ف**): قال 'ابن جرير ': نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلى ليقربونا إلى الله زلفى قال الله تعالى: " له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ".

قال: وقوله ' ٢: ٢٥٥ ' " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله. وفي هذه الآية بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى: ' ٢٠: ١٠٩ ' " يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا "

فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين:

- ✓ إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع.
- ✓ ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه.

وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه.

(**تم**): ووجه الاستدلال من الآية ...أنه قيد الإذن فيها؛ فليس لأحد أن يشفع إلا بشرط أن يأذن الله له فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه؛ فلا الملائكة ولا الأنبياء، ولا المقربون، يملكون شيئاً من الشفاعات، وإنما الله -جل وعلا- هو الذي يملك الشفاعة.

فإذا كان كذلك وأنه لا بد من إذنه -جل وعلا- فمن الذين يأذن الله -جل وعلا- لهم؟ لــيُعْلمْ أولاً: أن لا أحد يبتدئ بالشفاعة دون أن يأذَن الله له بها، فإذا كان ذلك كذلك، رجع الأمر إلى أن الله هو الذي يوفق للشفاعة، وهو الذي يأذن بها، فلا أحد يبتدئ بها.

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾

(النجم: ٢٦)

(**ق**): الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وكم من ملك﴾. ﴿كم﴾ خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا بعد إذن الله ورضاه.

(**ف**): **وقوله:** ' ٥٣: ٢٦ ' " وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى " قال ابن كثير رحمه الله " وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى " كقوله " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " " ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له " فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون

شفاعة هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟.

(ق): وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨]، أي: العلامات الدالة عليه ﷻ، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم.

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، وهذا استفهام للتحقير، فبعد أن ذكر الله هذه العظمة قال: أخبروني عن هذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهذا غاية في التحقير، ثم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ۝تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى۝ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ۝أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى۝ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى۝ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً....﴾ الآية [النجم: ٢١-٢٦].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه، فكيف باللات والعزى وهي في الأرض؟!

ولهذا قال: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾، مع أن الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض، ولكن أراد الملائكة التي في السماوات العلى، وهي عند الله - سبحانه -، فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

(تم): ووجه الدلالة من هذه الآية: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النجم: من الآية٢٦) يعني من الشافعين ﴿وَيَرْضَى﴾ (النجم: من الآية٢٦) أي يرضى قول الشافع، ويرضى أيضا عن المشفوع له.

ففائدة هذه الشروط -وهي الفائدة المراد تقريرها في هذا الباب- أن لا يتعلق أحد بمن يظن أو يعتقد أن له عند الله مقاما وأنه يشفع له عند الله كما يعتقد ذلك أهل الشرك في آلهتهم حيث يزعمون أن من توجهوا إليهم بالشفاعة يملكون ذلك، جزماً فمتى توجه إليهم المطالب وتذلل لهم، وتقرب إليهم بالعبادات ثم طلب منهم الشفاعة عند الله، فإنهم يشفعون جزما، وأن الله -ﷻ- لا يرد شفاعتهم.

فهذه الآيات فيها إبطال لدعوى أولئك المشركين واعتقادهم أن أحداً يملك الشفاعة بدون إذن الله وبدون رضاه عن المشفوع وإذا ثبت أنه لا أحد يملكها، وأن من يشفع إنما يشفع بإكرام الله له، وبإذنه -جل وعلا- له، فكيف يتعلق المتعلق بهذا المخلوق؟ بل الواجب أن يتعلق بالذي يملك الشفاعة.

وإذا كان من المتقرر شرعاً أن شفاعة النبي –عليه الصلاة والسلام– حاصلة يوم القيامة فهل يصح طلبها منه؟

الجواب: أن طلبها إنما هو من الله – تعالى–، فتقول في ذلك: اللهم شَفِّعْ فينا نبيك؛ لأنه – تعالى– هو الذي يفتح ويلهم النبي–عليه الصلاة والسلام– أن يشفع في فلان، وفي فلان، فيمن سألوا الله أن يشفع لهم النبي –عليه الصلاة والسلام–.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ۝وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (سبأ: ٢٢– ٢٣).

(**ق**): الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿قل ادعوا﴾. الأمر في قوله: ﴿ادعوا﴾ للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ادعوا﴾ يحتمل معنيين، هما:

١– أحضروهم.

٢– أدعوهم دعاء مسألة.

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم، كما قال تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ [فاطر: ١٤]. يكفرون: يتبرءون، ومع هذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس يشرك بالله ويستنجد بغير الله، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿لا يملكون مثقال ذرة﴾، واحدة الذر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلة.

قوله: ﴿مثقال ذرة﴾، وكذلك ما دون الذرة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلة أو كثرة، فلا مفهوم له، فالمراد الحكم العام، فمثلاً قوله تعالى: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ [التوبة: ٨٠]، أي: مهما بالغت في الاستغفار.

ولا يرد على هذا أن الله أثبت ملكاً للإنسان، لأن ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿ما لهم فيهما من شرك﴾، أي: ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله. ﴿فيهما﴾، أي: في السماوات والأرض.

﴿من شرك﴾، أي: مشاركة، أي لا يملكونه انفراداً ولا مشاركة.

وقوله: ﴿من شرك﴾: مبتدأ مؤخر دخلت عليه ﴿من﴾ الزائدة لفظاً، لكنها للتوكيد معنى. وكل زيادة لفظية في القرآن فهي زيادة في المعنى. وأتت ﴿من﴾ للمبالغة في النفي، وأنه ليس هناك شرك لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وما له منهم من ظهير﴾، الضمير في ﴿ما له﴾ يعود إلى الله تعالى. وفي ﴿منهم﴾ يعود إلى الأصنام، أي: ما لله تعالى من هذه الأصنام ظهير. و﴿من﴾: حرف جر زائد، و﴿ظهير﴾: مبتدأ مؤخر بمعنى معين، كما قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، أي: معيناً، وقال تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ [التحريم: ٤]، أي: معين. أي: ليس لله معين في أفعاله، وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون، فهي لا تملك شيئاً على سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة، لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منه عليك، فربما تحابيه في إعطائه ما يريد.

فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لم يبق إلا الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ: ٢٣]، فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء، لأن هذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام، لأنها لا تنفع عابديها لا استقلالاً ولا مشاركة ولا مساعدة ولا شفاعة، فتكون عبادتها باطلة، قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ [الأحقاف: ٥]، حتى ولو كان المدعو عاقلاً، لقوله: ﴿من﴾، ولم يقل: "ما"، ثم قال تعالى: ﴿وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وكل هذه الآيات تدل على أنه يجب على الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادة وخوفاً ورجاء واستعانة ومحبة وتعظيماً، حتى يكون عبداً لله حقيقة، يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله، لأنه مخلوق للعبادة فقط، قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أي: لا نأمركم ولا ننهاكم، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح، لكان ذلك عين العبث، ولكن هناك شيء وراء ذلك، وهو عبادة الله سبحانه في هذه الدنيا.

وقوله: ﴿إلينا لا ترجعون﴾، أي: وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون، فنجازيكم إذا كان هذا هو حسبانكم، فهو حسبان باطل.

(**ف**): **قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات**: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة

من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده. فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً، متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه. فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونها في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله، إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه – أي الشرك – طلب الحوائج من الموتى والإستغاثة بهم، وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذا ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، وما نجى من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله وبالله ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره هذا الإمام في معنى الآية هو حقيقة دين الإسلام، كما قال تعالى: ' ٤: ١٢٥ ' " ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ".

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(**ق**): **قوله:** "قال أبو عباس"، هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله يكنى بذلك، و لم يتزوج، لأنه كان مشغولاً بالعلم والجهاد، وليس زاهداً في السنة، مات سنة ٧٢٨هـ، وله ٦٧ سنة و ١٠ أشهر.

قوله: "لغيره ملك"، أي: لغير الله في قوله: ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾.

قوله: "أو قسط منه" في قوله: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾.

قوله: "أو يكون عوناً لله" في قوله تعالى: ﴿وما له منهم من ظهير﴾ بدون استثناء.

قوله: "و لم يبق إلا الشفاعة"، فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، وقال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإن هؤلاء يقدسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذاً، فكيف تتعلقون بهم؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين.

والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليس استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة الله، فهذه جاهلية وكفر.

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ: "أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده – لا يبدأ بالشفاعة أولاً – ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع"[1].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن، فالله – سبحانه وتعالى – نفى أن تنفعهم أصنامهم، بل قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ [الأنبياء: ٩٨/٩٩]، حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها، فكيف تكون شافعة؟! بل هي في النار وعابدوها.

قوله: "وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه"، أي: وكما أخبر، فالواو عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية، فإذا كان الرسول ﷺ وهو أعظم الناس جاهاً عند الله لا يشفع إلا بعد أن يحمد الله ويثني عليه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يعلمها من قبل، ويطول سجوده، فكيف بهذه الأصنام هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: "ارفع رأسك"، أي: من السجود.

قوله: "وقل يسمع"، السامع هو الله، و"يسمع": جواب الأمر مجزوم.

قوله: "وسل تعط"، أي: سل ما بدا لك تعط إياه، وتعط: مجزوم بحذف حرف العلة جواباً لسل.

قوله "واشفع تشفع" وحينئذ يشفع النبي ﷺ في الخلائق أن يقضي بينهم.

[1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء / باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ﴾ (نوح: من الآية١) حديث (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، حديث (١٩٣).

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: (من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه) فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه.

(**ف**): **قوله:** وقال أبو هريرة إلى آخره. هذا الحديث[1] رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه " وشفاعتي لمن قال لا إله إلى الله مخلصاً، يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه" وشاهده في صحيح مسلم[2] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة.فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً ".

(**ق**): هذا السؤال من أبي هريرة للنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم"، وفي هذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

قوله: "من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"، وعليه، فالمشركون ليس لهم حظ من الشفاعة لأنهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: ٥]. الحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالى: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ [الصافات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ [الرعد: ٥].

وقوله: "خالصاً من قلبه" خرج بذلك من قالها نفاقاً، فإنه لا حظ له في الشفاعة، فإن المنافق يقول: لا إله إلا الله، ويقول: أشهد أن محمداً رسول الله، لكن الله – عز وجل – قابل شهادتهم هذه بشهادته على كذبهم، قال تعالى: ﴿والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون: ١]، أي: في

[1] البخاري، كتاب العلم: ،حديث(٩٩)، باب الحرص على الحديث، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف(٤٨٣/٩) وأحمد (/٣٠٧، ٥١٨) وابن حبان(٢٥٩٤).

[2] مسلم ، كتاب الايمان : حديث(١٩٩)(٣٣٨): باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاء لأمته.

شهادتهم، في قولهم: إنك لرسول الله، فهم كاذبون في شهادتهم وفي قولهم: لا إله إلا الله، لأنهم لو شهدوا بذلك حقاً ما نافقوا ولا أبطنوا الكفر.

قوله: "خالصاً"، أي: سالماً من كل شوب، فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

قوله: "من قبله"، لأن المدار على القلب، وهو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال الله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾، وقال ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله"[١].

وبهذا يبطل قول من قال: إن العقل في الدماغ، ولا ينكر أن للدماغ تأثيراً في الفهم والعقل، لكن العقل في القلب، ولهذا قال الإمام أحمد: "العقل في القلب، وله اتصال في الدماغ".

ومن قال كلمة الإخلاص خالصاً من قلبه، فلا بد أن يطلب هذا المعبود بسلوك الطرق الموصلة إليه، فيقوم بأمر الله ويدع نهيه.

قوله: "فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص"، لأن من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾.

قوله: "وحقيقته أن الله – سبحانه – هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع".

وحقيقته، أي: حقيقة أمر الشفاعة، أي الفائدة منها: أن الله – عز وجل – أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة. والحكمة من هذه الواسطة بينها بقوله: "ليكرمه وينال المقام المحمود"، ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولكنه أراد بيان فضل هذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أن من قبل الله شفاعته، فهو عنده بمنزلة عالية، فيكون في هذا إكرام للشافع **من وجهين:**

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته.

الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالى.

قوله: "المقام المحمود"، أي: المقام الذي يحمد عليه وأعظم الناس في ذلك رسول الله ﷺ، فإن الله وعده أن يبعثه مقاماً محموداً، ومن المقام المحمود: أن الله يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها.

ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة، فله مقام يحمد عليه على قدر شفاعته..

---

[١] البخاري: كتاب الأيمان / باب: فضل من استبرأ لدينه، حديث (٥٢) صفة الجنة والنار، ومسلم: كتاب المساقاة / باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث (١٥٩٩).

قوله "فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك"، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
"ما"، اسم موصول، أي: التي كان فيها شرك.

قوله: "وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع"، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: "وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد". أما أهل الشرك، فإن الشفاعة لا تكون لهم، لأن شفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة. وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد، أن الشفاعة الشركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

(**ف**): **وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة**: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم و لم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله، كما قال في الفصل الأول ' ٢: ٢٥٥ ' " من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه " وفي الفصل الثاني ' ٢١: ٢٨ ' " ولا يشفعون إلا لمن ارتضى " وبقى فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ووعاها. أ.هـ.

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة **ستة أنواع**:

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: (أنا لها)[1] وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

---

[1] جزء من حديث أنس الطويل في الشفاعة العظمى. رواه البخاري، كتاب التوحيد: ،حديث(٧٥١٠)، مسلم، كتاب الايمان : حديث(١٩٣)(٣٢٦)،باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكرها، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيهـــا أحـــد. وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً، كما قال تعالى: ' ٦: ٥١ ' " وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ".

السادس: شفاعته في بعض أهل الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً، بل يسجد، فإذا أذن الله له شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها ؟.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات، وهي خمس، وسبق تفسيرها في محالها.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية، وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك، فإنها منفية.

الثالثة: صفة الشفاعة، المثبتة وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضـــاه عـــن الشـــافع والمشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود، وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، وقول الشيخ:

"وهي المقام المحمود"، أي: منه.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له، شفع، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

السادسة: من أسعد الناس بها؟ هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه.

ولا إله إلا الله معناها: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لا معبود إلا الله، لأنه لو كان كذلك، لكان الواقع يكذب هذا، إذ إن هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمى آلهة، ولكنها باطلة، وحينئذ يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفياً وإثباتاً، هذا هو التوحيد، لأن الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، والنفي المجرد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله معناه عطلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وحدت، لأن مثل هذه الصيغة لا تمنع المشاركة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ [البقرة: ١٦٣] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله، لقوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر: ٤٨]، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: "خالصاً من قلبه".

الثامنة: بيان حقيقتها، وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.



باب قول الله تعالى:

﴿إنك لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

(القصص: ٥٦)

(**تم**): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن الهداية من أعز المطالب، وأعظم ما تعلق به المتعلقون بغير الله أن يحصل لهم النفع الدنيوي والأخروي من الذين توجهوا إليهم، واستشفعوا بهم، ولما كان النبي ﷺ وهو أفضل الخلق، وسيد ولد آدم، قد نفى الله عنه أن يملك الهداية، وهي نوع من أنواع المنافع، دل ذلك على أنه عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء، كما جاء في ما سبق في باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف: ١٩١) في سبب نزول قول الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: من الآية١٢٨).

فإذا كان النبي –عليه الصلاة والسلام– ليس له من الأمر شيء، ولا يستطيع أن ينفع قرابته كما جاء في قوله: (يا فاطمة بنت a سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا) [1].

أقول: إذا كان هذا في حق المصطفى ﷺ وأنه لا يغني من الله –جل وعلا– عن أحبابه شيئا، وعن أقاربه شيئا، ولا يملك شيئا من الأمر، وليست بيده هداية التوفيق، فإنه أن ينتفي ذلك، وما دونه عن غير النبي ﷺ من باب أولى.

فبطل إذن كل تعلق للمشركين من هذه الأمة بغير الله –جل وعلا– لأن كل من تعلقوا به هو دون النبي –عليه الصلاة والسلام– بالإجماع، فإذا كانت هذه حال النبي –عليه الصلاة والسلام– وقد نفى الله عنه ملك هذه الأمور، فإن نفي ذلك عن غيره من باب أولى.

(**ق**): قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)، الخطاب للنبي ﷺ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب أو من هو أعم.

فأنت يا a المخاطب بكاف الخطاب، ولك المترلة الرفيعة عند الله لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، ومعلوم أنه إذا أحب هدايته؛ فسوف يحرص عليه، ومع ذلك لا يتمكن من هذا الأمر؛ لأن الأمر كله بيد الله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾(آل عمران: من الآية١٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾(هود: من الآية١٢٣)؛

---

[1] أخرجه البخاري (٤٧٧٠)ومسلم (٢٠٨).

فأتى بـ ﴿أل﴾ الدالة على الاستغراق؛ لأن ﴿أل﴾ في قوله؛ ﴿الأمر﴾ للاستغراق؛ فهي نائبة مناب كل؛ أي: وإليه يرجع كل الأمر، ثم جاءت مؤكدة بكل، وذلك توكيدان.

(**تم**): "لا" هنا نافية، وقوله: "تهدي" الهداية المنفية هنا هي هداية التوفيق والإلهام الخاص، والإعانة الخاصة، وهي التي يسميها العلماء هداية التوفيق والإلهام.

ومعناها أن الله -جل وعلا- يجعل في قلب العبد من الإعانة الخاصة على قبول الهدى، ما لا يجعله لغيره، فالتوفيق إعانة خاصة لمن أراد الله توفيقه.

بحيث يقبل الهدى، ويسعى فيه، فَجَعْلُ هذا في القلوب ليس إلى النبي ﷺ إذ القلوب بيد الله، يقلبها كيف يشاء، حتى إن أحب الناس إليه لا يستطيع عليه الصلاة والسلام أن يجعله مسلما مهتديا، وقد كان أبو طالب من انفع قرابة النبي ﷺ له ومع ذلك لم يستطع أن يهديه هداية توفيق، فالمنفى هنا في قوله: ﴿تَهْدِي﴾ هي هداية التوفيق.

(**ق**): فنحن علينا أن نبين وندعو، وأما هداية التوفيق(أي الإنسان يهتدي)؛ فهذا إلى الله - سبحانه وتعالى -، وهذا هو الجمع بين الآيتين.

وقوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ ظاهره أن النبي ﷺ يحب أبا طالب؛ **فكيف يؤول ذلك؟**

والجواب: إما أن يقال: إنه على تقدير أن المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو.

أو يقال: إنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافراً.

أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.

والأول أقرب؛ أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، لا ينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أحب أن يهتدي هذا الإنسان وإن كنت أبغضه شخصياً لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين الله.

(**تم**): **والنوع الثاني من الهداية المتعلقة بالمكلف: هي** هداية الدلالة والإرشاد، وهذه ثابتة للنبي ﷺ بخصوصه، ولكل داع إلى الله، ولكل نبي ورسول قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: من الآية٧) وقال جل وعلا في نبيه -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ (الشورى: من الآية٥٢-٥٣) ومعنى ﴿لتهدي﴾: أي لتدل وترشد إلى صراط مستقيم بأبلغ أنواع الدلالة، وأبلغ أنواع الإرشاد، المؤيدين بالمعجزات والبراهين، الدالة على صدق ذلك الهادي، وصدق ذلك المرشد.

فالهداية المنتفية إذاً هي هداية التوفيق. وهذا يعني أن النفع وطلب النفع في هذه المطالب المهمة يجب أن يكون من الله -جل وعلا- وأن محمدا -عليه الصلاة والسلام- مع عِظَم شأنه عند ربه، وعظم مقامه عند ربه، وأنه سيد ولد آدم، وأفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، وأشرف الأنبياء والمرسلين إلا أنه لا يملك من الأمر شيئا، عليه الصلاة والسلام.

فبطل إذاً تعلق القلوب في المطالب المهمة كالهداية، والمغفرة، وطلب الرضوان، وطلب دفع الشرور، وفي جلب الخيرات إلا بالله -جل وعلا- فإنه هو الذي يجب أن تتعلق القلوب به -جل وعلا- خضوعا وإنابة ورغبا، ورهبا وإقبالا عليه، وإعراضا عما سواه سبحانه وتعالى.

(ف): قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى لرسوله: إنك يا a لا تهدي من أحببت، أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء. وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ' ٢: ٢٧٢ ' " ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء " وقال تعالى: ' ١٢: ١٠٣ ' " وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ".

وفي (الصحيح) عن ابن المسيب عن أبيه قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله) فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله ﷻ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى....﴾ الآية[التوبة: ١١٣]. وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] [1].

قوله: في الصحيح أي في الصحيحين. وابن المسيب هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل. وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين.

---

[1] البخاري: كتاب التفسير / باب (إنك لا تهدي من أحببت)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب الدليل على صحة إسلامه من حضره الموت.

وأبوه المسيب صحابي، بقى إلى خلافة عثمان ﷺ، وكذلك جده حزن، صحابي استشهد باليمامة.

قوله: (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي علاماتها ومقدماتها.

(**ق**): **قوله:** (أبا) بالألف: مفعول به منصوب بالألف؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و(الوفاة) يعني: الموت، فاعل حضرت.

(**ف**): **قوله:** جاء رسول الله ﷺ يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضاً مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران.

(**ق**): **قوله:** (ياعم) فيها وجهان.

يا عم؛ بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء.

أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف؛ لأن العم صنو الأب؛ أي: كالغصن معه.

والصنو: الغصن الذي أصله واحد؛ فكأنه معه كالغصن

ويا عم؛ بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: (قل: لا إله إلا الله) يجوز أنه قال على سبيل الأمر والإلزام؛ لأنه يجب أن يأمر كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله.

ويجوز أنه قاله على سبيل الترجي والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر بالإنكار.

(**ف**): لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفى الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها عن علم ويقين فقد بريء من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام. لأنهم يعلمون ما دلت عليه، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبريء منه. ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها، لكن لا يعتقدونها، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن، وفيها اليهود، وقد أقرهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور في كتب الحديث والسير.

(**ق**): **قوله:** (كلمة)، منصوبة؛ لأنها بدل لا إله إلا الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع؛ أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

(**ف**): قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من لا إله إلى الله ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

(**ق**): **قوله:** (أحاج)، بضم الجيم وفتحها: فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جواباً للأمر: (قل)؛ أي: قل أحاج.

وقال بعض المعربين: إنها جواب لشرط مقدر؛ أي: إن تقل أحاج، وبعضهم يرى أنها جواب للأمر مباشرة، وهذا والأول أسهل؛ لأن الأصل عدم التقدير.

والمعنى: أذكرها حجة لك عند الله، وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله، وإن كان بعض أهل العلم قال: إن معناها أجادل الله بها، ولكن الذي يظهر لي أن المعنى: أحاج لك بها عند الله؛ أي: أذكرها حجة لك كما جاء في بعض الروايات: (أشهد لك بها عند الله) [1].

(**ف**): وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات لنفعته.

(**ق**): **قوله:** فقالا له: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟)، القائلان هما: عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه؛ لأنهما عرفا انه إذا قالها – أي كلمة الإخلاص – وحد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته، وهي ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبدالله بن أبي أمية والمسيب الذي روى الحديث، فأسلما؛ فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضي الله عنهما.

قوله: (ملة عبد المطلب)، أي: دين عبد المطلب.

قوله: (فأعاد عليه النبي ﷺ)، أي: قوله قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: (فأعادا عليه)، أي قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب.

(**ف**): ذكراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى: ' ٢٠: ٥١ ' " فما بال القرون الأولى " وكقوله تعالى: ' ٤٣: ٢٣ ' " وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ".

قوله: فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا فيه معرفتهما لمعنى لا إله إلا الله لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبريء من ملة عبد المطلب. فإن ملة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته. وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم. وقد قال عبد المطلب لأبرهة: أنا رب الإبل، والبيت له رب يمنعه منك وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه: قل لا إله إلا الله استكباراً عن العمل بمدلولها. كما قال الله تعالى عنهما وعن

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت (لا إلهَ إلاّ الله)، حديث (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان/باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، حديث (٢٤).

أمثالهما من أولئك المشركين: ' ٣٧: ٣٥، ٣٦ ' " إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون " فرد عليهم بقوله: ' ٣٧: ٣٧ ' " بل جاء بالحق وصدق المرسلين " فبين تعالى أن استكبارهم عن قول لا إله إلا الله لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة.

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيئ، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: فكان آخر ما قال الأحسن فيه الرفع على أنه اسم كان وجملة هو وما بعدها الخبر.

قوله: هو على ملة عبد المطلب الظاهر أن أبا طالب قال: أنا فغيره الراوي استقباحاً للفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ.

قوله: وأبى أن يقول لا إله إلا الله قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قال المصنف رحمه الله: وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف.

أي إذا زاد على المشروع، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك.

(**تتم**): في هذا القدر من الحديث فائدة وهي: أن هذه الكلمة (لا إله إلا الله) ليست كلمة مجردة عن المعنى، تنفع من قالها، ولو لم يقر بمعناها، والعرب كانوا لصلابتهم وعزمهم ورجولتهم ومعرفتهم بما يقولون، إذا تكلموا بكلام أو خوطبوا بكلام يَعُونَ كل حرف، وكل كلمة، خوطبوا به أو نطقوا بها ولذلك، لما قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله، مع أنها كلمة يسيرة، أَبَوْا؛ لأنهم يعلمون أن هذه الكلمة معناها إبطال إلهة من سوى الله -جل وعلا- ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ۞ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات (الصافات: ٣٥-٣٧).

وكذلك قول الله -جل وعلا- مخبرا عن قولهم في أول سورة "ص": ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ (صّ:٥) استنكروا قول: (لا إله إلا الله)، وهذا هو الذي حصل مع أبي طالب لما قال له النبي ﷺ (قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله).

فلو كانت كلمة مجردة من المعنى عندهم، أو يمكن أن يقولها المرء دون اعتقاد ما فيها، ورضىً بما فيها، ويقين وانتفاء الريب، لقالها، ولكن ليس هذا هو المقصود من قول: (لا إله إلا الله)؛ بل المقصود هو: قولها مع تمام اليقين بها، وانتفاء الريب، والعلم، والمحبة إلى آخر الشروط المعروفة.

(**ق**): **قوله:** (فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ... إلخ) جملة (لأستغفرن لك) مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأن النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق، حيث قال: (ما لم أنه عنك)؛ فوقع الأمر كما توقع ونهى عنه.

قوله: (ما لم أنه عنك)، فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

(**ف**): قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبي طالب.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً.

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

(**ق**): قوله (ما كان)، ما: نافية، وكان فعل ماض ناقص.

(**تم**): فائدة: كلمة (ما كان) في الكتاب والسنة تأتي **على استعمالين**:

الاستعمال الأول: النهي.

والاستعمال الثاني: النفي.

فالنهي مثل هذه الآية وهي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: من الآية١١٣) فهذا نهي عن الاستغفار لهم، وكذلك قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ (التوبة: من الآية١٢٢)، والنفي كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (القصص: من الآية٥٩) ونحو ذلك من الآيات فإذاً عرفنا أن كلمة (ما كان) تأتي في القرآن على هذين المعنيين، فالمراد بها -هنا- النهي، أي النهي عن الاستغفار لأحد من المشركين. فإذا كان الله ﷻ نهى الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم من أهل الصلاح -في حال حياتهم- عن الاستغفار لهؤلاء المشركين فهذا يدل: أنه لو فرض أنهم يقدرون على الاستغفار في حال حياتهم البرزخية، فإنهم لن يستغفروا للمشركين، ولن يسألوا الله لمن

توجه إليهم -حال موتهم- لطلب الاستشفاع أو لطلب الاغاثة، أو غيرها من العبادات، وأنواع التوجهات، والله أعلم.

(ق): **قوله:** ﴿أن يستغفروا﴾، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿للنبي﴾، خبر مقدم؛ أي: ما كان استغفاره.

واعلم أن ما كان أو ما ينبغي أو لا ينبغي ونحوها إذا جاءت في القرآن والحديث؛ فالمراد أن ذلك ممتنع غاية الامتناع؛ كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ (مريم: من الآية٣٥)، وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ (مريم: ٩٢)، وقوله: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ (يّس: من الآية٤٠)، وقوله ﷺ: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام)[1].

وقوله: ﴿أن يستغفروا﴾؛ أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾، أي: حتى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي ﷺ، ومر بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له؛ فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة[2].

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين؛ لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا للمغفرة لأنك إذا دعوت الله أن يفعل ما لا يليق؛ فهو اعتداء في الدعاء.

قوله: (وأنزل الله في أبي طالب)، أي: في شأنه.

قوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، الخطاب للرسول ﷺ، أي لا توفق من أحببت للهداية.

قوله: ﴿يهدي من يشاء﴾، أي يهدي هداية التوفيق من يشاء. واعلم أن كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى؛ فهو مقرون بالحكمة؛ أي: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدي، ومن اقتضت حكمته أن يضله أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره؛ فالذين يلجئون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياما عظيما، ناصره وآزره في دعوته؛ فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

(ف): وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسبابا أخر فلا منافاة لأن أسباب النزول قد تتعدد.

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان / باب في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا ينام)، حديث (١٧٩).

[2] مسلم: كتاب الجنائز / باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ زيارة قبر أمه، حديث (٩٧٦).

قال الحافظ: أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب. وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالإستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره، ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير.

(ق): الإشكالات الواردة في الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفي في الهداية، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثاني: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾(النساء: من الآية١٨)، وظاهر الحديث قبول توبته.

والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت و لم يترل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا؛ فالوصف لا ينافي الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

١. أنه قال: (كلمة أحاج لك بها عند الله)، و لم يجزم بنفعها له، و لم يقل: كلمة تخرجك من النار.

٢. أنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له ليخفف عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: (لما حضرت أبا طالب الوفاة) مطابقا تماما لقوله تعالى: (حتى إذا حضر أحدهم الموت)، وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي ﷺ مع أبي طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: من الآية١١٣) في سورة التوبة، وهي متأخرة مدنية، وقصة أبي طالب مكية، وهذا يدل على تأخر النهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمه وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي؛ فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها في قوله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، وليس المعنى أنها نزلت في ذلك الوقت.

وقيل: أن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه في الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل؛ لأنه ربما مع الضجر يقول: لا؛ لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: (قل).

والجواب: إن أبا طالب كان كافراً، فإذا قيل له: قل وأبي؛ فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهـذا؛ فأما أن يبقي على كفره ولا ضرر عليه بهذا التلقين، وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم؛ فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير **قوله**: : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

الثانية: تفسير **قوله**: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

الثالثة: هي المسألة الكبرى – تفسير قوله ﷺ: (قل: لا إله إلا الله) بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل: (قل لا إله إلا الله). فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم، اقتصروا عليها.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، أي: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبينا أن الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحدا وهو حي؛ فكيف يستطيع أن يهدي أحدا وهو ميت؟! وأنه كما قال الله تعالى في حقه: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً﴾ (الجن: ٢١).

الثانية: تفسير قوله: ﴿ما كان للنبي ...﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولي قربى.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: المرحوم؛ فإنه حرام لأن هذا مضادة لله – سبحانه وتعالى –، وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره؛ لأن المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كله لله

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة، أي: الكبيرة من هذا الباب، وقوله (أي النبي ﷺ) لعمه: (قل: لا إله إلا الله)، وعمه المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله، ولهذا أبى أن يقولها لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: (بخلاف ما عليه من يدعي العلم) كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إله إلا الله، حيث يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، وإنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله، وهذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلا الله، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا الله، ولكن المعنى: لا معبود حق إلا الله؛ لأننا لو قلنا: إن معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين؛ فالظاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إله إلا الله.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ، أبو جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟)، وهو أيضا أبى أن يقولها لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ۞وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (الصافات: ٣٦).

فالحاصل أن الذين يدعون أن معنى لا إله إلا الله؛ أي: لا قادر على الاختراع إلا هو، أو يقولونها وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبي جهل.

واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبي جهل لأنهم أسلموا، وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه الله.

الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه، حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث؛ **لسببين هما**:

١- القرابة.

٢- لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف، فهو على هذا مشكور، وإن كان على كفره مأزورا وفي النار، ومن مناصرة أبي طالب أنه هجر قومه من أجل معاضدة النبي ﷺ ومناصرته، وكان يعلن على الملأ صدقه ويقول قصائد في ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلب القلوب كما في الحديث: (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء)، ثم قال ﷺ في نفس الحديث: (اللهم ! مصرف القلوب ! صرف قلوبنا على طاعتك)[1].

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب، بدليل قولهما: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟) حين أمره النبي ﷺ أن يقول لا إله إلا الله؛ فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفي الحديث رد على من قال بإسلام أبي طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبحهم الله؛ لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾(آل عمران: من الآية١٥٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾(هود: من الآية١٢٣) ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا رب الكون.

وكذا أمه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها؛ فدل على أن أهل الكفر ليسوا أهلا للمغفرة بأي حال، ولا يجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يدعى لهم بالهداية وهم أحياء.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان، المعنى أنه لولا هذان الرجلان؛ لربما وفق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي ﷺ، لكن هؤلاء والعياذ بالله - ذكراه نعرة الجاهلية ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[2]، وقال ﷺ: (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1]، وذلك

---

[1] مسلم: كتاب القدر / باب تصريف الله تعالى للقلوب كيف شاء، حديث (٢٦٥٤).

[2] البخاري: كتاب البيوع/ باب المسك حديث (٥٥٣٤)، ومسلم كتاب البر والصلة / باب: استحباب مجالسة الصالحين، مجانبة قرناء السوء، حديث (٢٦٢٨).

لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به: (المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل)[٢]؛ فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يفكر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداء من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير؛ فعليه بهم.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر، لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه؛ فتعظيمهم إن كانوا أهلا لذلك فلا يضر، بل هو خير؛ فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسن؛ فليس فيه مضرة وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل؛ فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلا: من يعظم أبا جهل لأنه سيد أهل الوادي، وكذلك عبد المطلب وغيره؛ فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أي قدر؛ لأنهم أعداء الله -عز وجل-، وكذلك لا يعظم الرؤساء من الكفار في زمانه؛ فإن فيه مضرة لأنه قد يورث ما يضاد الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلة من الكتاب والسنة.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك، لاستدلال أبي جهل بذلك.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: (أترغب عن ملة عبد المطلب؟) وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣).

فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه؟.

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآنا ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلونهم معصومين؛ كالرافضة، والتيجانية، والقاديانية، وغيرهم؛ فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

---

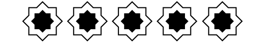
[١] البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات يصلى عليه، حديث (١٣٥٩)، ومسلم: كتاب القدر: باب مضى كل مولود يولد على الفطرة، حديث (٢٦٥٨).

[٢] أبو داود في كتاب الأدب، باب: من يؤمر أن يجالس، حديث (٤٨٣٣) مسند الإمام أحمد (٣٠٣/٢)، والترمذي: كتاب الزهد / باب الرجل على دين خليله) ــ وقال: (حسن غريب) ــ حديث (٢٣٧٨)، والحاكم (١٨٨/٤) ــ وقال: (صحيح ووافقه الذهبي) ــ وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٥).

فالواجب على المرء أن يكون تابعا لما جاء به الرسول ﷺ، وأما من خالفه من الكبراء والأئمة؛ فإنهم لا يحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلا للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما ألف كتاب شيخ الإسلام ابن تيميه: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة؛ فلا يعتذر له.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، وهذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة؛ أي: ظهرت عليه علاماتها و لم يترل به كما سبق.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين ...إلخ، وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.



باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

(**تم**): بين الشيخ -رحمه الله- فيما سبق من الأبواب أصولاً عظيمة وأقام البراهين على التوحيد، وبيَّن ما يتعلق به المشركون، وأبطل أصول اعتقادهم بالشريك، أو الظهير، أو الشفيع، ونحو ذلك.

فإذا كان التوحيد ظاهراً والأدلة عليه من النصوص بينة فكيف -إذاً- دخل الشرك؟ وكيف وقع الناس فيه والأدلة على انتفائه، وبطلانه وعدم جوازه، ظاهرة؟! مع أن الرسل جميعا بعثوا ليُعْبَد الله وحده دون ما سواه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ (النحل: من الآية٣٦)

فما سبب الغواية؟ وما سبب الشرك؟ فإذا كانت قضية التوحيد من أوضح الواضحات، والأبواب السالفة دالة بظهور ووضوح على وجوب إحقاق عبادة الله وحده، وعلى إبطال عبادة كل من سوى الله -جل جلاله-، وتقدست أسماؤه- فما سبب وقوع الشرك - إذاً -؟! وكيف وقعت فيه الأمم؟وللأجوبة على هذه الأسئلة أورد الشيخ -رحمه الله- هذا الباب، وما بعده ليبين أن سبب الشرك، وسبب الكفر هو الغلو الذي نهى الله -جل وعلا- عنه، ونهى عنه رسوله ﷺ سواء في هذه الأمة، أو في الأمم السابقة فأحد أسباب وقوع الكفر والشرك هو الغلو في الصالحين، بل هو سببهما الأعظم.

قال هنا: باب {**ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**}، هذا ذكر للأسباب بعد ذكر الأصول والعقائد.

(**ق**): **قوله:** {سبب كفر بني آدم}، السبب في اللغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ (الحج: من الآية١٥)؛ أي: بشيء يوصله إلى السماء.

ومنه أيضا سمي الحبل سببا؛ لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

و أما في الاصطلاح عند أهل الأصول؛ فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

أي: إذا وجد السبب وجد المسبب، وإذا عدم السبب عدم المسبب؛ إلا أن يكون هناك سبب آخر يثبت به المسبب.

قوله: (بني آدم)، يشمل الرجال والنساء؛ لأنه إذا قيل: بنو فلان، وهم قبيلة: شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان، أي رجل معين؛ فالمراد بهم الذكور.

قوله: (وتركهم)، يعني: وسبب تركهم.

قوله: (دينهم)، مفعول ترك؛ لأن ترك مصدر مضاف إلى فاعله، و(دينهم) يكون مفعولاً به.

قوله: (هو الغلو)، هذا الضمير يسمى ضمير الفصل، وهو من أدوات التوكيد، والغلو: خبر لأن ضمير الفصل على القول الراجح ليس له محل من الإعراب.

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحاً أو قدحاً.

والقدح: يسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرت فأثنوا عليها شراً [1]

والغلو هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحاً.

(**تم**): وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ (لما رمى الجمرات بحصيات قال: بمثل هذه فارموا وإياكم والغلو) يعني لا تجاوزوا الحد حتى في حجم تلك الحصاة، ومقدارها، ولذلك أرشدهم إلى الحجم الذي ينبغي أن تكون عليه بقوله: (بمثل هذه فارموا). فإذا جاوزت في المثلية بأن رمى بكبيرة، فإنه قد غلا يعني: جاوز الحد الذي حُدَّ له في ذلك، فالغلو -إذاً- هو مجاوزة الحد.

والمقصود: بـ(الغلو في الصالحين)، الذي هو سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الذي أمروا به أنهم تجاوزا الحد الواجب في تعظيمهم حتى آل بهم الأمر إلى الشرك.

و**قوله**: (الصالحون) يشمل كل من قام به هذا الوصف من الأنبياء والرسل، والأولياء، من أيِّ أمةٍ كانوا.

وأصل كلمة الصالحين، أنها جمع (الصالح)، والصالح هو اسم من قام به الصلاح، والصلاح في الكتاب والسنة تارة يكون بمعنى نفي الفساد، أي: ما يقابل الفساد، وتارة يكون بمعنى ما يقابل السيئات، فيقال: صالح بمعنى ليس به فساد، ويقال أيضا: صالح بمعنى ليس بسيئ.

والصالحون هنا المراد بهم أهل الصلاح، يعني أهل الطاعة والإخلاص لله -جل وعلا- الذين اجتنبوا الفساد، واجتنبوا السيئات، وهم الذين اشتركوا في فعل الطاعات، وترك المحرمات، أو كانوا من السابقين بالخيرات.

فاسم الصالح يقع شرعا على المقتصد، وعلى السابق بالخيرات، فالمقتصد صالح، والسابق بالخيرات صالح، وكُلٌّ درجات عند الله جل وعلا.

(**ق**): وفي هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن ينسب إلى الله بقوله: (أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)، وهذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحاً، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: (لولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار)[1]؛ يعني: عمه أبا طالب.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز/باب ثناء الناس على الميت، حديث (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب الجنائز/باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى، حديث (٩٤٩).

(**تم**): لكن ما الحد الذي أذن به الشرع في حق الصالحين حتى نعلم متى يكون تعظيمهم مجاوزة للحد المعلوم؟

الجواب: أنهم إذا كانوا من الرسل: فبالأخذ بشرائعهم، وإتباعهم والإقتداء بهم مع المحبة والاحترام، والموالاة والنصرة، وغير ذلك من المعاني الداخلة في الحد المأذون به في حقهم، أما الغلو فيهم فهو مجاوزة ذلك الحد، وهو بحر لا ساحل له، فمما حصل من الغلو فيهم أنهم جعلت فيهم خصائص الإلهية، كما ادعاه من ادعاه في حق نبينا ﷺ أنه يعلم سر اللوح والقلم، وأنه من جوده الدنيا وضرتها، كما قال البوصيري في قصيدته المشهورة المسماة بـ(البردة):

فإن من جودك الدنيا ودرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ومن المعلوم أن هذا لا يليق إلا بالله -جل وعلا- فهذا من الغلو المنهي عنه، وكذلك قوله في النبي -عليه الصلاة والسلام- غاليا فيه أعظم الغلو:

لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

يقول: إن النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يعط آية تناسب قدره، قال الشراح: حتى القرآن لا يناسب قدر النبي ﷺ والعياذ بالله، يقولون: القرآن المتلو بخلاف غير المتلو، عند الأشاعرة؛ لأنهم يفرقون بين هذا وهذا، فهذا البوصيري يغلو ويقول:

لو ناسبت قدره يعني النبي -عليه الصلاة والسلام-آياته عظما، يعني: في العظمة أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم، فالذي يناسب قدره -عند البوصيري- أنه إذا ذكر اسمه على ميت قد درس، وذهب رميمه في الأرض، وذهبت عظامه؛ أن تتجمع هذه العظام، وتحيي لأجل ذكر اسم النبي ﷺ عليه.

وهذا من أنواع الغلو الذي يحصل من الذين يعبدون غير اللَّهِ -جل وعلا- ويتوجهون إلى الأنبياء والرسل ويجعلون في حقهم من خصائص الألوهية، ما لا إذن لهم به، بل هو من الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- ومن سوء الظن بالله، ومن تشبيه المخلوق بالخالق، وهذا كفر والعياذ بالله.

فالحد المأذون به شرعاً في حقهم مطلوب وهذه هي الحالة الأولى، والغلو مذموم شرعاً ومنهي عنه وهذه هي الحالة الثانية، ويقابلها الجفاء في حقهم -وهي الحالة الثالثة – وهذا الجفاء، له صور منا: عدم موالاتهم، وبخسهم حقهم وترك محبتهم، فالحاصل: أن كل تقصير في حقهم يعد جفاء، وكل زيادة فيه يعد غلوا.

[1] البخاري: كتاب المناقب/باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، حديث (٢٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان/باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب.

وقول ﷲ ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (النساء: من الآية١٧١).

(ق): **قوله:** (وقول ﷲ - ﷻ -)، يعني: وباب قول ﷲ - ﷻ -.

قوله: ﴿يا أهل الكتاب﴾، نداء، وهم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى.

قوله: ﴿لا تغلو في دينكم﴾، أي: لا تتجاوزوا الحد مدحاً أو قدحاً، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عموماً؛ فإنهم غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام مدحاً وقدحاً، حيث قال النصارى: إنه ابن ﷲ، وجعلوه ثالث ثلاثة.

واليهود غلوا فيه قدحاً، وقالوا: إن أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم ﷲ؛ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط وتفريط.

قوله: ﴿ولا تقولوا على ﷲ إلا الحق﴾، وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبه ولا ولداً.

قوله: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول ﷲ ﴾، هذه صيغة حصر، وطريقه ﴿إنما﴾؛ فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول ﷲ، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذي يضيفونه إلى ﷲ.

وفي **قوله:** ﴿رسول ﷲ ﴾ إبطال لقول اليهود: إنه كذاب، ولقول النصارى: إنه إله.

وفي **قوله:** ﴿وكلمته﴾ إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا.

﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾: أن قال له كن فكان.

قوله: ﴿وروح منه﴾، أي: إنه ﷻ جعل عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفاً وتكريماً؛ كما في قوله تعالى في آدم: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾(الحجر: من الآية٢٩)[1]؛ فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿فآمنوا بالله ورسله﴾، الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله a ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾، أي: إن ﷲ ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾، ﴿خيراً﴾: خبر ليكن المحذوفة؛ أي: انتهوا يكن خيراً لكم.

---

[1] وهذه الآية أيضاً موجودة في سورة (ص)، (الآية: ٧٢).

قوله: ﴿إنما ٱللَّهُ إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض﴾، أي: تتريهاً له أن يكون له ولد؛ لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؛ فهو من جملة المملوكين المربوبين؛ فكيف يكون إلهاً مع ٱللَّهُ أو ولداً لله؟

(تنبيه):

لم يشر المؤلف رحمه ٱللَّهُ تعالى إلى إكمال الآية، ونرجو أن يكون في إكمالنا لها فائدة.

قوله: ﴿وكفي بالله وكيلاً﴾، أي: كفى ٱللَّهُ تعالى أن يكون حفيظاً على عباده، مدبراً لأحوالهم، عالماً بأعمالهم.

والشاهد من هذه الآية قوله؛ ﴿لا تغلو في دينكم﴾؛ فنهى عن الغلو في الدين؛ لأنه يتضمن مفاسد كثيرة: منها:

١. أنه تتريل للمغلو فيه فوق مترلته إن كان مدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.
٢. أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.
٣. أنه يصد عن تعظيم ٱللَّهُ – ﷻ –؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.
٤. أن المغلو فيه إن كان موجوداً؛ فإنه يزهو بنفسه، ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحاً.

قوله: ﴿في دينكم﴾، الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل.

والمعنى: لا تجعلوا عبادتكم غلواً في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك[1]، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هذا؛ فالنهي عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه.

(ف): قال شيخ الإسلام (رحمه ٱللَّهُ): ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم. قال: وعلي ﷺ حرق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدت لهم

[1] البخاري: كتاب الجمعة/باب ما يكره من التشديد في العبادة، حديث (١١٥١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافر وقصرها /باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يذهب عنه ذلك، حديث (٧٨٥).

عند باب كندة فقذفهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم. لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق.وهو قول أكثر العلماء.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح: ٢٣) .قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت)[1] .

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

(**ف**): قوله (وفي الصحيح) أي صحيح البخاري، وهذا الأثر اختصره المصنف. ولفظ ما في البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل. وأما سواع فكانت لهذيل. وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمدان. وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع: أسماء رجال صالحين في قوم نوح... إلى آخره.

وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد قال حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن a ابن قيس أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم. فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر. فعبدوهم.

(**تم**): ونوح -عليه السلام- هو أول رسول بعثه الله بعبادة الله وحده دون من سواه وبالدعوة إلى التوحيد، لما وقع الشرك في قومه، لكن كيف دخل الشرك في قوم نوح؟ الجواب: أن القرآن ذكر أصلين في الحالين من أصول الشرك وذكر غيرهما أيضا:

الأصل الأول: شرك قوم نوح. **والأصل الثاني:** شرك قوم إبراهيم.

---

[1] البخاري: كتاب تفسير القرآن /باب وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق، (٤٩٢٠).

وأما شرك قوم نوح فكان بالغلو في الصالحين وأرواحهم، فجاءهم الشيطان من جهة روح ذلك العبد الصالح، وأثر تلك الروح، وأن من تعلق به، فإنه يشفع له، ثم ساقهم من ذلك التعظيم إلى أن صوروا لهم صوراً ونصبوا لهم أنصاباً، وأوثاناً وأصناماً حتى إذا طال عليهم الأمد عبدوهم.

الأصل الثاني: شرك قوم إبراهيم، وذلك شرك في التأثير يعني: من جهة النظر في الكواكب، ومن يؤثر ويحرك فهذا شرك في الربوبية، وما تبعه من الشرك في الألوهية؛ لأنهم جعلوا لتلك الكواكب أصناما؛ وجعلوا لها صورا؛ وجعلوها أوثانا، فعبدوها من دون الله -جل وعلا- وتوجهوا إليها.

فسبب وقوع الشرك في قوم نوح هو الغلو في الصالحين، كما قال ابن عباس هنا في بيان أصل وقوع هذا الشرك.

(**ق**): **قوله:** ﴿وقالوا﴾، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لا تذرن﴾، أي: لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

قوله: ﴿آلهتكم﴾، **هل المراد: لا تذروا عبادتها أو تمكنوا أحداً من إهانتها؟**

الجواب: المعنيان؛ أي: انتصروا لآلهتكم، ولا تمكنوا أحداً من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضاً، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصي بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق.

قوله: ﴿ولا سواعاً﴾، لا: زائدة للتوكيد، مثلها في قوله تعالى: ﴿ولا الضالين﴾(الفاتحة: ٧)، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر؛ فهما دون مرتبة من سبقهما.

قوله تعالى: ﴿وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾(نوح: من الآية٢٣)، هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها؛ لأن قوله: ﴿آلهتكم﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنها كبار آلهتهم؛ فخصوها بالذكر.

والآلهة: جمع إله، وهو كل ما عبد، سواء بحق أو بباطل، لكن إذا كان المعبود هو الله؛ فهو حق، وإن كان غير الله؛ فهو باطل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح).

وفي هذا التفسير إشكال، حيث قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح)، وظاهر القرآن أنها قبل نوح، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ۞ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾(نوح: ٢١-٢٣)؛ ظاهر الآية الكريمة: أن قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبوا وقالوا: ﴿لا تذرن آلهتكم﴾، وهذا (أعني: القول بأنهم قبل نوح) قول a بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح لموافقته ظاهر القرآن.

ويحتمل -وهو بعيد- أن هذا في أول رسالة نوح، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا بـه، ثم بعـد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمـد، فعبدوهم.

قوله: (أوحى الشيطان)، أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: (أن انصبوا إلى مجالسهم)، الأنصاب: جمع نصب، وهو كل ما ينصب من عصـا أو حجـر أو غيره.

قوله: (وسموها بأسمائهم)، أي: ضعوا أنصاباً في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر؛ لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشـيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لأدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾(طـه: من الآية١٢٠)، وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء؛ فهذه عبـادة قاصـرة أو معدومة.

قوله: (ففعلوا و لم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم؛ عبدت من دون الله)، ذكر ابـن عبـاس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة، حتى إذا طـال علـيهم الأمـد حصل التراع والتفرق، فبعث الله النبيين؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾(البقرة: من الآية٢١٣).

هذا هو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية، وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولاً إلى القرآن؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، مثل قوله تعالى: ﴿وما أدراك مـا هيه﴾ تفسيرها: ﴿نار حامية﴾(القارعة: ١٠، ١١)، فإن لم نجد في القرآن؛ فإلى سنة الرسول ﷺ، فـإن لم نجد؛ فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك؛ لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصـرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفـوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنه حجة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بمـا يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس؛ إلا أن ظاهر السياق أن هؤلاء القوم الصالحين كانوا قبل نوح ﷺ، وقد عرفت القول الراجح.

(**ف**): **قوله:** وقال ابن القيم رحمه الله هو الإمام العلامة a بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية. قال الحافظ السخاوي: العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

(**تم**): الشاهد من هذا أن أولئك توجهوا إلى الصور، صور الصالحين وكانوا أهل علم يعلمون أنهم إذا اتخذوا هذه الصور، فإنهم لن يعبدوها، لكن كانت تلك الصور للصالحين والمعظمين وسيلة وطريقاً وسبباً لأن عبدت في المستقبل لَمَّا نسي العلم.

ومن حرص الشيطان المريد على إضلال العبيد: أنه ربما أتى إلى الصورة المتعلق بها فأوهم الناظر إليها أو المخاطب لها أنها تتحدث وتتكلم، أو يُسْمَع منه كلاماً، أو نحو ذلك من الأشياء، وأصناف التصرفات التي تجعل القلوب تتعلق بتلك الروحانيات -كما يقال- أو تلك الأرواح، فيغري أولئك بهم، وهذا هو الحاصل عند عُبَّاد القبور، والعاكفين عليها يأتي أحدهم، ويقول: ذهبت إلى القبر الفلاني فكلمني أبي، ويكون ذلك شيطاناً نطق على لسان أبيه، وربما تصور بصورة أبيه، فخرج له في ظلام ونحوه فيحدثه أبوه بصوته الذي يعرفه، أو يحدثه العالِم، أو الولي بصوته الذي يعرفه منه، فتقع الفتنة، وهذا من قبيل الشيطان.

ولهذا قال ابن عباس هنا كلمة تبين السبب في ذلك فقال: (أوحى الشيطان إلى قومهم) والوحي إلقاءٌ في خفاء. والشيطان لا يتحدث علنا ولكن يوحي، يعني: يلقي في خفاء، فالوحي هو إلقاء الخبر في خفاء، فألقى الشيطان في روعهم، وأنفسهم ذلك الأمر، فكان سببا للشرك بالله -جل وعلا- و لم يكونوا في أول الأمر يعبدونها لكنهم لما صوروا صور أولئك الصالحين، ونصبوا لهم الأنصاب: كان ذلك سبباً ووسيلة إلى عبادتهم لكن أولئك الذين جعلوها وسائل، كان عندهم من العلم ما حجزهم عن عبادة الصالحين، لكن لما نسي العلم عبدت.

وهذا الفعل الذي فعلوه بإيحاء الشيطان، هو من الغلو في أولئك الصالحين. وهذا وجه الشاهد وهو أنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، أو صوروا صورهم، أو نصبوا الأنصاب في أماكنهم؛ ليتذكروهم، وليكون ذلك أنشط لهم في العبادة، أو العلم، ولكن هذه الأفعال التي فعلوها كانت من سبباً من أسباب عبادة أولئك الصالحين، الذين غلوا في حبهم وهذا هو مراد الشيخ -رحمه الله- من إيراد هذا الأثر.

(**ف**): **قوله:** وقال غير واحد من السلف هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم. وذلك من وسائل الشرك بل هو الشرك، لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيماً ومحبة: عبادة لها.

قوله: ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم أي طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم، فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى. فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء. وهذا أول شرك حدث في الأرض.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها أ.هـ.

قال ابن القيم رحمه الله: وما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلها من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل، ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجديد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم، كما قال تعالى: ' ٣٩: ٤٥ ' " وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون " وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك ' ٨: ٣٤ ' " وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ". اهـ كلام ابن القيم رحمه الله.

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) [أخرجاه][1].

(**ف**): قوله عن عمر هو ابن الخطاب بن نفيل – بنون وفاء مصغراً – العدوى أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم. ولي الخلافة عشر سنين ونصفا. فامتلأت الدنيا عدلاً، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر. واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين رضي الله عنه.

قوله: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه. قاله أبو السعادات. وقال غيره: أي لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

(**تم**): وقد ظن بعض الناس أن الكاف في قوله: (كما أطرت النصارى ابن مريم) أنها كاف المثلية يعني: لا تطروني بمثل ما أطرت النصارى ابن مريم.

ويقول هذا الظان: إن النصارى أطرت ابن مريم في شيء واحد، وهو أن قالوا هو ابن الله –جل وعلا– فيكون النهي عن أن تجعل له ﷺ رتبة البنوة فقط؛ فإذا كان كذلك فما عداه جائز، وهذا هو فهم الخرافيين لهذا النهي كما قال قائلهم البوصيري في هذا المقام:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت فيه واحتكم

أو كما قال، يعني: لا تقل: إنه ولد لله، أو أنه ابن لله، فهذا هو القدر المنهي عنه فقط ولك أن تقول فيه بعد ذلك ما شئت غير ملوم، وغير مُثَرَّب عليك.

الوجه الثاني –وهو الفهم الصحيح، وهو الذي يدل عليه السياق– أن الكاف هنا هي كاف القياس، والمعنى: لا تطروني إطراء كما أطرت النصارى ابن مريم، وكاف القياس هي كاف التمثيل الناقص، وحقيقتها، أن يكون هناك شبه بين ما بعدها، وما قبلها في أصل الفعل.

فنهى ﷺ في قوله (لا تطروني كما أطرت) عن أن يُطْرَى –عليه الصلاة والسلام– كما حصل أن النصارى أطرت، ابن مريم فهو تمثيل للحدث بالحدث لا تمثيل أو نهي عن نوع الإطراء، فمعنى قوله: (لا تطروني كما أطرت) هو نهي عن إطراء –عليه الصلاة والسلام– لأجل أن النصارى أطرت ابن مريم فقادهم ذلك إلى الكفر والشرك بالله، وادعاء أنه ولد لله جل وعلا، ولهذا قال: (إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله).

[1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ ﴾ (مريم: من الآية١٦)، حديث (٣٤٤٥).

فالكاف هنا ليست كاف التمثيل الكامل، بأن يكون ما بعدها مماثلاً لما قبلها من كل وجه، وإنما هي كاف التمثيل الذي يكون ما بعده مشتركاً مع ما قبله في المعنى، وهي القياسية التي تجمعها العلة، ولهذا يقول الفقهاء -كما هو معلوم-: هذا كهذا، فيقولون مثلا: نبيذ غير التمر والعنب كنبيذ التمر والعنب مساواة بين هذا وهذا؛ لوجود أصل المعنى بينهما.

وهنا نهى عن الإطراء؛ لأجل وجود أصل الإطراء في الاشتراك بين إطراء النصارى، وما سببه من الشرك، وإطراء ما لو أطري النبي ﷺ وما سيسببه من الشرك.

وكثير من طوائف هذه الأمة خالفوا أمر النبي ﷺ في النهي عن إطرائه حتى جاوزوا الحد في ذلك فزعم زاعمهم أن له من الملك نصيباً، ولا حول ولا قوة إلا بالله مع أنه ﷺ أرشدهم إلى ما ينبغي أن يكون عليه الأمر بقوله: (إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وهذا هو الكمال في حقه -عليه الصلاة والسلام- أن يكون عبداً رسولا، فهذا أشرف مقاماته -عليه الصلاة والسلام-.

(**ق**): **قوله:** (إنما أنا عبد)، أي: ليس لي حق من الربوبية، ولا مما يختص به الله - عز وجل - أبدا.

قوله: (فقولوا عبد الله ورسوله)، هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ؛ فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾(الفرقان: من الآية٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٧١)؛ فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادا لله - عز وجل - أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبوبته:

لا تدعني إلا بـ(يا) عبدها فإنه أشرف أسمائي

أي: أنت إذا أردت أن تكلمني قل: يا عبد فلانة؛ لأنه أشرف أسمائي وأبلغ في الذل.

فمحمد ﷺ عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول في صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله[1]؛ فهذا أفضل وصف اختاره النبي ﷺ لنفسه.

(**ف**): **وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله** عن بعض أهل زمانه أنه جوز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام، ورده موجود بحمد الله. ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وذكر لهم أشياء من هذا النمط. نعوذ بالله من عمى البصيرة وقد اشتهر في نظم البوصيري **قوله:**

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

[1] البخاري: كتاب الاستئذان / باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، حديث (٤٠٢).

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات، وأعظم الاضطرار لغير اللَّه، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا اللَّه ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه اللَّه به في قالب تنقيصه، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته، فلم يعبئوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له. وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه. فعكس أولئك المشركون ما أراد اللَّه ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله. فالله المستعان.

(**ق**): **واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهي:**

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل، وهو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة في الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾؛ فهذا حق مشترك، ﴿وتعزروه وتوقروه﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ، ﴿وتسبحوه بكرة وأصيلا﴾ (الفتح: ٩) هذا خاص بالله - سبحانه وتعالى -.

والذين يغلون في الرسول ﷺ يجعلون حق اللَّه له؛ فيقولون: ﴿وتسبحوه﴾؛ أي: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون اللَّه، ولا شك أنه شرك؛ لأن التسبيح من حقوق اللَّه الخاصة به، بخلاف الإيمان؛ فهو من الحقوق المشتركة بين اللَّه ورسوله.

ونهى عن الإطراء في قوله عليه الصلاة والسلام: (كما أطرت النصارى عيسى بن مريم)؛ لأن الإطراء والغلو يؤدي إلى عبادته كما هو واقع الآن؛ فيوجد عند قبره في المدينة من يسأل، فيقول يا رسول اللَّه ! المدد، المدد، يا رسول اللَّه ! أغثنا، يا رسول اللَّه ! بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعيني رجلا يدعو اللَّه تحت ميزاب الكعبة موليا ظهره البيت مستقبلا المدينة؛ لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة، فأما والنبي ﷺ فيها؛ فلا والله، ولا الكعبة، ولا العرش وحملته، ولا الجنة.

فهو يريد ان يفضل الحجرة على الكعبة وعلى العرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة لا يرضاها النبي ﷺ لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده ﷺ أفضل، ولكن كونه يقول: إن الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة؛ لأن الرسول ﷺ فيها هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك.

قوله: وقال رسول الله ﷺ (إياكم والغلو. فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)[1].

(**ف**): هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس.

وهذا لفظ رواية أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ غداة جمع: " هلم القط لي. فلقطت له حصيات هن حصى الخذف. فما وضعهن في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء فارموا.

(**ق**): **قوله:** (إياكم)، للتحذير.

قوله: (والغلو)، معطوف على إياكم، وقد اضطرب فيه المعربون اضطراباً كثيرا، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفا: أن إيا منصوبة بفعل أمر مقدر تقديره إياك أحذر؛ أي: احذر نفسك أن تغرك، والغلو معطوف على إياك؛ أي: وأحذر الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد مدحا أو ذما، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضا؛ فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: (القط لي حصى. فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف؛ فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين). هذا لفظ ابن ماجة.

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: (من كان قبلكم)، مفعول مقدم.

قوله: (فإنما)، أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: (أهلك)، يحتمل معنيين:

---

[1] النسائي: كتاب مناسك الحج / باب: التقاط الحصى، حديث (٣٠٥٧)، وابن ماجة حديث (٣٠٢٩) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٠).

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعا مباشرة من الغلو؛ لأن مجرد الغلو هلاك.

الثاني: أنه هلاك الأجسام وعليه يكون الغلو سببا للهلاك؛ أي: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قوله: (فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) حقيقي أو إضافي؟

الجواب: إن قيل: إنه حقيقي؛ حصل إشكال، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبي ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد)[1]؛فهنا حصران متقابلان، فإذا قلنا: إنه حقيقي بمعنى أنه لا هلاك إلا بهذا حقيقة؛ صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافي؛ أي: باعتبار عمل معين؛ فإنه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لا تعارض الحديث الآخر لئلا يكون في حديثه ﷺ تناقض، وحينئذ يكون إضافيا، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار الغلو في التعبد في الحديث الأول، وفي الآخر يقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث يحذر الرسول ﷺ أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنه مخالف للشرع ولإهلاكه للأمم السابقة؛ **فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:**

الوجه الأول: تحذيره ﷺ، والتحذير نهي وزيادة.

الوجه الثاني: أنه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا، وما كان سببا للهلاك كان محرما.

(ف): قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار، بناء على أنه أبلغ من الصغار. ثم علله بما يقتضي مجانبة هدى من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، فإن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك.

(ق): أقسام الناس في العبادة:

والناس في العبادة طرفان ووسط؛ فمنهم المفرط، ومنهم المفرط، ومنهم المتوسط.

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكون الإنسان معتدلا لا يميل إلى هذا ولا إلى هذا هذا هو الواجب؛ فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطا بين هذا وهذا.

---

[1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء / باب حديث الغار، ومسلم: كتاب الحدود / باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة، حديث (١٦٨٨).

والغلو له أقسام كثيرة؛ منها: الغلو في العقيدة، ومنها: الغلو في العبادة، ومنها: الغلو في المعاملة، ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أما الغلو في العقيدة؛ فمثل ما تشدق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإن أهل الكلام تشدقوا وتعمقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعا، حتى أدى بهم هذا التعمق إلى واحد من أمرين: **إما التمثيل، أو التعطيل.**

إما أنهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنى إثبات الصفات، فغلوا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفي الله عن نفسه، أو عطلوه وقالوا: هذا معنى تنزيه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أن إثبات الصفات تشبيه؛ فنفوا ما أثبته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك؛ فلم تتعمق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه؛ فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيد على ذلك؛ فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم

وغيرهم في الدين؛ صاروا يتعمقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لا تنتهي أبدا؛ حتى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردها المتأخرون من هذه الأمة على النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات؛ فهو التشدد فيها، بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام؛ كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: إن من فعل كبيرة من الكبائر؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر؛ فهذا تشدد أدى إلى الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئا، وإنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ لأنه لا يختلف الناس في الإيمان حتى إنهم ليقولون: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن الله كفره؛ قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب وإلا لو استكبر عن أمر الله فهو مؤمن.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان، ولاشك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر.

وأما الغلو في المعاملات؛ فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة، وأنه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفية، حيث قالوا: من اشتغل بالدنيا؛ فهو غير مريد

للآخرة، وقالوا: لا يجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدد تساهل من قال: يحل كل شيء ينمي المال ويقوي الاقتصاد؛ حتى الربا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء - والعياذ بالله - متطرفون بالتساهل؛ فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلسا أو فلسين، وهذا لا شك أنه تطرف.

والتوسط أن يقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص، ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (البقرة: ٢٧٥)؛ فليس كل شيء حراما؛ فالنبي ﷺ باع واشترى، والصحابة رضي الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبي ﷺ يقرهم.

وأما الغلو في العادات؛ فإذا كانت هذه العادة يخشى أن الإنسان إذا تحول عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة؛ فهذا لا حرج أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلى عادة جديدة، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلى عادة جديدة مفيدة أفيد من الأولى؛ فهذا من الغلو المنهي عنه، فلو أن أحدا تمسك بعادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها، نقول: هذا في الحقيقة غال ومفرط في هذه العادة.

وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع في العادات التي قد تخل بالشرف أو الدين؛ فلا يتحول إلى العادة الجديدة.

ولمسلم عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: (هلك المتنطعون). قالها ثلاثا [1].

(**ق**): **قوله:** (المتنطعون)، المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعال؛ فهو هالك، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة؛ فبعض الناس يكون بهذه الحال، حتى إنه ربما يقترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن به الكبر، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه فتسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

[1] مسلم: كتاب العلم/ باب: هلك المتنطعون، حديث (٢٦٧٠).

والتنطع بالأفعال كذلك أيضا قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبر، ولهذا قال: (هلك المتنطعون).
والتنطع أيضا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها؛ فهو أيضا من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع في صفات الله تعالى والتقعر فيها، حيث يسألونه عما لم يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصا على العلم، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

(**تم**): والتنطع والإطراء والغلو متقاربة المعنى يجمعها مجاوزة الحد المشروع، والغلو يشمل الإطراء، ويشمل التنطع، فكل تنطع، وكل إطراء غلو، والغلو اسم جامع لهذه جميعا، فالشيخ -رحمه الله- في هذا الباب بيَّن أن سبب كفر بني آدم، وسبب تركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، بأن جاوزوا الحد فيهم.
كما جاوز قوم نوح الحد في صالحيهم، فعكفوا على قبورهم، وأَلَّهُوهَا فصارت آلهة، والنصارى غلت في رسولهم عيسى -عليه السلام- وفي الحواريين، وفي البطارقة حتى جعلوهم آلهة مع الله -جل وعلا- يستغيثون بهم، ويؤلهونهم، ويسألونهم ويعبدونهم.
وكذلك وقع الغلو في هذه الأمة، من الذين جَعلوا للنبي -عليه الصلاة والسلام- نصيباً من خصائص الألوهية، وهذا هو عين ما نهى عنه -عليه الصلاة والسلام- بقوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله).

(**ف**): قال الخطابي: المتنطع المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم.
ومن التنطع: الامتناع من المباح مطلقاً، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب. قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهل ضال، انتهى.
وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث والاستقصاء.
وقال أبو السعادات: هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً.
وقال النووي: فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم.

قوله: قالها ثلاثاً أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

(ق): فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل على تحريم الغلو، وأنه سبب للهلاك، وأن الواجب أن يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض بالدين الوسط، فكما أن هذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسط؛ فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط.

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غيّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها .

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد .

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما تؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة: النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها .

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه، فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم) فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب – أي: بما مر من تفسير الآية الكريمة: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم﴾ – وباين بعده؛ تبين له غربة الإسلام.

وهذا حق؛ فإن الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم؛ فلا تجد بلدا مسلما إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهما مثل قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب؛ فصار الحسين إما أنه أربعة رجال، أو مقطع أوصالا، وهذا كله ليس بصحيح؛ فالمهم أنه كما قال شيخ الإسلام a بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام أي في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ a بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويحج إليها وتقصد، ولكن بتوفيق الله – تعالى – أنه أعان هذا الرجل مع الإمام a بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله الحمد على التوحيد الخالص.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض، وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواما صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم، أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: (مع معرفة أن الله أرسلهم)، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾(البقرة: من الآية٢١٣)؛ أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم.

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

قوله: (قبول البدع)، أي: أن النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع تردها، وكذلك الفطر السليمة تردها؛ لأن الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم: من الآية٣٠)؛ فالفطر السليمة لا تقبل تشريعا إلا ممن يملك ذلك.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أن من أراد تقوية دينه ببدعة؛ فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون في الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطي الإنسان نشاطاً غير مشروع في وقت معين، ثم يعقبه فتور غير مشروع في بقية العام.

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع فاترين في الأمور المشروعة الواضحة ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا مما يدل على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زينها أصحابها؛ فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً؛ لأن النبي ﷺ يقول: (كل بدعة ضلالة)[1] .

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده ﷺ أصلاً من السنة، وهو أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؛ فقال: (ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل علي فيه)[1]، وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: (إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على الله؛ فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم)[2]

---

[1] مسلم: كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٦٧).

فالجواب على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هو صوم وإمساك، أما هؤلاء الذين يجعلون له الموالد؛ فاحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أن هذا اليوم إذا صامه الإنسان؛ فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثاني: أنه على فرض أن يكون هذا أصلاً؛ فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأن العبادات توقيفية، ولو كان الاحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعاً لبينه النبي ﷺ، إما بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أن هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيدونه بيوم الاثنين، بل في اليوم الذي زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقق بعض الفلكيين المتأخرين ذلك؛ فكان في اليوم التاسع لا في اليوم الثاني عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنه لم يكن معروفاً على عهد النبي ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه.

مسألة حكم الاحتفال بعيد ميلاد الأطفال:

فائدة: كل شيء يتخذ عيداً يتكرر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعاً؛ فهو من البدع، والدليل على ذلك: أن الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنهم شبهوها بالأعياد الإسلامية، وهذا حرام لا يجوز، وليس في الإسلام شيء من الأعياد إلا الأعياد الشرعية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع، وهو يوم الجمعة.

وليس هذا من باب العادات لأنه يتكرر، ولهذا لما قدم النبي ﷺ فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما؛ قال: (إن الله أبدلكما بخير منهما: عيد الأضحى، وعيد الفطر)[٣]، مع أن هذا من الأمور العادية عندهم.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح، وقد سبق ذلك وبيان أنهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لا يموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمي هذا الأمر الذي هو عليه.

---

[١] مسلم: كتاب الصيام/باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، حديث (١١٦٢).

[٢] الترمذي: كتاب الصوم/ باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس، حديث (٧٤٧)، وقال: (حديث حسن غريب) وأورده الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٩٥٩).

[٣] مسند الإمام أحمد (١٠٣/٣)، وسنن أبي داود: كتاب الصلاة/ باب صلاة العيدين، حديث (١١٣٤) والنسائي، حديث (١٥٥٦)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤٤٦٠).

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد، هذه العبارة تقيد من حيث كونه آدمياً بقطع النظر على من يمن الله عليه من تزكية النفس؛ فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠).

قوله: (جبلة) على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه؛ أي: يخلق عليه ويطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكى نفسه أو دساها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم: من الآية٣٤)، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(الأحزاب: من الآية٧٢).

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يرتقي عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٤-٦)؛ فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدي؛ فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية؛ كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم؛ كأبي الحسن الأشعري، كان معتزلياً، ثم كلابياً، ثم سنياً، وابن القيم كان صوفياً، ثم من الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيميه؛ فهداه الله على يده حتى كان ربانياً.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر، قال أهل العلم: إن الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إن البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً؛ حتى يصل إلى الكفر، واستدلوا بقوله ﷺ (كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)[1].

وقالوا أيضاً: (إن المعاصي بريد الكفر، وبريد الشيء ما يوصل إلى الغاية).

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم على القلب، وتنكت فيه نكتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلبه وابيض [2]، وإلا؛ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلماً.

وكذلك حذر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضاً، فأرادوا أن يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي [3]؛

---

[1] النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب: كيف الخطبة، حديث (١٥٧٨).

[2] مسند الإمام أحمد (٢٩٧/٢) وصححه أحمد شاكر، والترمذي: كتاب التفسير/باب (ويل للمطففين)، حديث (٣٣٣٤) وقال: (حسن صحيح) ــ، والحاكم (٥١٧/٢) ــ وصححه ووافقه الذهبي ــ، وابن ماجة حديث (٤٢٤٤) وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٠).

[3] مسند الإمام أحمد (٣٣١/٥)، حديث (٢٢٨٦٠) والطبراني في الأوسط (٢١٩/٧)، حديث (٧٣٢٣)، والصغير (١٢٩/٢)، حديث (٩٠٤)، والكبير (١٦٥/٦) حديث ٥٨٧٢) والروياني في مسنده (٢١٦/٢)، حديث (١٠٦٥)، والبيهقي في الشعب (٤٥٦/٥)، حديث (٧٢٦٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٩٠/١٠)، وقال (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح)، وقال الحافظ في الفتح (٣٢٩/١١): (أخرجه أحمد بسند حسن) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦).

فالمعاصي لها تأثير قوي على القلب، وأشدها تأثيراً الشهوة فهي أشد من الشبهة؛ لأن الشبهة أيسر زوالاً على من يسرها الله عليه؛ إذ إن مصدرها الجهل وهو يزول بالتعلم.

أما الشهوة، وهي إرادة الإنسان الباطل؛ فهي البلاء الذي يقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى؛ لأن معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا كانت البدعة غالبها شبهة، ولكن كثيراً منها سببه الشهوة، ولهذا يبين الحق لأهل الشهوة من أهل البدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظن في نفسه ويملي عليه الشيطان أنه لو رجع عن بدعته لنقصت مترلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك؛ فأبو الحسن الأشعري مضرب المثل في هذا الباب؛ فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السنة صار إماماً؛ فكل من رجع إلى الحق ازدادت مترلته عند الله – سبحانه –، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أن البدعة سبب للكفر، ولا يرد على هذا قول بعض أهل العلم: إن المعاصي بريد الكفر؛ لأنه لا مانع من تعدد الأسباب.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل، لأن الشيطان هو الذي سول لهؤلاء المشركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير؛ لأنه يعرف أن هذه البدعة تؤول إلى الشرك.

وقوله: (ولو حسن قصد الفاعل)، أي: إن البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالماً أنها بدعة ولو حسن قصده؛ لأنه أقدم على المعصية

كمن يجيز الكذب والغش ويدعي أنه مصلحة، أما لو كان جاهلاً فإنه لا يأثم؛ لأن جميع المعاصي لا يأثم بها إلا مع العلم، وقد يثاب على حسن قصده، وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيميه في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم)؛ فيثاب على نيته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضي لكن لحسن نيته مع الجهل يكون له أجر، ولهذا قال ﷺ للرجل الذي صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلى ثانية: (لك الأجر مرتين) [1]؛ لحسن قصده، ولأن عمله عمل صالح في الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع؛ لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة؛ فقد قال النبي ﷺ للذي لم يعد: (أصبت السنة)[2].

---

[1] سنن أبو داود: كتاب الطهارة/باب في المتيمم يجد الماء بعد ما صلى، والحاكم (١٧٩/١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، صحيح أبي داود (٦٩/١).

[2] انظر التخريج السابق.

فإن قال: إني أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن في رسالة الرسول ﷺ؛ لأنه اتهام له بالتقصير أو القصور، أي مقصر في الإخبار عن ذلك أو قاصر في العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، أما إذا كان حسن القصد، و لم يعلم أن هذا بدعة؛ فإنه يثاب على نيته ولا يثاب على عمله؛ لأن عمله شر حابط كما قال النبي ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد)[1].

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لبس عليهم هذه البدعة وغيرها؛ نقول: ما داموا قاصدين للحق ولا علموا به؛ فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلهم.

ولهذا يوجد في مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، فلو ماتوا لا نقول: إنهم مسلمون ونصلى عليهم ونترحم عليهم مع أنهم لم تقم عليهم الحجة، لكننا نعاملهم في الدنيا بالظاهر، أما في الآخرة؛ فأمرهم إلى الله.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه، هذا ما حذر منه النبي ﷺ؛ لأن الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾(الأعراف: من الآية٣١)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾(الفرقان: من الآية٦٧)، وقد سبق بيان ذلك.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح، المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قرئ القرآن عند قبر رجل صالح، أو تصدق عند هذا القبر يعتقد أن لذلك مزية على غيره؛ فإن هذا من البدع، وهذه البدعة قد تؤدي بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها، التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنها تطلق على ما صنع ليعبد من دون الله، والحكمة في إزالتها سد ذرائع الشرك.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة، أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأن أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة؛ فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة، والناس لو تدبرت أحوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

[1] مسلم: كتاب الأقضية / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، وعلقه البخاري بصيغة الجزم في البيوع والاعتصام وهو بلفظ آخر في الصحيحين.

الرابعة عشرة - وهي أعجب العجب -: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث.

قوله: (وأعجب)، أي: أكثر عجباً وأشد، **والعجب نوعان:**

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلق بمحمود؛ كقول عائشة في الحديث: (كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله)[1].

الثاني: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلق بمذموم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (الرعد: من الآية٥).

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عما كان في زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المرء أن يعتقد السيئ حسناً، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾(فاطر: من الآية٨)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف: ١٠٣، ١٠٤).

قوله: (واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال)، أي: من اعتقد أن الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنه مقرب إلى الله؛ فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لي ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهي عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهي فيه، والله أعلم.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة، أي: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك، أي: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنوا أنها تنشطهم على العبادة، وهذا ظن فاسد كما سبق.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: (لا تطروني) الحديث، معنى الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذي نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشد؛ حتى جعلوا النبي ﷺ المرجع في كل شيء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة.

ومعنى: (بلغ)؛ أي: أوصل وبين.

---

[1] البخاري: كتاب الوضوء/باب التيمن في الوضوء والغسل، حديث (١٦٨)، ومسلم: كتاب الطهارة/باب التيمن في الطهور وغيره، حديث (٢٦٨).

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين، وذلك بقوله ﷺ: (هلك المتنطعون)؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، أي: لم تعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نسي العلم واضمحل؛ ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أي العلم، وأن وجوده أمر ضروري للأمة؛ لأنه إذا فقد العلم؛ حل الجهل محله، وإذا، وإذا حل الجهل؛ فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء، فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبق إلا جهال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضاً: الغفلة والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إن العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثر القراء الذين يقرؤون العلم ولا يعملون به، وقل الفقهاء الذين يعملون به؛ فبهذا يصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إن في وجوده ضرراً على الأمة؛ لأن العامة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتاً غير عامل بما علم؛ ظنوا أن ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشد من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل؛ فإن الناس قد يطلبون العلم ويتلمسون.

الخلاصة للباب:

بيان أن الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأن خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛ فلا يستوي الصالح والفاسد، بل ينزل كل منزلته، ولكن لا نتجاوز به المنزلة فنغلو فيه؛ فدين الله وسط لا يعطي الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س١: ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو مجاوزة الحد.

والتنطع معناه: التشدق بالشيء والتعمق فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد؛ فإنه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة؛ فقد تؤدي إلى الغلو، فلو أن الإنسان مثلا أراد أن يقوم ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها؛ فلا يتزوج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك؛ فإن هذا من الغلو، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ.

س٢: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع، وسواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل؛ فكونك تتخذ القراءة عند القبر خاصة هذا من البدع.

وإنما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضا أنه ليس بسنة، والسنة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت.

❁❁❁❁❁

باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح؛ فكيف إذا عبده؟!

(**تم**): في هذا الباب مع الأبواب بعده في بيان أن النبي ﷺ كان حريصا على هذه الأمة، وأنه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما، ومن تمام حرصه على الأمة، أن حذرهم كل وسيلة تصل بهم إلى الشرك، وسد جميع الذرائع الموصلة إلى ذلك، وغلظ في ذلك، وشدد فيه، وأبدى وأعاد حتى إنه بيَّن ذلك خشية أن يفوت تأكيده وهو يعاني سكرات الموت، عليه الصلاة والسلام.

فهذه الأبواب في بيان وسائل الشرك الأكبر، وما ينبغي سده، ومنعه، من الذرائع الموصلة إليه، رعاية وحماية للتوحيد؛ لأن النبي -عليه الصلاة والسلام- غَلَّظَ على من يفعلون شيئا من تلك الوسائل، أو الذرائع الموصلة إلى الشرك.

وهذا الباب في بيان أحد الوسائل الموصلة إلى الشرك والذرائع التي يجب منعها.

قوله -رحمه الله-: باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح.

صورة ذلك أن يأتي آتٍ إلى قبر رجل صالح، يعلم صلاحه، كأن يكون من الأنبياء والمرسلين، أو أن يكون من صالحي هذه الأمة، أو صالحي أمة غير هذه الأمة، فيتحرى ذلك المكان، كي يعبد الله وحده، دون ما سواه، رجاء بركة هذه البقعة.

وقد رَاج هذا الأمر عند الكثيرين من الناس، والدَّهْمَاء، حيث اعتقدوا أن ما حول قبور الأنبياء والصالحين من الأمكنة والبقاع مبارك وأن العبادة عندها ليست كالعبادة عند غيرها، والنبي -عليه الصلاة والسلام- غلَّظ في ذلك ونهى عنه، مع أن المغلَّظ عليه، لم يعبد إلا الله -جل وعلا- ولم يعبد صاحب القبر، لكنه اتخذ ذلك المكان رجاء بركته، ورجاء تَنَزُّل الرحمات، كما يقولون، ورجاء تنزل النسمات، والفضل من الله عليه.

فاختاره لأجل بركته، ولكنه لم يعبد إلا الله -جل وعلا- ومع ذلك لعن النبي -عليه الصلاة والسلام- ذلك الصنف الذين يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

قوله: ((فيمن عبد الله)) يعني: أنه لم يشرك بالله، بل عَبَدَ الله وَحَّدَه، بأن صلى لله مخلصا، أو دعا الله مخلصا، أو تضرع واستغاث، واستعاذ بالله -جل وعلا- مخلصا.

لكنه تحرى إيقاع هذه العبادات عند قبر رجل الصالح لأجل البركة والرجل الصالح -كما سبق أن ذكرنا- هو المقتصد الذي أتى بالواجبات وابتعد عن المحرمات، أو السابق بالخيرات، وهو أعلى درجة، فالصالحون من الرجال والنساء مقامات: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: من الآية١٦٣) وبعض

أهل العلم يعبر في تعريف الرجل الصالح بقوله: الصالح من عباد الله هو: القائم بحقوق الله، القائم بحقوق عباده، وهذا تعبير صحيح؛ ولأن المقتصد قائم بحقوق الله، قائم بحقوق عباده، أتى بالواجبات، وانتهى عن المحرمات.

وأعظم منه درجة السابق بالخيرات، فأهل السبق بالخيرات من العباد، لا يجوز أن تعظم قبورهم، وأن يغلى فيها بظن أن البقعة التي حول قبورهم بقعة مباركة، فإن هذا الفعل قد جاء فيه الوعيد الذي سيأتي في هذا الباب وغلظ -عليه الصلاة والسلام- فيه على فاعله.

وقوله: ((فكيف إذا عبده؟)) يعني: إذا كان هذا التغليظ، واللعن قد جاء في حق من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، ومن أسرج على القبور، أو عظَّمها، وعظَّم من فيها، وعَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ عندها: إذا كان هذا قد جاءت النصوص بلعن فاعله وأنه من شرار الخلق عند الله: فكيف إذا توجه ذلك العابد إلى صاحب القبر يدعوه ويرجوه، أو يخافه، أو يأمل منه، أو يستغيث به، أو يصلى له، أو يذبح له، أو يستشفع به؟!! لا شك أن هذا أعظم وأعظم في التغليظ من عبادة الله وحده عند قبر رجل صالح، كما قال الشيخ -رحمه الله- ((فكيف إذا عبده؟)) يعني: أن التغليظ يكون أشد وأشد، إذا عبد صاحب ذلك القبر وهذا مقتضى كلام الشيخ في هذا التبويب. وهذا واضح لأن تحري العبادة والدعاء أو تعظيم ذلك المكان وسيلة وذريعة إلى الشرك وعبادة المقبورين فإذا كان من فعل وسائل الشرك الأكبر ملعوناً وموصوفاً بأنه من شرار الخلق عند الله، فكيف بمن فعل الشرك الأكبر بعينه، وتوجه إلى قبور الصالحين، واتخذها أوثانا مع الله -جل وعلا-؟!! لا شك أن هذا أبلغ، وأبلغ في التغليظ؛ وذلك لأنه من الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام إذا فعله مسلم.

ومعنى **قوله**: (فكيف إذا عبده؟) أي: عبد القبر، أو عبد الرجل الصالح - صاحب القبر -؛ لأن عبادة القبوريين تارة تكون بالتوجه إلى القبر، وتارة بالتوجه إلى صاحب القبر، بل وتارة التوجه إلى ما حول القبر، كالأبنية المحاطة بالقبور، وصارت مشاهد، فمنها ما يكون مسوراً بالحديد فترى من هؤلاء من يعمد إلى تلك الستور والجدران والأبنية فيتمسح بها رجاء بركتها ويتخذها وسيلة إلى الله ، فتراهم أيضاً يعكفون عند قبور معظميهم ويتخذون مشاهدهم أوثانا يعبدونها، ويرجونها ويخافونها، وإذا ضم أحدهم إلى صدره تلك المشاهد، أو الحديد، أو الستور ونحو ذلك، فكأنه صار مقربا عند الله، وقبلت وسيلته تلك. ولا شك أن هذا نوع من أنواع اتخاذ المشاهد أوثانا، ومن اتخاذ القبور أوثانا، أو اتخاذ الرجل الصالح الذي هو متبرئ من أولئك، ومن عبادتهم له إلهاً مع الله، وقد علمنا أن العبادة معناها واسع، وأنها قد تكون بالصلاة له أو بدعوته، أو بسؤاله كشف المدلهمات، أو جلب الخيرات، أو الذبح لصاحب القبر، أو وضع النذور له، ونحو ذلك من أنواع العبادات، كما هو الواقع من أولئك الذين يعبدون الأوثان وقبور الصالحين.

في (الصحيح) عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة وما فيها من الصور. فقال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله)[1] فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين، فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

(**ف**): **قوله:** (في الصحيح) أي الصحيحين.

قوله: أن أم سلمة هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية. تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ماتت سنة اثنتين وستين.

(**ق**): وأخبرته وهو في مرض موته بما رأت؛ كما في (الصحيح).

(**ف**): **قوله:** ذكرت لرسول الله وفي الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ والكنيسة بفتح الكاف وكسر النون: معبد النصارى.

(**ق**): قولها (من الصور) الظاهر أن هذه الصور مجسمة وتماثيل منصوبة.

قوله: (أولئك)، المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أيا كانوا.

قوله: (أولئك)، يجوز في الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب باعتبار الجنس.

وقد ذكر العلماء أن في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة **ثلاثة أوجه:**

الوجه الأول: أن يكون مطابقا للمخاطب المفرد للمفرد والمثنى للمثنى والجمع للجمع، مذكرا كان أم مؤنثا.

الوجه الثاني: الفتح مطلقا.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقا، والفتح للمذكر مطلقا.

وأشهرها: أن يكون مطابقا للمخاطب، ثم الفتح مطلقا، ثم الفتح للمذكر، والكسر للمؤنث.

---

[1] البخاري: كتاب الصلاة / باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، حديث (٤٢٧)، ومسلم: كتاب المساجد / باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، حديث (٥٢٨).

قوله: (الرجل الصالح أو العبد الصالح)، أو: شك من الراوي.

قوله: (بنوا على قبره)، أي: قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: (صوروا فيه تلك الصور)، أي: التي رأت، والأقرب أنها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

قوله: (أولئك شرار الخلق عند الله)، لأن عملهم هذا وسيلة إلى الكفر والشرك، وهذا أعظم الظلم وأشده، فما كان وسيلة إليه؛ فإن صاحبه جدير بأن يكون من شرار الخلق عند الله - سبحانه وتعالى -.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل)، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله.

قوله: (فتنة القبور)؛ لأنهم بنوا المساجد عليها.

قوله: (فتنة التماثيل)؛ لأنهم صوروا فجمعوا بين فتنتين، وإنما سمي ذلك فتنة؛ لأنها سبب لصد الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك؛ فإنه من الفتنة، قال تعالى: ﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ١، ٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (البروج: من الآية١٠)؛ أي: صدوهم، أو فعلوا ما يصدونهم به عن دين الله.

(**ف**): **قال القرطبي**: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أعمالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور لأنها هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك. فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها. حتى نهي عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد

فيها المشركون الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سداً للذريعة. وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه. وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة. وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك. وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه. أ.هـ. كلامه رحمه الله تعالى.

ولهما عنها قالت: (لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال – وهو كذلك –: ((لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)) يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً) [أخرجاه][1].

(**ف**): **قوله:** ولهما أي البخاري ومسلم. وهو يغنى عن قوله في آخره أخرجاه.

(**ق**): **وقوله:** (عنها)؛ أي: عن عائشة.

قالت: (لما نزل برسول الله)، أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه.

(**ف**): **قوله:** طفق بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح. وبه جاء القرآن، ومعناه جعل.

(**ق**): من أفعال الشروع، واسمها مستتر، وجملة (يطرح) خبرها.

قوله: (خميصة)، هي كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبي ﷺ على وجهه.

قوله: (فإذا اغتم بها)، أي: أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

قوله: (وهو كذلك)، أي: وهو في هذه الحال عند الاحتضار.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز / باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، حديث (١٣٣٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة / باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٢٩).

قوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، يقول هذا في سياق الموت، و(لعنة الله)؛ أي: طرده وإبعاده، وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ؛ أي: أن النبي ﷺ يخبر بأن الله لعنهم.

ويحتمل أن يراد بها الدعاء؛ فتكون خبرية لفظا إنشائية معنى، والمعنى على هذا الاحتمال أن النبي ﷺ دعا عليهم وهو في سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله: (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، الجملة هذه تعليل لقوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى)، كأن قائلا يقول: لماذا لعنهم النبي ﷺ؛ فكان الجواب: أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ أي: أمكنة للسجود، سواء بنوا مساجد أم لا، يصلون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنها مبنية على القبور.

(**ف**): **قوله:** يحذر ما صنعوا الظاهر أن هذا كلام عائشة رضي الله عنها لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك. ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه – تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته – قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي في معنى الحديث: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. انتهى.

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف ابن يعقوب حيث قال: ' ١٢: ٢٨ ' " واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء " نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

(**ق**): **قوله:** (ولولا ذلك أبرز قبره)، أبرز؛ أي: أخرج من بيته؛ لأن البروز معناه الظهور، أي لولا التحذير وخوف أن يتخذ قبره مسجدا؛ لأخرج ودفن في البقيع مثلا، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجدا؛ فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره ﷺ.

ومن أسباب ذلك: إخباره ﷺ انه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض [1]، ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثر؛ كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قوله: (غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا)، خشي فيها روايتان: خشي وخشي[1].

---

[1] مسند الإمام أحمد (١/٧)، والترمذي: كتاب الجنائز /حديث (١٠١٨) وابن ماجة (١٦٢٨)، وقال الشيخ الألباني ((حديث ثابت بما له من الطرق والشواهد)).

فعلى رواية خشي يكون الذي وقعت منهم الخشية الصحابة رضي الله عنهم وعلى رواية خشي يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ.

والحقيقة أن الأمر كله حاصل؛ فالرسول ﷺ أخبر بأنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفا من اتخاذ قبره مسجدا، والصحابة رضي الله عنهم اتفقوا على أن يدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك.

ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يدفن في بيته، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته وعنده علم بأنه ﷺ قال (ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض)، وخوفا من اتخاذه مسجدا.

في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين؛ لأن مرتبة النبيين هي المرتبة الأولى من المراتب الأربع التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: ٦٩).

اعتراض وجوابه:

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول ﷺ الآن، فإنه في وسط المسجد؛ فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسجد لم ين على القبر؛ بل بني المسجد في حياة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم و لم يبق منهم إلا القليل، وذلك عام ٩٤هـ تقريبا؛ فليس مما أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، وممن خالف أيضا سعيد بن المسيب من التابعين؛ فلم يرض بهذا العمل.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنيا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظا ومحوطا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

---

[١] البخاري: كتاب الجنائز / باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، حديث (١٣٩٠).

فبهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه و لم ينكروه؛ فنقول: إن الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين، وليس محل إجماع، وعلى فرض أنه إجماع؛ فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك)[1] .

فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم لعن – وهو في السياق – من فعله، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد، وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)[2] .

(**ف**): **قوله:** عن جندب بن عبد الله أي ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور. مات بعد الستين.

(**ق**): **قوله:** (بخمس)، أي: خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

قوله: (أبرأ)، البراءة: هي التخلي؛ أي: أتخلي أن يكون لي منكم خليل.

قوله: (خليل)، هو الذي يبلغ في الحب غايته؛ لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبهذا سمي الخليل خليلا

---

[1] مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة / باب النهي عن بناء المساجد على القبور، واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٣٢).

[2] البخاري: كتاب التيمم / باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ (النساء: من الآية٤٣)و(المائدة: من الآيـة٦)، حـديث (٣٣٥)، ومسلم: أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث (٥٢١).

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله – عز وجل – فيما نعلم إلا لاثنين من خلقه، هما: إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: من الآية١٢٥)، ومحمد لقوله ﷺ: (إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا).

وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله، ومحمدا حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبة إبراهيم، لأنهم إذا جعلوا حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس؛ فإن الله يحب المحسنين والصابرين، وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة؛ فعلى رأيهم لا فرق بين الرسول ﷺ وغيره، لكن الخلة ما ذكرها الله إلا لإبراهيم، والنبي ﷺ أخبر أن الله اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا.

فالمهم: أن العامة مشكل أمرهم، دائما يصفون الرسول ﷺ بأنه حبيب الله، فنقول: أخطأتم وتنقصتم نبيكم؛ فالرسول خليل الله؛ لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايتها.

قوله: (فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا)، هذا تعليل لقوله: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل)؛ فالنبي ﷺ ليس في قلبه خلة لأحد إلا لله – عز وجل –.

قوله: (ولو كنت متخذا من أمتي خليلا؛ لاتخذت أبا بكر خليلا).

وهذا نص صريح على أن أبا بكر أفضل من علي، رضي الله عنهما، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أن عليا أفضل من أبي بكر.

(ف): قال ابن القيم رحمه الله: وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله – فمن جهلهم، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم. وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين.

قوله: ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لأتخذت أبا بكر خليلاً فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة.
وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد. قاله المصنف رحمه الله، وهو كما قال بلا ريب.

(ق): وقوله: (لو)، حرف امتناع لامتناع؛ فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع ﷺ من اتخاذ أبي بكر خليلا لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلا.

(ف): وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر، لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل يصلى بهم عمر وذلك في مرضه الذي توفى فيه ﷺ.

واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم. مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه.

(ق): **قوله:** (ألا وإن من كان قبلكم)، للتنبيه، وهذه الجملة في أثناء الحديث لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام.

(ف): **قوله:** ألا حرف استفتاح ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد... الحديث قال الخلخالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يُخرَّج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول: هو الشرك الجلي. والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

(ق): **قوله:** (ألا فلا تتخذوا)، هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: (فإني أنهاكم عن ذلك)، هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدا لهذا النهي لأهمية المقام.

من فوائد الحديث:

١. أن النبي ﷺ تبرأ من أن يتخذ أحدا خليلا؛ لأن قلبه مملوء بمحبة الله تعالى.
٢. أن الله تعالى اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا؛ ففيه فضيلة لرسول الله ﷺ.
٣. فضيلة إبراهيم ﷺ باتخاذه خليلا.
٤. فضيلة أبي بكر، وأنه أفضل الصحابة لأن الحديث يدل على أنه أحب الصحابة إلى الرسول ﷺ.
٥. التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد)، قوله: (فإني أنهاكم عن ذلك).
٦. أن من دفن شخصا في مسجد وجب عليه نبشه وإخراجه من المسجد.
٧. حرص النبي ﷺ على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه؛ لأن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه، ولهذا حرص النبي ﷺ على تحذير أمته منه، وهذا من كمال رأفته ورحمته بالأمة.
٨. أن من بنى مسجدا على قبر وجب عليه هدمه.

قوله: (فقد نهى عنه في آخر حياته ...) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه.

وقوله: (فقد نهى عنه في آخر حياته) الضمير يعود إلى النبي ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: (ثم إنه لعن وهو في سياق من فعله)؛ فالنبي ﷺ وهو عند فراق الدنيا لعن من اتخذ القبور مساجد.

(**ف**): قلت: فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها ويصلى عندها وإليها؟ هذا أعظم مشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله لو كانوا يعقلون.

(**ق**): **قوله:** (والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد).

(عندها)؛ أي: عند القبور، وقوله: (من ذلك)؛ أي: من اتخاذها مساجد، وعلى هذا؛ فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهى النبي ﷺ؛ كما في (صحيح مسلم) من حديث أبي مرثد الغنوي أن يصلى إلى القبور؛ فقال: (لا تصلوا إلى القبور)[1].

(**ف**): وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعاً " الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام " رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم[2].

قال ابن القيم رحمه الله: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته - صيغة لا تفعلوا وصيغة أني أنهاكم عن ذلك - ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، و لم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم من لا إله إلا الله فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلوا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يعوق ويغوث ونسرا، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم.

---

[1] مسلم: كتاب الجنائز / باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه، حديث (٩٧٢).

[2] صحيح: أحمد(٨٣/٣)، أبو داود: كتاب الصلاة (٤٩٢):باب في المواضع التي لا تجوز فيها الصلاة ،و الترمذي كتاب أبواب الصلاة (٣١٧): باب ما جاء أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، وابن ماجة: كتاب المسجد(٧٤٥): باب المواضع التي يكره فيها الصلاة. وابن حبان (٣٣٨-موارد). والحاكم(٢٥١/١): وصححه الشيخ شاكر في تعليقه على الترمذي، والألباني في أحكام الجنائز(١٣٧).

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتاوى (ج٢٦/١٩): (علة النهي أن ذلك ذريعة إلى الشرك مع أن المقابر تكون أيضاً مأوى للشياطين) أ.هـ.

قال الشارح رحمه الله تعالى: وممن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو a المقدسي. وشيخ الإسلام وغيرهم رحمهم الله. وهو الحق الذي لا ريب فيه.

قوله: فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً أي لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه النهي عنه، ولعن من فعله.

(ق): **قوله:** (وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجدا) الضمير في (قولها) يرجع إلى عائشة رضي الله عنها.

قوله: (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى.

قد يقال: (خشي أن يتخذ مسجدا) معناه: أي: مكانا يصلى فيه، وإن لم يبن المسجد.

ولا ريب أن أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في المسجد بني على قبر؛ فكأنهم صلوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم يبن مسجد.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معنيان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثاني: أن تتخذ مكانا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد فإذا كان هؤلاء القوم مثلا يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلى؛ فإن هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضا من اتخاذها مساجد.

قوله: (وكل موضع قصدت الصلاة فيه؛ فقد اتخذ مسجدا).

وهذا يشهد له العرف؛ فإن الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم؛ كالوزارات والإدارات لو سألت واحدا منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذي اتخذوه مصلى يصلون فيه، مع أنه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه؛ صار يسمى مسجدا.

قوله: (بل كل موضع يصلى .....)، فقوله: (مسجدا)؛ أي: مكانا للسجود، وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلى فيه، فإنه مسجد ما دمت تصلى فيه، كما يقال للسجادة التي تصلى عليها مسجد مصلى وإن كان الغالب عليها اسم مصلى.

الخلاصة:

إنه لا يجوز بناء المساجد على القبور؛ لأنها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر.

ولا يجوز أيضاً أن تقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها، فلو فرض أن رجلاً يذهب إلى المقبرة ويصلى عند قبر ولي من الأولياء على زعمه؛ فلنا: إنك اتخذت هذا القبر مسجداً، وإنك مستحق لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة، وفي كلام شيخ الإسلام ابن تيميه دليل على صحة تسمية كل شيء يصلى فيه مسجداً بالمعنى العام.

(**ف**): **قوله:** كما قال ﷺ " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " أي فسمى الأرض مسجداً، تجوز الصلاة في كل بقعة منها إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها، كالمقبرة ونحوها.

قال البغوي في شرح السنة: أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، فأباح الله ﷻ لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع: الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى.

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً:

(إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)

[رواه أبو حاتم في صحيحه][١].

(**ق**): **قوله:** (مرفوعاً)، المرفوع: ما أسند إلى النبي ﷺ.

قوله: (إن من شرار الناس)، من: للتبعيض، وشرار: جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

قوله: (من تدركهم الساعة)، من: اسم موصول اسم إن، والساعة؛ أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: (وهم أحياء)، الجملة حال من الهاء في (تدركهم).

وفي قولهم: (تدركهم الساعة وهم أحياء) إشكال، وهو أنه ثبت عن النبي ﷺ قوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله ﷻ)[١]، وفي رواية: (حتى تقوم الساعة)[٢]؛

---

[١] مسند الإمام أحمد (٤٣٥/١)، وابن خزيمة في (الصحيح) (٧٨٩) ــ وقال شيخ الإسلام: (إسناد جيد) ــ، (الاقتضاء)، (٥٦٨/٢)، وصححه الألباني كما في تحذي الساجد من اتخاذ القبور مساجد ص (١٨).

فكيف نوفق بين الحديثين؛ لأن ظاهر الحديث الذي ساقه المؤلف إن كل من تدركهم الساعة وهم أحياء؛ فهم من شرار الخلق؟ !

والجمع بينهما أن يقال: إن المراد بقوله؛ (حتى تقوم الساعة)؛ أي: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله يرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة.

(**ف**): **قوله:** والذين يتخذون القبور مساجد معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل، أي وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها.

(**ق**): فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم؛ فهي محرمة.

(**ف**): وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى. فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة لله تعالى، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته. والعجب أن أكثر من يدعى العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه، متابعة للأحاديث الصحيحة. وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه قال: ولا ريب في القطع بتحريمه، ثم ذكر الأحاديث في ذلك إلى أن قال وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره. هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.

وقال ابن القيم رحمه الله: يجب هدم القباب التي بنيت على القبور، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجميزي والظهير الترميني وغيرهما.

---

[١] البخاري: كتاب المناقب/باب: سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر حديث (٣٦٤٠)، ومسلم: كتاب الإمارة/باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم)، حديث (١٩٢١).

[٢] مسلم: كتاب الإمارة/باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي).

وقال القاضي ابن كج: ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وانفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي في حديث جابر ﷺ (نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه)[1] وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور. وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقال ابن رشد: كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطول، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف عليه.

وقال الزيلعي في شرح الكنز: ويكره أن يبنى على القبر. وذكر قاضي خان: أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه. لما روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص وللبناء فوق القبر. والمراد بالكراهة – عند الحنفية رحمهم الله – كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابن نجيم في شرح الكنز.

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس. وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم.

قال الشارح رحمه الله تعالى: وجزم النووي رحمه الله في شرح المهذب بتحريم البناء مطلقاً، وذكر في شرح مسلم نحوه أيضاً.

وقال أبو a عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغنى، والكافي وغيرهما رحمه الله تعالى: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور. لأن النبي ﷺ قال: " لعن الله اليهود والنصارى... " الحديث وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها، انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، ومن انقلبت تربتها أو لم تنقلب. ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد، فلا يصلى في هذا المكان سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب: لأن النبي ﷺ قال " إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك " وخص قبور الأنبياء لأن عكوف الناس

[1] مسلم، كتاب الجنائز: حديث(٩٧٠)(٩٤) باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه.

على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد، وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " وإن كان موضع قبر أو قبرين.

وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدم عن علي ﷺ أنه قال: لا أصلى في حمام ولا عند قبر.

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولاً لتحريم القبر وفنائه، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز. وذكر حديث أبي مرثد عن النبي ﷺ: (لا تصلوا إلى القبور)[1] وقال: إسناده جيد، انتهى.

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لأحتمل عدة أوراق. فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك: من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة ومن يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد وغيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد. فقال بعضهم النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة والنهي عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى، **وهذا كله باطل من وجوه:**

منها: أنه من القول على الله بلا علم. وهو حرام بنص الكتاب.

ومنها: أن ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه، وما المانع له أن يقول: من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله. ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً، لا يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل. فإن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضاً: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعم الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند

[1] مسلم، كتاب الجنائز: حديث(٩٧٢)(٩٨)،باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه.

القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(ق): فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد.

وفي قوله ﷺ: (إن من شرار الناس) دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر؛ لأن بعضهم أشد من بعض فيه، كما أنهم يتفاوتون في الخير أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٣)، وذلك من حيث الكمية، فمن صلى ركعتين؛ فليس كمن صلى أربعاً.

ومن حيث الكيفية، فمن صلى وهو قانت خاشع حاضر القلب؛ ليس كمن صلى وهو غافل.

ومن حيث النوعية، فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة؛ لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية.

وهذا الذي تدل عليه الأدلة مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل في الأعمال، حتى في الإيمان الذي هو في القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس في نفسه أنه في بعض الأحيان يجد في قلبه من الإيمان ما لا يجده في بعض الأحيان؛ فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر.

وخلاصة الباب:

أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف رحمه الله في **قوله**: (فيمن عبد الله) يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنه رحمه الله كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره؛ فهو شبيه بمن اتخذه مسجداً لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شاناً يفضل به على غيره؛ فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إن الشيخ أراد بذلك أن العلة هي تعظيم هذا المكان؛ لكونه قبراً، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النص له لفظاً.

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلّة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

(ق): فيه مسائل:

الأول: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل، تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: (ولو صحت نية الفاعل)؛ لأن الحكم علق على مجرد صورته؛ فهذا العمل لا يحتاج إلى نية لأنه معلق بمجرد الفعل.

فالنية تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطي أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما علق على فعل مجرد؛ فلا حاجة فيه إلى النية.

أي: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك، وهذه النقطة نتدرج منها إلى نقطة أخرى، وهي التحذير من مشابهة المشركين وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنما يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنما علق الحكم بالتشبه؛ أي: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء في مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك؛ فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة (إنما الأعمال بالنيات) هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لا تعارضه؛ لأن ما علق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل؛ كالأشياء المحرمة؛ كالظهار، والزنا، وما أشبهها.

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك، تؤخذ من قوله: (وصوروا فيه تلك الصور)، ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظمة عادة؛ كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم. أو شرعاً، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟ ! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

وهذا مما يدل على حرص النبي ﷺ على حماية جانب التوحيد؛ لأنه خلاصة دعوة الرسل، ولأن التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: (لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً)؛ لأن الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهي أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداُ، ونحن نحذر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الانكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلقوا له، واشتغلوا بما خلق لهم؛ فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا، ليس في

أفكارهم إلا الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا في الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنه يوجب الغفلة عن الله – ﷻ –، ولهذا سمى النبي ﷺ من فعل ذلك عبداً لما تعبد له، فقال: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة) [1]، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قدر له من الدنيا؛ فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لا تدري مقامك فيها؟ ! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُساء ويوم نُسر

فالحاصل: أن النبي ﷺ بعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصاً على سد كل الأبواب التي تؤدي إلى الشرك؛ فالرسول ﷺ حذر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: في سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهو في السياق.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر، تؤخذ من قوله: (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد)؛ فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، تؤخذ من قوله ﷺ: (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، وبئس رجلاً جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم في قبيح أعمالهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك، تؤخذ من قوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى).

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره، تؤخذ من قول عائشة: (يحذر ما صنعوا)؛ أي: ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره، تؤخذ من قول عائشة: (ولولا ذلك أبرز قبره؛ غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً).

هناك علة أخرى، وهي: إخباره بأنه ما من نبي يموت إلا دفن حيث يموت[2]، ولا يمتنع أن يكون للحكم علتان، كما لا يمتنع أن يكون للعلة حكمان.

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث (٢٨٨٧).

[2] الترمذي: كتاب الجنائز / باب: حديث (١٠١٨)، والبزار في مسنده (٧١/١) من حديث عائشة رضي الله عنها.وأخرجه ابن ماجة في كتاب ما جاء في الجنائز، باب: ذكر وفاته ودفنه ﷺ، حديث (١٦٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٣١/١)، حديث (٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: ((ما قبض الله تعالى إلا في الموضع الذي يحي أن يدفن فيه))، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٤٩).

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً، **سبق أن ذكرنا أن لها معنيين**:

١. بناء المساجد عليها.

٢. اتخاذها مكاناً للصلاة تقصد فيصلى عندها، بل إن من صلى عندها و لم يتخذها للصلاة؛ فقد اتخذها مسجداً بالمعنى العام.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجداً وبين من تقوم عليه الساعة؛ فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرك قبل أن يموت.

وقوله: (مع خاتمته)، وهي أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

الحادية عشرة: ذكر في خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع

قوله: (قبل أن يموت بخمس)، أي: خمس ليال، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: (أشر أهل البدع)، يقال: أشر، ويقال: شر؛ بحذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وإنما تكلم المؤلف رحمه الله عن حال الرافضة والجهمية وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على معرفتهما والإطلاع عليهما؛ لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية؛ فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولاً.

وحالهما: أنهما أشر أهل البدع.

وحكمهم: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حين سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدي. فرفضوه وتركوه، وكانوا في السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم، نفروا منه والعياذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودي تلبس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والغلو فيهم ليشغل الناس عن دين الإسلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبس بالنصرانية.

وأول ما أظهر ابن سبأ بدعته في عهد علي بن أبي طالب، حتى إنه جاءه وقال: أنت الله حقاً – والعياذ بالله –. فأمر علي بالأخدود فحفرت، وأمر بالحطب فجمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقهم بها؛ إلا أنه يقال: إن عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته؛ فالله أعلم.

فالمهم أن علياً رضي الله عنه رأى أمراً لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقاً، ثم بدأت هذه الفرقة الخبيثة تتكاثر؛ لأن شعارها في الحقيقة النفاق الذي يسمونه التقية، ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون على الإسلام؛ لأنها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه في الباطن؛ فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء، وأنهم في مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام، ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله في كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: (إنهم أشد الناس ضرراً على الإسلام، وأنهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد)؛ فهم يقولون: لا نصلى جماعة إلا خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أول من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق – وهما أبو بكر وعمر – بالنفاق، وإنهما ماتا على ذلك؛ كعبد الله بن أبي بن سلول وأشباههم والعياذ بالله؛ فانظر بماذا تحكم على هؤلاء بعد معرفة معتقداتهم ومنهجهم؟!.

وأما الجهمية: فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً؛ فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأت هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية؛ كالمعتزلة ومتأخري الرافضة؛ لأن الرافضة كانوا بالأول مشبهة، ولهذا قال أهل العلم: أول من عرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضي، ثم تحولوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذي أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ؛ فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إن الجهم بن صفوان نشأ في بلاد خرسان، وفيها كثير من الصابئة وعباد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضاً ما أخذ، فصارت هذه البدعة مركبة من اليهودية والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة في الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة في الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التي يضيفها الله – سبحانه – إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته؛ فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون الله متصفاً بالإثبات أو العدم، فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة؛ حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم؛ لأننا إن قلنا موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن؛ لأن تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالممتنعات على قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إن الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إن صلى؛ فهو مجبر، وإن قتل؛ فهو مجبر، وهكذا؛ فعطلوا بذلك حكمة الله لأنه إذا كان كل عامل مجبراً على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب، بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمه؛ لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتم أن الله أظلم الظالمين؛ لأنه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق؛ وعاقب من لا يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم؛ لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل؛ لأنه المالك إذا كان متصفاً بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾ (طـه: ١١٢)، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصاً في حقه وظلماً لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إن الإيمان مجرد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأن الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إن أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا إن فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنه ادعى الربوبيه لنفسه فقط، فصار بذلك كافراً.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم نقل أخبثها، لكن أخبث من مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: (إن جميع البدع أصلها من الرافضة)؛ فهم أصل البلية في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: (أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة)، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين

فرقة، أو أن الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين؛ أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأن المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: (شر أهل البدع).

وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار لأن اظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: (وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد)، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض؛ فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع، تؤخذ من قولها: (طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها)، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كان الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان [1] من الناس.

وهذا من حكمة الله – ﷻ –؛ فهو ﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأُوذي إيذاءً عظيماً، وكذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجات الصبر؛ لأن الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصبر درجة عالية لا تنال إلا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة، ويدل عليها قوله ﷺ: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لا نعلم أحداً نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم ﷺ.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة، ودليل ذلك أنه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه؛ فأثبت له المحبة، ونفى عنه الخلة؛ فدل هذا على أنها أعلى من المحبة، ، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره؛ فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: (بأن أبا بكر أحب الرجال إليه)[2]، ثم قال هنا: (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً) فدل على أن الخلة أعلى من المحبة.

---

[1] البخاري: كتاب المرضى/باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، حديث (٥٦٤٨) ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن حديث (٢٥٧١).

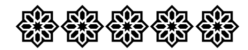
[2] البخاري: كتاب المناقب/ باب: قول النبي ﷺ ((لو كنت متخذاً خليلاً)) (٣٦٦٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة / باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه (٢٣٨٤).

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة، تؤخذ من قوله ﷺ: (ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً)، فلو كان غيره أفضل منه عند النبي ﷺ؛ لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضاً:

أن الأفضلية في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب؛ لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب؛ لكان حمزة بن عبدالمطلب والعباس رضي الله عنهما أحق من أبي بكر في ذلك، ومن ثم قدم أبو بكر رضي الله عنه على علي بن أبي طالب وغيره من آل النبي ﷺ.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته، لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: إن أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً) علم أنه رضي الله عنه أولى الناس برسول الله ﷺ؛ فيكون أحق الناس بخلافته.



باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

(**تم**): الغلو في قبور الصالحين وسيلة من وسائل الشرك، بل قد يصل الغلو إلى أن يكون شركا بالله – جل وعلا– وأن يُصيَّر ذلك القبر وثنا يعبد، فالغلو درجات وقد تقدم في الأبواب قبله ذكر بعض صور هذا الغلو في القبور، وهنا بين أن الغلو يصل إلى أن تصير تلك القبور أوثانا تعبد من دون الله.

وإذا قلنا: إن الغلو هو مجاوزة الحد، فمعناه هنا في هذا الباب هو مجاوزة الحد في الصفة التي ينبغي أن يكون عليها القبر، إذ صفتها في الشرع واحدة، ولم يأت عن الشارع دليل في تمييز قبور الصالحين عن غيرهم، بل الوارد وجوب أن تتساوى من حيث الصفة فلا يفرق بين قبر صالح أو طالح، فالقبر إما أن يكون ظاهر مُسنَّماً، وإما أن يكون مربعا، وهذه الصورة من حيث الظاهر واحدة.

فنهي النبي –عليه الصلاة والسلام– عن الكتابة على القبر أو تجصيصه أو رفعه في أنواع من السنن التي جاءت في أحكام القبور، إنما لأجل سد الطرق التي توصل إلى الغلو في قبور الصالحين.

فمجاوزة الحد في قبور الصالحين هي مجاوزة لما أمر الشارع أن تكون عليه القبور؛ لأن قبور الصالحين لا تختلف عن قبور غير الصالحين، فالغلو فيها يكون بالكتابة عليها، أو برفعها، أو بالبناء عليها، أو باتخاذها مساجد وكل هذا من الوسائل المؤدية إلى الشرك الأكبر ومن صور الغلو في قبور الصالحين، أن تُجعل وسيلة من الوسائل التي تقرب إلى الله –جل وعلا– أو أن يتخذ القبر أو من في القبر شفيعا لهم عند الله –جل وعلا– أو ينذر للقبر، أو يذبح له، أو يستشفع بترابه اعتقاداً أنه وسيلة عند الله –جل وعلا– ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله – تبارك وتعالى –.

فالغلو في قبور الصالحين، يكون بمجاوزة ما أُذِن فيها، ومن المجاوزة ما هو من وسائل الشرك، ومنها ما هو شرك صريح، كاتخاذ القبور أوثانا تُعبد من دون الله –جل وعلا–؛ ولهذا قال رحمه الله: باب ((ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا))، وقوله: ((يصيرها))، يعني: يجعلها، فقد يكون جعل الوسائل للغايات، يعني: أن الغلو صار وسيلة لاتخاذها أوثانا، وقد يكون الغُلُوُّ جعلها وثناً يُعبد من دون الله –جل وعلا–.

وهذا هو الواقع والمشاهد في كثير من بلاد الإسلام في أن القبور صارت أوثانا تعبد من دون الله لما أقيمت عليها المشاهد والقباب، ودُعِي الناس إليها وذبح لها، وقبلت النذور لها، وصار يُطَاف حولها، ويعكف عندها ونحو ذلك من أنواع الشرك الأكبر بالله.

(ق): **والقبور لها حق علينا من وجهين:**

١. أن لا نفرط فيما يجب لها من الاحترام؛ فلا تجوز إهانتها ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢. أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد.

وفي (صحيح مسلم) قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) [١]، وفي رواية: (ولا صورة إلا طمستها).

والقبر المشرف: هو الذي يتميز عن سائر القبور؛ فلا بد أن يسوى ليساويها لئلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن: إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه.

قوله: (الصالحين)، يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: (أوثاناً)، جمع وثن، وهو كل ما نصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، والصنم: تمثال ممثل؛ فيكون الوثن أعم.

ولكن ظاهر كلام المؤلف أن كل ما يعبد من دون الله يسمى وثناً، وإن لم يكن على تمثال نصب؛ لأن القبور قد لا يكون لها تمثال ينصب على القبر فيعبد.

قوله: (تعبد من دون الله)، أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله؛ لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإن قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله، وقد ثبت في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) [٢].

---

[١] مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٦٩).

[٢] مسلم: كتاب الزهد /باب: من أشرك في عمله غير الله، (٢٩٨٥).

روى مالك في (الموطأ): أن رسول الله ﷺ قال:

(اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[1]

(**ف**): هذا الحديث رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار: أن رسول الله ﷺ قال... الحديث. ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به، ولم يذكر عطاء، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: روى مالك في الموطأ هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبدالله المدني. إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين. وقيل أربع وتسعين. وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

(**ق**): **قوله:** (في (الموطأ))، كتاب مشهور من أصح الكتب؛ لأنه رحمه الله تحرى فيه صحة السند، وسنده أعلى من سند البخاري لقربه من الرسول ﷺ وكلما كان السند أعلى كان إلى الصحة أقرب، وفيه مع الأحاديث آثار عن الصحابة، وفيه أيضاً كلام وبحث للإمام مالك نفسه.

وقد شرحه كثير من أهل العلم [2]، ومن أوسع شروحه وأحسنها في الرواية والدراية: (التمهيد) لابن عبد البر، وهذا - أعني (التمهيد) - فيه علم كثير.

قوله: (اللهم)، أصلها: يا الله ! فحذفت يا النداء لأجل البداءة باسم الله، وعوض عنها الميم الدالة على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قوله: (لا تجعل قبري وثناً يعبد)، لا: للدعاء؛ لأنها طلب من الله، وتجعل: تصير، والمفعول الأول لها: (قبري)، والثاني: (وثناً).

وقوله: (يعبد)، صفة لوثن، وهي صفة كاشفة؛ لأنه الوثن هو الذي يعبد من دون الله.

---

[1] سبق تخريجه.

[2] انظر التمهيد لابن عبد البر (٤١/٥-٤٣)، وشرح الزرقاني (٤٩٦/١)، وتنوير الحوالك للسيوطي (١٤٣/١).

وإنما سأل النبي ﷺ ذلك لأن من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحيهم، فسأل النبي ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد؛ لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك.

(**ف**): **قوله:** اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد قد استجاب ﷲ دعاءه **كما قال ابن القيم رحمه ﷲ تعالى:**

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، لكن حماه ﷲ تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه. ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها. وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد ﷲ بن مسعود رضي الله عنه (كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير. تجرى على الناس يتخذونها سنة، إذا غيرت قيل: غيرت السنة)[1] انتهى.

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ.

قال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: (أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ)[2] فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعاً، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل. ومن لا فليمض ولا يتعمدها.

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار. حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف. فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟. قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشرة قبراً متفرقة. فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه عن الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست

---

[1] صحيح: أخرجه الدارمي(٦٠/١)، والحاكم(٥١٤/٤) وابن عبد البر في جامع بيان العلم، وصححه الألباني في صلاة التراويح ص(٥٠)وقال: (وهذا وإن كان موقوفاً فهو في حكم الرفع لأن ما فيه من التحدث عن أمور غيبية لا تقال إلا بالوحي فهو من أعلام نبوته ﷺ فقد تحققت كل جملة فيه...) والحديث في مصادره مطول وقد اختصره هنا المصنف.

[2] قال الحافظ في الفتح(٤٤٨/٧): (وجدت عند ابن سعد باسناد صحيح عن نافع ان عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجر فيصلون عندها فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت) أ.هـ.

عنهم برزوا بسريره فيمطرون. فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة.

قلت: ما كان تغير منه شيئ؟ قال: لا، إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض.

قال ابن القيم رحمه الله: ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها – ولم يستحب الشارع قصدها – فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلى عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة. وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه. انتهى ملخصاً.

(**ق**): **قوله:** (اشتد)، أي: عظم.

قوله: (غضب الله)، صفة حقيقية ثابتة لله –ﷻ– لا تماثل غضب المخلوق لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وقال أهل التأويل: غضب الله هو الانتقام ممن عصاه، وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممن عصاه.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: انتقم الله، وإنما قال: اشتد غضب الله، وهو ﷺ يعرف كيف يعبر، ويعرف الفرق بين غضب الله وبين الانتقام، وهو أنصح الخلف وأعلم الخلق بربه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه؛ لأنه لو أتى بذلك لكان ملبساً، وحاشاه أن يكون كذلك؛

فالغضب غير الانتقام وغير إرادة الانتقام؛ فالغضب صفة حقيقية ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق، لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

١. غضب المخلوق حقيقة هو: غليان دم القلب، وجمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفور، أما غضب الخالق؛ فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١).

٢. أن غضب الآدمي يؤثر آثاراً غير محمودة؛ فالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد، فيقتل المغضوب عليه، وربما يطلق زوجته، أو يكسر الإناء، ونحو ذلك، أما غضب الله؛ فلا يترتب عليه إلا آثار حميدة لأنه حكيم؛ فلا يمكن أن يترتب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محله.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين، لا في الحقيقة ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك؛ فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدل على القوة وتمام السلطان؛ لأن الغضب يدل على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام سلطانه؛ فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف:٥٥).

فإن معنى ﴿آسفونا﴾: أغضبونا؛ فجعل الانتقام غير الغضب، بل أثراً مترتباً عليه؛ فدل هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أن كل من حرف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله؛ فلا بد أن يقع في زلة ومهلكة؛ فالواجب علينا أن نسلم لما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله تعالى على ما ورد إثباتاً بلا تمثيل وتتريهاً بلا تعطيل.

قوله: (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، أي: جعلوها مساجد؛ إما بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها؛ فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

(**ف**): فيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر.

وفى القرى للطبري من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله ﷺ: " اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد " الحديث. كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ - إلى أن قال - وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول: زرت قبر النبي ﷺ لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا. وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. فكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة عليه والسلام، فإن ذلك مما أمر الله به. أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى. ألا ترى إلى قوله: (فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) مع زيارته لقبر أمه[1]. فإن هذا يتناول قبور الكفار. فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع، بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه

---

[1] مسلم ، كتاب الجنائز : ،حديث(٩٧٦)(١٠٨)، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر امه من حديث أبي هريرة وفيه (فزوروا القبور فانها تذكر الموت)أما قوله ﷺ (فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) فأخرجه الترمذي (١٠٥٤)من حديث بريدة وابن ماجة (١٥٧١)من حديث ابن مسعود وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص(١٧٨، ١٧٩).

كثيراً ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في مثل هـــذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة. أ.هـــ.
وفيه: أن النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

(**تم**): فهذا الحديث صريح في أن القبر يمكن أن يكون وثنا، والخرافيون يقولون: إن القبور لا يمكن أن تكون أوثانا، والأوثان هي أوثان الجاهلية وأصنام الجاهلية فقط، فنقول في الرد عليهم: إن الجـــاهليين إذا كانوا قد تعلقوا بأصنام وبأحجار وبأشجار وبغير ذلك من الأشياء، واعتقدوا فيها ووصل بهـــم ذلـــك الاعتقاد إلى حد الشرك الأكبر مع أن المسوغ العقلي والنفسي لعبادتها غير قوي، ولا ظاهر فيها، فـــإن إتخاذ قبور الصالحين والأنبياء والمرسلين أوثانا، أو أن يتوجه إلى أصحابها بالعبادة وارد من باب أولى لان تعلق القلوب بالصالحين أولى من تعلقها بالأحجار، وتعلقها بالأنبياء والمرسلين أولى من تعلقها بالجن أو بالأشجار أو بالأحجار أو نحو ذلك.
فوسائل الشرك بالقبور أظهر منها في الأصنام ونحوها؛ وأوضح، وهما يشتركان في أن كلاً منهما يعتقـــد تأثير الصنم أوالوثن في حصول ما يرجوه من الشفاعة عند الله فأولئك المشركون يقولـــون في آلهتـــهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى﴾ (الزمر: من الآية٣)ويقولون: ﴿هَـــؤُلاءِ شُـــفَعَاؤُنَا عِنْـــدَ الله ﴾ (يونس: من الآية١٨)وأهل العصور التي فشا فيها الشرك، إذا سألتهم يقولون: هـــذا توســـل، وهـــذا استشفاع، والحال واحدة، والسبيل الذي جعل تلك القبور أوثانا هو اتخاذها مساجد والبنـــاء عليهـــا، والحث على مجيئها، والتبرك بها، وذكر الكرامات التي تحصل عندها مـــن إجابـــة الـــدعوات وتفـــريج الكربات!!، إلى غير ذلك مما يفعله المشركون بقبور معظميهم.

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج[1]

(**ف**): **قوله:** ولابن جرير هو الإمام الحافظ a بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التفسير والتـــاريخ والأحكام وغيرها.

(**ق**): وتفسيره: هو أصل التفسير بالأثر ومرجع لجميع المفسرين بالأثر، ولا يخلو مـــن بعـــض الآثـــار الضعيفة، وكأنه يريد أن يجمع ما روي عن السلف من الآثار في تفسير القرآن، ويدع للقـــارئ الحكـــم

[1] البخاري: كتاب التفسير/ باب (أفرأيتم اللات والعزى)، حديث (٤٨٥٩).

عليها بالصحة أو الضعف بحسب تتبع رجال السند، وهي طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة من جهة أنها تجمع الآثار الواردة حتى لا تضيع، وربما تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها لبعض.

وليست جيدة من جهة أن القاصر بالعلم ربما يخلط الغث بالسمين ويأخذ بهذا وهذا، لكن من عرف طريقة السند، وراجع رجال السند، ونظر إلى أحوالهم وكلام العلماء فيهم؛ علم ذلك.

وقد أضاف إلى تفسيره بالأثر: التفسير بالنظر، ولا سيما ما يعود إلى اللغة العربية، ولهذا دائماً يرجح الرأي ويستدل له بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية؛ فالطبري مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع؛ فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه؛ لأن الإجماع لا بد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أني رأيت بعض المتأخرين يحذرون الطلبة من تفسيره؛ لأنه مملوء على زعمهم بالإسرائيليات، ويقولون: عليكم بـ (تفسير الكشاف) للزمخشري وما أشبه ذلك، وهؤلاء مخطئون؛ لأنهم لجهلهم بفضل التفسير بالآثار عن السلف واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا.

(**ف**): **قال ابن خزيمة**: لا أعلم على الأرض أعلم من a بن جرير وكان من المجتهدين لا يقلد أحداً. وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة.

قوله: عن سفيان الظاهر: أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهداً، وله أتباع يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: عن منصور هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمي ثقة ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: عن مجاهد هو ابن جبر - بالجيم الموحدة - أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقة إمام في التفسير، أخذه عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم. مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه.

(**ق**): ذكر عنه أنه قال: (عرضت المصحف على عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمته؛ فما تجاوزت آية إلا وقفت عندها أسأله عن تفسيرها).

قوله: ﴿أفرأيتم﴾، الهمزة: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزى ... إلخ.

لما ذكر الله تعالى قصة المعراج وما حصل فيه من الآيات العظيمة التي قال عنها: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾؛ قال: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾؛ أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج.

قوله: ﴿اللات﴾، (كان يلت لهم...) إلخ، على قراءة التشديد: من لت يلت؛ فهو لات.

أما على قراءة التخفيف؛ فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام؛ أي: حذف منها التضعيف تخفيفاً.

وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.

وأصله: رجل كان يلت السويق للحجاج، فلما مات؛ عظموه، وعكفوا على قبره، ثم جعلوه إلهاً، وجعلوا التسمية الأولى مقترنة بالتسمية الأخيرة؛ فيكون أصله من لت السويق، ثم جعلوه من الإله، وهذا على قراءة التخفيف أظهر من التشديد؛ فالتخفيف يرجح أنه من الإله، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويق.

وغلوا في قبره، وقالوا: هذا الرجل المحسن الذي يلت السويق للحجاج ويطعمهم إياه، ثم بعد ذلك عبدوه؛ فصار الغلو في القبور يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله.

وفي هذا التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نهى عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفاً من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثاً: بأن لا يدعوا قبراً مشرفاً إلا سووه [1]؛ لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أن له مزية ما اختلف عن القبور؛ فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: (السويق)، هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

وقوله: (كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره)، يعني: ثم عبدوه وجعلوه إلهاً مع الله.

(**ف**): **قوله:** وكذا قال أبو الجوزاء هو أوس بن عبد الله الربعي، بفتح الراء والباء، مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخاري: حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم. حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت سويق الحجاج.

[1] مسلم: كتاب الجنائز/باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٦٩)

(ق): **قوله:** (وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج)، والغريب أن النـــاس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله، ويلتون لهم السويق، وأن العباس أيضاً يسقي لهم من زمزم، وربمـــا يجعل في زمزم نبيذاً يحليه زبيباً أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج غايـــة الاستغلال - والعياذ بالله -؛ حتى يبيعوا عليهم ما يساوي ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيســـر لهـــم، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِـــيمٍ﴾ (الحج: من الآية٢٥)؛ فكيف بمن يفعل الإلحاد؟!.

(ف): قال ابن خزيمة: وكذا العزى، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

﴿لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج﴾ . [رواه أهل السنن][1] .

(ف): **قوله:** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " لعن رسول الله ﷺ زائرات القبـــور والمتخـــذين عليها المساجد والسرج " رواه أهل السنن.

قلت: وفي الباب حديث عن أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت. فأما حديث أبي هريرة فـــرواه أحمـــد والترمذي وصححه. وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عـــن أبيه قال: " لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور ".

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانيء، وقد ضعفه بعضهم ووثقة بعضهم. قال على بن المديني، عن يحيى القطان: لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانيء. وما سمعت أحداً مـــن الناس يقول فيه شيئاً، و لم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان. قال ابن معين: ليس به بـــأس ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه. انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزي.

(ق): **قولـه:** (لعن)، اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى (لعن رسول الله ﷺ)؛ أي: دعـــا عليهم باللعنة.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٢٢٩/١)، وسنن أبو داود: كتاب الجنائز/باب في زيارة النساء القبور، حديث (٤٨٥٩)، والترمذي: الصلاة/باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجداً، (٣٢٠)- وقال: (حديث حسن) ـــ والنسائي حديث (١٥٧٥، ٢٠٤٣) وقد صححه الشيخ الألباني دون **قوله:** (اتخاذ السرج).

قوله: (زائرات القبور)، زائرات: جمع زائرة، والزيارة هنا معناها: الخروج إلى المقابر، **وهي أنواع**:
منها ما هو سنة، وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى.
ومنها ما هو بدعة، وهي زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك.
ومنها ما هو شرك، وهي زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.
وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور)[1]؛ بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: (والمتخذين عليها المساجد)، هذا الشاهد من حديث؛ أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أن اتخاذ القبور مساجد له صورتان:

١- أن يتخذها مصلى يصلى عندها.

٢- بناء المساجد عليها.

قوله: (والسرج) جمع سراج، توقد عليها السرج ليلا ونهارا تعظيما وغلوا فيها.
وهذا الحديث يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، بل على أنه من كبائر الذنوب؛ لأن اللعن لا يكون إلا على كبيرة، ويدل على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب للعن فاعله.

(**ف**): **قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى**: وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: " أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور " وذكر حديث ابن عباس. ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا. فلم يأخذه أحدهما عن الآخر. وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب. ومثل هذا حجة بلا ريب. وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي، فإنه جعل الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم، ولم يكن شاذاً، أي مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات، هذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان رواه عن صاحب وذاك عن آخر؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف.

---

[1] مسند الإمام أحمد (٢/٣٣٧)، والترمذي: الجنائز/باب ما جاء في كراهة زيارة القبور للنساء، ٤/١٢ ـــ وقال: (حسن صحيح) ـــ وابن ماجة حديث (١٥٧٤).

(ق): **المناسبة للباب**:

إن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها؛ فيؤدي بعد ذلك إلى عبادتها.

مسألة: ما هي الصلة بين الجملة الأولى(زائرات القبور)، والجملة الثانية(المتخذين عليها المساجد والسرج)؟

الصلة بينهما ظاهرة: هي أن المرأة لرقة عاطفتها وقلة تمييزها وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعطفا على صاحب القبر؛ فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج.

وهل يدخل في اتخاذ السرج على المقابر ما وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

الجواب: أما في المواطن التي لا يحتاج الناس إليها، كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه؛ فلا حاجة إلى إسراجه، فلا يسرج، أما الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حوله؛ فقد يقال بجوازه؛ لأنها لا تسرج إلا بالليل؛ فليس في ذلك ما يدل على تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة.

ولكن الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقا للأسباب الآتية:

١- أنه ليس هناك ضرورة.

٢- أن الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك؛ فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التي فيها ويتبين لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجا معهم.

٣- أنه إذا فتح هذا الباب؛ فإن الشر سيتسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت؛ فمن الذي يتولى قفل هذه الإضاءة؟

الجواب: قد تترك، ثم يبقي كأنه متخذ عليها السرج؛ فالذي نرى أنه يمنع نهائيا.

أما إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه؛ فلا بأس بإضاءتها لأنها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لا تشاهد؛ فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم أن وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعادا عظيما، ولا يقدر للزمن الذين هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة؛ فالمسألة ليست هينة.

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب؛ لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه؛ لحديث أم عطية: (نهينا عن إتباع الجنائز، و لم يعزم علينا)[1].

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور؛ لحديث المرأة: التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: (اتقي الله واصبري). فقالت له: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمثل مصيبتي. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ. فجاءت إليه تعتذر؛ فلم يقبل عذرها، وقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[2]؛ فالنبي ﷺ شاهدها عند القبر و لم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

ولما ثبت في (صحيح مسلم)[3] من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفيا عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر؛ فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: (قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين .....) إلخ.

قالوا: فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيت قولا رابعا: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لقوله ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة)[4]، وهذا عام للرجال والنساء.

ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبد الله بن أبي مليكة: أليس النبي ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك[5].

وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح؛ فمن ذلك:

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز / باب اتباع النساء للجنائز، حديث (١٢٧٨)، ومسلم: كتاب الجنائز / باب نهي النساء عن اتباع الجنائز حديث (٩٣٨).

[2] البخاري: كتاب الجنائز / باب زيارة القبور، حديث (١٢٨٣)، ومسلم: كتاب الجنائز / باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى، حديث (٩٢٦).

[3] مسلم: كتاب الجنائز / باب ما يقال عند دخول ا لقبور والدعاء لأهلها حديث (٩٧٤).

[4] مسند الإمام أحمد (١/١٤٥)، ومسلم بلفظ: (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي.)، كتاب الجنائز / باب استئذان النبي ﷺ في زيارة قبر أمه، حديث (٩٧٧)، وأبو داود حديث(٣٢٣٥)و(٣٦٩٨)والترمذي (١٠٥٤).

[5] الترمذي: كتاب الجنائز / باب زيارة النساء للقبور، وذكره الهيثمي في (المجمع)، وقال: رواه الطبراني في (الكبير) ورجاله رجال الصحيح، والبغوي في (شرح السنة).

أولا: دعوى النسخ غير صحيحة؛ لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

١- تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها)[1] للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم: هل يدخل النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول - وهو الصحيح -؛ فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم، وعلى هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول: قد خص النبي ﷺ النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجال فقط؛ لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضا مما يبطل النسخ قوله: (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)[2]، ومن المعلوم أن قوله: (والمتخذين عليها المساجد والسرج) لا أحد يدعي أنه منسوخ، والحديث واحد؛ فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكما غير منسوخ.

٢- العلم بالتاريخ، وهنا لم نعلم التاريخ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل:

كنت لعنت من زار القبور، بل قال: (كنت نهيتكم)، والنهي دون اللعن.

وأيضا قوله: (كنت نهيتكم) خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء؛ فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء، إذا؛ فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

وثانيا: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة؛ أن المرأة لم تخرج للزيارة قطعا، لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يدل على أن في قلبها شيئا عظيما لم تتحمله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند القبر، ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر؛ لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة؛ فالحديث ليس صريحا بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحا؛ فلا يمكن أن يعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة؛ فإنها قالت للرسول ﷺ: ماذا أقول؟ فقال: (قولي: السلام عليكم)؛ فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل؛ فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة؛ إذ من الممكن أن يراد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحا؛ فلا يعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضي الله عنهما؛ فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد الله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقا؛ لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور؛ لكنا ننظر بماذا ستجيبه.

---

[1] سبق تخريجه.

[2] سبق تخريجه.

فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عاما، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنا نقول: إن عائشة رضي الله عنها استدلت بلفظ العموم؛ فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ، على أنه روي عنها؛ أنها قالت: (لو شهدتك ما زرتك)[1]، وهذا دليل على أنها رضي الله عنها خرجت لتدعو له؛ لأنها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إنها لا تصح عن عائشة رضي الله عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة؛ إذ ليس فيها دليل على أن الرسول ﷺ نسخه، وإذا فهمت هي؛ فلا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

(ف): فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال: ولا حجة في حديث عائشة فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ، و لم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة. يبين ذلك قولها قد أمر بزيارتها فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة. ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال و لم تقل لأخيها لما زرتك واللعن صريح في التحريم، والخطاب بالإذن في قوله فزوروها لم يتناول النساء فلا يدخلن في الحكم الناسخ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذ قد يكون قوله: لعن الله زوارات القبور بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج. ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر.

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله ﷺ فزوروها صيغة تذكير. وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل، وقيل أنه يحتمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء، لو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لا ستحب لهن زيارة القبور. وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك " يذكر الموت، ويرقق القلب، وتدمع العين "[2] هكذا في مسند أحمد. ومعلوم أن المرأة إذا فتح بالها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة، لما فيها من

---

[1] قارن بما في (أحكام الجنائز) للشيخ الألباني المسألة (١١٦-١١٧) ط المعارف أو المكتب الاسلامي.

[2] حسن: أحمد (٢٣٧/٣، ٢٥٠). وهو عند الحاكم أيضاً (٣٧٥/١، ٣٧٦) وحسنه الألباني في أحكام الجنائز(ص١٨٠) .

الضعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها. فيحرم هذا الباب سداً للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة. فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت وذلك ممكن في بيتها.

ومن العلماء من يقول: التشييع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ " ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت "[١]، وقوله لفاطمة: " أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلي الجنة "[٢] ويؤيده ثبت في الصحيحين من أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز ومعلوم أن قوله ﷺ: " من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان"[٣] وهو أدل على العموم من صيغة التذكير. فإن لفظ من يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز، فإذا لم يدخلن في هذا العموم فكذلك في ذلك بطريق الأولى. انتهى ملخصاً.

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً للرجال، خص بقوله: {لعن الله زوارات القبور....}الحديث فيكون من العام المخصوص.

وعندما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً.

منها: أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض مما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ.

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع، وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم.

قال a بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الاعتقاد: فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه: غالب – بل كل – من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير، ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون

---

[١] ضعيف :ابن ماجة (١٥٧٨) كتاب الجنائز :باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز .والبيهقي (٧٧/٤)من حديث علي ﷺ .وضعفه النووي في المجموع (٢٢٤/٥)والبوصيري في الزوائد وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٨٧٣).

[٢] ضعيف :أحمد (١٦٨/٢، ١٦٩)وأبو داود(٣١٢٣) كتاب الجنائز: باب التعزية والنسائي : في كتاب الجنائز (٢٧/٤، ٢٨) باب النعي وضعفه النووي في المجموع (٢٢٤/٥) والمنذري في مختصر السنن(٢٨٩/٤). والكُدي: هي المقابر كما في اللسان.

[٣] البخاري، كتاب الجنائز: حديث(١٢٧٨) باب اتباع الجنائز، مسلم، كتاب الجنائز :حديث(٩٣٨) (٣٤)، باب نهي النساء عن اتباع الجنائز من حديث أم عطية رضي الله عنها.

توسل به ولا هتف بإسمه، بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجد قبراً قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع. حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى.

(**ق**): **إشكال وجوابه:**

في **قوله:** (زوارات القبور) ألا يمكن أن يحمل النهي عن تكرار الزيارة لأن (زوارات)صيغة مبالغة؟

الجواب: هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك؛ فإننا أضعنا دلالة المطلق (زائرات).

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل؛ فـ (الزوارات) يعني: النساء إذا كن مئة كان فعلهن كثيرا، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ (صّ: ٥٠)، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف؛ إذ الباب لا يفتح إلا مرة واحدة، وأيضا قراءة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَت﴾(الزمر: ٧٣)؛ فهي مثلها.فالراجح تحريم زيارة النساء للمقابر،وأنها من كبائر الذنوب. وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيميه في (مجموع الفتاوى) (٢٤/٣٤٣).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد .

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها – معرفة صفة عبادة اللات التي هي أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنة زوَّارَات القبور.

العاشرة: لعنة من أسرجها .

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان، وهي: كل ما عبد من دون الله، سواء كان صنما أو قبرا أو غيره.

الثانية: تفسير العبادة، وهي: التذلل والخضوع للمعبود خوفا ورجاء ومحبة وتعظيما؛ لقوله: (لا تجعل قبري وثنا يعبد).

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف من وقوعه، وذلك في قوله: (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد).

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وذلك في قوله: (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله، تؤخذ من قوله: (اشتد غضب الله).

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: (إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله ولا بعده)[1].

السادسة - وهي من أهمها -: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان، وذلك في قوله: (فمات، فعكفوا على قبره).

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح، تؤخذ من قوله (كان يلت لهم السويق)؛ أي للحجاج؛ لأنه معظم عندهم، والغالب لا يكون معظما إلا صاحب دين.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية، وهو أنه كان يلت السويق.

التاسعة: لعنه زوارات القبور، أي: النبي ﷺ، وذكر رحمه الله لفظ: (زوارات القبور) مراعاة للفظ الآخر.

العاشرة: لعنه من أسرجها، وذلك في قوله: (والمتخذين عليها المساجد والسرج).

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهي: أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا كما في قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل، ولم يذكرها المؤلف رحمه الله، ولعله اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات، فإذا قيل بذلك؛ فله وجه.

مسألة: المرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلى فيها، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلم، ولا مانع فيه.

والأحسن البعد عن الزحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظن من يشاهدها إن المرأة يجوز لها قصد الزيارة؛ فيقع الإنسان في محذور، وتسليم المرء على النبي ﷺ يبلغه حيث كان.

---

[1] سبق تخريجه.

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

(ق): **قوله:** (المصطفى)، أصلها: المصتفى، من الصفوة، وهو خيار الشيء؛ فالنبي ﷺ أفضل المصطفين لأنه أفضل أولي العزم من الرسل، والرسل هم المصطفون، المراد به: a ﷺ، والاصطفاء على درجات أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

قوله: (حماية)، من حمى الشيء، إذا جعل له مانعا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها ونحو ذلك.

قوله: (جناب)، بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: (وسده كل طريق)، أي: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشرك؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: من الآية٤٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: الشرك الأصغر لا يغفره الله؛ لعموم قوله: ﴿أن يشرك به﴾، وعلى هذا؛ فجميع الذنوب دونه لقوله ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾؛ فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها؛ فالشرك ليس بالأمر الهين الذي يتهاون به، فالشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل؛ إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٥، ١٦)، وقال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)[1].

إذا؛ فالرسول ﷺ حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأن من سار على الدرب وصل، والشيطان يزين للإنسان أعمال السوء شيئا فشيئا حتى يصل إلى الغاية.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الوحي / باب بدء الوحي حديث (١)، ومسلم في كتاب الامارة /باب إنما الأعمال بالنيات حديث (١٩٠٧).

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨– ١٢٩].

(ق): **قوله:** ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾، الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنه رسول، وأنه من أنفسهم، وأنه عزيز عليه ما يشق علينا، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

والخطاب في **قوله:** ﴿جاءكم﴾ قيل للعرب؛ لقوله: ﴿من أنفسكم﴾؛ فالرسول ﷺ من العرب، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ (الجمعة: من الآية٢).

ويحتمل أن يكون عاما للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس؛ أي: ليس من الجن ولا الملائكة، بل هو من جنسكم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (الأعراف: من الآية١٨٩).

وعلى الاحتمال الأول فيه إشكال؛ لأن النبي ﷺ بعث إلى جميع الناس من العرب والعجم.

ولكن يقال في الجواب: إنه خوطب العرب بهذا؛ لأن منة الله عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولى؛ للعموم، ولقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: من الآية١٦٤)، ولما كان المراد العرب، قال ﴿منهم﴾ لا ﴿من أنفسكم﴾، قال الله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾، وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾، وعلى هذا، فإذا جاءت ﴿من أنفسهم﴾؛ فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت ﴿منهم﴾؛ فالمراد العرب؛ فعلى الاحتمال الثاني لا إشكال في الآية.

قوله ﴿رسول﴾، أي: من الله؛ كما قال الله تعالى ﴿رسول من الله يتلو صحفا مطهرة﴾، وفعول هنا بمعنى مفعل؛ أي: مرسل.

و ﴿من أنفسكم﴾، سبق الكلام فيها.

قوله: ﴿عزيز﴾، أي: صعب؛ لأن هذه المادة العين والزاي في اللغة العربية تدل على الصلابة، ومنه: (أرض عزاز)؛ أي: صلبة قوية، والمعنى: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم، ولهذا بعث بالحنيفية السمحة، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، وهذا من التيسير الذي بعث به الرسول ﷺ.

قوله: ﴿ما عنتم﴾، ﴿ما﴾: مصدرية، وليست موصولة؛ أي: عنتكم؛ أي: مشقتكم؛ لأن العنت بمعنى المشقة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ (النساء: من الآية٢٥).

والفعل بعد: ﴿ما﴾ يؤول إلى مصدر مرفوع، لكن بماذا هو مرفوع؟

يختلف باختلاف ﴿عزيز﴾ إذا قلنا: بأن ﴿عزيز﴾ صفة للرسول؛ صار المصدر المؤول فاعلا به؛ أي: عزيز عليه عنتكم، وإن قلنا: عزيز خبر مقدم، صار عنتكم مبتدأ، والجملة حينئذ تكون كلها صفة لرسول، أو يقال: عزيز مبتدأ، وعنتكم فاعل سد مسد الخبر على رأي الكوفيين الذي أشار ابن مالك في قوله:

.....................وقد   يجوز نحو " فائز أولو الرشد

(**ف**): ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: " بعثت بالحنيفية السمحة "[1] وفي الصحيح: " إن هذا الدين يسر" وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه.

(**ق**): **قوله:** ﴿حريص عليكم﴾، الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: باذل غاية جهده في مصلحتكم؛ فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾، وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: ﴿حريص عليكم﴾؛ فكان النبي ﷺ جامعا بين هذين الوصفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول ﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

(**ف**): **قوله:** ﴿حريص عليكم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً أخرجه الطبراني، قال: وقال رسول الله ﷺ: " ما بقى شيئ يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم".

وقوله: ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ كما قال تعالى: ' ١٦: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧ ' ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿فإن تولوا﴾ أي عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة ﴿ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾.

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها ومن ذلك تعظيم القبور

---

[1] حسن: جاء من طرق كثيرة كما قال المصنف من حديث حبيب بن أبي ثابت مرسلا ومن حديث أبي أمامة وجابر وعائشة موصولا .والحديث ضعفه اللباني في غاية المرام(٨)من حديث جابر ومرسل حبيب فقط. وحسن بهما الحديث في بحث جيد تظهر عليه أمارات التأدب مع العلماء .ص(٣٣٥:٣٣٣).

والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب.

(ق): **قوله:** ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، ﴿بالمؤمنين﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿رؤوف﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿رحيم﴾: مبتدأ ثان، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

والرأفة: أشد الرحمة وأرقها.

والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أما بالنسبة لله تعالى؛ فلا نفسرها بهذا التفسير؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لا تدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: (إن لله مئة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[1].

فمن يحصي هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا الله -عز وجل- الذي خلقها؟

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، **وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟**

الجواب: أبداً، لا تدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنها صفة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنها من صفاته، ورحمة المخلوق مخلوقة؛ لأنها من صفاته؛ فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن؛ لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نتراحم بها.

وقوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾؛ أي: إن النبي ﷺ في غير المؤمنين ليس رؤوفاً ولا رحيماً، بل هو شديد عليهم كما وصفه الله هو وأصحابه بذلك في قوله:﴿ a رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: من الآية٢٩).

قوله: ﴿فإن تولوا﴾، أي: أعرضوا مع هذا البيان الواضح بوصف الرسول ﷺ.

وهذا التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن التولي مع هذا البيان مكروه، ولهذا لم يخاطبوا به؛ فلم يقل: فإن توليتم.

---

[1] البخاري: كتاب الأدب / باب جعل الله الرحمة في مئة جزء، حديث (٦٠٠٠)، ومسلم: كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث (٢٧٥٢).

والبلاغيون يسمونه التفاتاً، ولو قيل: إنه انتقال؛ لكان أحسن.

قوله: ﴿فقل حسبي الله ﴾، الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: قل ذلك معتمداً على الله، متوكلاً عليه، معتصماً به: حسبي الله، وارتباط الجواب بالشرط واضح، أي: فإن أعرضوا؛ فلا يهمنك إعراضهم، بل قل بلسانك وقلبك: حسبي الله، و﴿حسبي﴾ خبر مقدم، و(لفظ الجلالة) مبتدأ مؤخر، ويجور العكس بأن نجعل: ﴿حسبي﴾ مبتدأ و(لفظ الجلالة) خبر، لكن لما كانت حسب نكرة لا تتعرف بالإضافة؛ كان الأولى أن نجعلها هي الخبر.

قوله: ﴿لا إله إلى هو﴾، أي: لا معبود حق حقيق بالعبادة سوى الله -عز وجل-.

قوله: ﴿عليه توكلت﴾، عليه: جار ومجرور متعلق بـ(توكلت)، وقدم للحصر.

والتوكل: هو الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به، وفعل الأسباب النافعة.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ مع قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ فيها جمع بين توحيدي الربوبية والعبودية، والله تعالى يجمع بين هذين الأمرين كثيراً، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(هود: من الآية١٢٣).

قوله: ﴿وهو رب العرش العظيم﴾، الضمير يعود على الله -سبحانه-.

و﴿رب العرش﴾: أي: خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش -وإن كانت ربوبية الله- عامة تشريفاً للعرش وتعظيماً له.

ومناسبة التوكل لقوله: ﴿رب العرش العظيم﴾؛ لأن من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه؛ فإنه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يتوكل عليه وحده.

وقوله: ﴿العرش﴾ فسره بعض الناس بالكرسي، ثم فسروا الكرسي بالعلم، وحينئذ لا يكون هناك كرسي ولا عرش، وهذا التفسير باطل، والصحيح إن العرش غير الكرسي، وأن الكرسي غير العلم، ولا يصح تفسيره بالعلم، بل الكرسي من مخلوقات الله العظيمة الذي وسع السماوات والأرض، والعرش أعظم وأعظم، ولهذا وصفه بأنه عظيم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة: من الآية١٢٩)، وبأنه مجيد بقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج: ١٥) على قراءة كسر الدال، وبأنه كريم في قوله: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون: من الآية١١٦)؛ لأنه أعظم المخلوقات التي بلغنا علمها وأعلاها لأن الله استوى عليه.

وفيه دليل على أن كلمة العظيم يوصف بها المخلوق؛ لأن العرش مخلوق، وكذلك الرحيم، والرؤوف، والحكيم.

ولا يلزم من اتفاق المسميين، فإذا كان الإنسان رؤوفاً؛ فلا يلزم أن يكون مثل الخالق، فلا تقل: إذا كان الإنسان سميعاً بصيراً عليماً لزم أن يكون مثل الخالق؛ لأن الله سميع بصير عليم، كما أن وجود الباري سبحانه لا يستلزم أن تكون ذاته كذوات الخلق؛ فإن أسماءه كذلك لا يستلزم أن تكون كأسماء الخلق، وهناك فرق عظيم بين هذا وهذا.

وقوله: ﴿فقل حسبي الله﴾؛ أي: كافيني، وهكذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي يتخلى الناس عنه؛ لأنه قال: ﴿فإن تولوا﴾.

وهذه الكلمة - كلمة الحسب - تقال في الشدائد، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، والنبي ﷺ وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران: من الآية١٧٣).

(تنبيه):

في سياقنا للآية الثانية فوائد نسأل الله أن ينفع بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[1] رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات.

(**ق**): **قوله:** (لا تجعلوا)، الجملة هنا نهي؛ فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

قوله: (بيوتكم)، جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

قوله: (قبوراً)، مفعول ثان لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها؛ فمنهم من قال: لا تجعلوها قبوراً؛ أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي ﷺ في بيته.

[1] تقدم تخريجه.

وأجيب عنه بأن من خصائصه ﷺ؛ فالنبي ﷺ دفن في بيته لسببين:

١. ما روي عن أبي بكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: (ما من نبي يموت إلا دفن حيث قبض) [١]، وهذا ضعفه بعض العلماء.

٢. ما روته عائشة رضي الله عنهما: (أنه خشي أن يتخذ مسجداً) [٢].

وقال بعض العلماء: المراد بـ(لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)؛ أي: لا تجعلوها مثل القبور، أي: المقبرة لا تصلون فيها، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة في بعض الطرق: (اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً)، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين؛ لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي ﷺ إلى اليوم، ولأنه إذا دفن في بيته؛ فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يساوي إلا قليلا، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع؛ فإن الرسول ﷺ يقول: (زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة)[٣].

وأما أن المعنى: لا تجعلوها قبورا؛ أي: مثل القبور في عدم الصلاة فيها؛ فهو دليل على أنه ينبغي إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته ولا يخليه من الصلاة.

وفيه أيضا: أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها.

إذا؛ فيكون هذا النهي عن ترك الصلاة في البيوت لئلا تشبه المقابر؛ فيكون دليل واضح على أن المقابر ليست محلا للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جدا للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبني عليها مسجدا.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلى عندها.

(**ف**): **قوله:** وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " رواه أبو داود بإسناد حسن. رواته ثقات.

---

[١] تقدم تخريجه قريباً في باب: ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبد؟!.

[٢] تقدم تخريجه في الباب السابق.

[٣] تقدم تخريجه قريباً.

قوله: لا تجعلوا بيوتكم قبوراً قال شيخ الإسلام: أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمترلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً: " اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً " وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعاً: " لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه ".

(**ق**): والحديث يدل على أن الأفضل: أن المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك جميع النوافل؛ لقوله ﷺ: (أفضل صلاة المرء في بيته؛ إلا المكتوبة)[1]؛ إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد، مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولو كنت في المدينة النبوية؛ لأن النبي ﷺ قال ذلك وهو في المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: (عيدا)، اسم لما يعتاد فعله، أو التردد إليه، فإذا اعتاد الإنسان أن يعمل عملا كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعاما ودعا الناس؛ فهذا يسمي عيدا لأنه جعله يعود ويتكرر.

وكذلك من العيد: أن تعتاد شيئا فتتردد إليه، مثل ما يفعل بعض الجهلة في شهر رجب وهو ما يسمي بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون من مكة إلى المدينة، ويزورون كما زعموا قبر النبي ﷺ، وإذا أقبلوا على المدينة تسمع لهم صياحا، وكانوا سابقا يذهبون من مكة إلى المدينة على الحمير خاصة، ولما جاءت السيارات صاروا يذهبون على السيارات.

وأيهما المراد من كلام النبي ﷺ: الأول؛ أي العمل الذي يتكرر بتكرر العام، أو التردد إلى المكان؟

الظاهر الثاني، أي: لا ترددوا على قبري وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع؛ فإنه ﷺ نهى عن ذلك، وإنما يزار لسبب، كما لو قدم الإنسان من سفر، فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي ﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر، يظنون أن هذا مثل زيارته في حياته؛ فهذا من الجهل، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه في أي مكان؛ فإن تسليمهم يبلغه.

قوله: (وصلوا علي)، هذا أمر؛ أي: قولوا: اللهم صل على a، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: ٥٦).

[1] البخاري: كتاب الآذان / باب صلاة الليل حديث (٧٣١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، حديث (٧٨١)

وفضل الصلاة على النبي ﷺ معروف، ومنه أن من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا[1].

والصلاة من الله على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إن الصلاة على المرء ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحققون من أهل العلم.

ويدل على بطلان القول الأول قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة: من الآية١٥٧)؛ فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل في العطف المغايرة، لأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا اجمع العلماء على أنه يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفوا: هل يجوز أن تقول: فلان صلى الله عليه؟.

فمن صلى على a ﷺ مرة أثنى الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة.

(**ف**): **قوله:** ولا تجعلوا قبري عيداً قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد. فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام التعبد فيها عيداً. وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية. فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية الكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

(**ق**): **قوله:** (فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)، حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويقال فيها: حيث، وحوث، وحاث، لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب؛ فالواجب أن يقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي ﷺ (أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي ﷺ سلام أمته عليه)[2]، فإن صح؛ فهذه هي الكيفية.

---

[1] مسلم: كتاب الصلاة / باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، حديث (٣٨٤).

[2] النسائي: كتاب السير / باب السلام على النبي ﷺ، حديث (١٢٨٢)، وأحمد في مسنده (٤٤١/١)، حديث (٤٢١٠)، والدارمي في سننه (٤٠٩/٢)، حديث (٢٧٧٤)، والحاكم في المستدرك (٤٥٦/٢)، حديث (٣٥٧٦)، وابن حبان في صحيحه (١٩٥/٣) حديث (٩١٤)، وقال ابن القيم في(جلاء الأفهام) (ص٢٣): (وهذا إسناد صحيح)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٧٤).

(**ف**): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً.

(**ق**): **قوله:** (رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات)، هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافا، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط؛ فمعناه أن فيه نوعا من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف رحمه الله وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أن المراد بالثقة ليس غاية الثقة؛ لأنه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحا؛ لأن ثقة الراوي تعود على تحقيق الوصفين فيه، وهما: العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضا تخف الثقة فيه.

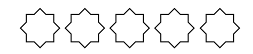
فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لاشك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: (حسن) بقوله: (رواته ثقات) أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: (حسن).

ومثل هذا ما يعبر به ابن حجر في (تقريب التهذيب) بقوله: (صدوق يهم)، وأحيانا يقول: (صدوق)، وصدوق أقوي؛ فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذي يوصف بأنه يهم.

لا يقول قائل: إن كلمة يهم لا تزيده ضعفا؛ لأنه ما من إنسان إلا ويهم.

فنقول: هذا لا يصح؛ لأن قولهم: (يهم) لا يعنون به الوهم الذي لا يخلو منه أحد، ولولا أن هناك غلبة في أوهامه ما وصفوه بها.

(**ف**): **قوله:** لا تجعلوا بيوتكم قبوراً تقدم كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله أ.هـ.د



قوله: وعن علي بن الحسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: (لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم). [رواه في المختارة][1] .

(**ف**): هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين.

أما الأول: فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره، ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم: ليس بالحافظ، تعرف وتنكر.

وقال ابن معين: هو ثقة، **وقال أبو زرعة**: لا بأس به، **قال شيخ الإسلام رحمه الله**: ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة، **وقال الحافظ a بن عبد الهادي**: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة.

وأما الحديث الثاني: فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء a بن عبد الواحد المقدسي في المختارة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. أ.هـ.

وقال سعيد بن منصور في سننه، حدثنا عبد العزيز بن a أخبرني سهيل بن أبي سهل قال: رآني الحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: " لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء ".

---

[1] أخرجه المقدسي في المختارة (٤٩/٢)، حديث (٤٢٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥٠/٢)، حديث (٧٥٤٢)، وعبد الرزاق في مسنده (٥٧٧/٣)، حديث (٦٧٢٦)، والبزار في مسنده (١٤٧/٢)، حديث (٥٠٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣٦١/١)، حديث (٤٦٩). والحديث صحيح.

وقال سعيد أيضاً: حدثنا حبان بن علي، حدثنا a عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ " لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني ".

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله. وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسنداً.

قوله: على بن الحسين أي ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين ﷺ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح. وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه.

قوله: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوهما.

(**ق**): **قوله:** (يجيء إلى فرجة)، هذا الرجل لاشك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلا ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر له مزية فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر؛ فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل.

قوله: (فنهاه)، أي: طلب منه الكف.

قوله: (ألا أحدثكم حديثا)، قال أحدثكم والرجل واحد؛ لأن الظاهر أنه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

و(ألا): أداة عرض؛ أي: أعرض عليكم أن أحدثكم.

وفائدتها: تنبيه المخاطب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قوله: (عن أبي عن جدي)، أبوه: الحسين، وجده: علي بن أبي طالب.

قوله: (عن رسول الله ﷺ)، السند متصل وفيه عنعنة لكنها لا تضر؛ لأنها من غير مدلس، فتحمل على السماع.

قوله: (لا تتخذوا قبري عيدا)، يقال فيه كما في الحديث السابق: أنه نهى أن يتخذ قبره عيدا يعتاد ويتكرر إليه؛ لأنه وسيلة إلى الشرك.

قوله: (ولا بيوتكم قبورا)، سبق معناه.

قوله: (وصلوا علي؛ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم)، اللفظ هكذا، وأشك في صحته؛ لأن قوله: (صلوا علي) يقتضي أن يقال: فإن صلاتكم تبلغني؛ إلا أن يقال هذا من باب الطي والنشر.

والمعنى: صلوا علي وسلموا؛ فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنه ذكر الفعلين والعلتين، لكن حذف من الأولى ما دلت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلت عليه الأولى.

وقوله: (وصلوا علي)، سبق معناها، المراد: صلوا علي في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلموا علي وتصلوا علي عنده.

قوله: (يبلغني)، تقدم كيف يبلغه ﷺ.

(**ف**): هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ما علمت أحداً رخص فيه، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهي عنه، لأن ذلك لم يشرع، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم، بل نهاهم عنه في قوله " لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني " فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد. وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذا كانت عائشة رضي الله عنها فيها، وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم، وبين لهم الأحاديث، أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر. كما كان ابن عمر يفعله. قال عبيد الله بن عمر عن نافع كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال:

السلام عليك يا رسول الله. السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف قال عبيد الله ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة. وفي المبسوط: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره. وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟.

وفي الحديث: دليل على منع شد الرحال إلى قبره والى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً. بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها. وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله – أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين – ونقل فيها اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك.

كالغزالي وأبي a المقدسي. ومن مانع لذلك، كابن بطة وابن عقيل، وأبي a الجويني، والقاضي عياض. وهو قول الجمهور، نص عليه مالك و لم يخالفه أحد من الأئمة، وهو الصواب. لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى " فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفياً. فقال: ي رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة رضي الله عنهم المنع – كما في الموطأ والمسند والسنن[1] – عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة – وقد أقبل من الطور –: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى " وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قزعة قال: (أتيت ابن عمر فقلت: إني أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأته)[2].

فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة جعلاً الطور مما نهي شد، الرحال إليه. لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصاً بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث. والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة. فإن الله سماه الوادي المقدس. والبقعة المباركة وكلم كليمه موسى عليه السلام هناك،

---

[1] مالك(١٠٨/١)،وأحمد(٧/٦، ٣٩٧)، والنسائي (١١٣/٣، ١١٥)وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص(٢٢٦).وصحيح الجامع(٧٢٤٨).

[2] رواه أحمد (٦٤/٣، ٩٣)عن أبي سعيد الخدري ﷺ وفيه شهر بن حوشب وهو مضطرب الحديث والحديث ثابت عدا فقرة "إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة " فهي ضعيفة لتفرد شهر بها". أفاده الدوسري في النهج السديد(٢٣٧).

وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الاخنائي فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى. لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال، ولا مزية تدعو إليه. وقد بسط القول في ذلك الحافظ a بن عبد الهادي في كتاب الصارم المنكي في رده السبكي، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، مع أنها لا تدل على محل النزاع. إذ ليس فيها إلا المختارة)ة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

قوله: (رواه في المختارة) المختارة: كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة عن الصحيحين.

ومؤلفه هو أبو عبد الله a بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام. قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان. فالله يرحمه ويرضى عنه.

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

(**ق**): وما أقل الحديث في الحنابلة، يعني المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون، يعني أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثا بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مع الحديث؛ فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر، فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحاما للعلم الآخر، أما الأحناف؛ فإنهم أخذوا بالفقه، لكن قلت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يسمون أصحاب الرأي (يعني: العقل والقياس)؛ لقلة الحديث عندهم، والشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكية كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبا في الحديث.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد .

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة، وسبق ذلك في أول الباب.

الثانية: إبعاده ﷺ أمته عن هذا الحمى غاية البعد، تؤخذ من قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا).

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته، وهذا مذكور في آية براءة.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، تؤخذ من قوله: (ولا تجعلوا قبري عيدا)؛ فقوله: (عيدا) هذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبي ﷺ من أفضل الأعمال من جنسها؛ فزيارة فيها سلام عليه، وحقه ﷺ أعظم من غيره.

وأما من حيث التذكير بالآخرة؛ فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

السادسة: حثه على النافلة في البيت، تؤخذ من قوله: (ولا تجعلوا بيوتكم قبورا)، **سبق أن فيها معنيين**:

المعنى الأول: أن لا يقبر في البيت، وهذا ظاهر الجملة.

الثاني: الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة، تؤخذ من قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا)؛ لأن المعنى: لا تجعلوها قبورا، أي: لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين؛ فكأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بأن الصلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد؛ فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب، أي: كونه نهى ﷺ أن يجعل قبره عيدا، العلة في ذلك: أن الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان فلا حاجة إلى أن يأتي إلى قبره، ولهذا نسلم ونصلى عليه في أي مكان؛ فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال علي بن الحسين: (ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء).

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة وسلام عليه، أي: فقط فكل من صلى عليه أو سلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: (فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم).



باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

(**تم**): هذا ((باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان))، وكتاب التوحيد من أوله إلى هذا الموضع ذكر فيه الإمام a بن عبد الوهاب -رحمه الله- مسائل كثيرة: من التوحيد، كبيان وجوب معرفة التوحيد والعلم به والخوف من الشرك وبيان بعض أفراد التوحيد وبعض أفراد الشرك الأكبر والأصغر، ثم بين شيئا مما يتعلق بوسائل ذلك وما يتعلق بالصور المختلفة التي وقعت من هذا الشرك في الأمم قبلنا وعند الجاهليين، يعني: في الأميين وفي أهل الكتاب، وكذلك مما وقع في هذه الأمة، ثم ذكر الوسائل والطرق الموصلة إلى الشرك، يعني: وسائل الشرك التي توصل إليه وطرق الشرك الموصلة إليه.

وقد يحتج بعض المشركين والخرافيين بأن هذه الأمة حماها الله -جل وعلا- من أن تعود إلى عبادة الأوثان، وعصمت من الوقوع في الشرك الأكبر، بدليل قول النبي -عليه الصلاة والسلام- (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم) فلما قال -عليه الصلاة والسلام-: (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب) علمنا أن عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة وأن الشرك الأكبر لا يكون، هكذا يدعي القبوريون.

والجواب: أن هذا الاحتجاج في غير موضعه، وفهم ذلك الدليل وذلك الحديث ليس على ذلك النحو، وجواب ما قالوا من أن قوله -عليه الصلاة والسلام-: (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب) هو أن نقول: أن الشيطان لا يعلم الغيب، وهو حريص على إغواء بني آدم كما قال تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: من الآية٦٢) هو أيس، ولكن لم يأيسه الله -جل وعلا- فالشيطان أيس بنفسه لما رأى عز الإسلام، ولما رأى ظهور التوحيد على الكفر في جزيرة العرب، فأيس لما رأى ذلك، ولكنه لم يأيسه الله -جل وعلا- من أن يعبد في جزيرة العرب، ثم إن في قوله: (أيس أن يعبده المصلون) إشارة إلى أن أهل الصلاة هم الذين لا تتأتى منهم عبادة الشيطان لأن المصلين لا شك أنهم آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر؛ لأن المصلى هو الذي أقام الصلاة، ومن أقام الصلاة فإن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، وأعظم المنكر الذي سينكره المصلى هو الشرك بالله -جل وعلا- فيكون الشيطان بذلك قد يأس أن يعبده من أقام الصلاة على حقيقتها، كما أراد الله -جل وعلا-.

فليس في هذا الحديث إذاً أن عبادة الشيطان لا تكون في هذه الأمة، بل فيه أن الشيطان أيس لما رأى عز الإسلام، ولكنه لم يُأيَّس، ولهذا فإن طائفة من العرب ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي ﷺ بقليل، ولا شك أن ذلك الارتداد كان من عبادة الشيطان؛ لأن عبادة الشيطان تكون - أيضاً- بطاعته كما قال -

جل وعلا-: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (يّس: ٦٠)، وعبادة الشيطان كما في تفسير الآية بطاعته في الأمر والنهي، وطاعته في الشرك، وطاعته في ترك الإيمان، وترك لوازمه.

وقد كان إمام الدعوة -رحمه الله- مستحضراً لهذا الدليل الذي يحتج به المشركون من هذه الأمة، من أهل عصره وغيرهم، على نفي عبادة هذه الأمة للأوثان وعدم وقوع الشرك منهم فأراد (رحمه الله) التنبيه على بطلان الاستدلال بذلك الدليل على ما ادعوه، بل هو لا يدل على قولهم، إذ قد عرفنا معناه وتفسيره فيما تقدم والأدلة جاءت مصرحة أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان وهذا مما يصحح معنى ما أشرنا إليه من كون الشيطان قد يأس من أن يعبده المصلون في جزيرة العرب؟.

وقول الإمام (رحمه الله): ((باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان))، معناه: أن عبادة الأوثان واقعة في هذه الأمة بنص قول النبي -عليه الصلاة والسلام- كما وقعت في الأمم السالفة. فهذه الأمة ستقع فيها عبادة غير الله -سبحانه وتعالى- أيضاً.

وقوله: ((باب ما جاء)) يعني من النصوص في الكتاب وفي السنة.

وقوله: ((أن بعض هذه الأمة)) نص على وقوع ذلك من بعضهم، لا من كلهم، لأن عبادة الأوثان لم تكن من الأمة كلها وإنما كانت من بعض هذه الأمة، وإلا فلا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على الحق كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم إلى قيام الساعة)).

والمقصود بـ ((بعض هذه الأمة)): ذلك بعض المرذول، فنفهم من هذا أن هناك من الأمة من يقوم بالاستمساك بالأمر الأول الذي كان عليه الرسول ﷺ وكان عليه صحابته، في أمر التوحيد وأمر العبادة والسنن. لكن **هل المقصود بقوله:** ((**هذه الأمة**)): **أمة الدعوة أو أمة الإجابة؟**.

إذا قلنا: أمة الدعوة، فلا شك أن هناك من أمة الدعوة، وهم جميع، الجن والإنس من عبد الأوثان، واستمر على عبادتها بعد بعثة النبي ﷺ و لم يرض ببعثته، و لم يقبل ذلك.

وإذا قلنا: إن المراد بالأمة أمة الإجابة يعني: أن من أجاب الرسول ﷺ في دعوته تتقادم بهم العهود حتى يرتدوا على أدبارهم ويتركوا دينهم كما جاء في بابٍ سَلَف في أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم الغلو في الصالحين.

لكن الظاهر هنا أن قوله: ((بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)) يعني: به أمة الإجابة؛ في أنهم يتركون دينهم ويتوجهون إلى الأوثان يعبدونها.

(**ق**): **وقوله:** (تعبد)؛ بفتح التاء، وفي بعض النسخ: (يعبد)؛ بفتح الياء المثناة من تحت.

فعلى قراءة (يعبد) لا إشكال فيها؛ لأن (بعض) مذكر.

وعلى قراءة (تعبد)؛ فإنه داخل في قوله ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولا تأنيثا ... أن كان لحذف موهلا

ومثلوا لذلك بقولهم: قطعت بعض أصابعه؛ فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فإذا صحت النسخة (تعبد)؛ فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

(**تم**): و((الأوثان)): جمع وثن، والوثن هو كل شيء توجه إليه الناس بالعبادة، إما بأن يدعوه مع الله -جل وعلا- أو أن يستغيثوا به، أو أن يعتقدوا فيه أنه ينفع ويضر بدون إذن الله -جل وعلا- أو أنه يرجى رجاء العبادة، ويخاف منه كخوف الله -جل وعلا- أي خوف السر، ونحو ذلك من التوجهات والعبادات فمن اعتقد فيه شيءٌ من ذلك، فهو وثن من الأوثان، وقد يكون راضيا بتلك العبادة، وقد لا يكون راضيا.

والوثن ليس هو المُصَوَّر على شكل صورة، بل الصنم هو ما كان على شكل صورة، كما سبق أن ذكرنا، فالفرق بين الأوثان والأصنام أن الأصنام هي الآلهة التي صُوِّرت على شكل صور، كأن يجعل لنبي من الأنبياء صورة، ويعبدها، أو يجعل لرجل من الرجال كـ(بوذا) ونحوه صورة ويسجد لها، ويعبدها، فهذه تسمى أصناماً، أما الأوثان، فهي الأشياء المعبودة، أيّاً كانت فقد تكون جداراً، أو قبراً، أو رجلاً ميتاً، أو صفة من الصفات يتخذها معبودة من دون الله، فكل ما توجه إليه العباد بنوع من أنواع العبادة، فهو وثن من الأوثان.

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

(النساء: من الآية٥٠)

(**تم**): **قوله:** وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: من الآية٥٠)ح

الجبت: اسم عام لكل ما فيه مخالفة لأمر الله -جل وعلا- وأمر رسوله ﷺ في الاعتقاد، فقد يكون الجبت سحرا، وهذا هو الذي فسر به كثير من السلف الجبت، وقد يكون الجبت الكاهن، وقد يكون الجبت الشيء المرذول الذي يضر صاحبه، ومعنى قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ يعني: يؤمنون بالسحر ويؤمنون بالباطل وبعبادة غير الله -جل وعلا-.

ويؤمنون بـ﴿الطاغوت﴾ والطاغوت مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فالطاغية هو الذي تجاوز الحد في أمر الدين بأن جعل ما لله له؛ ولهذا يعرف ابن القيم -رحمه الله- الطاغوت بأنه: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

ومعنى مجاوزة العبد به حده: أنه تعدى حَدَّ ذلك الشيء الذي توجه إليه وهو الحد الذي لم يأذن به الشرع مجاوزته له، فتوجهوا إليه بالعبادة أو اعتقاده فيه بعض خصائص الإلهية من أنه يغيثه كيف ما شاء، ومن أنه يملك غوثه، ويملك الشفاعة له، أو أن يغفر له، وأن يعطيه، ويملك أن يقربه إلى الله -جل وعلا- ونحو ذلك مما لا يملكه المعبودون، فإن كل ذلك مجاوزته بذلك المتخذ عن الحد الذي جعل له في الشرع.

فهذا معنى مجاوزة الحد في المعبودين، والمقصود بقوله (أو متبوع) مثل العلماء والقادة في أمر الدين ومعنى مجاوزة الحدّ فيهم أنهم صاروا يتبعونهم في كل ما قالوا: وإن أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال أو جعلوا لهم السنة بدعة والبدعة سنة، وهم يعلمون أصل الدين، ولكنهم خالفوا لأجل ما قال فلان، فإن هذا قد تُجُوِّزَ به حده، فإن حد المتبوع في الدين أن يكون آمرا بما أمر به الشرع ناهيا عما نهى عنه الشرع، فإذا أحل الحرام أو حرم الحلال، فإنه يعتبر طاغوتا، ومن اتبعه، فإنه يكون قد تجاوز به حده، وقد أقر بأنه طاغوت، واتخذه كذلك.

وقوله (أو مطاع) يشمل الأمراء والملوك والحكام والرؤساء الذين يأمرون بالحرام فيطاعون، ويأمرون بتحريم الحلال، فيطاعون في ذلك مع علم المطيع بما أمر الله -جل وعلا- به فهؤلاء اتخذوهم طواغيت؛ لأنهم جاوزوا بهم حدهم، فهذا شرح لمعنى ما ذكره الإمام ابن القيم (رحمه الله) من تعريف الطاغوت.

وقوله في الآية المتقدمة: ﴿الطاغوت﴾، يدخل فيه كل هذه الأنواع، أي الذين عُبِدوا والذين أُتبعوا والذين أُطيعوا.

(ف): **قوله:** ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن **a**.

فقالوا: ما أنتم وما **a**؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار. فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خيراً وأهدى سبيلاً فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾وفي مسند أحمد عن ابن عباس نحوه.

قال عمر بن الخطاب ﷺ الجبت السحر، والطاغوت الشيطان وكذلك قول ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم. وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك الجبت الشيطان - زاد ابن عباس:

بالحبشية وعن ابن عباس أيضاً: الجبت الشرك وعنه الجبت الأصنام وعنه الجبت: حيى بن أخطب وعن الشعبي الجبت الكاهن وعن مجاهد: الجبت كعب بن الأشرف قال الجوهري الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

(**تم**): ووجه مناسبة هذه الآية للباب: أن الإيمان بالجبت والطاغوت حصل ووقع من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من اليهود والنصارى، وإذا كان قد وقع منهم فسيقع في هذه الأمة لأن النبي ﷺ أخبر أن ما وقع في الأمم قبلنا سيقع في هذه الأمة، كما قال في حديث أبي سعيد الآتي: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) فمثل بشيء صغير، وهو دخول جحر الضب، الذي لا يمكن أن يفعل، تنبيها على أن ما هو أعلى من ذلك، سيقع من هذه الأمة كما وقع من الأمم قبلنا، وقد حصل كما أخبر به النبي ﷺ فإن من هذه الأمة، من آمن بالسحر، ومنهم من آمن بعبادة غير الله، ومنهم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، فكانوا بذلك متبعين سنن من كان قبلهم، وحصل منهم إيمان بالجبت والطاغوت، كما حصل من الأمم قبلهم.

(**ق**): **من فوائد الآية الأولى ما يلي:**

١. أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيباً من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت.
٢. أن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية؛ لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر، والذي يؤمن بالكفر يؤمن بما دونه من المعاصي.
٣. وجوب إنكار الجبت والطاغوت؛ لأن الله تعالى ساق الإيمان بهما مساق العجب والذم؛ فلا يجوز إقرار الجبت والطاغوت.
٤. ما ساقها المؤلف من أجله أن من هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت لقوله ﷺ: (لتركبن سنن من كان من قبلكم)[1]، فإذا وجد في بني إسرائيل من يؤمن بالجبت والطاغوت؛ فإنه سيوجد في هذه الأمة أيضاً من يؤمن بالجبت والطاغوت.

---

[1] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب: قول النبي ﷺ ((لتتبعن سسن من كان قبلكم))، ومسلم: كتاب العلم / باب: اتباع سنن اليهود والنصارى حديث (٢٦٦٩).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة: من الآية ٦٠)

(**ق**): الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم﴾، الخطاب للنبي ﷺ ردا على هؤلاء اليهود الذين اتخذاوا دين الإسلام هزوا ولعبا.

وقوله: ﴿أنبئكم﴾، أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق، أي: سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله: ﴿بشر من ذلك﴾، شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخففة من أخير، والناس مخففة من الأناس، وكذا كلمة الله مخففة من الإله.

وقوله: ﴿ذلك﴾ المشار إليه ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ فإن اليهود يزعمون أنهم هم الذين على الحق وأنهم خير من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه ليسوا على الحق؛ فقال الله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم﴾.

(**ف**): يقول تعالى لنبيه a ﷺ: قل يا a هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: من لعنه الله أي أبعده من رحمته وغضب عليه أي غضباً لا يرضى بعده أبداً " وجعل منهم القردة والخنازير " وقد قال الثوري عن علقمة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله اليَشْكُري عن المعرور بن سُويد أن ابن مسعود ﷺ قال " سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يهلك قوماً – أو قال لم يمسخ قوماً – فجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك " رواه مسلم.

قال البغوي في تفسيره قل يا a هل أنبئكم أخبركم بشر من ذلك الذي ذكرتم، يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شراً، لقوله تعالى: ' ٢٢: ٧٢ ' ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار ﴾.

وقوله: مثوبة ثواباً وجزاء، نصب على التفسير عند الله، من لعنه الله أي هو من لعنه الله وغضب عليه يعني اليهود ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى. وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير.

(ق): مثوبة: تمييز لشر؛ لأن شر اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبنيا له منصوبا على التمييز.
قال بن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة   ينصب تمييزا بما قد فسره

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا   مفضلا كـ(أنت) أعلى منزلا

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع، ويطلق على الجزاء؛ أي: بشر من ذلك جزاء عند الله.

قوله: ﴿عند الله ﴾، أي: في عمله وجزائه عقوبة أو ثوابا.

قوله: ﴿من لعنه الله ﴾، من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله؛ لأن الاستفهام انتهى عند قوله: ﴿مثوبة عند الله ﴾، وجواب الاستفهام: ﴿من لعنه الله ﴾.
ولعنه؛ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وغضب عليه﴾، أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام.
والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللائق بالله – ﷻ –؛ فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتنفى عن الله؛ فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

قوله: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾، القردة: جمع قرد، وهو حيوان معروف أقرب ما يكون شبهاً بالإنسان، والخنازير: جمع خنزير، وهو ذلك الحيوان الخبيث المعروف الذي وصفه الله بأنه رجس.
والإشارة هنا إلى اليهود؛ فإنهم لعنوا كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: من الآية٧٨).
وجعلوا قردة بقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: من الآية٦٥)، وغضب الله عليهم بقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ (البقرة: من الآية٩٠).

قوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾، فيها قراءتان في ﴿عبد﴾ وفي ﴿الطاغوت﴾:

الأول: بضم الباء ﴿عبد﴾، وعليها تكسر التاء في ﴿الطاغوت﴾؛ لأنه مجرور بالإضافة.
الثانية: بفتح الباء ﴿عبد﴾ على أنه فعل ماض معطوف على قوله؛ ﴿لعنه الله ﴾ صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، و لم يعد ﴿من﴾ مع طول الفصل؛ لأن هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت من لأوهم أنهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿عبد﴾ فعلاً ماضياً والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو يعود على الضمير في قوله: ﴿من لعنه الله ﴾، ﴿الطاغوت﴾ بفتح التاء مفعولاً به.

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه؛ لأن الفاعل في صلة الموصول هو ﴿ ٱللَّهُ ﴾، والفاعل في عبد يعود على ﴿من﴾.

وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومة.

والطاغوت على قراءة الفعل في ﴿عبد﴾ تكون مفتوحة ﴿عبد الطاغوت﴾، وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة ﴿عبد الطاغوت﴾.

وذكر في تركيب ﴿عبد﴾ مع ﴿الطاغوت﴾ أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذة غير القراءتين السبعيتين ﴿عَبَدَ﴾ ﴿عَبُدَ﴾.

(ف): وعبد الطاغوت أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي أطاع الشيطان فيما سول له، وقرأ ابن مسعود عبدوا الطاغوت وقرأ حمزة وعبد بضم الباء، والطاغوت بجر التاء أراد العبد. وهما لغتان: عبد بسكون الباء، وعبد بضمها، مثل سبع وسبع وقرأ الحسن وعبد الطاغوت على الواحد.

وفي تفسير الطبرسي: قرأ حمزة وحده وعبد الطاغوت بضم الباء وجر التاء، والباقون وعبد الطاغوت بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب وعبد الطاغوت بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء، قال: وحجة حمزة في قراءته وعبد الطاغوت أنه يحمله على ما عمل فيه جعل كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت. ومعنى جعل خلق. كقوله وجعل الظلمات والنور وليس عبد لفظ جمع لأنه ليس من أبنية الجموع شيئ على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الأفراد ومعناه الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة ٱللَّهِ لا تحصوها﴾ ولأن بناء فعل يراد به المبالغة والكثرة نحو يقظ ودنس، وكأن تقديره: أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأما من فتح فقال وعبد الطاغوت فإنه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة وهو قوله لعنه ٱللَّهُ وأفرد الضمير في عبد وإن كان المعنى فيه الكثرة، لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه، وفاعله ضمير من كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير من فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ.

وأما **قوله:** عبد الطاغوت فهو جمع عبد.وقال أحمد بن يحيى: عبد جمع عابد، كبازل وبزل، وشارف وشرف، وكذلك عبد جمع عابد. ومثله عباد وعباد. أ.هـ.

وقال شيخ الإسلام في قوله ﴿وعبد الطاغوت﴾: الصواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال، أي من لعنه وغضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت. قال: والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم ٱللَّهُ، مظهراً أو مضمراً. وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت. وهو الضمير في عبد و لم يعد سبحانه من لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود.

قوله: أولئك شر مكاناً مما تظنون بنا وأضل عن سواء السبيل وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى: ' ٢٥: ٢٤ ' ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ قاله العماد ابن كثير في تفسيره، وهو ظاهر.

(ق): ومن فوائد الآية الثانية ما يلي:

١. تقرير الخصم والاحتجاج عليه بما لا يستطيع إنكاره، بمعنى أنك تحتج على خصمك بأمر لا يستطيع إنكاره؛ فإن اليهود يعرفون بأن فيهم قوماً غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فإذا كانوا يقرون بذلك وهم يستهزئون بالمسلمين؛ فنقول لهم: أين محل الاستهزاء؟ ! الذين حلت عليهم هذه العقوبات أم الذين سلموا منها؟

والجواب: الذين حلت بهم العقوبة أحق بالاستهزاء.

٢. اختلاف الناس بالمنزلة عند الله؛ لقوله: ﴿بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾، ولا شك أن الناس يختلفون بزيادة الإيمان ونقصه وما يترتب عليه من الجزاء.

٣. سوء حال اليهود الذين حلت بهم هذه العقوبات من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

٤. إثبات أفعال الله الاختيارية، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء؛ لقوله: ﴿لعنه الله﴾؛ فإن اللعن من صفات الأفعال.

٥. إثبات الغضب لله؛ لقوله: ﴿وغضب عليه﴾.

٦. إثبات القدرة لله؛ لقوله: ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾.

وهل المراد بالقردة والخنازير هذه الموجودة؟

والجواب: لا؛ لما ثبت في (صحيح مسلم) عن النبي ﷺ: (أن كل أمة مسخت لا يبقى لها نسل)[1]، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك، وعلى هذا؛ فليس هذا الموجود من القردة والخنازير هو بقية أولئك الممسوخين.

٧. أن العقوبات من جنس العمل؛ لأن هؤلاء الذين مسخوا قردة، والقرد أشبه ما يكون شبهاً بالإنسان، فعلوا فعلاً ظاهرة الإباحة والحل وهو محرم، وذلك أنه حرم عليهم الصيد يوم السبت ابتلاء من الله، فإذا جاء يوم السبت امتلاء البحر بالحيتان، وظهرت على سطح الماء، وفي غيره من الأيام تختفي ولا يأتي منها شيء، فلما طال عليهم الأمد صنعوا شباكاً؛ فصاروا ينصبونها في يوم الجمعة ويدعون الحيتان تدخل فيها يوم السبت، فإذا أتى يوم الأحد أخذوها، وهذه حيلة ظاهرها الحل، ولكن حقيقتها ومعناها الوقوع في الإثم تماماً، ولهذا مسخوا إلى حيوان يشبه الإنسان وليس

---

[1] مسلم: كتاب القدر/باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، حديث (٢٦٦٣).

بإنسان، وهو القرد، قال تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: من الآية٦٥)، وهو يفيد أن الجزاء من جنس العمل، ويدل عليه صراحة قوله تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ (العنكبوت: من الآية٤٠).

٨. أن هؤلاء اليهود صاروا يعبدون الطاغوت؛ لقوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾، ولا شك أنهم حتى الآن يعبدونه؛ لأنهم عبدوا الشيطان وأطاعوه وعصوا الله ورسوله.

٩. وفي الآية نكتة نحوية في قوله: ﴿عليه﴾ و﴿منهم﴾ في قوله تعالى: ﴿من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير﴾؛ فالضمير في ﴿لعنه﴾ الهاء، و﴿غضب عليه﴾ مفرد، و﴿منهم﴾ جمع، مع أن المرجع واحد، وهو﴿من﴾.

والجواب: أنه روعي في الإفراد اللفظ، وفي الجمع المعنى، وذلك أن ﴿من﴾ اسم موصول صالحة للمفرد وغيره، قال ابن مالك:

ومن وما وال تساوي ما ذكر

لما ذكر الأسماء الموصولة من المفرد والمثنى والجمع من مذكر ومؤنث قال: ومن وما... إلخ.

وقال: ﴿من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة﴾، ولم يقل: وجعلهم قردة؛ لأن اللعن والغضب عام لهم جميعاً، والعقوبة بمسخهم إلى قردة وخنازير خاص ببعضهم، وليس شاملاً لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴾ (الكهف: من الآية٢١).

(ق): الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾، هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ (الكهف: ٩)، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله – عز وجل –، فيسر الله لهم غاراً، فدخلوا فيه، وناموا نومه طويلة بلغت﴿ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ (الكهف: من الآية٢٥) وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أن الله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يتسرب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً، وآخر الأمر أن أهل المدينة اطلعوا على أمرهم، وقالوا: لا بد أن نبني على قبورهم مسجداً.

وقوله: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾، المراد بهم: الحكام في ذلك الوقت قالوا مقسمين مؤكدين: ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾، وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

(**ف**): والمراد أهم فعلوا مع الفتية بعد موقم ما يذم فاعله. لأن النبي ﷺ قال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم[1].

(**تم**): وهذه الجملة بعض آية من قصة أصحاب الكهف، جعلهم الله -جل وعلا- آية، كما قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ (الكهف: ٢٥)

وأطلع الناس على أنهم مكثوا أحياء هذه المدة الطويلة، فاعتقدوا فيهم، ولما ماتوا تنازعوا في أمرهم، فمنهم من قال: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾ (الكهف: من الآية٢١) ومنهم من قال: اجعلوا لهم فناء ودارا، وعظموا مكانهم.

واختلف الناس فيهم في ذلك الزمان. قال الله -جل وعلا-: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ (الكهف: من الآية٢١)

فمن الذين غلبوا على الأمر؟ اختلف المفسرون في ذلك فقال قائلون: هم المسلمون مسلمو ذلك الزمان حصل منهم تعظيم لأصحاب الكهف، فقالوا ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾، وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾، تعظيما لهم ودلالة للناس عليهم، فإذا كان هذا القول راجحا، فإنه من وسائل الشرك بالله ويؤدي إلى عبادة تلك القبور، والاعتقاد في أصحاب الكهف، وهذا القدر حصل في هذه الأمة.

والقول الثاني: أن الذين غلبوا على أمرهم هم المشركون، يعني: أتباع ذلك الدين لاعتقادهم الجاهلي، ولما في قلوبهم من الشرك والبدع التي خالفوا بها أنبياءهم، قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾

والقول الثالث: وهو الذي رجحه ابن كثير -رحمه الله- ورجحه عدد أيضا من أهل العلم أن ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ هم الكبراء والأمراء وأصحاب النفوذ فيهم، لأن الذي له الغلبة في الأمر، هو من يملك الأمر والنهي في الناس، وهم الكبراء وأصحاب النفوذ وملوك ذلك الزمان وأمراؤه عظموا هؤلاء الصالحين، وقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ وقد حصل هذا في تلك الأمة، وما دام أنه حصل، فإنه سيحصل في هذه الأمة؛ لأنه ما من خصلة من الشرك حصلت في الأمم قبلنا إلا وحصلت في هذه الأمة حتى ادعى بعض هذه الأمة أنه الله -جل وعلا- وأن الله يحل فيه ونحو ذلك، بل قد ادعوا أن روح الإله تتناسخ في أناس معينين، كما هو اعتقاد طوائف من الباطنيين ونحو ذلك.

---

[1] تقدم تخريجه .

(ق): ومن فوائد الآية الثالثة ما يلي:

١. ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة في أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وحكمته.
٢. أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور؛ لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد؛ لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام غلوا فيهم.
٣. أن الغلو في القبور وإن قل قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه، ولهذا قال النبي ﷺ لعلي حين بعثه: (ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته)[١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب؛ لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله ! اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)). أخرجاه[٢].

(ق): قوله في الحديث: (لتتبعن)، اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعن.

قوله: (سنن من كان قبلكم)، فيها روايتان: (سنن) و(سنن).

أما (سنن)؛ بضم السين: جمع سنة، وهي الطريقة.

وأما (سنن)؛ بالفتح: فهي مفردة بمعنى الطريق.

وفعل تأتي مفردة مثل: فنن جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

وقوله: (من كان قبلكم)، أي: من الأمم.

وقوله: (لتتبعن سنن من كان قبلكم) ليس على ظاهره؛ بل هو عام مخصوص؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصوص؛ لأن في هذه الأمة من لا يتبع كما أخبر النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق، وقد يقال: إن الحديث على عمومه وأنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على

---

[١] مسلم: كتاب الجنائز/باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٦٩).

[٢] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة /باب ما قول النبي ﷺ ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، حديث (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم/باب إتباع سنن اليهود والنصارى، حديث (٢٦٦٩)، وألفاظ الصحيحين ليس فيها: ((القذة بالقذة)) ولكن ((شبراً بشبر وذراعاً بذراع)) وأما لفظ (حذو القذة بالقذة) فقد أخرجه الإمام أحمد في المسند.

عمومه، ومن المعلوم أن من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.ومنه ما يخرج من الملة: كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق، ولنستعرض شيئاً من هذه السنن:

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين؛ فإنها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ (نوح: ٢٣).

ومن ذلك الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير ٱللَّه، وقد جاء في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف ٱللَّه بالنقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: من الآية٦٤)، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: من الآية١٨١)، وقالوا: إن ٱللَّه تعب من خلق السماوات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه؛ فقد وجد من قال: ليس له يد، ومن قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا يترل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجاً عنه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه؛ فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يحب، وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم ٱللَّه؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام ٱللَّه عن مواضعه لفظاً ومعنى؛ كاليهود حين قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ (البقرة: من الآية٥٨)، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة و لم يقولوا حطة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك؛ فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥)، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إن اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود في ﴿حطة﴾ فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهـــــمي ... همـا في وحي رب العرش زائدتان
أمر اليهود بأن يقولوا حـطـة ... فأبوا وقالوا حنــــطة لهـوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الـــحرف للنقصـان

ووجد في الأمم السابقة من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ﷲ، ووجد في هذه الأمـــة مـــن يعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقاً للواقع: (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، ولكن يبقى النظر: **هل هذا للتحذير أو للإقرار؟**.

الجواب: لا شك أنه للتحذير وليس للإقرار؛ فلا يقول أحد: سأحسد وسأكل الربا، وســأعتدي علـــى الخلق؛ لأن الرسول ﷺ قال ذلك، فمن قال ذلك؛ فإننا نقول له: أخطأت؛ لأن قول النبي ﷺ لا شك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

ثم نقول لهم أيضاً: إن الرسول ﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أن الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أن الإنسان يعصي أباه ويدني صـــديقه[1]، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لضالون، ووجد في هده الأمة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لرجعيون.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ما سبق، ولكن من وفقه ﷲ للهداية اهتدى.

والحاصل: أنك لا تكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجدت لها أصلا في الأمم السابقة.

ولا تجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثا في هذه الأمة.

(**ف**): **قوله:** سنن بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى.

قولـه: حذو القذة بالقذة بنصب حذو على المصدر. والقذة بضم القاف واحدة القـــذذ وهـــو ريـــش السهم. أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخـــرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر، وهو علم من أعلام النبوة.

قولـه: حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وفي حديث آخر حتى لو كان فيهم من يأتي أمـــة علانيـــة لكان في أمتي من يفعل ذلك أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد مـــن عبادنا ففيه شبه من النصارى.أ.هـــ.

---

[1] الترمذي: كتاب الفتن / باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، حديث (٢٢١٠) قال الألباني: (ضعيف) السلسلة الضعيفة، (٧١٧٢).

قلت: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريباً.

(ق): هذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة.

وجحر الضب من أصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولي أن ندخله؛ فالنبي ﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة؛ كقوله ﷺ: (من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين)[1]، ومن اقتطع ذراعا؛ فمن باب أولى.

قوله: (قالوا اليهود والنصارى) يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

الثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

وعلى كل تقدير؛ فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبي ﷺ؛ فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، وسموا يهودا نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنهم هادوا إلى الله؛ أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

والنصارى: هم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، وسموا بذلك نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وقيل من النصرة؛ كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إلى الله﴾ (الصف: من الآية١٤).

قوله: (قال فمن)، من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير؛ أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة رضي الله عنهم لما حدثهم ﷺ بهذا الحديث كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوا قرر النبي ﷺ أنهم اليهود والنصارى.

(**تم**): وجه الدلالة من هذا الحديث ظاهرة، بل عماد هذا الباب على هذا الحديث من أن كل كفر وشرك وقع في الأمم السالفة، فسيقع في هذه الأمة، فإن الأمم السالفة عبدت الأوثان، وكفرت بالله -جل وعلا- وسيقع في هذه الأمة، من يعبد الأوثان، ومن يكفر بالله -جل وعلا- في الربوبية وفي الإلهية، وفي الأسماء والصفات، وفي أفعال الله -جل وعلا-وفي الحكم والتحاكم، وهكذا في أنواع كثيرة مما حصل فيمن قبلنا، حتى في أمور السلوك والبدع، بل حتى في أمور الأخلاق والعادات التي قد تتصل بالدين، فإنه سلكت هذه الأمة مسلك الأمم قبلها مخالفة نهي النبي ﷺ(٢)

(ق): **من فوائد الحديث:**

---

[1] البخاري: كتاب المظالم والغصب / باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، حديث (٢٤٥٢) ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها حديث (١٦١٠).

١. ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنه من سنن من قبلنا، وقد اخبر ﷺ أننا سنتبعهم.
٢. ويستفاد أيضا من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا في معصية الله.
٣. أنه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك – ولله الحمد – موجود في القرآن والسنة.
٤. استعظام هذا الأمر عند الصحابة؛ لقولهم اليهود والنصارى، فإن الاستفهام للاستعظام؛ أي: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى من النبي ﷺ.
٥. أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة؛ فإنه يكون أبعد من الحق؛ لأنه أخبر عن مستقبل و لم يخبر عن الحاضر، وأن من سنن من قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

فإذا كان طول الأمد سببا لقسوة القلب فيمن قبلنا؛ فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء في (البخاري) من حديث أنس ﷺ؛ أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم)[1].ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد؛ فحديث أنس ﷺ حديث صحيح سندا ومتنا؛ فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند في (البخاري)، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد في أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين؛ فلا تيأسوا، فتقولوا: إذا لا يمكن أن يوجد في زماننا هذا من سبق؛ لأننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتضح الأمر؛ فانظروا إلى جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟ **والجواب**: جنس الرجال خير، قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٨)، لكن يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال؛ فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان، فقد تكون أمة في الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم؛ فإنهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أما الصحابة؛ فلا أحد يساويهم في فضل الصحبة، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل؛ لأنه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هي الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: (لتتبعن سنن ...)إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوئ من سبقها؟

[1] كتاب الفتن / باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه، حديث (٧٠٦٨).

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين؛ فإن الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يعارضها دل هذا على أن كل نقص في الأمم السابقة، فإن هذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأن الأشياء لا تتبين إلا بضدها؛ كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

(تنبيه):

قوله: (حذو القذة بالقذة)[١] لم أجده في مظانه في (الصحيحين)؛ فليحرر.

ولمسلم [٢]عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا a إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً)، ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى)[٣].

(**ف**): **قوله:** عن ثوبان هو مولى النبي ﷺ صحبه. ولازمه. ونزل بعده الشام ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف.

---

[١] قلت: هذا اللفظ ليس في (الصحيحين)، كما ذكرت قريباً ولكن تفرد بإخراجهما أحمد في مسند من حديث شداد بن أوس، (١٢٥/٤).

[٢] كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض حديث (٢٨٨٩).

[٣] هذه الزيادة أخرجها أبو داود في الفتن والملاحم، حديث (٤٢٥٢) وابن ماجة في الفتن (٣٩٥٢).

قوله: زوى لي الأرض قال التوربشتي: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه إطلاعه على القريب. وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره. قال الطيبي: أي جمعها، حتى بصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

(**ق**): **قوله:** (فرأيت)، أي: بعيني؛ فهي رؤية عينية، ويحتمل أن يكون رؤية منامية.

قوله: (مشارقها ومغاربها)، وهذا ليس على الله بعزيز؛ لأنه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي ﷺ ما سيبلغ ملك أمته منها.

وهل المراد هنا بالزوي أن الأرض جمعت، وأن الرسول ﷺ قوي نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي ﷺ: أي: أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع؛ لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن تورد عليها كيف ولم، بل نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ إذ قوة الله – سبحانه – أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[1]؛ فلا يجوز أن نقول: كيف يجري مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك. وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول في باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وقوله: (فرأيت مشارقها ومغاربها)، أي: أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها)، والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع؛ فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعا بالغا، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

---

[1] البخاري: كتاب الاعتكاف / باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد حديث (٢٠٣٥)، ومسلم: كتاب السلام / باب أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، حديث (٢١٧٥).

(**ف**): قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة – بالنون والجيم – الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السند والهند والصغد، و لم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال. وذلك لم يذكر ﷺ أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه.

قوله: زوى لي منها يحتمل أن يكون مبيناً للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول.

قوله: وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض قال القرطبي: يعني به كنز كسرى، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما. وقد قال ﷺ: " والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله " وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. ووجد ذلك في خلافة عمر. فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر والأبيض والأحمر منصوبان على البدل.

(**ق**): **وقوله:** (أعطيت) هل النبي ﷺ أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمعطى له؛ لأن امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقوله الجهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قوله: (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة)، هكذا في الأصل: (بعامة)، والمعنى بمهلكة عامة، وفي رواية في بعض النسخ: (بسنة عامة).

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: (اللهم ! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف)[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ (الأعراف: من الآية١٣٠)، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد؛ فتكون الباء للظرفية.

وعامة؛ أي: عموما تعمهم، هذه دعوة.

(**ف**): قال القرطبي: وكأنها زائدة لأن عامة: صفة السنة، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة. يجمع على سنين، كما قال تعالى: ' ٧: ١٣٠ ' ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي الجدب المتوالي.

---

[1] البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب يغشى الناس هذا عذاب أليم، حديث (٤٨٢١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار / باب الدخان، حديث (٢٧٨٩).

(ق): **قوله:** (وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم)، أي: لا يسلط عليهم عدوا، والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: (من سوى أنفسهم).

ومعنى: (يستبيح): يستحل، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام.

والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

(ف): **قوله:** فيستبيح بيضتهم قال الجوهري: بيضة كل شيئ حوزته. وبيضة القوم ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها. وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم، وإن قلوا.

قوله: حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبى بعضهم بعضاً والظاهر أن حتى عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية، أي إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً. وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

قوله: وإن ربي قال: يا a، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد قال بعضهم: أي إذا حكمت حكماً مبرماً نافذاً فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده، كما قال النبي ﷺ (ولا راد لما قضيت)[1].

(ق): **اعلم أن قضاء الله نوعان:**

١. قضاء شرعي قد يرد؛ فقد يريده الله ولا يقبلونه.
٢. قضاء كوني لا يرد، ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ﴾ (غافر: من الآية٢٠).

ومثال القضاء الشرعي: قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: من الآية٢٣)؛ لأنه لو كان كونيا؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٤)؛ لأن الله تعالى لا يقضي شرعا بالفساد، لكنه يقضي به كونا وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإن الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضي بذلك لحكمة بالغة، كما قسم خلقه إلى مؤمنين وكافرين؛ لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

[1] جزء من حديث أخرجه الطبراني بسند صحيح كما قال الحافظ في فتح الباري (٥١٣/١١)من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ .وأصل الحديث في صحيح البخاري بدون هذا الجزء ، كتاب القدر : ،حديث(٦٦١٥)،باب لا مانع لما أعطى الله.

والمراد بالقضاء في هذا الحديث: القضاء الكوني؛ فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتوا واستكبارا، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالماء الذي كان يفتخر به، وعلى طواغيت بني آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

وفي **قوله:** (إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد) من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر؛ لأنه ما من ملك سوى الله إلا يمكن أن يرد ما قضى به.

واعلم أن قضاء الله كمشيئته بالحكمة؛ فهو لا يقضي قضاء إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئا إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (الإنسان: ٣٠)؛ فيتبين أنه لا يشاء شيئا إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة.

خلافا لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إنه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرفا من الله؛ لأن كل عاقل من المخلوقين لا يتصرف إلا لحكمة، ولهذا كان الذي يتصرف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾(النساء: من الآية٥).

فنحن نقول: إن الله – جل وعلا– لا يفعل شيئا ولا يحكم بشيء إلا لحكمة، **ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علما؟**

الجواب: لا يلزم؛ لأننا أقصر من أن نحيط علما بحكم الله كلها، صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من **قوله:** (إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد) بيان أن من الأشياء التي سألها النبي ﷺ ما لم يعطها؛ لأن الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله – عز وجل –.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل قضاء أو أكثر القضاء له أسباب إما معلومة أو مجهولة؛ فدخول الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله – عز وجل – منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء ما لا تقتضي الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعي بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله – عز وجل –، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القبول و لم يجب؛ فإننا نجزم بأنه ادخر له.

وقوله: (وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة) **هذه واحدة**.

والثانية: **قوله:** (أن لا أسلط عليهم من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا).

وهذه الإجابة قيدت بقوله: (حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا) إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكأن إجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء (حتى يكون بعضهم ...).

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: (إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يرد)؛ فصارت إجابة الله لرسوله مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبدا؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل ويسبي بعضهم بعضا؛ فإنه يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، وهذا هو الوقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عونا في الحق ضد الباطل كانت أمه مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا؛ سلط الله عليهم عدوا من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطا لا نظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسرا على نهر دجلة يطئونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في (الكامل): (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمي لم تلدني! ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ! إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي ...)، وذكر كلاما طويلا ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيدا من ذلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضا، وسبي بعضهم بعضا، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

(**ف**): **قوله:** رواه البرقاني في صحيحه هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن a بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة. قال الخطيب: كان ثبتاً ورعاً، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه كثير التصانيف. صنف مسنداً ضمنه ما أشتمل عليه الصحيحان. وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة.

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " إن الله – أو قال إن ربي – زوى لي الأرض فأريت مشارق الأرض ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سألت لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وأن ربي قال لي: يا a إني إذا قضيت قضاء

فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها – أو قال: بأقطارها – حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً. وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق – قال ابن عيسى: ظاهرين ثم اتفقا لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى ".

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: " تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم سبعين عاماً قلت: أمما بقى أو مما مضى؟ قال: مما مضى "[1].

وروى في سننه أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح، ويكثر الهرج، قيل: يا رسول الله أيه هو؟ قال: القتل القتل "[2].

(ق): **قوله:** (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)، بين الرسول ﷺ أنه لا يخاف على الأمة إلا الأئمة المضلين.

والأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إماما في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤).

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ﴾ (القصص: ٤١).

والذي في الحديث الباب: (الأئمة المضلين)، أئمة الشر، وصدق النبي ﷺ، إن أعظم ما يخاف على الأمة الأئمة المضلون؛ كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم.

والمراد **بقوله:** (الأئمة المضلين):

(**ف**): أي الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم، كما قال تعالى: ' ٣٣: ٦٧ ' " وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، ونحو هذا. وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء

[1] صحيح: أبو داود: كتاب الفتن والملاحم(٤٢٥٤):باب ذكر الفتن ودلائلها.وأحمد (٣٩٠/١، ٣٩٣).وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٤) وصحيح الجامع (٢٩٣١).

[2] صحيح:أبو داود: كتاب الفتن والملاحم(٤٢٥٥)، باب ذكر الفتن ودلائلها وهذا تقصير فالحديث أخرجه البخاري، كتاب الفتن: حديث (٧٠٦١) باب ظهور الفتن ،مسلم ، كتاب العلم : ،حديث(١١)(٥٧)، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

حاجاهم وتفريج كرباها، وقد قال تعالى: ' ٢٢: ١٢، ١٣ ' " يدعو من دون اللَّهِ ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير " وقال تعالى: ' ٢٥: ٣ ' " واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً " وقال تعالى: ' ٢٩: ١٧ ' " فابتغوا عند اللَّهِ الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون " وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين اللَّهُ تعالى به الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: من يدعى أنه يصل مع اللَّهِ إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف، ويدعى أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياهم ومماهم، وأهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، يعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم، ويجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير اللَّهِ. فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ: " وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين " أتى بـ(إنما) التي قد تأتي للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال، وما وقع في خلد النبي ﷺ من ذلك إلا لما أطلعه اللَّهُ عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من **قوله:** " لتتبعن سنن من كان قبلكم... " الحديث.

وعن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: " إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون "[1] رواه أبو داود الطيالسي. وعن ثوبان ﵁ أن رسول اللَّهِ ﷺ قال: " إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين"[2] رواه الدارمي.

وقد بين اللَّهُ تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين. فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب اللَّهِ ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: " من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة اللَّهِ والملائكة والناس أجمعين لا يقبل اللَّهُ منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً "[3] وقال: " من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد "[4] وقال: " كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة "[1] وهذه

---

[1] صحيح: الطيالسي(٩٧٥). وأحمد(٤٤١/٦)والطبراني وفيه راويان لم يسميا كما قال الهيثمي في المجمع(٢٣٩/٥).والحديث صحيح لشواهده .وراجع مجمع الزوائد (٢٣٩/٥، ٢٤٠). وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٨٢)وصحيح الجامع(١٥٤٧). وعزو الحديث لأبي داود كما فعل المؤلف وهم.

[2] صحيح: الدارمي : (٧٠/١)،(٣١١/٢).واسناده صحيح على شرط مسلم كما قال الألباني في الصحيحة (١١٠/٤) والحديث أخرجه أيضاً:أحمد (٢٧٨/٥، ٢٨٤).وأبو داود كتاب الفتن (٤٢٥٢): باب ذكر الفتن ودلائلها.وابن ماجة: كتاب الفتن (٣٩٥٢) ،باب ما يكون من الفتن.

[3] البخاري، كتاب فضائل المدينة :حديث(١٨٧٠) باب حرم المدينة ،كتاب الفرائض : حديث(٦٧٥٥)، باب اثم من تبرأ من مواليه، ومسلم، كتاب الحج : حديث(١٣٧٠)(٤٦٧)باب فضل المدينة. من حديث علي ﵁ .

[4] البخاري، كتاب الصلح : ،حديث(٢٦٩٧) باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ،ومسلم ، كتاب الأقضية: حديث(١٧١٨)(١٧)،باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور من حديث عائشة رضي الله عنها.

أحاديث صحيحة. ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها. وقد بين ﷲ تعالى هـذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز كما قال تعالى: ' ٧: ٣ ' ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وقال تعالى: ' ٤٥: ١٨ ' ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ ونظائرها في القرآن كثير.

وعن زياد بن حدير قال: (قال لي عمر ﷺ: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين)[٢] رواه الدارمي.

وقال يزيد بن عمير: (كان معاذ بن جبل ﷺ لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول: ﷲ حكم قسط: هلك المرتابون – وفيه: فاحذروا زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ: وما يدريني رحمك ﷲ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ فقال: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقول: ما هذه: ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً)[٣] رواه أبو داود وغيره.

قوله: وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة وكذلك وقع. فإن السيف لما وقع بقتل عثمان ﷺ لم يرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

(**ق**): **قوله:** (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين)، الحي: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين أو الأمران معا؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك.

وأما الحي؛ فالظاهر أن المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إن المراد واحد الأحياء؛ فلابد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبين ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ – والعياذ بالله – ويفسد؛ فيتبعه كل الحي، ويتبين ويظهر أمره.

---

[١] صحيح: وهو جزء من حديث العرباض بن سارية أخرجه أبو داود: كتاب السنة (٤٦٠٧): باب لزوم السنة، وأحمد في المسند (١٢٧/٤)وغيرهما وهو حديث صحيح. راجع السنة لأبن أبي عاصم (٢٧)وفي الباب عن ابن مسعود عند ابن ماجة(٤٦).وعن جابر عند النسائي (١٨٨/٣).

[٢] صحيح :الدارمي (٧١/١)في المقدمة :باب في كراهية أخذ الرأي .قال الألباني في تخريج المشكاة(٨٩/١)"وسنده صحيح"أ.هـ.

[٣] صحيح: أبو داود: كتاب السنة (٤٦١١) باب لزوم السنة .واسناده صحيح.

قوله: (وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)، الفئام؛أي: الجماعات، وهذا وقع؛ ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفئــام؛ أي: ليسوا أحياء؛ فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة؛ فيجتمعون.

(**ف**): وفي رواية أبي داود: حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان.

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان. وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد، فالتوحيد هو أعظم مطلوب والشرك هو أعظم الذنوب.

وفي معنى هذا الحديث: ما في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: " لا تقوم الساعة حتى تضــطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كــانوا يعبــدون في الجاهليــة " وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في قصة هدم اللات، لما أسلمت ثقيف: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضــع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذا حكم المشاهد التي بنيــت علــى القبور، والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شــيئ منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمترلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم شــركاً عندها وبها. فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك علــى أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعــة سنة، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشــتد البأس، وظهر الفساد، في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمديــة بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الــوارثين أ.هــ.ملخصاً.

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع.

وقوله: وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي قال القرطبي: وقد جاء عددهم معينــاً في حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: " يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشــرون، منــهم أربع نسوة " أخرجه أبو نعيم. وقال: هذا حديث غريب. انتهى.

وحديث ثوبان أصح من هذا.

(**ق**): **وقوله:** (كذابون ثلاثون) هل ظهروا أم لا؟

الجواب: ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر؛ لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معين، وما دامت الساعة لم تقم؛ فهم ينتظرون.

قوله: (كلهم يزعم)، أي: يدعي.

(**ف**): قال القاضي عياض: عد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف وأتبعه جماعة على ضلالة. فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.
وقال الحافظ: وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر: طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح في بني تميم، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، قتله وحشي قاتل حمزة يوم أحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه. ونقل أن سجاح تابت أيضاً. ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة الزبير. وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، وأعان عليه. فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريلاً عليه السلام يأتيه. ومنهم الحارث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقتل. وخرج في خلافة بني العباس جماعة.
وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً. فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء. وإنما المراد من قامت له شوكة وبدأ له شبهة كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

(**ق**): **قوله:** (وأنا خاتم النبيين)، أي: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: (لا نبي بعدي)، فإن قيل: ما الجواب عما ثبت في نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة a ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فليس تشريعا جديدا ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من a ﷺ؛ لأنه أخبر به مقررا له.

(**ف**): قال الحسن. الخاتم الذي ختم به يعني أنه آخر النبيين، كما قال تعالى: ' ٣٣: ٤٠ ' ﴿ ما كان a أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ وإنما يترل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة a ﷺ مصلياً إلى قبلته. فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة. قال النبي ﷺ: " والذي

نفسي بيده ليترلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً. فليكسرن الصليب، وليقتلن الخترير، وليضعن الجزية"[١].

(ق): **قوله:** (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة)، المعنى: أنهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين.

هذا من نعمة الله، فلما ذكر أن حيا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأن فئاما يعبدون الأصنام، وأن أناسا يدعون النبوة؛ فيكون هنا الإخلال بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله بالشرك، وأن محمدا رسول الله بادعاء النبوة، وذلك أصل التوحيد، بل أصل الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فلما بين ذلك لم يجعل الناس ييأسون، فقال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة).

والطائفة: الجماعة.

وقوله: (على الحق)، جار ومجرور خبر تزال.

قوله: (منصورة)، خبر ثان، ويجوز أن يكون حالا، والمعنى: لا تزال على الحق، وهي كذلك أيضا منصورة.

قوله: (لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم)، خذلهم؛ أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم؛ لأن الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)[٢]، وكذلك لا يضرهم من خالفهم؛ لأنهم منصورون بنصر الله؛ فالله – ﷻ – إذا نصر أحد فلن يستطيع أحد أن يذله.

قوله: (حتى يأتي أمر الله)، أي: الكوني، وذلك عند قيام الساعة عندما يأتي أمره ﷻ بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق؛ فعليهم تقوم الساعة.

(ف): كما روى الحاكم أن عبد الله بن عمر قال: (لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية)[٣] فقال عقبة بن عامر لعبد الله: اعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك

---

[١] البخاري، كتاب البيوع : ،حديث(٢٢٢٢) باب قتل الخترير ،ومسلم ، كتاب الإيمان : ،حديث(١٥٥)(٢٤٢) باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمدﷺ .من حديث أبي هريرة ﷺ.

[٢] الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث (٢٥١٦).

[٣] صحيح: الحاكم(٤/٤٥٦، ٤٥٧)، وصححه ووافقه الذهبي.وهذا تقصير فالحديث عند مسلم ، كتاب الإمارة : ،حديث(١٩٢٤)(١٧٦)،باب قولهﷺ "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم".

قال عبد اللَّهِ: ويبعث اللَّهُ ريحاً ريحها المسك، ومسها مس الحرير فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة وفي صحيح مسلم: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللَّهُ اللَّهُ. وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه حتى تأتيهم الساعة ساعتهم وهي وقت موقم بهبوب الريح. ذكره الحافظ.

(ق): الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: (حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين ويعبد فئام من أمتي الأوثان).

وقوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة) هذه لم يحدد مكانها؛ فتشمل جميع بقاع الأرض في الحرمين والعراق وغيرهما. فالمهم أن هذه الطائفة مهما نأت بهم الديار، فهي طائفة واحد منصورة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّهِ.

(ف): قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: **إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟**.

قال ابن المبارك وعلى بن المديني، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم إنهم أهل الحديث وعن ابن المديني رواية هم العرب واستدل برواية من روى، هم أهل الغرب.وفسر الغرب بالدلو العظيمة، لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً بأول إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر اللَّهِ. أ.هـ.ملخصاً مع زيادة فيه. قاله الحافظ.

(ق): **مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث؛ فما مدى صحة هذا القول؟**

الجواب: هذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لابد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون بناء على الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية تفسير، وحديث، وفقه ... إلخ.

فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنى العام.

وأهل الحديث هم: كل من يتحرى العمل بسنة رسول اللَّهِ ﷺ؛ فيشمل الفقهاء الذين يتحرون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحا.

فشيخ الإسلام ابن تيميه مثلا لا يعتبر اصطلاحا، من المحدثين، ومع ذلك؛ فهو رافع لراية الحديث.
والإمام أحمد رحمه الله تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدث.وهو إمام في الفقه والحديث والتفسير، ولاشك أن أقرب الناس تمسكا بالحديث هم الذين يعتنون به.
ويخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحا، فيخرج غيرهم.
فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحا واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به؛ فحينئذ يكون صحيحا.

(**ف**): ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد، بل هم في غالب الأمصار في الشام منهم الأئمة، وفي الحجاز وفي مصر، وفي العراق واليمن، وكلهم على الحق يناضلون، ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلاماً لأهل السنة، وحجة على كل مبتدع.
فعلى هذا، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق، وقد تكون في الشام، وقد تكون في غيره، فإن حديث أبي أمامة، وقول معاذ، لا يفيد حصرها بالشام وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها.
وكل جملة من هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فإن كل ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ.

وقوله: تبارك وتعالى قال ابن القيم: **البركة نوعان:**

أحدهما: بركة هي فعلة والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى.
والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المتبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح عليه السلام: ' ١٩: ٣٠ ' ﴿وجعلني مباركا أين ما كنت﴾ فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك.
وأما صفة تبارك فمختصة به، كما أطلقه على نفسه في قوله: ' ٧: ٥٤ ' ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ ' ٧٦: ١ ' ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالي وتعاظم ونحوه، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمته وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك تعاظم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء بكل بركة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟: هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟.

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصود بالترجمة - أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب خروج من يدّعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح. وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون من العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾، وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير آية المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾، وقد سبق تفسيرها، والشاهد منها هنا قوله: ﴿وعبد الطاغوت﴾.

الثالثة: تفسير آية الكهف، يعني: قوله تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا﴾، وقد سبق بيان معناها.

الرابعة: - وهي أهمها -: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب، أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهذا لاشك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها؛ فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناء على أنها صحيحة؛ فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة؛ فإنه لا يكفر، لكنه لاشك على خطر عظيم يخشى أن يؤدي به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلا من المؤمنين، يعني: إن هذا القول كفر وردة؛ لأن من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلا من المؤمنين؛ فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

السادسة - وهي المقصود بالترجمة -: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان، والترجمة التي أشار إليهما رحمه الله هي قوله: (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله ! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) أخرجاه. وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير ﵁، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين؛ فتتبعهم، وقتل كثيرا ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولاشك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن حق، وفي القرآن أن محمدا ﷺ خاتم النبيين؛ فكيف يكون صادقا، وكيف يصدق مع هذا التناقض؟ ! ولكن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضي، بل لا تزال عليه طائفة، يعني: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ من آخر الحديث: (لا تزال من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى).

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وهذه آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرونهم، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: من الآية٢٤٩).

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة، وقد سبق.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، أي: ما في هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة على صدقهم.

منها: إخباره بأن الله -سبحانه وتعالى- زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه. وإخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين، وهما كنزا كسرى وقيصر.وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضا. وخوفه على أمته من الأئمة المضلين. وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة. وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة. وكل هذا كما أخبر، مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول.

فممّا في هذا الحديث: إخباره بأن الله -سبحانه وتعالى- زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك؛ فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أعطي الكترين، وهما كتر كسرى وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لامته في الاثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضا... إلخ، ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها؛ فإن هذا سوف يكون كما صرح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: (إن النبي ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية؛ دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاء طويلا، وانصرف إلينا؛ فقال: (سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها)[1]؛ أي منعني إياها، ومن هذه الآيات التي تضمنها هذا الحديث: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع؛ فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك؛ فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هذا إلى يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضا وسبي بعضهم بعضا، هذا أيضاً واقع.

ومنها: خوفه على أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدى به، إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر: (هذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المتنبئين بذلك؛ لأنهم أكثر من ذلك).

قلت: فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى؛ أي: أنهم لا ينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا - والله أعلم - هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: (مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول).

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين، ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد؛ فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنهم متبوعون؛ فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد، والعباد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم؛ فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم؛ لأنهم إذا كانوا مضلين ضل بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

---

[1] مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة / باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض حديث (٢٨٩٠).

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان، يعني أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل إتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله فيحله الناس، ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا a وعلى آله وصحبه أجمعين.



باب ما جاء في السحر

(**تم**): هذا ((باب ما جاء في السحر)) ومناسبة ذكر السحر لكتاب التوحيد أن السحر نوع من الشرك، وقد قال -عليه والصلاة والسلام-: (من سحر فقد أشرك) فالسحر أحد أنواع الشرك الأكبر بالله -جل وعلا- فمناسبته ظاهرة لأنه مضاد لأصل التوحيد.

والسحر في اللغة هو: عبارة عن ما خفي ولطف، سببه، ومعنى خفي: صار سبب ذلك الشيء خفيا، لا يقع بظهور، وإنما يقع على وجه الخفاء؛ ولهذا سمي آخر الليل سحرا لذلك. وكذلك قيل في أكلة آخر الليل: سحور وذلك؛ لأنها تقع على وجه الخفاء وعدم الاشتهار والظهور من الناس.

فهذه اللفظة: سحر وما اشتقت منه تدل على خفاء في الشيء؛ ولهذا فإنه في اللغة يطلق السحر على أشياء كثيرة: منها ما يكون من جهة المقال، ومنها ما يكون من جهة الفعل، ومنها ما يكون من جهة الاعتقاد، وسيأتي في هذا الباب وفي الباب الذي بعده ((باب بيان شيء من أنواع السحر)) ما يتصل بذلك، وأما السحر الذي هو كفر وشرك أكبر بالله -جل وعلا- فهو استخدام الشياطين والاستعانة بها لحصول أمر بواسطة التقرب لذلك الشيطان بشيء من أنواع العبادة.

والسحر عرفه الفقهاء بقولهم: رقى وعزائم وعقد ينفث فيها فيكون سحرا يضُرُّ حقيقة، ويمرض حقيقة، ويقتل حقيقة، فحقيقة السحر إذاً أنه استخدام للشياطين في التأثير، ولا يمكن للساحر أن يصل إلى إنفاذ سحره حتى يكون متقربا إلى الشياطين، فإذا تقرب إليها خدمته شياطين الجن بأن أثرت في بدن المسحور، فلكل ساحر خادم من الشياطين يخدمه، ولكل ساحر مستعان به من الشياطين، فلا يمكن للساحر أن يكون ساحرا على الحقيقة إلا إذا تقرب إلى الشياطين؛ ولهذا فإن السحر شرك بالله -جل وعلا-.

(**ف**): قال أبو a المقدسي في الكافي: السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه. قال الله تعالى (١٠٢: ٢) ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ وقال سبحانه ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

(**تم**): وهناك شيء قد يكون في الظاهر أنه سحر، ولكنه في الباطن ليس بسحر، وهذا ليس الكلام فيه، وإنما الكلام فيما كان من السحر بالاستعانة بالشياطين وباستخدام الرقى والتعويذات والعقد والنفث فيها، وقد قال -جل وعلا-: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤)

والنفاثات: هن السواحر اللاتي يعقدن العقد وينفثن فيها، خصت الإناث بالاستعاذة منهن؛ لأن الغالب في السحر أن الذي يستخدمه النساء، فجرى ذلك مجرى الغالب، والنفاثات: جمع نفاثة صيغة مبالغة للنفث؛ لأنها تكثر النفث في العقدة، برقى وتعازيم وتعويذات تستخدم فيها الجن؛ لتخدم هذه العقدة التي فيها شيء من بدن المسحور أو فيها شيء يتعلق بالمسحور، حتى يكون ذلك مؤثرا فيه، وقد سحر يهودي النبي ﷺ في مشط ومشاطة يعني: في أشياء من شعره -عليه الصلاة والسلام- حتى يخيل للنبي ﷺ أنه يفعل الشيء ولا يفعله من جهة نسائه -عليه الصلاة والسلام- فقد كان سحر ذلك اليهودي مؤثرا في بدنه -عليه الصلاة والسلام- لكنه لم يكن مؤثرا في علمه ولا في عقله ولا في روحه -عليه الصلاة والسلام-، وإنما في بدنه يخيل إليه أنه قد واقع نساءه، وهو لم يواقع، ونحو ذلك.

(**ف**): وعن عائشة رضي الله عنها(أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله وأنه قال لها ذات يوم: أتاني ملكان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم في مشط ومشاطة وفي جف طلعة ذكر في بئر ذروان)[1]. رواه البخاري.

(**تم**): وهذا السحر الذي فيه استخدام الشياطين شرك وكفر بالله -جل وعلا- كما قال -سبحانه-: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢)والذي تلته الشياطين على ملك سليمان هو ما قرؤوه في كتب السحر، وما يتصل بذلك من عمل السحر، قال -جل وعلا-: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢) فعلل كفر الشياطين بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢)قال سبحانه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢)، وتعلم السحر وفهم كيف يكون، وكيف يعمل السحر، كل هذا لا يمكن أن يكون إلا بالكفر والشرك، لكن هناك مراتب:

أحداها: أن يتعلم ذلك نظريا ولا يعمله.

والثانية: أن يتعلمه ويعمله ولو مرة، وهناك مرتبة الساحر الذي يتعلم، ويعمل به دائما فما حكم هذه المراتب؟ قال - جل وعلا - ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُر﴾ (البقرة: من الآية١٠٢) فدل على أن تعلمه بمجرده كفر؛ ولهذا نقول: الصحيح أن تعلم السحر، ولو بدون عمل - شرك وكفر بالله -جل وعلا- بنص الآية، لأنه لا يمكن أن يتعلم السحر إلا بتعلم الشرك بالله -جل وعلا-، وكيف يشرك. وإذا تعلم الشرك فهو مشرك بالله -جل وعلا-.

[1] البخاري، كتاب الطب : ،حديث(٥٧٦٣)،مسلم ، كتاب السلام : ،حديث(٢١٨٩)(٤٣).

وبعض العلماء يقول: السحر قسمان: كقول الشافعي وغيره منه ما يكون بالاستعانة بالشياطين، فهـذا كفر وشرك أكبر، ومنه ما يكون بالأدوية والتدخينات، فهذا فسق ومحـرم، ولا يكفـر فاعلـه إلا إذا استحله.

وهذا التقسيم من الشافعي، ومن تبعه هو من جهة الواقع، يعني: نظروا في الذين يمارسون ذلك، فمنـهم من يقول: إنه ساحر، وليس كذلك من حيث النظر الشرعي يعني: أنه ليس السحر الـذي وصـف في الشرع، فيقول هو ساحر، وهو يستخدم أدوية وتعويذات، وفي الحقيقة هو مشعوذ، ولا يصـدق عليـه اسم الساحر.

وهذا فيما يفعل يؤثر عن طريق الأدوية، وأما الصرف والعطف يعني: جلب محبـة امـرأة لزوجهـا، أو صرف محبة المرأة لزوجها، أو العكس فهذا من القسم الأول؛ لأنه من نواقض الإسلام، فالسـحر مـن نواقض الإسلام؛ لأنه شرك بالله، ومنه الصرف والعطف؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى روح وقلـب من يراد صرفه أو العطف إليه إلا بالشرك؛ لأن الشيطان هو الذي يؤثر على النفس، ولن يخدم الشـيطان الإنسي الساحر إلا بعد أن يشرك بالله -جل وعلا-.

فتحصل أن السحر بجميع أنواعه فيه استخدام للشياطين واستعانة بها، والشياطين لا تخدم إلا من تقـرب إليها بالذبح، أو بالاستغاثة أو بالاستعاذة ونحو ذلك، يعني: أن يصرف إليها شيئا من أنواع العبادة، بـل قد نظرت في بعض كتب السحر، فوجدت أن ساحرا -بحسب ما وصف ذلك الكاتب- لا يصـل إلى حقيقة السحر وتخدمه الجن كما ينبغي حتى يهين القرآن، ويهين المصحف، وحتى يكفر بـالله، ويسـب الله -جل وعلا- ونبيه ﷺ، وهذا قد ذكره بعض من اطلع على حقيقة الحال.

فالسحر إذاً شرك بالله تعالى، وكل ساحر مشرك، وقتل الساحر فيما سيأتي على الصحيح أنه قتـل ردة، لا قتل تعزير فالشيخ -رحمه الله- عقد هذا الباب: ((باب ما جاء في السحر)) لبيان تلك المسألة.

وقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ** ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢)

(**ش**): وجه الاستدلال بهذه الآية قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني: ما لـه في الآخـرة مـن نصيب. الخلاق: هو النصيب.

وقوله: ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: اشترى السحر، والاشتراء أن يأخذ شيئا، ويدفع عوضه، فحقيقة الشـراء أن تشتري سلعة مثلا وتدفع ثمنها فتأخذ مثمنا، وتدفع ثمنه، والساحر ومن تعلم السحر اشترى السـحر، أي اخذ السحر وبذل توحيده عوضاً، فالثمن هو التوحيد، والإيمان بالله وحده، والمثمن هـو السـحر؛

ولهذا قال -جل وعلا- هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ يعني: من دفع دينه عوضا عن ذلك الشيء الذي أخذه، وهو السحر ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني: من نصيب، وهكذا المشرك ليس له في الآخرة من نصيب، فوجه الاستدلال ظاهر في أن الساحر قد جعل دينه عوضا عن ذلك الذي اشتراه، وتعلمه، وعمل به.

(ف): قال ابن عباس (من نصيب) قال قتادة: وعد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة وقال الحسن: ليس له دين.

فدلت الآية على تحريم السحر وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام كما قال تعالى (٦٩: ٢٠) " ولا يفلح الساحر حيث أتى" وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾

قال عمر: (الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان)[1] .

وقال جابر: (الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد)[2] .

(ق): الآية الثانية قوله تعالى: ﴿يؤمنون﴾؛ أي: اليهود. ﴿بالجبت﴾؛ أي السحر كما فسرها عمر بن الخطاب.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلما للسحر وممارسة له، ويدعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا؛ فسحروا النبي ﷺ.

قوله: ﴿الطاغوت﴾. أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده؛ من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

ومعنى (من معبود)؛ أي: بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه الله، وقد سبق في أول الكتاب تعليق على هذا القول عند قوله: ﴿واجتنبوا الطاغوت﴾.

الشاهد: قوله: ﴿بالجبت﴾، حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأما تفسير الطاغوت بالشيطان؛ فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحيانا بمثال يحتذى عليه، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر:٣٢).

---

[1] علقه البخاري في الصحيح – كتاب التفسير، قال الحافظ في الفتح ٢٥٢/٨: (إسناده قوي).

[2] علقه البخاري في (الصحيح) ـــ كتاب التفسير، وقال ابن حجر في (الفتح) (٢٥٢/٨): (وصله ابن أبي حاتم من طريق وهب بن منبه).

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذي لا يصلى إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذي يصلى في آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذي يصلى في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر ﷺ للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان؛ فالأصنام تعتبر من الطواغيت؛ كما قال الله تعالى: ﴿وعبد الطاغوت﴾ (المائدة: ٦٠)، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يعتبرون طواغيت؛ لأنهم طغوا وزادوا ما ليس لهم به حق.

(**ف**): **قوله:** قال عمر ﷺ: الجبت: السحر. والطاغوت: الشيطان هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره.

قوله: (قال جابر) هو عبد الله بن حرام الأنصاري.

قوله: (الطواغيت كهان) أراد أن الكهان من الطواغيت: فهو من إفراد المعنى.

(**ق**): حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن؛ قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء.

(**ف**): **قوله:** في كل حي واحد الحي واحد الأحياء، وهم القبائل، أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ فأبطل الله ذلك بالإسلام وحرست السماء بكثرة الشهب.

(**ق**): والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء؛ فتفسير جابر ﷺ تفسير بالمثال كتفسير عمر ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[1].

(ف): **قوله:** وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ".

كذا أورده المصنف غير معزو. وقد رواه البخاري ومسلم.

(ق): **قوله:** (اجتنبوا السبع الموبقات).

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق؛ فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: (اجتنبوا)، وهي أبلغ من قوله: اتركوا؛ لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

و(اجتنبوا)؛ أي: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه؛ يعني: اتركه مع البعد.

وقوله: (السبع الموبقات). هذا لا يقتضي الحصر؛ فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحيانا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث: (السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)[2]؛ فهناك غيرهم، ومثله: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم)، ثم قال: (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[3]، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة في الباب على الحصر لكونه وقع بـ (أل) المعرفة؛ فإنه حصرها لأن هذه أعظم الكبائر.

---

[1] البخاري: كتاب الوصايا: باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً ﴾ (النساء: من الآية١٠)، حديث (٢٧٦٧)، ومسلم: كتاب الإيمان: باب الكبائر وأكبرها، حديث (٧٩).

[2] البخاري: كتاب الأذان / باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة، حديث فضل إخفاء الصدقة حديث (١٠٣١) وقد شرحه شيخنا الدكتور سيد حسين العفاني شرحا ممتعاً في مجلدين أتحفنا بهما وقد سماه (ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله).

[3] مسلم: كتاب الإيمان / باب غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، حديث (١٠٦).

(ف): وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الأدب المفرد والطبري في التفسير، وعبد الرزاق مرفوعاً وموقوفاً قال: الكبائر تسع – وذكر السبع المذكورة – وزاد: والإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدين ولابن أبي حاتم عن علي قال: الكبائر – فذكر السبع – إلا مال اليتيم، وزاد – العقوق، والتعرب بعد الهجرة، وفراق الجماعة ونكث الصفقة.

قال الحافظ: ويحتاج عندي هذا الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع.

ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أو لا بالمذكورات. ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل.

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع قال: هن أكثر من سبع وسبع وفي رواية هي إلى سبعين أقرب وفي رواية: إلى السبعمائة.

(ق): **قوله:** (قالوا: يا رسول الله ! وما هن؟).

كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم، والنبي ﷺ إذا ألقى الشيء مبهما طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلى هذه القاعدة (أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم)، لكن ما كانت الحكمة في إخفائه؛ فإن النبي ﷺ لا يخبرهم؛ كقوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة)[1] ولم يرد تبيينها عن النبي ﷺ في الحديث صحيح.

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين[2]، ولم يصب، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ [3]، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث؛ قال: إن الثواب عظيم، (من أحصاها دخل الجنة)؛ فلا يمكن للصحابة أن يفوتوه، فلا يسألوا عن تعيينها فدل هذا على أنها قد عينت من قبل النبي ﷺ.

لكن يجاب عن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عينها النبي ﷺ؛ لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت في (الصحيحين) وغيرهما؛ لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعناية به؛ فكيف لا يأتي إلا عن طريق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبي ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهي أن يطلبها الناس ويتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

---

[1] أخرجه البخاري وغيره.

[2] يشير الشيخ (رحمه الله) إلى ما أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم (٢٢/١).

[3] قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى) (٣٨٢/٦): (تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه)

كما و لم يبين النبي ﷺ ساعة الإجابة يوم الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الذي في مسلم؛ حيث قال فيه: (إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة)[1]؛ فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه، لكن هو عندي صحيح؛ لأن علة التضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته؛ لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة؛ فيكون هذا الوقت في هذه الحال حريا بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: (الموبقات)؛ أي: المهلكات، قال تعالى: (وجعلنا بينهم موبقا) (الكهف: ٥٢)؛ أي: مكان هلاك.

قوله: (قالوا: يا رسول الله ! وما هن؟). سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبينا من أول وهلة؛ لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بين.

قوله: (وما هن). (ما): اسم استفهام مبتدأ، و(هن): خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس، (ما): خبر مقدم وجوبا؛ لأن الاستفهام له الصدارة،

و(هن): مبتدأ مؤخر.

لأن (هن) ضمير معرفة، و(ما) نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يخبر بالنكرة عن المعرفة والعكس.

قوله: (قال: الشرك بالله). قدمه لأنه أعظم الموبقات؛ فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندا وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقا أو معينا؛ فهو مشرك، أو أن أحدا سوى الله يستحق أن يعبد؛ فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده؛ فهو أعظم، أو أن لله مثيلا في أسمائه؛ فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته؛ فهو مشرك، أو أن الله يترل إلى السماء الدنيا كترول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى؛ فهو مشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: من الآية٤٨)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: من الآية٧٢).

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجرم بقوله حين سئل: أي الذنب أعظم: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك)[2].

---

[1] أخرجه مسلم: كتاب الجمعة / باب في الساعة التي في يوم الجمعة، حديث (٨٥٣).

[2] البخاري: كتاب تفسير القرآن باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حديث (٢٤٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان/باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده حديث (٨٦).

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له نداً؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجعلت له نظيراً؛ لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله: (والسحر)؛ أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين؛أو بواسطة الأدوية والعقاقير. لأنه إن كان بواسطة الشياطين فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم؛ فهو داخل في الشرك بالله. وإن كان دون ذلك؛ فهو أيضاً جرم عظيم؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم؛ فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه، ويقلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمي؛ فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله -عَزَّ وَجَلَّ-.

قوله: (وقتل النفس)؛ القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله: (التي حرم اللَّهُ). مفعول (حرم) محذوف تقديره: حرم قتلها؛ فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: (إلا بالحق)؛ أي: بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام؛ فالمراد به العدل، وإذا ذكر بإزاء الأخبار؛ فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر اللَّهُ به ورسوله، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)(النحل: من الآية٩٠).

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن؛ بكسر الميم: طالب الأمان. فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة - الذمي، والمعاهد، والمستأمن -: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة؛ أي: عهد على أن يقيم في بلادنا معصوماً مع بذل الجزية.

وأما المعاهد؛ فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن؛ فهو الذي ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمناه في وقت محدد؛ كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: من الآية٦)، وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنه ليست على حد سواء في التحريم؛ فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟

أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المعاهدين؛ فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم؛ فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأياً كان؛ فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: (إلا بالحق)؛ أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

(ف): واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً، وهل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له، استدلالاً بقوله تعالى: ' ٤: ٩٣ ' ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ وقال ابن عباس "نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل وما نسخها شيئ"[١] وفي رواية: "لقد نزلت في آخر ما نزل وما نسخها شيئ حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي"، وروى في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء، كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً "[٢].

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب عمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، كما قال تعالى: ' ٢٥: ٦٨ - ٧١ ' ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا﴾ الآيات.

قوله: ومن يقتل مؤمناً متعمداً قال أبو هريرة وغيره هذا جزاؤه إن جازاه.

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد بن عبادة أن ابن عباس رضي الله عنهكان يقول: لمن قتل مؤمناً توبة وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما. وروى مرفوعاً " أن جزاءه جهنم إن جازاه".

(ق): **قوله:** (وأكل الربا). الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (الحج: من الآية٥)؛ يعني: زادت.

وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

---

[١] البخاري: كتاب التفسير : ،حديث(٤٥٩٠).باب(وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ)[النساء : ٩٣]، مسلم: كتاب التفسير : ،حديث (٣٠٢٣) (١٦).

[٢] صحيح: أحمد (٩٩/٤) والنسائي (٨١/٧): كتاب تحريم الدم. وصححه الألباني لشواهده في الصحيحة(٥١١).

والربا: ربا فضل؛ أي: زيادة، وربا نسيئة؛ أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: (الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح)[١]؛ فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنساً بمثله جرى فيه ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحداً على آخر؛ فهو ربا فضل، أو سويته لكن أخرت القبض؛ فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهباً بذهب متفاضلاً والقبض متأخر؛ فقد اجتمع في هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلى هذا، فإذا بعت جنساً بجنسه؛ فلا بد من أمرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة؛ أي: اتفق المقصود في العوضين؛ فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل؛ فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير ربا لتأخر القبض.

قال ﷺ: (فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد)[٢].

وقولنا: اتفقا في الغرض والمقصود احترازاً مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد؛ لأن هذا يقصد به النقد والثمنية، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل: الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض؛ فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هذا مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهباً ببر وجب التقابض؛ لقوله ﷺ: (فإذا اختلفت هذه الأصناف؛ فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد).

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمناً، قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين، فقال: (من أسلف في شيء؛ فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم)[٣]

وعلى هذا؛ فحديث: (فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد) لا عموم لمفهومه؛ فلا يشترط القبض في كل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فيما إذا اتفقا في الغرض؛ كذهب بفضة، أو بر بشعير، وأما ذهب أو فضة بشعير ونحوه؛ فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة؛ فالظاهرية قالوا: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس، فيقتصر على ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض؛ لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

---

[١] أخرجه مسلم كتاب المساقاة/ باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً حديث (١٥٨٧).

[٢] هو نفس الحديث السابق.

[٣] أخرجه البخاري كتاب السلم / باب السلم في وزن معلوم حديث (٢٢٣٩)، ومسلم كتاب المساقاة / باب السلم، حديث (١٦٠٤).

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة؛ فإنهم عدوا الحكم إلى غيرها؛ إلا أن بعضاً منهم لم يعد الحكم إلى غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله؛ فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما اضطروا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: (الجنس) لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض، فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة؛ فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلي خارج عن الثمنية خروجاً طارئاً؛ لأن التحلي طارئ، والأصل في الذهب والفضة الثمنية؛ لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح؛ فقال شيخ الإسلام إنه يصلح به القوت؛ أي: فهو تابع له؛ فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت براً و لم يكن فيه ملح: لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد؛ فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: (وأكل الربا). ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ (النساء: من الآية١٦١)، و لم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل؛ فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: (وأكل مال اليتيم). اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه؛ فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد؛ أي: انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم؛ لأنه لا أحد يدافع عنه؛ ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حقاً في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟!.

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا؛ فليس خاصاً بالأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها؛ فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله من تأكل أموال اليتامى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: ١٠).

قوله: (والتولي يوم الزحف). التولي: بمعنى الإدبار والإعراض، ويوم الزحف؛ أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف؛ لأن، الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ (الأنفال: من الآية١٦).

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال؛ أي: متهيئاً له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته؛ فهذا لا يعد متولياً، إنما يعد متهيئاً.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها؛ فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو؛ فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق؛ فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ؛ لقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ (الأنفال: من الآية٦٦)، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من صواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين؛ فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل، ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلما يرد إليهم[1]، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾(الممتحنة:١٠).

قوله: (وقذف المحصنات). القذف: بمعنى الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات: وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

[1] أخرجه البخاري: كتاب المغازي / باب غزوة الحديبية حديث (٤١٨١).

والمؤمنات احترازا من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها؛ فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد - ثمانون جلدة-، ولا تقبل شهادته ويكون فاسقا؛ فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤) ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾(النور: من الآية٥).

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجمل بالاتفاق، ويشمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف العلماء في الجملة الثانية، وهي قوله: (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا)؛ .فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود.

وبناء على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم:

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبدا ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) (النور: ٤)، وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنهم مطلقا.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة؛ زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين؛ فليفعل.

وإلا؛ فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، **وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟**

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة؛ لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر؛ إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضررا أكثر؛ فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.

والشاهد من هذا الحديث قوله: (السحر).

وعن جندب مرفوعاً: (حد الساحر ضربه بالسيف) رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف[١].

(**ف**): **قوله:** عن جندب ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبد الله البجلي. لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ. وخالد العبد ضعيف. قال الحافظ: والصواب أنه غيره. وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير: أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - فذكره وجندب الخير هو جندب بن كعب، وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد، كما قال ابن حبان: أبو عبد الله الأزدي الغامدي صحابي روى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: " يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة ".

(**ق**): **قوله:** (مرفوعا)؛ أي: إلى النبي ﷺ؛ فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام، لكن نقل المؤلف عن الترمذي **قوله:** والصحيح أنه موقوفا، أي: من قول جندب.

قوله: (حد الساحر ضربة بالسيف) حده يعني: عقوبته المحددة شرعا.

وظاهره أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

والكافر إذا قتل على ردته؛ فالقتل لا يطهره.

قوله: (ضربة بالسيف). روي بالتاء بعد الباء، وروي بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ؛ لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان على أنها ضربة قوية قاضية. هذا كناية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحا.

(**ف**): وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر. وروى ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس ابن سعد، وعمر بن عبد العزيز، و لم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد. والأول أولى للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

---

[١] أخرجه الترمذي في (الحدود، باب ما جاء في الساحر)، والطبراني في (الكبير) (رقم ١٦٦٥)، والدار قطني (١١٤/٣)، والحاكم(٣٦٠/٤). قال الترمذي: (لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم الملكي يضعف في الحديث والصحيح عن جندب موقوفا). وقال الحافظ في (الفتح) (٢٣٦/١٠): (إسناده ضعيف)، وضعفه الألباني (السلسلة الضعيفة (٦٤١/٣).

(**تم**): هنا لم يفرق بين ساحر وساحر، ولم يأت في أدلة الكتاب والسنة التفصيل في اسم الساحر الذي يحد، أو الذي وصف بالكفر بين نوع ونوع من التأثير، فالأنواع التي يستخدمها السحرة مما يصدق عليها أنها سحر في التأثير وفي الإمراض وفي التفريق وفي التأثير على العقول وعلى القلوب ونحو ذلك، من أنواع التأثير الخفي الذي يكون باستخدام الشياطين، أو بأمور خفية -فهذا كله لا يفرق فيه بين فاعل وفاعل، والأدلة ما فرقت؛ فلهذا قال العلماء: الصحيح أن الساحر من أي نوع حده أن يقتل، وهل حده حد كفر وردة أو حد لأجل أنه قتل، فيكون حد لأجل القتل أو حد تعزير؟.

اختلف العلماء في ذلك، والصحيح من هذه أنه في الجميع حد ردة؛ لأن حقيقة السحر أنه لا بد أن يكون فيه إشراك بالله -جل وعلا- فمن أشرك بالله -جل وعلا- فقد ارتد وحل دمه وماله.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيل يقول فيه ما مقتضاه: إن الساحر قد لا تدرك حقيقة سحره فيترك أمره في قتله إلى الإمام إذا رأى المصلحة في قتله قتله، وإن لم ير المصلحة في قتله لم يقتله، ويعني: بالمصلحة المصلحة الشرعية، فتحصل من ذلك أن الأقوال في حد الساحر هي:

الأول: أنه يقتل مطلقا ردة؛ لأنه لا يكون السحر إلا بشرك.

والقول الثاني: أنه يقتل ردة إذا كان سحره بشرك، ويقتل حدا إذا كان سحره أدى إلى قتل غيره بغير ما فيه إشراك من مثل الأدوية والتعويذات ونحو ذلك مما ذكرنا.

والثالث: القول الذي عزي إلى شيخ الإسلام من أنه كالزنديق يترك أمره إلى الإمام بحسب ما يراه، إن رأى المصلحة الشرعية في قتله قتله، وإلا عاقبه بما دون القتل.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال:

((كتب عمر ابن الخطاب ﷺ: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)) قال: (فقتلنا ثلاث سواحر)[1]

(**ت**): هذا الأثر رواه البخاري كما ذكره المصنف لكنه لم يذكر قتل السحرة ولفظه عن بجالة بن عبدة قال كنت كاتبا لجزء بن معاوية عم الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة فرقوا بين كل محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوسي هجر وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه ورواه الترمذي والنسائي مختصرا ورواه عبدالرزاق وأحمد وأبو داود والبيهقي مطولا ورواه القطيعي في الجزء

---

[1] أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والامارة والفيء، باب في أخذ الجزية من المجوس (٣٠٤٣)، والإمام أحمد في (المسند) (١/١٩٠)، وهو صحيح.

الثاني من فوائده بزيادة فقال حدثنا أبو علي بشر بن موسى الأسدي ثنا هوذة بن خليفة ثنا عوف عن عمار مولى بني هاشم عن بجالة بن عبدة قال كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اعرضوا على من كان قبلكم من المجوس أن يدعوا نكاح أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ويأكلوا جميعا كيما نلحقهم بأهل الكتاب ثم اقتلوا كل كاهن وساحر قلت وإسناده حسن قوله عن بجالة هو بفتح الموحدة بعدها جيم ابن عبدة بفتحتين التيمي العنبري بصري ثقة قوله كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة إلى آخره صريح في قتل الساحر والساحرة وهو من حجج الجمهور القائلين بأنه يقتل وظاهره أنه يقتل من غير استتابة وهو كذلك على المشهور عن أحمد وبه قال مالك إن الصحابة لم يستتيبوهم ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة.

وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلي سبيله وبه قال الشافعي لأن ذنبه لا يزيد على الشرك والمشرك يستتاب وتقبل توبته فكذلك الساحر وعلمه بالسحر لا يمنع توبته بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم قلت الأول أصح لظاهر عمل الصحابة فلو كانت الاستتابة واجبه لفعلوها أو بينوها وأما قياسه على المشرك فلا يصح لأنه أكثر فسادا وتشبيها من المشرك وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب لأن الاسلام يجب ما قبله وهذا الخلاف إنما هو في اسقاط الحد عنه بالتوبة أما فيما بينه وبين الله فإن كان صادقا قبلت توبته.

وصح عن حفصة رضي الله عنها: ((أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت))[1]، وكذلك صح عن جندب[2] قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

(ش): هذا الأثر رواه مالك في الموطأ عن a بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت ورواه عبدالرزاق وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة سنة ثلاث وماتت سنة خمس واربعين قال وكذا صح عن جندب

(شرح) المراد به هنا قطعا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر وهو جندب ابن كعب بن عبدالله قال أبو حاتم جندب بن كعب قاتل الساحر ويقال جندب بن زهير فجعلها واحدا وفرق بينهما ابن الكلبي وغيره قال ابن عبد البر ذكر الزبير أن جندب بن زهير قاتل الساحر والصحيح أنه غيره وأشار المصنف

[1] أخرجه مالك في كتاب العقول، باب: ما جاء في الغيلة والسحر، حديث (١٦٢٤).

[2] أخرجه البيهقي في الكبرى (١٣٦/٨)، حديث (١٦٢٧٨) والدار قطني في سننه (١١٤/٣)، حديث (١١٣).

بهذا إلى قتله الساحر كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنسانا وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله ورواه البيهقي في ((الدلائل)) مطولا وفيه فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى وراه رجل صالح من المهاجرين فنظر إليه فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه وقال إن كان صادقا فليحيي نفسه فأمر به الوليد فسجن وذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة.

(**ق**): **قوله:** (قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ).

وهم: عمر، وحفصة، وجندب الخير؛ أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والحاصل: أنه يجب أن تقتل السحرة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون، ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم؛ فإن بعضهم قد يسحر أحدا ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها، ولأنهم كانوا يسعون في الأرض فسادا؛ فكان واجبا على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة ما دام انه لدفع ضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فسادا، وفسادهم من أعظم الفساد؛ فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢)؛ أي: نصيب؛ ومن لا خلاق له في الآخرة؛ فإنه كافر؛ إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

الثانية: تفسير آية النساء؛ وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(النساء: من الآية٥١)، وفسر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفسر بأن **الجبت**: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره. **وأما الطاغوت، فهو**: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما؛ وهذا بناءً على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس. تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق؛ فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي. وقد سبق بيانها.

السادسة: أن الساحر يكفر. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ...﴾ (البقرة: من الآية١٠٢).

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.تؤخذ من قوله(حد الساحر ضربة بالسيف) والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر؛ فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود؛ فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر؛ لا يصلى عليه، ولا يغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر؛ فكيف فيما بعده؟! تؤخذ من قوله: (كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)؛ فهذا إذا كان في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها؛ فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه؟ ! فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة؛ فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول: من عمل سوءً بجهالة؛ فهو آثم، ومن عمل سوءً بجهل؛ فليس بآثم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾(النساء: من الآية١٧)، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهي السفه.

باب بيان شيء من أنواع السحر

(**ق**): **قوله:** (باب بيان شيء من أنواع السحر).

أي: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته أنواع، والنوع يدخل تحته أفراد، وقد يكون الجنس نوعاً باعتبار ما فوقه، والنوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأنه الجسم يشمل الحيوان والجماد.

و (أنواع) هنا باعتبار الجنس العام.

وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خفي السبب دقيقاً في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنواع السحر الساعات، وهي في القديم عبارة عن آلات مركبة؛ فكيف بالساعات الإلكترونية اليوم؟!.

(**ت**): لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئا من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء وعدوها من كرامات الأولياء وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجي منهم النفع والضر والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتا بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولي الله وبين عدو الله من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجري على يده شيء من الخوارق فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون وليا لله تعالى لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع وفعل الشياطين بأناس ممن ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وبحيل وأدوية كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن النارنج وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به على وقوع ما لم يقع وهذه مشتركة بين ولي الله وعدوه وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر وقد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى وقد يكون ذلك استدراجا والأحوال الشيطانية كثيرة وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه فاعتصم به وحده لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى قال الله تعالى﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فذكر تعالى أن أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون و لم

يشترط ان يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة فدل أن الشخص قد يكون وليا لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمنا متقيا وقال تعالى ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطنا وظاهرا ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلا عن أن يكون وليا لله تعالى وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ورضوا بما يرضى وسخطوا ما يسخط وأمروا بما يأمر ونهوا عما ينهى وأعطوا من يجب أن يعطى ومنعوا من يجب أن يمنع وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد وبالجملة فأولياء الله هم أحبابه المقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئا وإن لم تجر على أيديهم خوارق فإن كانت الخوارق دليلا على ولاية الله فلتكن دليلا على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفرس ورهبان اليهود والنصارى وعباد الأصنام فإنهم يجري لهم من الخوارق ألوف ولكن هي من قبل الشياطين فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم في الأفعال والأقوال كما قال تعالى ﴿قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم﴾ وقال تعالى ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ وقد طارت الشياطين ببعض من ينتسب إلى الولاية فقال لا إله إلا الله فسقط وتجد عمدة كثير من الناس في اعتقادهم الولاية في شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أحيانا أو يمشي على الماء أو يملأ إبريقا من الهواء أو يخبر في بعض الأوقات بشيء من الغيب أو يختفي أحيانا عن أعين الناس أو يخبر بعض الناس بما سرق له أو بحال غائب أو مريض أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها مسلم فضلا من أن يكون وليا لله بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها وليا لله وقد يكون عدوا له فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع وتكون لهؤلاء من قبل الشياطين أو تكون استدراجا فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور فهو ولي لله بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التي دل عليها الكتاب والسنة وأكثر هذه الأمور قد توجد في أشخاص يكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلى المكتوبة ولا يتنظف ولا يتطهر الطهارة الشرعية بل يكون ملابسا للنجاسات معاشرا للكلاب يأوي إلى المزابل رائحته خبيثة ركابا للفواحش يمشي في الأسواق كاشفا لعورته غامزا للشرع مستهزئا به وبحملته يأكل العقارب والخبائث التي تحبها الشياطين كافرا بالله ساجدا لغير الله من القبور وغيرها يكره سماع القرآن وينفر منه ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشيطان على كلام الرحمن فلو جرى على يدي شخص من الخوارق ماذا عساه أن يجري فلا يكون وليا

لله محبوبا عنده حتى يكون متبعا لرسوله ﷺ باطنا وظاهرا فإن قلت فعلى هذا ما الفرق بين الكرامة وبين الاستدراج والأحوال الشيطانية قيل إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق لأنه إذا كان الشخص مخالفا للشرع فما يجري له من هذه الأمور ليس بكرامة بل هي إما استدراج وإما من عمل الشياطين ويكون سببها هو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ فإن المعاصي لا تكون سببا لكرامة الله ولا يستعان بالكرامات عليها فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصل بما تحبه الشياطين كالاستغاثة بغير الله أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية وكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره فإن الجن الذي يقترنون بالإنس من جنسهم فإن كان كافرا ووافقهم على ما يختارونه من الكفر والفسوق والضلال والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه وللسجود لهم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة فعلوا معه كثيرا مما يشتهيه بسبب ما برطلهم به من الكفر وقد يأتونه بما يهواه من امرأة وصبي بخلاف الكرامة فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له والتمسك بكتابه واجتناب المحرمات فما يجري من هذا الضرب فهو كرامة وقد اتفق على هذا الفرق جميع العلماء وبالجملة فإن عرفت الأسباب التي بها تنال ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنهم أهل الكرامة وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها بل يميل مع كل ناعق وساحر وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ولشيخ الإسلام كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين.

(**تتم**): لما ذكر الإمام -رحمه الله تعالى- ما جاء في السحر وما اتصل بذلك من حكمه وتفصيل الكلام فيه -ذكر أن السحر قد يأتي في النصوص، ولا يراد منه السحر الذي يكون بالشرك بالله -جل وعلا- فإن اسم السحر عام في اللغة، يدخل فيه ذلك الاسم الخاص الذي فيه استعانة بالشياطين والتقرب إليها وعبادتها لتخدم الساحر، ويدخل فيها أمور أخرى يطلق عليها الشارع أنها سحر، وليست كالسحر الأول في الحقيقة، ولا في الحكم.

وهو درجات فمما يسمى سحرا: البيان كما جاء في آخر الباب (إن من البيان لسحرا) والبيان ليس سحرا، فيه استعانة بالشياطين، ولكنه داخل في حقيقة السحر اللغوية؛ لأن له تأثيراً خفياً على القلوب، فإن الرجل البليغ ذا البيان وذا الإيضاح وذا اللسان الفصيح يؤثر في القلوب حتى يسبيها، وربما قلب الحق باطلا والباطل حقا ببيانه، فسمي سحرا لخفاء وصوله إلى القلوب وقلب الرأي وفهم المخاطب من شيء إلى آخر.

وكذلك ما ذكر من أن الطيرة من السحر، فالطيرة نوع اعتقاد، وكذلك العيافة، وهي شبيهة بها أو بعض أنواعها، كذلك الخط في الرمل ونحو ذلك من الأشياء التي ربما أطلق عليها أنها سحر، وهي ليست

كالسحر الأول في الحد والحقيقة ولا في الحكم.... لأن من أنواع السحر، ما هو شرك أكبر بالله -جل وعلا- وهو المراد إذا أطلق: السحر، وهذه هي الحقيقة العرفية، ومنه ما ليس شركاً أكبر.

وفي ألفاظ الشرع أمور يكون المرجع فيها إلى الحقيقة اللغوية، وأمور يكون المرجع فيها إلى الحقيقة العرفية، وأمور يكون المرجع فيها إلى الحقيقة الشرعية، ومن ذلك هذا الباب فإن فيه ما يطلق عليه لغة أنه سحر، وفيه ما يطلق عليه عرفا أنه سحر، وما يطلق عليه شرعا أنه سحر.

والتفريق بين هذه الأنواع مهم؛ ولهذا ذكر الإمام هذا الباب حتى تفرق بين نوع وآخر.

فالحد الذي فيه ((حد الساحر ضربةٌ بالسيف)) لا ينطبق على كل هذه الأنواع التي ستذكر؛ لأنها سحر لغة، وليست بسحر شرعا.

قال أحمد: حدثنا a بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)[1].

قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض والجبت، قال: الحسن: رنة الشيطان[2]. **إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، المسند منه.**

(ت): قوله قال احمد هو الإمام أحمد بن a بن حنبل ومحمد بن جعفر هو المشهور بغندر الهذلي البصري ثقة مشهور ثبت في شعبة حتى فضله علي بن المديني فيه على عبد الرحمن بن مهدي بل أقر له ابن مهدي بذلك مات سنة ست ومائتين وعوف هو ابن أبي جميلة بفتح الجيم العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائة وله ست وثمانون سنة وحبان بن العلاء هو بالتحتية ويقال حيان بن مخارق أبو العلاء البصري مقبول وقطن بفتحتين أبو سهلة البصري صدوق قوله عن أبيه هو قبيصة بفتح أوله وكسر الموحدة ابن المخارق بضم الميم وتخفيف المعجمة أبو عبدالله الهلالي صحابي نزل البصرة.

(ق): **قوله:** (العيافة). مصدر عاف يعيف عيافة، وهي: زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل؛ فعند العرب قواعد في هذا الأمر؛ لأن زجر الطير له أقسام.

---

[1] أبو داود: كتاب الطب / باب: في الخط وزواجر الطير، حديث (٣٩٠٧) وضعفه الشيخ الألباني كما في ضعيف أبي داود (٨٤٢). والإمام أحمد في المسند (٦٠/٥) وأبو داود في السنن (٣٩٠٧) والنسائي في الكبرى كما في (تحفة الأشراف) (٢٧٥/٨) وابن حبان في الصحيح (٦٥٦/٧)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إسناده صحيح) (الفتاوى ١٩٢/٣٥) وكذلك النووي في رياض الصالحين (٦١٢).

[2] الإمام أحمد في (المسند) ٦٠/٥

فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم في باب الصيد: إن تعليم الطير بأن يترجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شمالاً تشاءم، وإذا ذهب يميناً تفاءل، وإن ذهب أماماً؛ فلا أدري أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

(**ت**): قال عوف العيافة زجر الطير هذا التفسير ذكره غير واحد كما قال عوف وهو كذلك قال أبو السعادات العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب كثيرا وهو كثير في أشعارهم يقال عاف يعيف عيفا إذا زجر وحدس وظن قوله والطرق الخط يخط في الأرض هكذا فسره عوف وهو تفسير صحيح وقال أبو السعادات هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء.

(**ق**): ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، ولا أدري كيف يتوصلون إلى مقصودهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم؟ ! وهذا نوع من السحر.أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك؛ فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط؛ فقال: من وافق خطه؛ فذاك[1]

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يتحقق الوصول إليه؛ لأنه قال: فمن وافق خطه فذاك، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي؛ فلا بأس به؛ لأن الله يجعل له علامة يترل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السحرية؛ فهي من الوحي الشيطاني، فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة في موضوع الشرك؛ **فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟**

فالجواب: كان هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط، فلا بد أن يجيب عنه الرسولﷺ.

(**ت**): قوله من الجبت أي من أعمال السحر قال القاضي والجبت في الأصل الفشل الذي لا خير فيه ثم استعير لما يعبد من دون الله وللساحر والسحر وقال الطيبي من فيه إما ابتدائية أو تبعيضية فعلى الأول المعنى الطيرة ناشئة من الساحر وعلى الثاني المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة أو من جملة عبادة غير

[1] مسلم: كتاب المساجد وتحريم الصلاة / باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان إباحته حديث (٥٣٧).

ﷲ أي الشرك يؤيده قوله في الحديث الآتي الطيرة شرك انتهى وفي الحديث دليل على تحريم التنجيم لأنه إذا كان الحظ ونحوه الذي هو من فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة.

(ق): **وقوله:** (الطيرة)؛ أي: من الجبت، على وزن فعلة، وهي اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يرى ولا يسمع؛ كالتطير بالزمان.

(تم): وحقيقة الطيرة أنه يرى شيئا من الطير تحرك يمينا أو يسارا فإن رآه تحرك يمينا تفاؤل به واعتقد أنه سينجح في هذا العمل أو في هذا السفر، وإن رآه تحرك شمالا قال: هذا معناه أني سأتضرّر في هذا السفر أو سيصيبني مكروه فرجع.

وقد قال -عليه الصلاة والسلام- (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك)[1].

وقد يتشاءم بحركة شيء أو بكلمة يسمعها أو بشيء في الجو، أو بتصادم سيارة أمامه أو بسواد في الجو حصل أمامه، أو في ذلك اليوم الذي سينتقل فيه، أو يتشاءم بشيء حصل له في أول زواجه ونحو ذلك من أنواع التشاؤم، كالتشاؤم بالأشهر أو بالأيام هذا كله من أنواع الطيرة.

ولا يكون طيرة إلا إذا ردَّه عن حاجته أو جعله يقبل إلى حاجته، فإذا تشاءم وحمله ذلك التشاؤم على أن يقدم أو يحجم فإنه يكون متطيرا.

وكذلك في باب التفاؤل إذا رأى شيئا فجعله ذلك الشيء يقدم، ولولا ذلك الشيء الذي رآه ما أقدم فإن ذلك أيضا من الطيرة، وهي نوع من أنواع التأثيرات الخفية على القلوب وذلك ضرب من السحر.

(ق): والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر - والعياذ بالله -، وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي ﷲ عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها في شوال، وبنى بها في شوال؛ فكانت تقول: (أيكن كان أحظى عنده مني؟)[2]، والجواب: لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال؛ لأنه ينكد عليه عيشه؛ فالواجب الإقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل[3]؛ فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا

---

[1] أخرجه أحمد ٢/٢٢٠.

[2] مسلم: كتاب النكاح/باب استحباب التزوج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه حديث (١٤٢٣).

[3] البخاري: كتاب الطب/ باب الفأل حديث (٥٧٥٦)، ومسلم: كتاب السلام/ باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، حديث (٢٢٢٤).

حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ؛ فكل شيء ترى فيه المصلحة؛ فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

وأما قول الحسن: الجبت: رنة الشيطان، والظاهر أن رنة الشيطان؛ أي: وحي الشيطان؛ فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً من الكفر، وقول الحسن جاء في (تفسير ابن كثير) باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في (المسند) (٦٠/٥) بلفظ: إنه الشيطان.

(**ف**): قلت: ذكر إبراهيم بن a بن مفلح أن في تفسير بقي بن مخلد أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب. قال سعيد بن جبير: لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده. رواه الحافظ الضياء في المختارة: الرنين الصوت. وقد رن يرن رنيناً، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى.

(**ق**): ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له؛ فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك؛ فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة.

وكذلك الطرق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.

والطيرة كذلك؛ لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه.

قوله: (إسناده جيد ...). قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع؛ إلا أن يكون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول؛ فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول؛ فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة؛ فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد؛ فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح، فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجودة؛ إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن، وأيهما أهم: السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغني عنه بما تشهد به الأصول، أما السند؛ فلابد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند؛ لقال كل من شاء ما شاء[1].

(**ف**): **قوله:** ولأبي داود وابن حبان في صحيحه: المسند منه و لم يذكر التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد) [رواه أبو داود] وإسناده صحيح[2].

(**ت**): هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف بإسناد صحيح وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه.

(**ق**): **قوله:** (من). شرطية، وفعل الشرط: (اقتبس)، وجوابه: (فقد اقتبس).

(**ت**): قوله من اقتبس قال أبو السعادات قبست العلم واقتبسته إذا تعلمته انتهى وعلى هذا فالمعنى من تعلم.

(**ق**): لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: (شعبة). أي: طائفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ﴾ (الحجرات: من الآية١٣)؛ أي: طوائف وقبائل.

قوله: (من النجوم). المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم، والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقياً؛ فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد

---

[1] أبو داود: كتاب الطب /باب في النجوم حديث (٣٩٠٥)بلفظ (من اقتبس علماً من ....)وحسنه الشيخ الألباني في صحيح أبو داود (٣٣٠٥) و لم أجد بلفظ (شعبة من النجوم) في تهذيب الكمال للحافظ المزي (٣٨/٣١).

[2] الإمام أحمد في (المسند) (٢٢٧/١، ٣١١)، وأبو داود في (الطب، باب في النجوم، ٢٢٦/٤)، وابن ماجة في (الأدب، باب تعليم النجوم)، وصححه النووي في (رياض الصالحين) (ص ٦٣٠)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى) (١٩٣/٣٥): (إسناده صحيح).وانظر مقدمة صحيح مسلم.

بن خالد الجهني في غزوة الحديبية؛ قال؛ صلى بنا رسول الله ذات ليلة على إثر سماء من الليل؛ فقال؛ (قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا - بنوء يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم -؛ فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب)[1].

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي بالرياح أيضاً، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلاني؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر؛ فهي ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية: فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: (من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر)[2]، وقوله في حديث زيد بن خالد: (من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)، ولقول النبي ﷺ في الشمس والقمر (إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)[3]؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥)، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)، فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: "فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد". المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف، لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له، فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

---

[1] البخاري: كتاب الأذان/باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، حديث (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان/باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧١).

[2] تقدم تخريجه قريباً.

[3] البخاري: كتاب الجمعة/باب الصلاة في كسوف الشمس، حديث (١٠٤١)، ومسلم: كتاب الكسوف/باب ما عرض على النبي ﷺ، حديث (٩٠٤).

(ف): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ' ٢٠: ٦٩ ' ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾.

(ق): **قوله:** (زاد ما زاد). أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء؛ فإنه يزداد بزيادته.

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

(من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه)[1].

(ف): **قوله:** وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: " من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر. ومن سحر فقد أشرك. ومن تعلق شيئاً وكل إليه " هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي. وقد رواه النسائي مرفوعاً وحسنه ابن مفلح.

قوله: وللنسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها. وروى عن a بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق، وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلثمائة، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى.

قوله: من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى: " ومن شر النفاثات في العقد " يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل. والنفث فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده المسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق. فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكوني القدري لا الشرعي، قاله ابن القيم رحمه الله تعالى.

(ق): أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة؛ فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف؛ فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح؛ فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة؛ فقد وقع في السحر.

قوله: (ومن سحر فقد أشرك). (من) هذه شرطية، وفعل الشرط: (سحر)، وجوابه: (فقد أشرك).

[1] النسائي: كتاب تحريم الدم / باب الحكم في السحرة، حديث (٤٠٧٩)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع.

(**ف**): **قوله:** ومن سحر فقد أشرك نص في أن الساحر مشرك، إذْ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

(**تم**): **قوله:** (ومن سحر فقد أشرك) هذا عام؛ لأنه جعل الإشراك جزاء السحر باسلوب الشرط والجزاء فكأنه قال: (كل من سحر فقد أشرك) يعني: سحر بذلك النحو الذي ذكر وهو أن يعقد عقدة ثم ينفث فيها و(من سحر فقد أشرك) وهذا دليل لما ذكرناه في الباب قبله. من أن كل سحر يعد من أنواع الشرك؛ لأنه لا يمكن أن يحدث السحر إلا بالنفث في العقد أو باستحضار الجن وبعبادة الجن ونحو ذلك وهذا شرك بالله.

(**ق**): **قوله:** (ومن تعلق شيئاً وكل إليه). (تعلق شيئاً)؛ أي: استمسك به، واعتمد عليه.

(وكل إليه)؛ أي: جعل هذا الشيء الذي تعلق به عمادا له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراء والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ (الطلاق: من الآية٣)، وإذا كان الله حسبك؛ فلا بد أن تصل إلى ما تريد.

لكن من تعلق شيئا من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجبا بما يقول ويفعل؛ فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائما متعلقا بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله؛ فلا تستغن عنه، بل كن دائما معتمدا على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها؛ فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية؛ حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضا من تعلق شيئا من القبور، وجعلها ملجأه ومغيثه عند طلب الأمور؛ فإنه يوكل إليه، والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأحقاف: من الآية٥)، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

مناسبة الحديث:

أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(ألا هل أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة، القالة بين الناس)[1] [رواه مسلم].

(**ق**): **قوله:** (ألا). أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله: (هل أنبئكم ما العضة). الاستفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف: ١٠).

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن يتنبه ليعلم، وهي تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم: أخبركم، وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين، وقال بعض العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

قوله: (العضَهَ) على وزن الحبل والصمت والوعد، بمعنى القطع، وأما رواية العضة على وزن عدة؛ فإنها بمعنى التفريق، وأيا كان؛ فإنها تتضمن قطعا وتفريقا.

قوله: (هي النميمة). فعيلة بمعنى مفعول، وهي من نم الحديث إلى غيره؛ أي: نقله، والنميمة فسرها بقوله: (القالة بين الناس)؛ أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك؛ فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقا أو كاذبا، فإن كان كاذبا؛ فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقا؛ فهو نميمة.

(**ت**): وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال يفسد النمام والكذاب في ساعة مالا يفسد الساحر في سنة وقال أبو الخطاب في عيون المسائل ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس قال في الفروع ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعلمه على وجه المكر والحيلة أشبه السحر ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين لكنه يقال الساحر إنما كفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص وهذا ليس بساحر وإنما يؤثر عمله ما

---

[1] مسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب تحريم النميمة، حديث (٢٦٠٦).

يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة انتهى ملخصا وبه يظهـــر مطابقـــة الحديث للترجمة والحديث دليل على تحريم النميمة وهو كذلك بالإجماع وقد قال أبو a بن حزم اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة وفيه دليل على أنها من الكبائر.

(**ق**): والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس[1]؛فتجد هذين الرجلين صـــديقين، فيأتي هذا النمام، فيقول لأحدهما: صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلى عداوة، فيحصـــل التفـــرق، وهذا يشبه السحر بالتفرق؛ لأن السحر فيه تفريق، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢).

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قـــال ﷺ: (لا يدخل الجنة قتات)[2]؛ أي: نمام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ (مر بقبرين يعذبان، أحـــدهما كان يمشي بالنميمة)[3].

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب؛ فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيـــع النمـــام مهما كانت حاله، قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِـــيمٍ﴾ (القلـــم: ١١-١٠)، واعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك؛ فاحذره.

وهي أيضا من أسباب فساد المجتمع؛ لأن هذا النمام إذا أراد أن يعتدي على كل صـــديقين متحـــابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من أفراد، فإذا تفرقت صار كما قال اللهُ – عـــز وجل –: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: من الآية٤٦)، وإذا لم يكن المجتمع كإنســـان واحد؛ فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعا؛ فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قـــوة، ولهـــذا قـــال الشاعر:

لا تخاصم بـــــواحد أهل بيت   فضعيفان يغلـــــــــبان قويا

وقال الآخر

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا   فإذا افترقن تـــكسرت أفرادا

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٤) حديث (١٨٠٢٧) من حديث عبد الرحمن بن غنيم، والطبراني في الأوسط (٣٥٠/٧) حـــديث (٧٦٩٧)، والصغير (٨٩/٢)، حديث (٨٣٥) من حديث أبي هريرة رضي اللهُ عنه مرفوعاً بلفظ ((وأبغضكم إلى اللهِ المشاءون بالنميمة المفرقون بـــين الأحبة)) والبزار في مسنده (١٥٨/٧)، حديث (٢٧١٩)من حديث عبادة بـــن صـــامت، والبيهقـــي في الشـــعب (٤٩٤/٧)، حـــديث (١١١٠٨)من حديث أسماء بنت زيد. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٨٦٥).

[2] البخاري: كتاب الأدب /باب ما يكره من النميمة، حديث (٦٠٥٦) ومسلم: كتاب الإيمان / باب غلظ تحريم النميمة، ولفظه: (لا يدخل الجنة نمام) حديث (١٠٥).

[3] البخاري: كتاب الوضوء / باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله حديث (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب الدليل على نجاســـة البـــول ووجوب الاستبراء، حديث (٢٩٢).

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية؛ لوجدناها تحرم كل ما يكون سببا للتفرق والقطيعة، قال ﷺ: (ولا يبيع بعضكم على بيع بعض)[١]، وقال: (لا يخطب الرجل على خطبة أخيه)[٢]، وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

(ت): وقوله القالة بين الناس قال أبو السعادات أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكى للبعض عن البعض ومنه الحديث ففشت القالة بين الناس

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما، ان رسول الله ﷺ قال: (إن من البيان لسحراً)[٣].

(ق): **قوله:** (إن من البيان). (إن): حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و(من): يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، وعلى الثاني يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر.

قوله: (لسحر). اللام للتوكيد، و(سحرا): اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: (خلق الإنسان *علمه البيان) (الرحمن: ٣-٤).

والبيان نوعان.

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: (إن من البيان لسحرا).

وعلى هذا التقسيم تكون (من) للتبعيض؛ أي: بعض البيان - وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة - سحر.

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط؛ صارت (من) لبيان الجنس.

---

[١] البخاري: كتاب البيوع / باب: النهي للبائع أن لا يحفل؟ الابل والبقر، حديث (٢١٥٠)، ومسلم: كتاب البيوع/ باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، حديث (١٥١٥).

[٢] البخاري: كتاب البيوع / باب لا يبيع على بيع أخيه ولا يسوم على سوم أخيه حديث (١٢٤٠)، ومسلم: كتاب النكاح / باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن، حديث (١٤١٣).

[٣] البخاري: كتاب النكاح / باب الخطبة، حديث (٥١٤٦)، ومسلم: كتاب الجمعة / باب تخفيف الصلاة والخطبة حديث، (٨٦٩).

ووجه كون البيان سحرا: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقا، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يحذر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف؛ فالبيان في الحقيقة بمعنى الفصاحة، ولاشك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال.

(**ف**): قال: ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: " إن من البيان لسحر " البيان البلاغة والفصاحة. قال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وقال ابن عبد البر تأوله طائفة على الذم. لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح. لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله. قال: هذا والله السحر الحلال انتهى. والأول أصح والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس، كما قال بعضهم:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر:

تقول: هذا مجاج النحل، تمدحه ... وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً، وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله: إن من البيان لسحراً هذا من التشبيه البليغ، لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق. فيستميل به قلوب الجهال، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى.

وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث " إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها " رواه أحمد وأبو داود.

(**ق**): **قوله:** (إن من البيان لسحرا)، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟.

الجواب: الأخير هو المراد؛ فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل؛ فهو مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل؛ فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في

طاعة الله وفي الدعوة إلى الله؛ فهو خير من العي، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله؛ فهذا لا خير فيه، والعي خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسان؛ فقال تعالى: ﴿علمه البيان﴾ (الرحمن: ٤).

وجه مناسبة الحديث للباب: المؤلف كان حكيما في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، و لم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره.

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: (فيه مسائل)؛ أي: في هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار مسائل:

المسألة الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق. وقد بينت في الباب أيضا وشرحت.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر. لقوله: (من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر)، وسبق الكلام عليها أيضا.

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك. لحديث أبي هريرة: (من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر)، وقد تقدم الكلام على ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك. لحديث ابن مسعود: (ألا هل أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة)، وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة. أي: من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي ﷺ: (إن من البيان لسحرا)، والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة استدلالا بقوله ﷺ (إن من البيان)؛ لأن(من) هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه كون ذلك من السحر أن لسان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب بما عنده من الفصاحة.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

(**تم**): ((**باب ما جاء في الكهان ونحوهم**))؛ هذا الباب أتى بعد أبواب السحر؛ لأن حقيقة عمل الكاهن أنه يستخدم الجن لإخباره بالأمور المغيبة، في الماضي أو الأمور المغيبة في المستقبل التي لا يعلمها إلا الله -ﷻ- فالكاهن يجتمع مع الساحر في أن كلا منهما يستخدم الجن لغرضه ويستمتع بالجن لغرضه، ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أن الكهانة استخدام للجن، واستخدام الجن كفر وشرك أكبر بالله -جل وعلا- لأن استخدام الجن في مثل هذه الأشياء، لا يكون إلا بأن يتقرب إلى الجن بشيء من العبادات، فالكهان لا بد لكي يُخدَمُوا بذكر الأمور المغيبة لهم - أن يتقربوا إلى الجني ببعض العبادات إما بالذبح أو الاستغاثة أو بالكفر بالله -جل وعلا- بإهانة المصحف أو بسب الله أو نحو ذلك من الأعمال الشركية الكفرية.

فالكهانة صنعة مضادة لأصل التوحيد، والكاهن مشرك بالله -جل وعلا-؛ لأنه يستخدم الجن ولا يمكن أن تخبره الجن بالمغيبات إلا إذا تقرب إليها بأنواع العبادات.

وكانت الكهانة منتشرة في بلاد العرب في الجزيرة وفي غيرها، والكهان أناس يُدَّعَى فيهم الولاية والصلاح وأن عندهم عِلم ما مضى أو عندهم علم المغيبات التي ستحدث للناس أو تحدث في الأرض ولهذا كانت العرب تعظم الكهان وتخاف منهم، وكانت تعطي الكاهن أجرا عظيما؛ لأجل ما يخبر عنه.

والكاهن كما ذكرنا لا يصل إلى حقيقة عمله بأن يخبر عن الأمور المغيبة إلا باستخدام الجن والتقرب إليهم التقربات الشركية فتستمتع الجن به من جهة ما صرف لها من العبادة ويستمتع هو بالجني من جهة ما يُخبره به من الأمور المغيبة.

والجن تصل إلى الأمور المغيبة التي تصدق فيها عن طريق استراق السمع، فإن بعضهم يركب بعضا حتى يسمع الوحي الذي يوحيه الله -جل وعلا- في السماء فربما أدرك الشهاب الجني قبل أن يلقي الكلمة لمن تحته، وربما أدركه بعد أن يلقى الكلمة فتأتي هذه الكلمة للجن فيعطونها الكُهَّان فيكذب معها الكاهن، أو تكذب معها الجن مائة كذبة حتى يعظُم شأن الكهان وحتى تعظُم عبادة الإنس للجن.

وقبل بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- كان استراق السمع كثيرا جدا وبعد بعثته -عليه الصلاة والسلام- حرست السماء من أن تسترق الجن السمع، لأجل تنزل القرآن والوحي حتى لا يقع الاشتباه في أصل الوحي والنبوة، وبعد وفاة النبي -عليه الصلاة والسلام- رجع الاستراق ولكنه قليل بالنسبة لما كان عليه قبل البعثة، فصارت عندنا أحوال **استراق السمع ثلاثة:**

١. قبل البعثة كثير جدا.
٢. وبعد بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يحصل استراق من الجن، وإن حصل فهو نادر في غير وحي الله -جل وعلا- بكتابه لنبيه ﷺ.
٣. بعد وفاته -عليه الصلاة والسلام- رجع استراق السمع أيضا ولكنه ليس بالكثرة التي كانت قبل ذلك؛ لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا والله -جل وعلا- بين ذلك في القرآن في آيات كثيرة من أن النجوم والشهب ترمي الجن كما قال -جل وعلا-: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ (الحجر: ١٨)، ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن الشهب مرصدة للجن.

إذا ظهر ذلك، فالكاهن قد يطلق عليه العراف والكاهن والعرَّاف اسمان متداخلان فقد يطلق أحدهما على الآخر، وعند بعض الناس يطلق الكاهن على من يخبر بما يحصل في المستقبل، ويطلق العراف على من يخبر عن الغائب عن الأعين مما حصل في الماضي من مثل مكان المسروق أو السارق من هو؟ ونحو ذلك مما هو غائب عن الأنظار وإنما يعلمه العراف بواسطة الجن.

والصحيح في ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية: من أن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلمون في معرفة الأمور بتلك الطرق، فكل من تكلم في معرفة الأمور المغيبة الماضية أو المستقبلة بتلك الطرق، طريق التنجيم أو الخط في الرمل بطريق الطرْق أو بالودع ونحو ذلك من الأساليب أو بالخشبة المكتوب عليها (أباجاد) ونحو ذلك من قراءة الفنجان أو قراءة الكف كل من يخبر عن الأمور المغيبة بشيء يجعله وسيلة لمعرفة الأمور المغيبة يسمى كاهنا ويسمى عرافا؛ لأنه لا يحصل له أمره إلا بنوع من أنواع الكهانة، وسيأتي ذلك -إن شاء الله-.

(ق): **الكهان**: جمع كاهن، والكهنة أيضا جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس عالما بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر؛ فهذا ليس من الكهانة لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠من برج الميزان مثلا في الساعة كذا وكذا؛ فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل؛ فهذا ليس من الكهانة في شيء؛ لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب؛ فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلا لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا؛ لأنه أيضا يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم؛ فيكون صالحا لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن يترل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: أن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح؛ كما قال السفاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا   فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحدا أنكره مستندا بذلك إلى الشرع؛ لكان ذلك طعناً بالشرع.

(**تم**): و(نحوهم) يعني: من العرافين والمنجمين والذين يخطون في الرمل والذين يكتبون على الخشب ونحو ذلك.

روى مسلم في صحيحه، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال:
(من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)[١].

(**ت**): هذا الحديث رواه مسلم كما قال المصنف ولفظه حدثنا a بن المثنى العتري ثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله في نسخة عبدالله عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما وليلة هكذا رواه وليس فيه فصدقه.

قوله: (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة على ما ذكره أبو مسعود الدمشقي لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها وكذلك سماه بعض الرواة.

(**ق**): **قوله:** (من): شرطية؛ فهي للعموم.

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة؛ أي: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل.

---

[١] مسلم: كتاب السلام / باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، حديث (٢٢٣٠)، دون قوله: (فصدقه بما يقول). وهي عند الإمام أحمد في (المسند) (٦٨/٤، ٣٨٠/٥).

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، يدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة.

قوله: (فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوما). ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوما، ولكنه ليس على إطلاقه؛ **فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:**

القسم الأول: أن يسأله سؤالا مجردا؛ فهذا حرام لقول النبي ﷺ: (من أتى عرافا ...)؛ فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله؛ فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: من الآية٦٥).

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد؛ فقال: (ماذا خبأت لك؟ قال: الدخ، فقال: اخسأ؛ فلن تعدو قدرك)[1]؛ فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره؛ لأجل أن يختبره؛ فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبا.

وإبطال قول الكهنة لاشك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبا؛ فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله ولله، ولاشك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله -عز وجل-؛ إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

[1] البخاري: كتاب الجنائز / باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، حديث (١٣٥٥)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب ذكر ابن صياد، حديث (٢٩٣١).

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط؛ لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له؛ فقال لهم: (كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة؛ فهي علف لدوابكم)[1]، وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئيُ من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها، فقالوا: ابحثي لنا عنه. فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة [2].

قوله: (فصدقه)، ليست في (صحيح مسلم)، بل الذي في (مسلم): (فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، وزيادتها في نقل المؤلف؛ إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ (فصدقه)، أو أن المؤلف عزاه إلى (مسلم) باعتبار أصله، فأخذ من (مسلم): (فسأله)، وأخذ من أحمد: (فصدقه).

قوله: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة). نفي القبول هنا يلزم منه نفي الصحة أو لا؟.

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع؛ ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفياً للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع؛ فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام؛ أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يُراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازياً لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله ﷺ: (من شرب الخمر؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)[3]

---

[1] مسلم: كتاب الصلاة / باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، حديث (٤٥٠).

[2] (أحكام المرجان في أحكام الجان) (ص ٣٨).

[3] الإمام أحمد في (المسند) (٣٥/٢)، والترمذي: كتاب الأشربة/ باب ما جاء في شارب الخمر، وقال (حديث حسن)، والبغوي في (شرح السنة) (٣٥٧/١١)، والحاكم (١٦٢/٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر: (إسناده حسن) المسند (٤٩١٧)، وصححه الشيخ الألباني كما في صحيح الجامع (٤٥٤٨)، (٦٣١٢)، ٦٣١٣).

(**ف**): قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه، ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة. أ.هـ. ملخصاً.

(**ق**): **وقوله:** (أربعين يوماً). تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خُصصت بذلك؛ فهذا من الأمور التي يُقصد بها التعبُد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته؛ لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله - ﷻ -؛ فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك؛ فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذاً له وقبولاً؛ فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: من الآية٣٦). فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله؛ إلا ما استثني؛ كالقسم الثالث والرابع؛ لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال:

(من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) رواه أبو داود[1].

(**ق**): **قوله:** (من أتى كاهناً). تقدم معنى الكهان، وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: (فصدقه). أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (٢/٨-٤، ٤٧٦)، وأبو داود: كتاب الطب/باب في الكاهن، حديث (٣٩٠٤)، والترمذي: كتاب الطهارة/ باب في كراهية إتيان الحائض، حديث (١٣٥)، وابن ماجة: كتاب الطهارة/باب النهي عن إتيان الحائض، حديث (٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (٢٠٠٦).

قوله: (بما يقول). (ما) عامة في كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدق؛ فإنه لا يجوز أن يصـــدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: (فقد كفر بما أُنزل على a)؛ أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على a ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْـأَمِينُ﴾ (الشـعراء: ١٩٢، ١٩٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ (النحل: من الآية١٠٢)، وبهذا نعرف أن القول الـــراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه؛ فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عـــن الله؛ لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سنداً من القرآن، حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظاً؛ لوجب أن تثبت له أحكام القـــرآن؛ لأن الشـــرع لا يفـــرق بـــين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسي؛ فهو لا يُتعبد بتلاوته، ولا يُقرأ في الصلاة، ولا يُعجز لفظه، ولو كان من كلام الله؛ لكان معجزاً؛ لأن كلام الله لا يماثله كلام البشـــر، وأيضاً باتفاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جاء مُشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعنـــاه الأحاديـــث القدسية؛ فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قـــولان: هـــذا أحـــدهما، والثاني: أنه من قول الله لفظاً.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبي ﷺ ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى، ومقـــول القول هو هذا الحديث المسوق؟.

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم: قال موسى، قال فرعون، قال إبـــراهيم ... مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قولهم؛ لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نُقل نقـــلاً عنهم، ويدل هذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَـــرَاءٌ مِمَّـــا تَعْبُدُونَ إلا الذي فطرني﴾ (الزخرف: ٢٦)، وقال عن موسى: ﴿وقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْـــتَعِينُوا بِاللَّـــهِ﴾ (الأعراف: من الآية١٢٨)، وقال عن فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الشعراء: ٣٤).

قوله: (بما أنزل على a). ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه مترل أو أنزل من الله؛ فهي دالة على علو الله – ﷻ – بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله؛ لأن الترول يكـــون مـــن أعلـــى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

(تم): **قوله:** (كفر بما أنزل على a) أنه كفر أصغر وليس بالكفر المخرج من الملة، وهذا القول هو القول الأول وهو صحيح وهو الذي يتعين جمعاً بين النصوص، فإن قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: (من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما) يدل على أنه لم يخرج من الإسلام، والحديث الآخر وهو قوله: (من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على a)[1] يدل على كفره، فعلمنا بذلك أن كفره كفر أصغر وليس كفرا مخرجا من الملة هذا أحد الأقوال في مسألة كفر من أتى الكاهن فصدقه بما يقول.

والقول الثاني: أنه يتوقف فيه فلا يقال: يكفر كفرا أكبر ولا يقال: أصغر وإنما يقال: إتيان الكهان وتصديقهم كفر بالله -جل وعلا- ويسكت عن ذلك ويطلق القول كما جاء في أحاديث، وهذا لأجل التهديد والتخويف حتى لا يتجاسر الناس على هذا الأمر، وهذا هو مذهب الإمام أحمد في المنصوص عنه.

والقول الثالث من أقوال أهل العلم: أن الذي يصدق الكاهن كافر كفرا أكبر مخرج من الملة.

(ق): وجه ذلك: أن ما أنزل على a قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: من الآية٦٥)، وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات؛ فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً من الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب؛ فكفره كفر دون كفر.

(تم): وهذا القول فيه نظر من جهتين:

الجهة الأولى: ما ذكرنا من الدليل من أن قوله -عليه الصلاة والسلام-: (لم تقبل له صلاة أربعين يوما) يدل على أنه لم يكفر الكفر الأكبر، ولو كان كفر الكفر الأكبر لم يحد عدم قبول صلاته بتلك المدة من الأيام.

والجهة الثانية: أن تصديق الكاهن فيه شبهة، وادعاء علم الغيب أو تصديق أحد ممن يدعي علم الغيب كفر بالله -جل وعلا- كفرا أكبر، لكن هذا الكاهن الذي ادعى علم الغيب يخبر بالأمور المغيبة فيما صدق فيه عن طريق استراق الجن للسمع فيكون إذاً هو نقل ذلك الخبر عن الجني، والجن نقلوه عما سمعوه في السماء، وهذه شبهة، فقد يأتي الآتي إلى الكاهن ويقول: أنا أصدقه فيما أخبر من الغيب؛ لأنه قد جاءه علم ذلك الغيب من السماء عن طريق الجن، وهذه الشبهة تمنع من تكفير من صدق الكاهن الكفر الأكبر.

فالقول الأظهر: أن كفره كفر أصغر وليس بأكبر لدلالة الأحاديث ولظهور التعليل في ذلك.

---

[1] أخرجه أحمد (٤٠٨/٢-٤٧٦) والبيهقي (١٣٥/٨)والحاكم(٨/١).

وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، عن (النبي ﷺ من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على a ﷺ)(١). ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً(٢).

(ق): **قوله:** (وللأربعة والحاكم). الأربعة هم: أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم ليس من أهل (السنن)، لكن له كتاب سمي (صحيح الحاكم).

قوله: (صحيح على شرطهما)؛ أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قول (على شرطهما) هذا على ما يعتقد، وإلا؛ فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: (على شرطهما)؛ أي: أن رجاله رجال (الصحيحين)، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخاري ومسلم؛ لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما؛ فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

قوله: (صحيح). يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهذا قالوا: لا عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة؛ لأن كلمة (لا عبرة)؛ أي: لا يلتفت إليه، والصواب أنه لا يؤخذ مقبولاً في كل حال، مع أني تدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله، ووجدت أنه دائماً إذا نقل الإجماع يقول: إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفساً إلى وسعها.

ولكننا مع ذلك نقول: إذا كان الرجل ذا إطلاع واسع، فقد يكون هذا القول إجماعاً، أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله؛ فإن قوله هذا لا يكون إجماعاً ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل: لم يدرس إلا المذهب الحنبلي في مسألة، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم؛ فإن قوله هذا لا يعتبر؛ لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

---

(١) الإمام أحمد في (المسند) (٢/٤٢٩)، والبيهقي في (السنن) (٧/١٩٥)، والهيثمي في (المجمع) (٥/١١). قال في (تيسير العزيز) ص ٤٠٩: فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحد منهم... ولعله أراد الذي قبله)، والحاكم في (المستدرك) (١/١٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) الإمام أحمد في (المسند) (٢/٤٢٨)، وأبو يعلى في (المسند) (٥٤٠٨)، والهيثمي في (المجمع) (٥/١١٨- ١١٩)، وجود إسناده المنذري في(الترغيب) (٤/٣٦)، وأيضاً الحافظ في (الفتح)(١٠/٢١٧).

قولـه: (من أتى عرافاً أو كاهناً). (أو) يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويـــع؛ فالحـــديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما؛ فتكون (أو) للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه؛ لأن كثرة الأدلة مما يقوي المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقاً وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: (من أتى عرافاً أو كاهناً) أنه موقوف؛ لأنه قـــال عـــن أبي هريرة، لكنه لما قال في الذي بعده: (موقوفاً) ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

(**تم**): **قوله:** (فقد كفر بما أنزل على a ﷺ) يعني القرآن؛ لأنه قد جاء في القرآن وما بينه النبي ﷺ من السنة أن الكاهن والساحر والعراف لا يفلحون وأنهم يكذبون ولا يصدقون.

(**ف**): قال: ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله مرفوعاً.

أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره. روى عن يحـــيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق. وكان من الأئمة الحفاظ، مات سنة سبع وثلاثمائـــة، وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ولفظه: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على a ﷺ وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقـــد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً

(ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سـحر لـه. ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على a ﷺ)[1] رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: (ومن أتى كاهناً ...) الحديث[2].

(**ق**): **قوله:** (ليس منا). تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإســـلام، بل على حسب الحال.

[1] البزار في (المسند) (٣٠٤٤)، والهيثمي في (المجمع) (١١٨/٥). قال المنذري في (الترغيب): (إسناده جيد)، وقال الهيثمي: (ورجالــه رجـــال الصحيح)، شطره الأول صححه الألباني كما في صحيح الجامع(٥٤٣٥)وشطره الثاني صحيح أيضاً كما مر قريباً.

[2] الطبراني في (الأوسط) كما في (مجمع الزوائد) (١١٧/٥)، وقال: وفيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف. والمنذري في (الترغيب) (٣٣/٤): (إسناده حسن).

قوله: (مرفوعاً)؛ أي إلى النبي ﷺ.

قوله: (تطير). التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم؛ فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً، ولا تشاءم؛ لأنك لم توفق فيه لأول مرة؛ فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة؟!.

ويقال: إن الكسائي – إمام النحو – طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته؛ فقال: سبحان الله ! هذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذن أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح. فكابد؛ فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: (أو تطير له). بالبناء للمفعول؛ أي: أمر من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك؛ فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: (من تطير) يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: (أو تكهن أو تكهن له). سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل، يقول سيكون كذا وكذا، وربما يقع؛ فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلاناً سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة، بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: (أو تكهن له)؛ أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غداً، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: (أو سَحَرَ أو سُحِرَ له). تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: (أو سُحر له)؛ أي: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النشرة عن طريق السحر؛ فهي داخلة فيه، وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبون فيه رصاصاً، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر؛ أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا (صب الرصاص)، وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله.

(**ف**): **قوله:** (رواه البزار) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير. وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

(**ق**): الشاهد من هذا الحديث: قوله: (ومن أتى كاهناً ...) إلخ، وقوله: (ورواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد جيد من حديث ابن عباس ...) إلخ؛ فيكون هذا مقوياً للأول.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك وقيل: هو الكاهن والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

(**ف**): قوله (قال البغوي إلى آخره) البغوي - بفتحتين - هو الحسين بن مسعود الفراء الشافعي، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان، كان ثقة، فقيهاً زاهداً، مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة (رحمه الله تعالى).

(**ق**): **قوله:** (قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات ...). العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة.

وهو الذي يدعى معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رحمه الله: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضي؛ لأن مكان المسروق يعلم بعد السرقة، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: (وقيل: هو)؛ أي: العراف الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: (وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير)؛ أي: أن تضمر شيئاً فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا. أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي؟ وهو لا يدري.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف؛ فقيل: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها؛ فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

(ف): والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعى معرفة علم الشيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية، ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً أو عرافاً أو في معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة.

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إن الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعى أنه ولي ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان: (فيكذبون معها مائة كذبة)[1] فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه. لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله: " فلا تزكوا أنفسكم "' ٥٣: ٣٢ ' وليس هذا من شأن الأولياء، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ وفي ضمن ذلك طلب المترلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور. وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيئ؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق ﷺ، وكان عمر ﷺ يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته. ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاقم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر. فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد

[1] البخاري، كتاب بدء الخلق : ،حديث(٢٢١٠)، باب ذكر الملائكة. ومسلم ، كتاب السلام : ،حديث(٢٢٢٨) (١٢٢)، باب تحريم الكهانة واتيان الكهان.

الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب: نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.[1]

(ق): **قوله:** (وقال أبو العباس ابن تيميه). هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميه، يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه والله أعلم كان مشغولاً بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولداً مدفوناً إلى جانبه في دمشق؛ فإنه غير صحيح قطعاً.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذا، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه؛ فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال؛ فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمال والمنجم ونحوهم؛ فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي؛ لأن عندنا عموما معنويا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموما لفظيا، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملا له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يستخدم في طاعة الله، كأن يكون له نائبا في تبليغ الشرع؛ فمثلا: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعا؛ فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمرا محمودا أو مطلوبا، وهو من الدعوة إلى الله – عز وجل –، والجن حضروا النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء؛ لأن المنذر لابد أن يكون عالما بما ينذر، عابدا مطيعا لله – سبحانه – في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة؛ صار حراما، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك.

---

[1] مجموع الفتاوى (٣٥/١٣٧).

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبل الصدقة في المكان الفلاني؛ فهذا استخدام في أمر مباح.

الحال الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة؛ كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك؛ فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركاً صار شركاً، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان؛ فهذا يكون إثماً وعدواناً، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون؛ فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ[1]، وهي: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم ...) الآية.

وقال ابن عباس –في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم –:

(ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)[2] .

(ف): قوله(وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد ...الخ) هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً. وإسناده ضعيف. ولفظه " رب معلم حروف أبي جاد دارس في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة " ورواه حمد بن زنجويه عنه بلفظ (رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق).

(ق): **قوله:** (يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم). الواو هنا ليست عطفاً، ولكنها للحال، يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: (ما أرى من فعل ذلك). ويجوز بفتح الهمزة بمعنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.

---

[1] أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم: كتاب الوكالة /باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه. ووصله النسائي في الكبرى (٢٨٣/٦)، حديث (١٠٧٩٥) وعمل اليوم والليلة، ص(٥٣٢)، حديث (٩٥٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١٠).

[2] موضوع: عبد الرزاق في (المصنف) (٢٦/١١)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (١٣٩/٨)، حديث (١٦٢٩١)موقوفاً على ابن عباس.وأخرجه الطبراني في الكبير (٤١/١١)، حديث (١٠٩٧٧)مرفوعاً وذكره الهيثمي في المجمع (١١٧/٥)ن وقال: (رواه الطبراني وفيه خالد بن يزيد العمري وهو كذاب).

وقوله: (أبا جاد). هي: **أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ ... وتعلم أبا جاد ينقسم إلى قسمين:**

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك؛ فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

جد بالرضا وعط المنى	من ساعدوا في ذا البنا
تاريخه حين انتهى	قول المنيب اغفر لنا
والشهر في شوال يا	رب تقبل سعينا

فقوله: (اغفر لنا) لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢هـ.

وقد اعتنى بها العلماء في العصور الوسطى، حتى في القصائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، و لم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثاني: محرم، وهو كتابة (أبا جاد) كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض، إما على سبيل العموم؛ كالجدب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص؛ كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا وما أشبه ذلك؛ فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

وقوله: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق).

قوله: (خلاق)؛ أي: نصيب.

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم؛ لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر؛ إذ لا ينفى النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله.

و لم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم؛ فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا؛ قتلوا كفراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم؛ إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون؛ لأن المسألة فيها خلاف؛ فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم؛ لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ

يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (المائدة: من الآية٣٣)؛ فكل من أفسد على الناس أمور دينـهم أو دنياهم؛ فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قُتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة؛ فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن لها شركاً؛ فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط؛ فكفره غير مخرج من الملة، ولكن يسمى كفراً؛ لقول النبي ﷺ على إثر سماء كانت من الليل: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[١].

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثاني: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرض وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة؛ فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

(**تتمة**): واعلم أن أصناف الكهانة كثيرة جدا وجامعها الذي يجمعها أنه يستخدم الكاهن وسيلة ظاهرة عنده ليقنع السائل بأنه وصل إليه العلم عن طريق أمور ظاهرة كالنجوم، أو عن طريق الخط أو عن طريق الطرق أو عن طريق الودع أو عن طريق الفنجان أو عن طريق الكف أو عن طريق النظر في الحصى أو عن طريق الخشب ونحو ذلك.

هذه كلها وسائل يغر بها الكاهن من يأتيه، وهي في الحقيقة وسائل لا تحصل ذاك العلم ولكن العلم جاءه عن طريق الجن، وهذه الوسيلة إنما هي وسيلة لخداع الناس ولكي يظن الظان أنها تؤدي إلى العلم وأن هؤلاء أصحاب علم وفن بهذه الأمور، وفي الواقع هو لا يتحصل على العلم الغيبي عن طريق خط أو عن طريق فنجان أو عن طريق النظر في البروج أو نحو ذلك وإنما يأتيه العلم عن طريق الجن وهو يظهر هذه الأشياء حتى يحصل على المقصود كي يصدق الناس أنه لا يستخدم الجن وأنه ولي من الأولياء، وإلا فكيف يستنتج المغيبات من هذه الأمور الظاهرة؟!.

ويوجد في بعض البلاد: كغرب إفريقيا وبعض شمالها وفي الشرق من يتعاطى هذه الأشياء ويزعم أنه من الأولياء ويقول: إن الملائكة تخبره بكذا فهو لا يفعل الفعل إلا بإرشاد من الملائكة، فالذين يفعل هذه

---

[١] البخاري: كتاب الأذان / باب: يستقبل الإمام الناس إذا سلم، حديث (٨٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان / باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧١).

الأفعال من الأمور السحرية أو الكهانية يعتبر في تلك البلاد من الأولياء؛ ولهذا ترى بعض الشراح يذكر في مقدمة هذه الأبواب أن أولياء الله تعالى لا يتعاطون الشرك ولا يتعاطون مثل هذه الأمور، فأولياء الله مقيدون بالشرع وليسوا من أولياء الجن.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. يؤخذ من قوله (من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد)، ووجهه: أنه كذب بالقرآن، وهذا من أعظم الكفر.

الثانية: التصريح بأنه كفر. تؤخذ من قوله: (فقد كفر بما أنزل على محمد).

الثالثة: ذكر من تكهن له. تؤخذ من حديث عمران بن حصين؛ حيث قال: (ليس منا)؛ أي: إنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه.

الرابعة: ذكر من تطير له. تؤخذ من قوله: (أو تطير له).

الخامسة: ذكر من سحر له. تؤخذ من قوله: (أو سحر له).

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له، أو سحر له، أو تطير له؛ لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا في المتطيرين، وهذا في السحرة؛ فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك؛ فهو مثلهم في العقوبة.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد. وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم؛ إلا على حسب الحال التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك.

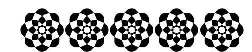
السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف. وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن؛ فهما مترادفان؛ فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها؛ فهو أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل؛ فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان؛ فالكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل والعراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.



باب ما جاء في النشرة

(**ق**): تعريف النشرة: في اللغة؛ بضم النون: فعلة من النشر، وهو التفريق. وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور. لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

(**ف**): **قال أبو السعادات**: النشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي يكشف ويزال.

قال الحسن: النشرة من السحر. وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث: فلعل طباً أصابه، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس أي رقاه.

وقال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

(**تم**): النشرة متعلقة بالسحر وأصلها من النشر وهو قيام المريض صحيحا، وهي اسم لعلاج المسحور سميت نشرة؛ لأنه ينتشر بها أي: يقوم ويرجع إلى حالته المعتادة.

وقول المؤلف -رحمه الله- هنا: " باب ما جاء في النشرة " يعني: من التفصيل وهل النشرة جميعا، وهي حل السحر مذمومة؟ أو أن منها ما هو مذموم ومنها ما هو مأذون به؟؟.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة وهي أنه كما أن السحر شرك بالله -جل وعلا- يقدح في أصل التوحيد وأن الساحر مشرك الشرك الأكبر بالله، فالنشرة التي هي حل السحر قد تكون من ساحر وقد تكون من غير ساحر بالأدوية المأذون بها أو الأدعية ونحو ذلك، فإذا كان من ساحر فإنها مناقضة لأصل التوحيد ومنافية لأصله، فالمناسبة ظاهرة في الصلة بين هذا الباب وباب ما جاء في السحر، وكذلك مناسبتها لكتاب التوحيد لأن كثيرين ممن يستعملون النشرة يشركون بالله -جل وعلا-.

والنشرة قسمان: نشرة جائزة ونشرة ممنوعة.

فالنشرة الجائزة: هي ما كانت بالقرآن أو بالأدعية المعروفة أو بالأدوية عند الأطباء ونحو ذلك، فإن السحر يكون عن طريق الجن، كما تقدم، ويحصل منه حقيقة إمراض في البدن وتغيير في العقل والفهم، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يعالج بالمضادات التي تزيل ذلك السحر، فمما يزيله القرآن الكريم، والقرآن هو أعظم ما ينفع في إزالة السحر، وكذلك الأدعية والأوراد ونحو ذلك مما هو معروف من الرقى الشرعية.

ونوع من السحر يكون في البدن أي: من جهة عضوية فهذا أحيانا يعالج بالرقى والأدعية والقرآن وأحيانا يعالج عن طريق الأطباء العضويين وذلك؛ لأن السحر كما سبق يمرض حقيقة، فإذا أزيل المرض

أو سبب المرض فإنه يبطل السحر، ولهذا قال ابن القيم في آخر الكلام: ((والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز))؛ لأنه يحصل منه المرض وإذا كان الأمر كذلك فإنه يعالج بما أذن به شرعا من الرقى والأدوية المباحة.

والقسم الثاني من النشرة: وهى التي من أنواع الشرك أن ينشر عنه بغير الطريق الأول بطريق السحر فيحل السحر الأول بسحر آخر، وذكرنا أن السحر لا ينعقد أصلا إلا بأن يتقرب الساحر للجني أو أن يكون الجني يخدم الساحر الذي يشرك بالله دائما.

كذلك حل السحر لا بد فيه من إزالة سببه وهو خدمة شياطين الجن للساحر، وهذا لا يمكن إلا للجن، فإن الساحر الثاني الذي ينشر السحر ويرفع السحر لا بد أن يستغيث أو أن يتوجه إلى بعض جِنِّه في أن يرفع أولئك الجن الذين عقدوا هذا السحر أن يرفعوا أثره. فعلى هذا لا يكون السحر من حيث العقد والابتداء إلا بالشرك بالله ومن حيث الرفع والنشر لا يكون إلا بالشرك بالله -جل وعلا-؛ **ولهذا قال الحسن**: ((لا يحل السحر إلا ساحر))[1] يعني: لا يحل السحر بغير الطريقة الشرعية المعروفة إلا ساحر. فإذا جاء أحد وقال: أنا أحل السحر: قيل له: تستخدم القراءة والتلاوة والأدعية؟ فإن قال: لا. قيل: هل أنت طبيب تطب ذلك المسحور؟ فإن قال: لا. فهو إذاً ساحر لأنه إذا لم يستخدم الطريقة الثانية فإنه لا يمكن أن يحل السحر إلا ساحر؛ لأنه فك أثر الجن في ذلك السحر ولا يمكن إلا عن طريق شياطين الجن الذين يؤثرون في ذاك.

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: (هي من عمل الشيطان) رواه أحمد بسند جيد. وأبو داود[2] وقال: سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

(ف): هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في سننه. والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن عمه وهب بن منبه عن جابر فذكره قال ابن مفلح: إسناد جيد، وحسن الحافظ إسناده.

(ق): قوله في (عن النشرة). أل للعهد الذهني؛ أي: المعروفة في الجاهلية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلك عن طريق من طرق حل السحر، **وهي على نوعين**:

---

[1] أخرجه ابن جرير في (التهذيب) كما في (فتح الباري) ٢٣٣/١٠.

[2] الإمام أحمد في (المسند) (٢٩٤/٣)، وأبو داود: كتاب الطب/باب في النشرة، حديث (٣٨٦٨) والحاكم في (المستدرك) (٤٢٠/٤)، وصححه ووافقه الذهبي. قال الحافظ في (الفتح) (٢٣٣/١٠): (إسناده حسن)، وصححه الشيخ الألباني كما في صحيح سنن أبي داود.

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك؛ كانت شركاً، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرقى والعقد والنفث وما أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر على ما سبق.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طستاً فيه ماء ويصبون عليه رصاصاً ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الرصاص؛ فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال: إن بعض الناس أجازها، فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طست، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ما هذا؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر وكره الخوض فيه.

قوله: (من عمل الشيطان)؛ أي: من العمل الذي يأمر به الشيطان ويوحي به؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحي إلى أوليائه بالمنكر، وهذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجواز، بل إذا رتبت العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه.

قوله: (رواه أحمد بسند جيد وأبو داود). سند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه.

قوله: (فقال: ابن مسعود يكره هذا كله). أجاب رحمه الله بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا لاستدل به.

والمشار إليه في قوله: (يكره هذا كله) كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح على ما يأتي، لكنه غير مراد؛ لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهته، وسبق أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يكره تعليق التمائم من القرآن وغير القرآن.

وعلى هذا؛ فالكلية في قول أحمد: (يكره هذا كله) يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان، وهي النشرة بالسحر والنشرة التي من التمائم.

وقوله: (يكره). الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى؛ فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ...﴾(الإسراء: من الآية٢٣)، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ (الإسراء: ٣٨)، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

وفي "البخاري" عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه.[1] أ.هـ.

(**ف**): **قوله:** عن قتادة هو ابن دعامة - بكسر الدال - الدوسي ثقة فقيه من أحفظ التابعين. قالوا إنه ولد أكمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: رجل به طب بكسر الطاء. أي سحر، يقال: طب الرجل - بالضم - ذا سحر. ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً. كما يقال للديغ: سليم.

وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد. يقال لعلاج الداء طب، والسحر من الداء يقال له طب.

(**ق**): **قوله:** (أو يؤخذ عن امرأته). أي: يحبس عن زوجته؛ فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقده عند العقد؛ فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم؛ فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً.

ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجته ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها؛ فينفك السحر.

لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح؛ فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً.

و(أو) في **قوله:** (أو يؤخذ) يحتمل أنها للشك من الراوي: هل قال قتادة (به طب) أو قال: (يؤخذ عن امرأته)؟

أي: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع، أي أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: (أيحل عنه أو ينشر). لا شك أن (أو) هنا للشك؛ لأن الحل هو النشرة.

قوله: (لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح).

---

[1] البخاري في (الصحيح) تعليقاً: كتاب الطب/باب هل يستخرج السحر معلقاً.

(**تم**): يريد ابن المسيب بذلك ما ينفع من النشرة بالتعوذات والأدعية والقرآن والدواء المباح ونحو ذلك، أما النشرة التي هي بالسحر فابن المسيب أرفع من أن يقول إنها جائزة و لم ينه عنها والنبي -عليه الصلاة والسلام- يقول: (هي من عمل الشيطان) لهذا قال (لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه) يعني: من الأدوية المباحة ومن الرقى والتعوذات الشرعية وقراءة القرآن ونحو ذلك فهذا لم ينه عنه بل أُذن فيه.

وروى عن الحسن أنه قال: [لا يحل السحر إلا ساحر][1].

(**ف**): هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد.

والحسن هو ابن أبي الحسن واسمه: يسار - بالتحتية والمهملة - البصري الأنصاري: مولاهم. ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين. مات سنة عشرة ومائة رحمه الله، وقد قارب التسعين.

(**تم**): ((فيبطل عمله عن المسحور)) وهذه حقيقة النشرة الشركية، إذا تبين ذلك فإن حكم حل السحر بمثله أنه لا يجوز ومحرم بل هو شرك بالله -جل وعلا-؛ لأنه لا يحل السحر إلا ساحر.

وبعض العلماء من أتباع المذاهب يرى جواز حل السحر بمثله إذا كان للضرورة كما قال فقهاء مذهب الإمام أحمد في بعض كتبهم: ويجوز حل سحر بمثله ضرورة، وهذا القول ليس بصواب بل هو غلط؛ لأن الضرورة لا تكون جائزة ببذل الدين والتوحيد عوضا عنها، ومعروف أن الضروريات الخمسة التي جاءت بها الشرائع أولها حفظ الدين، وغيره أدنى منه مرتبة - ولاشك-فلا يبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى.

وضرورة الحفاظ على النفس وإن كانت من الضروريات الخمس لكنها دون حفظ الدين مرتبة؛ ولهذا لا يقدم ما هو أدنى على ما هو أعلى أو أن يبذل ما هو أعلى لتحصيل ما هو أدنى من الضروريات الخمس، والأنفس لا يجوز حفظها بالشرك، ولأن يموت المرء وهو على التوحيد خير له من أن يعافى وقد أشرك بالله -جل وعلا-، لأن السحر لا يكون إلا بشرك والذي يأتي الساحر ويطلب منه حل السحر، فقد رضي قوله وعمله ورضي أن يعمل به ذاك ورضي أن يشرك ذاك بالله لأجل منفعته وهذا غير جائز، فتحصل من هذا أن السحر -نشراً ووقوعاً- لا يكون إلا بالشرك الأكبر بالله -جل وعلا-.

وعليه فلا يجوز أن يحل لا من جهة الضرورة ولا من جهة غير الضرورة من باب أولى بسحر مثله بل يحل وينشر بالرقى الشرعية.

[1] فتح الباري (١٠/٢٣٣).

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، ويبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

(**ف**): **قوله:** قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: حلٌّ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان إلى آخره * ومما جاء في صفة النشرة الجائزة: ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس: ﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١- ٨٢] **وقوله:** ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع. **وقوله:** ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، هو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

قلت: قول العلامة ابن القيم والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز يشير رحمه الله إلى مثل هذا، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل: أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز: والله أعلم.

فيه مسألتان:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الأشكال.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة. تؤخذ من قوله ﷺ: (هي من عمل الشيطان)، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه. تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.



باب ما جاء في التطير

(ف): **قوله:** (باب: ما جاء في التطير): أي من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تطير يتطير، والطيرة بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن اسم مصدر من تطير طيرة، كما يقال تخير خيرة، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر.

قال المدائني سألت رؤبه بن العجاج قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره. والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد.

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد تحذيراً مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

(ق): تعريف التطير: في اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يميناً أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.

أما في الاصطلاح؛ فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت؛ فقل التطير: هو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو معلوم.

بمرئي مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً.

أو مسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب؛ فيتشاءم.

أو معلوم؛ كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات؛ فهذه لا تُرى ولا تسمع.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل؛ فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(هود: من الآية١٢٣).

فالطيرة محرمة، وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله – ﷻ –، ولا تسيء الظن بالله – ﷻ –.

وقول الله تعالى: **﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾** (**الأعراف: من الآية١٣١**).

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ﴾: هذه الآية نزلت في قوم موسى كما حكى الله عنهم في **قوله:** ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾(الأعراف: من الآية١٣١)، قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ﴾، ومعنى: ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾: أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هذا من موسى وأصحابه؛ فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ﴾.

قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ﴾. ﴿ألا﴾: أداة استفتاح تفيد التنبيه والتوكيد، و﴿إنما﴾: أداة حصر.

وقوله: ﴿طائر﴾ مبتدأ، و﴿عند الله ﴾ خبر، والمعنى: أن ما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى وقومه، ولكنه من الله؛ فهو الذي قدره ولا علاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء – والعياذ بالله – يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. فهم في جهل؛ فلا يعلمون أن هناك إلهاً مدبراً، وأن ما أصابهم من الله وليس من موسى وقومه.

(**تم**): ومناسبة هذه الآية لهذا الباب: أن هذا التطير من صفات أعداء الرسل ومن خصال المشركين. وإذا كان كذلك فهو مذموم ومن خصال المشركين الشركية، وليست من خصال أتباع الرسل، وأما أتباع الرسل فإنهم يعلقون ذلك بما عند الله من القضاء والقدر أو بما جعله الله –جل وعلا– لهم من ثواب أعمالهم أو العقاب على أعمالهم كما تعالى قال: ﴿ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ الله ﴾.

وقوله: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ (يّـــس: ١٩).

(ق): **الآية الثانية**: قوله تعالى: ﴿قالوا طائركم معكم﴾. أي: قال الذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾(يس: من الآية١٣).

فقالوا ذلك رداً على قوله أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾(يّـــس: من الآية١٨)؛ أي: تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير، بل على الشر وما فيه هلاكنا؛ فأجابهم الرســـل بقـــولهم: ﴿طـــائركم معكم﴾؛ أي: مصاحب لكم، فما يحصل لكم؛ فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

ولا منافاة بين هذه الآية والتي ذكرها المؤلف قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المقدر لهذا الشيء هو الله، والثانية تبين سببه، وهو أنه منهم؛ فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) الحاصل عليهم معهم ملازم لهم؛ لأن أعمالهم تستلزمه؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْـــدِي النَّـــاسِ﴾ (الروم: من الآية٤١)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّـــمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

ويُستفاد من الآيتين المذكورتين في الباب: أن التطير كان معروفاً من قبل العرب وفي غير العـــرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

وقولـه: ﴿أإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾. ينبغي أن تقف على قوله: ﴿ذكرتم﴾؛ لأنها جملة شـــرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: أإن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا؛ فلا تصلها بما بعدها.

وقولـه: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾. ﴿بل﴾ هنا للإضراب الإبطالي؛ أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هـــو من إسرافكم.

وقولـه: ﴿مسرفون﴾. أي: متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا عليه.

عن أبي هريرة ﷺ، أن الرسول ﷺ قال: (لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر)[١] أخرجاه.

زاد مسلم: (ولا نوء، ولا غول)[٢].

(ش): قوله لا عدوى قال أبو السعادات العدوى اسم من الإعداء كالدعوى والبقوى من الادعاء والإبقاء يقال أعداه الداء يعديه إعداء وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء وذلك أن يكون ببعير جرب مثلا يتقي مخالطته بابل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه انتهى وفي بعض روايات هذا الحديث فقال أعرابي يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها قال فمن أعدى الأول وفي رواية في مسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال لا يورد ممرض على مصح ثم أن أبا هريرة اقتصر على حديث لا يورد ممرض على مصح وأمسك عن حديث لا عدوى فراجعوه فيه فقالوا سمعناك تحدثه فأبى أن يعترف به قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر وقد روى حديث لا عدوى جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك وجابر بن عبدالله والسائب بن يزيد وابن عمر وغيرهم فنسيان أبي هريرة له لا يضر وفي بعض روايات هذا الحديث وفر من المجذوم كما تفر من الأسد وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرا فردت طائفة حديث لا عدوى بأن أبا هريرة رجع عنه قالوا والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر فالمصير إليها أولى وهذا ليس بشيء لأن حديث لا عدوى قد رواه جماعة كما تقدم وعكست طائفة هذا القول ورجحوا حديث لا عدوى وزيفوا ما سواه من الأخبار وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث فر من المجذوم فرارك من الأسد وبأن عائشة أنكرته كما روى ابن جرير عنها أن امرأة سألتها عنه فقالت ما قال ذلك ولكنه قال لا عدوى وقال فمن أعدى الأول قالت وكان لي مولى به هذا الداء فكان يأكل في صحافي ويشرب في أقداحي وينام على فراشي وهذا أيضا ليس بشيء فإن الأحاديث في الاجتناب ثابتة وحملت طائفة أخرى الإثبات والنفي على حالتين مختلفتين فحيث جاء لا عدوى كان للمخاطب بذلك من قوي يقينه وصح توكله بحيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد لكن القوي اليقين لا يتأثر به وهذا كما أن قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها وحيث جاء الإثبات كان المراد به ضعيف

---

[١] البخاري: كتاب الطب/باب لا هامة، حديث (٥٧٥٧)، ومسلم: كتاب السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء، حديث (٢٢٢٠)، (٢٢٢٢).

[٢] انظر التخريج السابق فالرقم الأول في مسلم لأبي هريرة والثاني لجابر (رضي الله عنهما).

الإيمان والتوكل ذكره بعض أصحابنا واختاره وفيه نظر وقال مالك لما سئل عن حديث فر من المجذوم ما سمعت فيه بكراهية وما أرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء ومعنى هذا انه نفى العدوى أصلا وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاها الشارع والى هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره القاضي أبو يعلى عن أحمد قلت وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقي وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله لا عدوى على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك ولهذا قال فر من المجذوم كما تفر من الأسد وقال لا يورد ممرض على مصح وقال في الطاعون من سمع به بأرض فلا يقدم عليه وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال فمن أعدى الأول يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده وروى الإمام أحمد والترمذي عن بن مسعود مرفوعا لا يعدي شيء قالها ثلاثا فقال الأعرابي يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها فقال رسول الله ﷺ فمن أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها وأما أمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن إيراد الممرض على المصح وعن الدخول إلى موضع الطاعون فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسبابا للهلاك والأذى والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذي فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم وقدوم بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادا على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة وعلى هذا يحمل ما روي عن خالد بن الوليد من أكل السم ومن مشي سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني بالجيوش على متن البحر قاله ابن رجب.

(**ق**): **فقوله:** (لا عدوى) يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

قوله: (ولا طيرة). اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطير، مثل الخيرة اسم مصدر اختار، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: من الآية٣٦)؛ أي: الاختيار، أي يختاروا خلاف ما قضى الله ورسوله من الأمر.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولذلك تقول كلمته كلاماً بمعنى كلمته تكليماً، وسلمت عليه سلاماً بمعنى سلمت عليه تسليماً.

لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سموه اسم مصدر.

(**تم**): ولا طيرة أي: مؤثرة أيضا فإن الطيرة شيء وهمي يكون في القلب لا أثر له في قضاء الله وقدره السانح أو البارح أو النطيح أو القعيد لا أثر لها في حكم الله وفي ملكوته وفي قضائه وقدره.

فخبر (لا) النافية للجنس تقديره (مؤثرة) أي: لا طيرة مؤثرة بل الطيرة شيء وهمي وكذلك قوله (ولا هامة ولا صفر) إلى آخر الحديث.

وقد سبق بيان أن خبر (لا) النافية للجنس يحذف كثيرا في لغة العرب إذا كان معلوماً كما قال ابن مالك في آخر باب لا النافية للجنس في الألفية:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع سقوطه ظهر

(**ت**): قوله ولا طيرة قال ابن القيم هذا يحتمل أن يكون نفيا أو يكون نهيا أي لا تتطيروا ولكن قوله في الحديث ولا عدوى ولا صفر ولا هامة يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها والنفي في هذا أبلغ من النهي لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ ومنا أناس يتطيرون فقال ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه وعقيدته لا في المتطير به فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا إن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ولا نصبها سببا لما يخافونه ويحذرونه ولتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله ونزل بها كتبه وخلق لأجلها السموات والأرض وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقى فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة فما استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها وبادر خواطرها من قبل استمكانها قال عكرمة كنا جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب فقال الرجل خير فقال طاووس وأي خير عند هذا لا تصحبني انتهى ملخصا ولكن يشكل عليه ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أنس مرفوعا لا طيرة والطيرة على من تطير فظاهر هذا أنها تكون سببا لوقوع الشر بالمتطير.

(**ف**): وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله: (الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار)[1] ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطى غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس. والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له. ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها. وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة. كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس. وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل. فهذا لون والطيرة الشركية لون. انتهى.

(**ق**): **قوله:** (ولا هامة). الهامة؛ بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قُتل القتيل؛ صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

التفسير الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف، لكنهم يتشاءمون بها، فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت؛ قالوا: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله، وهذا كله – بلا شك – عقيدة باطلة.

---

[1] البخاري، كتاب الجهاد : ،حديث(٢٨٥٨) باب ما يذكر من شؤم الفرس ،مسلم ، كتاب السلام : ،حديث(٢٢٢٥) (١١٦)، باب الطيرة والفأل ، وما يكون فيه من الشؤم. من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه وأخرجه بهذا اللفظ.

قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" تعليقاً على حديث" إن يك من الشؤم شيء حق ففي المرأة و الفرس و الدار " برقم(٤٤٢).

أخرجه أحمد (٢ / ٨٥) ، حدثنا محمد بن جعفر : حدثنا شعبة عن عمر بن محمد ابن زيد أنه سمع أباه يحدث عن " ابن عمر " به مرفوعا .

و هذا سند صحيح على شرط الشيخين ، و قد أخرجه مسلم (٧ / ٣٤) من هذا الوجه . و أخرجه البخاري من طريق أخرى عن عمر بلفظ : (إن كان ...) ، و سيأتي إن شاء

و الحديث يعطي بمفهومه أن لا شؤم في شيء ، لأن معناه : لو كان الشؤم ثابتا في شيء ما ، لكان في هذه الثلاثة ، لكنه ليس ثابتا في شيء أصلا. و عليه فما في بعض الروايات بلفظ " الشؤم في ثلاثة " . أو " إنما الشؤم في ثلاثة " فهو اختصار ، و تصرف من بعض الرواة . و الله أعلم.

(ف): قال الفراء: الهامة طير من طيور الليل. كأنه يعني البومة. قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نعت إلى نفسي أو أحداً من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قوله: ولا صفر بفتح الفاء، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب. وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهو قول مالك.

(ق): وهذا القول ضعيف، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر يعني الشهر، وأن المراد نفي كونه مشؤوماً؛ أي لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر.

(ف): قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة.

(ق): وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفياً للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير؛ فالمؤثر هو الله، فما كان منها سبباً معلوماً؛ فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً؛ فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه إن كان صحيحاً، ولكونه سبباً إن كان باطلاً.

والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله - ﷻ -؛ فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أرخ ذلك وقال: انتهى في صفر الخير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة،

والجهل بالجهل؛ فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان، وقولنا: إنه شهر خير؛ فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم؛ بناءً على أنه من الأشهر الحرم.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال؛ خيراً إن شاء الله؛ فلا يُقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تُبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأشياء؛ لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

- إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك؛ فيكون حينئذ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.
- وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأشياء التي نفاها الرسول ﷺ مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله - عز وجل -.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب؛ فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقاً؛ فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سبباً بل نفاها؛ فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل: ربنا عليك توكلنا.

قوله: (لا نوء). واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، وأجرى الله العادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف؛ فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها؛ فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أُمطروا قالوا: مُطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مُطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له؛ فقولنا: طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس؛ فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سبباً حقيقياً، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يُقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾(النور: من الآية٤٣)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ (الروم: من الآية٤٨)، فتعليق المطر

بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه، فذهبت أنـــواء الجاهليـــة، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه – سبحانه وتعالى –.
نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سبباً لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها؛ فتنبه.

قوله: (ولا غول). جمع غولة أو غولة، ونحن نسميها باللغة العامية: (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان.

(**ف**): **قال أبو السعادات:** الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلوناً في صور شتى وتغولهم، أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي صلى الله عليه وأبطله.

(**ق**): والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتـــدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجـــه الـــذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنســـان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (المجادلة: من الآية١٠).
وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها؛ وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلـــى الإنســـان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقاً بها، أما إن كان معتمداً على الله غير مبال بها؛ فلا تضره ولا تمنعه عـــن جهة قصده.

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل) قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الطيبة)[1].

(**ق**): **قوله:** في حديث أنس: (لا عدوى، ولا طيرة). تقدم الكلام على ذلك.

قوله: (ويعجبني الفأل). أي: يسرني، والفأل بينه بقوله: (الكلمة الطيبة). فـــ (الكلمة الطيبة) تعجبـــه ﷺ؛ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قدماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً.
وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء؛ لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكـــون ســـبباً لخيرات كثيرة، حتى إنها تُدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

---

[1] البخاري: كتاب الطب /باب: الفأل حديث (٥٧٥٦)، ومسلم: كتاب السلام /باب الطيرة والفأل وما يكون فيه الشؤم، حديث (٢٢٢٤).

(ف): **قال ابن القيم رحمه الله تعالى**: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيئ من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه[1] من الدنيا النساء والطيب، وكان يحب الحلواء والعسل، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم. بالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوى بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال. فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة الشرك.

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال.

(ق): وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حُسن تعليم النبي ﷺ؛ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوباً، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: (أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[2].

(ف): **قوله:** عن عقبة بن عامر هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة ابن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال

[1] أخرجه أحمد(١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥). والنسائي (٦١/٧)في عشرة النساء: باب حب النساء. وصححه الألباني في صحيح الجامع(٣١١٩).

[2] أبو داود في كتاب الطب / باب في الطيرة، حديث (٣٩١٩) وضعفه الشيخ الألباني كما في ضعيف أبي داود (٨٤٣).

غيره: الجهني. واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

(ق): **قوله:** (ذكرت الطيرة عند رسول الله). وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث الناس بها عند رسول الله ﷺ.

(ف): **قوله:** فقال أحسنها الفأل قد تقدم أن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل. وروى الترمذي وصححه عن أنس رضي الله عنه " أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يا نجيح، يا راشد "[1] وروى أبو داود عن بريدة "أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيئ، وكان إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهية ذلك في وجهه"[2] وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقى بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله: ولا ترد مسلماً قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

(ق): **قوله:** (ولا ترد مسلماً). يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته؛ فليس بمسلم.

قوله: (فإذا رأى أحدكم ما يكره). فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: (فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات ...) إلخ.

قوله: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت). وهذا هو حقيقة التوكل، **وقوله:** (اللهم). يعني: يا الله، ولهذا بُنيت على الضم؛ لأن المنادي علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن يا المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركاً بالابتداء باسم الله – سبحانه وتعالى –، وصارت ميماً؛ لأنها تدل على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله.

قوله: (لا يأتي بالحسنات إلا أنت). أي: لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله؛ صار الموجد حقيقة هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

---

[1] صحيح: الترمذي :كتاب السير (١٦١٦): باب ما جاء في الطيرة .وقال :حسن غريب صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع(٤٨٥٤).

[2] صحيح: أبو داود: كتاب الطب ،حديث(٣٩٢٠) باب في الطيرة. وحسنه الحافظ في الفتح(٢١٥/١٠).وأخرجه أحمد أيضاً (٣٤٧/٥-٣٤٨) .وصححه الألباني في الصحيحة (٧٦٢).

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية؛ كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية؛ كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (التوبة: ٥٠)، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾(آل عمران: من الآية١٢٠).

وقوله: (إلا أنت). فاعل يأتي؛ لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: (ولا يدفع السيئات إلا أنت). السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق؛ دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينافي هذا أن يكون دفعها بأسباب؛ فمثلاً لو رأى رجلاً غريقاً، فأنقذه؛ فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه؛ فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا لله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وبمقتضى هذه العقيدة؛ فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات، قال تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: من الآية٣٨)، وقال تعالى عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضا.

قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بك). **في معناها وجهان:**

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله؛ فالباء بمعنى في، يعني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة؛ فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

الثاني: أنه لا يوجد لنا حول ولا قوة إلا بالله؛ فالباء للاستعانة أو للسببية، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها؛ إذ إننا لا نتحول من حول إلى حول، ولا نقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صح الحديث؛ فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) رواه أبو داود، والترمذي وصححه[١]، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

(**ف**): **قوله:** وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: " الطيرة شرك، والطيرة شرك. وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل " رواه أبو داود والترمذي وصححه. وجعل آخره من قول ابن مسعود.

ورواه ابن ماجه وابن حبان. ولفظ أبي داود الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك. ثلاثاً وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد.

قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الإصطلاحية؟

قال في شرح السنن: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

(**ق**): **قوله:** (الطيرة شرك، الطيرة شرك). هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضا من باب التوكيد اللفظي.

وقوله: (شرك). أي: إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله، وإلا؛ لقال: الطيرة شرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج من الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

نقول: هي نوع من أنواع الشرك؛ كقوله ﷺ: (اثنتان في الناس هما بهم كفر)[٢]؛ أي: ليس الكفر المخرج عن الملة، وإلا، لقال: (هما بهم الكفر)، بل هما نوع من الكفر.

لكن في ترك الصلاة قال: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)[٣]، فقال: (الكفر)؛ فيجب أن نعرف الفرق بين (أل) المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر؛ فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر؛ فهو المخرج من الملة.

---

[١] أبو داود في كتاب الطب / باب في الطيرة، حديث (٣٩١٠)، والترمذي حديث (١٦١٤)، وابن ماجة (٣٥٣٨) وهو صحيح كما في الصحيحة (٤٢٩).

قلت: أما قوله (وما منا...ولكن يذهبه الله بالتوكل) فقد نص غير واحد من أهل العلم كالبخاري عن سليمان بن حرب كما قال الترمذي وأيضاً رجحه المنذري في الترهيب(٦٤/٤)، والهيثمي في الموارد (ص٣٤٠) والحافظ في الفتح (٢١٣/١٠) وأيضاً ابن القيم في (مفتاح دار السعادة، في فصل: الطيرة).

[٢] مسلم: كتاب الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، حديث (٦٧).

[٣] مسلم: كتاب الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، حديث (٨٢).

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه؛ فإنه لا يعد مشركا شركا يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سببا، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركا من هذه الناحية، والقاعدة: (إن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سببا؛ فإنه مشركٌ شركا أصغر).

وهذا نوع من الإشراك مع الله؛ إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعيا، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونيا، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله؛ فهو مشرك شركا أكبر؛ لأنه جعل لله شريكا في الخلق والإيجاد.

قوله: (وما منا). (منا): جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، إما قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلا؛ أي: وما منا أحد إلا تطير، أو بعد (إلا)؛ أي: وما منا إلا متطير.

والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير؛ فالإنسان يسمع شيئا فيتشاءم، أو يبدأ في فعل؛ فيجد أو له ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه.

(**ف**): **قوله:** (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهاني، والمنذري: في الحديث إضمار. التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيئ من ذلك. أ.هـ.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة. وهذا من أدب الكلام.

قوله: ولكن الله يذهبه بالتوكل أي لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

(**ق**): والتوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله، وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابا.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ !

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود). وهو قوله: (وما منا إلا...) إلخ. وعلى هذا يكون موقوفا، وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلاما في الحديث من عنده بدون بيان، ويكون في الإسناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة ﷺ: (أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار)[1]، فقوله: (اسبغوا الوضوء) من كلام أبي هريرة، وقوله: (ويل للأعقاب من النار) من كلام الرسول ﷺ.
ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الوحي: (كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء)[2]، والتحنث: التعبد، ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث هريرة، وفيه: (فمن استطاع منكم أن يطيل غرته؛ فليفعل)[3]؛ فهذا من كلام أبي هريرة.

ولأحمد من حديث ابن عمرو: (من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)[4].

(**ف**): قال: ولأحمد من حديث ابن عمر: " ومن ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك ".
هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات.

قوله: من حديث ابن عمرو وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو **a**. وقيل أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء. مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف.

(**ق**): **قوله:** (من ردته الطيرة عن حاجته). (من). شرطية، وجواب الشرط: (فقد أشرك)، واقترن الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة، وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

---

[1] البخاري: كتاب الوضوء / باب غسل الأعقاب، حديث (١٦٥)، ومسلم: كتاب الطهارة / باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، حديث (٢٤٠).

[2] البخاري: كتاب بدء الوحي / باب كيف بدء الوحي، حديث (٤)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث (٤).

[3] البخاري: كتاب الوضوء / باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء حديث (١٣٦)، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، حديث (٢٤٦).

[4] الإمام أحمد في (المسند) (٢/٢٢٠)، حديث (٧٠٤٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/١٠٥)، وقال: (رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات).

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله: (عن حاجته). الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.

قوله: (فقد أشرك). أي: شركا أكبر إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سببا فقط فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهي: (إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب و لم يثبت أنه سبب لا كونا ولا شرعا؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سببا كونيا أو شرعيا؛ فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها).

وقوله: (فما كفارة ذلك). أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق؛ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

(**ف**): وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لا يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله، وأن الخير كله بيده، فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده فما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال تعالى: ' ٤: ٧٩ ' " ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ".

(**ق**): **وقوله:** (اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك). يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر؛ كالمطر والنبات، وغير المباشر؛ كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك؛ فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سببا، وإلا فكل الخير من الله -عز وجل-.

وقوله: (فلا خير إلا خيرك). هذا الحصر حقيقي؛ فالخير كله من الله، سواء كان بسبب معلوم أو بغيره.

وقوله: (لا طير إلا طيرك). أي: الطيور كلها ملكك؛ فهي لا تفعل شيئا، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك: ١٩)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٧٩)؛ فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله؛ فالله تعالى هو الذي يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يمينا وشمالا، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان؛ فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة؛ فإنه من الله كما أن الخير من الله؛ كما قال تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ (الأعراف: ١٣١).

لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع، بل الشر في المفعول لا في الفعل، بل فعله تعالى كله خير؛ إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيرا. فيكون قوله: (لا طير إلا طيرك) مقابلا لقوله: (ولا خير إلا خيرك).

قوله: (ولا إله غيرك). (لا) نافية للجنس، و(إله) بمعنى: مألوه؛ كغراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيما يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيما له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾(هود: من الآية١٠١).

أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله وسميت آلهة؛ فليست آلهة حقا لأنها لا تستحق أن تعبد؛ فلهذا نقول: لا إله إلا الله؛ أي: لا إله حق إلا الله.

يستفاد من هذا الحديث:

١. أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة؛ فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية؛ فلا تهتم بما حدث.
٢. أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله: (من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك).
٣. أن من وقع في قلبه التطير و لم ترده الطيرة؛ فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: (وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)[1].
٤. أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.
٥. انفراد الله بالألوهية؛ كما انفرد بالخلق والتدبير.

---

[1] أبو داود: كتاب الطب / باب: في الطيرة، حديث (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجة (٣٥٣٨)وآخره مدرج من قول ابن مسعود كما تقدم في الشرح والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦٠).

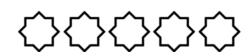
وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما: إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك[1]

(ق): قوله في حديث الفضل (إنما الطيرة) هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصرا؛ أي: ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك و لم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب و لم ترده و لم يلتفت لها؛ فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع؛ إذ الأمر كله بيد الله.

قوله: (ما أمضاك أو ردك). أما (ما ردك)؛ فلا شك أنه من الطيرة؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع. وأما (ما أمضاك)؛ **فلا يخلو من لأمرين:**

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال: سأزجر هذا الطير، فإذا ذهب إلى اليمين؛ فمعنى ذلك اليمن والبركة، فيقدم؛ فهذا لاشك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح؛ لأنه لا وجه له؛ إذ الطير إذا طار؛ فإنه يذهب إلى الذي يرى أنه وجهته، فإذا اعتمد عليه؛ فقد اعتمد على سبب لم يجعله الله سببا، وهو حركة الطير.

الثاني: أن يكون سبب المضي كلاما سمعه أو شيئا شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له؛ فإن هذا فأل، وهو الذي يعجب النبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سببا لإقدامه؛ فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطا في طلبه؛ فهذا من الفأل المحمود. والحديث في سنده مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.



[1] الإمام أحمد في (المسند)، حديث (١٨٢٤).

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقوله من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾، مع قوله: ﴿طائركم معكم﴾. أي: لكي يتنبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك؛ فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض في ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيان الجمع أن قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أن الله هو المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسل، وأن قوله: ﴿طائركم معكم﴾ من باب السبب؛ أي: أنتم سببه.

الثانية: نفي العدوى. وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سببا للعدوى وانتقالها.

الثالثة: نفي الطيرة. أي: نفي التأثير لا نفي الوجود.

الرابعة: نفي الهامة. **والخامسة**: نفي الصفر. وقد سبق تفسيرهما.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب. تؤخذ من قول النبي ﷺ: (يعجبني الفأل)[1]، وكل ما أعجب النبي ﷺ؛ فهو حسن، قالت عائشة رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله)[2].

السابعة: تفسير الفأل. فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود؛ من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

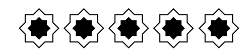
الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل. أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له؛ فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل؛ لقول ابن مسعود: (وما منا إلا ... ولكن الله يذهبه بالتوكل)[3].

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده. **سبق أنه شيئان:**

أن يقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك). أو يقول: (اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك).

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك. وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب؛ فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة. أي: ما أمضاك أو ردك.



[1] تقدم تخريجه قريباً في هذا الباب وهو في الصحيحين.

[2] البخاري: كتاب الوضوء / باب التيمن في الوضوء والغسل، حديث (١٦٨)، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور وغيره، حديث (٢٦٨).

[3] تقدم تخريجه قريباً.

باب ما جاء في التنجيم

(ف): قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.
وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً في السفليات، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

(ق): التنجيم: مصدر نجم بتشديد الجيم؛ أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

١- علم التأثير. ٢- علم التسيير

فالأول: علم التأثير. **وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

أ- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقا؛ فهو مشرك شركا أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقا مسخرا.

ب- أن يجعلها سبباً يدعي به علم الغيب، فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: من الآية٦٥)، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كذب القرآن.

ج- أن يعتقدها سببا لحدوث الخير والشر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئا إلا بعد وقوعه؛ فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده)[1]؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يسلم أن للكسوف تأثيرا في الحوادث والعقوبات من الجدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: (إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)[2]، لا في ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً؛ فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينص على التخويف، والمخوف هو الله تعالى، والمخوفة عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التسيير. وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة؛ فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، **وهو نوعان:**

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون. والذين كرهوه قالوا: يُخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة؛ كما سيأتي إن شاء الله.

[1] البخاري: كتاب الجمعة / باب: قول النبي ﷺ يخوف الله عباده بالكسوف، (١٠٤٨)، ومسلم: كتاب الكسوف / باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧).

[2] التخريج السابق.

قال البخاري في "صحيحه": قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك اخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. أ.هـ.

(**ف**): هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه. وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم. وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة، ولفظه قال: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذا الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيئ انتهى.

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار، وعمت به البلوى في جميع الأمصار فمقل ومستكثر، وعز في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به في الدين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(**ق**): قوله في أثر قتادة: (خلق الله هذه النجوم لثلاث). اللام للتعليل؛ أي: لبيان العلة والحكمة.

قوله: (لثلاث). ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أي: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: من الآية٥)؛ لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا الله؛ فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمرة، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مرصعة في السماء، أو نقول: لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٣)؛ أي: يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم، أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر، وعند قرب الفجر غطاها؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان.

إذن هي أفلاك متفاوتة في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿زينا السماء الدنيا﴾؟

قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست على جدرانه؛ فالناظر إلى القصر من بعد يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجوماً للشياطين؛ أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس؛ لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (صّ: ٣٧)؛ أي: سخرنا لسليمان: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (صّ: ٣٨) وقال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾(النمل: من الآية٣٩)، أي: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ؛ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ (الجن: ٩).

والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾(النحل: ١٦)؛ فذكر الله تعالى نوعين من العلامات التي يهتدي بها:

الأول: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة؛كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثاني: أفقية في قوله تعالى: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾.

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان، برا أو بحرا.

وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم؛ لأنك في الليل لا تشاهد جبالا ولا أودية، وهذا من تسخير الله، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾(الجاثية: من الآية١٣).

(**ف**): **فإن قيل**: المنجم قد يصدق؟ قيل: صدقه كصدق الكاهن، ويصدق في كلمة ويكذب في مائــة. وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً، فيكون فتنة في حق من صدقه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ' ١٦: ١٥ ' ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ۞ وعلامات ﴾ فقوله: علامات معطوف على ما تقدم مما ذكــره في الأرض، ثم استأنف فقال: ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه.

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم، كقوله: " من اقتبس شعبة من النجــوم فقــد اقتبس شعبة من السحر. زاد ما زاد ".

[وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قال: " إن مما أخاف على أمتي: التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة " رواه عبد بن حميد. وعن أبي محجن مرفوعاً: " أخاف على أمتي ثلاثاً: حيــف الأئمــة، وإيماناً بالنجوم وتكذيباً للقدر " رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي][1].

وعن أنس ﷺ مرفوعاً "أخاف على أمتي بعدي خصلتين: تكذيباً بالقدر، وإيمان بالنجوم "[2] رواه أبــو يعلي وابن عدي والخطيب في كتاب النجوم وحسنه الســيوطي أيضــاً. والأحاديــث في ذم التنجــيم والتحذير منه كثيرة.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنــهما، ورخــص في تعلــم المنازل أحمد وإسحاق.

(**ق**): **قوله:** (وكره قتادة تعلم منازل القمر). أي: كراهة تحريم بناء على أن الكراهة في كلام الســلف يراد بها التحريم غالبا.

وقوله: (تعلم منازل القمر) **يحتمل أمرين:**

الأول: أن المراد به معرفة مترلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الإكليل؛ فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له مترلة حتى يتم ثمانيا وعشرين وفي تسع وعشرين وثلاثــين لا يظهــر في الغالب.

---

[1] صحيح: أما حديث رجاء بن حيوة فمرسل ،وأما حديث أبي محجن فأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٣٥/٢)أيضاً واسناده ضعيف ، كما في الصحيحة (١١٩/٣)والحديث له شواهد كثيرة عن أبي الدرداء وأنس وغيرهما يرتقي بها إلى درجة الصــحة كمــا قــال الألبــاني في الصحيحة(١١٢٧).

[2] حسن : أبو يعلى في مسنده (١٠٢٣)وابن عدي في الكامل (١٣٥٠/٤) واسناده ضعيف فيه يزيد الرقاشي إلا أن للحديث شواهد.فالحــديث كما قال المناوي في الفيض (٢٠٤/١):"حسن لغيره".

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم؛ أي: يخرج النجم الفلاني في اليوم الفلاني، وهذه النجوم جعلها ﷻ أوقاتا للفصول؛ لأنها (٢٨) نجما، منها (١٤) يمانية و(١٤) شمالية؛ فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية.

قوله: (ولم يرخص فيه ابن عيينة). هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

(**ف**): قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه. وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته. وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم.انتهى.

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر. وروى عن إبراهيم أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به. قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم، قليله وكثيره. وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور.

قوله: ذكره حرب عنهما هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو a الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد. روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم. وله كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين. وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه. روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين. روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم. وروى هو أيضاً عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

(**ق**): والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شرك فيها؛ إلا إن تعلمها ليضف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك؛ فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل الربيع، أو الخريف، أو الشتاء؛ فهذا لا بأس به.

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر)[1] رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

(**ف**): هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال: صحيح. وأقره الذهبي. وتمامه ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريح فروجهن.

قوله: وعن أبي موسى هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار - بفتح المهملة وتشديد الضاد، أبي موسى الأشعري. صحابي جليل. مات سنة خمسين.

(**ق**): **قوله:** (مدمن خمر). هو الذي يشرب الخمر كثيرا، والخمر حده الرسول ﷺ بقوله: (كل مسكر خمر)[2] ومعنى (أسكر)؛ أي: غطى العقل، وليس كل ما غطى العقل فهو خمر؛ فالبنج مثلا ليس بخمر، وإذا شرب دهنا فأغمي عليه؛ فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذي يغطي العقل على وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه في مترلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنها اللقاء

وقال حمزة بن عبد المطلب - وكان قد سكر قبل تحريم الخمر- للنبي ﷺ: (وهل أنتم إلا عبيد أبي)[3]؛ فالذي يغطي العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله، فهو كافر، إلا إن كان ناشئاً ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك، فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه.

قوله: (قاطع رحم). الرحم: هم القرابة، قال تعالى: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ [الأنفال: ٧٥]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين، لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يسموا أصهاراً.

ومعنى قاطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ (الرعد: من الآية٢١)، ومنه الأرحام وما جاء مطلقا غير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

---

[1] ضعيف: أحمد(٣٩٩/٤) وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١-موارد)، والحاكم(١٤٦/٤)واسناده ضعيف وضعفه الألباني في ضعيف الجامع(٢٥٩٧).

[2] مسلم: كتاب الأشربة / باب: بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، حديث (٢٠٠٣).

[3] البخاري: كتاب المساقاة/ باب بيع الحطب، حديث (٢٣٧٥)، ومسلم: كتاب الأشربة / باب تحريم الخمر وبيان أنها تكون من عصير العنب، حديث (١٩٧٩).

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع   كالحرز فبالعرف احدد[1]

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسرة والطعام دائما، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى: قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقا لابد من القيام به، ويريد أن تصله دائما، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها؛ فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها العرف؛ إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة، وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقا، بأن كنا في أمة تشتتت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية؛ فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لابد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة؛ فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل؛ كما قال الرسول ﷺ: (من إذا قطعت رحمه وصلها)[2]، هذا هو الذي يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: (ومصدق بالسحر). هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به؛ فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق: (أن من اقتبس شعبه من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر)[3]، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(النمل: من الآية٦٥).

فإن قيل: لماذا لا يجعل السحر هنا عاما ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

أجيب: إن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيرا؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لاشك أن للسحر تأثيرا، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصي كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة

[1] انظر منظومة الشيخ ابن عثيمين في (الأصول) ص(٣١) وقد نشرت في مجلة [الحكمة] السعودية العدد الأول.

[2] البخاري: كتاب الآداب / باب ليس الواصل بالمكافئ، حديث (٥٩٩١).

[3] تقدم في باب: بيان شيء من أنواع السحر، وهذا حسن.

لذلك، وقد يسحر الساحر شخصا فيجعله يحب فلانا ويبغض فلانا؛ فهو مؤثر، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: من الآية١٠٢)؛ فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهبا أو نحو ذلك؛ فلا شك في دخوله في الوعيد؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله - عز وجل -.

قوله: (ثلاثة لا يدخلون الجنة). **هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟**

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء؛ فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على **أقوال:**

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في مترلة بين المترلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فيجرون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل؛ فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل؛ فلابد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلا؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم و لم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت؛ فمثلا: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (النساء: ٩٣)، هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد؛ فيقال: لا يدخلون الجنة دخولا مطلقا يعني لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولا يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضا، ويلائم بعضها بعضا، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة؛ فتقييد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حري أن يختم له بسوء الخاتمة، فيموت كافرا، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال؛ لأن من مات على الكفر؛ فلن

يدخل الجنة، وهو مخلد في النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: (لا يزال المرء في فسحه من دينه ما لم يصب دما حراما)[1]؛ فيكون هذا قولا خامسا.

(**ف**): وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

(**ق**) :فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم. **وهي ثلاث**:

- أنها زينة للسماء.
- ورجوم للشياطين.
- وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حِكم أخرى لا نعلمها.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك. لقول قتادة: (من تأول فيها غير ذلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به).

ومراد قتادة في قوله: (غير ذلك) ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة؛ فلا ضلال لمن تأوله.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. سبق ذلك.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه؛ فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟!.

---

[1] البخاري: كتاب الديات / باب قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا ...﴾، حديث (٦٨٦٢).

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

(ق): **الاستسقاء**: طلب السقيا كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العوز، والاستهداء: طلب الهداية، لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة في الفعل، مثل: استكبر، أي بلغ في الكبر غايته، وليس المعنى طلب الكبر، والاستسقاء بالأنواء، أي: أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا ! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر، لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٧) وقال تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ (الجن: ١٨) وقال تعالى ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ١٠٦) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة، لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببا مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركا أصغر.

وقول الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢)

قوله تعالى: ﴿وتجعلون﴾. أي: تصيرون، وهي تنصب مفعولين: الأول ﴿رزق﴾، والثاني: ﴿أن﴾، وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثان، والتقدير: وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون أو تكذيبكم.

والمعنى: تكذبون أنه من عند الله، حيث تضيفون حصوله إلى غيره.

(**ف**): قال ابن القيم رحمه الله: أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: التكذيب به، يعني القرآن. قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

(**ق**): **قوله:** ﴿رزقكم﴾.الرزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر، **فيشمل معنيين:**

الأول: أن المراد به رزق العلم، لأن الله قال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إنه لقرآن كريم ۞ في كتاب مكنون۞ لا يمسه آلا المطهرون۞ تنزيل من رب العالمين ۞ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ۞ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: ٧٥ –٨٣) أي تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر، وقد روى في ذلك حديث عن النبي ﷺ لكنه ضعيف[1] إلا أنه صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء[2]، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسبا للباب تماما.

والقاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعا بدون منافاة تحمل عليهما جميعا، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد، لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا أن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق، فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!.

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.

والثاني: التكذيب بلسان الحال، بأن يعظم الأنواء والنجوم معتقدا أنها السبب، ولهذا وعظ عمر بن عبد العزيز الناس يوما، فقال: (يا أيها الناس ! إن كنتم مصدقين، فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين، فأنتم هلكى) وهذا صحيح، فالذي يصدق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك، فكل إنسان عاص نقول له الآن أنت **بين أمرين:**

---

[1] الإمام أحمد في المسند (١/ ٨٩، ١٠٨) والترمذي: كتاب تفسير القرآن، سورة الواقعة، حديث (٣٢٩٥)، وقال احمد بن شاكر: (إسناده ضعيف) المسند (–٦٧٧)، وفي إسناده ضعف.

[2] البخاري: كتاب الاستسقاء / باب قول الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢).

إما أنك مصدق بما رتب على هذه المعصية، أو مكذب، فإن كنت مصدقا، فأنت أحمق، كيف لا تخاف فتستقيم؟! وإن كنت غير مصدق، فالبلاء أكبر، فأنت هالك كافر.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، أن رسول ﷺ قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة).

قوله: في حديث أبي مالك: (أربع في أمتي). الفائدة من قوله: (أربع) ليس الحصر، لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد، لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: (من أمر الجاهلية). أمر هنا بمعنى شأن، أي: من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر، لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: (من أمر الجاهلية) إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير، لأن كل إنسان يقال: فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب، إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية، فالغرض من الإضافة هنا **أمران**:

١. التنفير

٢. بيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان، إذ ليست أهلا بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها، فالذي يعتني بها جاهل.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة، لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يسمون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، نسبة إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن. لكن لما بعث فيهم هذا النبي الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران: ١٦٤). فهذه منة عظيمة أن بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١. يتلو عليهم آيات الله.

٢. ويزكيهم، فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣. ويعلمهم الكتاب.

٤. والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بيّن الحال من قبل فقال ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران: ١٦٤). و﴿إن﴾هذه ليست نافية، بل مؤكـدة، فهي مخففة من الثقيلة، يعني: وإنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

إذا المراد بالجاهلية ما قبل البعثة، لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم. فجهلهم شـامل للجهـل في حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحـدهم ابنته لكي لا يعير بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: (لا يتركونهن). المراد لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعا، إنما الأمة كمجموع لا بد أن يوجد فيها شيء من ذلـك، لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير، لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء تقـع ولـيس غرضه أن يؤخذ بها، كما قال ﷺ: (لتركبن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى)[١] أي: فاحـذروا، فأخبر ﷺ (أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضر موت لا تخشى إلا الله)[٢]، أي بلا محرم، وهذا خـبر واقع وليس إقرارا له شرعا.

قوله: (أمتي). أي: أمة الإجابة.

(**ف**): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمـن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكـن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الـذم، وهـذا كقوله تعالى: ' ٣٣: ٣٣ ' " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى " فإن في ذلك ذماً للتـبرج وذمـاً لحـال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

(**ق**): قوله (الفخر بالأحساب)الفخر: التعالي، والتعاظم، والباء للسببية، أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأنه يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك أو من آبـاء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية، لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعا للحق والخلق.

---

[١] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب قول النبي ﷺ (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، حديث (٧٣٢٠).

[٢] البخاري: كتاب المناقب / باب: علامات النبوة في الاسلام، حديث (٣٥٩٥).

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية، فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولىَ﴾ (الأحزاب: الآية٣٣) واعلم أن كل ما ينسب للجاهلية، فهو مذموم ومنهي عنه.

(**ف**): ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً: " إن الله قد أذهب عنكم عُبيا الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان "[1].

(**ق**): **قوله:** (الطعن في الأنساب) الطعن: العيب، لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمي العيب طعنا.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور ـــ وهي شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

(**ف**): ولما عير أبو ذر ﷺ رجلاً بأمه قال له النبي ﷺ: " أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية " متفق عليه. فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيئ من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: والاستسقاء بالنجوم أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم. كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " أخاف على أمتي ثلاثاً: استسقاء بالنجوم. وحيف السلطان. وتكذيباً بالقدر "[2].

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا. فلا يخلوا إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر. فهذا شرك وكفر. وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً. أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله. كما قال تعالى: ' ٨: ٣٩ ' ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ والفتنة الشرك، وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلا، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده. لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في الفروع: بأنه يحرم قول مطرنا بنوء كذا وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز، و لم يذكر خلافاً. وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر

---

[1] حسن: أبو داود: كتاب الأدب ،حديث(٢١١٦) باب في التفاخر بالأحساب وحسنه المنذري في الترغيب (٦١٤/٣) وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (ص٧٣).

[2] صحيح: أخرجه أحمد (٨٩/٥، ٩٠)وصححه الألباني لشواهده في السنة لابن أبي عاصم رقم(٣٢٤).

عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيئ، فيكون ذلك شركاً أصغر. والله أعلم.

(**ق**): قوله (والنياحة على الميت) هذا هو الرابع، والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصدا، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح، كنوح الحمام.

والندب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون في هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

أو من الجهالة التي هي السفه، وهي ضد الحكمة.

وإنما كانت لأمور، **هي**:

١. **أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزنا وعذابا.**
٢. **أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.**
٣. **أنها تهيج أحزان غيره.**

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله – وهو من علمائنا الحنابلة – أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾ (يوسف: ٧٨)، فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهيج الأحزان.

٤. **أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء، ولا يرفع ما نزل.**

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها)، أي: إن تابت قبل الموت، تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه، لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلا التوبة.

وقال:(**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**)[١].رواه مسلم.

(**ف**): **قوله:** والنائحة إذا لم تتب قبل موتها فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، هذا مجمع عليه في الجملة، ويكفر أيضاً الحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: " إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"[٢] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

(**ق**): **قوله:** (تقام يوم القيامة). أي تقام من قبرها.

قوله: (وعليها سربال من قطران) السربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران معروف، ويسمى (الزفت)، وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: (ودرع من جرب) الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى أن كل جلدها يكون جربا بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع القطران وجرب زاد البلاء، لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به، فكيف ومعه قطران؟

والحكمة أنها لم تغط المصيبة بالصبر غطيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب، فكانت العقوبة من جنس العمل.

(**ف**): **قال القرطبي**: السربال واحد السرابيل، وهي الثياب والقميص، يعني أنهن يلطخن بالقطران، فيكون لهم كالقمص، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد. وروى عن ابن عباس: إن القطران هو النحاس المذاب.

(**ق**): **ويستفاد من الحديث:**

١. ثبوت رسالته ﷺ، لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.
٢. التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.
٣. أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليها في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة، فهو من الكبائر.

---

[١] مسلم: كتاب الجنائز / باب التشديد في القيامة، حديث (٩٣٤).

[٢] حسن: أخرجه أحمد (١٣٢/٢، ١٥٣) والترمذي: كتاب الدعوات، (٣٥٣٧):/ باب في فضل التوبة والاستغفار. وحسنه .وابن ماجة : كتاب الزهد (٤٢٥٣) :باب ذكر التوبة .وابن حبان (٢٢٤٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٩٩).

٤. أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح، لقوله (إذا لم تتب قبل موهما).

٥. أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت، لقوله (إذا لم تتب قبل موهما) ولقوله ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ (النساء: من الآية١٨).

٦. أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، فمن أهل العلم من قال إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لا بد أن يعاقب، والى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾(النساء: من الآية٤٨)، فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا)[1]. لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذبا من كبائر الذنوب وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧. ثبوت الجزاء والبعث.

٨. أن الجزاء من جنس العمل.

ولهما عن زيد بن خالد ﷺ قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم ؟)

(**ف**): قال: (ولهما عن زيد بن خالد ﷺ)

زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

(**ق**): قوله في حديث زيد بن خالد (صلى لنا.أي: إماما، لأن الإمام يصلى لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل، أي صلى لأجلنا.

قوله: (صلاة الصبح بالحديبية). أي صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهي اسم بئر سمي بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية، والأكثر على أنه بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه في الحرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة عندما قدم معتمرا، فصده المشركون عن البيت، وما كانوا أولياؤه إلا المتقون، ويسمى الآن الشميسي.

[1] عبد الرزاق (٤٦٩/٨)، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد. وقد سبق تخريجه.

قوله: (على إثر سماء كانت من الليل). الإثر معناه العقب، والأثر: ما ينتج عن السير.

قوله: (سماء). المراد به المطر.

قوله: (كانت من الليل). (من) لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر – والله أعلم – ويحتمل أن تكون بمعنى (في) للظرفية.

قوله: (فلما انصرف). أي: من صلاته وليس من مكانه بدليل قوله: (أقبل على الناس)

قوله: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟). الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله، لأن الوحي لا يترل عليهم.
ومعنى قوله (هل تدرون). أي: هل تعلمون.
والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة، لأن ربوبية الله خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافي العامة، لأن العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن.

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[1]

قوله: (قالوا: الله ورسوله أعلم) فيه إشكال نحوي، لأن (أعلم) خبر عن اثنين، وهي مفرد، فيقال إن اسم التفضيل إذا نوى به معنى (من) وكان مجردا من أل والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير.
وفيه أيضا إشكال معنوي، وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: (ما شاء الله وشئت. قال: أجعلتني لله ندا !)[2] فيقال: إن هذا أمر شرعي، وقد نزل على الرسول ﷺ.
وأما إنكاره على من قال ما شاء وشئت، فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.
والمراد بقولهم: (الله ورسوله اعلم) تفويض العلم إلى الله ورسوله، وأنهم لا يعلمون.

---

[1] البخاري: كتاب الأذان / باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، حديث (٨٤٦)، مسلم: كتاب الإيمان / باب كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧١).

[2] البخاري: كتاب الأذان / باب: يستقبل الإمام الناس اذا سلم، حديث (٨٤٦)، وفي الأدب المفرد (٧٨٣)، ومسلم: كتاب الايمان / باب: بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧١)، والإمام أحمد في المسند (١/٢١٤) وابن ماجه كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح (المسند ١٨٣٩).

قوله: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر). (مؤمن) صفة لموصوف محذوف، أي عبد مؤمن، وعبد كافر.

و(أصبح): من أخوات كان، واسمها: (مؤمن) وخبرها: (من عبادي) ويجوز أن يكون (أصبح) فعلاً ماضياً ناقصا، وأسمها ضمير الشأن، أي: أصبح الشأن، ف (من عبادي)خبر مقدم، و(مؤمن): مبتدأ مؤخر، أي أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

قوله: (فأما من قال مُطرنا بفضل ﷲ ورحمته). أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

والرحمة: صفة من صفات ﷲ. يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق.

وقوله: (فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب). لأنه نسب المطر إلى ﷲ و لم ينسبه إلى الكوكب، و لم ير له تأثيرا في نزوله، بل نزل بفضل ﷲ.

قوله: (وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا). الباء للسببية، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافرا بالله، لأنه أنكر نعمة ﷲ ونسبها إلى سبب لم يجعله ﷲ سببا، فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسى نعمة ﷲ، وهذا الكفر لا يخرج من الملة، لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس النوء على أنه فاعل.

لأنه قال (مطرنا بنوء كذا) و لم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا، لأنه لو قال ذلك، لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله (مُطرنا بنوء كذا) نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، لأنه لو كان هذا هو المراد، لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا و لم يقل مُطرنا به.

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله هو ﷲ، ولكن النوء هو السبب، فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وليسو ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب، فنسبة المطر إلى النوء **تنقسم إلى ثلاثة أقسام**:

١. **نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.**
٢. **نسبة سبب، وهذا شرك أصغر.**
٣. **نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مُطرنا بنوء كذا، أي: جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته.**

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا في نوء كذا، وفرقوا بينهما أن الباء للسببية، و(في) للظرفية، ومن ثم قال أهل العلم: إنه إذا قال مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا

جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ، لأن لفظ الحديث: (من قال مطرنا بنوء كذا)، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وبالليل﴾ (الصافات: ١٣٧)، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس، فـ (في) للظرفية أظهر منها للسببية، وإن جاءت للسببية كما في قوله ﷺ (دخلت امرأة النار في هرة)[1].

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقا، ولا يظن أنها تأتي سببية، فهذا جائز، ومع ذلك فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا.

ولهما من حديث ابن عباس معناه، وفيه: (قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات[2] ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ*وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٧٥ -٨٢).

(**ف**): قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب نسبة إلى إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث. فنهى الشارع عن إطلاق ذلك لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد – يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك، كما قال تعالى: ' ٢٩: ٦٣ ' " ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن النوء فيه شيئاً من التأثير، والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره. فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور.

(**ق**): **قوله:** (ولهما). الظاهر أنه سبق قلم، وإلا، فالحديث في(مسلم) وليس في (الصحيحين)[3].

---

[1] البخاري كتاب المساقاة / باب فضل سقي الماء، حديث (٢٣٦٥)، ومسلم: كتاب السلام / باب تحريم قتل الهرة، حديث (٢٢٤٢).

[2] مسلم: كتاب الإيمان / باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧٣)، وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي الوادعي (ص ٢٠٣).

[3] لعله وهم فإني لم أجده في البخاري.

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكـذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت (وقل أن يخلف نوؤه) أو: (هذا نوؤه صادق)، وهـذا لا يجـوز، وهو الذي أنكره الله – عَزَّ وَجَلَّ – على عباده وهذا شرك أصغر، ولو قال بإذن الله، فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سببا.

قوله: ﴿فلا أُقسم بمواقع النجوم﴾. اختلف في ﴿لا﴾ فقيل نافية، والمنفي محذوف، والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، أُقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسم لا علاقة بـ ﴿لا﴾ إطلاقا، وهذا له بعض الوجه، وقيل: إن المنفي القسم، فهي داخلة على أُقسم، أي: لا أُقسم ولن أُقسم على أن القرآن قرآن كريم، لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم، وهذا ضعيف جدا.

وقيل: إن ﴿لا﴾ للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة، لأن ﴿لا﴾ بمعنى انتبه، أقسم بمواقع النجوم... وهـذا هـو الصحيح.

فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم، لأن القسم إن كان لقوم يؤمنـون بـه ويصدقون كلامه، فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ (البقرة: من الآية١٤٥).

أُجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكـرة عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد، قال تعـالى عن إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: مـن الآية٢٦٠).

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم في هذا المقسـم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به، لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان

الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويها له بها وتنبيها على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فلا اُقسم بمواقع النجوم﴾ الله– سبحانه – يتحدث عن نفسه بضمير المفرد، لأنه يدل علـى الانفراد والتوحيد، فهو سبحانه واحد لا شريك له، يتحدث عن نفسه بضمير الجمع، لأنه يـدل علـى

العظمة، كقوله تعالى﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر: ٩) وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ...﴾ (يس: ١٢)، ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى، لأن المثنى محصور باثنين.والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع.

واختلف في النجوم، فقيل: إنها النجوم المعروفة، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها، لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب، فإن السماء عند نزول الوحي ملئت حرسا شديدا وشهبا.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: (نزل القرآن مُنجّما) وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلا بنجمين فأكثر، فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة، وهي أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا، طلب المرجح.

قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾. ﴿لقسم﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويها بالمقسم عليه وتعظيمه.

وقوله: ﴿لو تعلمون﴾. مؤكد ثالث كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه، فهو أعظم من أن يكون مجهولا، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته، فانتبهوا.

قوله: ﴿لقرآن﴾ مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى أسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها وبمعنى اسم الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾(المائدة: من الآية٤٨)، وعلى الثاني يكون بمعنى المجموع، لأنه مجموع مكتوب.

قوله: ﴿كريم﴾ يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير، ويطلق على الشيئ البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ (إياك وكرائم أموالهم)[١]، أي: البهي منها والحسن، وهذا كمال في الذات وهذان المعنيان موجودان في القرآن، فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾ (الأنعام: ١١٥).

(ف): قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم، وهو من كل شيئ أحسنه وأفضله. والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ولذلك

---

[١] البخاري كتاب الزكاة / باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء، حديث (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث (١٩).

فسر السلف الكريم بالحسن قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

(ق): والقرآن يعطى أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، قال تعالى ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(الفرقان: ٥٢). فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلى أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة، فلا بد أن يصدق العقيدة والعمل، قال ﷺ: (ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب)[1]، ووصف الله القرآن في آية أخرى بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله: ﴿في كتاب مكنون﴾ كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ، قال تعالى﴿كأنهن بيض مكنون﴾ (الصافات: ٤٩)واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة[2]، قال تعالى ﴿كلا إنها تذكرة ۞ فمن شاء ذكره ۞ في صحف مكرمة ۞مرفوعة مطهرة ۞ بأيدي سفرة..﴾ (عبس: ١١-١٥) فقوله: ﴿بأيدي سفرة﴾ يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة، لأن قوله ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ أي: الملائكة، يوازن قوله ﴿بأيدي سفرة﴾، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾. الضمير يعود إلى الكتاب المكنون، لأنه أقرب شيء، وهو بالرفع ﴿لا يمسه﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا على ذلك، لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن، أي، نهى أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل على ذلك، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ، لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبرا لا أمرا ولا نهيا حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، و لم يرد ما يدل على خلاف ذلك، بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون، ولهذا قال تعالى ﴿إلا المطهرون﴾ باس المفعول، و لم يقل: إلا المطّهرون، ولو كان المراد المطّهّرون لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى ﴿إن الله يحب التوابين المتطهرين﴾.

---

[1] البخاري كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه، حديث (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة / باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث (١٥٩٩).

[2] انظر كلامه عند هذه الآية في (التفسير القيم).

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ (التحريم: ٦). وقال الله تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠) وقال تعالى ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(الأنبياء: ٢٦ – ٢٧)، وفرق بين المطهر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهما عن القرآن، لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين، فكذلك معاني القران. فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن، كما قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤) وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (القلم: ١٥) فهم لا يصلون إلى معانيها وأسرارها، لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استُفتي أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً۝وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: ١٠٥- ١٠٦].

(**ف**): **قوله:** " لا يمسه إلا المطهرون " قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يمسه إلا المطهرون. قال: الكتاب الذي في السماء وفي رواية لا يمسه إلا المطهرون يعني الملائكة وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه، وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى:﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ۝وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء :٢١٠-٢١٢] قال ابن كثير: هذا قول جيد. وهو لا يخرج عن القول قبله. وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم رحمه الله: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ أي من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر معناه الطلب.

قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف. واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبد الله بن **a**

بن أبي بكر بن a بن عمرو بن حزم: (إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن لا يمس القرآن إلا طاهر)[1].

(ق): **قوله:** ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ خبر ثان لقوله: ﴿وإنه﴾ وهو كقوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٩٢) وكقوله: ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته﴾ (فصلت: ٢-٣) فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لقرآن﴾.

و﴿تنزيل﴾ أي: منزل، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين، أنزله الله على قلب النبي صلى عليه وسلم، لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالى﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ۞ نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

وقوله: ﴿من رب العالمين﴾. أي خالقهم، ويستفاد من الآية ما يلي:

١. أن القرآن نازل لجميع الخلق، ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.
٢. أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك، فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.
٣. أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم ۞ كتاب فصلت آياته﴾، علم أن القرآن رحمة للعباد أيضا، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم﴾ (الفاتحة: ٢-٣) وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه، فهو رحمة بهم.
٤. أن القرآن كلام الله، لأنه إذا كان الله أنزله، فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله، وهو غير مخلوق، لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

قلنا لا، لكن كل منزل يكون وصفا مضافا إلى الله، فهو غير مخلوق، كالكلام، وإلا فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ (الحديد: ٢٥) وهو مخلوق، وقال تعالى ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ (الزمر: من الآية٦) والأنعام مخلوقة، فإذا كان المنزل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها، لزم أن يكون غير مخلوق، لأنه من صفات الله.

[1] صحيح: مالك في الموطأ (١/١٩٩) في كتاب القرآن: باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن مرسلاً .وصححه الألباني لطرقه وشواهده في الارواء (١٢٢).وقال "والنفس تطمئن لصحة هذا الحديث لا سيما وقد احتج به امام أهل السنة أحمد بن حنبل...."أ.هـ.

(**ف**): **وقوله:** ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع.وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم رحمه الله: ونظيره: ' ٣٢: ١٣ ' ﴿ولكن حق القول مني ﴾ وقوله: ' ١٦: ١٠٢ '﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ هو إثبات علو الله تعالى على خلقه. فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله: ' ٣٩: ٦ '﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ لأنا نقول: إن الذي أنزلها فوق سماواته. فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً. لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله. واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق. وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس. وذلك إنما تكون لخواص العقلاء.

(**ق**): **قوله:** ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله.

والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى﴿وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ (الفرقان: ٥٢).

(**ف**): قال مجاهد: أتريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم؟.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم وبخهم على وضعهم الإدهان في غير موضعها، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر.فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا تمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟

(ق): **قوله:** ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾. أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف، أي: أتجعلون شكر رزقكم، أي: ما أعطاكم الله من شيء من المطر ومن إنزال القرآن، أي تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر، فأنه تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكذيبا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها، فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، وإن شكرت في الثانية، فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبدا، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١٨).

قوله: ﴿أنكم تكذبون﴾. ﴿أن﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني، أي: تصيرون شكركم تكذيبا، إن كانت وحيا كذب خبره و لم يمتثل أمره و لم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبهُ إلى غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملي، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص: من الآية٧٨).



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.

الخامسة: قوله: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: (لقد صدق نوء كذا وكذا).

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: (أتدرون ماذا قال ربكم؟).

العاشرة: وعيد النائحة.

الأولى: تفسير آية الواقعة، وهي قوله تعالى ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية. وهي الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها. وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في النسب، والنياحة على الميت، كما في حديث (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)[1].

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة. وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج من الملة وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

الخامسة: **قوله:** (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) بسبب نزول النعمة. أي: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء.، والواجب

---

[1] مسلم كتاب الإيمان / باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، حديث (٦٧).

على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله. بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سببا، مثال ذلك: رجل غرق في ماء، وكان عنده رجل قوي، فنزل وأنقذه، فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمرا قدريا وشرعيا أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له، فخرج، فقال: إن الولي الفلاني أنقذني، فهذا شرك أكبر، لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه، لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى، فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون، فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به، لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم، لقوله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: من الآية١٤) وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الأحقاف: من الآية٥).

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع. وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع. وهو نسبة المطر إلى النوء. فيقال هذا بسبب النوء الفلاني وأشبه ذلك.

الثامنة: التفطن لقوله: (لقد صدق نوء كذا وكذا) وهذا قريب من قوله: (مطرنا بنوء كذا) لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: (أتدرون ماذا قال ربكم) وذلك أن يلقي العالم على المتعلم السؤال لأجل أن ينتبه له، وإلا، فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر، فقال: (أتدرون ماذا قال ربكم؟) وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

العاشرة: وعيد النائحة. وذلك بقوله: (إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) وهذا وعيد عظيم.



باب قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

(البقرة: من الآية ١٦٥)

(**تم**): **هذا الباب والأبواب التي بعده شروع من الإمام** الشيخ a بن عبد الوهاب -رحمه الله- في ذكر العبادات القلبية وما يجب أن تكون عليه تلك العبادات من الإخلاص لله -جل وعلا-، فهذا في ذكر واجبات التوحيد ومكملاته وبعض العبادات القلبية، وكيف يكون إفراد الله -جل وعلا- بها.

ابتدأها بباب المحبة، وأن العبد يجب أن يكون الله -جل وعلا- أحب إليه من كل شيء حتى من نفسه، وهذه المحبة المراد منها محبة العبادة، وهي المحبة التي فيها تعلق بالمحبوب بما يكون معه امتثال للأمر رغباً إلى المحبوب واختيارا، واجتناب النهي رغبة واختيارا.

(**ق**): جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة، ويمكن أن يعنى بهذه الترجمة باب المحبة[1].

وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل ألا لما يحب، إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئا، فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة، إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشرا لا روح فيها، فإذا كان الإنسان في قلبهِ لله محبة الله وللوصول إلى جنته، فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك. ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة

(**تم**): فمحبة العبادة هي: المحبة التي تكون في القلب، يكون معها الرغب والرهب، والطاعة، والسعي في مراض المحبوب والبعد عما لا يحب المحبوب، والموحد لم يوحد الله إلا بسبب ما وقر في قلبه من محبة الله -جل وعلا-؛ لأنه استدل بربوبية الله -جل وعلا- وأنه الخالق وحده، وأنه ذو الملكوت وحده، وأنه ذو الفضل والنعمة على عباده وحده وأنه محبوب، وأنه يجب أن يحب، وإذا أحب العبد ربه، فإنه يجب عليه أن يوحده بأفعال العبد حتى يكون محبا له على الحقيقة.

لذلك نقول: المحبة التي هي من العبادة هي المحبة التي يكون فيها اتباع للأمر واجتناب للنهي ورغب ورهب؛ ولهذا قال طائفة من أهل العلم: المحبة المتعلقة **بالله ثلاثة أنواع:**

---

[1] انظر منزلة المحبة في مدارج السالكين لابن القيم.

١. محبة الله على النحو الذي وصفنا وهذا نوع من العبادات الجليلة، ويجب إفراد الله -جل وعلا- بها.

٢. محبة في الله، وهو أن يحب الرسل عليهم الصلاة والسلام وأن يحب الصالحين في الله، وأن يحب في الله، وأن يبغض في الله.

٣. محبة مع الله وهذه محبة المشركين لآلهتهم، فإنهم يحبونها مع الله -جل وعلا- فيتقربون إلى الله رغبا ورهبا نتيجة محبة الله ويتقربون إلى الآلهة رغبا ورهبا نتيجة لمحبتهم لتلك الآلهة، ويتضح المقام بتأمل حال المشركين وعبدة الأوثان وعبدة القبور في مثل هذه الأزمنة، فإنك تجد المتوجه لقبر الولي في قلبه من محبة ذلك الولي وتعظيمه ومحبة سدنة ذلك القبر ما يجعله في رغب ورهب، وفي خوف وطمع وفي إجلال حين يعبد ذلك الولي، أو يتوجه إليه بأنواع العبادة لأجل تحصيل مطلوبه، فهذه هي محبة العبادة التي صرفها لغير الله -جل وعلا- شرك أكبر به، بل هي عماد الدين، بل هي عماد صلاح القلب، فإن القلب لا يصلح إلا بأن يكون محبا لله -جل وعلا-، وأن تكون محبته لله -جل وعلا- أعظم من كل شيء، فالمحبة التي هي محبة الله وحده يعني: محبة العبادة هذه من أعظم أنواع العبادات، وإفراد الله بها واجب.

والمحبة مع الله محبة العبادة هذه شركية، فمن أحب غير الله -جل وعلا- محبة العبادة، فإنه مشرك الشرك الأكبر بالله -جل وعلا-.

(ق): القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله، أي: كون الشيء محبوبا لله تعالى من أشخاص، كالأنبياء، والرسل، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أو أعمال، كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء، والمرضى.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة، كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية، كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة، ولهذا (حبب للنبي ﷺ النساء والطيب)[1].من هذه الدنيا، فحبب إليه النساء، لأن ذلك مقتضى الطبيعية ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب، لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر، ولأن الطيبات للطيبين، والله طيب لا يقبل إلا طيبا.

فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة، قال النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[2].

وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد، وهذا أمر متفق عليه.

(ف): قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ الآية. قال في شرح المنازل: أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم. ثم قال تعالى: " والذين آمنوا أشد حبا لله " وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: " يحبونهم كحب الله " مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد " والذين آمنوا أشد حباً لله" من الكفار لأوثانهم. ثم روى عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم. انتهى.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: " يحبونهم كحب الله " **فإن فيها قولين أيضاً:**

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم.

---

[1] النسائي: كتاب عشرة النساء /باب: حب النساء، حديث (٣٩٣٩) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

[2] البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي، حديث (١)، ومسلم: كتاب الإمارة / باب قوله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات ...) حديث (١٩٠٧).

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول: إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة و لم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب ' ٢٦: ٩٧، ٩٨ ' ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين ۞ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى: ' ٦: ١' ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ' ٣: ٣١ ' ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وهذه تسمى آية المحنة. قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله تعالى آية المحنة: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ وفائدتها وثمرتها، محبة المرسل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ' ٥: ٥٤ ' ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ ذكر لهم أربع علامات:

إحداهما: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم، فلما ضمن أذلة هذا المعنى عداه بأداة على. قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته، ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[1].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: إنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذه علامة صحة المحبة. فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. وقال تعالى: ' ١٧: ٥٧ ' ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب، ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيئ فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيئ، ولا يقرب من ذاته شيئ، ولا يحب، فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح وبهجة

[1] وهي العلامة الثانية.

النفوس، وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلى عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها. وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان.

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء. فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها. وأجمع ما قيل في ذلك: ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد.

قال أبو بكر: جرت مسألة في المحبة بمكة – أعزها الله في أيام الموسم – فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف له الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين.

وذكر رحمه الله تعالى: أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدهما: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو أعجبها – انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب.

(ق): فإن قيل: قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظرا لقوله: ﴿أشد حبا لله﴾ فما الجواب؟.

أُجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين وأحدهما خال منه تماما، ومنه قوله تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ (الفرقان: ٢٤). مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى ﴿ اللَّهُ خير أما يشركون﴾ (النمل: ٥٩)، والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة، ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

مناسبة الآية لباب المحبة:

منع الإنسان أن يحب أحدا كمحبة اللَّهِ، لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهذا يوجد في بعض العُبّاد وبعض الخدم، فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة اللَّهِ أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون اللَّهَ ويعظموهم أكثر مما يعظمون اللَّهَ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (الأحزاب: ٦٧ – ٦٨).

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

الآية الثانية قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾، ﴿آباؤكم﴾.اسم كان، وباقي الآية مرفوع معطوف عليه، وخبر كان ﴿أحب إليكم من اللَّهِ ورسوله﴾، والخطاب في قوله: ﴿قل﴾ للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: ﴿آباؤكم﴾ الأمة.

والأمر في قوله ﴿فتربصوا﴾ يراد به التهديد، أي: انتظروا عقاب اللَّهِ، ولهذا قال: ﴿حتى يأتي اللَّهُ بأمره﴾ بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة اللَّهِ ورسوله وجهاد في سبيله.فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت غير محبة العبادة إذا فضلت على محبة اللَّهِ صارت سببا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر اللَّهِ لأوامر والده، فهو يحب أباه أكثر من ربه.

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا اللَّهُ، لكن له شاهد في الجوارح، ولذا يروى عن الحسن رحمه اللَّهُ أنه قال: (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها اللَّهُ تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه) فالجوارح مرآة القلب.

(**ف**): **قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى**: أي إن كانت هذه الأشياء " أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا " أي انتظروا ما يحل بكم من عقابه. روى الإمام أحمد وأبو داود – واللفظ له – من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم "[1].

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه، ويوالي فيه ويعادي فيه ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحنة ونظائرها.

(**ق**): **فإن قيل**: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروى عن النبي ﷺ، أنه قال (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)[2] وكيف للإنسان أن يحب شيئا وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنا؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلا: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ (إنك لأحب إلى من كل شيء إلا من نفسي. قال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر)[3]،

فقد ازدادت محبة عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله، وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلاما وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب، فتعود محبتك إياه.

---

[1] صحيح: أخرجه أحمد (٢/٢٨، ٤٢، ٨٤). أبو داود: كتاب البيوع ،حديث(٣٤٦٢) باب في النهي عن العينة .وقال الألباني في الصحيحة (١/١٥)"وهو حديث صحيح لمجموع طرقه".

[2] الإمام احمد في (المسند) (٦/ ١٤٤)، وأبو داود: كتاب النكاح / باب في القسم بين النساء، حديث (٢١٣٤)، والترمذي: كتاب النكاح / باب التسوية بين الضرائر، حديث (١١٤٠)، والنسائي: كتاب عشرة النساء / باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، حديث (٣٩٤٣)، وابن ماجه: كتاب النكاح / باب القسمة بين النساء، حديث (١٩٧١) والحاكم (٢/٢٠٤) — صححه ووافقه الذهبي –، وضعفه الشيخ الألباني.

[3] البخاري كتاب الأيمان والنذور / باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، حديث (٦٦٣٢)، وأحمد حديث (٢٢٥٥٦).

عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين). أخرجاه [١]

قوله في حديث أنس: (لا يؤمن). هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفى الوجود، أي: نفي الأصل.

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب، إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقا، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

(**ف**): فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب كما قال تعالى: ' ٢٤: ٤٧ ' ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمناً وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق. لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين.

(**ق**): **قوله:** (من ولده). يشمل الذكر والأنثى، وبدأ بمحبة الولد، لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بأبيه غالبا.

قوله: (ووالده) يشمل أباه، وجده وإن علا، وأمه، وجدته وإن علت.

قوله: (والناس أجمعين). يشمل اخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه، لأنه من الناس، فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين.

وإذا كان هذا في محبة الرسول صلى الله وسلم، فكيف بمحبة الله تعالى؟ ومحبة الرسول ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء، فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

---

[١] البخاري: كتاب الإيمان / باب حب رسول الله صلى عليه وسلم من الإيمان، حديث (١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب وجوب محبة الرسول ﷺ أكثر من الأهل حديث (٤٤).

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره على الأذى في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

(**ف**): قال شيخ الإسلام رحمه الله: وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله. فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد، ولو شككوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا. إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، فهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى[١].

(**ق**): **ويستفاد من هذا الحديث:**

١. وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.

٢. فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال، لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

٣. أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته، لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ، ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ (الكوثر: ٣)، أي: مبغضك، قالوا: وكذلك من أبغض شريعته ﷺ، فهو مقطوع لا خير فيه.

٤. جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم، لقوله ﷺ: (أحب إليه من ولده ووالده...) فأثبت أصل المحبة، وهذا أمر طبيعي لا ينكره أحد.

٥. وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس، لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدما على كل أحد من الناس، حتى على نفسك، فمثلا: أنت تقول شيئا وتهواه وتفعله، فيأتي إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ، فتدع ما تهواه من أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادق لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

---

[١] مجموع الفتاوى(٧/٢٧١).

إذا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: من الآية٣٦).

لكن إذا وجدنا حديثا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفا لقول أهل العلم وجمهور الأمة، فالواجب التثبت والتأني في الأمر، لأن إتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثا يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي كالجبال في رسوها، فلا تتعجل في قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين، فإنه لا بأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة، فالمهم التثبت في الأمر، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ظهرت أخيرا، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس، فإنه يجب إتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة اللَّهِ، لكانت منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرما، فأن هذا الحديث[1] وإن كان ظاهر سنده الصحة، لكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا، فالأمة على خلافه، فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيه ويتثبت، ولا نقول: إنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

مناسبة هذا الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إذ محبة الرسول ﷺ من محبة اللَّهِ، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسول صلى اللَّهُ عليه أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين، فمحبة اللَّهِ أولى وأعظم.

ولهما عنه، قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: (ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّهُ ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا اللَّهِ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّهُ منه، كما يكره أن يقذف في النار)[2].

قوله في حديث أنس الثاني: (ثلاث من كن فيه). أي: ثلاث خصال، (كن) بمعنى وجدن فيه.

وإعراب (ثلاث): مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنه مفيدة على حد قول ابن مالك:

---

[1] أبو داود في (السنن): كتاب المناسك / باب الإفاضة في الحج حديث (١٩٩٩).

[2] البخاري: كتاب الإيمان / باب حلاوة الإيمان، حديث (١٦)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان حديث (٤٣).

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد............[1]

وقوله: (من كن فيه). (من): شرطيه، (كن): أصلها كان، فتكون فعلا ماضيا ناسخا، والنون اسمها، و(فيه): خبرها.

قوله: (وجد بهن). وجد: فعل ماضي في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: (وجد بهن حلاوة الإيمان). الباء للسببية، وحلاوة: مفعول وجد، وحلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مدركة باللعاب والفم، والمقصود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

(**ف**): قال السيوطي رحمه الله في التوشيح: وجد حلاوة الإيمان فيه استعارة تخييلية. شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه.

وقال النووي: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته. وكذلك الرسول ﷺ.

قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله: أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

(**ق**): **الخصلة الأولى** من الخصال الواردة في الحديث:

قوله: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) الرسول a ﷺ وكذا جميع الرسل تجب محبتهم.

قوله: (أحب إليه مما سواهما). أي أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولده ووالده وزوجته وكل شيء سواهما، **فإن قيل**: لماذا جاء الحديث بالواو (الله ورسوله) وجاء الخبر لهما جميعا (أحب إليه مما سواهما)؟ **فالجواب**: لأن محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولهذا جعل قوله: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ركنا واحدا، لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي ﷺ.

(**ف**): وقال الخطابي: المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع كذا قال.

وأما المحبة الشركية التي قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافي محبة الله ورسوله، فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويسعى في مرضاته ما استطاع، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه، كما قال تعالى: ' ٤ : ٨٠ ' " من يطع الرسول فقد أطاع الله " فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى

[1] انظر ألفية ابن مالك (ص١٦).

عنه، فذلك علم على عدم محبته لله، فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه. ومن لا فلا، كما في آية المحنة، ونظائرها. والله المستعان.

(**ق**): **الخصلة الثانية:**

قوله: (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله)

قوله: (وأن يحب المرء) يشمل الرجل والمرأة. قوله: (لا يحبه إلا لله): اللام للتعليل، أي: من أجل الله، لأنه قائم بطاعة الله – عَجَلَّ –.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، ولكن إذا أحببت هذا المرء لله، فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

الخصلة الثالثة:

قوله: (وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار).

هذه الصورة في كافر أسلم، فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة، لأن الكافر يألف ما كان عليه أولا، فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلا.

فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار، فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

(**ف**): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان. لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً واشتهاه، إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى. قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة وتفريغها، ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه. والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده. فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان، كما في حديث ابن عباس الآتي.

وفي رواية: (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى. .)[١] إلى آخره.

وفي رواية: (لا يجد حلاوة الإيمان حتى. .) إلى آخره.

قوله: وفي رواية: {لا يجد أحد} هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من صحيحه. ولفظها: لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

(**ق**): أتى المؤلف بهذه الرواية، لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

وعن ابن عباس، قال: (من أحبّ في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان – وإن كثرت صلاته وصومه – حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مُؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يُجدي على أهله شيئًا) رواه ابن جرير[٢].

(**ق**): قوله في أثر ابن عباس رضي الله عنهما: (من أحب في الله). (من) شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة: (فإنما تنال ولاية الله بذلك).

و(في): يحتمل أن تكون للظرفية، لأن الأصل فيها للظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية، لأن في) تأتي أحيانا للسببية كما في قوله ﷺ(دخلت امرأة النار في هرة)[٣] أي: بسبب هرة.

وقوله: (في الله). أي: من أجله، إذا قلنا: إن في للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية، فالمعنى: من أحب في ذات الله، أي في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.

---

[١] البخاري: كتاب كتاب الأدب المفرد / باب الحب في الله حديث (٦٠٤١)، مسلم: كتاب الإيمان / باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث (٤٣).

[٢] ابن المبارك في (الزهد (٣٥٣)، وأبو نعيم في (الحلية) (٣١٢/١)، والطبراني في (الكبير)(١٣٥٣٧). قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٩٠/١): (وفيه ليث بن أبي سليم، والأكثر على ضعفه).

[٣] البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، حديث (٢٣٦٥)، ومسلم: كتاب التوبة / باب في سعة رحمة الله.

قوله: (وأبغض في الله). البغض الكره، أي: أبغض في ذات الله إذا رأى من يعصي الله كرهه. وفرق بين (في) التي للسببية و(في) التي للظرفية، فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهية هو في ذات الله -عز وجل- فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

قوله: (ووالى في الله). الموالاة: هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: (وعادى في الله). المعاداة ضد الموالاة، أي: يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

قوله: (فإنما تنال ولاية الله بذلك). هذا جواب الشرط، أي: يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها، لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله: (ولاية). يجوز في الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد، وقيل: بالفتح بمعنى النصرة، قال تعالى: (ما لكم من ولايتهم من شيء)، وبالكسر بمعنى الولاية على الشيء.

قوله: (بذلك).الباء للسببية، والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه، والموالاة فيه والمعاداة فيه.

وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنى المرفوع، لأن ترتيب الجزاء على العمل لا يكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف **فمعنى الحديث**: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم؟ ! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله، فإنه يكون لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلا بد أن يكون قلبك مملوء بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوء ببغض أعداء الله ومعاداقم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتحب أعداء الحبيب وتدّعي   حبا له ما ذاك في إمكان

وقال الإمام احمد رحمه الله: (إذا رأيت النصراني أغمض عيني، كراهة أن أرى بعيني عدو الله).

هذا الذي يجد طعم الإيمان، أما - والعياذ بالله - الذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ، فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: (ورضيت لكم الإسلام دينا) (المائدة: ٣) وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) (آل عمران: ١٩) وقوله (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) (آل عمران: ٨٥)، ولكثرة اليهود والنصارى والوثنين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرقون بين مسلم وكافر، ولا يدري أن غير المسلم عدو لله -عز وجل- بل هو عدو له أيضا، لقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (الممتحنة: من الآية١) فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظالمين﴾ (المائدة: من الآية٥١).

فالآن أصبحنا في محنة وخطر عظيم، لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم ويحبوهم، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم، فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما)[1] وقال: (أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب)[2] وقال (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)[3]، وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه.

قوله: (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا).

قوله: (عامة) أي: أغلبية.

وقوله: (مؤاخاة الناس). أي: مودهم ومصاحبتهم.

أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا ما قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه، **فما بالك بالناس اليوم؟**

فقد صارت مؤاخاة الناس – إلا نادر– على أمر الدنيا، بل صار أعظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧)، ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢٨)

ويستفاد من أثر بن عباس رضي الله عنهما: أن لله تعالى أولياء، وهو ثابت بنص القرآن، قال تعالى: (الله ولي الذين آمنوا) (البقرة: ٢٥٧) وقال تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ (المائدة: ٥٥) فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣].

قال شيخ الإسلام: (من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا)، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن **الأولى** قوله تعالى﴿ الله ولى الذين آمنوا﴾ (البقرة: ٢٥٧) ومن **الثانية** قوله تعالى ﴿ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا...﴾ (المائدة: ٥٦).

---

[1] مسلم: كتاب الجهاد والسير / باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب حديث (١٧٦٧) وأبو داود حديث (٣٠٣٠)، والترمذي حديث (١٦٠٧)، وأحمد حديث (٢٠١).

[2] مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب حديث (١٧٦٧)، والبزار في مسنده حديث (٢٣٠)، الجامع الصغير (١/ ١٥).

[3] البخاري: كتاب الجهاد / باب هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم، حديث (٣٠٥٣)، ومسلم: كتاب الوصية / باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، حديث (١٦٣٧).

والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) (الأنعام: ٦٢).

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٧) وقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٣).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: من الآية١٦٦) قال: " المودة ".

(**ف**): **قوله:** (وقال ابن عباس) في قوله تعالى: ' ٢: ١٦٦ ' ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال: المودة هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(**ق**): **قوله:** (وقال أبن عباس رضي الله عنهما في **قوله:** ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾، قال: المودة). يشير إلى قوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦)

الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ (الحج: من الآية١٥)، ومنه سمي الحبل سببا، لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وقوله: (قال: المودة). هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح، فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تنقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها، فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات، فقد قال الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (البقرة: من الآية١٦٥) ثم قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِين اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦).

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص، فإنها نافعة موصلة للمراد، وقال الله تعالى:﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).

(**ف**): **قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى:** ' ٢: ١٦٦، ١٦٧ ' ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب﴾ الآيتين فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومناهجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرءون منهم يوم القيامة فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله. وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وإنتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله ﷻ ذلك العمل كله. وقطع تلك الأسباب. فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه. وهو حظه من الهجرة إليه والى رسوله وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد ومتابعة رسول الله ﷺ تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه. فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه. وهذه هي النسبة التي بين العبد وربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي أخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ' ٢٥: ٢٣ ' ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً لا ينتفع منها صحابها بشيء أصلاً. وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه ضائعاً. وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. انتهى ملخصاً.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

الرابعة: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها .

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها .

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

الثامنة: تفسير: (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ) .

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً .

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة. وهي قوله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾، وسبق ذلك.

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم....﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال. وفي نسخة (وتقديمها على النفس والأهل والمال).

ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث، وأيضا قوله: (على النفس) يدل على أنها قد سقطت كلمة تقديم أو تقديمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم.... أحب إليكم من الله ورسوله﴾ ، فذكر الأقارب والأموال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر ﷺ لما قال للرسول ﷺ: (والله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال له ومن نفسك. فقال الآن، أنت أحب إلي من نفسي)، وقوله: (الآن) يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضا أن نفي الإيمان المذكور في قوله (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده...) لا يدل على الخروج من الإسلام لقوله في الحديث الآخر (ثلاث من كن فيه وجد هن حلاوة الإيمان) لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله، أي إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود، وذلك مثل: (لا إيمان لعابد صنم)، فإن منع مانع من نفي الوجود، فهي نفي للصحة، مثل: (لا صلاة بغير وضوء) فإن منع مانع من نفي الصحة، فهو نفي للكمال، مثل (لا صلاة بحضرة الطعام)، فقوله: (لا يؤمن أحدكم) نفي للكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (لا ينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع)

الخامسة أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. تؤخذ من قوله: (ثلاث من كن فيه وجد هن حلاوة الإيمان)، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربعة آلتي لا تنال ولاية الله إلا ها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا ها. وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في الله، والعداء في الله.

لا تنال ولاية الله إلا ها، فلو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله، فإنه لا ينال ولاية الله، قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدّعي   حبا له ما ذاك في إمكان

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالى من عاداهم.

وقوله: (ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا ها) مأخوذة من قول ابن عباس (ولن يجد عبد طعم الإيمان....) الخ.

السابعة فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الصحابي: يعني به ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: (إن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا) هذا في زمنه، فكيف بزمننا؟!

الثامنة: تفسير قولهُ: ﴿وتقطعت هم الأسباب﴾ فسرها بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال، لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعمومالها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم، فإنما يقصد به التمثيل، أي: مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقربون ها إلى الله وليست بصحيحة، فإنها تنقطع هم ولا ينالون منها خيرا.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبا شديدا. تؤخذ من قوله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾، وهم يحبون الأصنام حبا شديدا، وتؤخذ من قوله ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾، فاشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة، فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.الثمانية هي المذكورة في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ (التوبة: ٢٤)

والوعيد في قوله: ﴿فتربصوا﴾، فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى إن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندا تساوى محبة الله فهو الشرك الأكبر. لقوله تعالى: ﴿يحبونهم كحب الله﴾، ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركا أكبر، بدليل ما لهم من عذاب.



باب قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

(آل عمران: ١٧٥)

(ق): مناسبة الباب لما قبله:

أن المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف، لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف. فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزني لماذا، لقال: خوفا من الله.

ولو سألت الذي يصلى، لقال: طمعا في ثواب الله ومحبة له.

كل منهما ملازم للآخرة، فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته.

وهل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أو يغلب جانب الرجاء؟

اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف، ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء، ليكون متفائلا، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل [1].

وقيل في فعل الطاعة: يغلب جانب الرجاء، فالذي منّ عليه بفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء، فانتظر الإجابة، لأن الله يقول: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ (غافر: ٦٠) وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف، لأجل أن يمنعه منها إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء، ولكن ليس بذاك القرب الكامل، لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، أي: يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى، كقوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني)[2].

---

[1] البخاري: كتاب الطب /باب الفأل، حديث (٥٧٥٦)، ومسلم: كتاب السلام / باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم، حديث (٢٢٢٣).

[2] البخاري: كتاب التوحيد / باب (ويحذركم الله نفسه)، حديث (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء /باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث (٢٦٧٥).

وقيل: في حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف، فهذه أربعة أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه، أي: يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وخوف الله تعالى درجات، فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه.

والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله.

ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه.

والخوف أقسام:

الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله – سبحانه وتعالى – فمن أشرك فيه مع الله غيره، فهو مشرك شركا أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم، كما يفعله بعض عباد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلّي، فهذا في الأصل مباح، لقوله: تعالى عن موسى ﴿فخرج منها خائفا يترقب﴾ وقوله عنه أيضا: ﴿رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون﴾،

لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم، فهو محرم، وإن استلزم شيئا مباحا كان مباحا، فمثلا من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك صلاة الجماعة مع وجوبها، فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعل محرم، فخاف وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به، فهذا خوف محرم يؤدي إلى فعل محرم بلا عذر، وإن رأى نارا ثم هرب منها ونجا بنفسه، فهذا خوف مباح، وقد يكون واجبا إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه.

وهناك ما يسمى بالوهم وليس بخوف، مثل أن يرى ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهدده، فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، بل يطارد هذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها، وإذا لم تطاردها، فإنه تهلكك.

مناسبة الخوف للتوحيد: أن من أقسام الخوف ما يكون شركا منافيا للتوحيد.

(ف): قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن كيد عدو الله: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، لا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه. ونهانا أن نخافهم. قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة:

يعظمهم في صدوركم. فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم. فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان.

(ق): وقد ذكر المؤلف فيه ثلاث آيات:

أولها ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾

﴿إنما ذلكم﴾ صيغة حصر والمشار إليه التخويف من المشركين.

﴿ذلكم﴾: ﴿ذا﴾ : مبتدأ، و﴿الشيطان﴾: يحتمل أن يكون خبر المبتدأ وجملة ﴿يخوف﴾ حال من الشيطان. ويحتمل أن يكون ﴿الشيطان﴾ صفة لـ ﴿ذلكم﴾، أو عطف بيان، و﴿يخوف﴾ خبر المبتدأ والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياه.

و﴿يخوف﴾ تنصب مفعولين، الأول محذوف تقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أولياءه﴾.

ومعنى يخوفكم، أي: يوقع الخوف في قلوبكم منهم، ﴿أولياءه﴾ أي: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر، لأن الشيطان يأمر بذلك، فكل من نصر الفحشاء والمنكر، فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر في الشرك وما ينافي التوحيد، فيكون عظيما وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿يخوف أولياءه﴾ من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وذلك ليصدهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان في نفسك في الخوف، فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه؟ وكم من جبان قتل في بيته؟

وانظر إلى خالد بن الوليد، كان شجاعا مقداما ومات على فراشه، ومادام الإنسان قائما بأمر ﷲ، فليثق بأن ﷲ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب ﷲ هم الغالبون.

قوله: ﴿فلا تخافوهم﴾. لا ناهية، والهاء ضمير يعود على أولياء الشيطان، وهذا النهي للتحريم بلا شك، أي: بل أمضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء، وإذا كان ﷲ مع الإنسان، فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾، وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه، وهذا ما وقع فيه كثير من الناس، وهو الخوف من أعداء ﷲ فكانوا فريسة لهم، لو اتكلوا على ﷲ وخافوه قبل كل شيء لخافهم الناس، ولهذا قيل في المثل من خاف ﷲ خافه كل شيء ومن اتقى ﷲ اتقاه كل شيء، ومن خاف غير ﷲ خاف من كل شيء.

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك، فهو مناف لأصله، وإلا، فهو مناف لكماله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨)

الآية الثانية قوله تعالى ﴿إنما يعمر﴾.

﴿إنما﴾ أداة حصر، والمراد بالعمارة العمارة المعنوية، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي، فأن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله، لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقة، لعدم انتفاعه بهذه العمارة، فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفا، لأنها موضع عبادته.

(**ف**): والمشرك وإن عمل فعمله: ' ٢٤: ٣٠ ' ﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾ أو ' ١٤: ١٨ ' ﴿كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

(**ق**): **قوله:** و﴿من آمن بالله﴾. ﴿من﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور هي:

الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده.

وقال شيخ الإسلام: ويدخل في الأيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به صلى الله عليه مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيرا، لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثا وجزاء، حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل، إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!

قوله: ﴿وأقام الصلاة﴾. أي: أتى بها على وجه قويم لا نقص فيه، **والإقامة نوعان:**

إقامة واجبة: وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

و **إقامة مستحبة:** وهي التي يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتي بالواجب والمستحب.

قوله: ﴿وآتى الزكاة﴾. ﴿آتى﴾ تنصب مفعولين: الأول هنا الزكاة، والثاني: محذوف تقديره مستحقها.

والزكاة: هي المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل.

قوله: ﴿ولم يخش إلا الله﴾. في هذه الآية حصر طريقة الإثبات والنفي.

﴿لم يخش﴾ نفي، ﴿إلا الله﴾ إثبات، والمعنى: أن خشيته انحصرت في الله -عز وجل-، فلا يخشى غيره.

والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه والفرق بينهما:

١. أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، لقوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨)، والخوف قد يكون من الجاهل.

٢. أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشي، بخلاف الخوف، فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوّف.

قوله: ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾. قال ابن عباس: (عسى من الله واجبة)[١] وجاءت بصيغة الترجي، لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف، وهذا كقوله تعالى: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ۞ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ (النساء: ٩٨- ٩٩) فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها، فالذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا جديرون بالعفو. الشاهد من الآية: قوله: ﴿ولم يخش إلا الله﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ (المائدة: ٤٤) ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير، فليتأمل قول الرسول ﷺ: (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)[٢].

---

[١] تفسير أبن كثير (٢/ ١٣٠)

[٢] الإمام احمد في (المسند) (١/ ٢٩٣)، حديث (٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع / باب ما جاء في صفة الحوض، (٢٥١٦)، وابن أبي عاصم في (السنة)(٢١٦)، والآجري في (الشريعة) ص ١٩٧، والطبراني في (الكبير) (١٢٩٨٨) وأبي نعيم في (الحلية) (٣١٤/١)، قال ابن رجب: أصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي) جامع العلوم والحكم (٣٦٠)، وقال احمد شاكر: (إسناده صحيح) (المسند) (٢٦٦٩)، وصححه الألباني في تعليقه على (السنة لابن أبي عاصم) (٣١٦).

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ١٠)

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿ومن الناس﴾. جار ومجرور خبر مقدم، ﴿ومن﴾ تبعيضية.

وقوله: ﴿من يقول﴾. ﴿من﴾: مبتدأ مؤخر، والمراد هؤلاء: من لا يصل الإيمان إلى قرارة قلبه، فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان متطرف، كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ (الحج: ١١)، ﴿على حرف﴾، أي: على طرف.

فإذا امتحنه الله بما يقدر عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: ﴿فإذا أوذي في الله ﴾ ﴿في﴾: للسببية، أي: بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه.

ويجوز أن تكون ﴿في﴾ للظرفية على تقدير: ﴿فإذا أوذي في شرع الله ﴾، أي: إيذاء في هذا الشرع الذي تمسك به.

قوله: ﴿جعل فتنة الناس﴾. ﴿جعل﴾: صيّر، والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسمي فتنة، لأن الإنسان يفتتن به، فيصد عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ﴾ (البروج: من الآية١٠)، وأضاف الفتنة إلى الناس من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

قوله: ﴿كعذاب الله ﴾. ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله، فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلا لهذه الفتنة كالعذاب، فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله، لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم، فالآية موافقة للترجمة.

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله العبد لأجل أن يمحص إيمانه، **وذلك على قسمين:**

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد، كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾ (الحج: ١١) وقوله تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٦).

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحانا واختبارا، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف. وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر، فيكفر ويرتد أحيانا – والعياذ بالله –، وأحيانا يكفر بما خالف فيه أمر الله – عز وجل – في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصا

عظيما، فليكن المسلم على حذر، فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (a: ٣١).

(ف): **قال ابن كثير رحمه الله تعالى:** يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، و لم يثبت في قلوبهم: أنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني فتنة أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك. بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه. والفتنة: الإبتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا. فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه. فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم و لم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم. فلا بد من حصول الألم لكل نفس، آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير في الألم الدائم، والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الإبتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية ﷺ: " من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس. ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً ".

فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به: كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب. وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله. فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله.وغبن كل الغبن إذ استجار من الرمضاء

بالنار. وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

(ق): **قوله:** (الآية) أي: إلى آخر الآية، وهي قوله تعالى ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾.

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله تعالى ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾. قيل في مثل هذا السياق: إن الواو عاطفة على محذوف يقدر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها، أي: وأليس الله.

قوله: ﴿أعلم﴾ مجرور بالفتحة، لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور العالمين، أي بما في صدور الجميع، فالله أعلم بما في نفسك منك، وأعلم بما في نفس غيرك، لأن علم الله عام.

وكلمة ﴿أعلم﴾: اسم تفضيل، وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم: ﴿أعلم﴾ بمعنى عالم، وذلك فرارا من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ، ففيه فساد للمعنى، لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم، فإن كلمة عالم تكون لإنسان وتكون لله، ولا تدل على التفاضل، فالله عالم والإنسان عالم.

وأما تحريف اللفظ، فهو ظاهر، حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك.

والصواب أن ﴿أعلم﴾ على بابها، وأنها اسم تفضيل، وإذا كانت اسم تفضيل، فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق، وأن علم الخالق أكمل.

وقوله: ﴿بما في صدور العالمين﴾. المراد بالعالمين: كل من سوى الله، لأنهم علم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته. والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك، لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه، ولهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: إني قد أُوتيت جدلا، ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا، لخرجت منهم بعذر، لكن لا أقول شيئا تعذرني فيه فيفضحني الله فيه)[1].

---

[1] البخاري: كتاب المغازي /باب حديث كعب بن مالك، حديث (٤٤١٨)، مسلم: كتاب التوبة/ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، حديث (٢٧٦٩).

الشاهد من الآية: قوله: ﴿فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى.

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: (إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، أن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره)[1]

(**ف**): **قوله:** عن أبي سعيد مرفوعاً: إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال: ضعيف، وفيه أيضاً عطية العوفي: ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: " وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط ".

قوله: إن من ضعف اليقين الضعف يضم ويحرك، ضد القوة، ضعف ككرم ونصر، ضعفاً، وضعفه، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى، أو الضعف – بالفتح – في الرأي وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. واليقين كمال الإيمان. قال ابن مسعود: (اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان) رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعاً. قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما في حديث ابن عباس مرفوعاً: " فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً "[2].

(**ق**): **قوله:** (أن ترضى الناس). (أن ترضى الناس): اسم مؤخر، و(من ضعف اليقين) خبرها مقدما، والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

(**ف**): **قوله:** وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب. وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك. لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله. وتقرب إليه

---

[1] ضعيف: رواه البيهقي في شعب الايمان (٢٢٢/١)، حديث (٢٠٩)، وقال a بن مروان ضعيف.وأبو نعيم في (الحلية) (١٠٦/٥، ٤١٠/١٠)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٠٠٩).

[2] صحيح موقوفاً: وعلقه البخاري في صحيح (٤٧/١)كتاب الايمان وقال الحافظ في الفتح (٤٨/١)، وصله الطبراني بسند صحيح ..." وأخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعاًولا يثبت رفعه" أ.هـ.

بما يسخط ﷲ. ولا يسلم من هذا إلا من سلمه ﷲ. ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على ﷲ من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتتريهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده من ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق.

(ق): **قوله:** (بسخط ﷲ). الباء للعوض، يعني: أي تجعل عوض إرضاء الناس سخط ﷲ، فتستبدل هذا بهذا، فهذا من ضعف اليقين.

واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، وكما تقول: تيقنت هذا الشيء، أي علمته يقينا لا يعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط ﷲ، إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف ﷲ، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم، فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه، وقد يكون خاليا من هذا المدح، ولا يبين ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها، ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعا إذا أُمن في ذلك من الغرور.

قوله: (وأن تحمدهم على رزق ﷲ). الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولكن هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم، لأنه يشمل المدح.

و (رزق ﷲ): عطاء ﷲ، أي: إذا أعطوك شيئا حمدهم ونسيت المسبب وهو ﷲ، والمعنى: أن تجعل الحمد كله لهم متناسيا بذلك المسبب، وهو ﷲ، فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو ﷲ، ولهذا قال النبي ﷺ (إنما أنا قاسم، والله يعطي)[1].

أما إن كان في قلبك أن ﷲ هو الذي من عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذي أعطاك، فليس هذا داخلا في الحديث، بل هو من الشرع، لقوله ﷺ: (من صنع إليكم معروفا، فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)[2].

إذاً الحديث ليس على ظاهره من كل وجه، فالمراد بالحمد: أن تحمدهم الحمد المطلق ناسيا المسبب هو ﷲ – ﷻ – وهذا من ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلي، وهو ﷲ – ﷻ – الذي له النعمة الأولى، وهو سفه أيضا، لأن حقيقة الأمر أن الذي أعطاك هو ﷲ، فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذي خلق ما بيد، وهو الذي عطف قلبه حتى أعطاك، أرأيت لو أن إنسانا له طفل، فأعطى طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلانا، فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب، لأنه لو حمد الطفل فقط لعد هذا سفها، لأن الطفل ليس إلا مرسلا فقط، وعلى هذا، فنقول: إنك إذا حمدهم ناسيا

---

[1] البخاري: كتاب العلم / باب من يرد ﷲ به خيرا، حديث (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة / باب النهي عن المسألة، حديث (١٠٣٧).

[2] الإمام احمد (٢/٦٨، ٩٩، ١٢٧)، والبخاري في (الأدب المفرد) (٢١٦)، وأبو داود كتاب الزكاة / باب عطية من سأل بالله، حديث (٢٥٦٧)، والنسائي: كتاب الزكاة / باب من سال بالله، حديث (١٦٧٢)، والحاكم (٤١٢/١) — وصححه ووافقه الذهبي – وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢١).

بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء، فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله – ﷻ –، فهذا حق، وليس من ضعف اليقين.

قوله: (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله). هذه عكس الأولى، فمثلا: لو أن إنسانا جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسبه وشتمه، فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.
لكن من قصر بواجب عليه، فيذم لأجل أنه قصر بالواجب لا لأجل لأنه لم يعط، فلا يذم من حيث القدر، لأن الله لو قدر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

(ف): فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقاً على رزق و لم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه. وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: " إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره " كما قال تعالى: ' ٣٥: ٢ ' ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما عدا الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم. وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاءً لهم وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم. فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم. ولما قال بعض وفد بني تميم: " أي a أعطني. فإن حمدي زين وذمي شين، قال النبي ﷺ ذاك الله " ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

(ق): **وقوله:** (ما لم يؤتك). علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف، لأنه فضلة، والتقدير: ما لم يؤتك.

قوله: (إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره) هذا تعليل، لقوله: (أن تحمدهم وأن تذمهم).

و(رزق الله): عطاؤه، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب، فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسبابا كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباب قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: (ولا يرده كراهية كاره). أي: رزق الله إذا قدر للعبد، فلن يمنعه عنه كراهية كاره، فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:(من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس) رواه ابن حبان في (صحيحه)[1].

(**ف**): وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: " من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس " رواه ابن حبان في صحيحه.

---

[1] صحيح: ابن حبان (١- ٢٤٨)، والترمذي: كتاب الزهد / باب ما جاء في حفظ اللسان، حديث (٢٤١٤)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٠١٠، ٦٠٩٧).

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها: إلى معاوية، سلام عليك، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس. والسلام عليك " ورواه أبو نعيم في الحلية.

(ق): قوله في حديث عائشة رضي الله عنها: (من التمس رضا الله بسخط الناس).

(التمس): طلب، ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر: (التمسوها في العشر)[1]

وقوله: (رضا الله). أي: أسباب رضاه.

وقوله: (بسخط الناس): الباء للعوض، أي طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلا من هذا الرضا، وجواب الشرط: (رضي الله عنه وأرضى عنه الناس).

وقوله: (رضي الله عنه وأرضى عنه الناس). هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضي الله عنه، لأنه أكرم من عبده، وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقى في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

قوله: (ومن التمس رضا الناس بسخط الله). (التمس): طلب، أي: طلب ما يرضى الناس، ولو كان يسخط الله، فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، ولهذا قال: (سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)، فألقى في قلوبهم سخط وكراهيته.

(ف): **قال شيخ الإسلام**: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته: " من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً " هذا لفظ المرفوع. ولفظ الموقوف: " من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذماً " وهذا من أعظم الفقه في الدين فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبده: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ۞ ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾. والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب. وأما كون الناس كلهم يرضون عنه قد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة. ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً كالظالم الذي يعض على يديه. وأما كون حامده ينقلب ذاماً، فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة. فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم. أ.هـ.

---

[1] البخاري: كتاب التراويح / باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، حديث (٢٠١٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب: فضل ليلة القدر والحث على طلبها، وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها، حديث (١١٦٧).

وقد أحسن من قال:

إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

(ق): مناسبة الحديث للترجمة:

قوله: (من التمس رضا الناس بسخط الله)، أي: خوفا منهم حتى يرضوا عنه، فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى.

فيستفاد من الحديث ما يلي:

١. وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس، لأن الله هو الذي ينفع ويضر.

٢. أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائنا من كان.

٣. إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين، لقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل، فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ، لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله -عز وجل- كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله -عز وجل- الإرادة، وهي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، والرب عز وجل لا يليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق. نقول: والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية، فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثاني: أن تقول على الله بغير علم، لأن الذي يبطل ظاهر النص يؤوله إلى معنى آخر، فيقال له: ما الذي أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله في النفي والإثبات في نفي الظاهر، وفي إثبات ما لم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جناية على النصوص، حيث اعتقد أنها دالة على التشبيه، لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب، فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفرا أو ضلالا.

الرابع: أن فيه طعنا في الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، لأننا نقول: هذه المعاني التي صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفائه يعلمون بها أم لا؟

فإن قالوا: لا يعلمون، فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون و لم يبينوها، فقد اتهموهم بالتقصير.
فلا تستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها. لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما:
التمثيل والتكييف: لقوله تعالى ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ (النحل: ٧٤) وقوله: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦)
فإذا أثبت ﷻ لنفسه وجها أو يدين، فلا تستوحش من إثبات ذلك، لأن الذي أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا، وهو يريد لخلقه الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له، فلا تستوحش من إثباته، لأنه ﷺ: أصدق الخلق، وأعلمهم بما يقول عن ﷻ، وأبلغهم نطقا وفصاحة، وأنصح الخلق للخلق.
فمن أنكر صفة أثبتها ﷻ لنفسه أو أثبتها له رسوله، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب، فيقال: هذا لا ينكره، فيقال: هذا لا ينكره إلا إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا، فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نكلف إلا بما بلغنا، والله يريد لعباده البيان والهدى، قال تعالى ﴿يُرِيدُ ﷻ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (النساء: ٢٦)، فهو لا يريد أن يعمى عليهم الأمر، فيقول: إنه يغضب وهو لا يغضب، قوله: إنه يهرول وهو لا يهرول، هذا خلاف البيان.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. وهي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وسبق.

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت. وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾. وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى. تؤخذ من الحديث: (إن من ضعف اليقين...) الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث. وهي أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.وتؤخذ من قوله في الحديث: (من التمس) الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة على من قدم رضا الناس على رضا الله تعالى.

السابعة: ذكر ثواب من فعله. وهو رضا الله عنه، وأن يرضى عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه. وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولا ينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه، فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله، انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس.



باب قول ٱللَّهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(المائدة: من الآية٢٣)

(ق): مناسبة هذا الباب لما قبله:

هي أن الإنسان إذا أفرد ٱللَّهُ -سبحانه - بالتوكل، فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد على غيره.

(ش): قال أبو السعادات يقال توكل بالأمر إذا ضمن القيام به ووكلت أمري إلى فلان أي ألجأته واعتمدت عليه فيه وكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجز عن القيام بأمر نفسه انتهى ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين كما تقدم في صفة السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ولذلك أمر ٱللَّهُ به في غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة بل جعله شرطا في الإيمان والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما في الآية المترجم لها وقوله تعالى﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ وقوله تعالى ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقوله ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ وقوله ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلا﴾ وقوله ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ وقوله ﴿فإن تولوا فقل حسبي ٱللَّهُ لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ وغير ذلك من الآيات وفي الحديث من سره أن يكون أقوى الناس إيمانا فليتوكل على ٱللَّهُ رواه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والحاكم وفي حديث آخر (لو أنكم توكلون على ٱللَّهُ حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) رواه أحمد وابن ماجه قال الإمام أحمد التوكل عمل القلب وقال أبو إسماعيل الأنصاري التوكل كلة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته إذا تبين ذلك فمعنى الآية المترجم لها أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتبها ٱللَّهُ لهم ولا يرتدوا على أدبارهم خوفا من الجبارين بل يمضوا قدما لا يهابونهم ولا يخشونهم متوكلين على ٱللَّهُ في هزيمتهم مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين قال ابن القيم فجعل التوكل على ٱللَّهُ شرطا في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عد انتفائه وفي الآية الأخرى ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ فجعل دليل صحة الإسلام التوكل وقال ﴿وعلى ٱللَّهُ فليتوكل المؤمنون﴾ فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل وإذا كان التوكل

ضعيفا فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان وبين التوكل والتقوى وبين التوكل والإسلام وبين التوكل والهداية فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل.

(**ق**): **والتوكل**: هو الاعتماد على ﷲ - ﷻ - في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له، ولا بد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على ﷲ اعتمادا صادقا حقيقيا.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب، نقص توكله على ﷲ، ويكون قادحا في كفاية ﷲ، فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على ﷲ ملغيا للأسباب، فقد طعن في حكمة ﷲ، لأن ﷲ جعل لكل شيء سببا، فمن اعتمد على ﷲ اعتمادا مجردا، كان قادحا في حكمة ﷲ، لأن ﷲ حكيم، يربط الأسباب بمسبباتها، كمن يعتمد على ﷲ في حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب، فكان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أُحد ظاهر بين درعين، أي: لبس درعين اثنين[١] ولما خرج مهاجرا أخذ من يدله الطريق[٢] ولم يقل سأذهب مهاجرا وأتوكل على ﷲ، ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقي الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضي ﷲ عنه أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجيء بهم إلى عمر، فسألهم فقالوا: نحن المتوكلون على ﷲ. فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين ولهذا نقول في صلاتنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)، فنطلب من ﷲ العون اعتمادا عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ (هود: ١٢٣) وقال تعالى: ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (هود: ٨٨)، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو ُوكل إلى نفسه وُكل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد ﷲ يشعر أنه متوكل على ﷲ، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على

---

[١] صحيح: رواه أبو داود: كتاب الجهاد: باب في لبس الدروع، حديث (٢٥٩٠)، الإمام أحمد في (المسند) (٣/ ٤٤٩)، وابن ماجة، حديث (٢٨٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود.

[٢] البخاري: كتاب الإجارة / باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام ...، حديث (٢٢٦٣).

اللَّهِ والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك، فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نوفق إلى حصول المقصود كما هو الغالب سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتمادا كاملا، مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير اللَّهِ، فهو مشرك شركا أكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفا خفيا في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصوله على رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوّض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصا في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المترلة العليا له فوقه، لأنه جعله نائبا عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي ابن أبي طالب أن يذبح ما بقى من هديه[1]، ووكل أبا هريرة على الصدقة[2]، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له اضحية[3]، وهذا بخلاف القسم الثاني، لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المتوكل عليه اعتماد افتقار.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحبا له في جميع شؤونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهِ: (و لا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على اللَّهِ ولا المعتزلة للمعتزلة القدرية) لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن اللَّهِ تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية، لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثم نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين.

---

[1] مسلم: كتاب الحج / باب حجة النبي ﷺ، حديث (١٢١٨).

[2] البخاري: كتاب الوكالة / باب إذا وكالة المرأة الإمام في النكاح، حديث (٢٣١١).

[3] البخاري: كتاب المناقب / باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، حديث (٣٦٤٣).

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أربع آيات، أولها ما جعله ترجمة للباب وهي:

قوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا﴾. ﴿على الله ﴾ متعلقة: بقوله: فتوكلوا ، وتقديم المفعول يدل على الحصر، أي: على الله لا على غيره: ﴿فتوكلوا﴾، أي: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة، لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين، فتكون لتحسين اللفظ، كقوله تعالى: ﴿بل الله فاعبد﴾ والتقدير: ﴿بل الله اعبد﴾.

قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾. ﴿إن﴾: شرطية، وفعل الشرط ﴿كنتم﴾، وجوابه قيل إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق، فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح، لأن الأصل عدم الحذف.

وقول أصحاب موسى في هذه الآية يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريما فأكرم الضيف. فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله، إلا إن حصل اعتماد كلى على غير الله، فهو شرك أكبر ينتفي له الإيمان كله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: من الآية٢)

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون﴾. ﴿إنما﴾: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى: ما المؤمنون إلا هؤلاء.

(ف): قال ابن عباس في الآية: المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيئ من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: " إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم " فأدوا فرائضه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، ووجل القلب من الله مستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه: قال السدى: " الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم" هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

(ق): وذكر الله تعالى في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحدهما: قوله: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾، أي: خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى، مثال ذلك: رجل هم بمعصية، فذكر الله أو ذكر به، وقيل له: اتق الله. فإن كان مؤمنا، فإنه سيخاف، وهذا هو علامة الإيمان.

الوصف الثاني: **قوله:** ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾، أي: تصديقاً وامتثالا، وفي هذا دليل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه كما أمر الرسول ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال:

كيف أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ فقال: (إني أُحب أن أسمعه من غيري) فقرأ عليه من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء: ٤١). قال: (حسبك) فنظرت، فإذا عيناه تذرفان[١]

الوصف الثالث: **قوله:** ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾. أي: يعتمدون على الله لا على غيره، وهم مع ذلك يعملون الأسباب، وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع: **قوله:** ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس: **قوله:** ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾. ﴿من﴾ للتبعيض، فيكون الله يمدح من أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون لبيان الجنس، فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب: أنها لبيان الجنس، وأن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل على الله تعالى في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر[٢]، أما إن كان أهله في حاجة أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله، فلا ينبغي أن ينفق ماله عليه.

(**ف**): **قوله:** " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً " استدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: " إن الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته. وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه ". رواه ابن سعد.

وقال مجاهد: الإيمان يزيد وينقص وهو قول وعمل رواه ابن أبي حاتم.

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

---

[١] البخاري: كتاب فضائل القرآن / باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، حديث (٥٠٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه، حديث (٨٠٠).

[٢] حسن: أبو داود: كتاب الزكاة / باب الرخصة في ذلك (أي: خروج الرجل من ماله)، حديث (١٦٧٨)، والترمذي: حديث (٣٦٧٥)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٤]

(**ق**): **الآية الثالثة:** قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي﴾. المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحيانا، وبوصف الرسالة أحياناً فحينما يأمره أن يبلغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة، فالغالب أن يناديه بوصف النبوة، قال تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ (التحريم: ١)وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ (الطلاق: ١).

و ﴿النبي﴾ فعيل بمعنى مفعل بفتح العين ومفعل بكسرها، أي: منبأ، ومنبئي، فالرسول ﷺ منبأ من قبل الله، ومنبئ لعباد الله.

قوله: ﴿حسبك الله ﴾. أي: كافيك، والحسب: الكافي، ومنه قوله أعطى درهما فحسب، وحسب خبر مقدم، ولفظ الجلالة [الله] مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما الله إلا حسبك، ويجوز العكس، أي: أن تكون حسب مبتدأ ولفظ الجلالة [الله] خبره، ويكون المعنى: ما حسبك إلا الله وهذا هو الأرجح.

(**ف**): قال ابن القيم رحمه الله: أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك: فلا تحتاجون معه إلى أحد، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(**ق**): **قوله:** ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾. ﴿من﴾: اسم موصول مبنية على السكون، وفي عطفها رأيان لأهل العلم: قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين، ف ﴿من﴾ معطوفة على الله لأنه أقرب، ولو كان العطف على الكاف في حسبك، لوجب إعادة الجار، وهذا كقوله تعالى ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ (الأنفال: ٦٢)، فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسبا له كما كان الله حسبا له.

وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولا: قولهم: عطف عليه لكونه أقرب ليس بصحيح، فقد يكون العطف على شيء سابق، حتى أن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانيا: قولهم: لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلازم، كما قال ابن مالك:

ليس عندي لازما إذ قد أتى ... في النثر والنظم الصحيح مثبتا

ثالثا: استدلالهم بقوله تعالى ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾.

فالتأييد لهم غير كونهم حسبه، لأن المعنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعا: أن اللَّه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ (لتوبة: ٥٩) ففرق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى﴿قل حسبي اللَّه عليه يتوكل المؤمنون﴾ (الزمر: ٣٨) فكما أن التوكل على غير اللَّه لا يجوز، فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير اللَّه حسبا، فلو كان، لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو اللَّه، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامسا: أن في **قوله:** ﴿ومن اتبعك﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسبا للرسول ﷺ، وذلك لأنهم تابعون، فكيف يكون التابع حسبا للمتبوع؟ هذا لا يستقيم أبدا، فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: ﴿حسبك﴾، أي: وحسب من أتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعا أنت ومن اتبعك.

(**ف**): **قال ابن القيم رحمه** اللَّه: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه، فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال اللَّه تعالى: ' ٨: ٦٢ ' ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك اللَّه هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ' ٣: ١٧٣ ' ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللَّه ونعم الوكيل﴾ و لم يقولوا: حسبنا اللَّه ورسوله. ونظير هذا قوله سبحانه: ' ٩: ٥٩ ' ﴿وقالوا حسبنا اللَّه سيؤتينا اللَّه من فضله ورسوله إنا إلى اللَّه راغبون﴾.

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول، وجعل الحسب له وحده. فلم يقل: وقالوا حسبنا اللَّه ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال ﴿ إنا إلى اللَّه راغبون ﴾ فجعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى ﴿والى ربك فارغب﴾ فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. انتهى.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة. فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله اللَّه إلى من التفت إليه، كما في الحديث: " من تعلق شيئاً وكل إليه ".

قوله: ﴿ومن يتوكل على ﷲ فهو حسبه﴾ (الطلاق: ٣) الآية.

(**ق**): **الآية الرابعة:** قوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على ﷲ فهو حسبه﴾. جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على ﷲ، فإن ﷲ يكفيه مهماته وييسر له أمره، فالله حسبه ولو حصل بعض الأذية، فإن ﷲ يكفيه الأذى، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذى ولا تحصل له المضرة، لأن ﷲ حسبه، فالنتيجة لمن اعتمد على ﷲ أن يكفيه ربه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير ﷲ خذل، لأن غير ﷲ لا يكون حسبا كما تقدم، فمن توكل على غير ﷲ تخلى ﷲ عنه، وصار موكولا إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن ﷲ بمقدار توكله على غير ﷲ.

(**ف**): قال ابن القيم رحمه ﷲ وغيره: أي كافيه. ومن كان ﷲ كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه. قال بعض السلف: جعل ﷲ لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: " ومن يتوكل على ﷲ فهو حسبه " فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه. فلو توكل العبد على ﷲ حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل ﷲ له مخرجاً وكفاه رزقه ونصره. انتهى.

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: " قال ﷲ ﷻ في بعض كتبه: بعزتي إنه من اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه. كفى بي لعبدي مآلاً. إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني.فأنا أعلم بحاجته التي نرفق به منه ".

وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار. لأن ﷲ تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى وتعليق الجزاء على الشرط. فيمتنع أن يكون وجود الشرك كعدمه، لأن ﷲ تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون ﷲ حسباً له.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوكل، كما قال تعالى: ' ٥: ١١ ' ﴿واتقوا ﷲ وعلى ﷲ فليتوكل المؤمنون﴾ فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام الأسباب

المأمور بها. فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه.

وعن ابن عباس، قال: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها a ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣). رواه البخاري [1].

(ق): قوله في أثر ابن عباس رضي الله عنهما: " قالها a ﷺ حين قالوا له: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾.

وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أُحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبا فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا نذهب إلى المدينة. فقال: بلغوا محمدا وأصحابه أنّا راجعون إليهم فقاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرجوا في نحو سبعين راكبا، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين، حيث اعتمدوا عليه تعالى.

قوله: ﴿قال لهم الناس﴾. أي: الركب.

قوله: ﴿إن الناس﴾. أي: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذي أُريد به الخصوص.

قوله: ﴿حسبنا﴾. أي: كافينا، وهي مبتدأ ولفظ الجلالة خبره.

قوله: ﴿نعم الوكيل﴾. ﴿نعم﴾: فعل ماضي، ﴿الوكيل﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو، أي: الله، والوكيل: المعتمد عليه سبحانه، والله – سبحانه –يطلق عليه اسم وكيل، وهو أيضا مُوكّل، والوكيل في مثل قوله تعالى: ﴿نعم الوكيل﴾، وقوله تعالى: ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ (النساء: ٨١)، وأما الموكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ (الأنعام: ٨٩).

---

[1] البخاري: كتاب التفسير / باب (الذين قال لهم الناس...) الآية، حديث (٤٥٦٣).

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه، فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون.

(**ف**): **قال ابن القيم رحمه الله**: هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع.

(**ق**): وقول ابن العباس رضي الله عنهما: " إن إبراهيم قالها حين أُلقى في النار " قول لا مجال للرأي فيه، فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل، فيحتمل أنه أخذه منه، ولكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ حيث جعلوا حسبهم الله وحده.

(تنبيه): قولنا: "وابن عباس ممن يروى عن بني إسرائيل"قول مشهور عند علماء المصطلح، لكن فيه نظر، فإن ابن عباس رضي الله عنهما ممن ينكر الأخذ عن بني إسرائيل، ففي (صحيح البخاري) (٢٩١/٥ - فتح) أنه قال (يا معشر المسلمين ! كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أُنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب؟!فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أُنزل عليكم ".

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها .

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم في الشدائد .

فيه مسائل:

الأولى: **أن التوكل من الفرائض**.ووجهه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾، سبق تفسيرها.

الثانية: **أنه من شروط الإيمان**. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾. وسبق تفسيرها.

الثالثة: **تفسير آية الأنفال** وهي قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...﴾ والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا، فالإنسان يكون مؤمنا وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: **تفسير الآية في آخرها، أي: آخر الأنفال**. وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا الراجح على ما سبق.

الخامسة: **تفسير آية الطلاق**. وهي قوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وقد سبق تفسيرها.

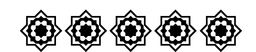
السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد. يعني قول: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

وفي الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف، منها:

زيادة الإيمان، لقوله تعالى: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب، لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم فوّضُوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبي ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد.



باب قوله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

(الأعراف: ٩٩).

(**تم**): هذا باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩) وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: من الآية٥٦)ک

هذا الباب عقده المؤلف للآيتين جميعا لاتصالهما، والمراد بهذا الباب بيان أن الجمع بين الخوف والرجاء واجب من واجبات الإيمان، ولا يتم التوحيد إلا بذلك، فعدم الجمع بين الخوف والرجاء منافٍ لكمال التوحيد.

فالواجب على العبد أن يجعل خوفه مع الرجاء، وأن يجعل رجاءه مع الخوف، وأن لا يأمن المكر، كما لا يقنط من رحمة الله -جل وعلا-.

(**ق**): **هذا الباب اشتمل على موضوعين:**

الأول: الأمن من مكر الله.

والثاني: القنوط من رحمة الله، وكلاهما طرفا نقيض.

واستدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿أفأمنوا﴾.

الضمير يعود على أهل القرى، لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ۞ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم باسنا ضحى وهم يلعبون ۞ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (الأعراف: ٩٧- ٩٩).

فقوله: ﴿وهم نائمون﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿ضحى وهم يلعبون﴾ يدل على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق، لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم، فهم في الليل نوم، وفي النهار لعب، فبين الله - ﷻ - أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿أفأمنوا مكر الله ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾، فالذي يمن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عرى، فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر، لأن هذا من مكر الله بك.

قوله: ﴿إلا القوم الخاسرون﴾. الاستثناء للحصر، وذلك لان ما قبله مفرغ له، فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله ﴾ دليل على أن لله مكرا، والمكر هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث(الحرب خدعة)[1]

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول أن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحا، مثل قوله تعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله ﴾ (الأنفال: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون﴾ (النمل: ٥٠) ومثل قوله تعالى ﴿أفأمنوا مكر الله ﴾ (الأعراف: ٩٩) ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام التي تكون مدحا يوصف بها وفي المقام التي لا تكون مدحا لا يوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله بها، فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة، فلا يوصف الله بها مطلقا لأنها ذم بكل حال، إذ أنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ (الأنفال: من الآية٧١) و لم يقل: فخانهم.

وأما الخداع، فهو كالمكر يوصف به الله حيث يكون مدحا، لقوله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ (النساء: ١٤٢)، والمكر من الصفات الفعلية، لأنها تتعلق بمشيئة الله – سبحانه –.

(ف): قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب. وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بين أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، كما قال تعالى: ' ٧: ٩٦ – ٩٨ ' ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ۞ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ۞ أفأمنوا

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب الحرب خدعة، حديث (٣٠٢٨)، ومسلم: كتاب الجهاد / باب جواز الخداع في الحرب، حديث (١٧٤٠).

مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾. أي الهالكون. وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً.

قال الحسن رحمه الله: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم ونعمتهم وغرتهم. فلا تغتروا بالله.

وفي الحديث: " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج "[1] رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: "من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة " رواه ابن أبي حاتم.

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه.

(ق): ويستفاد من هذه الآية:

الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجا، لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم، فأعلم أن هذا من مكر الله.

تحريم الأمن من مكر الله، **وذلك لوجهين:**

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فلا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦)

الموضوع الثاني مما اشتمل عليه هذا الباب القنوط من رحمة الله.واستدل المؤلف له بقوله تعالى: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه﴾.

﴿من﴾ اسم استفهام، لأن الفعل بعدها مرفوع، ثم إنها لم يكن لها جواب، والقنوط: أشد اليأس، لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل، بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

قوله: ﴿من رحمة ربه﴾، هذه رحمة مضافة إلى الفاعل، ومفعولها محذوف، والتقدير(من رحمة ربه إياه).

---

[1] صحيح: أخرجه أحمد (١٤٥/٤)، وابن جرير في تفسيره (١١٥/٧)وحسنه العراقي في تخريج الاحياء (١٣٢/٤) وصححه الألباني في الصحيحة(٤١٣).

قوله: ﴿إلا الضالون﴾، إلا أداة حصر، لأن الاستفهام في قوله: ﴿ومن يقنط﴾ مراد به النفي، و﴿الضالون﴾ فاعل يقنط.

والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، والضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله تعالى، مع أنه سبحانه قريب الغير، ولهذا جاء في الحديث: (عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب)[1].

وأما معنى الآية، فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بغلام عليم قال لهم ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ۝ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٤- ٥٦).

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز، لأنه سوء ظن بالله – عز وجل –، **وذلك من وجهين:**

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه، لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئا على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه، لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله – سبحانه –، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالا.

ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها، فنجاه الله – سبحانه –: إما بعمل صالح سابق مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فلو لا أنه كان من المسبحين ۝ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٤) أو بعمل لاحق، وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر[2] وليلة الأحزاب[3] وكذلك أصحاب الغار[4].

وتبين مما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان في سيره إلى الله تعالى بين الخوف فلا يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته، فالأمن من مكر الله ثلم في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثلم في جانب الرجاء.

---

[1] ضعيف: الإمام احمد في مسنده (٤/ ١١، ١٢) وابن ماجه (المقدمة، ١/٦٤)، وابن عاصم في (السنة) (٥٤٤) والآجري في (الشريعة). قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (حديث حسن) (الواسطية، ص ١٣). وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجة. والظلال (٤٥٤).

[2] البخاري: كتاب المغازي / باب قوله تعالى (إذا تستغيثون...)، حديث (٢٩٥٣)، ومسلم: كتاب الجهاد / باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، حديث (١٧٦٣).

[3] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، حديث (٢٩٣٣)، ومسلم: كتاب الجهاد / باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر، حديث (١٧٤٢).

[4] البخاري: كتاب البيوع / باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي، حديث (٢٢١٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار / باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، حديث (٢٧٤٣).

وعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال:

(الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله)[1].

(**ف**): **قوله:** وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ " سئل عن الكبائر، فقال: الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله ".

هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. ولينه أبو حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفاً.

(**ق**): **قوله:** في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر). جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١) قال تعالى﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ (النجم: ٣٢) والكبائر ليست على درجة واحدة، فبعضها اكبر من بعض.

واختلف العلماء هل هي معدودة أو محدودة؟

فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: (كل ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه) وهذا واسع جدا يشمل ذنوبا كثيرة.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:

قسم نهى عنه فقط و لم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات، كقوله ﷺ (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[2] وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة[1]، والوضوء من تكفير الخطايا[2]، فهذه من الصغائر.

---

[1] البزار، كما في (كشف الأستار) (١٠٦)، والبيهقي في شعب الايمان (٢٧١/١) حديث (٢٩١)، وابن أبي حاتم في (التفسير) كما في (الدر المنثور)(١٤٨/٢)، وقال: (إسناده حسن).وقال الهيثمي (١٠٤/١) رواه البزار والطبراني، ورجاله موثوقون.

[2] مسلم: كتاب الطهارة / باب الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة... حديث (٢٣٣).

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة، كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: (الشرك بالله). ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر، لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا)[٣]، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقا.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

(**ف**): قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله هضم للربوبية وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى.

ولقد صدق ونصح. قال تعالى: ' ٦: ١ ' ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ وقال تعالى: ' ٣١: ١٣ ' ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

(**ق**): **قوله:** (اليأس من روح الله). اليأس: فقد الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: (الأمن من مكر الله). بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ۝وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨٢و ١٨٣).

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك: لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله، فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية.

(**ف**): واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثير وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أو نفي الإيمان.

---

[١] البخاري: كتاب الحج / باب وجوب العمرة وفضلها، حديث (١٧٧٣)، ومسلم: كتاب الحج / باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، حديث (١٣٤٩).

[٢] البخاري: كتاب الوضوء / باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، حديث (١٦٠)، ومسلم: كتاب الطهارة / باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، حديث (٢٢٩).

[٣] سبق تخريجه.

قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ، أو قال: " ليس منا من فعل كذا وكذا ".
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الإستغفار ولا صغيرة مع الإصرار

قوله: وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " أكبر الكبائر الإشراك بالله. والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله " رواه عبد الرزاق.
ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وعن ابن مسعود، قال:

(أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله)[1]

رواه عبد الرزاق

(**ق**): قوله في أثر ابن مسعود: (الإشراك بالله): هذا أكبر الكبائر، لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذي أوجدك وأعدك وأمدك، فلا أحد أكبر عليك نعمة من الله تعالى.

قوله: (الأمن من مكر الله). سبق شرحه.

قوله: (القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله). المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك، لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أُصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب، تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله، فتجد الإنسان مقيما على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله فلا شك أن هذا استدراج.

---

[1] عبد الرزاق في (المصنف)(١٠/ ٤٥٩)، وابن جرير (٥/٢٦)، والطبراني في (الكبير) (٨٧٨٣).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف. وهي قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩). وقد سبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية الحجر. وهي قوله تعالى ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾، وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله. وذلك بأنه من أكبر الكبائر، كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

الرابعة: شدة الوعيد من القنوط. تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.



باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

(**تم**): (**باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار** الله) الصبر من المقامات العظيمة والعبادات الجليلة التي تكون في القلب وفي اللسان وفي الجوارح، وحقيقة العبودية لا تثبت إلا بالصبر؛ لأن العبادة أمر شرعي أو نهي شرعي أو ابتلاء بأن يصيب الله العبد بمصيبة قدرية فيصبر عليها.

فحقيقة العبادة أن يمتثل الأمر الشرعي، وأن يجتنب النهي الشرعي، وأن يصبر على المصائب القدرية التي ابتلى الله -جل وعلا- العباد بها؛ فالابتلاء حاصل بالدين، وحاصل بالأقدار، فبالدين كما قال -جل وعلا- لنبيه ﷺ في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ (قال الله تعالى: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك)[1]. فحقيقة بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- الابتلاء، والابتلاء يجب معه الصبر، والابتلاء الحاصل ببعثته بالأوامر والنواهي.

فالواجبات تحتاج إلى صبر، والمنهيات تحتاج إلى صبر، والأقدار الكونية تحتاج إلى صبر،... ولما كان الصبر على المصائب قليلا، أفرد له الشيخ -رحمه الله- تعالى هذا الباب لبيان أنه من كمال التوحيد، ومن الواجب على العبد أن يصبر على أقدار الله؛ لأن تسخط العباد وعدم صبرهم، كثيرا ما يظهر في حال الابتلاء بالمصائب، فعقد هذا الباب لبيان أن الصبر واجب على أقدار الله المؤلمة، ونبه بذلك على أن الصبر على الطاعة واجب، وأن الصبر عن المعصية واجب.

(**ف**): قال الإمام أحمد: ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من كتابه. وفي الحديث الصحيح: " الصبر ضياء " رواه أحمد ومسلم، وللبخاري ومسلم مرفوعاً: " ما أعطى أحد عطاء خيراً أوسع من الصبر " قال عمر رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر رواه البخاري. قال علي رضي الله عنه: " إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد – ثم رفع صوته – فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له ".

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع. والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما ذكره ابن القيم رحمه الله.

(**ق**): (الصبر). في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: (قتل صبرا)، أي: محبوسا مأسورا.

وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء، **وهو ثلاثة أقسام**:

الأول: الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: من الآية١٣٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ۝ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (الإنسان: ٢٣-

---

[1] مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٦٢/٤).

٢٤)، وهذا من الصبر على الأوامر، لأنه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه، فيكون مأمورا بالصبر على الطاعة وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الكهف: ٢٨). وهذا صبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله، كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكانة لها فيها العزة والقوة والسلطان عليه، ومع ذلك صبر وقال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣). فهذا صبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ (الإنسان: ٢٤) فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ (الأحقاف: ٣٥) لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: (مرها، فلتصبر ولتحتسب)[1]. إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فتن الإنسان مثلا بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة، فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، وقد يصلى الإنسان مائة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة، فقد يموت له مثلا قريب أو صديق أو عزيز عليه جدا، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر، إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى، لأنه يتضمن إلزاما وفعلا، فتلزم نفسك الصلاة فتصلى، والصوم فتصوم، والحج فتحج... فيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر على المعصية لأن فيه كفًّا فقط، أي: إلزاما للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار، فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلا ولا تركا، وإنما هو من قدر الله المحض.

---

[1] البخاري: كتاب الجنائز / باب قول النبي ﷺ: (يعذب الميت ببعض بكاء أهله)، حديث (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز / باب البكاء على الميت، حديث (٩٢٣).

وخص المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله، لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية، لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: (على أقدار الله). جمع قدر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدر، فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور، فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به، لأنه من تمام الرضا بالله ربا. وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة، فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد تكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة، فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله، فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ـمقضي حين يكون بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل بمعصية، فعليه الرضا لأن الله هو الذي قدر هذا، وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله، فلا يجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن: ١١)

(**ف**): وأول الآية: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الأخرى: ' ٥٧: ٢٢ ' ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال: ' ٢: ١٥٤ ' ﴿ وبشر الصابرين ۞ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ۞ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾.

(**ق**): قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله﴾. ﴿من﴾: اسم شرط جازم، فعل الشرط ﴿يؤمن﴾، وجوابه ﴿يهد﴾، والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره.

قوله: ﴿يهد قلبه﴾. يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح، لقوله ﷺ: (إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

(**ف**): قال ابن عباس في **قوله:** " إلا بإذن الله " إلا بأمر الله يعني عن قدره ومشيئته " ومن يؤمن بالله يهد قلبه " أي من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقيناً صادقاً. وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.

قوله: " والله بكل شيء عليم " تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو قيس بن عبد الله النخعي الكوفي. ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم. وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين.

قوله: هو الرجل تصيبه المصيبة إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان. قال: كنا عند علقمة فقرىء عليه هذه الآية: " ومن يؤمن بالله يهد قلبه " قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. هذا سياق ابن جرير.

(**ق**): وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان، لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

(**ف**): وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان. قال سعيد بن جبير: " ومن يؤمن بالله يهد قلبه " يعني يسترجع. يقول إنا لله وإنا إليه راجعون. وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب وأنها من ثواب الصابرين.

[1] البخاري: كتاب الإيمان / باب فضل من أستبرأ لدينه، حديث (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة / باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث (١٥٩٩).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

[اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت][1].

أي هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علماً وإيماناً يستضيء به. لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق. كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق. وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله: " ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة " وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: الطعن في النسب أي عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: والنياحة على الميت أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك. وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

(ق): وهذه الجملة هي الشاهد للباب. والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: السخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه، ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدي إلى الكفر، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج: ١١) وقد يكون باللسان، كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح، كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة، لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر، أينما يترل به القضاء والقدر فهو نازل به

[1] مسلم: كتاب الايمان / باب اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة حديث (٦٧)، والترمذي، حديث (١٠٠١).

على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أُصيب بضدها، فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت، بل لتمام رضاه بربه -سبحانه وتعالى- يتقلب في تصرفات الرب -عز وجل- ولكنها عنده سواء، إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر ﷲ على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون في عباد ﷲ الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر ﷲ على ذلك، قال النبي ﷺ: (ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفر له بها، حتى الشوكة يشاكها) [1].

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا: (ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)[2].

(**ف**): هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

(**ق**): **قوله:** (من ضرب الخدود). العموم يراد به الخصوص، أي: من أجل المصيبة.

(**ف**): وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قوله: وشق الجيوب هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت.

(**ق**): وذلك عند المصيبة تسخطا وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية). دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية)، لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة، لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: وا ويلاه ! وا انقطاع ظهراه !

---

[1] البخاري: كتاب المرضى / باب ما جاء في كفارة المرض، حديث (٥٦٤٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة / باب ثواب المؤمن، حديث (٢٥٧٢)، وأحمد (٢/٣٠٣)، حديث (٨٠١٤).

[2] البخاري: كتاب الجنائز / باب ليس منا من شق الجيوب، حديث (١٢٩٤)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، حديث (١٠٣).

والأولى أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه، فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

(ف): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هو ندب الميت. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم رحمه الله: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بضع، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

(ق): وذكر هذا الأصناف الثلاثة، لأنها غالبا ما تكون عند المصائب، وإلا فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وهذه الثلاثة من الكبائر، لأن النبي ﷺ تبرا من فاعلها.

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية، مثل: ضرب الأب لأبنه، لكن يكره الضرب على الوجه للنهي عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة.

(ف): وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: " أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور "[1].

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عنه الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً وليس على وجه النوح والتسخط نص عليه أحمد رحمه الله، لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما لما توفي رسول الله ﷺ.

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء، لما في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم قال: " تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون " وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنه: " أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرفع إليه ونفسه تقعقع كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ".

[1] حسن:ابن ماجة: كتاب الجنائز (١٥٨٥) ،باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود وشق الجيوب وابن حبان (٧٣٧)وصححه البوصيري في الزوائد ،وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٦٨).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّهُ ﷺ قال: [إذا أراد اللَّهُ بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة][1]

(**ف**): هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم وحسنه الترمذي. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد اللَّهُ بن مغفل ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

(**ق**): اللَّهُ يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشر المراد لله تعالى ليس مرادا لذاته بدليل قول النبي ﷺ: (والشر ليس إليك)[2] ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن اللَّهُ يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيرا باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: (عجل له بالعقوبة في الدنيا). العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك، لأنها تعقب الذنب، لكنها لا تقال إلا في المؤاخذة على الشر.

وقوله: (عجل له العقوبة في الدنيا). كان ذلك خيرا من تأخيرها للآخرة، لأنه يزول وينتهي، ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[3]

وهناك خير أولى من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى، لأن اللَّهُ إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة، فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيرا باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد، كما قال تعالى ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ (طه: ١٢٧).

والعقوبة أنواع كثيرة:

منها: ما يتعلق بالدين، وهي أشدها لأن العقوبات الحسية قد ينتبه لها الإنسان، أما هذه، فلا ينتبه لها إلا من وفقه اللَّهُ، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات اللَّهُ، وعدم القيام بها بالأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وكل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فأعلم أنما يريد اللَّهُ أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ (المائدة: ٤٩)

---

[1] صحيح بمجموع طرقه: الترمذي: كتاب الزهد / باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٦)، والحاكم في (المستدرك)(٦٥١/٤)، والبيهقي في (السماء والصفات) (١٥٤)، والبغوي في (شرح السنة) (٢٤٥/٥)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٢٢٠) بمجموع طرقه. ذكره أيضاً في صحيح الجامع (٣٠٨) عن أربعة من الصحابة رضي اللَّهُ عنهم أجمعين.

[2] مسلم: كتاب المسافرين وقصرها/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث (٧٧١)، وأبو داود حديث (٧٦٠)، والترمذي حديث (٣٤٢٢)، وأحمد (١٠٢/١) حديث (٨٠٣).

[3] مسلم: كتاب: اللعان، حديث (١٤٩٣)، والترمذي كتاب الطلاق /باب ما جاء في اللعان، حديث (١٢٠٢).

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل، كفقداهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

(ف): **قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى**: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة. فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا. وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب ﷻ ورحمة للخلق والله تعالى محمود عليها، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ' ٢: ١٥٦ ' ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصاً.

قوله: وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه، أي أخر عنه العقوبة بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بـ(حتى) مبنياً للفاعل. قال العزيزي: أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفى ما يستحقه من العقاب. وهذه الجملة هي آخر الحديث. فأما قوله: وقال النبي ﷺ " إن عظم الجزاء مع عظم البلاء " إلى آخره فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ' ٢: ٢١٦' ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾.

(ق): **وسمي بيوم القيامة لثلاثة أسباب:**

١. قيام الناس من قبورهم لقوله تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ (المطففين: ٦)

٢.قيام الأشهاد، لقوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (غافر: ٥١).

٣. قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ (الأنبياء: ٤٧).

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أُصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك يكون خيرا، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد ﷲ أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحدا لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة، فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطئ أن يقول: أنا لم أُخطيء، فهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحدا لم يصب ذنبا وأصيب بمصيبة، فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنبا تكفره لكنها تلاقي قلبا تمحصه، فيبتلى ﷲ الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أم لا؟ ولهذا كان أخشى الناس لله -عَجَلّ- وأتقاهم a ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان منا[1] وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبد الرحمن ابن أبي بكر وهو يستاك، فأمده بصره (يعني: ينظر إليه) فعرفت عائشة رضي ﷲ عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم، فأخذت السواك وقضمته وألانته للرسول ﷺ، فأعطته إياه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استنانا أحسن منه، ثم رفع يده قال: (في الرفيق الأعلى)[2].

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله وصبر في ﷲ حتى نال أعلى الدرجات.

فمن أصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه، فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه به، فليحذر هذا.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١. أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيرا لسيئاته وتعجيلا للعقوبة في الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.
٢. قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

---

[1] البخاري: كتاب المرضى/باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، حديث (٥٦٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة /باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، حديث (٢٥٧١).

[2] البخاري: كتاب المغازي /باب مرض النبي ﷺ ووفاته، حديث (٤٤٣٨)، ومسلم: كتاب السلام / باب استحباب رقية المريض، حديث (٢١٩١).

وقال النبي ﷺ: (إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وإنَّ الله تعالى إذَا أحَبَّ قَوماً ابتَلاهُم، فَمَن رَضِيَ؛ فَلَهُ الرِّضا، ومَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ). حَسَّنَه التِّرمِذِي [1]

(ف): قال الترمذي: حدثنا قتيبة ثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس، فذكر الحديث السابق ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: " إن عظم الجزاء... " الحديث. ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: " إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع "[2] قال المنذري: رواته ثقات.

(ق): **قوله:** (وقال النبي ﷺ: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء). وهذا حديث رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ - فَصَحابيُّه صحابي الحديث الذي قبله.

قوله: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء). أي: يتقابل عظم الجزاء مع عظم البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم، لأن الله عدل لا يجزى المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحدا، وفيه تسلية المصاب.

(ف): وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار. فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ولهذا ورد في حديث سعد: " سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة " رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

---

[1] الترمذي: كتاب الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء، حديث (٢٣٩٦)، وابن ماجة: كتاب الفتن/ باب الصبر على البلاء، حديث (٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

[2] صحيح:أخرجه أحمد (٤٢٧/٥، ٤٢٩) المنذري في الترغيب (٢٨٣/٤) والهيثمي في المجمع (٢٩١/٢) والحافظ(١٠٨/١٠)"رواته ثقات" وصححه الألباني في صحيح الجامع(٢٨٢).

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا اللَّه، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الإبتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

(**ق**): كذلك من الابتلاء الصبر على محارم اللَّه، كما في الحديث (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف اللَّه)[1]، فهذا جزاؤه أن اللَّه يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قوله: (فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فله السخط).(من): شرطية، والجواب: (فله الرضا)، أي: فله الرضا من اللَّه، وإذا رضي اللَّه عن شخص أرضى الناس عنه جميعا، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء اللَّه من حيث إنه قضاء اللَّه، وهذا واجب بدليل قوله: (ومن سخط) فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

و لم يقل هنا (فعليه السخط) مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ (فصلت: ٤٦).

فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على، كقوله تعالى: ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ (الرعد: ٢٥)، أي: عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام على ما هي عليه، فتكون للاستحقاق، أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من (على)، كقوله تعالى: ﴿أولئك لهم اللعنة﴾، أي حقت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح.

ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله – عَزَّ وَجَلَّ –، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة اللَّه تعالى، لأن (إذا) في قوله: (إذا أحب قوما) للمستقبل، فالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا، فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوبا إلى اللَّه وفي آخر مبغضا إلى اللَّه، لأن الحكم يدور مع علته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل اللَّه يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيؤولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا لأن إثبات هذه الصفات يقتضي النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله – عَزَّ وَجَلَّ – على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل.

---

[1] البخاري: كتاب الأذان/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، حديث (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة / باب إخفاء الصدقة حديث (١٠٣١).

ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران:

١. إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢. الحذر من التمثيل أو التكييف.

(**ف**): **قوله:** ومن سخط وهو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط، أي من الله، وكفى بذلك عقوبة. وقد يستدل به على وجوب الرضا وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام:ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه. قال: وأما ما يروى (من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سوائي)[1] فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها. أ.هـ. والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد .

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضي بالبلاء .

---

[1] ضعيف: أخرجه البيهقي في الشعب (١/١٤٩، ١٥٠) من حدث أنس ﷺ باسناد ضعيف ورواه ابن حبان في المجروحين (١/٣٢٧) والطبراني في الكبير (٢٢/٣٢) عن أبي هند الداري وضعفه ابن حبان وقال العراقي (كما فيض القدير (٤/٤٧٠) اسناده ضعيف جداً)وراجع النهج السديد (٤١٠).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن. وهي قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسير مناسبا للباب.

الثانية: أن هذا من الإيمان. المشار إليه بقوله: (هذا) هو الصبر على أقدار الله.

الثالثة: الطعن في النسب. وهو عيبه أو نفيه، وهو من الكفر، لكنه لا يخرج من الملة.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية. لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير. وهو أن يعجل له العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر. أي إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد، وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط.يعني: مما به العبد، لقوله ﷺ (ومن سخط، فله السخط)، وهذا وعيد.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء. وهو رضا الله عن العبد، لقوله ﷺ: (من رضي، فله الرضى).



باب ما جاء في الرياء

(**ف**): **قال المصنف رحمه الله تعالى**: (باب: ما جاء في الرياء): أي من النهي والتحذير.

(**ق**): المؤلف رحمه الله تعالى أطلق الترجمة، فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء في.

(**ف**): **قال الحافظ**: هو مشتق من الرؤية. والمراد بها إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة. والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

(**تم**): هذا " باب ما جاء في الرياء " يعني : من الوعيد ، وأنه شرك بالله – جل وعلا – .
والرياء حقيقته من الرؤية البصرية ، وذلك بأن يعمل عمل العبادة لكي يرى أنه يعمل العمل الذي هو من العبادة ، إما صلاة ، أو تلاوة ، أو ذكر ، أو صدقة ، أو حج ، أو جهاد ، أو امتثال أمر ، أو اجتناب نهي ، ونحو ذلك ، لا لطلب ما عند الله ، ولكن لأجل أن يراه الناس على ذلك ، فيثنوا عليه به . هذا هو الرياء ، وقد يكون الرياء في أصل الإسلام كرياء المنافقين ، فالرياء على درجتين :
الدرجة الأولى : رياء المنافقين ، بأن يظهر الإسلام ويبطن الكفر لأجل رؤية الخلق ، وهذا مناف للتوحيد من أصله وكفر أكبر بالله – جل جلاله – ؛ ولهذا وصف الله المنافقين بقوله : ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء : ١٤٢] . فقوله : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ . يعني : الرياء الأكبر الذي هو إظهار أصل الإسلام وشعب الإسلام ، وإبطان الكفر وشعب الكفر .
والنوع الثاني من الرياء : أن يكون الرجل مسلما أو المرأة مسلمة ، ولكن يرائي بعمله أو ببعض عمله ، فهذا شرك خفي وذلك الشرك مناف لكمال التوحيد ، والله – جل وعلا – . قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] على قول من قال : إن قوله : ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ يدخل فيه الشرك الخفي والأصغر .
" باب ما جاء في الرياء ، وقول الله تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] ، قوله . ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هذا نهي عن الإشراك ، والنهي هنا عام لجميع أنواع الشرك ومنها شرك الرياء ، ؛ ولهذا يستدل السلف بهذه الآية على مسائل الرياء ، كما أوردها الإمام – رحمه الله تعالى – هنا ؛ لأنه . قال : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

يعني : بما يشمل ترك المراءاة ، فإن الرياء شرك ، وقوله :﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ هذا عموم يعم أنواع الشرك جميعا ؛ لأن ﴿يُشْرِكْ﴾ نكرة جاءت في سياق النهي ، فعمت أنواع الشرك .

وقوله : ﴿ أَحَدًا ﴾ يعم جميع الخلق بمراءاة أو بتسميع أو بغير ذلك ، فدلالة الآية على الباب ظاهرة ، وأن المراءاة نوع من الشرك الأصغر ، وضرب من الشرك الخفي ، ؛ لأننا نقول : الرياء شرك أصغر باعتبار أنه ليس بأكبر ، ولا مخرج من الملة ، وتارة نقول : الرياء شرك خفي ؛ لأنه ليس بظاهر وإنما هو باطن خفي في قلب العبد ؛ ولهذا تجد أن كثيرين من أهل العلم يعبرون عن الشرك الأصغر بيسير الرياء ، وتارة يعبرون عن الشرك الخفي بالرياء ؛ ذلك لأن الشرك يختلف من حيث الإطلاق – كما سبق – من عالم إلى آخر ، فتارة يقسمون الشرك إلى أكبر وأصغر ، ومنهم من يقسمه إلى أكبر وأصغر وخفي ، وكل له اصطلاحه ، وكل الأقوال صواب .

" عن أبي هريرة مرفوعا ، « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »[1]: هذا الحديث يدل على أن الرياء مردود على صاحبه ، وأن الله – جل وعلا – لا يقبل العمل الذي خالطه الرياء ، والعلماء فصلوا في ذلك فقالوا : الرياء – إذا عرض للعبادة – له أحوال :

الحالة الأولى : أن يعرض للعبادة من أولها ، فإذا عرض للعبادة من أولها فإن العبادة كلها باطلة ، كأن ينشئ الصلاة لنظر فلان ، فهو لم يرد أن يصلي ، لكن لما رأى فلانا ينظر إليه صلى ، فهذا عمله حابط ، يعني أن الصلاة التي صلاها حابطة وهو مأزور على مراءاته ومرتكب الشرك الخفي ، الشرك الأصغر .

والحال الثانية : أن يكون أصل العبادة لله ، ولكن خلط ذلك العابد عمله رياء ، كمن أطال الركوع وأكثر التسبيح وأطال القراءة والقيام لأجل من يراه ، فأصل العبادة – والتي كانت لله – له ، وما عدا ذلك فهو حابط ؛ لأنه راءى في الزيادة على الواجب فيحبط ذلك الزائد وهو إثم عليه ، لا يؤجر عليه ولا ينتفع منه ، ويؤزر على إشراكه وعلى مراءاته في العبادات البدنية . أما العبادات المالية فيختلف الحال عن ذلك.

(**ق**): **تعريف الرياء**: مصدر راءي يرائي، أي عمل عملا ليراه الناس، ويقال مراءاة كما يقال: جاهد جهادا ومجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع، وفي حديث النبي ﷺ، أنه قال: (من راءي راءى الله به، ومن سمع سمع الله به)[2]، والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ الله إلَّا قَلِيلاً﴾ (النساء: من الآية١٤٢).

---

[1] أخرجه مسلم (٢٩٨٥)

[2] البخاري: كتاب الرقاق / باب الرياء والسمع، حديث (٦٤٩٩)، ومسلم: كتاب الزهد /باب تحريم الرياء، حديث (٢٩٨٧).

والرياء يبحث في مقامين:

المقام الأول: في حكمه.

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر، لان الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر، فقال: (مثل يسير الرياء)، وهذا يدل على أن الرياء كثير قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثاني: في حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على **ثلاثة أوجه**:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلى من أجل مراءاة الناس و لم يقصد وجه الله، فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثاني: أن يكون مشاركا للعبادة في أثنائها، بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة.

فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها على أولها، فأولها صحيح بكل حال، وباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصا وراءى في الخمسين الباقية، فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها، فهي على حالين:

١. أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه، فإنه لا يؤثر عليه شيئا، لقول النبي ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)[١].

مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصا لله، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه، فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئا.

٢. أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه، فحينئذ تبطل جميع العبادة، لأن آخرها مبني على أولها ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصا لله، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه، فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض[٢].

---

[١] البخاري: كتاب الطلاق / باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، حديث (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب تجاوز الله عن عن حديث النفس والخواطر بالقلب، حديث (١٢٧).

[٢] قال الشيخ صالح آل الشيخ (حفظه الله) في كتابه التمهيد لشرح كتاب التوحيد – (باب ما جاء في الرياء / ص ٤٠٠–٤٠١) في شرحه لحديث أبي هريرة مرفوعا ، « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »:

[هذا الحديث يدل على أن الرياء مردود على صاحبه ، وأن الله – جل وعلا – لا يقبل العمل الذي خالطه الرياء ، والعلماء فصلوا في ذلك فقالوا: الرياء – إذا عرض للعبادة– له أحوال:

الحالة الأولى: أن يعرض للعبادة من أولها ، فإذا عرض للعبادة من أولها فإن العبادة كلها باطلة ، كأن ينشئ الصلاة لنظر فلان ، فهو لم يرد أن يصلي ، لكن لما رأى فلانا ينظر إليه صلى ، فهذا عمله حابط ، يعني أن الصلاة التي صلاها حابطة وهو مأزور على مراءاته ومرتكب الشرك الخفي ، الشرك الأصغر .

والحال الثانية: أن يكون أصل العبادة لله ، ولكن خلط ذلك العابد عمله رياء ، كمن أطال الركوع وأكثر التسبيح وأطال القراءة والقيام لأجل من يراه ، **فأصل العبادة – والتي كانت لله – له ، وما عدا ذلك فهو حابط** ؛ لأنه راءى في الزيادة على الواجب فيحبط ذلك الزائد وهو إثم عليه، لا يؤجر عليه ولا ينتفع منه ، ويؤزر على إشراكه وعلى مراءاته في العبادات البدنية . أما العبادات المالية فيختلف الحال عن ذلك]. أ.هـ.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة، فإنه لا يؤثر عليها شيئا، اللهم إلا إن يكون فيه عدوان، كالمن والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلا لأجر الصدقة فيبطلها، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ (البقرة: ٢٦٤).

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة. وليس من الرياء أيضا أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبي ﷺ: (من سرته حسناته وساءته سيئاته، فذلك المؤمن)[1] وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[2]

وقول اللَّهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠]

قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾. يأمر اللَّهِ نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربا ولا ملكا، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مثلكم﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية.

قوله: ﴿يوحى إلي﴾. الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ (مريم: ١١).

وفي الشرع: إعلام اللَّهِ بالشرع.

والوحي: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ، فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾. هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل ﴿يوحى﴾، وفيها حصر طريقه ﴿أنما﴾، فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو اللَّهِ، فإذا ثبت ذلك، فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه، ولذلك قال اللَّهِ تعالى بعد ذلك ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف: ١١٠).

فقوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمل أن يلقى ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة، **لأن اللقيا على نوعين:**

---

[1] الإمام احمد في (المسند) (١/١٨، ٢٦)، والترمذي: كتاب الفتن/باب ما جاء في لزوم الجماعة، حديث (٢١٦٥)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٤) والصحيحة (٥٥٠).

[2] مسلم: كتاب البر والصلة / باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، حديث (٢٦٤٢)، وابن ماجة، حديث (٤٢٢٥).

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى ﴿يا أيها الإنسان إنــك كــادح إلى ربــك كــدحا فملاقيــه﴾ (الانشقاق:٦) ولذلك قال مفرعا على ذلك: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ (الانشقاق: ٧) ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره...﴾ الآية (الانشقاق: ١٠)

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كمـا ذكر ذلك بعض أهل العلم.

(**ف**): قال شيخ الإسلام رحمه الله: أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينـة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته ﷻ يوم القيامة، وذكر الأدلة على ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله في الآية: أي كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الريـاء المقيد بالسنة. أ.هـ.

(**ق**): **فقوله:** ﴿فليعمل عملا صالحا﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر للإرشاد، أي: من كان يريـد أن يلقى الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه، فليعمل عملا صالحا، والعمل الصالح: ما كان خالصـا صوابا.

وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قصد به وجه الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)[1]

والصواب: ما كان على شريعة الله والدليل على ذلك قوله ﷺ: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا، فهـو رد)[2].

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال، فالأول ميزان الأعمال الباطنة.والثاني: ميزان الأعمال الظاهرة.

قوله: ﴿ولا يشرك﴾. لا: ناهية، والمراد بالنهي الإرشاد.

قوله: ﴿بعبادة ربه أحدا﴾. خص العبادة لأنها خالص حق الله، ولذلك أتى بكلمـة (رب) إشـارة إلى العلة، فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحد في خلقك، فيجب أن تكون العبادة له وحده، ولذلك لم يقل: (لا يشرك بعبادة الله)، فذكر الرب من باب التعليل، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكـم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي، حديث (١)، ومسلم: كتاب الإمارة / باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات، حديث (١٩٠٧).

[2] البخاري: كتاب الصلح / باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث (١٧١٨).

وقوله: ﴿أحدا﴾ نكرة في سياق النهي، فتكون عامة لكل أحد.

والشاهد من الآية: أن الرياء من الشرك، فيكون داخلا في النهي عنه.

وفي هذه الآية دليل على ملاقاة ﷲ تعالى، وقد استدل بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤيـة ﷲ، لأن الملاقاة معناها المواجهة.

وفيه دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يستحق أن يعبد، لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهيـة بالله.

(**ف**): وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث ﷲ به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة، كما قال تعالى: ' ٢١: ٢٥ ' ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلـه إلا أنا فاعبدون﴾ والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع ﷲ في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير ﷲ ويتقـرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد: أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادتـه؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى ﷲ، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليـدهم مـن قبلهم، لما اشتدت غربة الدين ونسى العلم بدين المرسلين.

وعن أبي هريرة مرفوعا: قال: قال ﷲ تعالى:

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه) رواه مسلم.[١]

(**ق**): قوله في حديث أبي هريرة: (قال ﷲ تعالى). هذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن ربه، ويسمى هـذا النوع بالحديث القدسي.

قوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك).

قوله: (أغنى). اسم تفضيل، وليست فعلا ماضيا، ولهذا أُضيفت إلى الشركاء.

يعني: إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره، فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله لا يقبل عملا له فيه شرك أبدا، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق له وحـده، فكيف تصرف شيئا من حقه إلى غيره !فهذا ليس عدلا، ولهذا قال ﷲ عن لقمان: (إن الشـرك لظلـم

---

[١] مسلم كتاب الزهد / باب من أشرك في عمله غير ﷲ، حديث (٢٩٨٥)، وابن ماجة: كتاب الزهد / باب الرياء والسمعة، حديث (٤٢٠٢).

عظيم) (لقمان: ١٣)، فالله الذي خلقك وأعدك إعدادا كاملا بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئا من حقه إلي غيره؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

قوله: (عملا). نكرة في سياق الشرط، فتعم أي عمل من صلاة، أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره.

قوله: (تركته وشركه). أي: لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله، لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه، لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يترك، كمن أشرك نبيا أو وليا، فإن الله لا يترك ذلك النبي والولي.

(**ف**): قال ابن رجب رحمه الله: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين. كما قال تعالى: '٤: ١٤٢ ' ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب وغيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه – وذكر أحاديث تدل على ذلك منها: هذا الحديث، وذكر أحاديث في المعنى ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة الخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده و لم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رحمه الله: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضاً فيمن يأخذ جعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئاً أخذه. وروى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: " إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكم أعطى دراهم غزا وإن لم يعط لم يغز فلا خير في ذلك ".

وروى عن مجاهد رحمه الله أنه قال في حج الجمال وحج الأجير، وحج التاجر: هو تام لا ينقص من أجرهم شيئ أي لأن قصدهم الأصلى كان هو الحج دون التكسب. قال: وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن وغيره، فأما إذا عمل العمل لله خالصا ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر بذلك لم يضره ذلك. وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: " أنه سئل عن الرجل

يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن "[١] رواه مسلم. انتهى ملخصاً.

(ق): ويستفاد من هذا الحديث:

١. بيان غنى الله تعالى، لقوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك).
٢. بيان عظم حق الله وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحدا مع الله في حقه.
٣. بطلان العمل الذي صاحبه الرياء، لقوله: (تركته وشركه).
٤. تحريم الرياء، لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب، وما أوجب الغضب، فهو محرم.
٥. أن صفات الأفعال لا حصر لها، لأنها متعلقة بفعل الله، و لم يزل الله ولا يزال فعالا.

وعن أبي سعيد مرفوعا: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟) قالوا بلي يا رسول الله. قال: (الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته، لما يري من نظر رجل) رواه احمد [٢]

(ق): قوله في حديث أبي سعيد: (ألا).أداة عرض، والغرض منها تنبيه المخاطب، فهو ابلغ من عدم الإتيان بها.

قوله: (بما هو). ما: اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: (أخوف عليكم عندي). أي عند الرسول ﷺ لإنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، واعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك، لأن التخلص منه صعب جدا، ولذلك قال بعض السلف: (ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص)، وقال النبي ﷺ: (أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه)[٣]، ولا يكفي مجرد اللفظ بها، بل لا بد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله – عز وجل –.

قوله: (المسيح الدجال). المسيح، أي: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي ﷺ عيبين في الدجال:

---

[١] مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب: ،حديث(٢٦٤٢)،(١٦٦)، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره.

[٢] الإمام أحمد (٣ / ٣٠)، حديث (١١٢٧٠)، وابن ماجة: كتاب الزهد / باب الرياء والسمعة، حديث (٤٢٠٢)، والحاكم (٤/ ٣٢٩) وصححه، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٢٧).

[٣] البخاري: كتاب العلم / باب الحرص على الحديث، حديث (٩٩).

أحدهما حسي، وهو أن الدجال أعور العين اليمنى، كما قال النبي ﷺ: (إن الله لا يخفي عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى)[1].

والثاني معنوي، وهو الدجال، فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له، وهو الدجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله -سبحانه وتعالى- بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة، إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة، لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولا يمكن أن يصدق به، ولكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لا تتعداه؟ وهذا لا شك جهل منهم بالله، فالذي جعل هذا النظام هو الله، وهو القادر على أن يغيره متى شاء، فيوم القيامة تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتكشط السماء، كل ذلك بكلمة (كن)، ورد هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره، قال تعالى: (وما قدروا الله حق قدره) (الزمر: ٦٧).

فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن الرسول ﷺ.

ونؤمن أن الله على كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم، ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلى الله بني إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، ومثل ما ابتلى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حرم، تناله أيديهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلى الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (الحج: ١١).

قوله: (الشرك الخفي). الشرك قسمان **خفي وجلي**.

فالجلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل: مثل الانحناء لغير الله تعظيما.

والخفي: ما كان في القلب، مثل: الرياء، لأنه لا يبين، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضا (شرك السرائر) وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (الطارق: ٩) لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور۞ وحصل ما في الصدور﴾ (العاديات: ١٠، ٩)، وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر

---

[1] البخاري: كتاب احاديث الأنبياء / باب قول الله ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ (مريم: ١٦)، حديث (٣٤٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، حديث (١٦٩).

ويفعله: أنه (يلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله)[1].

قوله: (يقوم الرجل، فيصلى فيزين صلاته). يتساوى في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللقب، أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف، لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: (فيزين صلاته). أي: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

قوله: (لما يرى من نظر الرجل إليه). (ما) موصولة، وحذف العائد، أي: للذي يراه من نظر رجل، وهذه هي العلة لتحسين الصلاة، فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يعظمه بقلبه، وهذا شرك.

(**ف**): وعن شداد بن أوس قال: (كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر)[2] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير في التهذيب، والطبراني والحاكم وصححه.

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شرك أكبر بحسب حال قائله ومقصده، انتهى.

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ' ٦٧: ٢ ' ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال: أخلصه وأصوبه.قيل يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا و لم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً و لم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال. فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الخلق / باب صفة النار وأنها مخلوقة، حديث (٣٢٦٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق / باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، حديث (٢٩٨٩).

[2] حسن: الطبراني (٧١٦٠) والحاكم (٣٢٩/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨/١).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب، أنه تعالى خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف وسبق الكلام عليها.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله. وذلك لقوله: (تركته وشركه)، وصار عظيما، لأنه ضاع على العامل خسارا، وفحوى الحديث تدل على غضب الله - عز وجل - من ذلك.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى. يعني: الموجب للرد هو كمال غنى الله - عز وجل - عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء. أي: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحدا، أن الله خير الشركاء، فلا ينازع من جعل شريكا له فيه.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء. وذلك لقوله ﷺ (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال). وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه، فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه. وهذا التفسير ينطبق تماما على الرياء، فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

و لم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال، لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته.

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

(**ف**): قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين. وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارق الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً، أراد به عرضاً من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً، كما في الحديث " تعس عبد الدينار "[1] أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس ﷺ وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ' ١١: ١٥ ' ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾.

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا.

(**ق**): **قوله:** (من الشرك).(من) للتبعيض، أي: بعض الشرك.

قوله (الدنيا). مفعول بإرادة، لأن إرادة المصدر مضاف إلى فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافا إلى فاعله أو مفعوله، فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن، فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا، فالإنسان فاعل، وعلى هذا، فإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكررا مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب، لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعا مستقلا عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر، لأن الإنسان في الباب السابق، يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة، فيقال: هو عابد، ولا يريد النفع المادي.

---

[1] جزء من حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد : ،حديث(٢٨٨٧)، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصا له، ولكنه يريد شيئا من الدنيا كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعا في الدنيا، غافلا عن ثواب الآخرة.

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١. أن يريد المال، كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢. أن يريد المرتبة، كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣. أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه، كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤. أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير.

وهناك أمثلة كثيرة.

تنبيه:

فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضا شرعيا، فنقول لهم:

أولا: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق، لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانيا: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكليات، فيدخل كلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة، فإنها لاتهمه.

ثالثا: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين – حسنى الدنيا وحسني الآخرة –، فلا شيء عليه لأن الله يقول: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق: ٣، ٢)، رغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب.

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلا؟

أجيب: إنه أخلص العبادة و لم يرد بها الخلق إطلاقا، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمرا ماديا، فإخلاصه ليس كاملاً لأن فيه شركا، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك، بل أراد شيئا دنيئا غيره.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لا يصلى من أجل هذا الشيء، فهذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية، كالبيع، والشراء، والزراعة، فهذا لا شيء فيه، والأصل أن لا نجعل في العبادات نصيبا من الدنيا، وقد سبق البحث في حكم العبادة إذا خالطها الرياء في باب الرياء.

ملاحظة:

بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية. فمثلا يقولون: في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل، لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. وعن الصوم أنه سبب التقوى، فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس، فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي، فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال.

وقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ (هود: ١٥)

(ق): قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا﴾. أي: البقاء في الدنيا.

قوله: ﴿وزينتها﴾: أي: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة، كما قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آل عمران: ١٤).

قوله: ﴿نوف إليهم﴾. فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة - الياء -، لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لا يسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ (الأحقاف: من الآية٢٠).

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ وقد أثر في جنبه الفراش، فقال: (ما يبكيك؟). قال: يا رسول الله! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال. فقال رسول ﷺ: (أولئك

قوم عجلت لهم طيباهم)[١]، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم، لأهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

قوله: ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾. البخس: النقص، أي: لا ينقصون مما يجازون فيه، لأن الله عدل لا يظلم، فيعطون ما أرادوه.

قوله: ﴿أولئك﴾. المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

قوله: ﴿ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾. فيه حصر وطريقة النفي والإثبات، وهذا يعني أهم لن يدخلوا الجنة، لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

قوله: ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾. الحبوط: الزوال، أي: زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

قوله: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾. ﴿باطل﴾: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات والمبتدأ ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما كانوا يعملون﴾، فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

(**ف**): قال ابن عباس رضي الله عنه: " من كان يريد الحياة الدنيا " أي ثواها. وزينتها، أي مالها. نوف، أي نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد: " وهم فيها لا يبخسون " لا ينقصون، ثم نسختها: ' ١٧: ١٨، ١٩ ' " من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد " الآيتين. رواه النحاس في ناسخه.

قوله: ثم نسختها أي قيدها. فلم تبق الآية على إطلاقها.

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ذكره ابن جرير بسنده، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة ابن شريح قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفى بن ماتع الأصبحي حدثه: (أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس. فلما سكت وخلا قلت: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه غيري أحد وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم مال خاراً على وجهه، واشتد به

[١] البخاري: كتاب المظالم والغصب / باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة حديث (٢٤٦٨)، ومسلم: كتاب الطلاق / باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، حديث (١٤٧٩).

طويلاً. ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: " إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله تبارك وتعالى للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقال له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة"[1].

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية، كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

---

[1] صحيح: أخرجه الترمذي: كتاب الزهد (٢٣٨٢) باب ما جاء في الرياء والسمعة وقال حديث حسن غريب . وابن حبان (٢٥٠٢) والحاكم (٤١٨/١، ٤١٩) وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٣/١: ١٥) وصحيح الجامع (١٧٠٩).

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يكفره كفـراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والـدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم مـن الإسـلام بالكليـة، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة؟ لكنهم على أعمـال تخـرجهم مـن الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضاً قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغـيره، وكـان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول: ' ٥: ٢٧ ' ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾.

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبـاً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعـده لأجـل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلّص وأهل النار الخلّص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله أ.هـ..

(**ق**): وقوله تعالى﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسـون﴾ مخصوصة بقوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا﴾ (الإسراء: ١٨).

فإن قيل: لماذا لا نجعل آية هود حاكمة على آية الإسراء ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب: إن هذا المعنى لا يستقيم لأمرين:

أولا: أن القاعدة الشرعية

في النصوص أن الأخص مقدم على الأعم، وآية هود عامة، لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتـها وفي إليه العمل وأعطى ما أراد أن يعطي، أما آية الإسراء، فهي خاصة: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريـد﴾ (الإسراء: ١٨)، ولا يمكن أن يحكم بالأعم على الأخص.

الثاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء: لأن في فقراء الكفار من هو أفقـر مـن فقـراء المسلمين، فيكون عموم آية هود مخصوصا بآية الإسراء، فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١. قيل: نزلت في الكفار، لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب علـى هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم في شيء من ذلك، ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢. وقيل: نزلت في المرائين، لأنهم لا يعملون إلا للدنيا، فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣. وقيل: نزلت فيمن يريد مالا بعمله الصالح.
والسياق يدل للقول الأول، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٦).

تنبيه:

اقتصر المؤلف رحمه الله على الإشارة إلى تكميل الآية الأولى، وزدنا الآية التالية سهوا وعسى أن يكون خيرا.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تعس عبد الدينار؛ تعس عبد الدرهم؛ تعس عبد الخميصة؛ تعس عبد الخميلة؛ إن اعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس؛ وإذا شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، اشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، إن كان في الساقة، كان في الساقة، إن إستاذن، لم يؤذن له، وإن شفع، لم يشفع له)[1]

(ف): **قوله:** في الصحيح أي صحيح البخاري.

قوله: تعس هو بكسر العين ويجوز الفتح أي سقط، والمراد هنا هلك. قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد. أي شقي. قال أبو السعادات: يقال تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك.

(ق): **قوله:** (عبد الدينار). الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامي زنته مثقال، وسماه عبد الدينار، لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، فيقال في عبد الدرهم ما قيل في عبد الدينار، والدرهم هو النقد من الفضة، وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أعشار المثقال، فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا، أي: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت، ولهذا سمي النبي ﷺ من هذا شأنه عبدا لها، وهذا من يعني بجمع المال من الذهب والفضة، فيكون مريداً بعمله الدنيا.

---

[1] البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث (٢٨٨٧).

قوله (تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة). وهذا من يعني بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر، فإذا كان عابدا لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟ فهذا أعظم.

(ف): **قوله:** تعس عبد الخميصة قال أبو السعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وتجمع على خمائص. والخميلة بفتح الخاء المعجمة وقال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خمل من أي شيئ كان.

(ق): **قوله:** (إن أعطى رضي، وإن لم يعط سخط). يحتمل أن يكون المعطي هو ﷲ فيكون الإعطاء قدريا، أي: أن قدر ﷲ له الرزق والعطاء رضى وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول: لماذا كنت فقيرا وهذا غنيا؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطا على قضاء ﷲ وقدره لأن ﷲ منعه. والله - ﷻ - يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء ﷲ وقدره، إن أعطي شكر، وإن منع صبر. ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعي، أي: إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سماه الرسول ﷺ عبدا له.

قوله (تعس وانتكس). تعس، أي: خاب وهلك، وانتكس، أي: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد، ولهذا قال: (وإذا شيك فلا انتقش). أي إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن يكون خبرا منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حاله، لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة ﷲ حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له.

(ف): قال الحافظ: هو بالمهملة، أي عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أي انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة. قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه. لأنه إذا تعس انكب على وجهه. وإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: وإذا شيك أي أصابته شوكة فلا انتقش أي فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش قاله أبو السعادات.

والمراد أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه في العواقب، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة. وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر وهو قوله: تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه و لم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذا حال من عبد المال. وقد وصف ذلك بأنه: إن أعطى رضي، وإن منع سخط كما قال تعالى: ' ٨: ٥٨ ' ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ فرضاؤهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده - إلى أن قال: -

وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان، فمنها ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه. فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً معتمدا على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: " تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة " وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالى أولياء الله ويعادى أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان، انتهى ملخصاً.

(ق): **قوله:** (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله). هذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

و(طوبى) فُعلى من الطيب، وهي اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعني: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبى شجرة في الجنة، والأول أعم، كما قالوا في ويل: كلمة وعيد، وقيل: واد في جهنم، والأول أعم.

(ف): قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال: " قال رجل: يا رسول الله وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب

أهل الجنة تخرج من أكمامها " ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ " إن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي و لم يرني. قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها "[1] وله شواهد في الصحيحين وغيرهما. وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً. قال وهب رحمه الله: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: زهرها رياط، وورقها برود وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، بينما هم في مجلسهم إذا أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، ووبرها كخز المرعزي من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش. خبا من غير مهنة، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها، ولا برْك راحلة برْك صاحبتها، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك، أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري. قال فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، و لم نقدرك حق قدرك، فائذن لنا بالسجود قدامك. قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، بأن لكل رجل منكم أمنيته. فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: ربي، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني من كل شيئ كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرت بك اليوم أمنيتك. ولقد سألت دون منزلتك. هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي لأن ليس في عطائي نكد ولا قصر يد. قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم و لم يخطر لهم على بال. قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة. على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة. في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة. في كل قبة منها جاريتان من الحور العين. على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة. وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما. ولا ريح طيب إلا قد عبق بهما. ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة. حتى يظن من

[1] صحيح: أخرجه أحمد (٣/٧١) وابن حبان (٢٦٢٥) وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٤١) وصحيح الجامع (٣٨١٨) لشواهده وطرقه.

يراهما أنهما من دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في يا قوتة حمراء. يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل. ويرى لهما مثل ذلك. ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له.

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد: فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم، فإذا بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية بالدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس واستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها. فلولا أنه مسخر إذاً لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشرفها من قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح، تحتها الولدان المخلدون، بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف فينظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعودا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: " هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم " وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا، قال: فبرضائي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلى وجهي، فعند ذلك قالوا: " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب " وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد في الصحيحين.

وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، ضروع كلها، ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة رواه ابن أبي حاتم.

(ق): **وقوله:** (آخذ بعنان فرسه). أي: ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: (في سبيل الله). ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلدا إسلاميا يجب الذود عنه، فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعا عن نفسه أو ماله أو أهله، فإن النبي ﷺ قال: (من قُتل دون ذلك، فهو شهيد)، فأما من قاتل للوطنية المحضة، فليس في سبيل الله لأن هذا قتال عصبية يستوي فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه.

قوله: (أشعث رأسه، مغبرة قدماه). أي: رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجا عن طاعة الله - ﷻ - وقدماه مغبرة في السير في سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفا، فليس له هم فيه.

قوله: (إن كان في الحراسة، فهو في الحراسة، وإن كان في الساقة، فهو في الساقة). الحراسة والساقة ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته، وللجملتين معنيان:

أحدهما: أنه لا يبالي أين وضع، إن قيل له: احرس، حرس، وإن قيل له: كن في الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلا.

الثاني: إن كان في الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان في الساقة، والحديث الصالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

(ف): قال ابن الجوزي رحمه الله: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم. لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة. انتهى. وفيه فضل الحراسة في سبيل الله.

(ق): **قوله:** (إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع له). أي: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتى إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة، فإن شفع لم يشفع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل في سبيل الله. والشفاعة: هي التوسط لغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

(**ف**): وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: " رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره "[١]......، قال الحافظ: فيه ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع. انتهى.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك قال عبد الله بن a قاضي نصيبين حدثني a بن إبراهيم بن أبي سكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وواعده الخروج. وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولهم يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب

لايستوي غبار خيل الليل ... أنف امرئ ودخان نار تلهب

في هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملى على الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة: "أن رجلاً قال: يا رسول الله علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: فو الذي نفسي بيده لو طوقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك حسنات؟ "[٢].

(**ق**): **والحديث قسم الناس إلى قسمين:**

الأول: ليس له هم إلا الدنيا، أما لتحصيل المال، أو تجميل الحال، فقد استبعدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

---

[١] مسلم ، كتاب البر والصلة : ،حديث(٢٦٢٢)،(١٣٨) باب فضل الضعفاء والخاملين :وكتاب الجنة وصفة نعيمها : ،حديث(٢٨٥٤)،(٤٨): باب النار يدخلها الجبارون من حديث أبي هريرة ﷺ ،وأخرجه أحمد (١٢٨/٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

[٢] البخاري، كتاب الجهاد : حديث(٢٧٨٥)، باب فضل الجهاد والسير من حديث ابي هريرة بنحوه.

ويستفاد من الحديث:

١. أن الناس قسمان كما سبق.

٢. أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تنقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة و لم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣. أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألا تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه، إما في الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

٤. أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله - عز وجل - فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ (طوبى له)، و لم يقل إن سأل لم يعط، بل لا تهمه الدنيا حتى يسال عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة.

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم: عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله (تعس وانتكس).

السادسة: قوله: (وإذا شيك فلا انتقش).

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة. وهذا من الشرك، لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود. وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. وهذه العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله - ﷻ - ومحبة أعمال الخير.

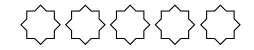
الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط. وهذا تفسير لقوله ﷺ: (عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط)، وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعا لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله (تعس وانتكس).

السادسة: قوله: (إذا شيك فلا انتقش) يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرا أو دعاء، وسبق شرح ذلك.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

فقوله في الحديث (طوبى لعبد....) يدل على الثناء عليه، وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب.



باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

(**تم**): هذا الباب والأبواب بعده في بيان مقتضيات التوحيد ولوازم تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي، وتستلزم أن يكون العبد مطيعا لله -جل وعلا - فيما أحل، وما حرم، محلا للحلال، محرما للحرام، لا يتحاكم إلا إليه -جل وعلا- ولا يُحَكِّمُ في الدين إلا شَرْعَ الله -جل وعلا-.

والعلماء وظيفتهم تبيين معاني ما أنزل الله -جل وعلا- على رسوله ﷺ وليست وظيفتهم التي أذن لهم بها في الشرع أن يحللوا ما يشاءون، أو يحرموا ما يشاءون، بل وظيفتهم الاجتهاد في فقه النصوص، وأن يبينوا ما أحل الله، وما حرم -جل وعلا- فهم أدوات ووسائل لفهم نصوص الكتاب والسنة؛ ولذلك كانت طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله، يطاعون فيما فيه طاعة لله -جل وعلا- ولرسوله. وما كان من الأمور الاجتهادية، فيطاعون؛ لأنهم هم أفقه بالنصوص من غيرهم، فتكون طاعة العلماء والأمراء من جهة الطاعة بالتبعية لله ولرسوله.

أما الطاعة الاستقلالية، فليست إلا لله -جل وعلا - حتى طاعة النبي -عليه الصلاة والسلام- إنما هي تبع لطاعة الله -جل وعلا -، فإن الله هو الذي أذن بطاعته، وهو الذي أمر بطاعة رسوله ﷺ وهذا معنى الشهادة له بأنه رسول الله، قال -جل وعلا -: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: من الآية٨٠) وقال -جل وعلا -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: من الآية٦٤).

فالطاعة الاستقلالية نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله -جل وعلا- بها وغير الله -جل وعلا، إنما يطاع لأن الله -جل وعلا - أذن بطاعته، ويطاع فيما أذن الله به في طاعته، فالمخلوق لا يطاع في معصية الله؛ لأن الله لم يأذن أن يطاع مخلوق في معصية الخالق -جل وعلا -، وإنما يطاع فيما أطاع الله -جل وعلا - فيه على النحو الذي يأتي.

فهذا الباب عقده الشيخ -رحمه الله- ليبين أن الطاعة من أنواع العبادة، بل إن الطاعة في التحليل وفي التحريم، هي معنى اتخاذ الأرباب، كما قال الله -جل وعلا -: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (التوبة: من الآية٣١) وما سيأتي من بيان حديث عدي بن حاتم، ﷺ.

(**ق**): قوله (من أطاع العلماء). (من) يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: (فقد اتخذهم)، لأنه جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة، أي: (باب الذي أطاع العلماء).

(**تم**): قوله ((باب من أطاع العلماء والأمراء)) العلماء والأمراء هم أولو الأمر في قوله -جل وعلا- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: من الآية٥٩) قال العلماء: أولو الأمر يشمل من له الأمر في حياة الناس في دينهم، وهم العلماء وفي دنياهم، وهم الأمراء، وقد قال -جل وعلا: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ و لم يكرر فعل الطاعة.

قال ابن القيم وغيره: دل هذا على أن طاعة أولي الأمر، ليست استقلالا، وإنما يطاعون في طاعة الله ورسوله ﷺ فإذا أمروا بمعصية، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والأمور الاجتهادية التي ليس فيها نص من الكتاب والسنة، فإنهم يطاعون في ذلك لان الله أذِنَ به، ولما في ذلك من المصالح المرعية في الشرع.

قوله: ((في تحريم ما أحل الله)) يعني: في تحريم الأمر الذي أحله الله، بحيث هناك حلال في الشرع، فيحرمونه، أي يحرمه العالم، أو يحرمه الأمير، فيطيعه الناس، وهم يعلمون أنه حلال، لكن يطيعونه في التحريم، ومثاله: أن الله أحل أكل الخبز، فيقولون: الخبز حرام عليكم دينا، فلا تأكلوه تديناً. ويحرمونه لأجل ذلك، فإن أطاعوهم كان ذلك طاعة لهم في تحريم ما أحل الله.

قوله: ((أو تحليل ما حرم الله)) يعني: أحلوا ما يُعْلَم أن الله حرمه، مثاله: حرم الله الخمر، فأحله العلماء، أو أحله الأمراء، فمن أطاع عالما، أو أميراً في اعتقاد أن الخمر حلال، وهو يعلم أنها حرام، وأن الله حرمها، فقد اتخذه ربا من دون الله جل وعلا.

(**ق**): فتحريم ما احل الله لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله، وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك، فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال، لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل وهو الحل، ورحمة الله - سبحانه - سبقت غضبه، فلا يمكن أن نحرم إلا ما تبين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدد، لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل:

والأصل في الأشياء حـــــل ... وامنع عبادة إلا بإذن الشارع

(**تم**): ففي هذا الباب حكمٌ وشرطٌ، فالحكم قوله في آخره: ((فقد اتخذهم أربابا)) وهو جزاء الشرط، والشرط قوله: ((من أطاع العلماء والأمراء)) وضابط هذا الشرط ما بينهما، وهو قوله: ((في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرمه)) وهذا يستفاد منه يعني: من اللفظ أنهم عالمون بما أحل الله، فحرموه طاعة لأولئك، عالمون بما حرم، فأحلوه طاعة لهم.

قوله في آخره: ((فقد اتخذهم أربابا)) ذلك لأجل آية سورة براءة : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وحديث عدي بن حاتم في ذلك.

والأرباب جمع الرب، والرب والإله لفظان يفترقان إذا اجتمعا؛ ويجتمعان إذا افترقا، لأن الرب هو السيد الملك المتصرف في الأمر، والإله هو المعبود.

(ق): والتصرف نوعان: تصرف قدري، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخافة أمر الله ورسوله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله باعتبار التصرف الشرعي، لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعا يعمل به، وبالعكس الأمراء.

(تم): وقد سئل المصنف الإمام a بن عبد الوهاب -رحمه الله- عن الفرق بين الإله والرب في مثل هذه السياقات في نحو **قوله:** ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٠)، وفي نحو قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: من الآية٣١) ما معنى الربوبية هنا؟ قال: الربوبية هنا بمعنى الإلوهية، بمعنى المعبود، لأن من أطاع على ذلك النحو، فقد عَبَدَ؛ لقول النبي ﷺ لعدي حين قال: (إنا لسنا نعبدهم). فعدي فهم من كلمة (أربابا) العبادة.

وقال النبي ﷺ مقررا لذلك: (أليس يحرمون..) الخ، فهو إقرار منه عليه الصلاة والسلام بأن معنى الربوبية هنا العبودية.

فلهذا قال الشيخ -رحمه الله- حينما سئل: الإلوهية والربوبية، أو كلمة الرب والإله من الألفاظ التي، إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت يعني: كلفظ الفقير والمسكين، وكلفظ الإسلام والإيمان، ونحوهما؛ لأن الإله يطلق على المعبود، وجاء في نصوص كثيرة إطلاق الرب على المعبود، كما ذكرنا في الآيات، وفي الحديث، وكقوله -عليه الصلاة والسلام- في مسائل القبر: (فيأتيه ملكان، فيسألانه من ربك؟) يعني: من معبودك؛ لأن الابتلاء لم يقع في الرب الذي هو الخالق الرازق المحيي المميت.

إذًا لفظ (الرب) و(الإلهية) من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، فقد يطلق على الأرباب آلهة وعلى الآلهة أربابا، وهل هذا الإطلاق لأجل اللغة؟، يعني: أن أصله في اللغة يدخل هذا في هذا، وهذا في ذاك، أو أنه لأجل اللزوم والتضمن؟ الظاهر -عندي- الأخير، وهو أنه لأجل اللزوم والتضمن، فإن الربوبية مستلزمة للألوهية والألوهية متضمنة للربوبية، فإذا ذكر الإله، فقد تضمن ذلك ذكر الرب، وإذا ذكر الرب إستلزم ذلك ذكر الإله؛ ولهذا قال -جل وعلا - هنا: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ﴾ (آل عمران: ٨٠) يعني: آلهة لاستلزام لفظ الربوبية للألوهية، وكذلك **قوله:** ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يعني: آلهة معبودين، كما آتى تفصيله في الحديث.

وقال ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر)[1] هذا الحديث رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح، وإسناده عن عبد الرزاق عن معمر عن طاوس عن ابن عباس، أو نحو ذلك، فقد ذكر إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع في الفتاوى بنصه، فذكر الإسناد والمتن، وغالب الذين خرجوا كتاب التوحيد قالوا: إن هذا الأثر لا أصل له بهذا اللفظ، وهذه جرأة منهم، حيث إنهم ظنوا أن كل كتب الحديث بين أيديهم، ولو تتبعوا كتب أهل العلم لوجدوا أن إسناده، والحكم عليه موجود في كتبهم.

وقال ابن عباس:

يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

(**ف**): **قوله:** (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المعجمة أي يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال به: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل: أو ما هو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى" لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: بل للأبد " والحديث في الصحيحين، وحينئذ فلا عذر لمن استُفتي أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك. كما قال تعالى: ' ٤: ٥٩ ' ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾.

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: " لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدى لأحللت " هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها. ولفظه في حديث جابر: " افعلوا ما أمرتكم به فلولا أني سقت الهدى لفعلت مثل الذي أمرتكم " في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء.... الحديث.

---

[1] أخرجه أحمد (٣١٢١).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ.

وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما في الحديث[1]، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد. وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللُّقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين. ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من يبلغه الدليل فلم يأخذ به – تقليداً لإمامه – فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة ابن عباس قال: ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ.

وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائناً من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه، كما تقدم في كلام الشافعي رحمه الله تعالى.

---

[1] وذلك في حديث عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ :"إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر" البخاري، كتاب الاعتصام : باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ،حديث(٧٣٥٢)، ومسلم ، كتاب الأقضية : باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ،حديث(١٧١٦)،(١٥).

وقال أحمد بن حنبل: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: من الآية٦٣) أتدرى ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك).

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ الآية، فذكر من قوله: الفتنة الشرك – إلى قوله – فيهلك. ثم جعل يتلو هذه الآية: ' ٤: ٦٥' ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾.

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله تعالى: " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم " أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ' ٢: ٢١٧ ' ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

(**ق**): قول أحمد رحمه الله: (عجبت) **العجب نوعان:**

الأول: عجب استحسان، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: (كان الرسول ﷺ يعجبه التيمن في شأنه كله: في طهوره، وترجله، وتنعله)[1].

الثاني: عجب إنكار، كما في قوله تعالى: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ (الصافات: ١٢)، والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله: (الإسناد). المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه، أي: عرفوا صحة الحديث بمعرفة الرجال.

قوله: (يذهبون إلى رأي سفيان). أي: سفيان الثوري، لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع لكنهم انقرضوا، فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث !

---

[1] البخاري: كتاب الوضوء / باب التيمن في الوضوء والغسل، حديث (١٦٨)، مسلم: كتاب الطهارة / باب التيمن في الوضوء وغيره، حديث (٢٦٨).

(ف): وسفيان: هو الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم ﷲ في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كالتمهيد لابن عبد البر، والاستذكار له، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر، والمحلى لابن حزم، والمغنى لأبي a عبد ﷲ بن أحمد بن قدامة الحنبلي. وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه ﷲ: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته... إلخ إنكار منه لذلك. وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافراً. وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد. والاجتهاد قد انقطع ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله. فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب ﷲ وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ' ٧: ٣ ' ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وقال تعالى ' ٢٩: ٥١ ' ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر ابن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنها، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم. كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولكن في كلام أحمد رحمه ﷲ إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب ﷲ وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخروا والإستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذي قال ﷲ فيهم: ' ٩: ٣ '﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ﷲ ﴾ كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم، فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه....

والأئمة رحمهم ﷲ لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة رحمه ﷲ: إذا جاء الحديث عن رسول ﷲ ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي ﷲ عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال.

وقال: إذا قلت قولاً وكتاب ﷲ يخالفه فاتركوا قولي لكتاب ﷲ. قيل: إذا كان قول رسول ﷲ ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ. وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي رحمه ﷲ يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول ﷲ ﷺ فخذوا سنة رسول ﷲ ﷺ ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط.

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول ﷲ ﷺ.

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا. ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج بنا عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى.

(**ق**): **قوله:** (والله يقول: (فليحذر)). الفاء عاطفة، واللام للأمر، ولهذا سكنت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر، لالتقاء الساكن.

قوله: (عن أمره). الضمير يعود للرسول ﷺ، بدليل أول الآية قال تعالى ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ ﷲ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

فإن قيل: لماذا عدى الفعل بـ: (عن) مع أن (يخالف) يتعدى بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضمن معنى الإعراض، أي: يعرضون عن أمره زهدا فيه وعدم مبالاة به.

و(أمره): واحد الأوامر لأمره وليس واحد الأمور، لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف، فيعم جميع الأوامر.

(فتنة).الفتنة فسرها الإمام أحمد بالشرك، وعلى هذا يكون الوعد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم

(**ف**): **قوله:** لعله إذا رد بعض قوله أي قول الرسول ﷺ أن يقع في قلبه شيئ من الزيغ فيهلك نبه رحمه ﷲ أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ' ٦١: ٥ ' ﴿ فلما زاغوا أزاغ ﷲ قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: في معنى قول الله تعالى: ' ٢٤: ٦٣ ' ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ فإن كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر، كما فعل إبليس لعنه الله تعالى أ.هـ.

وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ قال: يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه.

قال أبو جعفر بن جرير: أدخلت عن لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين.

قوله: أو يصيبهم في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

وعن عدي بن حاتم: انه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١)، فقلت: إنا لسنا نعبدهم. قال: (**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**) فقلت بلي، قال: (**فتلك عبادتهم**). رواه أحمد والترمذي وحسنه[1]

(**ف**): هذا الحديث قد روى من طرق، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي.

قوله: عن عدي بن حاتم أي الطائي المشهور.وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج – بفتح الحاء المهملة – المشهور بالسخاء والكرم قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة، فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة.

(**ق**): قوله في حديث عدى بن حاتم: ﴿اتخذوا﴾. الضمير يعود للنصارى، لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلها، بل ادعوا أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارى جميعا ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم، وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها.

---

[1] حسن: الترمذي: كتاب تفسير القرآن / باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني.

قوله: ﴿أحبارهم ورهبانهم﴾. الأحبار: جمع حبر، وحبر بفتح الحاء وكسرها، وهو العالم الواسع العلم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد الزاهد.

قوله: ﴿أرباباً من دون الله ﴾.أي: مشاركين لله عز وجل في التشريع، لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

قوله: ﴿والمسيح ابن مريم﴾. أي: اتخذوه إلها مع الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا﴾، والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي.

قوله: ﴿إلها واحدا﴾. هو الله – ﷻ –، وإله، أي: مألوه معبود مطاع، وليس بمعنى آله، أي: قادر على الاختراع، فإن هذا المعنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم، فيكون معنى (لا إله إلا الله) على هذا القول: لا رب إلا الله، وهذا ليس بالتوحيد المطلوب بهذه الكلمة، إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ موحدين، لأنهم يقولون: لا رب إلا الله، قال تعالى: ﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله ﴾ (المؤمنون: ٨٦) وهذه إحدى القراءتين، وهي سبعيه.

قوله: ﴿سبحانه عما يشركون﴾. ﴿سبحان﴾: اسم مصدر، وهي معمول أو مفعول لفعل محذوف وجوبا تقديره يسبح سبحانا، أي: تسبيحا، لأن اسم المصدر بمعنى المصدر، فسبحان: مفعول مطلق عاملها محذوف وجوبا وهي ملازمة للإضافة: إما إلى مضمر، كما في الآية: ﴿سبحانه﴾، أو إلى مظهر كما في (سبحان الله).

والتسبيح: التتريه، أي: تتريه الله عن كل نقص، ولا يحتاج أن نقول: ومماثلة المخلوقين، لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها، فذلك من باب زيادة الإيضاح حتى لا يظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى: تتريه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين.

وقوله: ﴿عما يشركون﴾. أي: مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان، فهو متتره عن كل شرك وعن كل مشرك به.

قوله: ﴿عما يشركون﴾. هذا من البلاغة في القرآن، لأنها جاءت محتملة أن تكون (ما) مصدرية، فيكون المعنى عن شركهم، أو موصولة، ويكون المعنى: سبحان الله عن الذين يشركون به، وهي صالحة للأمرين، فتكون شاملة لهما لأن الصحيح جواز استعمال المشترك في معنييه إذا لم يكن بينهما تعارض فيكون التتريه عن الشرك وعن المشرك به.

قوله: (إنا لسنا نعبدهم). أي: لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!).

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبدا، لأنه رسول الله، فما أحله، فقد أحله الله، وما حرمه، فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنة الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب على التعليل المذكور بأن قول عدى: (لسنا نعبدهم) يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسى ابن مريم، فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال، لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم، لقوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل: ١١٦).

قوله: (فتلك عبادتهم) ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله فهي عبادة لله، لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت، فلا تكون قد عبدت أباك بطاعتك له، ولكن عبدت الله، لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله.

(**ف**): وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا. وقد قال تعالى: ' ٢٨: ٥٠ ' ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾.

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر ﷺ: " هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين " رواه الدارمي.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

(ق): ويستفاد من هذا الحديث:

١. **أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.**
٢. **أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله، فهي عبادة لله.**
٣. **أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أربابا.**

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضيا بقولهم، مقدما له، ساخطا لحكم الله فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله، فأحبط الله عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله، فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضيا بحكم الله وعالما بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلا وظيفة، فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلا، فيظن أن ذلك حكم الله، فينقسم إلى قسمين:

أ- أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه، فهو مفرط أو مقصر، فهو آثم، لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب- أن لا يكون عالما ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليدا ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذور بذلك، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن من أفتي بغير علم، فإنما إثمه على من أفتاه)[1]، لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره، لزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل: لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟

أجيب: إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله.

فائدة:

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاث أوصاف:

١. **قال تعالى:** (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)(المائدة: من الآية٤٤).

٢. **قال تعالى:** (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْظالمون) (المائدة: من الآية٤٥).

٣. **قال تعالى:** (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفاسقون) (المائدة: من الآية٤٧).

واختلف أهل العلم في ذلك:

فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، لأن الكافر ظالم، لقوله تعالى﴿والكافرون هم الظالمون﴾ (البقرة: ٢٥٤) وفاسق، لقوله تعالى: ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ (السجدة: ٢٠)، أي: كفروا.

وقيل: إنها لموصفين متعددين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

[1] الإمام أحمد في (المسند) (٣٢١/٢، ٣٦٥)، وأبو داود: كتاب العلم / باب التوقي في الفتيا، حديث (٣٦٥٧)، وابن ماجة: كتاب المقدمة/ باب اجتناب الرأي، حديث (٥٣). قال الألباني: (إسناده حسن) (المشكاة ٢٤٢).

فيكون كافرا في ثلاثة أحوال:

أ- إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل ﷲ، بدليل قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ (المائدة: ٥٠) فكل ما خالف حكم ﷲ، فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل ﷲ فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل ﷲ مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب- إذا اعتقد أن حكم غير ﷲ مثل من حكم ﷲ.

ج- إذا اعتقد أن حكم غير ﷲ أحسن من حكم ﷲ.

بدليل قوله تعالى: ﴿ومن أحسن من ﷲ حكما لقوم يوقنون﴾ (المائدة: ٥٠)، فتضمنت الآية أن حكم ﷲ أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقررا ذلك: ﴿أليس ﷲ بأحكم الحاكمين﴾ (التين: ٨) فإذا كان ﷲ أحسن الحاكمين أحكاما وهو أحكم الحاكمين، فمن أدعى أن غير حكم ﷲ مثل حكم ﷲ أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظالما: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل ﷲ أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل ﷲ، فهو ظالم.

ويكون فاسقا: إذا كان حكمه بغير ما أنزل ﷲ لهوى في نفسه مع اعتقاده أن حكم ﷲ هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه، أي محبة لما حكم به لا كراهة لحكم ﷲ ولا يضر أحدا به، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رشي إياها، أو لكونه قريبا أو صديقا، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم ﷲ هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق، وإن كان أيضا ظالما، لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم ﷲ وبمخالفة هذه القوانين لحكم ﷲ، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة ﷲ إلا وهو يعتقد أنه الخير للعباد والبلاد من شريعة ﷲ، وعندما نقول بأنه كافر، فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذورا، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء -وإن كانوا مخطئين- يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكا للربا أو ضرائب على الناس، فهذا لا شيء فيه.

وهذا لا شك في خطئه، فإن كان مجتهدين غفر الله لهم، وإلا، فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها، فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (المائدة: ٣).

وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء، لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أو نقص التدبر، وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق، فلا بد أن يصل إليه حتى في المعاملات، قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ (النساء: ٨٢) وقال تعالى: ﴿أفلم يدبروا القول﴾ (المؤمنون: ٦٨) وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ (ص: ٢٩)، وقال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾ (النحل: ٨٩) فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه، فإن القرآن بينه بيانا شافيا.

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وادعى أنها من المصالح المرسلة، فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها، فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع، فهو مصلحة، وما نفاه، فليس بمصلحة، وما سكت عنه فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس، فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها، كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذا للهمم وتنشيطا للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل، لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمدا عبده ورسوله ويصلون عليه، والذي لا يحي قلبه بهذا وهو يصلى بين يدي ربه كيف يحي قلبه بساعة يؤتى فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟ فهذه مفسدة وليست مصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار، فلاشك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده أولئك العلماء وتوسع فيها، وعليه، فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن اعتبرها الشرع قبلت، وإلا، فكما قال الإمام مالك: (كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر) وهنالك قواعد كليات تطبق عليه الجزئيات.

وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام، فلا يتسرع في البت بها خصوصا في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا روية، مع إن الإنسان إذا كفر شخصا و لم يكن الشخص أهلا له عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة، فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نجبن عن تكفير من كفره ﷲ ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين، فالمعين يحتاج الحكم **بتكفيره إلى أمرين**:

١. ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.
٢. انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها بأن هذا مكفر، فإن كان جاهلا، فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالما بالتحريم، وهذا وهو إقامة حد وليس بتكفير، والتحرز من التكفير أولى وأحرى.

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ﷲ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: من الآية١٦٥) وقال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسول﴾ (الإسراء: ١٥) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ﷲ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة: من الآية١١٥) ولابد من توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراها أو ذهولا لم يكفر، لقوله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكراه وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ (النحل: ١٠٦) ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكة: (اللهم!أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح[1]، فلم يؤاخذ بذلك).

[1] البخاري: كتاب الدعوات /باب التوبة، حديث (٦٣٠٩)، ومسلم: كتاب التوبة /باب الدعوات/ باب في الحض على التوبة والفرح بها، حديث (٢٧٤٧).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغيّر الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور. وهي قوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم). وسبق تفسيرها

الثانية: تفسير آية براءة.وهي قوله تعالى: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباب من دون الله.) الآية، وقد سبق ذلك.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي. لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبه، ولكن بين ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان. أي: إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يعارض قول النبي ﷺ بقولهما، فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟ فهو اشد وأقبح، وكذلك مثل الإمام احمد بسفيان الثوري وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره). الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلي هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... الخ.

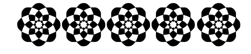
يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... وهذا لاشك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر.

ثم قال: (ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين)، أي: يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمترلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: (وعبد بالمعنى الثاني): وهو الطاعة والاتباع من هو من الجاهلين، فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما يوجد في بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية، فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئا، فصاروا يعبدون بهذا المعنى، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف، فكيف بزماننا؟ وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: (لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم[1]، وقال النبي ﷺ للصحابة: (ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا[2]، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم.

والناس لا يحسون بالتغير، لأن الأمور تأتي رويدا رويدا، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء، لوجد التغير الكثير المزعج - نسأل الله السلامة -، فعلينا الحذر، وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمي وأن يصان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أبدا مهما كانت مترلته، وأن الواجب أن نكون عبادا لله - عز وجل - تذللا وتعبدا وطاعة.



---

[1] البخاري: كتاب الفتن / باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، حديث (٧٠٦٨)، والترمذي، حديث (٢٢٠٦).

[2] أبو داود: كتاب السنة / باب في لزوم السنة، حديث (٤٦٠٧)، والترمذي، حديث (٢٦٧٦)، وابن ماجة، حديث (٤٤).

باب قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾

(النساء: ٦٠)

(**الشرح**): هذا الباب من الأبواب العظيمة المهمة في هذا الكتاب؛ وذلك لأن إفراد الله -جل وعلا - بالوحدانية في ربوبيته وفي ألوهيته يتضمن، ويقتضي، ويستلزم جميعاً أن يفرد في الحكم، فكما أنه -جل وعلا - لا حكم إلا حكمه في ملكوته، فكذلك يجب أن يكون لا حكم إلا حكمه، فيما يتخاصم فيه الناس، وفي الفصل بينهم، فالله -جل وعلا - هو الحكم، وإليه الحكم -سبحانه قال -جل وعلا - ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر: من الآية١٢) وقال- جل وعلا-: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام: من الآية٥٧) فتوحيد الله -جل وعلا - في الطاعة، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله لا يكون إلا بأن يكون العباد محكمين لما أنزل الله -جل وعلا - على رسوله.

فترك تحكيم ما أنزل الله على رسوله ﷺ بحكم الجاهلية، أو بحكم القوانين، أو بحكم سواليف البادية، أو بكل حكم مخالف لحكم الله -جل وعلا - هذا من الكفر الأكبر بالله -جل جلاله- ومما يناقض كلمة التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

وقد عقد الشيخ -رحمه الله- هذا الباب؛ ليبين أن الحكم بما أنزل الله فرض، وأن ترك الحكم بما أنزل الله وتحكيم غير ما أنزل الله في شؤون المتخاصمين، وتنزيل ذلك منزلة القرآن أن ذلك شرك أكبر بالله -جل وعلا- وكفر مخرج من ملة الإسلام.

قال الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم -رحمه الله- في أول رسالته تحكيم القوانين:

إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، ليكون حكما بين العالمين، مناقضة ومحادة لما نزل من رب العالمين، انتهى كلامه بمعناه.

فلا شك أن إفراد الله بالطاعة، وإفراد الله بالحكم، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، كل ذلك يقتضي ألا يحكم إلا بشرعه؛ فلهذا كان الحكم بالقوانين الوضعية، أو الحكم بسواليف البادية، من الكفر الأكبر بالله -جل وعلا- لقوله -تعالى هنا في هذه الآية-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلى الطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٦٠).

فمناسبة هذه الباب لكتاب التوحيد ظاهرة جلية، وهي أن التحاكم إلى غير شرع الله، قدح في أصل

التوحيد، وأن الحكم بشرع الله واجب، وأن تحكيم القوانين، أو سواليف البادية، أو أمور الجاهلية مناف لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن من مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله، أن يطاع فيما أمر، وأن يصدق فيما أخبر، وأن يجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فالحكم بين المتخاصمين لا بد أن يرجع فيه إلى حكم من خلق المتخاصمين، ومن خلق الأرض والسماوات.

فالحكم الكوني القدري لله -جل وعلا - وكذلك الحكم الشرعي لله -جل وعلا - فيجب أن لا يكون بين العباد، إلا تحكيم أمر الله -جل وعلا- فإن ذلك هو حقيقة التوحيد في طاعة الله -جل وعلا- في مسائل التخاصم بين الخلق.

(ق): وقد ذكر الشيخ رحمه الله فيه أربع آيات: -

الآية الأولى ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾.

الاستفهام يراد به التقرير والتعجب من حالهم، والخطاب للنبي ﷺ.

قوله: ﴿يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾. هذا يعين أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، و لم يقل الذين آمنوا، لأنهم لم يؤمنوا، بل يزعمون ذلك وهم كاذبون.

والذي أنزل على النبي ﷺ الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ (النساء: ١١٣) قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك، لكن أفعالهم تكذب أقوالهم، حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

قوله: ﴿إلى الطاغوت﴾. صيغة مبالغة من الطغيان، ففيه اعتداء وبغي، والمراد به هنا كل حكم خالف حكم الله ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله، أما الطاغوت بالمعنى الأعم فقد حده ابن القيم بأنه: (كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع) وقد تقدم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد.

قوله: ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾. أي: أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمرا ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه، فهذه الإرادة على بصيرة، إذ الأمر بين لهم.

(ف): قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وتقدم ما ذكره ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت الذي

أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزلـه مترلة لا يستحقها. وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۞ فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۞هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس :٢٨- ٣٠] وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ :٤٠- ٤١] وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً وغير ذلك مما يتخذه المشركون أصناماً على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرءوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعله، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله. فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة : ٤] وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك رحمه الله الطاغوت ما عبد من دون الله.

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكاً في الطاعة وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ وقوله تعالى: ' ٤: ٦٥ ' ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك أتباعاً لما يهواه ويريده فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه. وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: " يزعمون " من نفي إيمانهم، فإن " يزعمون " إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: " وقد أمروا أن يكفروا به " لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال

وتفسد بعدمه. كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ' ٢: ٢٥٦ ' ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ الآية. وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

(ق): **قوله:** ﴿ويريد الشيطان﴾. جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾. أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿بعيدا﴾. أي: ليس قريبا، لكن بالتدريج شيئا فشيئا حتى يوقعهم في الضلال البعيد.

(**ف**): يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه: ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد. فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان:

الثاني: إنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليه.

(ق): **قوله:** ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول﴾. أي: قال لهم الناس: أقبلوا ﴿إلى ما أنزل الله ﴾ من القرآن ﴿والى الرسول﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

قوله: ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا﴾. الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: ﴿تعالوا﴾، فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده. والمعنى: كأنما تشاهدهم.

وقوله: ﴿رأيت المنافقين﴾. إظهار في موضع الإضمار **لثلاث فوائد:**

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق، لأن المؤمن حقا لا بد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير، حصل له انتباه.

وقوله: ﴿رأيت المنافقين﴾ جواب ﴿إذا﴾، وكلمة ﴿صد﴾ تستعمل لازمة، أي: يوصف به الشخص ولا يتعداه إلى غيره، ومصدرها صدود، كما في هذه الآية، ومتعدية، أي: صد غيره، ومصدرها صد، كما في قوله تعالى: ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ (الفتح: ٢٥).

(**ف**): **قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى**: هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين.

قوله: ﴿ويصدون﴾ لازم وهو بمعنى يعرضون، لأن مصدره صدوداً فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصاً ممن يدعى العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.

(**ق**): **وقوله:** ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾. الاستفهام هنا يراد به التعجب، أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

فالدنيوية: مثل: الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ، فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم، خافوا وقالوا: يا رسول الله ! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

قوله: ﴿بما قدمت أيديهم﴾. الباء: هنا للسببية، و﴿ما﴾ اسم موصول، و﴿قدمت﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره بما قدمته أيديهم، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس الفاعل، أي: بما قدموه من الأعمال السيئة.

وقوله: ﴿إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾. ﴿إن﴾ بمعنى: ﴿ما﴾، أي: ما أردنا إلا إحسانا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقا بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان، أي: نمشي معكم ونمشي مع الكفار، وهذا حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا أن حسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أولئك الذين يعلم ٱللَّهُ ما في قلوبهم﴾. توعدهم ٱللَّهُ بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع، فالله علام الغيوب، قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ (ق: ١٦) بل ٱللَّهُ أعلم منك بما فيك، قال تعالى: (واعلموا أن ٱللَّهَ يحول بين المرء وقلبه﴾ (الأنفال: ٢٤)، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن ٱللَّهَ يحول بين المرء وقلبه، ولهذا قيل لأعرابي: (بم عرفت ربك؟) قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم).

فالإنسان يعزم على الشيء ثم لا يدري إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر.

قوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

قوله: ﴿وعظهم﴾. أي: ذكرهم وخوفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة.

قوله: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾. اختلف المفسرون فيها على **ثلاثة أقوال**:

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ، أي: قل لهم قولا بليغا في أنفسهم، أي: يبلغ في أنفسهم مبلغا مؤثرا.

الثاني: أن المعنى: انصحهم سرا في أنفسهم.

الثالث: أن المعنى: قل لهم في أنفسهم (أي: في شأنهم وحالهم) قولا بليغا في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة، لأن اللفظ صالح لها جميعا، ولا منافاة بينها، وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبيه لها، وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض: فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر.

وكان النبي ﷺ إذا خطب، احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشا، يقول: صبحكم ومساكم[1].

الثاني: أن تكون ألفاظه جزلة مترابطة محدودة الموضوع.

الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان، بأن يكون كلامه: سليم التركيب، موافقا للغة العربية، مطابقا لمقتضى الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن هذه الآيات تنطبق تماما على أهل التحريف والتأويل في صفات ٱللَّهِ، لأن هؤلاء يقولون: أنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل ٱللَّهُ والى الرسول،

---

[1] مسلم: كتاب الجمعة / باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٦٧).

يعرضون، ويصدون، ويقولون: نذهب إلى فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم، قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع) ذكره رحمه الله في (الفتوى الحموية).

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١)

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾.

الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي، فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)، وقال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ (الشورى: ٣٠) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ (المائدة: ٦٥ -٦٦).

قوله: ﴿إنما نحن مصلحون﴾. وهذه دعوى من أبطل الدعاوى، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح. ولهذا قال تعالى: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾. ﴿ألا﴾: أداة استفتاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكدات، وهي ﴿ألا﴾، و﴿إن﴾، وضمير الفصل ﴿هم﴾ والجملة الاسمية، فالله قابل حصرهم بأعظم منه، فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

(**ف**): قال أبو العالية في الآية: يعني لا تعصوا في الأرض. لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله. وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ' ١٢: ٧٠ - ٧٢ ' ﴿ ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ – إلى قوله – "قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين " فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى.

وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض ويترتب عليه من الفساد

أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله ومن عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(**ق**): ومناسبة الآية للباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

وقوله: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾.يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق.

قوله: ﴿بعد إصلاحها﴾. من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم والوقوف ضد دعوة السلف، والوقوف ضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله ﴿بعد إصلاحها﴾ من باب تأكيد اللوم والتوبيخ، إذاً كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد.

(**ف**): **وقال ابن القيم رحمه الله**: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ، هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة. ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله. أ.هـ.

(ق): ومناسبة الآية للباب: أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح، وإن التحاكم إلى غيره هو الإفساد.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٥٠)

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾

الاستفهام للتوبيخ، و﴿حكم﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يبغون﴾، وقدم لإفادة الحصر، والمعنى: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و﴿يبغون﴾: يطلبون، والإضافة في قوله: ﴿أفحكم الجاهلية﴾ **تحتمل معنيين:**

أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة، ومنها: البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيهما: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذي لا يبني على العلم يبغون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن، وهذا أعم. والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله، فهو جهل وجهالة. فإن كان مع العلم بالشرع، فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع، فهو جهل، والجهالة هي العمل بالخطأ سفها لا جهلا، قال تعالى: ﴿إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾ (النساء: ١٧)، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه، لكن عليه أن يتعلم.

(ف): قال ابن كثير رحمه الله: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه. فصارت في بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله والسنة، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير.

(ق): **قوله:** ﴿ومن أحسن من الله حكما﴾. ﴿من﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن من الله حكما، وهذا النفي مشرب معنى التحدي، فهو أبلغ من قوله: (لا أحسن من الله حكما) لأنه متضمن للنفي وزيادة.

وقوله: ﴿حكما﴾.تمييز، لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم، فبين هذا التمييز المبهم وميزه. والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحسن في ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعله حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلا حسنا، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ (البقرة: ٦٦) وهذا الحسن في حكم الله ليس بينا لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿لقوم يوقنون﴾، وكلما ازداد العبد يقينا وإيمانا ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلا بحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضا، وعلى هذا فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية.

وقوله: ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾. خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقا، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: ﴿كل من عند ربنا﴾ (آل عمران: ٧) وعرفوا حسن أحكام الله تعالى، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد، فلم يرضوا عنها بديلا.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: **(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)**[1] قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح[2].

(**ف**): هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب: الحجة على تارك الحجة بإسناد صحيح كما قاله المصنف رحمه الله عن النووي. ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار، وشاهده في القرآن قوله تعالى: ' ٤: ٦٥ ' ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية. وقوله: ' ٣٣: ٣٦ ' ﴿وما

---

[1] إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢/١)، حديث (١٥) وقال الألباني: إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه وقد اتهمه بعضهم. والحكيم الترمذي في النوادر (١٦٤/٤) وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٨٧): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه.

[2] انظر الأربعين النووية، حديث (٤١).

كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ وقوله: ' ٢٨: ٥٠ ' ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ ونحو هذه الآيات.

(ق): (لا يؤمن أحدكم). أي: إيمانا كاملا إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية، فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله، فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾ (a: ٩)

قوله: (حتى يكون هواه تبعا لما جئت به). الهوى بالقصر: هو الميل، وبالمد هو: الريح، والمراد الأول.

و (حتى): للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ هو القرآن والسنة.

وإذا كان هواه تبعا لما جاء به النبي ﷺ، لزم من ذلك أن يوافقه تصديقا بالأخبار، وامتثالا للأوامر، واجتنابا للنواهي.

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوى على هوى الضلال لا على هوى الإيمان، قال تعالى: ﴿أفرأيت من أتخذ إلهه هواه﴾ (الجاثية: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ (a: ١٤)، وغيرها من الآيات الدالة على ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوى تبعا لما جاء به النبي ﷺ، كان محمودا، وهو من كمال الإيمان.

(ف): فإن كان الذي تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يخالفه. فهذه صفة أهل الإيمان المطلق، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن "[١] يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب ويترل عنه في درجة الإسلام وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به. كما قال تعالى: ' ٥: ٩٢ ' " فتحرير رقبة مؤمنة " والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها: أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قوله تعالى: ' ٢: ١٤٣ ' " وما كان الله ليضيع إيمانكم " أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: " آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله " الحديث، وهو في الصحيحين والسنن. والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: '٧٤: ٣١ ' ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ الآية. وقوله: ' ٩: ١٢٤ ' ﴿فأما الذين آمنوا

---

[١] البخاري، كتاب الأشربة : باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠] ،حديث(٥٥٧٨)، ومسلم ، كتاب الإيمان : باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، حديث(٥٧)،(١٠٠).

فزادهم إيمانا﴾ الآية. خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة. ومن المعلوم عقلاً وشرعاً أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق وقول الحق تصديق وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة ولله الحمد والمنة. قال الله تعالى: ' ٢: ١٧٧ ' ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ – إلى قوله – ﴿أولئك الذين صدقوا ﴾ أي فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة. وقد سمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهاً، فقال تعالى: ' ٢٥: ٤٣ ' ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئاً إلا ركبه.

قال ابن رجب رحمه الله: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها. فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه، وقد ورد القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله أو أحب ما كرهه الله كما قال تعالى: ' ٤٧: ٢٨ ' ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تتريهاً كان ذلك فضلاً. فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضى بما يرضى به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله وترك ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله. وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ' ٢٨: ٥٠ ' ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع. ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه، وكذلك حب الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله. ومن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه

وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب. فتجب التوبة من ذلك: انتهى ملخصاً.

(ق): **قوله:** (قال النووي: حديث صحيح). صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم، منهم ابن رجب في كتابه (جامع العلوم والحكم) ولكن معناه صحيح.

وقال الشعبي: (**كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي نتحاكم إلى a؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق، نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فأتفقا أن يأتيا كاهنا في جهينة، فيتحاكما إليه**)، فنزلت: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ (النساء: ٦٠)[1]

قوله في أثر الشعبي: (وقال الشعبي) أي: في تفسير الآية.

(ف): **قوله:** (وقال الشعبي)، هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظاً علامة ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة. قاله الذهبي

(ق): **قوله:** (رجل من المنافقين). وهو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وسمي منافقا من النّافقاء، وهي جحر اليربوع، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء - أي يحفر في الأرض خندقا حتى يصل منتهى جحره ثم يحفر إلى أعلى، فإذا بقى شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف - فإذا حجر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قوله: (ورجل من اليهود). اليهود هم المنتسبون إلى دين موسى ، وسموا بذلك إما من قوله: ﴿إِنّا هُدنا إليك﴾، أي: رجعنا، أو نسبة إلى أبيهم يهوذا، ولكن بعد التعريب صار بالدال.

قوله: (إلى a). أي: النبي ﷺ، و لم يذكره بوصف الرسالة، لأنهم لا يؤمنون برسالته، ويزعمون أن النبي الموعود سيأتي.

قوله: (عرف أنه لا يأخذ الرشوة). تعليل لطلب التحكم إلى النبي ﷺ.

والرشوة: مثلثة الراء، فيجوز الرشوة، الرَّشوة، الرُّشوة، وهي المال المدفوع للتوصل إلى شيء.

---

[1] ابن جرير الطبري (٩٨٩١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٧/٥) روي اسحق بن راهويه في تفسيره باسناد صحيح عن الشعبي

قال أهل العلم: (لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطل أو دفع حق، أما من بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلا عن نفسه، فليست حراما على الباذل، أما على آخذها، فحرام).

قوله: (فاتفقا أن ياتيا كاهنا في جهينة) كأنه صار بينهما خلاف، وأبي المنافق أن يتحاكما إلى النبي ﷺ.

والكاهن: من يدعي علم الغيب في المستقبل، وكان للعرب كهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا، فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطئوا، فإذا أصابوا ادعوا علم الغيب، فكان العرب يتحاكمون إليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾. الآية.

وقيل نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله[1].

قوله: (وقيل). ذكر هذه القصة بصيغة التمريض، لكن ذكر في (تيسير العزيز الحميد) أنه رويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولا يغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها. أ.هـ.

قوله: (رجلين). هما مبهمان، فيحتمل أن يكونا من المسلمين المؤمنين، ويحتمل أن يكونا من المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

قوله: (إلى كعب بن الأشرف). وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: (أ كذلك). خبر لمبتدأ محذوف، التقدير أ كذلك الأمر.

قوله: (فضربه بالسيف). الضارب عمر.

وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه.

[1] قال الحافظ في الفتح (٣٧/٥) رواه الكلبي في تفسيره عن ابن عباس......، واسناده وإن كان ضعيفا لكن تقوي بطريق مجاهد. الإمام احمد في (المسند) (٣٩١/١، ٤٥٢) وابن حيان (٢٣٧٢)، والطبراني في (الكبير) (١٠٣٥٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والهيثمي (١٠/ ١٣٦)، وقال: (رجال أحمد وأبي يعلي رجال الصحيح) وصححه ابن القيم في (شفاء العليل) (٢٧٧)، واحمد شاكر في (المسند) (٣٧١٢).

فإن قيل: كيف يقتله عمر ﷺ والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ؟

أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غيرته فقتله، لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام، وقد قال النبيﷺ: (من بدل دينه فأقتلوه)[1].

(**ف**): وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان. كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين. وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان: ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ' ٦٦: ٩ ' ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ الآية. وفي قصة عمر ﷺ وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له والإظهار لعداوته فانتقض به عهده. وحل به قتله. وروى مسلم في صحيحه عن عمرو: سمعت جابراً يقول: : قال رسول الله ﷺ: " من لكعب ابن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله، قال a بن مسلمة: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: ائذن لي فلأقل، قال: قل، فأتاه فقال له، وذكر ما بينهما وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنانا. فما سمعه قال: وأيضاً والله لتملنه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيئ يصير أمره، قال: وقد أردت أن تسلفني سلفاً، قال: فما ترهنني؟ قال: ما تريد. قال: ترهنني نسائكم؟ قلت: أنت أجمل العرب، أنرهنك نسائنا؟ قال: ترهنوني أولادكم؟ قال: يسب ابن أحدنا فيقال: رهن في وسقين من تمر. ولكن نرهنك اللأمة – يعني السلاح – قال: فنعم: وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عبس بن جبر وعباد بن بشر. قال: فجاءوا فدعوه ليلاً فترل إليهم – قال سفيان قال غير عمرو: قالت له أمرأته: إني أسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا a بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة إن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلاً لأجاب، قال a إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم قال: فلما نزل وهو متوشح. فقالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم، تحتي فلانة أعطر نساء العرب، قال: فتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فشم، فتناول فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم. قال: فقتلوه ".

وفي قصة عمر: بيان أن المنافق المغموض بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل، كما في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس، فإنه قال: " لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " فصلوات الله وسلامه عليه.

---

[1] البخاري: كتاب استتابة المرتدين / باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، حديث (٦٩٢٢)، وأبو داود حديث (٤٣٥١)، والترمذي، حديث (١٤٥٨)، والنسائي حديث (٤٠٦١).

باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

(**تم**): هذا الباب ترجم له إمام هذه الدعوة بقوله (**باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات**) يعني: وما يلحقه من الذم، وأن جحد شيء من الأسماء والصفات مناف لأصل التوحيد، ومن خصال الكفار والمشركين.

وقد ذكرنا -فيما سبق- أن توحيد الإلهية عليه براهين، ومن براهينه توحيد المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فمن أدلة توحيد الألوهية توحيد الربوبية، كما سبق في باب قول الله -تعالى-: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف: ١٩١) وكذلك توحيد الأسماء والصفات برهان على توحيد الألوهية، ومن حصل عنده ضلال في توحيد الأسماء والصفات، فإن ذلك سيتبعه ضلال في توحيد الألوهية، ولهذا تجد أن المبتدعة الذين ألحدوا في أسماء الله وفي صفاته من هذه الأمة، من الجهمية والمعتزلة والرافضة والأشاعرة والماتريدية، ونحو هؤلاء تجد أنهم لما انحرفوا في باب توحيد الأسماء والصفات، لم يعلموا حقيقة معنى توحيد الإلهية، ففسروا الإله بغير معناه، وفسروا [لا إله إلا الله] بغير معناها الذي دلت عليه اللغة، ودل عليه الشرع، وكذلك لم يعلموا متعلقات الأسماء والصفات، وآثارها في ملك الله -جل وعلا- وسلطانه؛ لهذا عقد الشيخ -رحمه الله- هذا الباب لأجل أن يبين أن تعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد، وأن جحد الأسماء والصفات مناف لأصل التوحيد، فالذي يجحد اسما سمى الله به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ وثبت ذلك عنه وتيقنه، فإنه يكون كافرا بالله -جل وعلا- كما قال -سبحانه- عن المشركين: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (الرعد: من الآية٣٠)

والواجب على العباد، من أهل هذه الملة أن يوحدوا الله -جل وعلا- في أسمائه وصفاته، ومعنى توحيد الله في أسمائه وصفاته أن يتيقن، ويؤمن بأن الله -جل وعلا- ليس له مثيل في أسمائه ولا في صفاته كما قال -جل وعلا-: ﴿ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من الآية١١) فنفى، وأثبت، نفى أن يماثل الله شيء -جل وعلا- وأثبت له صفتي السمع والبصر.

قال العلماء: قدم النفي قبل الإثبات على القاعدة العربية المعروفة: أن التخلية تسبق التحلية. فيجب أن يخلو القلب من كل براثن التمثيل، ومن كل ما كان يعتقده المشركون الجاهلون من تشبيه الله بخلقه، أو تشبيه خلق الله به، فإذا خلا القلب من كل ذلك، وبرئ من التشبيه والتمثيل، أثبت ما يستحقه الله -جل وعلا- من الصفات، فأثبت هنا صفتين، وهما السمع والبصر.

وسبب ذكر السمع والبصر هنا في مقام الإثبات، دون غيرهما من الصفات، أو دون ذكر غير اسم السميع والبصير من الأسماء؛ لأن صفتي السمع والبصر مشتركة بين أكثر المخلوقات الحية، فجل المخلوقات الحية التي حياتها بالروح والنفس، لا بالنماء، فإن السمع والبصر موجود فيها جميعا، فالإنسان له سمع وبصر وسائر أصناف الحيوانات لها سمع وبصر فالذباب له سمع وبصر يناسبه، والبعير له سمع وبصر يناسبه، وكذلك الطيور والأسماك، والدواب الصغيرة والحشرات، كل له سمع وبصر يناسبه.

ومن المتقرر عند كل عاقل أن سمع هذه الحيوانات ليس متماثلا، وأن بصرها ليس متماثلا، وأن سمع الحيوان ليس مماثلا لسمع الإنسان، فسمع الإنسان ربما كان أبلغ وأعظم من سمع كثير من الحيوانات، وكذلك البصر، فإذا كان كذلك كان اشتراك المخلوقات التي لها سمع وبصر في السمع والبصر، اشتراكاً في أصل المعنى، ولكل سمع وبصر بما قدر له، وما يناسب ذاته، فإذا كان كذلك، ولم يكن وجود السمع والبصر في الحيوان وفي الإنسان مقتضيا لتشبيه الحيوان بالإنسان، فكذلك إثبات السمع والبصر للملك الحي القيوم، ليس على وجه المماثلة للسمع والبصر في الإنسان، أو في المخلوقات. فلله -جل وعلا- سمع وبصر يليق به، كما أن للمخلوق سمع وبصراً يليق بذاته الحقيرة الوضيعة، فسمع الله كامل مطلق من جميع الوجوه لا يعتريه نقص، وبصره كذلك.

واسم الله (السميع) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة السمع، وكذلك اسم الله (البصير)، هو الذي استغرق كل الكمال في صفة البصر، فدل ذلك على أن النفي مقدم على الإثبات، والنفي يكون مجملا، والإثبات يكون مفصلا، فالواجب على العباد أن يعلموا أن الله -جلا جلاله- متصف بالأسماء الحسنى وبالصفات العلا، وألا يجحدوا شيئا من أسمائه وصفاته، فمن جحد شيئا من أسماء الله وصفاته، فهو كافر؛ لأن ذلك صنيع الكفار والمشركين.

والإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بالله، وهو سبب لمعرفة الله والعلم به، بل إن العلم بالله، ومعرفة الله -جل وعلا- تكون بمعرفة أسمائه وصفاته، وبمعرفة آثار الأسماء والصفات في ملكوت الله -جل وعلا- وهذا باب عظيم، ربما يأتي له زيادة إيضاح عند باب قول الله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: من الآية١٨٠).

فتلخص من هذا أن **لقوله**: ((**باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات**)). صلة وطيدة بكتاب التوحيد من جهتين:

الجهة الأولى: أن من براهين توحيد العبادة، توحيد الأسماء والصفات.

الثانية: أن جحد شيء من الأسماء والصفات شرك وكفر مخرج من الملة، وأن من ثبت عنده الاسم، أو ثبتت الصفة، وعلم أن الله -جل وعلا- أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ ثم جحدها ونفاها أصلا، فإن هذا كفر؛ لأنه تكذيب بالكتاب وبالسنة.

(**ق**): **الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:**

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدا أنكر اسما من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين، فهو كافر بإجماع المسلمين، لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، **وهذا نوعان**:

١. أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة العربية، فهذا لا يوجب الكفر.
٢. أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى: ﴿تجري بأعيننا﴾ (القمر: ١٤) تجري بأراضينا، فهذا كافر لأنه نفاها نفيا مطلقا، فهو مكذب.

ولو قال في قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ (المائدة: ٦٤) المراد بيديه: السماوات والأرض، فهو كفر أيضا لأنه مصوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية، فهو منكر ومكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة، قال الشاعر:

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أنّ المانويّة تكذب

فقوله: من يد، أي: من نعمة، لأن المانوية يقولون: أن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: (من الأسماء) جمع اسم، واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السمو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

وقيل: من السمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما والمراد بالأسماء هنا أسماء الله - عز وجل - وبالصفات صفات الله - عز وجل - والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف بها.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول: [1]

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلاما محضة، فهي من حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا، فالإنسان يسمي ابنه محمدا وعليا دون أن يلحظ معنى الصفة، فقد يكون اسمه علياً وهو من أوضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله، لأنها متضمنة للمعاني، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

[1] انظر باب احترام أسماء الله تعالى.

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تضمن، وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام، وهي دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ (الطلاق: ١٢) فعلمنا القدرة من كونه خالق السماوات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك أيضا، لأن الخلق لابد فيه من علم، فمن لا يعلم لا يخلق، وكيف يخلق شيئا لا يعلمه؟ !

المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما أختلف لفظه واتفق معناه، والمتباين: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله - ﷻ - لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم، كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها، لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير وهكذا.

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: (اللهم! إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك...- إلى أن قال: أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك [١]، وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم فليس بمحصور.

أما قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة[٢]، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: (من أحصاها) تكميل للجملة الأولى، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مئة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله، فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المئة بل معناه أن هذه المئة معدة لهذا الشيء.

---

[١] الإمام احمد في (المسند) (١/٣٩١، ٤٥٢) وابن حيان (٢٣٧٢)، والطبراني في (الكبير) (١٠٣٥٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والهيثمي (١٠/ ١٣٦)، وقال: (رجال أحمد وأبي يعلي رجال الصحيح) وصححه ابن القيم في (شفاء العليل) (٢٧٧)، واحمد شاكر في (المسند) (٣٧١٢) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١/٣٣١).

[٢] البخاري: كتاب التوحيد / باب أن لله مائة اسم إلا واحد (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار / باب في أسماء الله تعالى وفضل من احصاها (٢٦٦٧٧).

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق، فيجب علينا أن نؤمن به اسما من الأسماء، ونؤمن بما تدل عليه الصفة من الأثر والحكم إن كان متعديا، فمثلا: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكما وأثرا وهو أنه يسمع به، كما قال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ (المجادلة: ١) أما إن كان الاسم غير متعد، كالعظيم، والحي، والجليل، فتثبت الاسم والصفة، ولا حكم له يتعدى إليه.

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى، فهي غير الله – ﷻ – وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ، فهي المسمى.

فمثلا: الذي خلق السماوات والأرض هو الله، فالاسم هنا هو المسمى، فليست (اللام – والهاء) هي التي خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله. فكتبت بسم الله، فالمراد به الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيدا، فضربت زيدا المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلا، لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم. فالمراد الاسم الذي هو غير المسمى.

البحث في صفات الله:

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

الثاني: فعلية.

الثالث: خبريه.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفا بها مثل: السمع والبصر وهي معنوية، لأن هذه الصفات معان.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى سماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل، فأصل الكلام صفة ذاتية وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله، فلا يقال هكذا، بل يقال: صفات خبرية ثبتت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنى ولا فعلا مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثاني:

الصفات أوسع من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسما، وهنـاك صـفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه، فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد.

المبحث الثالث:

إن كل ما وصف الله به نفسه، فهو حق على حقيقته، لكنه يتره عن التمثيل والتكييف، أما التمثيـل، فلقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١) وقوله: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وانتم لا تعلمون﴾ (النحل: ٧٤) والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفـي التشـبيه، **لوجوه ثلاثة:**

أحدهما: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقا، بخلاف التشبيه، فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح، لأن كل موجودين فلا بد أن يكون بينهما قدر مشـترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به، ف: (الحياة) مثلا وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، لكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: إن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسـه تشبيها، فإذا قيل من غير تشبيه، فهم هذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف، فلا يجوز أن نكيف صفات الله، فمن كيف صفة من الصفات، فهو كـاذب عـاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاص لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحرمه في قولـه تعـالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ (الإسراء: ٣٦) وقوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ بعد قوله ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ (الأعراف: ٣٣) ولأنه لا يمكـن إدراك الكيفيـة، لقوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علم﴾ (طه: ١١٠) وقولـه: ﴿لا تدركـه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ (الأنعام: ١٠٣)

وسواء كان التكييف باللسان تعبيرا أو بالجنان تقديرا أو بالبنان تحريرا، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء: (الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة) وليس معنى هـذا أن لا نعتقـد أن لهـا كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود، فالاستواء والـترول واليد والوجه والعين لها كيفية، لكننا لا نعلمها، ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقـديرا وبـين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب، فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يتصور أن نعتقد للشي كيفية ونحن لا نعلمها؟

أجيب: إنه متصور، فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفيـة إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

قول ﷲ تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (الرعد: ٣٠) الآية.

قوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ الآية

﴿وهم﴾. أي: كفار قريش.

﴿يكفرون بالرحمن﴾. المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى، فهم يقرون به، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن ﷲ ﴾ (لقمان: ٢٥)، وفي حديث سهيل بن عمرو: (لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: [اكتب بسم ﷲ الرحمن الرحيم]، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدرى ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم[1]، وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى.

وقد قال ﷲ تعالى: ﴿قل ادعوا ﷲ أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ (الإسراء: ١١٠)، أي: بأي اسم من أسمائه تدعونه، فإن له الأسماء الحسنى، فكل أسمائه حسنى، فادعوا بما شئتم من الأسماء، ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسما من أسمائه تعالى فإنه يكفر، لقوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ (الرعد: ٣٠)، ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾. خبر﴿لا﴾ النافية للجنس محذوف، والتقدير: لا إله حق إلا هو، وأما الإله الباطل، فكثير، قال تعالى: ﴿ذلك بأن ﷲ هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾(لقمان: ٣٠).

قوله ﴿عليه توكلت﴾. أي: عليه وحده، لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلا: (ضربت زيدا)، فإنه يدل على أنك ضربته، ولكن لا يدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: (زيدا ضربت) دلت على أنك ضربت زيدا و لم تضرب غيره، وسبق معنى التوكل وأحكامه.

قوله: ﴿وإليه المتاب﴾. أي: إلى ﷲ. و﴿متاب﴾ أصلها متابي، فحذفت الياء تخفيفا، والمتاب بمعنى التوبة، فهو مصدر ميمي، أي: وإليه توبتي.

---

[1] البخاري: كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث (٢٧٣٤).

والتوبة: هي الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، **ولها شروط خمسة**:

١. الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد أو محاباته أو شيء من الدنيا.
٢. أن تكون في وقت قبول التوبة، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.
٣. الندم على ما مضى من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.
٤. الإقلاع عن الذنب، وعلى هذا، فإذا كانت التوبة من مظالم الخلق فلا بد من رد المظالم إلى أهلها أو استحلالهم منها.
٥. العزم على عدم العودة، والتوبة التي لا تكون إلا لله هي توبة العبادة، كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنى الرجوع، فإنها تكون له ولغيره، ومنها قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نمرقة فيها صور، فوقف بالباب و لم يدخل، وقالت: (أتوب إلى الله ورسوله، ماذا أذنبت؟) [1]فليس المراد بالتوبة هنا توبة العبادة لأن توبة العبادة لا تكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضا حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه، يقول الابن: أتوب.

(ف): قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في	**عشر من العلماء في البلدان**
واللالكائي الإمام حكاه عنـــ	**ـــهم بل حكاه قبله الطبراني**

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام. فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً، هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في إبتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات، فشبهوا أولاً وعطلوا ثانياً. وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته. وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ إثباتاً بلا تمثيل، وتتريهاً بلا تعطيل، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذي حذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله لا تشبه صفاته صفات خلقه، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ و لم يتناقضوا، وأولئك المعطلة كفروا بما

[1] البخاري: كتاب البيوع: باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، حديث (٢١٠٥)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة باب: تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ، حديث (٢١٠٧).

في الكتاب والسنة من ذلك، وتناقضوا. فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت: كالإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده المشهور، وكتاب السنة لابنه عبد الله، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكناني في رده على بشر المريسي، وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد. وهو بشر المريسي، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة a بن خزيمة الشافعي، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني الشافعي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وأبي عمر بن عبد البر النمري، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو a عبد الله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء. والله أعلم.

وفي صحيح البخاري عن علي ﷺ: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله) [1].

(**ف**): **قوله:** وفي صحيح البخاري عن علي ﷺ: حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله.

علي: هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ. فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل، فربما استنكرها بعض الناس وردها وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين ﷺ إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علماً وعملاً، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش،

---

[1] البخاري: كتاب العلم / باب من خص بالعلم قوما دون قوم حديث (١٢٧).

والمرعش، والتبصرة لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده. والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القصاص عن القصص، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: (لا يقص إلا أمير أو مأمور)[1] وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصداً، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(**ق**): قوله في أثر علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس). أي: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

قوله: (بما يعرفون). أي: بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لا يفتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ، قال: (إنك لن تحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[2] ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدا رويدا حتى تستقر عقولهم، وليس معنى (بما يعرفون)، أي: بما يعرفونه من قبل، لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: (أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!). الاستفهام للإنكار، أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم بطريقة تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويدا رويدا حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس ويستنكرونها، فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها، حتى تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله - عز وجل - وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

---

[1] ثبت هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ من حديث عرفة بن مالك بلفظ "لا يقص إلا أمير، أو مأمور، أو مختال" ، أبو داود: كتاب العلم، باب في القصاص ،حديث(٣٦٦٥)وصححه الألباني في صحيح الجامع(٧٦٣٠).

[2] رواه مسلم في المقدمة.

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات:

مناسبتة ظاهرة، لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا[1] مع ثبوت العلو، فلو حدثت العامي بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذا نزل، صارت السماوات فوقه وصار العرش خاليا منه، وحينئذ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله - عز وجل - ينزل نزولا لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: (من يدعوني فاستجيب له...) الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله - عز وجل - في هذه الساعة من الليل.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض - لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك - فقال: (ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه) انتهى[2].

(**ف**): **قوله:** وروى عبد الرزاق هو ابن همام الصنعاني المحدث محدث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري. وهو شيخ عبد الرزاق يروي عنه كثيراً.

ومعمر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبي عمرو راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب a بن شهاب الزهري يروي عنه كثيراً.

قوله: عن ابن طاوس هو عبد الله بن طاوس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: عن أبيه هو طاوس بن كيسان الجندي بفتح الجيم والنون - الإمام العلم، قيل اسمه ذكوان، قاله ابن الجوزي.

---

[1] البخاري: كتاب الجمعة /باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، حديث (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل، حديث (٧٥٨).

[2] صحيح: رواه عبد الرزاق، حديث (٢٠٨٩٥). أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٤٨٥) وقال الألباني في تخريج السنة: "اسناده صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم غير ان ثور واسمه محمد وهو ثقة إتفاقاً"أ.هـ.

قلت: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم، قال في تهذيب الكمال: عن الوليد الموقري عن الزهري قال: قدمت على عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خلفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك. قال: فمن يسود أهل مصر؟؟ قلت يزيد بن حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي، قال: قلت: من الموالي. قال فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب. قال: ويلك يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين: من حفظه ساد ومن ضيعه سقط.

قوله: عن ابن عباس قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ قال: " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " وروى عنه أصحابه أئمة التفسير: كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم.

(**ق**): قوله في أثر ابن عباس: (انتفض). أي: اهتز جسمه، والرجل مبهم والصفة التي حُدث بها لم تُبين، وبيان ذلك ليس مهما، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيما لله، وهذا أمر عظيم صعب، لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره.

قوله: (ما فرق). فيها: **ثلاث روايات:**

١. (**فَرَقُ**)، بفتح الراء وضم القاف.
٢. (**فرَّقَ**)، بفتح الراء مشددة، وفتح القاف.
٣. (**فَرَقَ**)، بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلى رواية (فَرَقُ) تكون (ما) استفهامية مبتدأ، و(فرق) خبر المبتدأ، أي: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله – ﷻ – كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا ينصب تماما على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه؟

وعلى رواية (فرّق) أو(فَرَقَ) تكون فعلا ماضيا بمعنى ما فرقهم، كقوله تعالى: ﴿وقرآنا فرقناه﴾ (الإسراء: ١٠٦)، أي: فرقناه: و(ما) يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه و لم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟

(ف): **قوله:** ما فرق هؤلاء يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرق أي خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين قال الذهبي: حدَّث وكيع عن إسرائيل بحديث: إذا جلس الرب على الكرسي فاقشعر رجل عند وكيع. فغضب وكيع. وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية. وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به، فشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ' ٢: ٨٥ ' ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك من الإيمان بكتاب الله كله واليقين كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧] فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضي الله عنهما تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله فيحمله على غير معناه، كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته. وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد المتشابه إلى المحكم. وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

(ق): **قوله:** (يجدون رقة عند محكمه). الرقة: اللين والقبول، و(محكمه)، أي: محكم القرآن.

قوله: (ويهلكون عند متشابهه). أي: متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفي معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفردا دون المتشابه، فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾ (الأنعام: ١١٥) وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: ١) وقول تعالى ﴿كتاب أُحكمت آياته﴾ (هود: ١).

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضا في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضا ولا يتناقض، قال تعالى: ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾ (الزمر: ٢٣) والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفي على كل أحد، ونسبي يخفي على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ (آل عمران: ٧)، فعلى الوقوف على ﴿إلا الله ﴾ يكون المراد بالمتشابه المطلق، وعلى الوصل ﴿إلا الله والراسخون في العلم﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، **وللسلف قولان:**

القول الأول: الوقف على ﴿إلا الله ﴾، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا، فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، وقال الله تعالى في نعيم الجنة: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قُرة أعين﴾ (السجدة: ١٧)، أي: لا تعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس: (ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء)[1].

والقول الثاني: الوصل، فيقرأ: ﴿إلا الله والراسخون في العلم﴾، وعلى هذا فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابها، ولهذا يروى عن ابن عباس، أنه قال: (أنا من الراسخين في العلم الذي يعلمون تأويله)[2] و لم يقل هذا مدحا لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه، فالقرآن معانيه كلها بيّنة، ولكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعا بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما، فإنها تحمل عليهما جميعا.

---

[1] ابن حزم في الفصل (١٨٠/٢) وقال: (هذا سند في غاية الصحة) —، أخرجه الطبري في تفسيره (١٧٤/١) والمقدسي في المختارة (١٦/١٠)وهناد في الزهد (٤٩)، وقال المنذري في (الترغيب) (٥٦٠/٤): (رواه البيهقي موقوفا بإسناد جيد).

[2] انظر قوله في: (تفسير الطبري) (١٨٣/٣).

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه، فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم، إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ (ص: ٢٩) ثم تستثنى الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعا وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول، لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعا يكون خفيا، ويكون معنى قوله تعالى ﴿ليدبروا آياته﴾، أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه، إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرؤون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت... والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم.

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعني أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه على جميع الناس.

(ف): (ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه)

قال في الدر المنثور: أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: " كان الكتاب الأول يترل من باب واحد على حرف واحد، فترل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمة، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا "[1].

قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ' ٣: ٧ ' ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ الآية. قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا بين ذلك.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ آيات محكمات ﴾ قال: منهن قوله تعالى: ' ٦: ١٥١ - ١٥٣ ' ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى ثلاث آيات، ومنهن: ' ١٧: ٢٣ - ٣٩ ' ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى آخر الآيات.

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم: المحكمات الناسخات التي يعمل بهن، والمتشابهات المنسوخات.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية ﴿ هن أم الكتاب ﴾ فقال أبو فاختة: هن فواتح السور. منها يستخرج القرآن: ﴿ الم ۞ ذلك

[1] حسن: الحاكم (٥٥٣/١)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥٨٧) لطرقه.

الكتاب ﴾ منها استخرجت البقرة و﴿ الم ۝ اللَّهُ لا إله إلا هو ﴾ منها استخرجت آل عمران. وقال يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال والحرام. والحدود وعماد الدين.

وأخرج ابن جرير عن a بن جعفر بن الزبير قال: المحكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه وأخر متشابهات في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى اللَّهُ بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان إنما قال: " هن أم الكتاب " لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن: " وأخر متشابهات " يعني فيما بلغنا ألم والمص والمر.

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء اللَّهُ تعالى وصفاته من المتشابه، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

ولما سمعت قريش رسول اللَّهُ ﷺ يذكر الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل اللَّهُ فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (الرعد: ٣٠)[١]

(ق): **قوله:** (ولما سمعت قريش رسول اللَّهُ يذكر الرحمن). أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية وأمر النبي ﷺ أن يكتب (بسم اللَّهُ الرحمن الرحيم)، فقال (أما الرحمن، فلا والله ما أدري ما هي، وقالوا: إننا لا نعرف رحمانا إلا رحمن اليمامة، فأنكروا الاسم دون المسمى، فأنزل اللَّهُ: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾، أي: بهذا الاسم من أسماء اللَّهُ.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسما من أسماء اللَّهُ الثابتة في الكتاب أو السنة، فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾.

وقوله: (ولما سمعت قريش). الظاهر – والله أعلم – أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك و لم تنكر، صح أن ينسب لهم جميعا، بل إن اللَّهُ نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة: من الآية٦٣)، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

---

[١] أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/١٥٠) عن مجاهد.

(**ف**): قال المصنف رحمه اللَّهُ تعالى: ولما سمعت قريش رسول اللَّهُ ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل اللَّهُ فيهم: ' ١٣: ٣٠ ' ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ روى ابن جرير عن قتادة: ﴿ وهم يكفرون بالرحمن﴾ ذكر لنا أن نبي اللَّهُ ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب: هذا ما صالح عليه a رسول اللَّهُ، فقال مشركوا قريش: لئن كنت رسول اللَّهُ ثم قاتلناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه a بن عبد اللَّهُ. فقال أصحاب رسول اللَّهُ ﷺ: يا رسول اللَّهُ دعنا نقاتلهم. فقال: لا. اكتبوا كما يريدون: إني a بن عبد اللَّهُ فلما كتب الكاتب بسم اللَّهُ الرحمن الرحيم قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه. وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم. فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم. قال: لا. ولكن اكتبوا كما يريدون وروى أيضاً عن مجاهد قال: قوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد : ٣٠] قال: هذا ما كاتب عليه رسول اللَّهُ ﷺ قريشاً في الحديبية، كتب بسم اللَّهُ الرحمن الرحيم قالوا: لا تكتب الرحمن، وما ندري ما الرحمن؟ لا نكتب إلا باسمك اللهم. قال تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ الآية.

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال: كان رسول اللَّهُ ﷺ يدعو ساجداً: يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل اللَّهُ: ' ١٧: ١١٠ ' ﴿ قل ادعوا اللَّهُ أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ الآية.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد .

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب اللَّهُ ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه هلك.

(**ق**): قوله فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات. عدم بمعنى انتفاء، أي: انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك.

الثانية: تفسير آية الرعد. وهي قوله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ وسبق تفسيرها.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع. وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر. وهي أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به يفضي به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس في أشياء كثيرة مما أخبر به النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة، كما أخبر النبي ﷺ: (إن الأرض يوم القيامة تكون خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته)[1] وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور، لو حدثنا بها إنسانا عاميا لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تبين له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثلما نعلم الصبي شيئا فشيئا.

وقوله: (ولو لم يتعمد المنكر) أي: ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئا من ذلك وأنه أهلكه. وذلك قوله: (ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة - أي لينا - عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه فينكرونه؟).

❊❊❊❊❊

[1] البخاري: كتاب الرقاق / باب يقبض الله الأرض يوم القيامة حديث (٦٥٢٠)، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار / باب نزل أهل الجنة حديث (٢٧٩٢).

باب قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (النحل: ٨٣)

(**ثم**): هذا الباب من الأبواب العظيمة في هذا الكتاب، وبخاصة في هذا الزمن؛ لشدة الحاجة إليه، وترجمه المصنف -رفع الله مقامه في الجنة- بقوله: "باب قول الله -تعالى-: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ (النحل: من الآية٨٣) فوصف الكفار في سورة النحل، التي تسمى سورة النعم، وصفهم بأنهم يعرفون نعمة الله، ثم ينكرونها، وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يُجعَل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها، وهو الله -جل جلاله-.

فالواجب على العبد أن يعلم أن كل النعم من الله -جل وعلا- وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله -جل وعلا- وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال التوحيد، ونوع شرك بالله -جل وعلا- ولهذا تكون مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد، أن ثمت ألفاظاً يستعملها كثير من الناس في مقابلة النعم، أو في مقابلة اندفاع النقم، وتكون تلك الألفاظ نوع شرك بالله -جل وعلا- بل هي شرك أصغر بالله -جل وعلا-، فنبه الشيخ -رحمه الله- بهذا الباب على ما ينافي كمال التوحيد من الألفاظ، وأن نسبة النعم إلى الله -جل وعلا- واجبة.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن لفظ (المعرفة)، يستعمل في القرآن وفي السنة غالبا، فيما يذم مِنْ أخذ المعلومات كقوله -جل وعلا-: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: من الآية١٤٦)وكقوله في هذه الآية: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ وهذا على جهة الأكثرية، وإلا فقد وردت أن المعرفة بمعنى العلم، كما جاء في صحيح مسلم في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن، قال له: (إنك تأتي قوما أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه.. أن يعرفوا الله، فإن هم عرفوا الله)، فهذا يدل على أن بعض من روى الحديث من التابعين، جعل المعرفة بمعنى العلم، وهم حجة في هذا المقام، فيدل على أن استعمال المعرفة بمعنى العلم لا بأس به.

وهذا الباب معقود لألفاظ يكون استعمالها من الشرك الأصغر؛ ذلك أن فيها إضافة النعمة إلى غير الله، والله -جل وعلا- قال﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: من الآية٥٣) وهذا نص صريح في العموم؛ لأن مجيء النكرة في سياق النفي، يدل على العموم ظهوراً، فإن سُبقَت النكرة بـ(من) دلت على العموم نصاً، والتنصيص في العموم معناه أنه لا يخرج شيء من أفراده، فدلت الآية على أنه لا يخرج شيء من النعم، أيا كان ذلك الشيء صغيرا كان، أو كبيرا، عظيما، أو حقيرا لا يكون إلا من الله -جل وعلا- فكل النعم صغرت، أو عظمت هي من الله -جل جلاله- وحده.

وأما العباد، فإنما هم أسباب تأتي النعم على أيديهم، وأسباب في إيصال النعمة إليك، فمن كان سبباً في معالجتك، أو سببا في تعيينك، أو سببا في نجاحك، أو نحو ذلك، لا يدل على أنه هو ولي النعمة، أو هو الذي أنعم، فإن ولي النعمة هو الرب -جل وعلا- وهذا من كمال التوحيد؛ فإن القلب الموحد يعلم أنه ما ثم شيء في هذا الملكوت إلا والله - جل وعلا - هو الذي يرسله، وهو الذي يمسك ما يشاء كما قال سبحانه-: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢)

فكل النعم من اللَّه - جل وعلا - والعباد أسباب في ذلك، فالواجب إذا أن تنسب النعمة إلى المسدي لا إلى السبب؛ لأن السبب لو أراد اللَّه -جل وعلا- لأبطل كونه سببا، وهذا السبب إذا كان آدميا، فقلبه بين أصبعين من أصابع اللَّه -جل وعلا- لو شاء لصده عن أن يكون سببا، أو أن ينفعك بشيء، فالله -جل وعلا- هو، ولي النعمة، قال شيخ الإسلام -رحمه اللَّه تعالى- {ما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل، وما من أحد تعلق بمخلوق في حصول النفع له، أو اندفاع مكروه عنه إلا خذل، وهذا في غالب المسلمين}.

وذلك لأن الواجب على المسلم أن يعلق قلبه بالله، وأن يعلم أن النعم إنما هي من عند اللَّه، والعباد أسباب يسخرهم اللَّه -جل جلاله- وهذا هو حقيقة التوحيد، ومعرفة تصرف اللَّه -جل وعلا - في ملكوته.

(ق): قوله تعالى: ﴿يعرفون﴾. أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند اللَّه.

قوله تعالى: ﴿نعمة اللَّه ﴾. واحدة والمراد بها الجمع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة اللَّه لا تحصوها﴾ (إبراهيم: ٣٤)، والقاعدة الأصولية: أن المفرد المضاف يعم، والنعمة تكون بجلب المحبوبات، وتطلق أحيانا على رفع المكروهات.

قوله: ﴿ثم ينكرونها﴾ أي: ينكرون إضافتها إلى اللَّه لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو اللَّه - سبحانه وتعالى - وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير اللَّه متناسين الذي خلق السبب فوجد به المسبب.

قوله: (الآية) أي: إلى آخر الآية، وهي منصوبة بفعل محذوف تقديره أكمل الآية.

قوله: ﴿وأكثرهم الكافرون﴾. أي أكثر العارفين بأن النعمة من اللَّه الكافرون، أي الجاحدون كونها من اللَّه، أو الكافرون بالله عز وجل.

وقوله: ﴿أكثرهم﴾ بعد قوله: ﴿يعرفون﴾الجملة الأولى أضافها إلى الكل، والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره، فقد جعل معه شريكا في الربوبية، لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد، لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم – سبحانه وتعالى – فصارت له صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

(**ف**): ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء في معناها. وقال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة. فذكر عن سفيان عن السدى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ قال:(a ﷺ) وقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.
وأخرج عن مجاهد: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾، قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثونا إياه وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي رزقهم ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

وذكر المصنف رحمه الله تعالى مثل هذا عن ابن قتيبة وهو أبو a عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر[1] النحوي اللغوي، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته. توفي سنة ست وسبعين ومائتين.
وقال آخرون: ما ذكره المصنف عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله الكوفي الزاهد عن أبيه وعائشة وابن عباس وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقة أحمد وابن معين قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ قال: إنكارهم إياها أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا واختار ابن جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وهو الصواب والله أعلم.

قوله: قال مجاهد هو شيخ التفسير: الإمام الرباني، مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول عرضت المصحف على ابن عباس مرات، أقفه عند كل آية وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفي سنة اثنتين ومائة. وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله.

[1] لعله قاضي الدينور، فإنه لم يول القضاء الا فيها.

قال مجاهد ما معناه (هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن أبائي)

(ق): **قوله:** (قال مجاهد) هو إمام المفسرين في التابعين، عرض المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما يوقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. أي: كافيك، ومع هذا، فليس معصوما عن الخطأ.

قوله: (ما معناه).أي: كلاما معناه، وعلى هذا ف (ما) نكرة موصوفة، وفيه أن الشيخ رحمه الله لم ينقله بلفظه.

قوله: (و قول الرجل).هذا من باب التغليب والتشريف، لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا، فالحكم واحد.

قوله: (هذا مالي ورثته عن آبائي). ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائي، فليس فيه شيء لأنه خبر محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذي هو الإرث متناسيا المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله - عز وجل - أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله - عز وجل -انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث، فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم؟! فمن هنا صار هذا القول نوعا من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق، فلا شيء في ذلك، ولهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: (أتنزل في دارك غدا؟) فقال: (وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع)[1] فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث.

فتبين أن هناك فرقا بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسيا أن المسبب هو الله - عز وجل -.

[1] البخاري: كتاب الحج / باب توريث دور مكة وبيعها وشرائها، حديث (١٥٨٨)، ومسلم: كتاب الحج / باب النزول بمكة للحاج وتوريث دورها، حديث (١٣٥١).

وقال عون بن عبد الله: (**يقولون لولا فلان لم يكن كذا**).

قوله:(وقال عون بن عبدالله:يقولون: لو لا فلان لم يكن كذا).وهذا القول من قائله فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقا مطابقا للواقع، فهذا لا باس به، وإن أراد بها السبب، **فلذلك ثلاث حالات**:

الأولى: أن يكون سببا خفيا لا تأثير له إطلاقا، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا، فهذا شرك أكبر لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفا في الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سري خفي.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعا أو حسا، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن يثبت كونه سببا لا شرعا ولا حسا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة، والقلائد التي يقال: أنها تمنع العين، وما أشبه ذلك، لأنه أثبت سببا لم يجعله الله سببا، فكان مشاركا لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: (لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار)[1] ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيدا لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه، لكنه شرعي حقيقي، فإنه أُذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضاح من النار، عليه نعلان يغلي منه دماغه لا يرى أن أحدا أشد عذابا منه، لأنه لو يرى أن أحدا أشد عذابا منه أو مثله هان عليه بالتسلي، كما قالت **الخنساء في رثاء أخيها صخر**:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم رحمه الله – وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به – قال في القصيدة الميمية يمدح الصحابة:

أولئك أتباع النبي وحزبه ... ولولا هُمُو ما كان في الأرض مسلم
ولولا همو كادت تميد بأهلها ... ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولا همو كانت ظلاما بأهلها ... ولكن همو فيها بدور وأنجم

فأضاف (لولا) إلى سبب صحيح.

[1] البخاري: كتاب المناقب / باب قصة أب طالب، حديث (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب شفاعة النبي صلى اله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه، حديث (٢٠٩).

وقال ابن قتيبة: (يقولون هذا بشفاعة آلهتنا)

قوله: (وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا). هؤلاء أخبث ممن سبقهم، لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلا شفعت عند الله أن يترل المطر، فهؤلاء أثبتوا سببا من أبطل الأسباب لأن الله - عز وجل - لا يقبل شفاعة آلهتهم، لأن الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا، والله - عز وجل - لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه **محذورين**:

١. **الشرك بهذه الأصنام**.
٢. **إثبات سبب غير صحيح**.

(ف): **قوله:** وقال أبو العباس هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الإمام الجليل رحمه الله - بعد حديث زيد بن خالد - وقد تقدم في باب ما جاء في الإستسقاء بالأنواء. قال: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً. نحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير. أ.هـ.
وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.
قال شيخنا رحمه الله: وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

قال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: (إن الله تعالى قال (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر....) الحديث[1] وقد تقدم: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به)

(ق): **قوله:** (وقال أبو العباس). وهو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

قوله: (هذا كثير من الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره...). وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان مذموما، لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد، كان هذا سوء أدب مع السيد وكفرانا لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق، **لما يأتي:**

١. أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.
٢. أن السبب قد لا يؤثر، كما ثبت في (صحيح مسلم) أنه ﷺ قال: (ليس السنة أن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئا) [2].
٣. أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف بطلان إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة.

قوله: (كانت الريح طيبة). هذا في السفن الشراعية التي تجري بالريح، قال تعالى: ﴿حتى إذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ (يونس: ٢٢).فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا كانت الريح طيبة، وكان الملاح – هو قائد السفينة – حاذقا، أي: مجيدا للقيادة، فيضيفون الشيء إلى سببه وينسون الخالق – جل وعلا –.

---

[1] البخاري: كتاب الآذان / باب يستقبل الامام الناس إذا سلم، حديث (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الايمان / باب كفر من قال مطرنا بالنوء، حديث (٧١).

[2] مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة / باب سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، حديث (٢٩٠٤)، وأحمد (٣٥٨/٢) حديث (٢٦٨٨).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. وسبق ذلك.

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثيرة. وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا، وما أشبه ذلك.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارا للنعمة. يعني: إنكار لتفضل الله تعالى بها وليس إنكارا لوجودها، لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب. وهذا من قوله: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾، فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.

❁❁❁❁❁

باب قول الله تعالى: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: من الآية٢٢)

(تم): هذا باب [قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: من الآية٢٢)] وفيه بيان أن هناك ألفاظا، فيها التنديد، والتنديد معناه أن تجعل غير الله ندا له، فيكون التنديد في نسبة النعم إلى غير الله، ويكون الحلف بغير الله، ويكون في قول: ما شاء الله وشاء فلان، وغير ذلك من الألفاظ.

فهذا الباب فيه بيان أن التنديد يكون في الألفاظ، والتنديد هنا المراد به التنديد الأصغر الذي هو شرك أصغر في الألفاظ، وليس التنديد الكامل الذي هو الشرك الأكبر.

(ق): **قوله:** ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾، لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١-٢٢). فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له، لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولا ينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسببية، أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أندادا.

و(لا) هذه ناهية، أي: فلا تجعلوا له أندادا في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أندادا في الربوبية، وأيضا لا تجعلوا له أندادا في أسمائه وصفاته، لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله - عز وجل -، كاشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة.

قوله: ﴿أندادا﴾. جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أندادا في العبادة.

قوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾. الجملة في موضع نصب حال من فاعل ﴿تجعلوا﴾، أي: والحال أنكم تعلمون، والمعنى: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له - يعني في الربوبية -، لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أندادا وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما الألوهية، فيجعلون له أندادا، قالوا للنبي ﷺ ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشي عجاب﴾ (ص: ٥)، ويقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، وهذا من سفههم، فإنه إذا صار مملوكا، فكيف يكون شريكا، ولهذا أنكر الله عليهم في قوله: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾، إذ الأنداد بالمعنى العام - بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواما يقرون بالربوبية - يشمل الأنداد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

(ف): قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال أبو العالية: لا تجعلوا لله أنداداً أي عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال ابن عباس: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ أي لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. وكذلك قال قتادة. وعن قتادة ومجاهد: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ قال أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله. وقال ابن زيد: الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له. وعن ابن عباس: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أشباهاً. وقال مجاهد: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ قال تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وذكر حديثاً في معنى هذه الآية الكريمة وهو ما في مسند الإمام أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: " إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها. فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً: فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت. فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة. فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه. فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً: فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله. قال: وقال رسول الله ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم. قالوا يا رسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سماهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين عباد الله "[1].

[1] صحيح: أخرجه أحمد (٤/١٣٠، ٢٠٢، ٣٤٤) وصححه ابن حبان (١٥٥) والحاكم (١/٤٢١، ٤٢٢) ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٧٣٠).

وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: " وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه الله ولا تشركوا به شيئا " وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له. وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جداً.

قال ابن عباس في الآية: الأنداد: (هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل؛ وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك) رواه ابن أبي حاتم.

(**ق**): **قوله:** (وقال ابن عباس في الآية). أي: في تفسيرها.

قوله: (هو الشرك). هذا تفسير بالمراد، **لأن التفسير تفسيران:**

١. تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرداتها.
٢. تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات، **فعندنا الآن وجهان للتفسير:**

أحدهما: التفسير اللفظي وهو تفسير الكلمات، وهذا يقال فيه: معناه كذا وكذا.

والثاني: التفسير بالمراد، فيقال: المراد بكذا وكذا، والأخير هنا هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء، فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا: الأنداد الشركاء أو الشرك، فهو تفسير بالمراد، يقول رضي الله عنه(الأنداد هو الشرك)، فإذا الند الشريك المشارك لله – سبحانه وتعالى – فيما يختص به.

وقوله: (دبيب). أي: أثر دبيب النمل وليس فعل النمل.

وقوله: (على صفاة) هي الصخرة الملساء.

وقوله: (سوداء). وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء لبان أثر السير أكثر.

وقوله: (في ظلمة الليل). وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا، فنسأل الله أن يعين على التخلص منه، ولهذا قال بعض السلف: (ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص)، ويروى عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا،

قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: قولوا: اللهم! إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم)[١].

وقوله: (والله وحياتك). **فيها نوعان من الشرك:**

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: والله ! وحياتك ! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمترلة الله في العظمة، فهو شرك أكبر، وإلا، فهو شرك أصغر.

وقوله: (وحياتي) فيه حلف بغير الله فهو شرك.

وقوله: (لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص)، كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

قوله: (لولا كليبة هذا) يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله -عز وجل- أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم، فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبي ﷺ قال: (لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار)[٢] لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب، وهو الله -عز وجل-.

وقوله: (لولا البط في الدار لأتى اللصوص). البط طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص.

وقوله: (وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت) فيه شرك، لأنه أشرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي الله - عز وجل - في التدبير والمشيئة، فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك، واعتقد أن الله - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء، فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: (لولا الله وفلان).

وقوله: (هذا كله شرك). المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو اصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٣/٤)، حديث (١٩٦٢٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧٠/٦)، حديث(٢٩٥٤٧) وذكره الهيثمي في المجمع (٢٢٣/١٠)، وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان، وابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٦٣/١).

[٢] سبق تخريجه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أن رسول ﷲ ﷺ قال: **(من حلف بغير ﷲ فقد كفر أو أشرك)** رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم [١]

قوله: (وعن عمر). صوابه عن ابن عمر، نبه عليه الشارح في (تيسير العزيز الحميد).

قوله في حديث ابن عمر رضي ﷲ عنهما: (من حلف بغير ﷲ). (من) شرطية، فتكون للعموم.

قوله: (أو أشرك). شك من الراوي، والظاهر أن الصواب الحديث (أشرك)

قوله: (من حلف بغير ﷲ). يشمل كل محلوف به سوى ﷲ، سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات ﷲ، لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا فيجوز أن تقول: وعزة ﷲ لأفعلن كذا.

وقوله: (بغير ﷲ). ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع، فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو. وحروف القسم ثلاثة: الباء، والتاء، والواو.

والباء: أعمها، لأنه تدخل على الظاهر والمضمر وعلى أسم ﷲ وغيره، ويذكر معها فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم، كقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ (الأنعام: ١٠٩)، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلن، وتدخل على المضمر مثل قولك: ﷲ عظيم أحلف به لأفعلن، وعلى الظاهر كما في الآية وعلى غير لفظ الجلالة، مثل قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو، فإنه لا يذكر معها فعل القسم، ولا تدخل على الضمير، ويحلف بها مع كل اسم، وأما التاء، فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتختص بالله ورب، قال بن مالك: (والتاء لله ورب). والحلف بغير ﷲ شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا، فهو شرك أصغر.

وهل يغفر ﷲ الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إن ﷲ لا يغفر أن يشرك به﴾ (النساء: ١١٦)، أي: الشرك الأكبر ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾، يعني: الشرك الأصغر والكبائر.

---

[١] الامام أحمد في المسند (٣٤/٢، ٨٦) وأبو داود في كتاب الايمان / باب كراهة الحلف بالاباء، والترمذي: كتاب الايمان / باب ما جاء في كراهة الحلف بغير ﷲ – وحسنه وابن حبان (١١٧٧) والحاكم (١٨/١، ٤/ ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز في الفتاوى (٣٠٧/٥)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ﷲ: إن الشرك لا يغفره ﷲ ولو كان أصغر، لأن قوله: ﴿أن يشرك به﴾ مصدر مؤول، فهو نكرة في سياق النفي، فيعم الأصغر والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركا به أو إشراكا به.

وأما قوله تعالى:﴿والشمس وضحاها﴾ (الشمس: ١)، وقوله: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ (البلد: ١)، وقوله: ﴿والليل إذا يغشى﴾ (الليل: ١) وما أشبه ذلك من المخلوقات التي اقسم ﷲ بها، **فالجواب على وجهين**:

الأول: أن هذا من فعل ﷲ والله لا يسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسؤل وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قسم ﷲ بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته، فيكون القسم به الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمنا للثناء على ﷲ – ﷻ – بما تقتضيه من الدلالة على عظمته.

وأما نحن، فلا نقسم بغير ﷲ أو صفاته، لأننا منهيون عن ذلك.

وأما ما ثبت في (صحيح مسلم)من قوله ﷺ: (أفلح وأبيه إن صدق)[1].

فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لم تثبت في الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك، فلا تصح نسبته إلى الرسول ﷺ، فيكون باطلا.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة، والأصل: (أفلح والله إن صدق).

وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات، و(أبيه) تشبه (ﷲ) إذا حذفت النقط السفلي.

الثالث: أن هذا ما يجري على الألسنة بغير قصد، وقد قال ﷲ تعالى: ﴿لا يؤاخذكم ﷲ باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان﴾ (المائدة: ٨٩)، وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك، فيكون من خصائصه، وأما غيره، فهم منهيون عنه لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه على حذف مضاف، والتقدير: (أفلح ورب أبيه).

السادس: أن هذا على منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل، وهذا من أقرب الوجوه.

ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي، لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها[2]؟

---

[1] مسلم: كتاب الايمان /باب الصلوات التي هي أحد أركان الاسلام، حديث (١١).

[2] مسلم: كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ زيارة قبر أمه، حديث (٩٧٧) والنسائي، كتاب الجنائز /باب زيارة القبور، حديث (٢٠٣٢).

فالجواب عنه: أن هذا اليمين كان جاريا على ألسنتهم، فتركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه، ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولا ثم أمروا باجتنابه [١].

أما بالنسبة للوجه الأول، فضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه صحيح، فإنه لا يجوز إنكاره.

أما الوجه الثاني، فبعيد، وإن أمكن، فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل: أي الصدقة افضل؟ فقال: (أما وأبيك لتنبأنه)[٢].

وأما الوجه الثالث، فغير صحيح لأن النهي وارد مع أنه كان يجري على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهاه النبي ﷺ[٣]، ولو صح هذا، لصح أن يقال لمن فعل شركا اعتاده لا ينهى، لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

وأما الرابع، فدعوى الخصوصية تحتاج إلى دليل، وإلا، فالأصل التأسي به.

وأما الخامس: فضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهما باطلا، ولا يمكن أن يتكلم الرسول صلى الله عليه بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلى هذا يكون أقربها **الوجه السادس** أنه منسوخ، ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووي رحمه الله ارتضى أن هذا مما يجري على اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به، ثم رأيت بعضهم جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخاري مع مخالفة راويها للثقات، فالله أعلم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: **[لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً]**[٤]

قوله في اثر ابن مسعود: (لأن أحلف بالله كاذبا). اللام: لام الابتداء، و(أن) مصدرية، فيكون قوله: (أن أحلف) مؤولا بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: (أحب إليّ). خبر مبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ (البقرة: ١٨٤).

قوله: (كاذبا) حال من فاعل أحلف.

---

[١] انظر سورة المائدة، آية رقم (٦٠).

[٢] مسلم: كتاب الزكاة / باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح حديث (١٠٣٢).

[٣] رواه النسائي، كتاب الأيمان والنذور/ باب الحلف باللات والعزى، حديث (٣٧٧٧) وابن ماجة، حديث (٢٠٩٧) وقد صح بمعناه كما في صحيح الجامع (٦٢١٦).

[٤] سبق تخريجه.

قوله: (أحب إليّ) هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتا في المفضل وفي المفضل عليه، وأحيانا في المفضل دون المفضل عليه، وأحيانا لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبا أهون عليه من الحلف بغيره صادق، **فالحلف كاذبا محرم من وجهين:**

١. أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢. أن هذا الكذب قرن باليمين، واليمين تعظيم لله – عز وجل –، فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص لله – عز وجل –، حيث جعل اسمه مؤكدا لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذبا عند بعض أهل العلم من اليمين المغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقا، فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبا، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا: إن الحلف بالله كاذبا، من اليمين الغموس، لأن الشرك لا يغفر، قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ (النساء: ١١٦) وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان: ١٣)، وسئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: (إن تجعل لله ندا وهو خلقك)[١]، والشرك متضمن للكذب، فإن الذي جعل غير الله شريكا لله كاذب، بل من أكذب الكاذبين، لأن الله لا شريك له.

وعن حذيفة رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال:

(لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان) رواه أبو داود بسند صحيح [٢]

قوله في حديث حذيفة رضي الله عنه: (لا تقولوا). (لا) ناهية، ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون.

قوله: (ما شاء الله وشاء فلان). والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه، فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسويا مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساو له، فهو شرك اكبر، وإن اعتقد أنه أقل، فهو شرك اصغر.

---

[١] البخاري: كتاب التوحيد / باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادا)، مسلم: كتاب الايمان / باب كون الشرك أقبح الذنوب.

[٢] أبو داود: كتاب الأدب /باب لايقال خبثت نفسي، حديث (٤٩٨٠)، وابن ماجة، حديث (٢١١٨)، وصححه الشيخ الألباني كما في الصحيحة (١٣٧).

قوله: (ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان). لما نهي عن اللفظ المحرم بين اللفظ المباح، لأن (ثم) للترتيب والتراخي، فنفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: (ما شاء الله فشاء فلان)، فالحكم فيه أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم) فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير ب (ثم) أولى لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

ويستفاد من هذا الحديث:

١. إثبات المشيئة للعبد، لقوله: (ثم شاء فلان)، فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا: إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢. أنه ينبغي لمن سد على الناس بابا محرما أن يفتح لهم الباب المباح، لقوله: (ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ (البقرة: ١٠٤)، لما نهاهم عن قول ﴿راعنا﴾ قال: ﴿وقولوا انظرنا﴾، وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة، وقال: (لا تفعل، ولكن بع الجمع بالدراهم، ثم اشتر بالدراهم جنيبا [1])، أي: تمرا جيدا، فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

وفي هذا فائدتان عظيمتان:

الأولى: بيان كمال الشريعة وشمولها، حيث لم تسد على الناس بابا إلا فتحت لهم ما هو خير منه.

والثانية: التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم، فعامل الناس بهذا ما استطعت، كلما سددت عليهم بابا ممنوعا، فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلا حتى لا يقعوا في الحرج.

[1] البخاري: كتاب البيوع / باب إذا أراد تمر بتمر خيرا منه، حديث (٢٢٠٢) ومسلم: كتاب المساقاة / باب بيع الطعام مثلا بمثل، حديث (١٥٩٣).

وجاء عن إبراهيم النخعي: **(أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك)**:

قال: **(ويقول: ولولا الله ثم فلان، ولا تقولوا لو لا الله وفلان)**.

قوله: (عن إبراهيم النخعي). من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث، كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قوله: (يكره أعوذ بالله وبك). العياذ الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب المحبوب، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلا، لكن كما قال بعضهم: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله.

وقوله: (أعوذ بالله وبك). هذا محرم، لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو الواو. ويجوز بالله ثم بك، لأن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي.

فإن قيل: سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله: أعوذ بالله ثم بك محرما.

أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة، لقوله ﷺ في (صحيح مسلم) وغيره: (من وجد ملجأ، فليعذ به)[1]، لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان. وهو ميت، فهذا شرك أكبر لأنه لا يقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)[2]، ثم قال رحمه الله: والاستعاذة لا تكون بمخلوق فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق، وهو كلام الله، والكلام تابع للمتكلم به، إن كان مخلوقا، فهو مخلوق، وإن كان غير مخلوق، فهو غير مخلوق.

---

[1] البخاري: كتاب المناقب /باب علامات النبوة في الإسلام، حديث (٣٦٠٢) ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة م باب نزول الفتن كمواقع القطر، حديث (٢٨٨٦).

[2] مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار / باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، حديث (٢٧٠٨) وأبو داود، حديث (٣٨٩٨) والترمذي، حديث (٣٤٣٧) وابن ماجة، حديث (٣٥١٨).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً، فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد. وقد سبق

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر، لأن قوله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون﴾ نازلة في الأكبر، لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر، لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك. لحديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقا، فهو أكبر من اليمين الغموس. واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذبا، وقال بعض العلماء – وهو الصحيح: أن يحلف بالله كاذبا ليقتطع بها مال امريء مسلم.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ. لأن الواو تقتضي المساواة، فتكون شركا، وثم تقتضي الترتيب والتراخي، فلا تكون شركا.

❁❁❁❁❁

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

(**ق**): **مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد**: أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله، لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف، وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله، وهذا ينافي كمال التوحيد، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضى الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضى بيمينه، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لّما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: (تبرئكم يهود بخمسين يمينا. فقالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود؟)[1]. فأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **(لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حُلِف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله)** رواه ابن ماجة بسند حسن [2]

قوله في الحديث: (لا تحلفوا).(لا): ناهية، ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون، و(آباؤكم): جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم، لأنه شرك، وقد سبق بيانه.

قوله ﷺ: (من حلف بالله، فليصدق، ومن حلف له بالله، فليرض) **هنا أمران**:

الأمر الأول: للحالف، فقد أُمر أن يكون صادقا، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله: (من حلف بالله، فليصدق)، أي: فليكن صادقا في يمينه، **وهل يشترط أن يكون مطابقا للواقع أو يكفي الظن؟**

الجواب: يكفي الظن، فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، كقول الرجل للنبي ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني. فأقره النبي ﷺ.

---

[1] البخاري: كتاب الأدب / باب إكرام الكبير ويبدأ الأكبر بالكلام والسؤال، حديث (٦١٤٢، ٦١٤٣)، ومسلم: كتاب القسامة، باب القسامة، حيث (١٦٦٩).

[2] ابن ماجة: كتاب الكفارات / باب من حلف له بالله فليرض وقال البويصري في مصباح الزجاجة (١٤٣/٢) هذا اسناد صحيح رجاله ثقات) وقال ابن حجر في الفتح (٥٣٥/١١) سند صحيح، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤٧).

الثاني: للمحلوف له، فقد أمر أن يرضى بيمين الحالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني يترل على إذا كان الحالف صادقا، لأن الحديث جمع أمرين: أمرا موجها للحالف، وأمرا موجها للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقا، وجب على المحلوف له الرضا.

فإن قيل: إن كان صادقا فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟.

أجيب: أن اليمين تزيده توكيدا.

قوله: (ومن لم يرض، فليس من الله) أي: من لم يرض بالحلف بالله إذا حلف له، فليس من الله، وهذا تبرؤ منه يدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لابد من ملاحظة ما سبق، وقد أشرنا أن في حديث القسامة دليلا على أنه إذا كان الحالف غير ثقة، فلك أن ترفض الرضا به، لأنه غير ثقة، فلو أن أحدا حلف لك، وقال: والله، إن هذه الحقيبة من خشب. وهي من جلد، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه، والشرع لا يأمر بشيء يخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن، وإن كان العقل لا يدرك أحيانا مدى حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن، لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ (المائدة: ٥٠) فإذا اشتبه عليك حسن شيء من أحكام الشرع، فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع، فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله، فهو حق وهو أحسن الأحكام.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء. لقوله: (لا تحلفوا بآبائكم)، والنهي للتحريم.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى. لقوله: (ومن حلف له بالله، فليرض)، وسبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: وعيد من لم يرض. لقوله: (ومن لم يرض، فليس من الله).

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف -: أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين، فكيف باليمين؟

وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء: أنها اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له، فهل يلزمه أن يصدق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس:

الأولى: أن يعلم كذبه، فلا أحد يقول: إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه، فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران، فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه، فيجب أن يصدقه.

الخامسة: أن يعلم صدقه، فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية في باب التحاكم، فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها، لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي، وهو واجب.



باب قول (ما شاء ٱللَّهُ وشئت)

(ق): مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن **قوله:** (ما شاء ٱللَّهُ وشئت) من الشرك الأكبر أو الأصغر، لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساو لله، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ، فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

(ف): قوله: عن قتيلة بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث في سنن النسائي، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبد ٱللَّهِ بن يسار الجعفي.

عن قتيلة: أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء ٱللَّهُ وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ((ورب الكعبة، وان يقولوا: ما شاء ٱللَّهُ ثم شئت)). رواه النسائي وصححه [1]

(ق): قوله: (أن يهوديا). اليهودي: هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: (إنا هدنا إليك)، أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا ابن يعقوب، فتكون التسمية من أجل النسب، وفي الأول تكون التسمية من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعا.

قوله: (إنكم تشركون). أي: تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قوله: (ما شاء ٱللَّهُ وشئت). الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويا للمعطوف عليه، وهو ٱللَّهُ – عز وجل –، حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

قوله: (والكعبة). الشرك هنا أنه حلف بغير ٱللَّهِ، و لم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هذا الكلام، فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، فيكون القسم بالله.

---

[1] الإمام احمد في المسند (٣٧١/٦، ٣٧٢) والنسائي: كتاب الإيمان والنذور / باب الحلف بالكعبة حديث (٣٧٧٣)، والحاكم (٣١٥/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

وأمرهم أن يقولوا: ما شاء ﷲ، ثم شئت، فيكون الترتيب بـ(ثم) بين مشيئة ﷲ ومشيئة المخلوق، وبذلك يكون الترتيب صحيحا، أما الأول، فلأن الحلف صار بالله، وأما الثاني، فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة ﷲ، وأنه لا مساواة بينهما.

ويستفاد من هذا الحديث:

١) أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه، لأن ما قاله حق.

٢) مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبه عليه ليس من أهل الحق.

٣) أنه ينبغي عند تغيير الشيء أن يغير إلى شيء قريب منه، لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: (ورب الكعبة)، و لم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: (ما شاء ﷲ، ثم شئت).

إشكال وجوابه: **وهو أن يقال: كيف لم ينبه على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟**.

جوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه و لم يعلم به.

ولكن يقال: بأن ﷲ يعلم، فكيف يقرهم؟

فيبقى الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر، فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركا أكبر ولا يرون عيبهم.

(**تتمة**): الشرك في الألفاظ، أتى بالتدريج في تاريخ بعثة النبي -عليه الصلاة والسلام- وتبليغه أمته بالأوامر والنواهي، فكان الحلف بالآباء جائزا، ثم نهاهم -عليه الصلاة والسلام- عن ذلك، وكذلك قول: ما شاء ﷲ وشئت، ثم نهاهم عن ذلك؛ ولهذا قال المصنف في مسائل كتاب التوحيد: فيه أن الشرك فيه أكبر، وأصغر؛ لقوله: ((كان يمنعني كذا وكذا)) وأما الشرك الأكبر: فلا يجوز أن يؤخر إنكاره، أو أن يمنع عنه مانع، أما شرك الألفاظ، فقد تكون المصلحة والفقه -فقه الدعوة وفقه ترتيب الأهم والمهم وتقديم الأهم على المهم- أن يؤخر بعضه؛ لتتم المصلحة العظمى، أما الشرك الأكبر فلا مصلحة تبقى مع وجوده.

وله أيضا عن ابن عباس، إن رجلا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: [أجعلتني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده][1]

(ق): قوله في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رجلا قال للنبي صلى الله علي وسلم. الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيما، وأنه جعل الأمر مفوضا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: (أجعلتني لله ندا؟!). الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندا فقد أتى شيئا عجابا.

والند: هو النظير والمساوي، أي أجعلتني لله مساويا في هذا الأمر؟

قوله: (بل ما شاء الله وحده). أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بعدت.

يستفاد من الحديث:

١. أن تعظيم النبي صلى الله عليه بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة، فهو شرك اكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك، فهو أصغر وإذا كان هذا شركا، فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟

هذا أعظم، لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولكن الله فضله على البشر بما أوحى إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾، فهو بشر، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مثلكم﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد﴾ (الكهف: ١١٠)، ولاشك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلى خصائص الربوبية، فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذلك، فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله. فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فنتزله في مترلة هو ينكرها، ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لا نترله مترلة الرب – عز وجل –.

---
[1] سبق تخريجه.

٢. إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر، لقوله ﷺ: (أجعلتني لله ندا؟)، مع أنه فعل ذلك تعظيما للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحنى لك شخص عند السلام، فالواجب عليك الإنكار.

٣. أن من حسن الدعوة إلى ﷲ – ﷻ – أن نذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم، لأنه ﷺ لما منعه من قول: (ما شاء ﷲ وشئت) أرشده إلى الجائز وهو قوله: (بل ما شاء ﷲ وحده).

لابن ماجه عن الطفيل – أخي عائشة لأمها – قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن ﷲ، قالوا: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء ﷲ وشاء a، ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت إنكم لأنتم القوم لولا إنكم تقولون: المسيح ابن ﷲ، قالوا: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء ﷲ وشاء a، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: (هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم. قال: فحمد ﷲ، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ما شاء ﷲ وشاء a، ولكن قولوا ما شاء ﷲ وحده)[1]

(**ف**): **قوله:** (عن الطفيل أخي عائشة لأمها) هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء a، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

وهذا الحديث والذي قبله فيه أن يقولوا: ما شاء الله وحده ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: ثم شاء فلان لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد في كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

(**ق**): قوله في حديث الطفيل: (رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود). أي رؤيا في المنام.

قوله: (كأني): اسمها الياء، وجملة (أتيت) خبرها.

وقوله: (على نفر) من الثلاثة إلى التسعة، واليهود أتباع موسى.

---

[1] رواه ابن ماجة: كتاب الكفارات /باب النهي أن يقال ما شاء ﷲ وشئت، حديث (٢١١٨).

قوله: (لأنتم القوم). كلمة مدح، كقولك: هؤلاء هم الرجال.

وقوله: (عزير) هو رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خصت هذه لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: (ما شاء الله وشاء a) هذا شرك أصغر، لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية الرسول ﷺ بمشيئة الله ﷻ باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله جل وعلا.

قوله: (تقولون: المسيح ابن الله): هو عيسى ابن مريم وسمي مسيحا بمعنى ماسح، فهو فعيل بمعنى فاعل، لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برى بإذن الله، كالأكمه والأبرص.

والشيطان لعب بالنصارى فقالوا: هو ابن الله، لأنه أتى بدون أب، كما في القرآن: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ (الأنبياء: ٩١)، قالوا: هو جزء من الله، لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن.

والروح على الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عند الموت وتكفن ويصعد بها ويراها الإنسان عند موته، فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذا نقول لهؤلاء النصارى: إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفا وعظمة، حتى إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تدعني إلا بيـــا عبدها فإنه أشرف أسمائي

قوله: (فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت) المقصود بهذه العبارة الإبهام، كقوله تعالى ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (طــه: من الآية٧٨)، والإبهام قد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنى آخر.

قوله: (هل أخبرت بها أحدا؟). سأل النبي ﷺ هذا السؤال، لأنه لو قال: لم أخبر أحدا، ، فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحداً هذا هو الظاهر، ثم بين له الحكم عليه الصلاة والسلام، لكن لما قال: إنه أخبر بها، صار لابد من بيانها للناس عموما، لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصا، فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: (فحمد الله). الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

قوله: (وأثني عليه). أي كرر ذلك الوصف.

قوله: (أما بعد). سبق أنها بمعنى مهما يكن من شيء بعد، أي: بعد ما ذكرت، فكذا وكذا.

قوله: (يمنعني كذا وكذا). أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار، لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق، ولكن الحياء من أن ينكر شيئا قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حرمت في سورة المائدة، فالرسول صلى الله عليه لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأي ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين للنطق بها.

قوله: (قولوا ما شاء الله وحده). نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله صلى الله عليه وسلم: (أ جعلتني لله نداً؟) فكيف بمن قال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك. . . .

والبيتين بعده.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله: (يمنعني كذا وكذا).

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. لقوله: (إنكم لتشركون).

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى. أي: إذا كان له هوى فهم شيئا، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه، فاليهود – مثلا – أنكروا على المسلمين قولهم: (ما شاء الله وشئت)، وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزير ابن الله، ويصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه، فتجده يحمل النصوص من الدلالات ما لا تحتمل، كذلك أيضا بعض العصريين يحمل النصوص ما لا تحتمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، وكل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها، فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه، ثم يكون فهمه تابعا لها، لا أن يخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده، ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل، لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقادك على أن تحرف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل أن الإنسان إذا كان له هوى، فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه.

الثالثة: قوله ﷺ: (أجعلتني لله ندا؟!) هو قوله: (ما شاء الله وشئت).

وقوله: (فكيف بمن قال: ما لي ألوذ به سواك...) يشير رحمه الله إلى أبيات للبوصيري في البردة – القصيدة المشهورة –، يقول فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به	**سواك عند حلول الحادث العمم**
إن لم تكن آخذا يوم المعاد يدي	**عفوا وإلا فقل يا زلة القدم**
فإن من جودك الدنيا وضرتها	**ومن علومك علم اللوح والقلم**

وهذا غاية الكفر والغلو، فلم يجعل لله شيئا، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه a بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله: (يمنعني كذا وكذا) لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي. تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة)[1]. لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى

[1] البخاري: كتاب التعبير / باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً، حديث (٦٩٨٩)، ومسلم: كتاب الرؤيا، حديث (٢٢٦٥).

رمضان، وهذا ستة أشهر، فإذا نسبت هذا إلي بقية زمن الوحي، كان جزءا من ستة وأربعين جزءا، لأن الوحي كان ثلاثة وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة له.

والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن الصلاح، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام، فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصها رجل على النبي ﷺ قال: (إني رأيت رأسي قد قطع، وإني جعلت أشتد وراءه سعيا. فقال النبي ﷺ: (لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك)[1]، والغالب أن المرائي المكروهة من الشيطان، قال الله تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله﴾ (المجادلة: ١٠) ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: (أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت. وان يتحول إلى الجانب الآخر، وأن لا يخبر أحدا)[2]، وفي رواية: (أمره أن يتوضأ وأن يصلى)[3].

السادسة: أنه قد تكون سببا لشرع بعض الأحكام، من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي صلى الله عليه رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: (إنها رؤيا حق)[4]، وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شماس، فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت برمة، وعندها فرس يستن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره، فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس[5]، فنفّذ أبو بكر وصيته؛ لوجود القرائن التي تدل على صدقها، لكن لو دلّت على ما يخالف الشريعة؛ فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة.

❁❁❁❁❁

---

[1] مسلم: كتاب الرؤيا / باب لا يخبر بتلاعب الشيطان به في المنام، حديث (٢٢٦٨)، وابن ماجة حديث (٣٩١٢).

[2] مسلم (كتاب الرؤيا) (٢٢٦٠).

[3] البخاري: كتاب التعبير / باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر ولا يذكرها، حديث (٧٠٤٤)، مسلم: كتاب الرؤيا، حديث (٢٢٦١) بدون الأمر بالوضوء.

[4] الإمام أحمد في (المسند) (٤٣/٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة / باب كيفية الأذان، حديث (٤٩٩) وصححه جمع من الأئمة.

[5] الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٣٢٢/٩)، وقال: (رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح).

باب من سب الدهر فقد آذى الله

(**تم**): الدهر: هو الزمان كاليوم والليلة، والأسابيع والأشهر، والسنين، والعقود، هذا هو الدهر، وهذه الأزمنة مفعولة، لا فاعلة، فهي لا تفعل شيئا، وإنما هي مسخرة يسخرها الله -جل جلاله- وكل يعلم أن السنين لا تأتي بشيء، وإنما الذي يفعل هو الله -جل وعلا- في هذه الأزمنة؛ ولهذا كان سب هذه السنين سبا لمن تصرف فيها، وهو الله -جل جلاله- لهذا عقد المؤلف هذا الباب ليبين أن سب الدهر ينافي كمال التوحيد، وأن سب الدهر يعود على الله -جل وعلا- بالإيذاء؛ لأنه سب لمن تصرف في هذا الدهر.

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهو أن سب الدهر من الألفاظ التي لا تجوز، والتخلص منها واجب، واستعمالها مناف لكمال التوحيد، وهذا يحصل من الجهلة كثيرا، فإنهم إذا حصل لهم في زمان شيء لا يسرهم، سبوا ذلك الزمان، ولعنوا ذلك اليوم، أو لعنوا تلك السنة، أو لعنوا ذلك الشهر، ونحو ذلك من الألفاظ الوبيلة، أو شتموا الزمان، وهذا لا شك لا يتوجه إلى الزمن؛ لأن الزمن شيء لا يَفعَل، وإنما يُفعَل فيه، وهو أذية لله، جل وعلا.

قوله: ((باب من سب الدهر)) السب في أصله التنقص، أو الشتم، فيكون بتنقص الدهر، أو يكون بلعنه، أو بشتمه، أو بنسبة النقائص إليه، أو بنسبة الشر إليه، ونحو ذلك، وهذا كله من أنواع سبِّه، والله -جل وعلا- هو الذي يقلب الليل والنهار.

(**ق**): **وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:**

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللّوم، فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هذا يوم عصيب﴾ (هود: ٧٧).

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبِّه الدهر أن الدهر هو الذي يُقلِّب الأمور إلى الخير والشر؛ فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقاً؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يُعبَد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفه في العقل والضلال في الدين؛

لأن حقيقة سبِّه تعود إلى الله –سبحانه–؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس هذا السب يُكفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: (فقد آذى الله). لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ (الأحزاب: ٥٧)، وفي الحديث القدسي: (يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار)[1]، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ (آل عمران: ١٧٦)، وفي الحديث القدسي: (يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني)[2] رواه مسلم.

(**تم**): وسب الدهر –كما ذكرنا– محرم، وهو درجات، وأعلاها لعن الدهر؛ لأن توجه اللعن إلى الدهر أعظم أنواع المسبة، وأشد أنواع الإيذاء، وليس من مسبة الدهر وصف السنين بالشدة، ولا وصف اليوم بالسواد، ولا وصف الأشهر بالنحس، ونحو ذلك؛ لأن هذا مقيد، وهذا جاء في القرآن في نحو قوله – جل وعلا–: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ (فصلت: من الآية١٦) فوصف الله –جل وعلا– الأيام بأنها نحسات.

والمقصود في أيام نحسات عليهم، فوصف الأيام بالنحس؛ لأنه جرى عليهم فيها ما فيه نحس عليهم، ونحو ذلك قوله – جل وعلا – في سورة القمر ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (القمر: من الآية١٩) فهذا ليس من سب الدهر؛ لأن المقصود بهذا الوصف ما حصل فيها كان من صفته كذا وكذا على هذا المتكلم، وأما سبه أن ينسب الفعل إليه، فيسب الدهر لأجل أنه فعل به ما يسوؤه، فهذا هو الذي يكون أذية لله، جل وعلا.

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: ٢٤)

(**ق**): قوله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾. المراد بذلك المشركون الموافقون للدُّهرية –بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغيّر فيه الحركة–، والمعنى وما الحياة والوجود

---

[1] البخاري: كتاب تفسير القرآن / باب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: من الآية٢٤)، حديث (٤٨٢٦)، مسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها / باب النهي عن سب الدهر، حديث (٢٢٤٦).

[2] مسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب تحريم الظلم، حديث (٢٥٧٧).

إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنما أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

قوله: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾. أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

قوله: ﴿وما لهم بذلك من علم﴾. ﴿ما﴾: نافية، و﴿علم﴾: مبتدأ خبره مقدم ﴿لهم﴾، وأكد بـ﴿من﴾؛ فيكون للعموم: أي ما لهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: ﴿إن هم إلا يظنون﴾. ﴿إن﴾: هنا نافية لوقوع ﴿إلا﴾ بعدها؛ أي: ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعنى الوهم؛ فليس ظنهم مبنياً على دليل يجعل الشيء مظنوناً، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقاً، وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضاً يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾ (البقرة: ٤٦).

(**ف**): قال العماد ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: " وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر " ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة. وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيئ إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: " وما يهلكنا إلا الدهر " قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ أي يتوهمون ويتخيلون.

(**ق**): **والرد على قولهم بما يلي:**

أولاً: قولهم: ﴿وما هي إلى حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾.

وهذا يرده المنقول والمعقول.

أما المنقول؛ فالكتاب والسنة يدلان على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده.

وأما المعقول، فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع ما في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك تُراباً لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هذا، قال تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ (القصص: ٨٥)؛ أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى فيه ويجازى فيه كل من بلغته الدعوة.

ثانياً: قولهم: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾؛ أي: إلا مرور الزمن.

وهذا يرده المنقول والمحسوس:

فأما المنقول؛ فالكتاب والسنة يدلان على أن الإحياء والإماتة بيد الله -عز وجل-؛ كما قال الله تعالى: ﴿هو يُحيي ويُميت وإليه تُرجَعون﴾ (يونس: ٥٦)، وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ (آل عمران: ٤٩).

وأما المحسوس؛ فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة؛ كنوح عليه السلام وغيره و لم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادهم، وشباباً يموتون في قوة شباهم؛ فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب:

أن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبها إلى الدهر؛ فسوف يَسُبُّ الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: (قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار)[1]

قوله: (وفي الصحيح) عن أبي هريرة... إلى آخره). هذا الحديث يُسمى الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما يرويه النبي ﷺ عن ربه -عز وجل-، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد وما يكفر الذنوب.

(**ف**): وفي رواية: " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر "وفي رواية: " لا يقل ابن آدم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإذا شئت قبضتهما " أ.هـ.

(**ق**): **قوله:** (قال الله تعالى). تعالى: من العلو، وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترَفُّعِه -جل وعلا- عن كل نقص وسفل؛ فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا، لأنها تحمل معنى التَّرَفُّع والتَّنَزُّه عما يقوله المعتدون علواً كبيراً.

قوله: (يؤذيني ابن آدم). أي: يلحق بي الأذى؛ فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء

---

[1] البخاري: كتاب تفسير القرآن / باب: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: من الآية٢٤)، حديث (٤٨٢٦)، مسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها / باب النهي عن سب الدهر، حديث (٢٢٤٦).

وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١) وقدم النفي في هذه الآية على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه؛ فليس فيه احتمال للتمثيل؛ إذ لو كان احتمال التمثيل جائزاً في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه؛ لكان احتمال الكفر جائزاً في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: (ابن آدم). شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعلَّمَه الأسماء كلها.

واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشيئوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف، ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً، وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يُقال له: بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله … وتزويجه بنتيه بابنيه في الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر … وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء بجواب؛ فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم له … وفي غيره لغوُ كما جاء شرعُنا

ولكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هذا بين أيدي شبابنا؛ فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

وأيضاً مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامي)؛ إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكراً لمخلوق.

قوله: (يسب الدهر). الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أي: بكونه يسب الدهر؛ أي: يشتمه ويُقَبِّحُه ويلومه وربما يلعنه -والعياذ بالله- يؤذي الله، والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: (وأنا الدهر). أي: مُدبِّر الدهر ومُصَرِّفه، لقوله تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران: ١٤٠)، ولقوله في الحديث: (أقلب الليل والنهار)، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك؛ فقد جعل الخالق مخلوقاً، والمقلِّب بكسر اللام مقلَّباً بفتح اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعاً في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟

أُجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام المحذوف تقديره: وأنا مُقلب الدهر؛ لأنه فسره بقوله: (أقلب الليل والنهار)، والليل والنهار هما الدهر، ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رحمه الله؛ فإنه قال: (إن الدهر من أسماء الله)، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في أسماء الله، فأما مدلول الحديث؛ فإن السابين للدهر لم يريدوا سب الله، وإنما أرادوا سبَّ الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في أسماء الله؛ أن تكون حسنى؛ أي: بالغة في الحسن أكمله، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسماً جامداً أبداً؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى؛ فيلزم من ذلك أن تكون دالة على معان، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن، وعلى هذا؛ **فينتفي أن يكون اسماً لله تعالى لوجهين**:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات.

فلا يحكم المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: (أقلب الليل والنهار).

قوله: (أقلب الليل والنهار). أي: ذواهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقَلَّبان من طول إلى قصر إلى تساوٍ، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ (آل عمران: ٢٦)، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله -عز وجل- وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

(ف): قال في شرح السنة: حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر. أ.هـ.باختصار.

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق. قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: " وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ". ويسبون الدهر. فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار.

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله. ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار " وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

وقال a بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: استقرضت عبدي فلم يعطني، ويسبني عبدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر "[١].

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنما إنما سبوا الله سبحانه، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الإعتبار لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره – وهو المراد – والله أعلم.

(وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر).

(ق): **قوله:** (وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر). وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

---

[١] أخرجه أحمد (٢/٣٠٠، ٥٠٦) وابن خزيمة (٢٤٧٩) والحاكم (١/٤١٨) واسناده ضعيف والفقرة الأخيرة من الحديث بلفظ "يشتمني ابن أدم يقول وادهراه..." عند ابن أبي عاصم في السنة (٥٩٨) واسنادها حسن كما قال الألباني.

قوله: (فإن الله هو الدهر). وفي نسخة: (فإن الدهر هو الله)، والصواب: (فإن الله هو الدهر).

وقوله: (فإن الله هو الدهر)؛ أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المُعَلِّل حكماً؛ فهذه ثلاث فوائد في قَرن العلة بالحكم.

(**ف**): معنى هذه الرواية: هو ما صرح به في الحديث من قوله: وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار يعني ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره، بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة. كما قال الله تعالى: ' ٧: ١٦٨ ' ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ وقال تعالى: ' ٢١: ٣٥ ' ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة، كما في أشعار المولدين، كابن المعتز والمتنبي وغيرهما. وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك كقوله تعالى: ' ١٢: ٤٨ ' ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ الآية. وقال بعض الشعراء:

إن الليالي من الزمان مهولة ... تطوى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وقال أبو تمام:

أعوام وصل كاد ينسى طيبها ... ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت ... نحوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى لله.

الثالثة: التأمل في قوله: (فإن الله هو الدهر).

الرابعة: أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه.

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

(**تم**): التوحيد يقتضي من الموحد المؤمن بالله -جل وعلا- أن يعظمه، وألا يجعل مخلوقا في منزلة الله -جل وعلا- فيما يختص به، لأنه قد يجعل المخلوق في منزلة الله لشبهة وصف قام به، ككون القاضي هو رئيس القضاة، أو أعلم، فيجعل في اللفظ والتسمية قاضيا للقضاة؛ فلهذا نبه الشيخ -رحمه الله- على أن التسمي بالأسماء التي معناها، إنما هو لله -جل جلاله- لا يجوز، والتوحيد يقتضي ألا يوصف بها إلا الله، وألا يسمى بها إلا الله -جل وعلا- فتسمية غير الله بتلك الأسماء التي ستأتي لا تجوز، ومحرم بل هي أخنع الأسماء، وأوضع تلك الأسماء، وأبغض الأسماء إلى الله -جل جلاله-.

قوله: ((باب التسمي بقاضي القضاة.. ونحوه)). ((التسمي)) يشمل ما إذا سمى نفسه، أو سماه غيره به فرضي، أما إذا سماه غيره به فلم يرض، فإنه لا يدخل في الذم؛ لعدم الرضا، فيلحق الوعيد المسمِّي، ومن رضي بذلك الاسم.

(**ق**): **قوله:** (قاضي القضاة). قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أي: الحكام، و(أل) للعموم.

والمعنى: التسمي بحاكم الحكام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتي؛ فهو لا يُلزم، ولهذا قالوا: القاضي جمع بين الشهادة، والإلزام، والإفتاء؛ فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتي؛ أي: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويُلزم الخصمين بما حكم به.

(**تم**): وقاضي القضاة: هو الذي يقضي بين القضاة، تقول: قاضي المسلمين يعني: الذي يقضي بين المسلمين، وقاضي الرياض، يعني: الذي يقضي في الخصومات التي بين أهل الرياض، فقاضي القضاة لفظ حقيقة، معناه: الذي يقضي بين القضاة، وهذا إنما هو لله -جل جلاله- فهو الذي يقضي بين العباد، بين القضاة وبين العبيد، فهو قاضي القضاة على الحقيقة -سبحانه وتعالى- فيخبر عنه بذلك؛ لأن ((قاضي القضاة))، ليست من أسماء البشر، فالذي يقضي بين القضاة هو الله -جل جلاله-.

والذين أطلقوا هذه التسمية على كبير القضاة، أو على كبير العلماء لا يعنون بها، أن ذاك يقضي بين القضاة، وإنما يعنون بها أنه وصل إلى مرتبة في القضاء، أو في العلم أعلى من درجة القاضي، فصار قاضي القضاة، كما شاع في الزمن المتأخر في الدولة العثمانية أنهم يسمون المفتي شيخ الإسلام، ووكيل المفتي: وكيل شيخ الإسلام وهي تسمية خاصة.

وقد انتشر في بلاد المسلمين عن التسمية بقاضي القضاة، ونحوه، منذ القرن الرابع الهجري إلى أوقات متأخرة قريبة من هذا الزمان، والواجب على العبد ألا يجعل هذه التسمية جارية على لسانه، ولا أن يرضى بها.

وكذلك مالك الأملاك، أو شاهان شاه، يعني: ملك الأملاك لأن فيه تسمية البشر بما يختص بالله، فإن ملك الأملاك هو الله -جل وعلا- والأملاك واسعة، والإنسان إنما يطلق عليه أنه مالك للشيء المعين، وليس مالكا لكل شيء، فالذي يملك كل شيء هو الله وحده، والبشر يملكون بالإضافة بعض الأشياء.

وكذلك المُلْك - بالضم -، وهو: نفاذ الأمر والسيطرة، فإنه يكون في بعض الأرض، وليس في كل الأرض، فالذي يملك يقال له مالك إذا كان يملك مِلكاً، أو مَلِك إذا كان يملك مُلكاً، بمعنى نفاذ الأمر، ويضاف إلى بقعته، فيقال: ملك المملكة العربية السعودية، وملك الأردن، ونحو ذلك.

وأما الإطلاق العام مَلِك الأملاك، أو شاهان شاه، فإن الأملاك منها ما هو على الأرض، ومنها غير ذلك، وهذا إنما هو لله، جل وعلا، فالتوحيد يوجب ألا يتسمى بذلك أحد، وألا يُرضَى بتسمية أحد بذلك، حتى لو وجد في بعض الكتب، لا ينقل كما هو، وقد يغلط بعض الباحثين وبعض طلبة العلم، فينقل قولاً عن بعض أهل العلم المتقدمين، ممن يتجوزون في مثل هذه الألفاظ، وفيه: ((وقال قاضي القضاة كذا))، و((كان قاضي القضاة كذا))، ولا يغيره، والواجب أن يغيره تعظيما لله -جل وعلا- وأمانة النقل التي يدعون، هي في مرتبة دون توحيد الله -جل وعلا- بكثير كثير. فالواجب تغيير ذلك، وهذا من توحيد الله، وتغيير اشتراك الخلق مع الله -جل وعلا- في حقه، فيما يزعمه بعض الخلق.

(ق): مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكاً مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله -تبارك وتعالى-؛ فالله هو القاضي فوق كل قاض، وهو الذي له الحكم، ويُرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:

1. **قضاء كوني.**
2. **قضاء شرعي.**

والقضاء الكوني لابد من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه، قال تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين﴾ (الإسراء: ٤)؛ فهذا قضاء كوني متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقاً.

وأما النوع الثاني من القضاء، وهو القضاء الشرعي؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾ (الإسراء: ٢٣)، والقضاء الشرعي لا يلزم منه وقوع المقضي، فقد يقع وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يحبه ﷻ، وقد سبق الكلام على ذلك.

فإن قلت: إذا أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يُقال: قاضي القضاة في الفقه، أو قاضي قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه بذلك؛ فهل يجوز هذا؟

فالجواب: أن هذا جائز؛ لأنه مُقَيَّد، ومعلوم أن قضاء ﷻ لا يتقيد، فحينئذ لا يكون فيه مشاركة لله -ﷻ-، على أنه لا ينبغي أيضاً أن يتسمى الإنسان بذلك أو يُسمَّى به وإن كان جائزاً؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضي قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأي بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه؛ فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله اسماً لنفسه أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به.

فإذا قُيِّد بزمان أو مكان ونحوهما؛ قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألا يفعل، لكن إن قُيِّد بفن من الفنون؛ هل يكون جائزاً؟

مقتضى التقييد أن يكون جائزاً، لكن إن قُيِّد بالفقه بأن قيل: (عالم العلماء في الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: (من يرد ﷻ به خيراً يفقهه في الدين)[1]؛ صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم في الشرع إليه؛ فهذا في نفسي منه شيء، والأولى التنزه عنه.

وأما إن قُيِّد بقبيلة؛ فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويُعجب بنفسه، ولهذا قال النبي ﷺ للمادح: (قطعت عنق صاحبك)[2].

وأما التسمي بـ(شيخ الإسلام)؛ مثل أن يُقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام a بن عبد الوهاب، أي أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام؛ فهذا لا يصح؛ إذ أن أبا بكر ﷺ أحق بهذا الوصف؛ لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قُصد بهذا الوصف أنه جَدَّد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه.

---

[1] البخاري: كتاب العلم/ باب من يرد ﷻ به خيراً يفقهه في الدين، حديث (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب النهي عن المسألة، حديث (١٠٣٧).

[2] البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يكره من التمادح، ومسلم: كتاب الزهد/ باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط.

وأما بالنسبة للتسمية بـــ(الإمام)؛ فهو أهون بكثير من التسمي بـــ(شيخ الإسلام)؛ لأن النبي ﷺ سمـــى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان.

لكن ينبغي أن ينبه أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع؛ كالإمام أحمـــد والبخاري ومسلم وغيرهم ممن له أثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمـــة، لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه، قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقـــص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضاً: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)؛ فإنها ألقاب حادثة لا تنبغي لأنـــه لا حجـــة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أُريد به المعنى الأعم؛ فلا مدح فيه لأن كل شيء آية لله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تـــدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص؛ أي: أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا في الغالب يكون مبالغاً فيـــه، والعبـــارة السليمة أن يقال: عالم مفت، قاض، حاكم، إمام لمن كان مستحقاً لذلك.

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

[إن أخنع اسم عند الله: رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله][1].

(ق): قوله: (إن أخنع اسم). أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عنـــد الله رجـــل تسمى ملك الأملاك، لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيـــث الســـلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله -عز وجل-، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذا قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأُهين، ولهذا كان أحبُّ اسم عند الله مـــا دل علـــى التذلل والخضوع، مثل: عبدالله وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجـــبروت والســـلطة والتعظيم.

(تم): قوله ((لا مالك إلا الله)) وهذا من أساليب الحصر يعني: المِلك إنما هو لله وحده، وهناك فـــرق بين مَالِك، ومَلِك، فمالك اسم فاعل من المِلْك، يقال: مَلَك الشيء، يعني: اقتناه، وصار مختصا به مـــن

[1] البخاري: كتاب الأدب /باب أبغض الأسماء إلى الله، حديث (٦٢٠٦)، ومسلم: كتاب الآداب، باب: تحريم التسمي بملك الأملاك وبملـــك الملوك، حديث (٢١٤٣).

المِلْك، وهذا راجع إلى التصرف بالأعيان، وأما المُلك بالضم، فالاسم منه الملك، وهو الذي ينفذ أمره، ونهيه، فالمِلك راجع إلى الأعيان، والمُلك راجع إلى المعاني، هذا في قول عدد من محققي أهل اللغة.

(ق): فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله، قال تعالى: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾ (فاطر: ٣)؛ فالاستفهام بمعنى النفي، وقد أُشرب معنى التحدي، أي إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾ (الحجر: ٨٦) فيها توكيد وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق، وقال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ (الحج: ٧٣)؛ فـ﴿الذين﴾: اسم موصول يشمل كل من يُدعى من دون الله ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾، وهذا على سبيل المبالغة؛ وما كان على سبيل المبالغة؛ فلا مفهوم له كثرة أو قلة.

وقال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ (الملك: ١)، وقال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ (آل عمران: ٢٦)، وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ (المؤمنون: ٨٨).

قال سفيان: مثل (**شاهان شاه**).

وفي رواية: (**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه**). قوله (**أخنع**) يعني أوضع.

(ف): **قوله:** قال سفيان يعني ابن عيينة مثل شاهنشاه عند العجم عبارة عن ملك الأملاك. ولهذا مثل به سفيان لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

(ق): **قوله:** (قال سفيان (هو ابن عيينة): مثل شاهان شاه). وهذا باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير أملاك ملك؛ أي: ملك الأملاك، لكنهم في اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه على المضاف.

قوله: وفي رواية: (أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه).

أغيظ: من الغيظ وهو الغضب؛ أي: أغضب شيء عند الله -عز وجل- وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سبباً لغضب الله وخبيثاً؛ فإن التسمي به من الكبائر.

وقوله: (أغيظ). فيه إثبات الغيظ لله – عز وجل –؛ فهي صفة تليق بالله – عز وجل – كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

(**ف**): **قوله:** وأخبثه وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة. فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم، لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله.

قوله: أخنع: يعني أوضع هذا هو معنى أخنع فيفيد ما ذكرنا في معنى أغيظ أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله.

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم. كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال: خرج معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر. فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار "[1] وأخرجه الترمذي أيضاً، وقال حسن. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً على عصا، فقمنا إليه. فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً "[2] رواه أبو داود.

قوله: أغيظ رجل هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس شيئ مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد. وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة. وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.

---

[1] صحيح: أبو داود: كتاب الأدب: باب في قيام الرجل للرجل ،حديث(٥٢٢٩)، الترمذي: كتاب الأدب: باب ماجاء في كراهية قيام الرجل للرجل (٢٧٥٤)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٣٥٧).

[2] ضعيف:أبو داود: كتاب الأدب: باب في قيام الرجل للرجل ،حديث(٥٢٣٠)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣٤٦)، بقوله "ضعيف وفي اسناده اضطراب وضعف وجهالة "أ.هـ.

فيه مسائل:

الأولى: **النهي عن التسمي بملك الأملاك.**

الثانية: **أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.**

الثالثة: **التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.**

الرابعة: **التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه.**

(**ق**): **فيه مسائل:**

الأول: النهي عن التسمي بملك الأملاك. وتؤخذ من قول الرسول ﷺ " إن أخنع اسم عند الله ﷻ رجل تسمى ملك الأملاك "، والمؤلف يقول: النهي عن التسمي... والنهي شرعاً لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة. فحسب، بل إذا ورد الذم عليه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك، فإنه يفيد النهي، وصيغة النهي ذم أو وعيد أو ما أشبه ذلك، فهو متضمن للنهي وزيادة.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان. والذي: في معناه: قاضي القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه في الفارسية.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه. أي لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضي القضاة، لعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكاً وأحكم قضاء.

وإذا سمينا شخصاً بقاضي القضاة أو حاكم الحكام وهو ليس كذلك، بل هو من أجهل القضاة ومن أضعف الحكام، جمعنا بين أمرين: بين الكذب، والوقوع في اللفظ المنهي عنه، وأما إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه، فهذا وإن كان القول مطابقاً للواقع لكنه منهي عنه، مع أن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه يؤخذ من قوله: " لا مالك إلا الله، فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهي: " لا مالك إلا الله "، فكيف تقول: ملك الأملاك وهو لا مالك إلا الله ﷻ؟.

الفرق بين ملك ومالك:

ليس كل ملك مالكاً، وليس كل مالك ملكاً، فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لا يكون بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكاً ويتصرف فيما يملكه فقط، فالملك من ملك السلطة المطلقة، لكن قد يملك

التصرف فيكون ملكاً مالكاً، وقد لا يملك فيكون ملكاً وليس بمالك، أم المالك، فهو الذي له التصـــرف بشيء معين، كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك، فهذا ليس بملك، يعني: ليس له سلطة عامة.

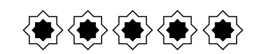
ويستفاد من الحديث أيضاً:

١. إثبات صفة الغيظ لله ﷻ، وأنه يتفاضل لقوله: " أغيظ "، وهو اسم تفضيل

٢. حكمة الرسول ﷺ في التعليم، لأنه لما بين أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: " لا مالك إلا ﷲ "، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم النـــاس أن يقـــرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية، قال ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ما ذاك والتقليد يستويان

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية، فالأثرية ما كان من كتـــاب أو ســـنة أو إجمـــاع، والنظرية: العقلية، أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع.



(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر. لقوله: (لا تسبوا الدهر).

الثانية: تسميته أذى لله. تؤخذ من قوله: (يؤذيني ابن آدم).

الثالثة: التأمل في قوله: فإن الله هو الدهر. فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مُقلِّب الدهر ومُصَرِّفه وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه. تؤخذ من قوله: (يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر)، و لم يذكر قصداً ولو عَبَّر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذياً لله وإن لم يقصده؛ لكان أوضح وأصح، لأن الله صرح بقوله: (يسب الدهر)، والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ رحمه الله بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك.



باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

(**تم**): هذا الباب فيه الإرشاد إلى الأدب الذي يجب أن يصدر من قلب الموحد ومن لسانه، فإن الموحد متأدب مع الله -جل جلاله-، ومتأدب مع أسمائه، وصفاته، ومع دينه، فلا يهزل -مثلا- بشيء فيه ذكر الله، ولا يلقي الكلمة عن الله -جل وعلا- دون أن يتدبر ما فيها، وكذلك لا يسمي أحدا بأسماء الله -جل وعلا-، ويغيِّر الاسم لأجل هذا؛ فأسماء الله -جل وعلا- يجب احترامها، وتعظيمها، ومن احترامها أن يُجعل ما لا يصلح إلا لله منها لله وحده، وألا يُسمى به البشر.

قوله: ((باب احترام أسماء الله تعالى))، هذا الاحترام قد يكون مستحبا من جهة الأدب، وقد يكون واجبا؛ فأسماء الله تعالى يجب احترامها، بمعنى يجب ألا تُمتهن.

ويستحب احترامها أيضا فيما كان من الأدب أن لا يوصف به غير الرب -جل وعلا-.

وهذا راجع إلى تعظيم شعائر الله -جل جلاله-، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢) وقال -جل وعلا-: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (الحج: من الآية٣٠) قال أهل العلم: الشعائر جمع [شعيرة]، وهي كل ما أشعر الله بتعظيمه، -يعني أعلم- بتعظيمه فهو شعيرة، ومما أشعر الله بتعظيمه أسماءه الحسنى -جل وعلا-، فيجب احترامها وتعظيمها.

ولهذا يستدل أهل العلم على وجوب ألا تُمتهن أسماء الله الموجودة في الجرائد، أو في الأوراق، وأن ترمى، أو أن توضع في أمكنة قذرة، وعلى وجوب احترام ما فيه اسم من أسماء الله بهاتين الآيتين، وبالقاعدة العامة في ذلك.

(**ق**): أسماء الله -عز وجل- هي: التي سمَّى بها نفسه أو سمَّاه بها رسوله ﷺ. وقد سبق لنا الكلام فيها في مباحث كثيرة، منها:

الأول: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

وقلنا باعتبار دلالتها على الذات مترادفة؛ لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله -عز وجل-، وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمَّنه الآخر من باب دلالة اللزوم؛ فمثلاً: (الخلاق) يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة (يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة)؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن؛ فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يُسمّى محمداً وهو من أشد الناس ذماً، وقد يسمى عبدالله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله -عز وجل-، وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك؛ فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم لنا وبعضها غير معلوم بدليل قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في دعاء الكرب: (أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي....). ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله؛ هل هي محصورة بعدد معين؟

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة).

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل؛ ليجتهد الناس في الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظاً.

ثانياً: فهمها معنىً.

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها؛ لقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها﴾ (الأعراف: ١٨٠) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب! اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء؛ فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالباً لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذاً افعل ما يكون سبباً في مغفرة ذنوبك،

هذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك؛ فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب؛ لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلاً، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قوله: (لن يدخل الجنة أحد بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟! قال: ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته)[١].

فلا تغتر يا أخي بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت كذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل اللَّه يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ (الحجرات: ١٧)، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا؛ فيجب أن نرى لله المنة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن: ٦٠)؛ فتؤمن بأن اللَّه تعالى يجزي الإحسان بالإحسان.

السابع: **أسماء اللَّه -عز وجل- ودلالتها على الذات والصفة جميعاً دلالة مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمّن، ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام.**

مثال ذلك: (الخلاق) دلّ على الذات، وهو الرب -عز وجل-، وعلى الصفة وهي الخلق جميعاً دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلّ على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء اللَّه -عز وجل- لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم متعدياً: الإيمان بالاسم اسماً لله، والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم؛ فالعليم مثلاً لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء اللَّه، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المترتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعد؛ فنؤمن بأنه من أسماء اللَّه وبما يتضمنه من صفة.

التاسع: **أن من أسماء اللَّه ما يختص به؛ مثل اللَّه، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به**، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالى: ﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ (الإنسان: ٢)، وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة: ١٢٨)[٢].

قوله: (باب احترام أسماء اللَّه). أي: وجوب احترام أسماء اللَّه، لأن احترامها احترام لله -عز وجل- ومن تعظيم اللَّه -عز وجل-؛ فلا يسمى أحد باسم مختص بالله.

---

[١] البخاري: كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة، ومسلم: كتاب المنافقين/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله.

[٢] انظر أيضاً: (رسالة القواعد المثلى) للمؤلف رحمه اللَّه.

وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يُسمَّى به غيره، وإن سُمِّيَ وجب تغييره؛ مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله؛ مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض.

(**ف**): **قوله:** عن أبي شريح قال في خلاصة التهذيب: هو أبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثاً، اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقال الشارح اسمه هانيء بن يزيد الكندي قاله الحافظ، وقيل: الحارث الضبابي. قاله المزي.

عن أبي شريح: أنه كان يكنى أبا الحكم؛ فقال له النبي ﷺ: (إن الله هو الحكم، وإليه الحكم) فقال: (إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين) فقال: (ما أحسن هذا فما لك من الولد ؟)قلت (شريح، ومسلم، وعبد الله.) قال: (فمن أكبرهم؟) قلت: (شريح)، قال: (فأنت أبو شريح)، رواه أبو داود وغيره[1] .

(**ق**): **قوله:** (عن أبي شريح) هو هانيء بن يزيد الكندي، جاء وافداً إلى النبي ﷺ مع قومه.

وقوله: يكنى أبا الحكم. أي ينادى به. والكنية ما صدر بأب أو أم أو أخ أو عم أو خال، وتكون للمدح كما في هذا الحديث، وتكون للذم كأبي جهل، وقد يكون لمصاحبة الشيء مثل: أبي هريرة، وقد تكون لمجرد العلمية كأبي بكر رضي الله عنه، وأبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لأنه ليس له ولد.

قوله: (إن الله هو الحَكم وإليه الحُكم). (هو الحكم)؛ أي: المستحق أن يكون حاكماً على عباده، حاكماً بالفعل، يدل له **قوله:** (وإليه الحكم).

وقوله: (وإليه الحكم). الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلى هذا يكون الحكم راجعاً إلى الله وحده.

---

[1] أبو داود: كتاب الأدب / باب تغيير الاسم القبيح، والنسائي: كتاب القضاء / باب إذا حكموا رجلا فقضي بينهم.

وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له؛ فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾ (يوسف: ٨٠).

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين: مؤمن وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ (الشورى: ١٠)

وأما قوله: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ (التين: ٨)، وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ (المائدة: ٥٠)؛ فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعاً للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء.

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: (الحكم).

وأما بالنسبة للعدل؛ فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: (إن الله حكم عدل) ولا أعرف فيه حديثاً مرفوعاً، ولكن قوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ (المائدة: ٥٠) لا شك أنه متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة.

قوله: (فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني). هذا بيان لسبب تسميته بأبي الحكم.

قوله: (ما أحسن هذا). الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي ﷺ غيّره.

قوله: (شريح ومسلم وعبد الله). الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله: (فأنت أبو شريح). غيره النبي ﷺ؛ **لأمرين:**

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله!

الثاني: إن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقاً لاسم الله، وليس لمجرد العَلَمية المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركاً لله – سبحانه وتعالى– في ذلك، ولهذا كنّاه النبي ﷺ بما ينبغي أن يُكنّى به.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

قوله: (ولو لم يقصد معناه) هذا في النفس منه شيء، لأنه لم يقصد معناه فهو جائز، إلا إذا سمي بما لا يصح إلا لله، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه، فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله، فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط، لأنه لا يكون مطابقا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه(الحكم)[1] و لم يغيره النبي ﷺ، لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه(حكيم)[2] واقره النبي ﷺ.

فالذي يحترم من أسمائه تعالى ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك. وقد سبق الكلام عليه.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية. تؤخذ من سؤال النبي ﷺ (فمن أكبرهم؟ قال: شريح. قال فأنت أبو شريح).

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني، لأن النبي صلى الله عليه وسم أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة و لم يأمره النبي ﷺ أن يكنى ابتداء.

ويستفاد من الحديث ما يلي:

١. أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا بابا محرما أن يبيِّنوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢. أن الحكم لله وحده، لقوله ﷺ (وإليه الحكم)، **أما الكوني**، فلا نزاع فيه إذ لا يعارض الله أحد في أحكامه الكونية.

---

[1] انظر (الإصابة) لابن حجر (٣٤٢/١).

[2] انظر(الإصابة) لابن حجر (٢٤٩/١).

أما الشرعي، فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعا سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، وأنه مساو لشرع الله، وأنه يجوز ترك شرع الله إليه، فإنه كافر لأنه جعل نفسه ندا لله - عز وجل - سواء في العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ (المائدة: ٥٠) فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساو لحكم الله، لأن أحسن اسم: معناه لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك، فقد كذب الله - عز وجل -. قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (المائدة: ٤٤) وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره، وأنه كفر.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ (المائدة: ٤٧).

قلنا: قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ (النساء: ٦٠-٦١)، وهذا دليل على كفرهم، لأنه قال: ﴿يزعمون أنهم آمنوا﴾، وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: (وإليه الحكم) يدل على أن من جعل الحكم لغير الله، فقد أشرك.

فائدة:

يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذي يجعل نظاما يمشي عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير ما أنزل الله، فهذا قد يكون كفرا أو فسقا أو ظلما.

فيكون كفرا إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له.

ويكون فسقا إذا كان لهوى في نفس الحاكم.

ويكون ظلما إذا أراد مضرة المحكوم عليه وظهور الظلم في هذه أبين من ظهوره في الثانية وظهور الفسقةفي الثانية أبين من ظهوره في الثالثة.

٣. تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تضمن أمرا لا ينبغي، كما غير النبي ﷺ بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة.

۞۞۞۞۞

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

(**تم**): هذا ((باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول))

التوحيد الخالص في القلب-بل أصل التوحيد-لا يجامع الاستهزاء بالله -جل وعلا- وبرسوله وبالقرآن؛ لأن الاستهزاء معارضة والتوحيد موافقة، ولهذا قال بعض أهل العلم: الكفار نوعان: معرضون كمن قال الله فيهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الانبياء: من الآية٢٤) ومعارضون وهم المجادلون، أو الذين يعارضون بأنواع المعارضات لأجل إطفاء نور الله، ومن ذلك الاستهزاء ونحوه.

فالتوحيد استسلام وانقياد وقبول وتعظيم، والهُزْء والاستهزاء بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول معارضة؛ لأنه مناف للتعظيم؛ ولهذا كان كفرا أكبر بالله -جل وعلا-، إذ لا يصدر الاستهزاء بالله أو برسوله ﷺ أو بالقرآن من قلب موحد أصلا، بل لا بد أن يكون إما منافقا أو كافرا مشركا.

(**ق**): هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ، فيكون معطوفا على قوله بشيء.

والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمدا ﷺ، فـ (أل) للجنس وليس للعهد.

قوله: (من هزل). سخر واستهزأ ورآه لعبا ليس جدا.

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

كيف يسخر ويستهزأ بأمر يؤمن به؟ فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

والكفر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جدا، ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل الهلاك وهو لا يشعر، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله - عز وجل - لا يلقى لها بالا يهوى بها في النار.

فمن استهزأ بالصلاة - ولو نافلة -، أو بالزكاة، أو بالصوم، أو بالحج، فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلا: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة، لأن الرب - عز وجل - كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

ثم أعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ **على قولين:**

القول الأول: أنه لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافرا، ولا يصلى عليه، ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة، كقوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا﴾ (الزمر: ٥٣) ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم.

وهذا هو الصحيح، إلا أن ساب الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله، فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعا، أما ساب الرسول ﷺ، **فإنه يتعلق به أمران:**

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل، غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ألف كتابا في ذلك اسمه(الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول) أو: (الصارم المسلول على شاتم الرسول)، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه، فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقبل منه وأطلقه؟

أجيب: بلى، هذا صحيح، لكن هذا في حياته ﷺ، وقد اسقط حقه، أما بعد موته، فلا ندري، فننفذ ما نراه واجبا في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفوا موجب للتوقف؟

أُجيب: إنه لا يوجب التوقف، لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عمن سبه؟

أُجيب: بلى، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين، و لم يقتلهم، لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحدا بعينه من المنافقين لقتلناه، وقال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط.

(**تم**): فمن استنقص الله -جل وعلا-، أو هزل بذكره لله -جل وعلا- يعني حينما ذكر الله -جل وعلا- استهزأ وهزل، و لم يظهر التعظيم في ذلك، فتَنقَّص الله -جل وعلا- كما يفعل بعض الفسقة، والذين يقولون الكلمة لا يلقون لها بالا تهوي ببعضهم في النار سبعين خريفا، أو هزل بالقرآن، أو استهزأ بالقرآن، أو بالسنة، يعني بالنبي -عليه الصلاة والسلام- فإنه كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة، هذا ضابط هذا الباب.

ويخرج عن ذلك ما لو استهزأ بالدين، فإن الاستهزاء بالدين فيه تفصيل، فإن المستهزئ بالدين أو الساب له، أو اللاعن له، قد يريد دين المستهزأ به، ولا يريد دين الإسلام أصلا، فلا يرجع استهزاؤه إلى واحد من الثلاثة.

فلهذا نقول: الكفر يكون أكبر إذا كان الاستهزاء بأحد الثلاثة التي ذكرنا ونصت عليها الآية، أو كان راجعا إلى أحد الثلاثة، أما إذا كان الاستهزاء بشيء خارج عن ذلك، فإنه يكون فيه تفصيل:

فإن هزل بالدين فينظر هل يريد دين الإسلام، أو يريد تدين فلان؟ ومثال ذلك أن يأتي واحد من المسلمين ويستهزئ مثلا بهيئة أحد الناس، وهيئته يكون فيها التزام بالسنة، فهل يكون هذا مستهزئا الاستهزاء الذي يخرجه من الملة؟

الجواب: لا؛ لأن هذا الاستهزاء راجع إلى تدين هذا المرء، وليس راجعا إلى الدين أصلا، فيعرَّف بأن هذا سنة عن النبي ﷺ، فإذا علم أنه سنة، وأقر بذلك، وأن النبي فعله، ثم استهزأ -بمعنى استنقص- أو هزأ بالذي اتبع السنة، مع علمه بأنها سنة، وإقراره بصحة كونها سنة، فهذا رجع إلى الاستهزاء بالرسول.

وكذلك الاستهزاء بكلمات قد يكون مرجعها إلى القرآن، وقد لا يكون مرجعها إلى القرآن، فيكون فيه تفصيل، فالخلاصة إذا أن الاستهزاء، إذا كان بالله، أو بصفاته، أو بأسمائه، أو بالرسول -عليه الصلاة والسلام-، أو بالقرآن؛ فإن هذا كفر، وإن كان الاستهزاء غير ذلك، فينظر، إن كان راجعا إلى أحد الثلاثة فهو كفر أكبر، وإن كان غير ذلك فإنه يكون محرما ولا يكون كفرا أكبر.

وقول الله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ۝لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]

(ق): قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾. الخطاب للنبي ﷺ، أي سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿ليقولن﴾. جواب القسم، قال بن مالك:

واحذف لدي اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم [1]

ولهذا جاءت اللام التي تقترن بجواب القسم دون الفاء التي تقع في جواب الشرط.

قوله: ﴿ليقولن﴾، أي: المَسْؤلون.

قوله: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾. أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونلعب، واللعبُ يقصد به الهزء، وأما الخوض، فهو كلام عائم لا زمام له.

هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول، فإنه يكون الخوض في الكلام واللعب في الجوارح.

وقوله ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾: ﴿إنما﴾: أداة حصر، أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب.

قوله: ﴿قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾. الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلا للسخرية؟

قوله: ﴿أبا لله﴾. أي: بذاته وصفاته.

قوله: ﴿وآياته﴾: جمع آية، ويشمل:

الآيات الشرعية، كالاستهزاء بالقرآن، بأن يقال: هذا أساطير الأولين- والعياذ بالله - أو يستهزأ بشيء من الشرائع، كالصلاة والزكاة والصوم والحج.

والآيات الكونية، كأن يسخر بما قدره الله تعالى، كيف يأتي هذا في هذا الوقت؟ كيف يخرج هذا الثمر من هذا الشيء؟ كيف يخلق هذا الذي يضر الناس ويقتلهم؟ استهزاء وسخرية.

[1] انظر ألفية ابن مالك ص (٥٢).

قوله: ﴿ورسوله﴾. المراد هنا a ﷺ.

قوله: ﴿لا تعتذروا﴾. المراد بالنهي التيئيس، أي: أنهم عن الاعتذار تيئيسا لهم بقبول اعتذارهم.

قوله: ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾. أي: بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

(**ف**): **قال شيخ الإسلام**: وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم: لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم، فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك. ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين.

وقال رحمه الله في موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنما كنا نخوض ونلعب. وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر. ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه. كقوله تعالى: ' ٢٤: ٤٧ – ٥٢ ' ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾ – إلى قوله – ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان، انتهى.

وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به. وأشدها خطراً إرادات القلوب. فهي كالبحر الذي لا ساحل له. ويفيد الخوف من النفاق الأكبر. فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه)[1]. نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

(**تم**): هذه الآية نص في أن المستهزئ بالله، وبالرسول، وبآيات الله –جل وعلا–، والمقصود بها آيات الله –جل وعلا– الشرعية، يعني القرآن، أن هذا المستهزئ كافر، وأنه لا ينفعه اعتذاره بأنه كان في هزل ولعب بل هو كافر؛ لأن تعظيم الله –جل وعلا– وتوحيده يوجب عليه ألا يستهزئ.

---

[1] البخاري تعليقاً،حديث(١٠٩/١)، ووصله ابن أبي حيثمة في تاريخه وكذا محمد بن نصر المروزي في كتاب الايمان له وأبو زرعة الدمشقي في تاريخه كما قال الحافظ في الفتح (١١٠/١).

وهذه الآية نزلت في المنافقين، وبعض أهل العلم قال: ليست في المنافقين. وهذا غلط، وليس بصواب، لأسباب منها:

أن هذه السورة -التي منها هذه الآية- هي في حال المنافقين، ولأن السياق -سابقها ولاحقها- يدل على أن الضمائر ترجع إلى المنافقين.

قال -جل وعلا- قبل هذه الآية في سورة براءة: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ۞وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (التوبة: ٦٤-٦٥) فالآية السابقة لآية الباب هي في المنافقين نصاً، فالضمير إذاً في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعود على من ذكر قبل هذه الآية وهم المنافقون المنصوص عليهم بقوله: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ وكذلك ما بعدها من الآيات في المنافقين في قوله -جل وعلا-: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧)

والأدلة على ذلك كثيرة، فالصواب في ذلك أن المراد بالآية هم المنافقون. وأما أهل التوحيد فإنه لا يصدر منهم استهزاء أصلا، ولو استهزءوا لعلمنا أنه غير معظمين لله، وأن توحيدهم ذهب أصلا؛ لأن الاستهزاء يطرد التعظيم.

فالواجب على المسلمين جميعا -وعلى طلبة العلم بخاصة- أن يحذروا من مزالق الكلام؛ لأن كثيرين يتكلمون بكلام لا يلقون له بالا، ربما استهزءوا، أو ربما تكلموا بكلام فيه شيء من الهزل، وفيه شيء من الضحك، وكان في أثناء هذا الكلام ذكر الله، أو فيه قراءة القرآن، أو فيه ذكر بعض العلم، وهذا مما لا يجوز.

وقد يدخل أحدهم في قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا)[1] نسأل الله -جل وعلا- السلامة والعافية.

فالواجب على العبد أن يعظم الله، وألا يتلفظ إلا بكلام عَقَلَه قبل أن يقوله؛ لأن اللسان هو مورد الهلكة، قال معاذ للنبي -عليه الصلاة والسلام-: (أومؤاخذون بما نقول؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم – أو قال: على وجوههم – إلا حصائد ألسنتهم؟).

فالله الله في اللسان، في أنه أعظم الجوارح خطرا، ومما يتساهل فيه أكثر الناس، فاحذر الخوض فيما لا يعنيك، وبخاصة فيما يتعلق بالدين، أو بالعلم، أو بأولياء الله، أو بالعلماء، أو بصحابة النبي -عليه الصلاة والسلام-، أو بالتابعين؛ فإن هذا مورده خطير، والله المستعان، فقد عظمت الفتنة، والناجي من سلمه الله -جل وعلا-.

---

[1] الترمذي (٢٣١٤)

(ق): **قوله:** ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾.

﴿نعف﴾: ضمير الجمع للتعظيم، أي: الله -عز وجل-.

قوله: ﴿عن طائفة منكم﴾ قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء، لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم وهداهم إلى الإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نعذب طائفة﴾. هذا جواب الشرط، أي: لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلا بد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾. الباء للسببية، أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم – والعياذ بالله –، فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يعفى عنهم.

(ف): وقال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية ابن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له: مخشي بن حمير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنا نلتفت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه. فقال وديعة بن ثابت – ورسول الله واقف على راحلته – فجعل يقول وهو آخذ بحقها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عناه أي بقوله تعالى: " إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة " في هذه الآية: مخشي بن حمير فسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر.

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود، وتجل منها القلوب. اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أحد أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره.

(ق): ويستفاد من الآيتين:

١. بيان علم الله - عَجَلَّ - بما سيكون، لقوله: ﴿ولئن سألتهم ليقولن﴾، وهذا مستقبل، فالله عالم ما كان وما سيكون، قال تعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ (هود: ١٢٣).
٢. أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله عليه حيث أمره أن يقول: ﴿أبا لله وآياته...﴾.
٣. أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر، بدليل الاستفهام والتوبيخ.
٤. أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله أعظم استهزاء وقبحا، لقوله: ﴿أبا لله وآياته...﴾، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه ما بقي إلا أن تستهزؤا بهؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء، بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.
٥. أن المستهزئ بالله يكفر، لقوله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾.
٦. استعمال الغلظة في محلها، وإلا فالأصل إن من جاء يعتذر يرحم، لكنه ليس أهلا للرحمة.
٧. قبول توبة المستهزئ بالله، لقوله: ﴿إن نعف عن طائفة...﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عُفي عنه وهُدي للإسلام وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزئ بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بين على صدق توبته، لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٠). وهم يستطيعون المفارقة، والنبي ﷺ امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى أن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (التوبة: ٦٥، ٦٦)، ولا يزيد عن هذا أبدا مع إمكان أن يزيده توبيخا وتقريعا.

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة – دخل حديث بعضهم في بعض –: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء – يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القرّاء – فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق. فقال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه – وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب – فيقول له رسول الله ﷺ ﴿أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ۞ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه[1].

قوله: (عن ابن عمر). وهو عبد الله.

(ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة). والثلاثة تابعيون، فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

قوله: (دخل حديث بعضهم في بعض). أي: إن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلا، فيجمعون هذا ويجعلونه في حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون – مثلا – دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

قوله: (في غزوة تبوك). تبوك في أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة في رجب حيث طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أُبي بنحو نصف المعسكر، حتى قيل له: إنه لا يدري أي الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟ مما يدل على وفرة النفاق في تلك السنة، وكانت في السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ﷺ: إن قوما من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له، فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهارا للقوة وإيمانا بنصر الله – ﷻ –.

قوله: (ما رأينا) تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

[1] أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/١٧٢) من حديث زيد بن أسلم وابن عمر، و(١٠/١٧٣) عن قتادة ومحمد بن كعب.

قوله: (مثل قرائنا) المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: (أرغب بطونا). المفعول الثاني، أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة، لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: (ولا أكذب ألسنا). الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولا، واللسان يطلق على القول كثيرا في اللغة العربية، كما في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ (إبراهيم: ٤٩) أي: بلغتهم.

قوله: (و لا أجبن عند اللقاء). الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه[١] لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه، فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعي واحد: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس لسانا ولا سيما النبي ﷺ وأصحابه، فإن الله وصفهم بالصدق في قوله: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ (الحشر: ٨) والمنافقون أكذب الناس، كما قال الله فيهم: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ (الحشر: ١١)، وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق[٢]، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم...﴾ (المنافقون: ٤) فلو سمعوا أحدا ينشد ضالته، لقالوا: عدو، عدو، وهم أحب الناس للدنيا، إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمي دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

قوله: (كذبت). أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: (ولكنك منافق). لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تسمى بالإسلام إلا منافق، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ أنه كافر، لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعنا في الله، لأنه طعن في حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه.

وطعنا في الرسول ﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء على دين خليله، والإنسان يستدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

---

[١] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب ما يتعوذ من الجبن، حديث (٢٨٢٢)، مسلم: كتاب الدعوات، باب: في دعاء النبي ﷺ وتعوذه في دبر كل صلاة حديث (٣٥٦٧).

[٢] البخاري: كتاب الإيمان / باب علامة المنافق، ومسلم: كتاب الإيمان / باب بيان خصال المنافق.

وطعنا في الشريعة: لأنهم الواسطة بيننا وبين الرسول ﷺ في نقل الشريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة، فلا يوثق بهذه الشريعة.

قوله: (فوجد القرآن قد سبقه). أي: بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضي من القول﴾ (النساء: ١٠٨)

قوله: (وقد ارتحل وركب ناقته). الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير، لأن ركوب الناقة هو الارتحال.

قوله: (كأني أنظر إليه). كأن إذا دخلت على مشتق، فهي للتوقع، وإذا دخلت على جامد، فهي للتشبيه، وهنا دخلت على جامد، والمعنى: كأنه الآن أمامي من شدة يقيني به.

قوله (بنسعة). هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: (والحجارة تنكب رجليه). أي: يمشي والحجارة تضرب وكأنه - والله أعلم - يمشي بسرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال، لأنه يريد أن يعتذر.

قوله: (وما يزيده عليه).أي: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالا لأمر الله - عز وجل -، وكفي بالقول الذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخا.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة: أن من هزل بهذا إنه كافر.

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الأعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

فيه مسائل:

الأولى – وهي العظيمة –: أن من هزل بهذا كافر. أي من الهزل: بالله وآياته ورسوله.

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان. أي سواء كان منافقا أو غير منافق ثم استهزأ، فإنه يكفر كائنا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله. النميمة: من نمَّ الحديث، أي: نقله ونسبه إلى غيره، وهي نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهي من أكبر الذنوب، قال ﷺ: (لا يدخل الجنة نمام)[1]، وأخبر عن رجل يعذب في قبره، لأنه كان يمشي بالنميمة[2]، وأما النصيحة لله ورسوله، فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله – عز وجل – وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة.

ومن ذلك لو أن رجلا اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزأ به في المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك، فليس هذا من النميمة، بل من النصيحة.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله. العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح، لأن الله اشترط ذلك في العفو فقال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ (الشورى: ٤٠) أي: كان عفوه مشتملا على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهذا تفسير قاصر والصواب أن المراد به اصلح من عفوه، أي: كان في عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه إفسادا لا إصلاحا، فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر، لأن الله قال: ﴿عفا وأصلح﴾، ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم.

والنبي ﷺ غلظ على هذا الرجل لكونه ﷺ لم يلتفت إليه، ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تنكب رجل الرجل، و لم يرحمه النبي ﷺ و لم يرق له، ولكل مقام مقال، فينبغي أن يكون الإنسان شديدا في موضع الشدة، لينا في موضع اللين، لكن أعداء الله – عز وجل – الأصل في معاملتهم الشدة، قال تعالى في وصف الرسول ﷺ وأصحابه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ (الفتح: ٢٩)

وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (التحريم: ٩) ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانا للدعوة والتأليف قد يكون مستحسنا.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل. فالأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعتذر محسنا، لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه اعتذار باطل، فإنه لا يقبل.

---

[1] البخاري: كتاب الأدب / باب ما يكره من النميمة، ومسلم: كتاب الإيمان / باب غلظ تحريم النميمة.

[2] البخاري: كتاب الجنائز / باب عذاب القبر من الغيبة، ومسلم: كتاب الطهارة / باب الدليل على نجاسة البول.

باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

(فصلت: من الآية٥٠).

(**تم**): هذا الباب كالأبواب التي قبله في بيان وجوب تعظيم الله -جل وعلا- في الألفاظ، وأن النعم يجب أن تنسب إليه، وأن يشكر عليها، فتعزى إليه، ويقول العبد: هذا أنعم الله عليَّ به، والكذب في هذه المسائل، أو أن يتكلم المرء بكلام ليس موافقا للحقيقة، أو هو مخالف لما يعلمه من أن الله -جل وعلا- قد أنعم عليه بذلك، فهذا قد يؤديه إلى المهالك، وقد يسلب الله -جل وعلا- عنه النعمة بسبب لفظه.

فالواجب على العبد أن يتحرز في ألفاظه، وبخاصة فيما يتصل بالله -جل وعلا-، أو بأسمائه وصفاته، أو بأفعاله وإنعامه، أو بعدله وحكمته.

والتحرز في ذلك من كمال التوحيد؛ لأنه لا يصدر التحرز إلا عن قلب معظم لله، مجِلٍّ لله، مخبت لله، يعلم أن الله -جل جلاله- مطلع عليه، وأنه سبحانه هو ولي الفضل، وهو ولي الإنعام، وهو الذي يستحق أن يُجَلَّ فوق كل جليل، وأن يُحَبَّ فوق كل محبوب، وأن يعظم فوق كل معظم.

فالله -جل جلاله- يجب توقيره، وتعظيمه في الألفاظ، ومن ذلك ما عقد له الشيخ هذا الباب، حيث قال: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ... ﴾ (فصلت: من الآية٥٠)

(**ق**): **مناسبة الباب لـ (كتاب التوحيد)**: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه، ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك، وإن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل، ففيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية.

وقد ذكر الشيخ فيه آيتين:

الآية الأولى ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾.

الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر.

والظاهر أن المراد به الجنس، إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ۞وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۞ لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ (فصلت: ٤٧-٤٩) هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: ﴿منا﴾ أضافه الله إليه، لوضوح كونها من الله، ولتمام منته بها.

قوله: ﴿من بعد ضراء مسته﴾. أي: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء، كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿مسته﴾ أي: أصابته وأثرت فيه.

قوله: ﴿ليقولن هذا لي﴾. هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام في قوله ﴿ليقولن﴾ واقعة في جواب القسم المقدر قبل اللام في قوله: ﴿لئن أذقناه﴾.

قوله: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾. بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، ثم كشفها، ثم وجد بعد ذلك لذة وسرورا يشكر الله على ذلك، أما هذا، فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾.

﴿إن﴾: شرطية وتأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن رجوعه وفيما لا يمكن وقوعه، كقوله تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ (الزمر: ٦٥)، والمعنى: على فرض أن أرجع إلى الله إن لي عنده للحسنى.

والحسنى: أسم تفضيل، أي: الذي هو أحسن من هذا، واللام للتوكيد.

قوله: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا﴾ أي: فلننبئن هذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم على هذا القائل بالكفر ولأجل أن يشمله الوعيد وغيره.

قال مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به.

قال ابن عباس: يريد من عندي.

قول مجاهد: هذا بعملي، وأنا محقوق به. أي هذا بكسبي وأنا مستحق له.

قول ابن عباس: يريد من عندي. أي من حذقي وتصرفي وليس من عند الله.

وقوله ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: من الآية٧٨)

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب

قال آخرون: على علم من الله أني له أهل، هذا معنى قول مجاهد: (أوتيته على شرف).

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إنما أوتيته على علم﴾.

في القرآن آيتان: آية قال الله فيها: ﴿إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، والثانية: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾، والظاهر من تفسير المؤلف انه يريد الآية الثانية.

قوله: ﴿على علم﴾. **في معناه أقوال:**

الأول: قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدا على الإنسان، أي: عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد عليّ فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفرا بنعمة الله وإعجابا بالنفس.

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل، فيكون بذلك مدلا على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله، أي: أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

الثالث: قول مجاهد: (أوتيته على شرف)، وهو معنى القول الثاني، **فصار معنى الآية يدور على وجهين:**

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله، لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلا لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله - عز وجل - والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله، فهو الذي يسرها حتى حصلنا عليها، بل كل ما نحصل من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله، فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة من الله ﴾ (النحل: ٥٣) حتى لو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك، فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة هو الله - عز وجل -، ثم أن المهارة أو العلم قد لا يكون سببا لحصول الرزق، فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلا؟!.

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١) الاعتراف بها في القلب.

٢) الثناء على الله باللسان.

٣) العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه، فهذا لم يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى.

(**ف**): قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ' ٣٩: ٤٩ ' ﴿ إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ﴾ يخبر أن الإنسان في حالة الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى و﴿ قال إنما أوتيته على علم ﴾ أي لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا. قال تعالى: ﴿ بل هي فتنة﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿ بل هي فتنة ﴾ أي إختبار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون: ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي فما صح قولهم ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون. كما قال تعالى مخبراً عن قارون: ' ٢٨: ٧٦ – ٧٨ ' ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ۞قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقال تعالى: ' ٢٦: ١٣٨ ' ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أ. هـ.

وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: [أن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمي، فأراد الله ان يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتي الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس به، قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا . قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر (شك اسحق) فأعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها ...

(ق): **قوله:** (وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: أن ثلاثة من بني إسرائيل).

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (يوسف: ١١١).

قوله: (من بني إسرائيل) في محل نصب نعت لـ (لثلاثة)، وبنو إسرائيل هم ذرية يعقوب بن إسحاق أبن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: (أبرص). أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيرا إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال الله تعالى: ﴿تبريء الأكمة والأبرص بإذني﴾ (المائدة: ١١٠)

قوله: (أقرع). من ليس على رأسه شعر.

قوله: (أعمى). من فقد البصر.

قوله: (فأراد الله)وفي بعض النسخ: (أراد الله). فعلى إثبات الفاء يكون خبر(إن) محذوفا دل على السياق تقديره: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يبتليهم.

ولا يمكن أن يكون (أبرص وأقرع وأعمى) خبرا، لأنها بدل، وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: (أراد الله)، والإرادة هنا كونية.

قولهم: (يبتليهم). أي: يختبرهم، كما قال الله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ (الأنبياء: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ (النمل: ٤٠).

قوله: (ملكا). أحد الملائكة: هم عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة في الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهم أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: واصل الـ(ملك) مأخوذ من الألوكة، وهي الرسالة، وعلى هذا يكون أصله مألك، فصار فيه إعلال قلبي، فصار ملأك، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام الساكنة وحذفت الهمزة تخفيفا، فصار ملك، ولهذا في الجمع تأتي الهمزة: ملائكة.

قوله: (ويذهب). يجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أولى.

قوله: (قذرني). أي: استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

وقوله: (به). الباء للسببية، أي: بسببه.

قوله: (فمسحه). ليتبين أن لكل شيء سببا وبرى بإذن الله - عز وجل -، (فذهب عنه قذره): بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن، لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية.

قوله: (قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق -). والظاهر: أنه الإبل كما يفيده السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث.

قوله: (عشراء). قيل: هي الحامل مطلقا، وقال في (القاموس): هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله - عز وجل - وذللها ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاها إياها.

قوله: (بارك الله لك فيها). فيحتمل أن لفظه الخبر ومعناه الدعاء، وهو الأقرب، لأنه أسلم من التقدير، ويحتمل أنه خبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قد)، أي: قد بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع، فقال أي شيء أحب إليك قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها . . .

قوله: (فأتى الأقرع). وهو الرجل الثاني في الحديث.

قوله: (فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن). و لم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعرا حسنا.

قوله: (الذي قذرني الناس به). أي: القرع، لأنه كان أقرع كرهه الناس واستقذروه، وهذا يدل على أهم لا يغطون رؤوسهم بالعمائم ونحوها، وقد يقال يمكن أن يكون عليه عمامة يبدو بعض الرأس من جوانبها فيكرهه الناس مما بدا منها.

قوله: (فذهب عنه قذره). يقال في تقديم ذهاب القذر ما سبق، وهذه نعمة من الله عز وجل أن يستجاب للإنسان.

قوله: (البقر أو الإبل). الشك في إسحاق، وسياق الحديث يدل على أنه أعطى البقر.

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري؛ فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً؛ فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم ...

قوله: (فأتى الأعمى). هذا هو الرجل الثالث في هذه القصة.

قوله: (فأبصر به الناس). لم يطلب بصرا حسنا كما طلبه صاحباه، وإنما طلب بصرا يبصر به الناس فقط مما يدل على قناعته بالكفاية.

قوله: (فرد الله إليه بصره)الظاهر أن بصره الذي كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط.

قوله: (قال: الغنم). هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع، لأن السكينة في أصحاب الغنم.

قوله: (شاة والدا). قيل: إن المعنى قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملا، ولما يأتي من قوله: (فأنتج هذان وولد هذا)، والشيء قد يسمى بالاسم القريب، فقد يعبر عن الشيء حاصلا وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

قوله: (فأُنتج هذان). بالضم، وفيه رواية بالفتح: (فأَنتج)، وفي رواية: (فَنتج هذان).

والأصل في اللغة في مادة (نتج): أنها مبنية للمفعول والإشارة إلى صاحب الإبل والبقر، و(أنتج)، أي: حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

قوله: (وولد هذا). أي: صار لشاته أولاد، قالوا: والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من ولد، ومن تولى توليد النساء يقال له القابلة، ومن تولى توليد غير النساء يقال له: منتج أو ناتج أو مولد.

قوله: (فكان لهذا واد من الإبل). مقتضى السياق أن يقول: فكان لذلك، لأنه أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته. فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً، فأعطاك الله عز وجل المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

قوله: (في صورته وهيئته). الصورة في الجسم، والهيئة في الشكل واللباس، وهذا هو الفرق بينهما.

قوله: (رجل مسكين). خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنا رجل مسكين، والمسكين: الفقير، وسمي الفقير مسكينا، لأن الفقر أسكنه وأذله، والغني في الغالب يكون عنده قوة وحركة.

قوله: (وابن السبيل). أي: مسافر سمي بذلك لملازمته للطريق، ولهذا سمي طير الماء ابن الماء لملازمته له غالبا، فكل شيء يلازم شيئا، فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة.

قوله: (انقطعت بي الحبال في سفري). الحبال الأسباب، فالحبل يطلق على السبب وبالعكس، قال تعالى: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ (الحج: ١٥)، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده كالرشاء يتوصل به الإنسان إلى الماء الذي في البئر.

قوله: (فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك). (لا) نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول، ومنه تبليغ الرسالة، أي: إيصالها إلى المرسل إليه، والمعنى: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله ثم بك، فالمسألة فيها ضرورة.

قوله: (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن).

السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء، لأن (سأل) تأتي بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقول: سألته عن فلان، أي: استخبرته، وسألته مالا، أي: استجديته واستعطيته، وإنما قال: (أسألك بالذي أعطاك)، و لم يقل: أسألك بالله، لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه، ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين، لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكينا، وكونه ابن سبيل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء.

قوله: (بعيرا). يدل على أن الأبرص أُعطي الإبل، وتعبير إسحاق (الإبل أو البقر) من باب ورعه.

قوله: (أتبلغ به في سفري). أي: ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: (الحقوق كثيرة). أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس من حقك أنت فقط، وتناس – والعياذ بالله – أن الله هو الذي من عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: (كأني أعرفك). كأن هناك للتحقيق لا للتشبيه، لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق، فهي للتحقيق أو للظن والحسبان، والمعنى: أني أعرفك معرفة تامة.

قوله: (ألم تكن أبرص يقذرك الناس) ذكره الملك بنعمة الله عليه، وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على (لم)، كقوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ (الشرح: ١).

قوله: (كابرا عن كابر). أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطيع أن ينكر البرص.

و(كابرا) منصوبة على نزع الخافض، أي: من كابر، أي: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له وهو الجد، وقيل: المراد الكبر المعنوي، أي: إننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعا.

قوله: (إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت). (إن): شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقا فأبقى الله عليك النعمة.

فإن قيل: كيف يأتي ب (إن) الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التترل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك، فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذبا وأنك لم ترثه كابرا عن كابر، فصيرك الله إلى ما كنت من البرص والفقر، و لم يقل: (إلى ما أقول) لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتترل مع الخصم يرد كثيرا في الأمور المتيقنة، كقوله تعالى: ﴿ الله خير أمّا يشركون﴾ (النمل: ٥٩)، ومعلوم أنه لا نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت.

قوله: (وأتى الأقرع في صورته). الفاعل الملك، وهنا قال: (في صورته) فقط وفي الأول قال: (في صورته وهيئته)، فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا، فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعا في اللباس ونحوه، وقد جاء في رواية البخاري: في صورته وهيئته).

قوله: (فقال له مثل ما قال لهذا) المشار إليه الأبرص.

قوله: (فرد عليه). أي: الأقرع.

قوله: (مثل ما رد عليه هذا). أي: الأبرص.

فكلا الرجلين – والعياذ بالله – غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها ولا راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر.

قوله: (فصيرك الله إلى ما كنت عليه) أي: ردك الله إلى ما كنت عليه من القرع الذي يقذرك الناس به والفقر.

قال: (و أتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك، شاةً أتبلغ بها في سفري. قال: قد كنت أعمي فرد الله على بصري.فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله؛ لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله فقال: أمسك مالك؛ فإنما ابتليتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك] أخرجاه[1]

قوله: (فرد الله على بصري). اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثاني: العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله: (فوالله، لا أجهدك بشيء أخذته لله). الجهد: المشقة، والمعنى: لا أشق عليك بمنع ولا منة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه، فيكون دالا على الشكر بالقلب بالتضمن.

قوله: (خذ ما شئت ودع ما شئت). هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: (لله). اللام للاختصاص، والمعنى: لأجل الله، وهذا ظاهر في إخلاصه لله، فكل ما تأخذه لله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك.

قوله: (إنما ابتليتم). أي: اختبرتم، والذي ابتلاهم هو الله تعالى، وظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس، لأن قوله: (إنما ابتليتم) يدل على أن عنده علما بما جرى لصاحبيه وغالبا أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس.

قوله: (فقد رضي الله عنك). يعني: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح.

قوله: (وسخط على صاحبيك). لأنهما كفرا نعمة الله – سبحانه –، وأنكرا أن يكون الله منّ عليهما بالشفاء والمال.

(ف): وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر: فإن الأولين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها، فحل عليهما السخط. وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله،

[1] البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء / باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني اسرائيل، حديث (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، حديث (٢٩٦٤).

ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها. وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يجب.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها و لم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأقر بها و لم يجحدها، ولكن لم يخضع له و لم يحبه ويرض به وعنه، لم يشكره أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضى به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له.

(ق): وفي هذا الحديث من العبر شيء كثير، منها:

١. أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرى، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة.
٢. بيان قدرة الله – ﷻ – بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم بمجرد مسح الملك لهم.
٣. أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر، لقوله: (فأتى الأبرص في صورته)، وكذلك الأقرع والأعمى، لكن هذا – والله أعلم – ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى.
٤. أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحا أو معاني أو قوى فقط.
٥. حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.
٦. إن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله – أي بالمقضى، لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل على عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات:

- جزع، وهو محرم.
- صبر، وهو واجب.
- رضا، وهو مستحب.
- شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال وهو: كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنه تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر. وأما قوله ﷺ: (فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فعليه السخط)[1]، فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذي هو فعل الله، فهذا يجب الرضا به لأن الله عز وجل حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضي.والمقضي ينقسم إلى: مصائب لا يلزم الرضا بها، والى أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧. جواز الدعاء المعلق، لقوله: (إن كنت كاذبا، فصيرك الله إلى ما كنت)، وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ (النور: ٧)، ﴿والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ (النور: ٩) وفي دعاء الاستخارة (اللهم ! إن كنت تعلم... إلخ).

٨. جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصم، لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: أن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابرا عن كابر، وقد سبق بيان وروده في القرآن، ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ (سبأ: ٢٤) ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩. أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من غنم.

١٠. هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟

الظاهر أنه قضية عين، وإلا، لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد استجيب.

١١. بيان أن شكر كل نعمة بحسبها، فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم في كل شيء.

١٢. جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل ن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنسانا بمثل هذا، فله ذلك.

١٣. أن الابتلاء قد يكون عاما وظاهرا يؤخذ من قوله: (فإنما ابتليتم)، وقصتهم مشهورة كما سبق.

١٤. فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه، لأن الأعمى كان زاهدا في الدنيا، فكان شاكرا لنعمة الله.

١٥. ثبوت الإرث في الأمم السابقة، لقوله: (ورثته كابرا عن كابر).

---

[1] سبق تخريجه وهو حسن كما في الصحيحة (١٤٦).

١٦. أن من صفات الله – عز وجل – الرضا والسخط والإرادة، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية، وشرعية.

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولا يلزم أن يكون محبوبا لله، فإذا أراد الله شيئا قال له كن فيكون.

وأما الشرعية: فإنه لا يلزم فيه وقوع المراد ويلزم إن يكون محبوبا لله، ولهذا نقول: الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشيئة، فإن قيل: هل الله يريد الخير والشر كونا أو شرعا؟

أجيب: إن الخير إذا وقع، فهو مراد لله كونا وشرعا، وإذا لم يقع، فهو مراد لله شرعا فقط، وأما الشر فإذا وقع، فهو مراد لله كونا لا شرعا وإذا لم يقع، فهو غير مراد كونا ولا شرعا، واعلم أن الشر لا ينسب إلى فعل الله – سبحانه –، ولكن إلى مخلوقات الله، فكل فعل الله تعالى خير، لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي ﷺ: (الخير كله في يديك، والشر ليس إليك)[1] وأما مخلوقات الله، ففيها خير وشر.

وإثبات صفة الرضا لله – سبحانه – لا يقتضي انتفاء صفة الحكمة، بخلاف رضا المخلوق، فقد تنتفي معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضي عن شخص مثلا فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه في كل شيء ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق، فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه.

ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادته، فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معني (رضى)، أي: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لا يرضي، ولو قالوا: لا يرضي لكفروا، لأنهم نفوها نفي جحود، لكن أولوها تأويلا يستلزم جواز نفي الرضا، لأن المجاز معناه نفي الحقيقة، وهذا أمر خطير جدا.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة، خلافا لمن قال: كل شيء في اللغة مجاز.

١٧. أن الصحابة تطلق على المشاكلة في شيء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة، لقوله: (وسخط على صاحبيك)، فالصاحب هنا: من يشبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨. اختبار الله – عز وجل – بما أنعم عليهم به.

١٩. أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

---

[1] مسلم: كتاب صلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل.

٢٠. أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئا لم يكن من أجل الاختبار، لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

٢١. أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة، لقوله: (فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية. وهي قوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾، وقد سبق أن الضمير في قوله: ﴿أذقناه﴾ يعود على الإنسان باعتبار الجنس.

الثانية: ما معنى ﴿ليقولن هذا لي﴾. اللام للاستحقاق، والمعنى: إني: حقيق به وجدير به.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إنما أوتيته على علم﴾. وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة. وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا ليس استيعابا، ومن ذلك الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى، فإن الأبرص والأقرع جحدا نعمة الله - عز وجل - والأعمى اعترف بنعمة الله، عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة، قال: (خذ ما شئت) فدل هذا على جوده وإخلاصه، لأنه قال: (فوالله، لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله - عز وجل -) بخلاف الأبرص والأقرع حيث كانوا أشِحّاء بخلاء منكرين نعمة الله - عز وجل -.



باب قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(الأعراف: ١٩٠)

(**تم**): مناسبة هذا الباب للأبواب قبله: أن جميع الأبواب في معنى واحد، وهو أن شكر النعمة لله -جل وعلا- فيما أنعم به يقتضي أن تنسب إليه -جل وعلا-، وأن يُحمد عليها، ويثنى عليه بها، وأن تستعمل في مراضيه -جل وعلا-، وأن يتحدث بها، فالذي ينسب النعم إلى نفسه لم يحقق التوحيد، فإنه جمع بين ترك تعظيم الله -جل وعلا- وبين ادعاء شيء ليس له، وقد يعتقد في غيره أنه هو المنعم عليه كقول القائل: لولا فلان لم يكن كذا، أو نحو تلك العبارات التي تدخل في قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: من الآية٢٢) وفي قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ (النحل: ٨٣) فهذه الألفاظ وأمثالها راجعة إلى عدم شكر النعمة.

ومن شكر النعم أن الله -جل وعلا- إذا أنعم على عبد بولد، وجعله سليما معافى، ورزقه بتلك النعمة التي هي نعمة الولد، أن يشكر الله عليها، ومن عدم شكر النعمة تلك ونسبتها إلى غير الله أن يُعَبِّد الولد لغير الله -جل وعلا-، فإن هذا مضاد للاعتراف بأن المنعم بذلك الولد هو الله -جل جلاله-، وقد يصل ذلك إلى حد الشرك الأكبر إذا عَبَّد الولد لولي أو لعبد صالح، وهو يعني حقيقة العبودية، التي هي أن هذا عبد لذاك؛ لأن ذاك إله، كمن يُعبِّد لبعض المشايخ، فيقول: عبد السيد، ويعنون به السيد البدوي، ويقولون: عبد زينب، وعبد علي، وعبد عمرو، ونحو ذلك من الأسماء التي فيها اعتقادات.

فمن عَبَّد ولداً لغير الله -جل وعلا- فقد نافى شكر النعمة، ولهذا أتبع الشيخ - رحمه الله - هذا الباب الأبواب قبله؛ لما يشترك معها في هذا المعنى، وأن الواجب على العبد أن يحقق التوحيد، وأن لا ينسب النعم لغير الله -جل وعلا-، فإن وقع منه ذلك فواجب عليه أن يبادر بالتوبة، وألا يقيم على ذلك.

(**ق**): **قوله:** ﴿فلما آتاهما﴾. الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها، ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة...﴾.

قوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ **فيها قولان:**

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة، أي: من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وجعل منها زوجها﴾، أي حواء، و﴿من﴾ تبعيضية، لأن حواء خلقت من ضلع آدم.

الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، و لم يجعل من جنس آخر، والنفس قد يراد بها الجنس، كما في قوله تعالى ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ (آل عمران: ١٦٤) أي: من جنسهم.

قوله: ﴿ليسكن إليها﴾ سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:

أولهما: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.

ثانيا: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وإبنها.

وقوله: ﴿ليسكن إليها﴾ تعليل لكونها من جنسه أو من النفس المعينة.

قوله: ﴿فلما تغشاها﴾. أي: جامعها، وعبارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ (النساء: ٤٣)، وقال: ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ (النساء: ٢٣) وقال تعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ (النساء٢١) كأن الاستحياء من ذكره بصريح أسمه أمر فطري، ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يصرح به، كما في قول الرسول ﷺ لماعز وقد أقرّ عنده بالزنى: (أنكتها لا يكني)[١]، لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتى يتبين الأمر جليا، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه، قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾ (الليل: ١) وعبر بقوله ﴿تغشاها﴾ و لم يقل: غشيها، لأن تغشى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: (إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها)[٢]، والجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان، (وجهدها) هذا تغشي.

قوله: ﴿حملت حملا خفيفاً﴾. الحمل في أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

قوله: ﴿فمرت به﴾. المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى: تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: ﴿فلما أثقلت﴾. الأثقال في آخر الحمل.

قوله: ﴿دعوا﴾ و لم يقل: دعيا، لأن الفعل واوي، فعاد إلى أصله.

قوله ﴿ الله ربهما﴾ أتي بالألوهية والربوبية، لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

---

[١] البخاري: كتاب الحدود/ باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت، حديث (٦٨٢٤) وأبو داود حديث (٤٤٢٧).

[٢] البخاري: كتاب الغسل/ باب إذا التقى الختانان، حديث (٢٩١)، ومسلم: كتاب الحيض/ باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل بالتقاء الختانين، حديث (٣٤٨).

الثاني: جانب الربوبية؛ لأن في الدعاء تحصيلا للمطلوب، وهذا يكون متعلقا بالله من حيث الربوبية.

والظاهر أنهما قالا: اللهم ربنا، ويحتمل ان يكون بصيغة أخري.

قوله ﴿لئن آتيتنا صالحا﴾. أي أعطيتنا.

وقوله: ﴿صالحا﴾؛ هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين، أي: لئن آتيتنا بشرا سويا ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحا بالدين، فيكون تقيا قائما بالواجبات؟.

الجواب يشمل الأمرين جميعا، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من ان يكون شاملا للأمرين جميعا.

قوله: ﴿لنكونن من الشاكرين﴾، أي: من القائمين بشكرك على الولد هذا الصالح.

والجملة هنا جواب قسم وشرط قسم متقدم وشرط متأخر، والجواب فيه للقسم ولهذا جاء مقرونا باللام: لنكونن.

قوله: ﴿فلما آتاهما صالحا﴾ هنا حصل المطلوب، لكن النتيجة بالعكس فلم يحصل الشكر الذي وعد الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما.

وقوله: ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ هذا هو جواب ﴿لما﴾.

والذين يرجحون أن المراد بالصلاح صلاح البدن أنه قال: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين إتيانه وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أيصلح في دينه في المستقبل أم لا يصلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها؛ ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ۞ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (التوبة: ٧٥-٧٦) وفي هذه الآية قال الله تعالى: ﴿لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ۞ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء﴾ فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر، لأن النذر معاهدة مع الله عز وجل ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: (أنه لا يرد شيئا، وإنما يستخرج به من البخيل)[1] وقد ذهب كثير من أهل

[1] البخاري كتاب القدر / باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، حديث (٦٦٠٨). وأيضا في كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر وقوله: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (الإنسان: من الآية٧) ومسلم كتاب النذر / باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً، حديث (١٦٣٩).

العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيميه أنه يميل إلى تحريم النذر؛ لأن رسول الله ﷺ نهي عنه ونفى أنه يأتي بخير.

إذا ما الذي نستفيد من أمر نهى عنه الرسول ﷺ وقال: انه لا يأتي بخير.

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا، فالقول بتحريم النذر قول قوي جدا، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأي أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصا مما نذروا.

فإن قيل: هذا الولد الذي آتاهما الله – عز وجل – كان واحدا؛ فكيف جعلا في هذا الولد الواحد شركا بل شركاء؟

فالجواب أن نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقد أن هذا الذي أتى بهذا الولد هو الولي الفلاني والصالح الفلاني ونحو ذلك؛ فهذا شرك أكبر، لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضا ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن، فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله – والله اعلم بولايته –، فتقول: يا سيدي فلان أرزقني ولداً.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم والى القوابل وما أشبه ذلك فيقولون مثلا: سلم هذا الولد من الطلق؛ لأن القابلة امرأة متقنة جيدة، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر، لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسي المسبب وهو الله – عز وجل –

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالما بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية، فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (التغابن: ١٥) فكيف تجعل هذا الولد ندا لله في المحبة وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!

وفي قوله ﴿فلما آتاهما﴾ نقد لاذع أن يجعلا في هذا الولد شريكا مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

ومن تأويل الآية وحدها دالة على أن قوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ أي: من جنس واحد، وليس فيها تعرض لأدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جاريا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (آل عمران:١٦٤) أي: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثاني بان المراد بقوله تعالى﴿من نفس واحدة﴾ أي: آدم، ﴿وجعل منها زوجها﴾ (الأعراف: ١٨٩) حواء، فيكون معني الآية خلقكم من آدم وحواء.

فلما جامع آدم حواء حملت حملا خفيفا، فمرت به، فلما أثقلت دعوا- أي: آدم وحواء- الله بهما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ فأشرك آدم وحواء بالله، لكن قالوا: أنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس ، وسنبين إن شاء الله تعالى وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى ﴿من نفس واحدة﴾ أي: آدم وحواء ﴿فلما تغشاها﴾ انتقل من العين إلى النوع أي: من آدم إلى النوع الذي هم بنوه، أي: فلما تغشي الإنسان الذي تسلل من آدم وحواء زوجته... إلخ، ولهذا قال تعالى: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ٥) أي جعلنا الشهب الخارجة منها رجوما للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٣) أي جعلناه بالنوع، وعلى هذا فأول الآية في آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه، وفيه تتريه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾، فجمع لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً، كما في قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ (الحجرات: ٩) ولم يقل: اقتتلتا، لأن الطائفتين جماعة .

قال بن حزم:

[اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب]

قوله: " اتفقوا " أي: أجمعوا والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكام، والأدلة هي: الكتاب، والسنة والإجماع، والقياس .

قوله: " وما أشبه ذلك " . مثل: عبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد علي .

وأما قوله ﷺ: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم ...)[١] الحديث، فهذا وصف وليس علماً، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها على ما يرضي الله بالعابد لها، كقولك: عابد الدينار، فهو وصف، فلا يعارض الإجماع .

قوله (حاشا عبد المطلب) حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها (ما) وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر، وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه، فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)[٢]

فالنبي ﷺ لا يفعل حراماً، فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم رحمه الله، ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ (أنا ابن عبد المطلب)، فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جداً اسمه عبد المطلب، و لم يرد عنه ﷺ أنه سمى عبد المطلب، أو أنه أذن لأحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحداً على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: (إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد)[٣]، وقال ﷺ (يا بني عبد مناف) ولا يجوز التسمي بعبد مناف.

وقد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر، فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى، فالصواب أنه لا يجوز أن يتعبد لغير الله مطلقاً لا بعبد المطلب ولا غيره، وعليه، فيكون التعبد لغير الله من الشرك.

---

[١] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، (٢٨٨٧) والترمذي، حديث (٢٣٧٥) وابن ماجة، حديث (٤١٣٦).

[٢] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب: من قاد دابة غيره في الحرب، حديث (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير /باب في غزوة حنين، حديث (١٧٧٦).

[٣] البخاري: كتاب فرض الخمس / باب ومن الدليل على أن الخمس للإمام، حديث (٣١٤٠).

وعن ابن عباس رضي الله عنه في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن – يخوفهما – سمّياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته. وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ (١١٦) قال: أشفقا ألا يكون إنساناً، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

قوله: (إبليس). على وزن إفعيل، فقيل: من أبلس إذا يئس، لأنه يئس من حرمة الله تعالى

قوله: (لتطيعاني) جملة قسمية، أي: والله لتطيعاني.

قوله: (ايل) هو ذكر الأوعال

قوله (سمياه عبد الحارث) اختار هذا الاسم، لأنه اسمه فأراد أن يعبداه لنفسه

قوله: (فخرج ميتاً) لم يحصل التهديد الأول، ويجوز أن يكون من جملة: (ولأفعلن)، ولأنه قال: (ولأخرجنه ميتاً)

قوله: (شركاء في طاعته) أي: أطاعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة لكن عبدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة والعبادة، فلو أن أحداً أطاع شخصاً في معصية لله لم يجعله شريكاً مع الله في العبادة، لكن أطاعه في معصية الله

قوله (أشفقا أن لا يكون إنساناً) أي: خاف آدم وحواء أن يكون حيواناً أو جنياً أو غير ذلك.

قوله (وذكر معناه عن الحسن)[1]. لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في (تفسيره) وقال: (أما نحن، فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته) أ.هـ.

[1] أخرجه الطبري في تفسيره (١٤٨/٩) عن الحسن، وانظر تفسير ابن كثير (٢٧٦/٢).

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بـــالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من الشـــرك أو يموتـــا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدماً وفعـــــاله وتزويجـــــه بنتيه بابنيه بالخنـــــــا
علمنا بأن الخلق من نســـــــل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك، فـــلا يليـــق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يـــذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، و لم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكلـــه من الشجرة[1] وهو معصية، ولو وقع منه الشرك، لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: (أنا صاحبكما الذي أخرجكما مـــن الجنة)، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: (أنـــا صـــاحبكما الذي أخرجكما من الجنة)، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفاً ولا عدلاً

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: (لأجعلن له قرني إيل): إما أن يصدقا أن ذلـــك ممكـــن في حقه، فهذا شرك في الربوبية لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء، لقال عما يشركان فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء متزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا، فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً، فإن منهم مشركاً ومنهم موحداً.

---

[1] البخاري: كتاب تفسير القرآن /باب: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (الإسراء: ٣) حديث (٤٧١٢).

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبّد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله . تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل لقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ (النساء: ٥٨)، و﴿فإن﴾ هذه شرطية لا تدل على وقوع التنازع، بل إن فرض ووقع، فالمردّ إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلى بينة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلاناً يقول: أجمعوا على كذلك، أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعى الإجماع، فهو كاذب، ولعل الإمام أحمد قال ذلك، لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون: هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبيد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ (أنا ابن عبد المطلب)[1] أنه من قبيل الإخبار وليس إقراراً ولا إنشاء، والإنسان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كان معبداً لغير الله، وقد قال النبي ﷺ (يابني عبد مناف)[2]، وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار.

الثانية: تفسير الآية. يعني قوله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً ....﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها، وهذا بناء على ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية، والصواب: أن هذا الشرك حق حقيقة، وأنه شرك من إشراك بني آدم من آدم

---

[1] سبق تخريجه.

[2] البخاري: كتاب الوصايا / باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، حديث (٢٧٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان /باب: في قوله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، حديث (٢٠٤).

وحواء، ولهذا قال تعالى في الآية نفسها: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾، فهذا الشرك الحقيقي الواقع من بني آدم.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم. هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله: (صالحاً)، أي: بشراً سوياً، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد، لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم، قال تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ۞ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ (النحل: ٥٨-٥٩)، وإلا، فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم أيضاً، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها.

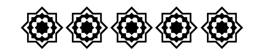
الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة

وقبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة، فالطاعة إذا كانت منسوبة لله فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله، فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أني أطعته لا حباً وتعظيماً وذلاً كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء على القصة، فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان و لم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة.



باب قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

(الأعراف: ١٨٠)

(**تم**): هذا الباب في وجوب تعظيم أسماء الله الحسنى، وأن من تعظيمها ألا يُلحَد فيها، وأن يُدعى الله -جل وعلا- بها.

والأسماء الحسنى هي الأسماء البالغة في الحسن نهايته، فالخلق يتسمون بأسماء لكن قد لا تكون حسنة، أو قد تكون حسنة ولكن ليست بالغة في الحسن نهايته؛ لأن الحسن في الأسماء يكون راجعا إلى أن الصفة التي اشتمل عليها ذلك الاسم تكون حقا موجودة فيمن تسمى بها، والإنسان وإن تسمى باسم فيه معنى فقد لا يكون فيه من ذلك المعنى شيء، فيسمى صالحا وقد لا يكون صالحا، ويسمى خالدا وقد لا يكون خالدا، ويسمى محمدا وقد لا يكون كثير خصال الحمد.

وهكذا فإن الإنسان قد يسمى بأسماء، لكن لا تكون في حقه حسنى، والله -جل وعلا- له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن نهايته، وهي الأسماء المشتملة على: صفات الكمال، والجلال، والجمال، والقدرة، والعزة، والجبروت، وغير ذلك، وله من كل اسم مشتمل على صفة أعلى وأعظم وأسمى المعاني الذي اشتملت عليه الصفة.

وأهل العلم إذا فسروا الأسماء الحسنى فإنما هو تقريب ليدلوا الناس على أصل المعنى، أما المعنى بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله -جل جلاله-؛ ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام- في دعائه: (لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

فالناس حين يفسرون أسماء الله -جل وعلا- فإنهم يفسرون ذلك بما يقرب إلى الأفهام المعنى، أما حقيقة المعنى على كماله فإنهم لا يعونه؛ لأن ذلك من الغيب، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها؛ لأن ذلك من الغيب، فالله -جل وعلا- له الأسماء الحسنى، والصفات العلى.

ومن الأسماء ما لا يكون حسنا إلا بقيد مثل الصانع، والمتكلم، والمريد، والفعال، أو الفاعل، ونحو ذلك. فهذه الأسماء لا تكون كمالا إلا بقيد وهو أن يكون متكلما بما شاء إذا شاء بما تقتضيه الحكمة وتمام العدل فهذا يكون محمودا؛ ولهذا ليس من أسماء الله المتكلم، وكذلك الصانع قد يصنع خيرا وقد يصنع غير ذلك، والله -جل وعلا- ليس من أسمائه الحسنى الصانع؛ لاشتماله على هذا وهذا.

فإذا أطلق من جهة الخبر فيعني به ما يقيد بالمعنى الذي فيه كمال، وكذلك فاعل أو فعال، فإن الفعال قد يفعل أشياء لا توافق الحكمة، وقد يفعل أشياء لا يريدها، بل مجبر عليها، والكمال أن يفعل ما يريد، ولا

يكون مجبرا؛ لكمال عزته وقهره، ولهذا قال الله -جل وعلا- عن نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٦)؛ لأن تقييد كونه فعالا بما يريد يدل على الكمال، في أشياء كثيرة وهي معروفة في مباحث الأسماء والصفات.

وأسماء الله الحسنى تنقسم باعتبارات من جهة المعنى، قال طائفة من أهل العلم: إن منها أسماء الجمال، وأسماء الجمال لله -جَلَّالَهُ- هي الأسماء المشتملة على حسن في الذات، أو حسن في المعنى، وبِرٍّ بالعباد والمخلوقين، فيكون من أسماء الجمال صفات الذات، واسم الله الجميل، ويكون من أسماء الجمال: البر، والرحيم، والودود، والمحسن، وما أشبه ذلك.

ومن أسماء الله ما هو من الجلال، فيقال: هذه أسماء الجلال، وأسماء الجلال لله هي التي فيها ما يدل العباد على جلال الله، وعظمته، وعزته -جل وعلا-، وجلاله حتى يُجَلَّ من مثل: القهار، والجبار، والقدير، والعزيز، ونحو ذلك، فهذه أسماء الجلال.

وهناك أسماء في تقسيمات مختلفة تطلب من كلام ابن القيم -رحمه الله- أو من كلام الشراح، فإن المقصود هو أن العبد المؤمن الموحد ينبغي أن يتعرف إلى الله -جل وعلا- بأسمائه وصفاته، ولا تتم حقيقة التوحيد في قلب العبد حتى يعلم أسماء الله -جل وعلا-، ويعلم صفات الله -جل وعلا-، فإن العلم بها تتم به حقيقة التوحيد.

والعلم بها على مراتب: منها: أن يعلمها إثباتا، يعني: أن يثبت ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ فيؤمن أن هذا الاسم من أسماء الله، وأن هذه الصفة من صفات الله -جل وعلا-.

والثاني: أن يسأل الله -جل وعلا- بأسمائه وصفاته بما يوافق مطلوبه؛ لأن الأسماء والصفات نتعبد لله -جل وعلا- بها، بأن ندعوه بها كما جاء في هذه الآية، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

والثالث: من الإيمان بالأسماء والصفات أن ينظر إلى آثار أسماء الله وصفاته في الملكوت، فإذا نظر إلى آثار الأسماء والصفات في الملكوت وتأمل ذلك علم أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن الحقيقة أن الحق الثابت اللازم هو الله -جل وعلا-، وأما ما سوى الله فهو باطل وزائل وآيل إلى الهلاك، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: من الآية٨٨).

(**ق**): وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله - عَزَّلَهُ - بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي، أي: إثبات الحكم للموحد ونفيه عما عداه، فمثلاً إذا قلت: زيد قائم، لم توحده بالقيام، وإذا قلت: زيد غير قائم، لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد، وحدته بالقيام. وإذا قلت: لا إله إلا الله، وحدته بالألوهية، وإذا

أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد، فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه، فهذا تعطيل، وإن مثلت، فهذا إشراك

قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ففي الآية توحيد الأسماء لله

وقوله: ﴿الحسنى﴾ مؤنث أحسن، فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى، أي: البالغة في الحسن أكمله، لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق، لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقاً مثل: زيد الأفضل، وقد يكون مقيداً مثل: زيد أفضل من عمرو

وهنا التفضيل مطلق، لأنه قال: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾، فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لا فرضاً ولا احتمالاً، وما يخبر به عن الله أوسع مما يسمى به الله، لأن الله يخبر عنه بالشيء ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشيء لا يتضمن مدحاً والمتكلم والمريد يتضمنان مدحاً من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك، فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد، لكن يخبر بذلك عنه.

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله تعالى:

الأول: هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف؟

الثاني: هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

الثالث: هل أسماء الله هي الله أو غيره؟

الرابع: أسماء الله توقيفية

الخامس: أسماء الله غير محصورة بعدد معين[1]

السادس: أسماء الله إذا كانت متعدية، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة وبالحكم الذي يسمى أحياناً بالأثر، وإن كانت غير متعدية، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة

السابع: **إحصاء أسماء الله معناه:**

١. الإحاطة بها لفظاً ومعنى.
٢. دعاء الله بها، لقوله تعالى: ﴿فادعوه بها﴾، وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء، فتقول: يا ذا الجلال والإكرام ! ياحي يا قيوم ! وما أشبه ذلك.

[1] انظر: باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات، وباب احترام أسماء الله تعالى.

٣. أن تتعبد لله بمقتضاها، فإذا علمت أنه رحيم تتعرض لرحمته وإذا علمت أنه غفور تتعرض لمغفرته، وإذا علمت أنه سميع اتقيت القول الذي يغضبه، وإذا علمت أنه بصير اجتنبت الفعل الذي لا يرضاه

قوله تعالى: ﴿فادعوه بها﴾. الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم ! اغفر لي يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة، لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها، لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها

وهذا خلافا لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه

أيريدون أن يعبدوا شيئاً لا أسماء له ولا صفات؟!

أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟!

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا تبحثوا في الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها، والأمر للوجوب، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضاً أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لا بد أن لها معاني فلا بد أن نبحث فيها، لأن علمها ألفاظاً مجردة لا فائدة فيه، وإن قدر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ، فإنه لا يحصل به كمال الفائدة

أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾(غافر: ٦٠)، ولم يقل: عن دعائي، فدل على أن الدعاء عبادة

فمثلاً: الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها

والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله - عز وجل - بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى

مثلاً: يا حي يا قيوم اغفر لي وارحمني، وقال ﷺ: (فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)، والإنسان إذا دعا وعلل، فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالباً أن يكون سبباً للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة، فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة

قوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون﴾، ﴿ذروا﴾: اتركوا، ﴿الذين﴾: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول ثم توعدهم بقوله: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾، وهو الإلحاد، أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تماماً، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله.

والمعنى: ذروهم، أي: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم، إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله ﴿ذروا﴾ تهديداً للملحدين.

والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سمي الحفر بالقبر لحداً، لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئاً من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحاداً أنه مال بها عما يجب لها، إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه، كقول الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله وبعضهم يسميه العقل الفعال، فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أباً وهذا إلحاد

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء، فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله – سبحانه وتعالى – مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعاني في المخلوق

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام، كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان حتى يلقوا عليها شيئاً من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

واعلم أن التعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه، لوجوه ثلاثة:

١. أنه هو الذي نفاه الله في القرآن، فقال: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى: ١١).
٢. أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه واشتراك في المعنى من بعض الوجوه.

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا في معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق وفي اصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣. أن الناس اختلفوا في معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً، فيكون معنى بلا تشبيه، أي: بلا إثبات صفات على اصطلاحهم.

(**ف**): وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء الله وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله. واشتقوا العزى من العزيز.

وقال قتادة: يلحدون: يشركون وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الإلحاد التكذيب.

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد. والميل والجور والإنحراف. ومنه اللحد في القبر. لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشـــراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرف بها تعالى إلى عباده ودلت على كماله جل وعلا

وقال رحمه الله تعالى: فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها. وإما بجحد معانيها وتعطيلها وإما بتحريفها عن الصواب وإخراجها عن الحق بالتأويلات. وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد. فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها. حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً. وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالى عما الله يقولون علواً كبيراً، انتهى.

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة. متقدمهم ومتأخرهم: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته. إثباتاً بلا تمثيل. وتنزيهاً بلا تعطيل. كما قال تعالى: ' ٤٢: ١١ ' ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه ومثاله. فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله

به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين. كما قال تعالى: ' ٤: ١١٥ ' ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً:

(فائدة جليلة):

ما يجري صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات وموجود.

الثاني: ما يرجع صفاته ونعوته، كالعليم والقدير، والسميع والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله. كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض. ولا بد من تضمنه ثبوتاً، إذا لا كمال في العدم المحض، كالقدوس والسلام.

الخامس: - ولم يذكره أكثر الناس - وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد العظيم الصمد. فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه استمجد المرخ والعفار وأمجد الناقة، علفها. ومنه ذو رب العرش المجيد صفة العرش لسعته وعظمته وشرفه. وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته. وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه. ومنه الحديث الذي في مسند الترمذي: " أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام "[١] ومنه: " اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام "[٢] فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته. وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

---

[١] صحيح: الترمذي: كتاب الدعوات: باب رقم (٩٢) حديث (٣٥٢٤، ٣٥٢٥) وأخرجه أحمد (١٧٧/١) والنسائي في الكبرى (كما في تحفة الأشراف [١٦٧/٣])من حديث أنس ﷺ .وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٣٦) لطرقة وشواهده.

[٢] صحيح: جزء من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال .اللهم ...) أخرجه أحمد (١٧٠/٣، ١٤٨٥، ٢٤٥، ٢٦٥)، أبو داود: كتاب الصلاة: باب الدعاء ،حديث(١٤٩٥)، والترمذي: كتاب الدعوات: باب خلق الله مائة رحمة، (٣٥٤٤) والنسائي: كتاب السهو (٥٣/٣) باب الدعاء بعد الذكر ، وابن ماجة: كتاب الدعاء (٣٨٥٨) ،باب اسم الله الأعظم. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي(٥٠٣/١، ٥٠٤) وابن حبان (٢٣٨٢)، وصححه الأرناؤوط في تخريج شرح السنة(٣٦/٥، ٣٧).

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر. وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن. فإن الغني صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغني مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه أشرف المعارف.

(**ق**): قوله تعالى: ﴿سيجزون ماكانوا يعملون﴾ لم يقل يجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد، وهو كقوله تعالى ﴿سنفرغ لكم أيه الثقلان﴾ (الرحمن ٣١)، وليس المعنى أن الله – ﷻ – مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد.

قوله: ﴿يعملون﴾ العمل يطلق على القول والفعل، قال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: ٧-٨)، وهذا يكون في الأفعال والأقوال ٠

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يلحدون في أسمائه﴾: (يشركون) . وعنه (سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز) وعن الأعمش (يدخلون فيها ما ليس منها) .

قول ابن عباس: (يشركون) تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها في جهتين:

١. أن يجعلوها دالة على المماثلة.
٢. أو يشتقوا منها أسماء للأصنام، كما في الرواية الثانية عن ابن عباس التي ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة على المماثلة، فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه، فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله – ﷻ –.

وقوله: (وعنه) ٠ أي: ابن عباس

قوله: (سموا اللات من الإله .....) وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام ٠

تنبيه:

فيه كلمة تقولها النساء عندنا وهي: (وعزالي)، **فما هو المقصود بها؟**

الجواب: المقصود أنها من التعزية، أي: أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تندب العزى التي هي الصنم، لأنها قد لا تعرف أن هناك صنماً اسمه العزى ولا يخطر ببالها هذا، وبعض الناس قال: يجب إنكارها، لأن

ظاهر اللفظ أنها تندب العزى، وهذا شرك، ولكن نقول: لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار، لكننا نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود، بل يقصد بهذا اللفظ التقوي والصبر والثبات على هذه المصيبة.

قوله: (عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها) هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد، لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع

تتمة:

جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد في آيات الله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ (فصلت: ٤٠)، فقوله: ﴿لا يخفون علينا﴾ فيها تهديد، لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بأن

وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١. آيات كونية: وهي كل المخلوقات من السماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

فواعجباً كيف يعصى	**الإله أم كيف يجحده الجاحد**
وفي كل شيء له آية	**تدل على أنه واحد**

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

أ- اعتقاد أن أحداً سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

ب- اعتقاد أن أحداً مشارك لله فيها.

ج- اعتقاد أن لله فيها معيناً في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والدليل قوله تعالى: ﴿قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾ (سبأ: ٢٢) ظهير، أي معين

وكل ما يخل بتوحيد الربوبية، فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢. آيات شرعية: وهو ما جاء به الرسل من الوحي كالقرآن، قال تعالى: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ (العنكبوت: ٤٩)

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

أ- تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

ب- مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

ج- التحريف في الأخبار والأحكام.

والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام

ومنه ما يكون كفراً، كتكذيبها، فمن كذب شيئاً مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبرا به، فهو كافر.

ومنه ما يكون معصية من الكبائر، كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغائر، كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالى في الحرم: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ (الحج: ٢٥)، فسمى الله المعاصي والظلم إلحاداً، لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان، إذ الواجب عليه السير على صراط الله تعالى، ومن خالف، فقد ألحد.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء يعني لله تعالى، وتؤخذ من قوله: ﴿ولله الأسماء﴾، وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حصر لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء وأنكر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالى.

الثانية: كونها حسنى أي: بلغت في الحسن أكمله، لأن ﴿حسنى﴾ مؤنث أحسن، وهي اسم تفضيل.

الثالثة: الأمر بدعائه بها والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما مأمور فيه أن يدعى الله بهذه الأسماء الحسنى وسبق تفصيل ذلك.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين أي ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نبين لهم، والآية تتضمن أيضاً التهديد.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها وقد سبق بيان أنواعه

السادسة: وعيد من ألحد وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

باب لا يقال: السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال:

كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان فقال النبي ﷺ: [لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام][1]

(**تمم**): مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله: أن ترك قول (السلام على الله) هو من تعظيم الأسماء الحسنى، ومن العلم بها، ذلك أن السلام هو الله -جل جلاله- والسلام من أسمائه سبحانه وتعالى، فهو المتصف بالسلامة الكاملة من كل نقص وعيب، وهو المنزه والمبعد عن كل آفة أو نقص وعيب، فله الكمال المطلق في ذاته، وصفاته الذاتية، وصفاته الفعلية -جل وعلا-.

والسلام في أسماء الله معناه -أيضا- الذي يعطي السلامة ويرزقها، وأثر هذا الاسم في ملكوت الله أن كل سلامة في ملكوت الله من كل شر يؤذي الخلق فإنها من آثار هذا الاسم، فإنه لكون الله -جل وعلا- هو السلام فإنه يفيض السلامة على العباد.

إذا كان كذلك فالله -جل جلاله- هو الذي يفيض السلامة، وليس العباد هم الذين يعطون الله السلامة، فإن الله -جل وعلا- هو الغني عن خلقه، بالذات، والعباد فقراء بالذات، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى الله وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، فالعبد هو الذي يُعطَى السلامة، والله -جل وعلا- هو الذي يُسلِّم.

ولهذا كان من الأدب الواجب في جناب الربوبية وأسماء الله وصفاته أن لا يقال: السلام على الله، بل أن يقال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام على فلان وفلان، السلام عليك يا فلان ونحو ذلك، فتدعوا له بأن يبارَك باسم الله (السلام)، أو أن تحل عليه السلامة.

فظهر بهذا أن وجه مناسبة هذا الباب للذي قبله ظاهرة، وأما مناسبته لكتاب التوحيد فهي أن الأدب مع أسماء الله -جل وعلا- وصفاته ألا يخاطب بهذا الخطاب، وأن لا يقال: السلام على الله؛ لأن في هذا

[1] البخاري: كتاب الأذان / باب التشهد في الآخرة، حديث (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة /باب التشهد في الصلاة، حديث (٤٠٢).

نقصاً في تحقيق التوحيد، فتحقيق التوحيد الواجب ألا تقال هذه الكلمة؛ لأن الله غني عن عباده؛ والفقراء هم الذين يحتاجون إلى السلام.

(ق): هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفي، وهو محتمل للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك

والسلام له عدة معان:

١. التحية، كما يقال: سلم على فلان، أي: حياه بالسلام.
٢. السلامة من النقص والآفات، كقولنا: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).
٣. السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿الملك القدوس السلام﴾ (الحشر: ٢٣)

(ف): **قوله:** في الصحيح عن ابن مسعود – إلخ هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: " كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من قبل عباده، السلام على فلان وفلان – الحديث "[١] وفي آخره ذكر التشهد الآخير. رواه الترمذي من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود. وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله: " فإن الله هو السلام ومنه السلام " وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً ويقول: " اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام"[٢].وفي الحديث: "إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى " وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة. كما قال تعالى: ' ٣٦: ٥٨ ' ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾.

ومعنى قوله: إن الله هو السلام إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل. فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: السلام اسم مصدر. وهو من ألفاظ الدعاء. يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبر فيه لا تناقض الجهة الإنشائية. وهو معنى السلام المطلوب عند التحية. **وفيه قولان مشهوران:**

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك. فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

---

[١] الترمذي: كتاب الصلاة: باب ما جاء في التشهد .من حديث الأسود بن يزيد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (٢٨٩). وأخرجه النسائي أيضاً (٢٣٧/٢، ٢٣٨)من هذا الطريق أيضاً.

[٢] مسلم ، كتاب المساجد : باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته من حديث ثوبان رضي الله عنه ،حديث(٥٩١)،(١٣٥).

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة. وهو المطلوب المدعو به عند التحية ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي منكراً، فيقول المسلم: سلام عليكم ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك. ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين. فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما. وإنما يتبين ذلك بقاعدة. وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب، المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه. فإذا قال: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور. فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه. وقال ﷺ لأبي بكر ﷺ وقد سأله ما يدعو به " قل: اللهم أني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"[1] فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو السلام الذي تطلب منه السلامة.

فتضمن لفظ السلام معنين:

أحدهما: ذكر الله.

والثاني: طلب السلامة. وهو مقصود المسلم. فقد تضمن سلام عليكم اسماً من اسماء الله وطلب السلامة منه.

فتأمل هذه الفائدة. وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشّر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذاك قولهم: سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط (رب سلم سلم)[2] ومنه سلم الشيئ لفلان، أي خلص له وحده. قال تعالى: ' ٣٩: ٢٩ ' ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ﴾ أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره. ومنه السلم ضد الحرب: لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بنى فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل المشاركة. ومنه القلب السليم وهو النقي من الدغل والعيب. وحقيقته: الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته. وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته. ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة، لأنه

---

[1] البخاري، كتاب التوحيد : باب (وكان الله سميعاً بصيراً) ،حديث(٨٣٨٧)، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء: باب استحباب خفض الصوت بالذكر من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ،حديث(٢٧٠٥)،(٤٨).

[2] من حديث المغيرة بن شعبة قال : قال رسول الله ﷺ شعار المؤمنين على الصراط:" رب سلم سلم". الترمذي: كتاب صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الصراط (٢٤٣٤) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٢٩٧) وعند البخاري :كتاب صفة الصلاة: باب فضل السجود من حديث أبي هريرة (٨٠٦)" وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم"، قال الحافظ في الفتح (٣٩٤/١١) ولا يلزم من كون هذا شعار المؤمن أن ينطق به ، بل تنطق به الرسل ، يدعون للمؤمنين بالسلامة، فسمى ذلك شعاراً لهم ..."أ.هـ.

الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمـــولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به.

(ق): **قوله:** (لا يقال السلام على الله) أي: لا تقل: السلام عليك يا رب، **لما يلي:**

أ- أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه مـــن ذلـــك، إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله – سبحانه – مـــنزه عن صفات النقص.

ب- إذا دعوت الله أن يسلم نفسه، فقد خالفت الحقيقة، لأن الله يدعى ولا يدعى له، فهو غني عنا، لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم .....

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة، لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسمائه حسنى، والدليل علـــى أن صفاته عليا قوله تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى﴾ (النحل: ٦٠)

وقوله تعالى: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ (الروم: ٢٧)

والمثل الأعلى: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام على الله أوهم ذلك أن الله – سبحانه – قد يلحقه النقص، وهذا ينافي كمال صفاته.

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة، لأن موضوع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحســـنى لله المتضـــمنة لصفاته، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها، إذ لا يتم الكمـــال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقـــه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل و لم يسلك شيئاً من طرق السفول، فالآن أثبت له الفض المطلق في هـــذه الصفة والرب – سبحانه وتعالى – يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص.

والسلام إسم ثبوتي سلبي فسلبي: أي أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الـــذهن أو يتخيلـــه العقل، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتي: أي يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التي تضمنها وهي السلامة.

قوله: (في الصحيح) هذا أعم من أن يكون ثابتاً في (الصحيحين)، أو أحدهما، أو غيرهما، وانظر: بـــاب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا الحديث المذكور في (الصحيحين)

قوله: (كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة) الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض، لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة، كالاستسقاء

قوله: (قلنا السلام على الله من عباده) أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده، لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنى الدعاء، وله معنيان:

١ - اسم السلام عليك، أي: عليك بركاته باسمه

٢ - السلامة من الله عليك، فهو سلام بمعنى تسليم، ككلام بمعنى تكليم.

قوله: (السلام على فلان وفلان) أي: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يكنى بها عن الشخص، وهي مصروفة، لأنها ليست علماً ولا صفة، كصفوان في قوله تعالى: ﴿كمثل صفوان عليه تراب﴾ (البقرة: ٢٦٤)

وقد جاء في لفظ آخر: (السلام على جبريل وميكال) كانوا يقولون هكذا في السلام فقال النبي ﷺ (لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام) وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه - عز وجل - سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب وفيه دليل على جواز السلام على الملائكة، لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: (عليه السلام).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام فبالنسبة لكونه اسماً من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف، أي، اسم السلام عليك، أي: اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم، أي: تخبر خبراً يراد به الدعاء، أي: أسأل الله أن يسلمك تسليماً.

الثانية: أنه تحية وسبق ذلك

الثالثة: أنها لا تصلح لله وإذا كانت لا تصلح له كانت حراماً

الرابعة: العلة في ذلك وهي أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله وتؤخذ من تكملة الحديث: (فإذا صلى أحدكم، فليقل: التحيات لله .....)، وفيه حسن تعليم الرسول ﷺ من وجهين:

الأول: أنه حينما نهاهم علل النهي.

وفي ذلك فوائد:

١) طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

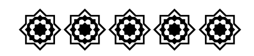
٢) بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة، لأن العلة حكمة.

٣) القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة.

الثاني: أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يباح لهم، فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها.

ويستفاد من الحديث:

أنه لا يجوز الإقرار على المحرم، لقوله: (لا تقولوا: السلام على الله)، وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ (آل عمران: ١٨٧).



باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

(تم): حقيقة التوحيد أن يوحد العبد ربه -جل وعلا- بتمام الذل والخضوع والمحبة، وأن يتضرع إلى الله -جل وعلا-، ويتذلل إليه بإظهار فقره التام إليه، وأن الله -جل وعلا- هو الغني عما سواه.

وقول القائل: ((اللهم اغفر لي إن شئت)) يفهم منه أنه مستغن عن أن يغفر له، كما يأتي العزيز أو المتكبر من الناس فيقول لآخر لا يريد أن يتذلل له: ((افعل هذا إن شئت)) يعني إن فعلت ذلك فحسن، وإن لم تفعل فلستُ بمُلِحٍّ عليك، ولستَ بذي إكرام، فهذا القول مناف لحاجة الذي قالها إلى الآخر.

ولهذا كان فيه عدم تحقيق للتوحيد، ومنافاة لما يجب على العبد في جناب ربوبية الله -جل وعلا- من أن يظهر فاقته وحاجته لربه، وأنه لا غنى به عن مغفرة الله، وعن غنى الله، وعن عفوه وكرمه وإفضاله ونعمه طرفة عين.

فقول القائل: ((اللهم اغفر لي إن شئت)) كأنه يقول: لست محتاجا، إن شئت فاغفر، وإن لم تشأ فلست بمحتاج، وهذا فعل أهل التكبر، وأهل الإعراض عن الله -جل وعلا-؛ ولهذا حُرم هذا اللفظ، وهو أن يقول أحد: ((اللهم اغفر لي إن شئت)).

(ق): **قوله:** (باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت)

عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

قوله: (اللهم) معناه: يا الله، لكن لكثرة الاستعمال حذفت يا النداء وعوض عنها الميم، وجعل العوض في الآخر تيمناً بالابتداء بذكر الله.

قوله: (اغفر لي) المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه، لأنها مشتقة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واق، ويدل له قول الله - عز وجل - للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة: (قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)[1]

قوله: (إن شئت) ، أي: إن شئت أن تغفر لي فاغفر، وإن شئت فلا تغفر.

---

[1] البخاري: كتاب الظالم والغصب / باب قول الله تعالى ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: من الآية١٨)، حديث (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث (٢٧٦٨).

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

(لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له)[١]

قوله (في الصحيح) سبق الكلام على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، والمراد هنا الحديث الصحيح، لأن الحديث في (الصحيحين) كليهما قوله ﷺ: (لا يقل أحدكم) لا: ناهية بدليل جزم الفعل بعدها

قوله: (اللهم اغفر لي، اللهم أرحمني) ففي الجملة الأولى: (اغفر لي) النجاة من المكروه، وفي الثانية: (أرحمني) الوصول إلى المطلوب، فيكون هذا الدعاء شاملاً لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه.

قوله: (ليعزم المسألة) اللام لام الأمر، ومعنى عزم المسألة: أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق و(المسألة): السؤال، أي: ليعزم في سؤاله فلا يكون متردداً بقوله: إن شئت.

قوله: (فإن الله لا مكره له) تعليل للنهي عن قول: (اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت)، أي: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله، لأن الأمر كله لله وحده.

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه، فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر.

الثاني: أن قول القائل: (إن شئت) كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشاؤه لكونه عظيماً عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس – والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة – أعطني مليون ريال إن شئت، فإنك إذا قلت له ذلك، ربما يكون الشيء عظيماً يتثاقله، فقولك: إن شئت، لأجل أن تهون عليه المسألة، فالله – عز وجل – لا يحتاج أن تقول له: إن شئت، لأنه – سبحانه وتعالى – لا يتعاظمه شيء أعطاه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه).

---

[١] البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، حديث (٦٣٣٩)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، حديث (٢٦٧٩).

ولمسلم: (وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)[1]

قوله: (وليعظم الرغبة)، أي: ليسأل ما شاء من قليل وكثير ولا يقل: هذا كثير لا أسأل الله إياه، ولهذا قال: (فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)، أي: لا يكون الشيء عظيماً عنده حتى يمنعه ويبخل به – سبحانه وتعالى – كل شيء يعطيه، فإنه ليس عظيماً عنده، فالله – عز وجل – يبعث الخلق بكلمة واحدة، وهذا أمر عظيم، لكنه يسير عليه، قال تعالى: ﴿قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ (التغابن: ٧) وليس بعظيم، فكل مايعطيه الله – عز وجل – لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه، أي: لا يكون الشيء عظيماً.

عنده حتى لا يعطيه، بل كل شيء عنده هين.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كانه يقول: إن شئت فأفعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، ولهذا قال: (وليعظم الرغبة) أي يسأل برغبة عظيمة، والتعليق ينافي ذلك، لأن المعلق للشيء المطلوب يشعر تعليقه بانه مستغن عنه، والإنسان ينبغي أن يدعو الله تعالى وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الإفتقار، وأن الله قادر على ان يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذا من آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم أغفر لي، اللهم أرحمني، اللهم وفقني، وما اشبه ذلك، **وهل يجزم بالإجابة؟**

الجواب: إذا كان الأمر عائدا إلى قدرة الله! فهذا يجب أن تجزم بان الله قادر على ذلك، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: من الآية٦٠).

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع، او عدم توافر الأسباب فإنك قد تتردد في الاجابة، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله، لأن الله – عز وجل – قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فالذي وفقك لدعائه أولا سيمن عليك بالاجابة آخراً، لا سيما إذا أتي الإنسان بأسباب الإجابة وتجنب الموانع، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء، كأن يدعو بأثم أو قطيعة رحم.

ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعا وقدرا.

فشرعا كأن يقول: اللهم اجعلني نبيا.

---

[1] سبق تخريجه.

وقدراً بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين النقيضين، وهذا أمر لا يمكن، فالاعتداء بالدعاء مانع من اجابته، وهو محرم لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (الأعراف: ٥٥) وهو اشبه ما يكون بالاستهزاء بالله سبحانه.

(**ف**): وفي الحديث: " يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه "[1] يعطي تعالى لحكمة ويمنع لحكمة وهو الحكيم الخبير. فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئاً عن كراهة ولا عن عظم مسألة. وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم في عين الصغير صغارها　　　　ويصغر في عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة ويمنع أكثر، ويعطي كرهاً، والبخل عليه أغلب. وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة في الرحم. فنعمه على الجنين في بطن أمه دارة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين. وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله. فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن. قال تعالى: ' ١٦: ٥٣ ' ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين.

(**تم**): ولهذا لا يجوز في الدعاء أن يواجه العبد ربه بهذا القول: (اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت) وهذا واضح ظاهر في الدعاء الذي فيه المخاطبة، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذا يتقيد بالدعاء الذي فيه خطاب، أما الدعاء الذي ليس فيه خطاب فيكون التعليق بالمشيئة ليس تعليقا لأجل عدم الحاجة، أو منبئاً عن عدم الحاجة كهذا الدعاء، بل هو للتبرك، كمن يقول: رحمه الله إن شاء الله، أو غفر الله له إن شاء الله، أو الله يعطيه من المال كذا وكذا إن شاء الله، ونحو ذلك، فهذا قالوا: لا يدخل في هذا النوع؛ لأنه ليس على وجه الخطاب، وليس على وجه الاستغناء.

---

[1] البخاري، كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى ﴿لما خلقت بيدي﴾ ،حديث(٧٤١١)، مسلم ، كتاب الزكاة : باب الحث على النفقة وتبشير المنفق من حديث أبي هريرة ﷺ ،حديث(٩٩٣)،(٣٧).

ولكن الأدب يقتضي ألا يستعمل هذه العبارة في الدعاء مطلقا؛ لأنها وإن كانت ليست بمواجهة، فإنها داخلة في تعليق الدعاء بالمشيئة، والله -جل وعلا- لا مكره له، فعموم المعنى المستفاد من قوله: (فإن الله لا مكره له) عموم هذا التعليل يشمل هذا وهذا، فلا شك أن قول: ((اللهم اغفر لي إن شئت)) أعظم، ولكن القول الآخر داخل أيضا في علة النهي ومعنى النهي؛ ولهذا لا يسوغ استعماله.

وقول النبي -عليه الصلاة والسلام- لمن عاده، وقد أصابته الحمى كما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، (طهور إن شاء الله. قال: بل هي حمى تفور) إلى آخر كلامه، هذا ليس فيه دعاء، وإنما هو من جهة الخبر. قال: يكون طهورا إن شاء الله، فهو ليس بدعاء، وإنما هو خبر، فافترق عن أصل المسألة.

وقال طائفة أيضا من أهل العلم من شراح البخاري: وقد يكون قوله: (طهور إن شاء الله) للبركة، فيكون ذلك من جهة التبرك، كقوله -جل وعلا- مخبرا عن قول يوسف: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: من الآية٩٩) وهم قد دخلوا مصر، وكقوله -جل وعلا-: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾ (الفتح: من الآية٢٧).

(ق): مناسبة الباب للتوحيد: من وجهين:

١. من جهة الربوبية، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى، لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل أنه لا يسأل عما يفعل، كما قال تعالى: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (الأنبياء: ٢٣). وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهو أن الله يتعاظم الأشياء التي يعطيها، فكان فيه قدح في جوده وكرمه.
٢. من ناحية العبد، فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الاستخارة: (اللهم ! إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم ! إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فأصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به[1].وكذا ما ورد في الحديث المشهور: (اللهم ! أحييني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي[2].

[1] البخاري: كتاب الدعوات / باب الدعاء عند الاستخارة.

[2] البخاري كتاب الدعوات/ باب الدعاء بالموت والحياة، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب كراهة تمني الموت لضر نزل به.

فالجواب: أنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم، فأقول إن كنت تعلم إن هذا الأمر خير فاقدره لي، فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا اعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر، لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أوشر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك، لأن طول البقاء لا يعلم، فقد يكون خيرا، وقد يكون شرا، ولكن يقال: أطال الله بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيرا بكل حال، وعلى هذا، فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: (اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي)، لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقا بالمشيئة، والنهي إنما هو عما كان معلقا بالمشيئة.

لكن لو قال: اللهم اغفر إن أردت وليس إن شئت، فالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونية، فهي بمعنى المشيئة، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثرا بالحكم.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: (ليعزم المسألة).

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء. والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير (حجي واشترطي، فإن لك على ربك ما استثنيت)[1]، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيدا إن أكرمك، فهو كقولك: أكرم زيدا إلا ألا يكرمك، فهو بمعنى الاستثناء في الحقيقة.

---

[1] البخاري: كتاب النكاح / باب الأكفاء في اليدين، ومسلم: كتاب الحج / باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض. وقوله ﷺ: " (فإن لك على ربك ما استثنيت) أخرجه النسائي: كتاب المناسك / باب كيف يقول إذا اشترط.

الثانية: بيان العلة في ذلك. وقد سبق أنها ثلاث علل:

١. أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

٢. أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣. أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لائق وليس من الأدب.

الثالثة: **قوله:** (ليعزم المسألة). تفيد أنك إذا سألت فاعزم ولا تتردد.

الرابعة: إعظام الرغبة. لقوله ﷺ: (وليعظم الرغبة)، أي: ليسأل ما بدا له فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر. يستفاد من قوله: (فإن الله لا يتعاظمه شيء، أو لا مكره له) وقوله: (وليعظم الرغبة، وفي هذا حسن تعليم الرسول ﷺ إذا ذكر شيئا قرنه بعلته.

وفي ذكر علة الحكم فوائد:

الأولى: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه ما من شيء تحكم به إلا وله علة وحكمه.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان، لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لما سئل ﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حرام، بل قال: (أينقص إذا جف؟) قالوا: نعم. فنهى عنه[1].

(والرجل الذي قال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود – لم يقل ﷺ الولد لك – بل قال: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر. قال: هل فيها من أورق – الأورق: الأشهب الذي بين البياض والسواد –؟ قال: نعم. قال: من أين؟ قال: لعله نزعة عرق، قال لعل ابنك نزعة عرق[2]، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع، فقرن الحكم بالعلة يُوجب الطمأنينة ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة في حكم من الأحكام، فليحق بها ما شاركها في العلة.

[1] الإمام أحمد في(المسند) (١/١٧٥-١٧٦)، وأبو داود: كتاب البيوع / باب في التمر بالتمر، والترمذي: كتاب البيوع / باب اشتراء التمر بالرطب، وابن ماجة: كتاب التجارات / باب بيع الرطب بالتمر، والحاكم في (المستدرك) (٢/٣٨) وصححه ووافق الذهبي، وصححه أحمد شاكر في (المسند) (١٥١٥).

[2] سبق تخريجه.

باب لا يقول: عبدي وأمتي

(**تم**): هذا الباب مع الأبواب قبله وما بعده كلها في تعظيم ربوبية الله -جل وعلا-، وتعظيم أسماء الله -جل وعلا- وصفاته؛ لأن تعظيم ذلك من كمال التوحيد، وتحقيق التوحيد لا يكون إلا بأن يعظّم الله -جل وعلا- في ربوبيته، وفي إلهيته، وفي أسمائه وصفاته.

فتحقيق التوحيد لا يكون إلا بالاحتراس من الألفاظ التي يكون فيها إساءة أدب مع ربوبية الله -جل وعلا-، أو مع أسماء الله -جل وعلا- وصفاته؛ ولهذا عقد المؤلف هذا الباب فقال: باب لا يقول: ((عبدي وأمتي)).

عبودية البشر لله جل وعلا- عبودية حقيقة، وإذا قيل هذا عبد الله فهو عبد لله -جل وعلا- إما قهرا أو اختيارا، فكل من في السماوات والأرض عبد لله -جل وعلا- كما قال -جل وعلا-: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً۝لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً۝وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ (مريم: ٩٣-٩٥)، فعبودية الخلق لله -جل وعلا- ظاهرة؛ لأنه هو الرب، وهو المتصرف، وهو خالق الخلق، وهو المدبر لشيئوهم، فالله -جل وعلا- هو المتفرد بذلك سبحانه.

فإذا قال الرجل لرقيقه: هذا عبدي، وهذه أمتي. كان في نسبة عبودية أولئك له، وهذا فيه منافاة لكمال الأدب الواجب مع الله -جل وعلا-؛ ولهذا كان هذا اللفظ غير جائز عند كثير من أهل العلم، ومكروه عند طوائف آخرين، وسبب النهي عن لفظ "عبدي، وأمتي" ما ذكرنا من وجوب تعظيم الربوبية، وعدم انتقاص عبودية الخلق لله -جل وعلا -.

(**ق**): هذه الترجمة تحتمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء في ذلك وسيأتي التفصيل فيه.

قوله: (في الصحيح). سبق التنبيه على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، وهذا الحديث في (الصحيحين) فيكون المراد بقوله في الصحيح، أي: في الحديث الصحيح، ولعله أراد (صحيح البخاري)، لأن هذا لفظه، أما لفظ مسلم، فيختلف.

قوله ﷺ: (لا يقل). الجملة نهي.

(عبدي)، أي: للغلام.

و(أمتي)، أي: للجارية.

والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ (النور: ٣٢) وقال النبي ﷺ: (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة)[١].

الثاني: أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة، فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة، فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا، فلا لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

الثانية: أن يكون بصيغة النداء فيقول السيد: يا عبدي! هات كذا، فهذا منهي عنه، وقد اختلف العلماء في النهي: هل هو للكراهة أو التحريم؟ والراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة.

في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (**لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضىء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، وغلامي**)[٢].

قوله ﷺ: (لا يقل أحدكم: أطعم ربك...الخ). أي: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمر تعاظما.

واعلم أن إضافة الرب إلى غير الله تعالى تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلى ضمير المخاطب، مثل: أطعم ربك، وضيء ربك، فيكره ذلك للنهي عنه، لأن فيه محذورين:

١. من جهة الصيغة، لأنه يوهم معنى فاسدا بالنسبة لكلمة رب، لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يطعم ولا يُطعم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذي يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

---

[١] البخاري: كتاب الزكاة/ باب ليس على المسلم في عبده صدقة، حديث (١٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزكاة / باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه، حديث (٩٨٢).

[٢] البخاري: كتاب العتق / باب كراهة التطاول على الرقيق حديث (٢٥٥٢)، ومسلم كتاب: كتاب الألفاظ من الأدب / باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة والمولى حديث (٢٢٤٩).

٢. من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل، لأنه إذا كان السيد ربا كان العبد أو الأمة مربوبا.

القسم الثاني: أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب، هذا لا بأس به، كقوله ﷺ في حديث أشراط الساعة: (أن تلد الأمة ربها)[1]، وأما لفظ (ربتها)[2]، فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث فلا اشتراك مع الله في اللفظ، لأن الله لا يقال له إلا رب، وفي حديث الضالة – وهو متفق عليه – (حتى يجدها ربها)[3] وقال بعض أهل العلم-: إن حديث الضالة في بهيمة لا تتعبد ولا تتذلل، فليست كالإنسان، والصحيح عدم الفارق، لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨]، وقال في الناس: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ليس جميعهم: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨)، وعلى هذا، فيجوز أن تقول: أطعم الرقيق ربه، ونحوه...

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بان يقول العبد: هذا ربي، فهل يجوز هذا؟

قد يقول قائل: إن هذا جائز، لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالى عن صاحب يوسف: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ (يوسف: ٣٢)، أي: سيدي، ولأن المحذور من قول ﴿ربي﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف، لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

القسم الرابع: أن يضاف الاسم إلى الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام، فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع، كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك.

قوله: (وليقل: سيدي ومولاي). المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك، لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يكون بدلا عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، وليقل: (سيدي ومولاي)، ففهم المؤلف رحمه الله – كما سيأتي في المسائل– أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نهى أن يقول للعبد: أطعم ربك، فالعبد من باب أولى أن ينهي عن قول: أطعمت ربي، وضأت ربي، بل يقول: سيدي ومولاي.

وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال، فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد وجه الخطاب إلى العبد نفسه، فقال: (وليقل: سيدي ومولاي)، أي بدلا عن قوله: أطعمت ربي، وضأت ربي.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان / باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والاسلام والاحسان حديث (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب بيان الإيمان والاسلام والاحسان حديث (٩).

[2] البخاري: كتاب تفسير القرآن / باب قوله (إن الله عنده علم الساعة)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب بيان الإيمان

[3] البخاري كتاب اللقطة / باب ضالة الغنم، حديث (٢٤٢٨)، ومسلم: كتاب اللقطة، حديث (١٧٢٢)

وقوله: (سيدي) السيادة في الأصل علو المترلة، لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معان، منها: المالك، والزوج، والشريف المطاع.

وسيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق.

فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله – عز وجل – قال ﷺ(السيد الله)[1]

وأما السيد مضافة، فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ (سورة يوسف: ٢٥) وقال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)[2]، والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده، أي: سيد العبد لعبده.

تنبيه:

اشتهر بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلا: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق، لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ وقال: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ (الأنعام: ٦٢)، وقال ﷺ: (إن النساء عوان عندكم)[3]. أي: بمترلة وقال في الرجل: (راع في أهله ومسؤول عن رعيته)[4]، فالصواب أن يقال للواحدة امرأة وللجماعة منهن نساء.

قوله: (ومولاي). أي: وليقل مولاي.

والولاية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله – عز وجل – لا تصلح لغيره، كالسيادة المطلقة.

وولاية الله نوعان:

النوع الأول: عامة، وهي الشاملة لكل أحد، قال تعالى: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ (الأنعام: ٦٢)، فجعل له ولاية على هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (a: ١١)، وهذه ولاية خاصة، ومقتضى السياق أن يقال: وليس مولى الكافرين، لكن قال: ﴿لا مولى

[1] الإمام أحمد في (المسند)(٤/٢٤، ٣٥)، والبخاري في (الأدب المفرد) (٢١١) وابو داود: كتاب الأدب / باب في كراهة التمادح.قال ابن حجر في الفتح (٥/ ١٧٩): رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد، وصححه أيضاً الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٧٠٠).

[2] مسلم: كتاب الفضائل / باب تفضيل النبي ﷺ على جميع الخلائق.

[3] الإمام أحمد (٥/ ٧٢)، والترمذي: كتاب الرضاع / باب في حق المرأة على زوجها، وابن ماجة: كتاب النكاح / باب حق المراة على زوجها، (١ / ٥٩٤) وابن ماجة، حديث (١٨٥١) وحسنه الشيخ الألباني في الإرواء (٢٠٣٠).

[4] البخاري: كتاب الجمعة / باب الجمعة في القرى، ومسلم: كتاب الإمارة / باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، وأبو داود حديث (٢٩٢٨)، والترمذي حديث (١٧٠٥).

لهم﴾، أي: لا هو مولى للكافرين ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون ﷲ موالي لهم لأنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة، فهذه تكون لغير ﷲ، ولها في اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولي للأمور، والسيد، والعتيق.

قال تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن ﷲ هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾ (التحريم: ٤)، وقال ﷺ فيما يروى عنه: (من كنت مولاه، فعليّ مولاه)[١]، وقال ﷺ: (إنما الولاء لمن اعتق)[٢]. ويقال للسلطان ولي الأمر، وللعتيق مولى فلان لمن أعتقه، وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب ملكا بقوله: مولاي، لأن المراد

.بمولاي أي متولي أمري، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمورها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا ﷲ وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩)

قوله ﷺ: (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)، هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدي وأمتي لمملوكه ومملوكته، لأننا جميعا عباد ﷲ، ونساؤنا إماء لله، قال النبي ﷺ: (لا تمنعوا إماء ﷲ مساجد ﷲ)[٣].

فالسيد منهي أن يقول ذلك، لأنه إذا قال: عبدي وأمتي، فقد تشبه بالله - ﷻ - ولو من حيث ظاهر اللفظ، لأن ﷲ - ﷻ - يخاطب عباده بقوله: عبدي، كما في الحديث: (عبدي استطعمتك فلم تطعمني...)[٤] وما أشبه ذلك.

وإن كان السيد يريد بقوله: (عبدي)، أي: مملوكي، فالنهي من باب التتره عن اللفظ الذي يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: (وأمتي). الأمة: الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية.

والعلة من النهي: أن فيه إشعارا بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه ﷲ إلى أن النهي في الحديث ليس على سبيل التحريم، وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلا.

قوله: (وليقل فتاي وفتاتي).مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به.

---

[١] الإمام أحمد في (المسند) (٨٤/١)، والترمذي: كتاب المناقب/ باب مناقب علي بن أبي طالب رضي ﷲ عنه، حديث (٣٧١٣) وابن ماجة حديث (١٢١)، وقد صححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٦٠٨٢).

[٢] البخاري: كتاب العتق / باب ما يجوز من شرط المكاتب، ومسلم: كتاب العتق / باب إنما الولاء لمن أعتق.

[٣] البخاري: كتاب الجمعة / باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء، حديث (٩٠٠)، ومسلم: كتاب الصلاة / باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، (٤٤٢).

[٤] مسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب فضل عيادة المريض، حديث (٢٥٦٩).

وفي الحديث فوائد:

١. حسن تعليم الرسول ﷺ، حيث إنه إذا نهى عن شيء فتح للناس ما يباح لهم فقال: (لا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي)، وهذه كما هي طريقة النبي ﷺ وهي طريقة القرآن أيضا، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ (البقرة: ١٠٤)، وهكذا ينبغي لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا على الناس باباً محرماً أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم، لأن في ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرم على هؤلاء، لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلا عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامي فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس، فإن الدين الإسلامي يسعه، فلا يحكم على الناس أن يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئا إلا وفتح لهم ما يغني عنه، وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢. أن الأمر يأتي للإباحة، لقوله: (وليقل: سيدي ومولاي)، وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتى في مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر في مقابلة شيء ممنوع، ومثله قوله تعالى: (وإذا حللتم فاصطادوا) (المائدة: ٢).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

فيه مسائل:

الأولى:النهي عن قول:عبدي وأمتي.تؤخذ من قوله:(ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)وقد سبق بيان ذلك.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك. تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك.

الثالثة: تعليم الأول (وهو السيد) قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني (وهو العبد) قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ. وقد سبق ذلك.

وفي الباب مسائل أخرى لكن هذه المسائل هي المقصود.

باب لا يرد من سال بالله

(**تم**): هذا الباب مع الباب الذي قبله ومع ما سبقه -كما ذكرنا- كلها في تعظيم الله -جل وعلا-، وربوبيته، وأسمائه وصفاته؛ لأن تعظيم ذلك من إكمال التوحيد، ومن تحقيق التوحيد.

ومن سأل بالله -جل جلاله- فقد سأل بعظيم، ومن استعاذ بالله فقد استعاذ بعظيم، بل استعاذ بمن لـه هـذا الملكوت، وله تدبير الأمر، - جل وعلا - فكيف يُرد من جعل مالك كل شيء وسيلة؟!

ولهذا كان من تعظيم الله التعظيم الواجب ألا يرد أحد سأل بالله -جل وعلا-، فإذا سأل سؤالا وجعل الله -جل وعلا- هو الوسيلة، فإنه لا يجوز أن يرد تعظيما لله -جل وعلا-.

والذي في قلبه تعظيم الله -جل وعلا- ينتفض إذا ذُكر الله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (الأنفال: من الآية٢) بمجرد ذكر الله تَجِلُ القلوب لعلمهم بالله -جـل وعلا- وما يستحق، وعلمهم بتدبيره وملكوته، وعظمة صفاته وأسمائه -جل وعلا-.

فإذا سأل أحد بالله فإن قلب الموحد لا يكون رادا له، لأنه معظم لله، مُجِلٌّ لله -جل وعلا-، فلا يـرد أحدا جعل وسيلته إليه رب العزة -سبحانه وتعالى-.

ومن أهل العلم من قال: إن السائل بالله قد تجب إجابته ويحرم رده، وقد لا يجب ذلك، وهذا القول هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية، واختيار عدد من المحققين بعده، وهو القول الثالث في المسألة.

وأما القول الأول: فهو أن من سأل بالله حَرُم أن يرد مطلقا.

والقول الثاني: أن من سأل بالله استُحب إجابته وكُره رده.

ومراد شيخ الإسلام رحمه الله بحالة الوجوب أن يتوجه السؤال لمعين في أمر معـين، يعـني ألا يكـون السائل سأل عددا من الناس بالله ليحصل على شيء، فلهذا لم يدخل فيه السائل الفقير الذي يأتي فيسأل هذا، ويسأل هذا، كما لم يدخل فيه من يكون كاذبا في سؤاله، أما إذا لم يتوجه لمعين في أمر معين، فإنه لا يجب عليه أن يؤتيه مطلبه، ويجوز له أن يرد سؤاله. وعلى هذا التفصيل يكون **للمسألة ثلاثة أحوال**:

حال يحرم فيها رد السائل، وحال يكره فيها رد السائل، وحال يباح فيها رد السائل بالله:

فيحرم رد السائل بالله إذا توجه لمعين في أمر معين كما إذا خصك بهذا التوجه، وسألك بالله أن تعينـه، وأنت قادر على أن تؤتيه مطلوبه.

ويستحب: إذا كان التوجه ليس لمعين، كأن يسأل أشخاصاً كثيرين.

ويباح: إذا كان من سأل بالله يعرف منه الكذب.

(ق): **قوله:** (باب لا يرد). (لا) نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهة، وأن يكون للتحريم.

وقوله: (من سأل بالله). أي: من سأل غيره بالله، والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: السؤال بالله بالصيغة، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم في حديث الثلاثة حيث قال الملك: (أسألك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيرا)[1].

الثاني: السؤال بشرع الله – ﷻ –، أي: يسأل سؤالا يبيحه الشرع، كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسؤول والسائل، وهنا عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

وهذه المسألة لم يتطرق إليه المؤلف رحمه الله، فنقول أولا: السؤال من حيث هو مكروه ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحدا شيئا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا، حتى إن عصا أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته، فلا يقول لأحد: ناولنيه، بل يترل ويأخذه[2].

والمعنى يقتضيه، لأنك إذا أعززت نفسك و لم تذلها لسؤال الناس بقيت محترما عند الناس، وصار لك منعة من أن تذل وجهك لأحد، لأن من أذل وجهه لأحد، فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه سأله اضطر إلى أن يجيبه، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال (ازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[3]، فالسؤال أصلا مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة.

فسؤال المال محرم، فلا يجوز أن يسال من أحد مالا إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله في باب الزكاة: (إن من أبيح له أخذ شيء أبيح له سؤاله)، ولكن فيما قالوه نظر، فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال، وقال: (إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم)[4]، وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة.

وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن، فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

---

[1] سبق تخريجه.

[2] مسلم: كتاب الزكاة / باب كراهة المسألة للناس، حديث (١٠٤٣) وأبو داود حديث (١٦٤٢)والنسائي، حديث (٤٦٠) وابن ماجة، حديث (٢٨٦٧).

[3] ابن ماجة: كتاب الزهد / باب الزهد في الدنيا، حديث (٤١٠٢) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٤٤).

[4] البخاري: كتاب الزكاة/ باب من سال الناس تكثرا حديث (١٤٧٥)، ومسلم: كتاب الزكاة / باب كراهة المسألة، حديث (١٠٤٠).

وأما إجابة السائل، فهو موضوع بابنا هذا، ولا يخلو السائل من أحد الأمرين:

الأول: أن يسأل سؤالا مجردا، كأن يقول مثلا: يا فلان ! أعطني كذا وكذا، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه، كالفقير يسأل شيئا من الزكاة.

الثاني: أن يسأل بالله، فهذا تجيبه وإن لم يكن مستحقا، لأنه سأل بعظيم، فإجابته من تعظيم هذا العظيم، لكن لو سال إثما أو كان في إجابته ضرر على المسؤول، فإنه لا يجاب.

مثال الأول: أن يسألك بالله نقودا ليشتري بها محرما كالخمر.

ومثال الثاني: أن يسألك بالله أن تخبره عما في سرك وما تفعله مع أهلك، فهذا لا يجاب لأن في الأول إعانة على الإثم، وإجابته في الثاني ضرر على المسؤول.

عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**من سأل بالله فأعطوه؛ ومن استعاذ بالله؛ فأعيذوه، ومن دعاكم؛ فأجيبوه، ومن صنع إليكم معرروفا؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فأدعوا له حتى ترون أنكم قد كافأتموه**). رواه أبو داوود والنسائي بسند صحيح[1]

قوله ﷺ: (من سال بالله). (من): شرطية للعموم.

قوله: (فأعطوه) الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثما أو ضررا على المسؤول، لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيما لله – ﷻ – الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الملك الذي جاء إلى الأبرص والقرع والأعمى: (أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا)[2].

(**ف**): ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح. فالأول: محمود في الكتاب والسنة. والثاني: مذموم فيهما. وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۞ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة :٢٦٧- ٢٦٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا

---

[1] سبق تخريجه وهو صحيح.

[2] سبق تخريجه.

جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد : ٧] وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] الآية فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة. ذلك – والله أعلم – لتعدي نفعه. وذكره تعالى في الأعمال التي أمر الله بها عباده. وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب : ٣٥].

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء. نصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً. وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضي الله عنهم بالإيثار، فقال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴾ [الإنسان :٨– ٩].

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جداً، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغب، بالله التوفيق.

(ق): **قوله:** (ومن استعاذ بالله فأعيذوه). أي قال: أعوذ بالله منك، فإنه يجب عليك أن تعيذه، لأنه استعاذ بعظيم، ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك، قال لها: (لقد عذت بعظيم– أو معاذ –، الحقي بأهلك)[1].

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال أعوذ بالله منك.

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصيا، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعاذته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه – وإن لم يقل أستعيذ بالله –، فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه، فلا يبايع، ولا يشترى منه، ولا يؤجر حتى يخرج.

---

[1] البخاري: كتاب الطلاق / باب من طلق، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، حديث (١٢٥٤) والنسائي، حديث (٣٤١٧) وابن ماجة حديث (٢٠٥٠).

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم.

قوله: (ومن دعاكم فأجيبوه). (من): شرطية للعموم، والظاهر أن المراد بالدعوة هنا للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: (شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله)[١].

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

١. أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن.
٢. ألا يكون هناك منكر في مكان الدعوة، فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين:
   - إجابة الدعوة.
   - وتغيير المنكر.

وإن كان لا يمكن إزالته حرم عليه الحضور، لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم، فهو إثم.

٣. أن يكون الداعي مسلما، وإلا لم تجب الإجابة، لقوله ﷺ: (حق المسلم على المسلم ست...) وذكر منها: (إذا دعاك فأجبه)[٢]. قالوا: وهذا مقيد للعموم الوارد.
٤. أن لا يكون كسبه حرام، لأن إجابته تسلتزم أن تأكل طعاما حراما، وهذا لا يجوز، وبه قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: ما كان محرما لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرما لعينه، كالخمر والمغصوب ونحوهما، وهذا القول وجيه قوي، بدليل أن الرسول ﷺ اشتري من يهودي طعاما لأهله[٣]، واكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[٤]، وأجاب

---

[١] البخاري: كتاب النكاح/ باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله، حديث (٥١٧٧) ومسلم: كتاب النكاح / باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة، حديث (١٤٣٢) وأبو داود، حديث (٣٧٤٢) وابن ماجة، حديث (١٩١٣).

[٢] البخاري: كتاب الجنائز / باب الأمر باتباع الجنائز، ومسلم: كتاب السلام / باب من حق المسلم للمسلم رد السلام، حديث (٢١٦٢)وأبو داود كتاب الأدب، باب: في العطاس، حديث (٥٠٣٠)، والترمذي، حديث (٢٧٣٧) والنسائي، حديث (١٩٣٨)وابن ماجة، حديث (١٤٣٥).

[٣] البخاري: كتاب البيوع / باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة، حديث (٢٠٦٨، ٢٠٦٩) ومسلم: كتاب المساقاة / باب الرهن وجوازه في الحضر كالسفر، حديث (١٦٠٣) والنسائي، حديث (٤٦٠٩) وابن ماجة حديث (٢٤٣٦، ٢٤٣٧).

[٤] البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين، حديث (٢١٦٧)، ومسلم: كتاب السلام/باب السم، حديث (٢١٩٠) وأبو داود، كتاب الديات، باب: فيمن سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات أيقاد منه، حديث (٤٥٠٨).

دعوة اليهودي، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوي هذا القول قوله ﷺ في اللحم الذي تصدق به على بريرة: (هو لها صدقة ولنا منها هدية)[١].

وعلى القول الأول، فإن الكراهة تقوي وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

٥. أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ماهو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦. أن لا تتضمن ضررا على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة: هل إجابة الدعوة حق لله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل، فلا إثم عليك، لكنها واجبة بأمر الله ﷻ-، ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن له أن لا يدعوك أيضا، ولكن إذا أقالك حياء منه وخجلا من غير اقتناع، فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

مسألة: هل بطاقات الدعوة التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يدري لمن ذهبت إليه، فيمكن أن نقول: إنها تشبه دعوة الجفلى فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه، فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: (من صنع إليكم معروفا، فكافئوه). المعروف: الإحسان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها، فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائدا عن الواجب عليه، فكافئه، وهكذا، ولكن إذا كان كبير الشأن و لم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك أو الرئيس... مثلا إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعى له، لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضا من حقه فتكون مسيئا له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

١. تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢. أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه، لأن من صنع إليك معروفا فلا بد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: (اليد العليا خير من اليد السفلى)[٢]، واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروفا، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله - ﷻ -، لكن بعض الناس يكون كريما جدا، فإذا كافأته بدل

---

[١] البخاري: كتاب الزكاة /باب على موالي أزواج النبي ﷺ، حديث (١٤٩٣) ومسلم كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق، حديث (١٥٠٤).

[٢] البخاري: كتاب الزكاة / باب لا صدقة إلا عن ظهر غني، ومسلم كتاب الزكاة / باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

هديته أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعي له، لقوله ﷺ: (فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له) وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني فإنه يدعو له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة، لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ، ولأنه به سرور صانع المعروف.

قوله: (حتى تروا أنكم قد كافأتموه). (تروا)، بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجوز بالضم بمعنى تظنوا، أي: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

(ف): ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر: (حتى تعلموا)[1] فتعين الثاني للتصريح به. وفيه: (من سألكم بالله فأجيبوه)[2] أي إلى ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه، وعند أبي داود في رواية أبي نهيك عن ابن عباس: (من سألكم بوجه الله فأعطوه)[3] وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث (ومن سألكم بالله)[4] كما في حديث ابن عمر.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: (حتى ترون أنكم قد كافأتموه).

---

[1] أبو داود: كتاب الأدب: باب في الرجل يستعيذ من الرجل من حديث ابن عمر ،حديث(٥١٠٩).

[2] عند أبي داود "ومن سألكم بالله فأعطوه".

[3] أبو داود: كتاب الأدب: باب في الرجل يستعيذ من الرجل من حديث ابن عباس ولفظه" منسألكم بالله فأعطوه) ،حديث(٥١٠٨).

[4] أبو داود: كتاب الأدب: باب في الرجل يستعيذ من الرجل من حديث ابن عباس، وهو بهذا اللفظ منحديث ابن عمر رضي الله عنهما، حديث (٥١٠٨).

(**ق**): فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله. وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا أن يستعيذ عن شيء واجب فعلا أو تركا، فإنه لا يعاذ.

الثانية: إعطاء من سأل بالله. وسبق التفصيل فيه.

الثالثة: إجابة الدعوة. وسبق كذلك التفصيل فيها.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.أي: على صنيعة من صنع إليك معروفا، وسبق تفصيل ذلك.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه. وسبق أنه مكافأة في ذلك، وفيما إذا كان الصانع لا يكافأ مثله عادة.

السادسة: **قوله:** (حتى تروا أنكم قد كافأتموه). أي: أنه لا يقصر في الدعاء، بل يدعوا له حتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه.

وفيه مسائل أخرى، لكن ما ذكره المؤلف هو المقصود.



باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

(**تم**): هذا باب (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة) ومناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة في أن تعظيم صفات الله جل وعلا – الذاتية والفعلية من تحقيق التوحيد، ومن كمال الأدب والتعظيم لله -جل وعلا-.
فإن تعظيم الله -جل جلاله-، وتعظيم أسمائه، وصفاته، يكون بأمور كثيرة منها: ألا يسأل بوجه الله أو بصفات الله -جل جلاله- إلا المطالب العظيمة، التي أعلاها الجنة.

(**ق**): مناسبة هذا الباب للتوحيد: أن فيه تعظيم وجه الله – عز وجل –، بحيث لا يسأل به إلا الجنة.

قوله: (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة). اختلف في المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحدا من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحدا من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة، فإذا لا يسألون بوجه الله مطلقا، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك ذكره بعد (باب لا يرد من سأل بالله).

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سالت شيئا من أمور الدنيا، فلا تسأله بوجه الله، لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشي من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله، كقولك مثلا: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ (الأنعام: ٦٥) قال: هذه أهون أو أيسر)[1].

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعا، لكان له وجه.

[1] البخاري: كتاب التفسير / باب قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ.....﴾(الأنعام: من الآية٦٥)

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**). رواه أبو داود[1].

وقوله: (بوجه الله). فيه إثبات الوجه لله – عز وجل –، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف، فالقرآن في قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ (القصص: ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ (الرعد: ٢٢) والآيات كثيرة.

والسنة كما في الحديث السابق: (أعوذ بوجهك).

واختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلى نفسه: هل هو وجه حقيقي، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشيء الذي يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يعبر به عن الثواب؟.

فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقي، لأن الله تعالى قال: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ (الرحمن: ٢٧)، ولما أراد غير ذاته، قال: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ (الرحمن: ٧٨) فـ(ذي) صفة لرب وليست صفة لاسم، و(ذو) صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفا بالجلال والإكرام، فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الذات وحدها، لأن الوجه غير الذات.

وقال أهل التعطيل: أن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب، قالوا: ولو أثبتنا لله وجها حقيقياً للزم أن يكون جسما، والأجسام متماثلة، ويلزم من ذلك إثبات المثل لله – عز وجل –، والله تعالى يقول: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١)، وإثبات المثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثيلا فيما يختص به فهو كافر، **فنقول لهم:**

أولا: ما تعنون بالجسم الذي فررتم منه، أتعنون به المُركّب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلى الآخر؟ إن أردتم ذلك، فنحن نوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية المتصفة بصفات الكمال، فلا محذور في ذلك، والله تعالى وصف نفسه بأنه أحد صمد، قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد ۝ الله الصمد﴾ (الإخلاص: ١-٢)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصمد: الذي لا جوف له[2].

---

[1] أبو داود: كتاب الزكاة / باب كراهية المسالة بوجه الله تعالى، حديث (١٦٧١) وضعفه الشيخ الألباني كما في المشكاة (١٩٧٧).

[2] ابن جرير (٣٠/ ٧٤٢).

ثانيا: قولكم: إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا، فهل جسم الدب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك.

فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهي استلزام مماثلة الله لخلقه.

ونحن نشاهد البشر لا يتفقون في الوجوه، فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر.

ويلاحظ أن التعبير بنفي المماثلة أولى من التعبير بنفي المشابهة، لأنه اللفظ الذي جاء به القرآن، ولأنه ما من شيئين موجودين إلا ويتشابهان من وجه ويفترقان من وجه آخر، فنفى مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن لله خلق آدم على صورته)[1]، ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين، فيجاب عنه:

بأنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب – عز وجل – بإجماع المسلمين والعقلاء، لأن الله – عز وجل – وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي – موضع القدمين – كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفا ولا تخيلا، ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعا، **وإنما يراد به أحد معنيين:**

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه، وعلى هذا، فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم على صورة الله – عز وجل – ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أضوأ كوكب في السماء)[2]، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر، لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته، أي: صورة آدم، أي: أن الله خلق آدم أول مرة على هذه الصورة، وليس كبنية يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضا يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ: (على صورة الرحمن).

---

[1] البخاري: كتاب الاستئذان / باب بدء السلام، ومسلم كتاب البر / باب النهي عن ضرب الوجه.

[2] البخاري كتاب بدء الخلق / باب ما جاء في صفة الجنة، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها / باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والترمذي (٢٥٣٧)، وابن ماجة، حديث (٤٣٣٣).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله ﷻ إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله ﷻ غاية المطالب. تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته، فإن من الأدب أن لا تسال بوجه الله ﷻ إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

الثانية: إثبات صفة الوجه. وقد سبق الكلام عليه.



باب ما جاء في الـ (لو)

(**تم**): قلب الموحد المؤمن لا يكون محققا مكملا للتوحيد حتى يعلم أن كل شيء بقضاء الله -جل وعلا- وبقدره، وأن ما فعله سبب من الأسباب، والله -جل وعلا- ماضٍ قدره في خلقه، وأنه مهما فعل فإنه لن يحجز قدر الله -جل وعلا-.

فإذا كان كذلك كان القلب معظِّما لله -جل وعلا- في تصرفه، في ملكوته، وكان القلب لا يخالطه تَمَني أن يكون شيء فات على غير ما كان، وأنه لو فعل كذا لتغير ذلك السابق، بل الواجب أن يعلم أن قضاء الله نافذ، وأن قدره ماضٍ، وأن ما سبق من الفعل قد قدره الله -جل وعلا- وقدر نتائجه.

فالعبد لا يمكنه أن يرجع إلى الماضي فيغيره، وإذا استعمل لفظ "لو" أو لفظ "ليت"، وما أشبهها من الألفاظ التي تدل على الندم وعلى التحسر على ما فات، فإن ذلك يضعف القلب، ويجعله متعلقاً بالأسباب، منصرفا عن الإيقان بتصريف الله -جل وعلا- في ملكوته.

وكمال التوحيد إنما يكون بعدم الالتفات إلى الماضي، فإن الماضي الذي حصل إما أن يكون مصيبة أصيب بها العبد، فلا يجوز له أن يقول: لو فعلت كذا لما حصل كذا. بل الواجب عليه أن يصبر على المصيبة، وأن يرضى بفعل الله -جل وعلا-، ويستحب له الرضا بالمصيبة.

وإذا كان ما أصابه في الماضي معصية، فإن عليه أن يسارع في التوبة والإنابة، وألا يقول لو كان كذا لم يكن كذا، بل يجب عليه أن يسارع في التوبة والإنابة، حتى يمحو أثر المعصية.

فتبين أن ما مضى من المقدر للعبد معه حالان: إما أن يكون ذلك الذي مضى مصائب فحالها كما ذكرنا، وإما أن يكون معايب ومعاصي، فالواجب عليه أن ينيب، وأن يستغفر، وأن يُقبل على الله -جل جلاله- وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢).

والشيطان يدخل على القلب، فيجعله يسيء الظن بربه -جل وعلا- وبقضائه وبقدره، وإذا دخلت إساءة الظن بالله ضعف التوحيد، ولم يحقق العبد ما يجب عليه من الإيمان بالقدر، والإيمان بأفعال الله -جل جلاله-، ولهذا عقد المصنف هذا الباب، لأن كثيرين يعترضون على القدر من جهة أفعالهم، ويظنون أنهم لو فعلوا أشياء لتغير الحال، والله -جل وعلا- قد قدر الفعل، وقدر نتيجته، فالكل موافق لحكمته سبحانه وتعالى.

(**ق**): **قوله:** في (اللو).

دخلت (أل) على (لو) وهي لا تدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل[١]

لأن المقصود بها اللفظ، أي: باب ما جاء في هذا اللفظ.

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء، لأن (لو) تستعمل على عدة أوجه:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى:﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ (آل عمران: ١٦٨) في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلا اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع a، وهذا محرم يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضا، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزي لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ (آل عمران: ١٥٦) أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضا، لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه، لأن الندم يكسب النفس حزنا وانقباضا، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[٢].

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئا يظن أن فيه ربحا فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيرا، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية، كقول المشركين: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ (الأنعام: ١٤٨) وقولهم: ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ (الزخرف: ٢٠) وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، وفي الحديث عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: (لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان) فهذا تمني خيرا، وقال الثاني: (لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان)، فهذا تمني شرا. فقال النبي ﷺ في الأول: (فهو بنيته، فأجرهما سواء)، وقال في الثاني: (فهو بنيته فوزرهما سواء)[٣].

السادس: أن تستعمل في الخبر المحض.

---

[١] انظر ألفية ابن مالك ص(٣).

[٢] مسلم: كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، حديث (٢٦٦٤)، وابن ماجة في المقدمة، باب: في القدر، حديث (٧٩).

[٣] الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث (٢٣٢٥)، وابن ماجة حديث (٤٢٢٨)وحسنه الترمذي.

وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى ولأحللت معكم)[١]، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدى ولأحل، وهذا ظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدى.

لكن الظاهر: أنه لما رأى من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمنى شيئا قدر الله خلافه.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤)

(ق): الآية الأولى قوله تعالى: ﴿يقولون﴾. الضمير للمنافقين.

قوله: ﴿ما قتلنا﴾. أي: ما قتل بعضنا، لأنهم لم يقتلوا كلهم، ولأن المقتول لا يقول.

قوله: ﴿لو كان لنا من الأمر﴾. ﴿لو﴾: شرطية، وفعل الشرط: ﴿كان﴾، وجوابه: ﴿ما قتلنا﴾ و لم يقترن الجواب باللام، لأن الأفصح إذا كان الجواب منفيا عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء عمرو أفصح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو، وقد ورد قليلا اقترانها مع النفي، كقول الشاعر:

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الليالي

قوله: ﴿ها هنا﴾. أي: في أُحد.

(ف): قال بن إسحاق: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله ابن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم. فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فو الله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيئ ما قتلنا ها هنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾ لقول معتب رواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين

---

[١] البخاري: كتاب التمني / باب قول النبي ﷺ: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت)، ومسلم: كتاب الحج / باب بيان وجوه الإحرام، وأبو داود، حديث (١٧٨٤).

كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي هذا قدر مقدر من الله ﷻ وحكم حتم لازم لا محيد عنـــه ولا مناص منه.

(**ق**): **قوله:** ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾. هذا رد علـــيهم، فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم.

وقولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء﴾. هذا من الاعتراض على الشرع، لأنهم عتبوا علـــى الرســـول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضا على القدر أيضا، أي: لو كان لنا مـــن حســـن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فنقتل.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٨)

قوله: ﴿وقعدوا﴾. الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على ﴿قالوا﴾، **ويكون وصـــف هـــؤلاء بأمرين:**

- بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾.
- وبالجبن عن تنفيذ الشرع (الجهاد) بقولهم: ﴿وقعدوا﴾، أو تكون الواو للحال والجملة حاليـــة على تقدير (قد)، أي: والحال أنهم قد قعدوا، ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: ﴿لإخوانهم﴾. قيل: في النسب لا في الدين، وقيل في الدين ظـــاهرا، لأن المنـــافقين يتظـــاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين، لكان صحيحا.

قوله: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾. هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾، وإن كنتم قاعدين، فلا تستطيعون أيضا أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت.

فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكومـــا بشـــرع الله.

(**ف**): قال العماد ابن كثير: الذين قالوا لإخوانهم، وقعدوا: لو أطاعونا ما قتلوا أي لو سمعوا مشـــورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿ قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكـــم أن لا تموتـــوا، والموت لا بد آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال

مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه يعني أنه هو الذي قال ذلك. وأخرج البيهقي عن أنس أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعـــل يســـقط سيفي وآخذه ويسقط وآخذه. قال: والطائفة الأخرى – المنافقون – ليس لها هم إلا أنفســـهم، أجـــبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل.

قوله: قد أهمتهم أنفسهم يعني لا يغشاهم النعاس عن القلق والجزع والخوف: ﴿يظنون بالله غير الحـــق ظن الجاهلية﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبي في غزوة أحد قال: فلما انخـــزل يـــوم أحد وقال: يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان؟ أو كما قال ... انخزل معه خلق كثير، كان كـــثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا علـــى المحنة، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة. وهذا حال كثير من المسلمين في زماننـــا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً وينافق كثير منهم. ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً، لكنه إيمـــان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا: آمنا، فقيل لهم: " لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم " أي الإيمان المطلق الذي أهلـــه هـــم المؤمنون حقاً، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والســـنة، فلـــم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، انتهى.

قوله: وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك ممـــا يطول ذكره. والله المستعان.

(ق): مناسبة الباب للتوحيد:

أن من جملة أقسام ﴿لو﴾ الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر، فإنه لم يرض بالله ربا، ومـــن لم يرض بالله ربا، فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضى بالله ربا، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربا تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلـــك لأحـــد إلا

للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خير له)[١]، ومهما كان، فالأمر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلا في سفر ثم أصبت في حادث، فلا تقل: لو أني ما خرجت في السفر ما أصبت، لأن هذا مقدر لا بد منه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، أن رســـول ﷺ قـــال: (**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت، لكان كذا وكذا، لكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**)[٢]

قوله: (وفي الصحيح) أي: (صحيح مسلم)، وانظر ما سبق في: باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـــه إلا الله.

والمؤلف رحمه الله حذف منه جملة، وأتى بما هو مناسب للباب، والمحذوف قوله: (المؤمن القـــوي خـــير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير).

قوله: (القوي). أي: في إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففي إيمانه، يعني: ما يحل في قلبه من الـــيقين الصـــادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه، يعني: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر والحزم في العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل في ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد مـــا يقتضـــيه، لأن (القوي) وصف عائد على موصوف وهو المؤمن، فالمراد: القوي في إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر.

قولـه: (خير وأحب إلى الله). خير في تأثيره وآثاره فهو ينفع ويقتدي بـــه وأحـــب إلى الله باعتبـــار الثواب.

قوله: (من المؤمن الضعيف). وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

قولـه: (وفي كل خير). أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذا النوع من التذييل يســـمى عنـــد البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

---

[١] مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة، حديث (٢٦٦٤)، وابن ماجة (٧٩)و(٤١٦٨)

[٢] سبق تخريجه.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله (خير وأحب)، لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل، كما في قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ (الفرقان: ٢٤) مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: (خير وأحب) صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: (وفي كل خير) رفع من شانه، ونظيره قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ (الحديد: ١٠).

قوله: (احرص على ما ينفعك). الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السبر والتقسيم لا تخلو من أربع حالات:

١. نافعة، وهذه مأمور بها.
٢. ضارة وهذه محذر منها.
٣. فيها نفع وضرر.
٤. لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر، إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعا، ولا يمكن أن تجد شيئا من الأمور والحوادث ليس فيه نفع ولا ضرر، إما ذاتي، أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خير أو ليصمت)[1].

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهر جدا، لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

و(ما): اسم موصول بفعل (ينفع)، والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم الفاعل، كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع، لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهذه الزيادة لا بد أن نحرص عليها، لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذلك الوصف، فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره، فنقدم الأنفع على النافع **لوجهين:**

---

[1] البخاري: كتاب الأدب / باب إكرام الضيف/ ومسلم: كتاب الإيمان / باب الحث على إكرام الجار.

١. أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢. أن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار، لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة لقوله: (احرص على ما ينفعك)

قوله: (واستعن بالله). الواو تقتضي الجمع فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل، فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال، كقولك: (اللهم أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله) عند شروعك بالفعل.

أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك – ﷻ – أن يعينك على هذا الفعل، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.

أو طلب العون بهما جميعا، والغالب أن من استعان بلسان المقال، فقد استعان بلسان الحال.

لو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلا، فهذا جائز، ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، كما لو عجزت عن حمل شيء بيد واحدة، فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى، وعلى هذا، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله ﷺ: (استعن بالله).

قوله: (ولا تعجزن). فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و(لا) ناهية، والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشيء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان، ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي ﷺ: (صل قائما، فإن لم تستطع، فقاعدا، فإن لم تستطع، فعلى جنب)[1].

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل، اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل.

لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدعه، لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدني من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل – لا سيما النافع – ثم أتاه الشيطان فثبطه؟

لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار، فيجب عليه الرجوع عنه، لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

---

[1] البخاري: كتاب تقصير الصلاة / باب إذا لم يطق قاعدا صلي على جنب.

وذكر في ترجمة الكسائي انه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعاما تريد أن تصعد به حائطا، كلما صعدت قليلا سقطت، وهكذا حتى صعدت، فأخذت درسا من ذلك، فكابد حتى صار إماما في النحو.

قوله: (إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا).

هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز.

وهذه المراتب إليك.

المرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود، فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: (وإن أصابك...)، ففوض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: (وإن أصابك شيء). أي: لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأول: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

الثاني: أن يقول: لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر ما فاتني الربح.

ومثال الثاني أن يقول: لو سافرت لربحت.

وذكر النبي ﷺ الثاني دون الأول، لأن الإنسان عامل فاعل، فهو يقول: لو أني فعلت الفعل الفلاني دون هذا الفعل لحصلت مطلوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبيا من الأعمال.

قوله: (كذا). كناية عن مبهم، وهي مفعول لفعلت.

قوله: (لكان كذا) فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: (قدر الله). خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا قدر الله.

وقدر بمعنى مقدور، لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا، لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله أي مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير، لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعني إن هذا الذي وقع قدر الله وليس إلى، أما الذي إلى فقد بذلت ما أراه نافعا كما أمرت، وهـــذا فيه التسليم التام لقضاء الله – ﷻ – وان الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي، فإنه لا يـــلام على شيء، ويفوض الأمر إلى الله.

قوله: (وما شاء الله فعل). جملة مصدرة ب(ما) الشرطية، (وشاء): فعل الشرط، وجوابه: (فعل)، أي: ما شاء الله أن يفعله فعله، لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ (الرعد: ٤١)، وقد سبق ذكر قاعدة، وهي إن كل فعل لله تعـــالى معلـــق بالمشيئة، فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقا بالمشيئة المجردة، لأن الله لا يشرع ولا يفعـــل إلا لحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ما شـــاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال تعـــالى: ﴿والله يريـــد أن يتـــوب عليكم﴾ (النساء: ٢٧) بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله علي جميع الناس.
والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد، كما قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعـــل ما يريد﴾ (البقرة: ٢٥٣)

قوله: (فإن لو تفتح عمل الشيطان). (لو): اسم إن قصد لفظها، أي؛ فإن هذا اللفـــظ يفـــتح عمـــل الشيطان.

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن، فإن الشيطان يحب ذلك، وقال تعالى: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ﴾ (المجادلة: ١٠)، حـــتى في المنام يريه أحلاما مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وحينئذ لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهـــذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر، فقال ﷺ: (لا صلاة بحضـــرة طعـــام، ولا وهـــو يدافعـــه الأخبثان)[1]، إذا رضي الإنسان بالله ربا، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وانه لا بد أن يقـــع، اطمأنـــت نفسه وانشرح صدره.

(**ف**): **قال شيخ الإسلام رحمه** الله – وذكر حديث الباب بتمامه – ثم قال في معناه: لا تعجـــز عـــن مأمور، ولا تجزع عن مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص علـــى النـــافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب، ونهى عن العجز وقال: (إن الله يلوم على

---

[1] مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله، حديث (٥٦٠)، وأبو داود حديث (٨٩).

العجز)[1] والعاجز ضد الذين هم ينتصرون فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة، وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أمر بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين الله ولا يعجز، وأمر أصيب به من غير فعله. فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه، ولهذا قال بعض العقلاء – ابن المقفع أو غيره – الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له. فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة لـه، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة له فيه ما أصيب به من غير فعله. واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين: فالأفعال مثل قوله تعالى: ' ٦: ١٦٠ ' ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ ومثل قوله تعالى: ' ١٧: ٧ ' ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ ومثل قوله تعالى: ' ٤٢: ٤٠ ' ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ومثل قوله تعالى: ' ٢: ٨١ ' ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾ إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم.

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب. كما قال تعالى: ' ٤: ٧٩ ' ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم، والسيئة: المصائب، هذا هو الثاني من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم.

ثم قال رحمه الله: فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه وارض وسلم. قال تعالى: ' ٦٤: ١١ ' ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ ولهذا قال آدم لموسى: أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحج أدم موسى لأن موسى قال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنباً. وأما كونها لأجل الذنب – كما يظنه طوائف من الناس – فليس مراداً بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس، انتهى.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان. أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة. الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر ويحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف

---

[1] ضعيف:أخرجه أحمد (٦/٢٥)، أبو داود: كتاب الأقضية: باب الرجل يحلف على حقه .من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه ،حديث(٣٦٢٧)، وضعفه الألباني في تخريج الكلم الطيب(١٣٧) وضعيف الجامع (١٧٥٩).

يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه من غير حرص فإنه من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام: " إياك نعبد وإياك نستعين " فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى. ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه.

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز. وهو مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى لو ولا فائدة من لو ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية. وهي النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفته و لم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ها هنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده، ولهذا قال: فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حال حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق.

(ق): ويستفاد من الحديث:

١. إثبات المحبة لله – عَجَّلَ –، لقوله: (خير وأحب).

٢. اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه، لقوله: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

٣. زيادة الإيمان ونقصانه، لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص، لأن النقص لم يرد في القرآن، قال تعالى: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا﴾ (المدثر: ٣١)، وقال تعالى: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانا مع إيمانهم﴾ (الفتح: ٤).

والراجح القول الأول، لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالا على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: (مـــا رأيـــت مـــن ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)[١]، يعني: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كـــاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رب اربي كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلـــى ولكـــن ليطمئن قلبي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر، زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال، فظاهر، فمن صـــلى أربـــع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

٤. أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله: (وفي كل خير).

٥. أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها، لقوله: (احرص على ما ينفعك)، فـــإذا امتثـــل المؤمن أمر الرسول ﷺ، فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمرا دنيويا.

٦. أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع، لقوله: (احرص على ما ينفعك).

٧. أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة، لقوله: (و لا تعجز)

٨. أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر، لقوله: (ولكن قل: قدر الله وما شاء الله فعل)، وأما الذي يمكنك، فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى أدم عليهما الصلاة السلام؛ وقال له: (لماذا أخرجتنا ونفســـك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله علي)[٢] فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون هذا الحديث، لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتـــهم إن أمكن تكذيبه فكذبوه، وإلا حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج، بل احتج بالخروج نفسه.

معناه أن فعلك صار سببا لخروجنا، وإلا فإن موسى عليه الصلاة والسلام ابعد من أن يلوم أبـــاه علـــى ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى وجه آخر في تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقـــدر بعـــد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون علـــى أن يبقـــوا في المعصـــية ويســـتمروا عليهـــا،

---

[١] البخاري: كتاب الحيض / باب ترك الحائض الصوم، ومسلم: كتاب الإيمان / باب نقصان الإيمان.

[٢] البخاري: كتاب القدر / باب تحاج آدم وموسى، ومسلم: كتاب القدر / باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، حديث (٢٦٥٢) وأبو داود حديث (٤٧٠١) والترمذي، حديث (٢١٣٤) وابن ماجة، حديث (٨٠).

فالمشركون لما قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ (الأنعام: ١٤٨) كذبهم الله، لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون: تبنا إلى الله، ولكن يحتجون على البقاء في الشرك.

٩. أن للشيطان تأثيرا على بني آدم، لقوله: (فإن لو تفتح عمل الشيطان)، وهذا لا شك فيه، ولهذا قال النبي ﷺ (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[١].

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد علـــى قـــدرة الله – ﷻ –، كما أن الروح تجري مجرى الدم، وهي جسم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكـــة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لمة الملك، فإن الشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملـــك لمـــة، ومن وفق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائما يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة بالســـوء، وأما النفس اللوامة فهي وصف للنفسين جميعا.

١٠. حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهي عن قول (لو) ببيان علته، لتتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيمانا وامتثالا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: لو، إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

---

[١] البخاري: كتاب الاعتكاف / باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، حديث (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام / باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة أن يقول: هذه فلانة، (٢١٧٥).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران. وهما:

الأولى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾.

الثانية: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾، أي: ما أُخرجنا وما قتلنا، ولكن الله تعالى: أبطل ذلك بقوله: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، والآية الأخرى: ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾، فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: ﴿فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾، أي: إن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل، فادرؤوا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد، لكانوا على ضلال مبين.

الثانية: النهي الصريح عن قول (لو) إذا أصابك شيء. لقول الرسول ﷺ: (فإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا).

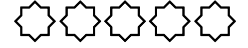
الثالثة: تعليل المسألة بان ذلك يفتح عمل الشيطان. فالنهي عن قول (لو) علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن. لقوله: (ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل).

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله. لقوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله).

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز. لقوله: (ولا تعجز)، فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز، فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء، لأنه هو الذي في مقدور الإنسان.



باب النهي عن سب الريح

(**تم**): الريح مخلوق من مخلوقات الله مسخر، وهي واحدة الرياح، يجريها الله -جل وعلا- كما يشاء، وهي كالدهر لا تملك شيئا، ولا تدبر أمرا.

فسب الريح كسب الدهر، يرجع في الحقيقة إلى أذية الله -جل وعلا-؛ لأن الله هو الذي يصرف الريح كيف يشاء، فيجعل الريح تأتي بأمر مكروه، ليُذكِّر العباد بالتوبة والإنابة، ويذكر بمعرفة قدرته عليهم، وأنه لا غنى لهم عنه -جل وعلا- طرفة عين، وهو الذي يجعل الرياح بشراً، فيسخرها -جل وعلا- لما فيه مصلحة العباد.

فهذا الباب عقده لبيان تحريم سب الريح، كما عقد ما قبله لبيان أن سب الدهر لا يجوز ومحرم؛ لأنه أذية لله -جل وعلا-، وهذا الباب من جنس ذاك، لكن هذا يكثر وقوعه، فأفرده لكثرة وقوعه، وللحاجة إلى التنبيه عليه.

قوله: بابٌ: [النهي عن سب الريح]، النهي للتحريم، وسب الريح يكون بشتمها، أو بلعنها، وكما ذكرنا في باب الدهر، فإنه ليس من سبها أن توصف بالشدة كقول الله -جل وعلا-: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ۞سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ (الحاقة: ٦-٧) فهذا وصف للريح بالشدة ومثل ذلك وصفها بالأوصاف التي يكون فيها شر على من أتت عليه، كقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (الذاريات: ٤٢) فمثل هذا ليس من المنهي عنه.

(**ق**): قوله (الريح). الهواء الذي يصرفه الله - ﷻ -، وجمعه رياح.

وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب.

وتصريفها من آيات الله - عز وجل - فأحيانا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانا تكون هادئة، وأحيانا تكون باردة، وأحيانا حارة، وأحيانا عالية، وأحيانا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، ولكن الله - ﷻ - بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد، فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

الجواب: لا، لأن هذه الريح مسخرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، فكذلك الريح، ولهذا قال: (لا تسبوا الريح).

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به) صححه الترمذي.

قوله: (لا تسبوا الريح). (لا): ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به.

والسب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهى عن سبها، لأن سب المخلوق سب لخالقه، فلو وجدت قصرا مبنيا وفيه عيب، فسببته، فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله – عز وجل –.

ولكن إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ في قوله: (ولكن قولوا: اللهم إنا نسألك...الخ).

قوله: " من خير هذه الريح ". الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط.

قوله: (وخير ما فيها). أي: ما تحمله، لأنها قد تحمل خيرا، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرا، كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر بالإنسان والبهائم.

قوله: (وخير ما أمرت به). مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله: (ونعوذ بك). أي: نعتصم ونلجأ.

قوله: (ومن شر هذه الريح) أي: شرها بنفسها كقلع الأشجار، ودفن الزروع وهدم البيوت.

قوله: (وشر ما فيها). أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة وغيرها.

قوله: (وشر ما أُمرت به). كالهلاك والتدمير، وقال تعالى في ريح عاد: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ (الأحقاف: ٢٥) وتيبس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق، فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة نعجز عن إدراكها.

وقوله: (ما أمرت به). هذا الأمر حقيقي، أي: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله، قال تعالى للأرض والسماء: ﴿ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا

طائعين﴾ (فصلت: ١١)، وقال للقلم: (اكتب. قال: ربي وماذا أكتب؟ قال اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة)[1].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.

فيه مسائل:

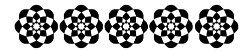
الأولى: النهي عن سب الريح. وهذا النهي للتحريم، لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره. أي: منها، وهو أن يقول: (اللهم إني أسألك من خيرها...) الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضا، كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة. لقوله: (ما أمرت به).

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر. لقوله: (خير ما أُمرت به، وشر ما أُمرت به)

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلما لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلما لأمره الشرعي، لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئا إلا بأمر الله - سبحانه وتعالى -.



---

[1] رواه أبو داود: كتاب السنة / باب في القدر، حديث (٤٧٠٠).

باب قوله تعالى:

﴿يظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

(**تم**): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن الله -جل وعلا- موصوف بصفات الكمال، وله -جل وعلا- أفعال الحكمة، وأفعال العدل، وأفعال الرحمة والبر، فهو سبحانه كامل في أسمائه، كامل في صفاته، كامل في ربوبيته، ومن كماله في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته أنه لا يفعل الشيء إلا لحكمة بالغة، والحكمة: هي أنه -جل وعلا- يضع الأمور في مواضعها التي توافق الغايات المحمودة منها، وهذا دليل الكمال، فالله -جل وعلا- له صفات الكمال، وله نعوت الجلال والجمال.

فلهذا وجب لكماله -جل وعلا- أن يُظن به ظن الحق، وألا يُظن به ظن السوء، وأن يُعتقد فيه ما يجب لجلاله -جل وعلا- من تمام الحكمة، وكمال العدل، وكمال الرحمة، وكمال أسمائه وصفاته -سبحانه وتعالى-، فالذي يظن به -جل وعلا- أنه يفعل الأشياء لا عن حكمة، فإنه قد ظن به ظن النقص، وهو ظن السوء الذي ظنه أهل الجاهلية.

فظن غير الحق بالله منافٍ للتوحيد، وقد يكون منافيا لكمال التوحيد، فمنه ما يكون صاحبه خارجاً عن ملة الإسلام أصلا، كظن غير الحق بالله تعالى في بعض مسائل القدر كما سيأتي، ومنه ما هو منافٍ لكمال التوحيد كعدم الإيمان بالحكمة، أو بأفعال الله -جل وعلا- المنوطة بالعلل، التي هي منوطة بحكمته سبحانه البالغة.

ولهذا قال -جل وعلا-: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٩)، في الرد على القدرية المشركة، وقد قال أيضا -جل وعلا-: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر: ٥). فالله -جل وعلا- موصوف بكمال الحكمة، وكمال الحمد على أفعاله؛ لأن أفعال الله -جل وعلا- قسمان: أفعال ترجع إلى الحكمة والعدل، وأفعال ترجع إلى الفضل والنعمة والرحمة والبر بالخلق.

فالله -جل وعلا- يفعل هذا وهذا، وحتى أفعاله التي هي أفعال بر وإحسان هي منوطة بالحكم العظيمة، وكذلك الأفعال التي قد يظهر للبشر أنها ليست في صالحهم، أو ليست موافقة للحكمة، فإن ظن الحق

بالله -جل وعلا- أن يُظن به، وأن يُعتقد أنه ليس ثَمَّ شيء من أفعاله إلا وهو موافق لحكمته -جل وعلا- العظيمة، إذ هو العزيز القهار، الفعال لما يريد.

فالواجب -تحقيقا للتوحيد- أن يظن العبد بالله -جل وعلا- ظن الحق، وأما ظن السوء فهو ظن الجاهلية، الذي هو منافٍ لأصل التوحيد في بعض أحواله، أو منافٍ لكمال التوحيد.

فترجم المؤلف -رحمه الله- بهذا الباب ليبين أن ظن السوء بالله -جل وعلا- من خصال أهل الجاهلية، وهو منافٍ لأصل التوحيد، أو منافٍ لكماله بحسب الحال.

(ق): ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يظنون﴾. الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ (البقرة: ٤٦)، أي: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وهما.

قوله: ﴿ظن الجاهلية﴾. عطف بيان لقوله: ﴿غير الحق﴾، و﴿الجاهلية﴾: الحال الجاهلية، والمعنى: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

والظن بالله -عز وجل- على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيرا.

الثاني: أن يظن بالله شرا.

والأول له متعلقان:

١. متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون، فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله -عز وجل- فيما يفعله -سبحانه وتعالى- في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لاتصل، وبهذا يتبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئا في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير، فهذا واقع، كما قال تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة﴾ (الأحزاب: ١٧).

٢. متعلق بالنسبة لما يفعله بك، فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك، فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب، فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مفرطا في الواجبات فاعلا للمحرمات، وظن بالله ظنا حسنا، فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله، إذ أن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله سوءاً، مثل أن يظن في فعله سفها أو ظلما أو نحو ذلك، فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب، كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن يظن بالله غير الحق.

قوله: ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾. **مرادهم بذلك أمران:**

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿لنا﴾: خبر مقدم.

وقوله: ﴿من شيء﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: ﴿إن الأمر كله لله﴾. أي: فإذا كان كذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره، فالله – عز وجل – يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

قوله: ﴿إن الأمر﴾واحد الأمور لا واحد الأوامر، أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله – سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾. أي: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق، فيخفي نفسه ما لا يبديه لغيره، لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: ﴿ما قتلنا هاهنا﴾. أي: في أُحد، والمراد بمن ﴿قتل﴾: من استشهد من المسلمين في أُحد، لأن عبد الله بن أُبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد، وقال (أن محمدا يعصيني ويطيع الصغار والشبان).

قوله: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾. هذا رد لقولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾.

وهذا الاحتجاج لا حقيقة له، لأنه إذا كتب القتل على أحد، لم ينفعه تحصنه في بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته، والكتاب قسمان:

١. كتابة شرعية، وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ (النساء: ١٠٣) وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ (البقرة: ١٨٣).

٢. كتابة كونية، وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما في هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، وقوله: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ (المجادلة: ٢١).

قوله: ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم ﴾. أي: يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته. فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك.

قوله: ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾. أي: إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر، صار في ذلك تمحيص لما في القلب، أي: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غزوة أُحد بدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسولﷺ[1] حين قيل له: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ (آل عمران: ١٧٣) خرجوا إلى حمراء الأسد و لم يجدوا غزوا فرجعوا، ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ (آل عمران: ١٧٤)[2].

قوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾. جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بذات الصدور، والمراد بها القلوب، كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ (الحج: ١٤٦)، فالله لا يخفى عليه شيء فيعلم ما في القلب وما ليس في قلبه متى يكون وكيف يكون.

وقوله: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ (الفتح: من الآية٦).

(ق): الآية الثانية قوله تعالى: ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾. المراد بهم: المنافقون والمشركون، قال تعالى: ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء﴾ (الفتح: ٦) أي: ظن العيب، وهو كقوله فيما سبق: ﴿ظن الجاهلية﴾ (آل عمران: ١٥٤).

---

[1] البخاري: كتاب المغازي / باب ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (آل عمران: من الآية١٧٢) ومسلم: كتاب فضائل الصحابة / باب من فضائل طلحة والزبير. أما خروجهم إلى حمراء الأسد فقد أخرجه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٣٧). وصححه ابن حجر في الفتح (٨/ ٢٢٨).

[2] أنظر الكلام على غزوة أحد في زاد المعاد لابن القيم وسيرة ابن هشام.

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن قيم رحمها الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول ﷺ سيضمحل، وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك؟

قوله: ﴿عليهم دائرة السوء﴾. أي: أن السوء محيط بهم جميعا من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: ﴿وغضب الله عليهم﴾ الغضب من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيئته ويترتب عليها الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة: فمنهم من قال: المراد بغضبه الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام. قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ولهذا قال النبي ﷺ: (إنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم)[1].

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق في اللفظ التوافق في المثلية والكيفية، قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى: ١١) ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ (الزخرف: ٥٥) فـ ﴿آسفونا﴾ بمعنى أغضبونا ﴿انتقمنا منهم﴾، فجعل الانتقام مرتبا على الغضب، فدل على أنه غيره.

قوله: ﴿ولعنهم﴾. اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وأعد لهم جهنم﴾. أي هيأها لهم وجعلها سكنا لهم ومستقرا.

قوله: ﴿وساءت مصيرا﴾. أي: مرجعا يصار إليه.

و﴿مصيرا﴾: تمييز، والفاعل مستتر، أي: ساءت النار مصيرا يصيرون إليه.

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (٦١/٣)، والترمذي، كتاب الفتن (٢١٩١) وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترمذي (٣٨٥).

قال ابن القيم في الآية الأولى: فسّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو الظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجياً

قوله: (قال ابن القيم). هو a ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميه الكبار الملازمين له رحمهما الله، وقد ذكره في (زاد المعاد) عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التي كانت فيها.

قوله: (في الآية الأولى). يعني قوله ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾، فسر بأن الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، أي: يزول، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ويؤخذ هذا التفسير من قولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهر الله على الدين كله.

ففسر بما يكون طعنا في الربوبية وطعنا في الأسماء والصفات، فالطعن في القدر طعن في ربوبية الله – عز وجل –، لأن من تمام ربوبيته – عز وجل – أن نؤمن بأن كل ما جرى في الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن في الأسماء والصفات تضمنه الطعن في أفعاله وحكمته، حيث ظننا أن الله تعالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره، لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله، فمعنى ذلك إن إرسال الرسول ﷺ عبث وسفه، فما الفائدة من أن يرسل رسول ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد.

ولا سيما رسول الله ﷺ الذي هو خاتم النبيين، فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة.

قال ابن القيم رحمه الله: (وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح).

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم ابدا﴾ (الفتح: ١٢).

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره، لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد، لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبا وسفها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئا أو يشرعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافا كبيرا بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله –سبحانه وتعالى–.

ورأي الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يسأل عما يفعل، وهذا من أعظم سوء الظن بالله، لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمي سفيها، فما بالك بالخالق الحكيم؟

قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا﴾ (ص: ٢٧)، فالظن بأنها خلقت باطلا لا لحكمة عظيمة ظن الذين كفروا، وقال تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق﴾ (الدخان: ٣٨– ٣٩) الذي هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالى خلقهما باطلا لغير حكمة، قال الله: ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾، أي: الذين يظنون أن الله خلقهما باطلا وعبثا وسفها ولعبا.

والمعتزلة على العكس من ذلك، يقولون: لا يقدر إلا لحكمة، ويفرضون على الله ما يشاؤون، وقد ذكر صاحب (مختصر التحرير) الفتوحي رحمه الله: أن المسالة قولين في المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئا ولا يقدره على عبده ولا يشرع شيئا إلا لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر.

قوله: ﴿فويل للذين كفروا من النار﴾(ص: ٢٧) ﴿ويل﴾: مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة: للتعظيم، وخبر المبتدأ: ﴿للذين كفروا﴾، والجار والمجرور ﴿من النار﴾ بيان لويل، وفي هذا دليل على أن كلمة ﴿ويل﴾ كلمة وعيد وليست كما قيل: واد في جهنم، ولهذا نقول: ويل لك من البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد في جهنم اسمه ويل، لكن ويل في مثل هذه الآية كلمة وعيد.

قوله: (وأكثر الناس). أي: من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء، أي: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

قوله: (فيما يفعله بغيرهم). كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسلمين دائما، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضي ذلك.

قوله: (ولا يسلم من ذلك). أي: من الظن السوء.

قوله: (إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده). صدق رحمه الله، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله – ﷻ – وماله من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفة تحريف وتاويل.

ولهذا حجب المحرفون والمؤولون عن معرفة أسماء الله وصفاته، فتجد قلوبهم مظلمة غالباً، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف، فإن قلبه لا يَرِدُ عليه مثل هذه الاعتراضات التي ترد على قلوب أولئك المحرفين، لأن المحرفين إنما أتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دل ظاهرهما على التمثيل والتشبيه، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما كون كل معطل ممثلا، فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيء بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها، فمثل أولا، وعطل ثانيا، ثم إنه إذا عطل صفات الله تعالى حوفا من تشبيهه بالموجود، فقد شبهه بالمعدوم، وأما كون كل ممثل

معطلا، فلأن الممثل عطل الله تعالى من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص، وعطل كل نص يدل على نفي مماثلة الخالق للمخلوق.

وعلى هذا، فالذي عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ما جرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، وعرف موجب حكمة الله، أي: مقتضى حكمة الله، لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: (موجب). موجب، بالفتح: هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضي، وبالكسر: السبب الذي يقتضي الشيء بمعنى المقتضي، والمراد هنا الأول.

فالذي يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة، فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبدا، لاحظ الحكمة التي حصلت للمسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أُحد، فإن في ذلك حكما عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران والتوبة، فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل ما يجريه الله في الكون، كمنع الإنبات والفقر، فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده، لأنه - ﷻ - أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس.

قوله: (اللبيب). على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله: (بهذا). المشار إليه هو الظن بالله - ﷻ -، ليعتني بهذا حتى يظن بالله- ﷻ - ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية.

قوله: (وليتب إلى الله). أي: يرجع إليه، لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله: (وليستغفره). أي يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: (فليتب) وقوله: (وليستغفره) للأمر.

قوله: (تعنتا على القدر وملامة له). أي: إذا قدر الله شيئا لا يلائمه تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصاب بالحوائج، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

قوله: (فمستقل ومستكثر). (مستقل): مبتدأ، خبره محذوف.

و(مستكثر): مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فمنهم شقي وسعي﴾ (هود: ١٠٥) فـ (سعيد) مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد. ولا يقال بأن (سعيد) معطوف على شقي، لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: (وفتش نفسك: هل أنت سالم). وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه؟ ومما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟

قوله: (فإن تنج منه تنج من ذي عظيمة). (تنج) الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو، (تنج) الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو.

وقوله: (من ذي عظيمة). أي: من ذي بلية عظيمة.

قوله: (وإلا، فإني لا إخالك ناجيا). التقدير، أي: وإلا تنج من هذه البلية، فإني لا إخالك ناجيا. ومعني إخالك: أظنك، وهي تنصب مفعولين: الأول هنا الكاف، والثاني ناجيا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. وهي قوله تعالى: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية..﴾ وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثانية:تفسير آية الفتح. وهي قوله تعالى:﴿الظانين بالله ظن السوء﴾وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر. أي: ظن السوء، والذي أخبر بذلك ابن القيم رحمه الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه. أي: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسمائه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب، فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ولا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

مناسبة الباب للتوحيد:

إن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: ﴿ولله السماء الحسنى فادعوه بها﴾ (الأعراف: ١٨٠) فإذا ظن بالله ظن السوء، لم تكن الأسماء حسنى، قال في الصفات: ﴿ولله المثل الأعلى﴾ (النحل: ٦٠)، وإذا ظن بالله ظن السوء، لم يكن له المثل الأعلى.

باب ما جاء في منكري القدر

(ق): **قوله:** (منكري). أصله منكرين – جمع مذكر سالم – فحذفت النون للإضافة كما يحدث التنوين أيضا، قال الشاعر:

كأني تنوين وأنت إضافة فأين تراني لا تحل جواري

وقيل: (مكاني) بدل (جواري).

قوله: (القدر) هو تقدير الله – عز وجل – للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله – عز وجل – في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيرا أو شرا.

والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير، أي: إرادة الله الشيء –عز وجل–.

الثاني: المُقدّر، أي: ما قدره الله –عز وجل–.

والتقدير يكون مصاحبا للفعل وسابقا له، فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو الذي قدره الله – عز وجل – في الأزل، **مثال ذلك:**

خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل، أي: تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات، لأنه من صفات الكمال لله عز وجل.

والناس في القدر ثلاثة طوائف:

الأولى: الجبرية الجهمية، اثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه، فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، ولا فرق بين أن يترل من السطح عبر الدرج مختارا وبين أن يلقى من السطح مكرها.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختيارا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه، فأكل العبد أو شربه

ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاهم.

استدل الأولون الجبرية:

بقوله تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء﴾ (الزمر: ٦٢)، والعبد وفعله من الأشياء، وبقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (الصافات: ٩٦)، وبقوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال: ١٧)، فنفى الله الرمي عن نبيه حين رمى وأثبته لنفسه، وبقوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ (الأنعام: ١٤٨).

ولهم شبه أخرى تركناها خوف الإطالة.

والرد على شبهاتهم بما يلي:

أما قوله تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء﴾، فاستدلالهم بها معارض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مجبرا عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾، فهو حجة عليهم، لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه، فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله – ﷻ –، فكان الحاصل بهما مخلوقا لله.

وأما قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، فهو حجة عليهم، لأن الله تعالى أضاف الرمي إلى نبيه ﷺ، لكن الرمي في الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المرمي، وهو فعل النبي ﷺ الذي أضافه الله إليه.

الثاني: إيصال المرمي إلي أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله، إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالى ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾، فلعمر الله، إنه الحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذي احتجوا بالقدر على شركهم حين قال في الآية نفسها: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾، وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قدّر الله حق قدره وعرف مقتضى حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب:

قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ (آل عمران: ١٥٢) وقال تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ (آل عمران: ١٦٧) وقال: ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ (النمل: ٨٨)، وقال تعالى: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ (المنافقون: ١١) فأثبت للعبد إرادة وقولا وفعلا وعملا.

ومن أدلة السنة:

قول النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما كل امري ما نوى)[1]

وقوله: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به، فأتوا منه ما استطعتم)[2].

ولهذا إذا أُكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه، لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختيارا.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر: فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه: فلأنه لو كان العبد مجبر على عمله، لكانت عقوبة العاصي ظلما ومثوبة الطائع عبثا، والله تعالى متره عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبرا على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل، لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان اللهُ ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه: فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره، كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره، كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدل الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك.

الرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان:

---

[1] سبق تخريجه.

[2] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الأقتداء بسنن النبي ﷺ، حديث (٧٢٨٨) ومسلم: كتاب الفضائل / باب توقيره ﷺ.

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله، كقوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم۞ وما تشاؤون إلا إن يشاء الله رب العالمين﴾ (التكوير: ٢٨ -٢٩) وقوله: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ۞ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما﴾ (الإنسان: ٢٩ -٣٠)،

وكقوله تعالى في العمل: ﴿لو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ البقرة: ٢٥٣).

والنوع الثاني: مطلق، كقوله تعالى: ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ (البقرة: ٢٢٣)، وقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف: ٢٩) وقوله: ﴿من كان يريد العاجلة...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ (الإسراء ١٨-١٩)

وهذا النوع المطلق يحمل على المقيد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله من كونه مملوكا لله تعالى يقتضي إثبات شيء في ملك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سمي النبي ﷺ: (القدرية مجوس هذه الأمة)[1].

الثالث أن نقول لهم: هل تقرون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول وهل وقع فعلهم على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه، قلنا: إذاً قد أراده، وإن قالوا: على خلافه، فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة رحمهم الله في القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به، خُصموا، وإن أنكروه، كفروا.

وهاتان الطائفتان – الجبرية والقدرية – ضالتان طريق الحق، لأنهما بين مفرط غال ومفرط مقصر، فالجبرية غلوا في إثبات القدر وقصروا في إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات القدر وقصروا في العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر.

ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، والطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة، فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختيارا وقدرة، فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم، فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله – عز وجل –، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم۞وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾، فإذا شاء العبد شيئا وفعله، علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد وأبو داود، وهو مشهور عند أهل العلم لكن فيه ضعف.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول، فأدلتهم على إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر.

وأدلتهم على الإثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلاً من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد، فهدي الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حكاية:

مما يحكى أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب ابن عباد وكان معتزليا ايضا، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنزه عن الفحشاء ! فقال أبو إسحاق فورا: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهرا؟ فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى على بالردى، أحسن إلى أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك، فقد أساء، وإن كان منعك ما هو له، فيختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله، ليس عن هذا جواب. أ.هـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في (العقيدة الواسطية) فلتراجع هناك.

مراتب القدر:
وهي أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلا، فعلم ما كان وما يكون، فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقا أم جليلا من أفعاله أو أفعال خلقه.

ودليل ذلك من الكتاب كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩] فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر، فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى.

ولا حظ سعة علم الله – عز وجل – وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق، فهذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج، وظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعالى:

﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مــبين﴾، ولا كتابة إلا بعد علم.

ففي هذه الآيات إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ففي الآية أيضا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كـائن بــإرادة الله ومشيئته، فلا يكون في ملكه مالا يريد أبدا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله مخلــوق، قـــال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾(يس: ٨٢) وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربــك مــا فعلوه﴾ (الأنعام: ١١٢) وقال تعالى: ﴿لو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ الآية (البقرة: ٢٥٣).

المرتبة الرابعة: الخلق، فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء﴾ (الزمر: ٦٢)، وهذا العموم لا مخصص لــه، حــتى فعــل المخلوق مخلوق لله، لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله نتج عن أمرين:

١. إرادة جازمة.
٢. قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قــال بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١. خلق، وهذا يتعلق بالله.
٢. مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ (الواقعة: ٢٤)، وقال تعالى ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ (النحل: ٣٢) ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علم كتابة مولانا مشيئته ... وخلقه وهو إيجاد وتكوين

وهناك تقديرات أخرى نسبية:

منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد [1].

ومنها: التقدير الحولي: وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ (الدخان: ٤).

ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم[2] واستدل له بقوله تعالى: ﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ (الرحمن: ٢٩) فهو كل يوم يغني فقيرا، ويفقر غنيا، ويوجد معدوما، ويعدم موجودا، ويبسط الرزق ويقدرُهُ، وينشي السحاب والمطر وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه، لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعونا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفرارا من قدر الله؟ فأجاب عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله[3].

يعني: أن مضينا في السفر بقدر الله، ورجوعنا بقدر الله ثم ضرب له مثلا، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له شعبتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله؟

وقال أيضا: أرأيت لو رعى الجدبة وترك الخصبة، أكنت معجزة؟ قال: نعم. قال: فسر إذن. ومعنى معجزة: ناسبا إياه إلى العجز.

فالإنسان وإن كان يفعل، فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك، لزم أن يكون العاصي معذورا بمعصيته، لأنه عصي بقدر الله؟

أُجيب: إن احتجاج العاصي بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾، ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه،

---

[1] البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه، حديث (٢٦٤٣)، وأبو داود، حديث (٤٧٠٨) والترمذي، حديث (٢١٣٧) وابن ماجة، حديث (٧٦).

[2] انظر شفاء العليل للعلامة ابن القيم (رحمه الله).

[3] البخاري: كتاب الطب / باب ما يذكر في الطاعون، ومسلم: كتاب السلام / باب الطاعون والطيرة.

وقال تعالى: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ (الأنعام: ١٤٨)، وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فابطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل، لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل، وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر، فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها، فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن، طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها، طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل منها، فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس.

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر على باب أحدنا يغتسل منه كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة، فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج، فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا. فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج، فإن الله بمشيئتة قد يرزقه الولد المطلوب.

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك، فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار).قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: (اعملوا، فكل ميسر لما خلق له)[1]، فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: (اعملوا...)، وهذا فعل أمر، (فكل ميسر لما خلق له).

ولللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

[1] البخاري: كتاب التفسير / باب (فأما من أعطى وأتقى)، حديث (٤٩٤٩)، ومسلم: كتاب القدر / باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، حديث (٢٦٤٧).

١. أنه من تمام توحيد الربوبية.
٢. أنه يوجب صدق الاعتماد على الله – عز وجل –، لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.
٣. أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.
٤. منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملا يشكر عليه، لأن الله هو الذي من عليه وقدره له، قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير* كيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣)، أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس.
٥. عدم حزنه على ما أصابه، لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.
٦. أن الإنسان يفعل الأسباب، لأنه يؤمن بحكمة الله عز وجل وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطة بأسبابها.

وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: (الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). رواه مسلم[١].

قوله: (والذي نفس ابن عمر بيده). الصيغة هنا قسم، جوابه: جملة (لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر). وابن عمر – رضي الله عنه وعن أبيه – ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جوابا على ما نقل إليه من أن أُناسا من البصرة يقولون: إن الله – عز وجل – لم يقدر فعل العبد وإن الأمر أُنف، وانه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه، فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: (ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر)، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر، لقوله تعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ (التوبة: ٥٤)، ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ: (الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله،

[١] مسلم: كتاب الايمان، باب الايمان والاسلام والاحسان، حديث (٨)، وأبو داود، حديث (٤٦٩٥)، والترمذي، حديث (٢٦١٠)، والنسائي، حديث (٤٩٩٠)، وابن ماجة، حديث (٦٣).

واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة، فأنت كافر بالجميع لأن الإيمان كل لا يتجزأ، كما قال تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريـــدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا﴾ (النساء: ١٥٠- ١٥١).

ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنيا على هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن مـــن الأركان، سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئا واحدا من هذه الأركان الستة، صار كافرا، وإذا كـــان كافرا، فإن الله ﷻ لا يقبل منه.

قوله: (أن تؤمن بالله). والإيمان بالله – ﷻ – يتضمن أربعة أمور:

١. الإيمان بوجوده.
٢. وبربوبيته.
٣. وبألوهيته.
٤. وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله ﷻ، فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصا بها، فهو غير مؤمن بالله.

قوله: ((وملائكته). والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١. الإيمان بوجودهم.
٢. الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.
٣. الإيمان بأفعالهم.
٤. الأيمان بصفاتهم.

فممن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خلق عليها له ستمائة جناح، وقد سد الأفـــق، كما أخبرنا بذلك الرسول ﷺ، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جدا، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحياناً بصورة بشر، فأتى مرة بصورة دحية الكلبي، وأتى مرة بصورة رجل شديد ســـواد الشـــعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب.

قوله: (وكتبه). أي: الكتب التي أنزلها على رسله.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:

١. الإيمان بأنها حق من عند الله.
٢. تصديق أخبارها.
٣. التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة، لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن، لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤. الإيمان بما علمناه معينا منها، مثل التوراة، والأنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.
٥. الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب، كما قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب﴾ (الحديد: ٢٥) وقال عيسى ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب﴾ (مريم: ٣٠)، وقال عن يحي ﴿يا يحي خذ الكتاب بقوة﴾ (مريم ١٢).

تنبيه:

الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان، فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

قوله: (ورسله). هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبلغوا شريعة الله.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي:

١. أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.
٢. أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام، ما لم تنسخ.
٣. أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه، فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله - سبحانه وتعالى - أرسل لكل أمة رسولا تقوم به الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء: ١٦٥).

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون، لأنهم يقولون: يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولا، كما قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾ (طه: ١٣٤) فلا بد من رسول يهدي به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾ (المائدة: ١١٩) يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول، فهل قامت عليه الحجة؟

الجواب: إن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت عليهم الحجة، لأن فيها بقايا، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في (صحيحه): (إن الله نظر إلى أهل الأرض،

فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب[1]، وكما قال تعالى: ﴿فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾ (هود: ١١٦)

قوله: (واليوم الآخر). أي: اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا في (العقيدة الواسطية)، وهو كتاب مختصر، لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه.

وعلى هذا، فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً بهماً من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيه من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم، كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالآحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: (تؤمن بالقدر خيره وشره). هنا أعاد الفعل و لم يكتف بواو العطف، لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله – عز وجل – للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله – عز وجل –قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم أنه ليس كل معلوم الله – سبحانه وتعالى – مكتوبا، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله – عز وجل –، لكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنه مكتوبة.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يطلع عليه أحدا، ولا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، إلا ما أوحاه الله – عز وجل – إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا، فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا﴾ الآية (لقمان: ٣٤)، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته، لأننا نقول لهذا الذي عصى الله – عز وجل – وقال هذا مقدر عليّ: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت، أفلا كان الأجدر بك أن تقدر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

---

[1] مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها / باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، حديث (٢٨٦٥).

قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (الصف: ٥) فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: (خيره وشره). الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر، فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله، فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله؟

فالجواب: أن الشر لا ينسب إلى الله، قال النبي ﷺ: (والشر ليس إليك)[1] فلا ينسب إليه الشر لا فعلا ولا تقديرا ولا حكما بل الشر في مفعولات الله لا في فعله، ففعله كله خير وحكمة، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيمة، وتأمل قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (الروم: ٤١)، تجد أن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر كان لما يرجى به من العاقبة الحميدة، وهي الرجوع إلى الله – ﷻ –، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي: ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كي تكويه بالنار، فالكي شر، لكن الفعل خير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرا محضا بل في محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر، صار ذلك شرا بالنسبة له، وقد يكون خيرا له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به، فيكون خيرا، قال تعالى: في القرية التي اعتدت في السبت: ﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ (البقرة: ٦٥).

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات و لم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنبا ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيرا منه قبلها، لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحد من عليائها، فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف: ٢٣) فقال تعالى: ﴿ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ (طه ١٢٢).

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فخلفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التي أصابتهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم – صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبي منه، ومن شدة ما في نفسه تنكرت نفسه عليه، فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبدا، وصارت حالهم أيضا بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل،

---

[1] مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: باب الدعاء في صلاة المسافرين وقصرها، وباب الدعاء في صلاة الليل وقيامة، حديث (٧٧١)، وأبو داود، حديث (٧٦٠) والترمذي، حديث (٣٤٢٢) والنسائي، حديث (٨٩٧).

وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذكروا بأعيانهم، قال تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ (التوبة: ١١٨)، فهذه آيات عظيمة تتلى في محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه، وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو في الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله - سبحانه -، فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه، فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ: (الخير بيديك، والشر ليس إليك[1]، و لم يقل الشر بيديك، فلا ينسب الشر إلى الله أبدا، فضلا عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء، فالله لا يريد بقضاء الشر شرا، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضي، ومع ذلك، فهو وإن كان شرا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شرا محضا، حتى المقضي وإن كان شرا ليس شراً محضا، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر من محل خير في محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلا: الجدب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (الروم: ٤١)، والرجوع إلى الله -عز وجل- من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيرا كثيرا، فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿لعلهم يرجعون﴾، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله واشتغلوا بالمال، فإذا أُصيبوا بفقر، رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالون، فهذا الشر صار خير باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له، فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضا خير في غير السارق، فإن فيه ردعا لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضا حفظ للأموال، لأن السارق إذا عرف أنه سرق ستقطع يده، امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجدا وديت	**ما بالها قطعت في ربع دينار**
تناقض ما لنا إلا السكوت له	**ونستجير بمولانا من النار**

لكنه أجيب في الرد عليه ردا مفحما، فقيل فيه:

قل للمعري عار أيما عارِ جهل	**الفتى وهو من ثوب التقى عاري**

---

[1] سبق تخريجه.

يد بخمس مئين عسجدا وديت لكنها قطعـــت في ربـــع دينار
حماية النفس أغلاها وأرخصها حماية المال فافهم حكمة الباري

وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لأبنه: يابني! إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ، سمعت رسول ﷲ ﷺ يقول: (إن أول ما خلق ﷲ القلم، فقال له: اكتب. فقال: ربّ ! وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني! سمعت رسول ﷲ ﷺ يقول من مات على غير هذا، فليس مني[1].

قوله في حديث عبادة: (أنه قال لابنه: يا بني!...) الخ.

أفاد حديث عبادة بن الصامت رضي ﷲ عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهلـــه، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال: (يا بني) وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله: (لن تجد طعم الإيمان). هذا يفيد أن للإيمان طعما كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة، فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعام آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مـــدة طويلة، حتى إن الإنسان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحيانا يفعل عبادة في صفاء وحضور قلـــب وخشوع لله – ﷻ –، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة، فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ ﷲ عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

قولـه: (حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك). قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هذا تحصيل حاصل، لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلا بد أن نعرف معنى هذه العبارة، فتحمل هذه العبارة علـــى أحد المعنيين أو عليهما جميعا:

الأول: أن المعنى (ما أصابك)، أي: ما قدر ﷲ أن يصيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة، لأن ما قدر ﷲ سوف يقع، فما قدر ﷲ أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: ما أصابك، فلا تفكر أن يكون مخطئا لك، فلا تقل: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا، لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئا، وأيا كان، فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره ﷲ أن يصـــيب

---

[1] أبو داود: كتاب السنة / باب في القدر، حديث (٤٧٠٠)، والترمذي، حديث (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في المشكاة، (٩٤).

العبد فلا بد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبا للإنسان، فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الأيمان، لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدا.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فدبّ بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات، فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير، فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ۞ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣).

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك، ذقت حلاوة الإيمان، واطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولهذا كثيرا ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة، فتجده يعمل أعمالا لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله - ﷻ - مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

قوله: (وما أخطأك لم يكن ليصيبك). نقول فيه مثل الأول، يعني: ما قدر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحدا سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات، نقول له: ما أخطأك من هذا الربح الذي كنت تعد له لم يكن ليصيبك، مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك، لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

ثم استدل لما يقول بقوله: (سمعت رسول الله ﷺ يقول): إن أول ما خلق الله القلم). القلم بالرفع، وروي بالنصب.

فعلي رواية الرفع يكون المعني: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية النصب، فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له، يعني، : خلقه ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا، لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أُمر بالكتابة عندما خلق، لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم

أن الله – عز وجل –، خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله –عز وجل– لأن الله –عز وجل– لم يزل ولا يزال خالقا، وعلى هذا فيكون: إن أول ما خلق الله القلم يحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: أن المعنى: أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من مخلوقات، كالسماوات والأرض... فهي أولية نسبية، وقد قال ابن القيم في نونيته:

والناس مختلفون في القلم الذي كتب	**القضاء به من الديّان**
هل كان قبل العرش أو هو	**بعده قولان عند أبي العلا الهمذاني**
والحق أن العرش قبل لأنه قبل	**الكتابة كان ذا أركان**

قوله: (فقال له: اكتب). القائل هو الله – عز وجل – يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ٩–١١]، أي: لابد أن تنقادا لأمر الله طوعا أو كرها، فكان الجواب: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾، فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا ودل قوله: ﴿طائعين﴾ على أن لها إرادة وأنها تطيع، فكل شيء أمام الله، فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: (قال: ربي وماذا أكتب؟). (ماذا): اسم استفهام مفعول مقدم، و(اكتب): فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هذا إذا ألغيت (ذا)، أما إذا لم تلغ، فنقول: (ما) اسم استفهام مبتدأ، و(ذا) خبره، أي: ما الذي أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذي أكتبه؟

وفي هذا دليل على أن الأمر الجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا، فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملا، فإن طلب استبانته لا يكون معصية، فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله – سبحانه وتعالى –، ومع ذلك قال: (رب وماذا أكتب؟) قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، فكتب المقادير.

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولا بد أن يمتثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذي يعتبر جمادا بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه، لأن الله إذا أراد شيئا قال: كن، فيكون على حسب مراد الله.

و(كل): من صيغ العموم، فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

قوله: (حتى تقوم الساعة). الساعة هي القيامة، وأطلق عليه لفظ الساعة، لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة، يعني: الساعة لمعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور.

قوله: " يابني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من مات على غير هذا ". أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء.

قوله: (فليس مني). تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ بري من كل كافر.

ويستفاد من هذا الحديث:

١. ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله (يا بني).
٢. أنه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب... وسكت، ولكنه اسند إلى الرسول ﷺ، فمثلا: إذا أردت أن تقول لأبنك: سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت، فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، ولكن إذا قلت سم الله على الأكل واحمد الله إذا فرغت لأن النبي ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل، وقال: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها)[1]، إذا فعلت ذلك استفدت بفائدتين: -

الأولى: أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه على محبة الرسول ﷺ، وان الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثيرا ما يغفل عنها، فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة.

وفي رواية لأحمد:

(إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)[2]

---

[1] مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار / باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب، حديث (٢٧٣٤)، والترمذي، حديث (١٨١٦).

[2] رواه أحمد (٣١٧/٥)، حديث (٢٢٧٥).

قوله: (وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب...).

هذه الرواية تفيد أمرا زائدا على ما سبق، وهو قوله: (فجرى في تلك الساعة)، فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالا لأمر الله تعالى، فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله – سبحانه وتعالى – كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك على الله يسير﴾ (الحج: ٧٠)، وقال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾، أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد: ٢٢)

قوله: (إلى يوم القيامة). هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة، **لقيام أمور ثلاثة فيه:**

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى ﴿ليوم عظيم۝يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ (المطففين: ٥-٦).

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم، لقوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (غافر: ٥١)

الثالث: قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، أحرقه الله بالنار)[1]

قوله: (وفي رواية لابن وهب). ظاهره أن هذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

قوله: (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار). وهذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به، فإنه يحرق بالنار.

وقوله: (أحرقه الله بالنار) بعد قوله (فمن لم يؤمن) يدل على أن من أنكر أو شك فإنه يحرق بالنار، لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحان، لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد.

---

[1] ابن وهب في القدر(٢٦).

وهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: (فمن لم يؤمن)، ودخل هذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي **قوله:** (أحرقه الله بالنار) دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حمما[1]، يعني: فحما أسود، وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الحج: ٢٢)، وفي قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء: ٥٦).

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: (لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار). قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه[2].

قوله: (في نفسي شيء من القدر). لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثاً صار الناس يتشككون فيه ويتكلمون فيها. وإلا، فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا[3]، حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشُّبه، فلهذا يقول ابن الديلمي: (في نفسي شيء من القدر...).

قوله: (فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي). أي: يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم، كأُبيّ بن كعب، فلكل داء طبيب.

---

[1] البخاري: كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار، حديث (٦٥٦٠) ومسلم: كتاب الايمان / باب معرفة طريق الرؤية، حديث (١٨٣).

[2] أبو داود: كتاب السنة /باب في القدر، حديث (٤٦٩٩)وابن ماجة، حديث (٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٢٤٥).

[3] رواه ابن ماجة في المقدمة: باب في القدر، حديث (٨٥)، وقال البوصيري في الزوائد: اسناده صحيح رجالة ثقات.

قوله: (لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر). هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الذي لا تقبل منهم النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: (حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك). قد سبق الكلام على هذه الجملة.

قوله: (ولو مت). (مُت) بالضم، لأنها من مات يموت، وفيه لغة أخرى بالكسر (مِت)، كما في قوله تعالى: ﴿ولإن مِتم أو قتلتم﴾ (آل عمران: ١٥٨) في إحدى القراءتين، وهي على هذه القراءة من مات يميت بالياء.

قوله: (على غير هذا، لكنت من أهل النار). جزم أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار، لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا، فلا بد أن يرتدع، ولابد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: (فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك). المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء هم العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأُبَيّ بن كعب من أهل القرآن ومن كتبة القرآن، حتى أن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: (لم يكن...) البينة، وقال: (إن الله أمرني أن أقرأها عليك)، فقال: يا رسول الله ! سماني الله لك. قال: (نعم). فبكى رضي الله عنه بكاء فرح أن الله – عز وجل – سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة[1].

وأما عبد الله بن مسعود، فقد قال النبي ﷺ: (من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)[2].

وأما زيد بن ثابت، فهو أحد كتاب القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه[1].

---

[1] البخاري: كتاب المناقب / باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه، حديث (٣٨٠٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق، حديث (٧٩٩).

[2] رواه ابن ماجة، في المقدمة، باب فضل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، حديث (١٣٨).

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذي اسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين[٢].

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو الألوهية، أو بالأسماء والصفات؟

الجواب: تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية وبالأسماء والصفات، ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضا ظاهر، لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد، فلها تعلق بالقدر، فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة: هل أختلف الناس في القدر؟

الجواب: نعم، اختلفوا فيه على ثلاث فرق، وقد سبق.

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. دليله قوله: (الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خير وشره).

---

[١] البخاري: كتاب فضائل القرآن / باب جمع القرآن، حديث (٤٩٨٦)، والترمذي (٣١٠٣).

[٢] البخاري: كتاب فضائل الصحابة / باب مناقب عمار وحذيفة.

الثانية: بيان كيفية الإيمان. أي: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. و لم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر، لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جمعت اختصارا في بيت واحد، وهو **قوله**:

علم كتابة مولانا مشيئته   وخلقه وهو إيجاد وتكوين

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به. تؤخذ من قول ابن عمر: (لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله منه حتى يؤمن بالقدر)، ويتفرع منه ما ذكرناه سابقا بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل.

الرابعة: الإخبار أن أحدا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به. أي: بالقدر، وهو كذلك، لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بني ! إنك لن تجد طعم الإيمان... الخ

وقد سبق الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله – ﷻ – ويستريح، لأنه علم أن هذا الأمر لابد أن يقع على حسب المقدور، لا يتخلف أبدا، (ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، لأن لو تفتح عمل الشيطان[1]، ولا ترفع شيئا وقع مهما قلت.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله. ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله، لأنه ثبت في (صحيح البخاري): (كان الله و لم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء)[2]، وهذا واضح في الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه على الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العلم المشاهد، فهو قبل السماوات والأرض، فتكون أوليته نسبية.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة. لقوله في الحديث:

(فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)

وفيه أيضا من الفوائد توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله، لأن الله وجه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل في الأول وقال: (ماذا أكتب؟).

السابعة: براءته ﷺ بمن لم يؤمن به. لقوله: (من مات على غير هذا، فليس مني)، وهذه البراءة مطلقة، لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرا مخرجا عن الملة.

---

[1] سبق تخريجه.

[2] البخاري: كتاب التوحيد / باب وكان عرشه على الماء.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء. لأن ابن الديلمي: يقول: (فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، بعد أن أتى أُبيّ بن كعب، فدل هذا على أن من عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم.

وفيه أيضا مسالة ثانية، وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت، لأن ابن الديلمي سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتتبع الرخص، فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم، وهذا من شأن اليهود، فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصنا وكثر الزنى في أشرافهم، غيروا هذا الحد، ولما قدم النبي ﷺ المدينة وزنى رجل بامرأة قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئا آخر، لأجل أن يتتبعوا الرخص.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط. لقول بن الديلمي: (كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ)، وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله، زالت الشبهة تماما، لكن تزول عن المؤمن، أما غير المؤمن، فلا تنفعه، فالله – ﷻ – يقول: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ (يونس: ١٠١) وقال: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ (يونس: ٩٦-٩٧) لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته بما جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب: ٣٦)، ولهذا ما قالت عائشة للمرأة: (كان يصيبنا ذلك – تعني الحيض –، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة)[1] لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن، لهذا يذكر الله – ﷻ – إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك، فقال في أدلة العقل: ﴿هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (الروم: ٢٧) فهذه دلالة عقلية، فالعقل يؤمن إيمانا كاملا بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى. وذكر أدلة حسية منها قوله تعالى ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى﴾ (فصلت: ٣٩) فإذا لا مانع أن تأتي بالأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن تقنع الخصم وتُطمئن الموافق.

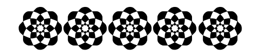
وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة، فلا مانع أيضا أن تأتي به للاستدلال على ما تقول من الحق لتلزم الخصم به وتطمئن الموافق، وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبي المعالي الجويني مع الهمداني، حيث أن أبا المعالي الجويني – غفر الله لنا وله – كان يقرر نفي استواء الله على عرشه، فقال له الهمداني: – دعنا من ذكر العرش، فما تقول في هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا: ما قال

[1] البخاري كتاب الحيض / باب لا تقضي الحائض الصلاة، حديث (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض/ باب وجود قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، حديث (٣٣٥)، وأبو داود، حديث (٢٦٢)، والنسائي، حديث (٣٨٢).

عارف قط: يا ﷲ! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو). فصرخ أبو المعالي ولطم على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني.

فإذا الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية.

وأشدها إقناعا للمؤمن هو الدليل السمعي، لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإن ظنه صاحبه حقا.



باب ما جاء في المصورين

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: قال تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة.أخرجاه[1].

(ق): **قوله:** (باب ما جاء في المصورين). يعني: من الوعيد الشديد.

ومناسبة هذا الباب للتوحيد: أن في التصوير خلقا وإبداعا يكون به المصور مشاركا لله تعالى في ذلك الخلق والإبداع.

قوله في الحديث: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي). ينتهي سند هذا الحديث إلى الله – عز وجل – ويسمى حديثا قدسيا، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد وما يكفر الذنوب

قوله (ومن أظلم). (من): اسم استفهام والمراد به النفي، أي لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض، لأنه يكون مشربا معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله﴾ (البقرة: ١١٤)، وقوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ (الأنعام: ٢١) وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى أنه مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

الثاني: أن الأظلمية نسبية، أي لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلا: من أظلم في مشابهة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افترى على الله كذبا.

قوله: (يخلق). حال من فاعل ذهب، أي: ممن ذهب خالقا.

والخلق في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت   وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

تفري، أي: تفعل، ما خلقت، أي: ما قدرت.

---

[1] البخاري: كتاب اللباس/ باب نقض الصور، حديث (٥٩٥٣)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة / باب تحريم تصوير صورة الحيوان، حديث (٢١١١).

ويطلق الخلق على الفعل بعد التقدير، وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، أما بالنسبة للخالق، فإنه لا يحتاج إلى تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: (يخلق كخلقي). فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

قوله: (فليخلقوا ذرة). اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ (الطور: ٣٤) من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منه القنبلة الذرية فقد أخطأ، لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحا، وهي من أصغر الحيوانات.

قوله: (أو ليخلقوا حبة). (أو) للتنويع، أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح.

قوله: (أو ليخلقوا شعيرة). يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام، لأن حبة الشعير أخص من الحب.

أو تكون (أو) شكا من الراوي.

فالله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعير.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب: إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا السر في قوله: (أو ليخلقوا حبة)، ثم قال: (أو ليخلقوا شعيرة)، لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: ﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ (الأنعام: ٩٥)، وقال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له﴾ أي: اجتمعوا لخلقه متعاونين عليه وقد هيؤوا كل ما عندهم، ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ (الحج: ٧٣)

قال العلماء: لو أن الذباب وقع على هذه الأصنام فامتص شيئا من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالبا لها، ﴿ضعف الطالب﴾، أي: العبد والمعبود، ﴿والمطلوب﴾، أي: الذباب.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير، لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهيا لله في صنعه، **والتصوير له أحوال:**

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون، أي: ماله جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عبثا، يعني صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئا على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصد العبث أو وضعه لصبي ليهدئه به، **فهل يدخل في هذا الحديث؟**

فالجواب: نعم، يدخل في هذا الحديث، لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيه القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنسانا لبس لبسا يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم، نقول: التشبه منك حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحدا تشبه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه، قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النُّمرقُة حين أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم[١]، فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في (صحيح البخاري): (إلا رقما في ثوب[٢]، إن صحت الرواية هذه، فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطا بأشعة معينة بدون تعديل أو تحسين من الملتقط، فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويرا، وإذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة، فحركته تعتبر تصوير، فيكون داخلا في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتابا في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة، فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل انه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقا أو أعمى في ظلمة، وهذا

[١] البخاري: كتاب اللباس / باب من كره القعود على الصور، ومسلم: كتاب اللباس / باب تحريم تصوير صور الحيوان.
[٢] جزء من الحديث السابق.

القول أقرب، لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعا ولا مخططا، ولكن يبقي النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟.

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراما، وإذا كان لغرض مباح صار مباحا لأن الوسائل له أحكام المقاصد، وعلى هذا، فلو أن شخصا صور أنسانا لما يسمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه، فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور، لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك، وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه، فهذا يكون مباحا، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلي هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني فصوره، فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل في الحديث، أي حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صورني لغرض آخر غير مباح، صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابع: أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي، فهذا لا بأس به بالاتفاق، لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة، مثل أن يصور الإنسان سيارته، فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي، وإنما يخلقه ﷲ، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامي، كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار، فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو، فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق ﷲ - ﷻ -، والحديث عام: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)، لأن ﷲ - ﷻ - تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيه روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا، فيكون تصويرها حراما، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمة ﷲ - أعلم التابعين بالتفسير -، وقال: (إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولا: العموم في **قوله:** (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي).

ثانيا: **قوله:** (أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)، وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: (أحيوا ما

خلقتم)[١]، وقوله: (كلف أن ينفخ بها الروح)[٢] يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: (أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)، فذكر على سبيل التحدي، أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه.

ولهما عن عائشة رضي الله عنها، أن الرسول ﷺ قال:
(أشدُّ الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله) [٣].

قوله (أشد). كلمة اشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: (الناس) للعموم، والمراد الذين يعذبون.

وقوله: (عذابا). تمييز مبين للمراد بالأشد، لأن التمييز كما قال ابن مالك:

اسم بمعنى من بين نكرة ينصب تمييزا بما قد فسره

والعذاب يطلق على العقاب ويطلق على ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقابا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ (غافر: ٤٦) أي: العقوبة والنكال، لأنه يدخل النار والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ (هود: ٩٨)ومن الثاني قول النبي عليه الصلاة والسلام: (السفر قطعة من العذاب)[٤] وقوله (الميت يعذب بالنياحة عليه)[٥].

قوله: (يوم القيامة) ، هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

قوله: (أشد) مبتدأ، والذين يضاهئون خبره، ومعنى يضاهئون، أي: يشابهون.

(بخلق الله)، أي: بمخلوقات الله - سبحانه وتعالى -.

والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون، فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية، فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة، لأن التلوين والتخطيط

---

[١] سبق تخريجه.

[٢] سبق تخريجه.

[٣] البخاري كتاب اللباس / باب ما وطي من التصاوير، حديث (٥٩٥٤)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة / باب تحريم تصوير صورة الحيوان، حديث (٢١٠٧).

[٤] البخاري: كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، حديث (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الامارة /باب السفر قطعة من العذاب واستحباب تعجيل المسافر، حديث (١٩٢٧).

[٥] البخاري: كتاب الجنائز /باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله، حديث (١٢٨٨)، ومسلم: كتاب الجنائز /باب قول الميت يعذب ببكاء أهله عليه، حديث (٩٢٨).

باليد وصف للخلق، وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذي يكون وصفا لخلق الله - ﷻ -.

هذا الحديث يدل على أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذابا، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله - ﷻ - وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتعبد من دون الله، فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئا ليعبد من دون الله، فإنه حتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقال اعبدوها، فقد دخل في التحريم، لقوله تعالى ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة: ٢)، لأنه أعان على الإثم والعدوان.

وقوله: (يضاهئون). هل الفعل يشعر بالنية بمعنى أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول: المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب الثاني: لأن المضاهاة حصلت سواء نوي أم لم ينو لأن العلة هي المشابهة، وليست العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرى مثلا وما أشبه ذلك، نقول: هذا حرام، لأنه متى حصلت المشابهة ثبت الحكم، لأن الحكم يدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباسا خاصا بالكفار: إنه يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة، نقول: لكن حصل التشبه، فالحكم المقرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم.

يستفاد من الحديث:

١. تحريم التصوير، وأنه من الكبائر، لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله ﷻ.

٢. وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله- ﷻ-، لقوله: (يضاهئون بخلق الله)، ومن أجل هذا حرم الكبر، لأن فيه منازعة للرب - سبحانه وتعالى - وحرم التعاظم على الخلق، لأن فيه منازعة للرب -سبحانه وتعالى-، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله ﷻ - في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته، فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: (أشد الناس عذابا). فيه إشكال، لأن فيهم من هو اشد من المصورين ذنبا، كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذابا، **وقد أجيب عن ذلك بوجوه:**

الأول: أن الحديث على تقدير (من) أي: من أشد الناس عذابا بدليل أنه جاء ما يؤيده بلفظ: (إن من أشد الناس عذابا).

الثاني: أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم بل يشاركهم غيرهم، قال تعالى: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ (غافر: ٤٦)، لكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط، فكيف يسوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟

الثالث: أن الأشدية نسبية، يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذابا الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا، لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ: (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله).

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم) [١]. **ولهما عنه مرفوعا: (من صور صورة في الدنيا، كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ)**[٢].

قوله: (ولهما). أي: للبخاري ومسلم.

قوله (كل مصور في النار). (كل): من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صور الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: (يجعل له بكل صورة صورها نفس) يدل على أن المراد صورة ذوات النفوس، أي: ما فيه روح.

قوله: " يجعل له بكل صورة صورها نفس ". الحديث في (مسلم) وليس في (الصحيحين)، لكنه بلفظ (يجعل) بالبناء للفاعل، وهذا تكون (نفس) بالنصب، وتمامه: (فتعذبه في جهنم).

قوله: (يعذب بها). كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: (كل مصور في النار). أي: كائن في النار.

---

[١] مسلم: كتاب اللباس والزينة / باب تحريم تصوير صورة الحيوان، حديث (٢١١٠).

[٢] سبق تخريجه.

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود، لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة، أن المراد بالمصور الكافر، لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبدا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وإن دخلها لم يخلد فيها.

وقوله: " بكل صورة صورها ". يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة، فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: أنفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقي في النار معذباً حتى تنتهي هذه الصور.

قوله: " كلف ". أي: ألزم، والمكلف له هو الله ﷻ.

قوله: (وليس بنافخ). أي: كلف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه، وعذب بهذا العذاب ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان في الدنيا يراه راحة له، إما باكتساب، أو إرضاء صاحب، أو إبداع صنعة.

ولمسلم عن أبي الهياج، قال: قال لي علي. **(ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع صورة، إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا، إلا سويته)**[1].

قوله: (عن أبي الهياج). هو من التابعين.

قوله: (قال لي علي). هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: (ألا أبعثك). البعث: الإرسال بأمر مهم، كالدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾ (النحل: ٣٦).

قوله: (على ما بعثني). يحتمل أن تكون (على) على ظاهرها للاستعلاء، لأن المبعوث يمشي على ما بعث عليه، كأنه طريق له، وهذا هو الأولى، لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولى بالاعتبار، ويحتمل أن (على) بمعنى الباء، أي: بما بعثني عليه.

وقد بعث النبي صلى الله عيه وسلم عليا إلى اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع[2].

---

[1] مسلم: كتابالجنائز / باب الأمر بتسوية القبر، حديث (٩٦٩)، وأبو داود، حديث (٣٢١٨)، والترمذي، حديث (١٠٤٩)، والنسائي، حديث (٢٠٣١).

[2] البخاري: كتاب المغازي، حديث (٤٣٥٤).

وقوله: (أن لا تدع). (أن): مصدرية، (لا) نافية، (تدع): منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل من (ما) في قوله (على ما بعثني) لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله: (صورة). نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط، لما ورد في السنن من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال (فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة)[1] وسبق بيان ذلك قريبا.

قوله: (إلا طمستها). إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالا فإنه يقطع رأسه، كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه، فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تعبد من دون الله أم لا.

قوله: (ولا قبرا مشرفا): أي عاليا.

قوله: (إلا سويته). **له معنيان:**

الأول: أي سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسنا على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾(الأعلى: ٢) أي: سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان.

والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرفا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائل) أو (نصائب)، ونصائب أصح لغة من نصائل.

الثاني: أن يبنى عليه، هذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ: (لعن المتخذين عليه المساجد والسرج)[2].

الثالث: أن تشرف بالتلوين، وذلك بأن توضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بيِّناً ظاهرا.

فكل شيء مشرف، أي ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (٢/ ٣٠٥). وأبو داود: كتاب اللباس /باب في الصور، حديث (٤١٥٨)، والترمذي، حديث (٢٨٠٦)وقال: حسن صحيح.

[2] سبق تخريجه.

(**ف**): **قال العلامة ابن القيم رحمه** الله: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً. فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها.
ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله. ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها. ونهى عن أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر. وامر بتسويتها، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي – فذكر حديث الباب – وحديث ثمامة بن شُفَي وهو عند مسلم أيضاً قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم بدردس، فتوفى صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوى، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه. كما روى مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ قال: نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر وأن يعقد عليه، وأن يبني عليه ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في سننه. عن جابر أن رسول الله ﷺ: " نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها "[1] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها. كما روى أبو داود عن جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ (نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه)[2] وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.
والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها. وهو من الكبائر. وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو a المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله. ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم بالأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا " متفق عليه. ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

---

[1] صحيح: أبو داود: كتاب الجنائز : باب في البناء على القبر بلفظ" نهى أن يقعد على القبر وأن يتجصص ويبنى عليه" ،حديث(٣٢٢٥)، والترمذي: كتاب الجنائز (١٠٥٢) بلفظ "نهى النبي ﷺ أن تجصص القبور وأن يكتب عليها أو أن يبنى عليها ،وأن توطأ" .وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص(٢٠٤).

[2] صحيح: أبو داود: كتاب الجنائز: باب في البناء على القبر ،حديث(٣٢٢٥) وصححه الألباني لطرقه في أحكام الجنائز ص(٢٠٤).

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً. ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه مناسك حج المشاهد مضاهاة منه بالقبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده، من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيمها الموقع في الافتتان بها. **ومنها:** اتخاذها أعياداً. ومنها السفر إليها. **ومنها:** مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل لقيّمها ليلة يطفيء القنديل المعلق عليها. **ومنها:** النذر لها ولسدنتها. **ومنها:** اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك. **ومنها:** الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها. **ومنها:** الشرك الأكبر الذي يفعل عندها. **ومنها:** إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم. فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم. ويوم القيامة يتبرأون منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ [الفرقان :١٧- ١٨] قال الله تعالى للمشركين: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة : ١١٦] الآية وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ [سبأ: ٤٠- ٤١]. **ومنها:** إماتة السنن وإحياء البدع. **ومنها:** تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والإحترام والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه. **ومنها:** أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له. وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه والى الميت. فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء. ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم والى الميت. وكان رسول الله ﷺ

قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هجراً، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولاً وفعلاً.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " زوروا القبور، فإنها تذكر الموت " وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه فقال: " السلام عليكم يأهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر"[1] رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة. وفي الترمذي وغيره: (الدعاء هو العبادة)[2] فجرد السلف العبادة لله و لم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ، من الدعاء لأصحابها والإستغفار لهم والترحم عليهم. وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " وإسناده جيد ورواته ثقات مشاهير.

قوله: لا تجعلوا بيوتكم قبوراً أي لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمترلة القبور فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحرير النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد: اتخاذها أعياداً والصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الدين، وتفريج الكربات،

---

[1] الترمذي: كتاب الجنائز (١٠٥٣): باب ما يقول الرجل إذا دخل المقابر ، وضعفه الألباني في أحكام الجنائز(ص١٩٧) وفي ضعيف الجامع (٣٣٧١)، والحديث لم يروه الإمام أحمد كما قال المؤلف.

[2] صحيح: أبو داود: كتاب الصلاة: باب الدعاء ،حديث(١٤٧٩)، والترمذي: كتاب الدعوات: باب في فضل الدعاء (٣٣٧٢)، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٣٠/٩) وابن ماجة: كتاب الدعاء: باب فضل الدعاء (٣٨٢٨)وأخرجه أحمد (٢٦٧/٤) من حديث النعمان بن بشير ﷺ وصححه الترمذي وابن حبان (٢٣٩٦) والحاكم (٤٩٠/١، ٤٩١) ووافقه الذهبي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠١)، وصححه الأرناؤوط في تخريج شرح السنة (١٣٨٤).

وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم. فلو رأيت غـلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلـوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم، بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأو أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبديء ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حـتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صـلى إلى القبلـتين !! فتراهم حول القبر ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله - بل الشيطان - ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميـت مـن الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهـات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعالمين. ثم أخذوا في التقبيل والاستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام. ثم عفـروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنه لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهـنئ بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيـع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا ولا بحجك كل عام.

هذا - ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم. وكل من شم أدنى رائحة من العلـم والفقه يعلم أن من أهم الأمور، سد الذريعة إلى هذا المحظور. وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضـلال في معصيته ومخالفته. أ.هـ. كلامه رحمه الله تعالى.

(ق): ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور:

أن كلا منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صـوروا صـور رجـال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانـا تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية، وقد أطال الشارح رحمه الله في هذا البـاب في البناء على القبور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا ولله الحمد، فإنهـا سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديم عليها، وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها.

عقوبة المصور ما يلي:

١. أنه أشد الناس عذابا أو من أشدهم عذابا.
٢. أن الله يجعل له في كل صورة نفسا يعذب بها في نار جهنم.
٣. أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.
٤. أنه في النار.
٥. أنه ملعون، كما في الحديث أبي جحيفة في (البخاري) وغيره.

فائدتان:

الأولى: (كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) يقتضي أن المراد بالتصوير تصوير الجسم كاملا، وعلى هذا، فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس، فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: (مر براس التمثال فليقطع)، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس، فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثانية: تؤخذ من حديث على رضي الله عنه، وهو قوله: (أن لا تدع صورة إلا طمستها) أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل لا تفصيل، **فإن اقتناء الصور على أقسام:**

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور، لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أُبوّة أو نحو ذلك، فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتا فيه هذه الصورة، لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهذا حرام أيضا، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حنانا وتلطفا، : الذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضا حرام للحوق الوعيد به في قوله ﷺ (إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة)[1].

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا رغبة فيها إطلاقا، ولكنها تأتي تبعا لغيرها، كالتي تكون في المجلات والصحف لا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك، والظاهر أن هذا لا باس به، لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة، فهو أولى.

---

[1] البخاري: كتاب بدء الخلق /باب ذكر الملائكة، حديث (٣٢٢٤).

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مهانة ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة، فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهانا للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه صور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه، لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصا أو سروالا أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيرا ما يسمى بالحفائظ، وهي خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس، فهل تلحق بما يبس ويمتهن؟

هي إلى الثاني أقرب، لكن لما كان امتهانا خفيا وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولى.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء، كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال تعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) (الحج: ٧٨).

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله لقوله: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي).

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: (فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة).

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين. تؤخذ من قوله: (أشد الناس عذابا...).

الثانية: التنبيه على العلة، وهي ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله: (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي).فمن ذهب يخلق كخلق الله، فهو مسيء للأدب مع الله - عز وجل - لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالى، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: (فليخلقوا ذرة أو شعيرة). لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابا. لقوله: (أشد الناس عذابا...) الحديث.

الخامسة: أن يخلق بعدد كل صورة نفسا يعذب بها المصور في جهنم. لقوله: (يجعل له بكل صورة يصورها نفس يعذب بها في جهنم).

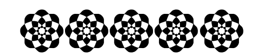
السادسة: أن يكلف أن ينفخ فيها الروح. لقوله: (كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ)، وهذا نوع من التعذيب من اشق العقوبات.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت. لقوله: (أن لا تدع صورة إلا طمستها).

وتؤخذ من حديث الباب أيضا: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور.لقوله: (أن لا تدع صورة ألا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته)، لأن في كل منهما وسيلة إلى الشرك.

ويؤخذ منه أيضا: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل، لأنه يجعل له بكل صورة صورها نفس فتعذبه في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع تكليف في الآخرة بما لا يطاق على وجه العقوبة.



باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول اللهِ تعالى ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ (المائدة: من الآية٨٩)

(**تم**): هذا باب ((ما جاء في كثرة الحلف))، ومن الظاهر والبيّن أن القلب المعظم لله -جَلَّ جَلَالُهُ-، الذي إذا ذكر اللهُ وَجِل قلبه، أنه لا يكثر الحلف، لأن كثرة الحلف لا تجامع كمال التوحيد؛ فإن من كَمُل التوحيد في قلبه -أو قارب الكمال- لا يجعل اللهَ -جل وعلا- عرضة لأيمانه.

فالذي إذا تكلم تكلم بالحلف، وإذا باع باع بالحلف، وإذا اشترى اشترى بالحلف، ونحو ذلك؛ لم يعظم التعظيم الواجب لله جل وعلا. فإن الواجب على العبد أن يعظم اللهَ -جل وعلا-، وأن لا يكثر اليمين، والمقصود باليمين والحلف هنا اليمين المعقودة، التي عقدها صاحبها، أما لغو اليمين فإن هذا معفو عنه، مع أن الكمال فيه والمستحب: أن يخلص الموحد لسانه وقلبه من كثرة الحلف -في الإكرام ونحوه- بلغو اليمين.

فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة، وهي أن تحقيق التوحيد وكمال التوحيد لا يجامع كثرة الحلف، فكثرة الحلف منافية لكمال التوحيد، والحلف -كما ذكرنا- هو تأكيد الأمر بمعظَّم، وهو اللهُ -جَلَّ جَلَالُهُ-.

فمن أكد وعقد اليمين بالله -جل وعلا- وأكثر من ذلك، فإنه لا يكون معظِّما لله -جَلَّ جَلَالُهُ-؛ إذ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يجب أن يصان اسمه، ويصان الحلف به واليمين به إلا عند الحاجة إليها.

أما كثرة ذلك وكثرة مجيئه على اللسان فهو ليس من صفة أهل الصلاح؛ ولهذا أمر اللهُ -جل وعلا- بحفظ اليمين فقال: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة: من الآية٨٩) وهذا الأمر للوجوب؛ لأنه وسيلة لتحقيق تعظيم اللهِ -جل وعلا-، وتحقيق كمال التوحيد.

فقوله﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة: من الآية٨٩) هذا إيجاب لأن يحفظ العبد يمينه، فلا يحلف عاقدا اليمين إلا على أمر شرعي بيِّن، أما أن يحلف دائما ويجعل اللهَ -جل وعلا- في يمينه فهذا ليس من تعظيم أسماء اللهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-.

(**ق**): **الحلف**: هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء والواو، والتاء.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد.

وقوله الله تعالى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة: من الآية٨٩)

قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (المائدة: من الآية٨٩). هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط، فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقاً، فقد بر، وإلا، فهو آثم، لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل.

(**ف**): قال ابن جرير لا تتركوها بغير تكفير. وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تحلفوا. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا. والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الإستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

(ق): وهل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

الجواب: نعم، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المجامع في نهار رمضان لرسول الله ﷺ: (والله، ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني).

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن و لم يحصل، فقيل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

مثاله: فلو قلت: والله، ، ليقدمن زيد غدا. بناء على ظنك، فلم يقدم، فالصحيح أنه لا كفارة عليك، لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل، كأنك تقول: والله، إن هذا هو ظني، لكن هل يجوز لك أن تحلف على ما في ظنك؟ سبق ذلك قريباً.

إذن **قوله:** (واحفظوا أيمانكم) بعد أن ذكر اليمين والكفارة والحنث، فما المراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي: هل المراد لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المراد: إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟

الجواب: المراد كله، فتشمل أحوال اليمين الثلاثة، ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب، لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف، وإليك قاعدة مهمة في هذا، وهي أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معاني لا ينافي بعضها بعضا ولا مرجح لأحدها، وجب حمله على المعاني كلها.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقودا ومقصودا، أما ما يجرى على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله، في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه لقوله تعالى: ﴿لا يؤاخـذكم الله بـاللغو في أيمـانكم﴾ (المائدة: ٨٩).

وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل، لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمـرة: (إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرا منه، فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير)[١]، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيرا، وإلا، فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث.

مثال ذلك: رجل قال: والله لا أكلم فلانا. وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم، فهذا يجب أن يحنـث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة.

مثال آخر: رجل قال: والله لأعينن فلانا على شيء محرم. فهذا يجب الحنث فيه والكفـارة، ولا يعينـه، لقوله تعالى: ﴿ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.(المائدة: ٢).

وإذا كان الأمر متساويا والحنث وعدمه سواء في الإثم، فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فورا، لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا علـى سبيل التخيير، فمن لم يجد، فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة[٢].

فحفظ اليمين له ثلاث معاني:

١. حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف تضعف الثقـة بالشـخص وتوجب الشك في أخباره.
٢. حفظها وسطا، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثنى كما سبق.
٣. حفظها انتهاء، في إخراج الكفارة بعد الحنث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع، وهو أن لا يحلف بغير الله، لأن الرسول ﷺ سمي القسم بغير الله حلفا.

---

[١] البخاري: كتاب الإيمان / باب الكفارة قبل الحنث وبعده، ومسلم: كتاب الإيمان / باب ندب من حلف يمينا فرأى خيرا منها أن يأتي الذي هو خير.

[٢] أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/٧) عن ابن مسعود، والحاكم في المستدرك (٣٠٣/٢)، حديث (٣٠٩١) عن أبي بن كعب.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:(الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب) .أخرجاه [١]

قوله: (الحلف). المراد به الحلف الكاذب، كما بينته رواية أحمد: (اليمين الكاذبة)[٢]، أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق.

قوله: (منفقة للسلعة). أي: ترويج للسلعة، مأخوذ من النفاق وهو مضي الشيء ونفاذه، والحلف على السلعة قد يكون حلفا على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنه من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية.

قوله: (ممحقة للكسب). أي: متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ماله شيئا يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن ينزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به دينا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع بها صار والعياذ بالله بخيلاً يعيش عيشة الفقراء وهو غني، لأن البركة قد محقت.

---

[١] البخاري: كتاب البيوع / باب ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾(البقرة: من الآية٢٧٦)، مسلم: كتاب المساقاة/ باب النهي عن الحلف في البيع.

[٢] البخاري: كتاب البيوع / باب يمحق الله الربا، ومسلم كتاب المساقاة / باب النهي عن الحلف في البيع، أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٥)، حديث (٧٢٠٦)، وابن حبان (١١/٢٧١)، حديث (٤٩٠٦)، البيهقي في الكبرى (٥/٢٦٥)، حديث (١٠١٨٩)من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ ((**اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للكسب**)).

وعن سلمان؛ أن رسول الله ﷺ قال:

(ثلاث لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) رواه الطبراني بسند صحيح [1].

قوله: (ثلاثة). مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: (لا يكلمهم الله). التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه، فلا يسمي كلاما على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولا بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله ﴾ (المجادلة:٨) وقال عمر رضي الله عنه – في قصة السقيفة: (زورت في نفسي كلاما)[2]، أي قدرته. فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في (الصواعق المرسلة).

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأخذنا منها عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتى الجدل قوم إلا ضلوا، علمنا أن كلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله، فلا شك أنه بحرف يفهمها المخاطب، إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبدا، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله – عز وجل يخاطب كل أحد بلغته.

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأن لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين: ١٥).فما حجب الفجار عن رؤيته إلا ورآه الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقا لكان الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله – له عز وجل – عن كل أحد، فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه – سبحانه – أن يكون له آلة كالآدمي، كاللسان، والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلا تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان، قال تعالى: ﴿يومئذ تحدث أخبارها۝ بأن ربك أوحى لها﴾ (الزلزلة: ٤، ٥) وكذا الجلد ينطق يوم القيامة، قال تعالى:﴿حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾

[1] الطبراني في الكبير (٦/٢٤٦)، حديث (٦١١١)، والصغير (٨٢١)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٢).

[2] البخاري: كتاب الحدود /باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث (٦٨٣٠).

(فصلت: ٢٠) وكذا الأيدي والأرجل، قال تعالى: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) (النور: ٢٤) فالأيدي والأرجل والأيدي والألسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، وهذا هو المعلوم لنا.

(**ف**): **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله**: فإذا قالوا لنا يعني النفاة: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به. قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل. ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى متره عن ذلك – ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك: مما دل عليه الكتاب والسنة. والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. أ.هـ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

(**ق**): **فإن قيل**: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرما وهم أهل النار؟

فالجواب: أن المراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ، فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

قوله: (ولا يزكيهم). التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان، لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

قوله: (ولهم عذاب أليم). (عذاب): عقوبة، و(أليم)، أي: شديد موجع مؤلم.

وقوله: (أشيمط). هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنى، ولكنه زنى مما دل على خبث في إرادته، ولأنه عادة قد بلغ اشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه، فالزنى منه غريب، إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله، فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفا، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، لكنه خالف مقتضى ذلك، ولهذا صغره تحقيرا لشانه، فقال: (أُشيمط) تصغير أشمط.

قوله (زان) صفة لأشيمط، وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة، والحركة التي على النون ليست حركة إعراب.

والزنى فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهى الله عنه وبين أنه فاحشة، فقال: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ (الإسراء: ٣٢)

قوله: (عائل مستكبر). أي: فقير، قال تعالى: ﴿ووجدك عائلا فأغنى﴾ (الضحى: ٨)، فالمقابلة هنا في قوله: ﴿فأغنى﴾ بينت أن المعنى عائلا: فقيرا.

والاستكبار: الترفع والتعاظم، **وهو نوعان:**

١. استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

٢. واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم، كما قال النبي ﷺ (الكبر بطر الحق وغمط الناس)[١].

فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلا على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد.

قوله: (ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه).

أي: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا، لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك، حيث قال: (لا يشتري إلا بيمينه...)، وإذا كان المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره، فهو أعلم بمراده، وهذا كما في الحديث القدسي: (عبدي استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقيني) فبينه الله - عز وجل - بقوله: (عبدي فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه)[٢]. فقوله: (لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه) استئنافية تفسيرية، لقوله: (جعل الله بضاعته)، ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلبا للكسب، واستحق هذه العقوبة، لأنه إن كان صادقا، فكثرة إيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالى: (واحفظوا أيمانكم).

وإن كان كاذبا جمع بين أربعة أمور محذورة:

١. استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢. كذبه.

٣. أكله المال بالباطل.

٤. أن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال أمري مسلم لقي الله وهو عليه غضبان)[٣].

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه، لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا، فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل

---

[١] مسلم: كتاب الإيمان / باب تحريم الكبر وبيانه، حديث (٩١).

[٢] مسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب فضل عيادة المريض، حديث (٢٥٦٩).

[٣] البخاري: كتاب الإيمان / باب قوله تعالى ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا** ﴾، ومسلم: كتاب الإيمان باب وعيد من اقتطع حق حق مسلم بيمين فاجرة بالنار.

سواء، بل نحن أعظم، ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضا بوصفنا ممن آتاهم الله العلم أن نُحذر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ، فالنبي ﷺ كان عالما عاملا داعيا، أما طالب العلم، فإنه ليس وارثا للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به العمل من العمل والدعوة، فعلينا أن نحذر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم، لا يبيعون إلا بأيمانهم ولا يشترون إلا بأيمانهم.

مناسبة الحديث للباب: أن من جعل الله بضاعته، فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله – عز وجل –.

وفي الصحيح عن عمران ابن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [(خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ؟ ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن][1]

قوله: (وفي الصحيح). أي: (الصحيحين)، وانظر كلامنا: في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: (خير أمتي قرني). (خير): مبتدأ، و(قرني): خبر.

وفي لفظ لهما: (خيركم قرني)، وفي الحديث ابن مسعود عند البخاري: (خير الناس قرني)[2] وهذا هو المراد، إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عموما وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه ﷺ، أنه قال: (بعثت من خير قرون بني آدم)[3].

وعليه فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وأما قوله (خير أمتي). فإنه يقال: إن الخيرية إذا كانت مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقية الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولى، وقد يقال: إن معنى اللفظين واحد، فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء، كالملة، أو السن ما أشبه ذلك.

فمن العلماء من عرفه: بالطائفة كما سبق، ومنهم من عرفه بالزمن، وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال:

---

[1] البخاري: كتاب الشهادات /باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة /باب فضل الصحابة رضي الله عنهم،

[2] البخاري: كتاب الشهادات /باب لايشهد على شهادة جور إذا أشهد، حديث (٢٦٥٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة /باب فضل الصحابة رضي الله عنه، حديث (٢٥٣٣).

[3] البخاري: كتاب المناقب /باب صفة النبي ﷺ، حديث (٣٥٥٧).

فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمائة، ومنهم من حده بمئة وعشرين سنة.

فعلى الأول يكون معنى: (خير أمتي قرني): خير أمتي الصحابة، سواء بلغوا مئة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مائة وعشر أو مائة وعشرين، فإذا قلنا مائة وعشرين، فهذه المدة زائدة على المائة، وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مائة وثلاثا وثلاثين سنة، لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشر سنة، وهذا القرن الأول، أما التابعون، فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعوا التابعون، فإن آخرهم مات سنة مائتين وعشرين، وهذا منتهى القرن الثالث.

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار ثلاثا وثلاثين ومائة سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار عشرين ومائة سنة.

وقرن التابعين ستون سنة.

وقرن تابعي التابعين أربعون سنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة، فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين، فالقرن قرنهم، وهكذا.

قوله: (أمتي) المراد أمة الإجابة، لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

قوله: (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا). إذا كان عمران لا يدري، فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

قوله: (ثم إن بعدكم قوم). وفي البخاري: ثم إن بعدكم قوما) بنصب (قوما)، وهذا لا إشكال فيه، ولكن في هذه الرواية برفع (قوم) فيه إشكال، لأن (قوم) اسم إن، وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل على لغة ربيعة: الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت الكتاب الألف فصارت (قوم).

وهذا جواب ليس بسديد، لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن (إن) اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقا لها بإن المخففة، لأن (إن) المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن

فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة، فاسمها ضمير الشأن محذوف، وعليه يكون (بعدكم): خبر مقدم، و(قوم): مبتدأ مؤخر، والجملة خبر (إن).

وقيل (إن) هنا بمعنى نعم، فيكون المعنى: ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف.
والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية.

قوله: (يشهدون). أي: يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه، لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم، قال تعالى: ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ (الزخرف: ٨٦) ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلانا يقول: (إن العشرة في الجنة ولا يقول أشهد) فقال: إن قاله فقد شهد.

قوله: (ولا يستشهدون). اختلف العلماء في معنى ذلك:

فقيل: (لا يستشهدون)، أي: لا يطلب منهم تحمل الشهادة فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم فهم شهداء زور.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة، فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يدعى لأدائها، فيكون ذلك دليلا على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: (ألا أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها)[1]، فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها بدليل قوله: (ألا أخبركم بخير الشهداء)، وظاهره: أنه معارض لحديث عمران، فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى، لأن حقوق الله تعالى ليس لها مطالب، فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها، فيكون المراد بهم رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوهم.

وجمع بعضهم بأن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكانه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء رجح حديث عمران، لأنه في (الصحيحين) على حديث زيد بن خالد، لأنه في (مسلم).
ولكن إذا أمكن الجمع، فلا يجوز الترجيح لأن مقتضاه إلغاء أحد النصين، والجمع هنا ممكن كما تقدم.

قوله: (يخونون ولا يؤتمنون). هذا هو الوصف الثاني لهم، أي: أنهم أهل خيانة وليس أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس، وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال: لماذا لم يقل: يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم، فلخيانتهم لا يؤتمنون.

---

[1] مسلم كتاب الأقضية / باب خير الشهود، حديث (١٧١٩)، وأبو داود، حديث (٣٥٩٦)، والترمذي، حديث (٢٢٩٥)، وابن ماجة، حديث (٢٣٦٤).

الخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخديعة، فهي مذمومة في حال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت في مقاتلة عدو ماكر خادع لدلالتها على القوة والإيقاع بالعدو من حيث لا يشعر، ولهذا يوصف الله – سبحانه وتعالى – بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحا، قال تعالى: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (الأنفال: ٣٠) وقال تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ (النساء: ١٤٢).

وأما الخيانة فلا يوصف الله بها أبدا، لأنها ذم بكل حال، ولهذا كان قول العامة: خان الله من خان حراما، لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به، قال الله تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ (الأنفال ٧١) و لم يقل: فخانهم.

قوله: (ولا يؤتمنون). أي: ليسوا أهلا للأمانة، فلا يؤتمنون على الدماء ولا على الأموال، ولا على الأعراض، ولا أي شيء، والظاهر أن هذا في القرن الرابع، فما بالك بالقرن الخامس عشر؟ وفي حديث آخر (ويفشو بينهم الكذب)[1].

قوله (وينذرون ولا يوفون). هذا الوصف الثالث لهم. النذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله، كنذر العبادة يجب الوفاء به، فهم ينذرون لله ولا يوفون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق.

قوله: (ويظهر فيهم السمن). هذا هو الوصف الرابع لهم، (السمن) كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل، لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان فكيف يكون صفة ذم؟

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها.

أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه، فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلا أو قصيرا أو أسود أو أبيض، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

---

[1] رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ماجاء في لزوم الجماعة، حديث (٢١٦٥)، وابن ماجة، حديث (٢٣٦٣).

وفيه عن ابن مسعود ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: [**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيءقوم تسبق الشهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**].

قوله: (وفيه). أي: (في الصحيح) وقد سبق الكلام على مثل هذه العبارة من المؤلف رحمه الله. انظر: (ص١٤٦) في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: (خير الناس) دليل على قرنه خير الناس، فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ.

قوله: (ثم يجيء قوم). أي: بعد القرون الثلاثة.

قوله: (تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته). **يحتمل ذلك وجهين:**

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين، حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

والمعنيان لا يتنافيان، فيحمل عليهما الحديث جميعا.

وقوله: (ثم يجيء قوم) يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف، لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، الفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد، فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة، فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة، فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علما وعبادة.

تنبيه:

ساق المؤلف رحمه الله الحديث في بعض النسخ بتكرار قوله: (ثم الذين يلونهم) ثلاث مرات، وهو في (الصحيحين) بتكرارها مرتين.

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار[1]

قوله: (وقال إبراهيم). هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهائهم.

قوله: (كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار) في نسخة: (على الشهادة والعهد)، والظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم.

قوله: (على الشهادة) أي: يضربوننا عليها إن شهدنا زورا، أو إذا شهدنا و لم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد، وبه فسر ابن عبد البر.

قوله: (والعهد). أي: إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: (ونحن صغار) الجملة حالية، وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة، لأن قوله: (ونحن صغار)، أي: لم يبلغوا، وهذا محل خلاف بين أهل العلم.

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغاً، فإذا تحمل وهو صغير، لم تقبل منه حتى يبلغ.

فقال بعضهم: شهادة الصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملا وأداء، لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار.

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا في الحال، لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا، وإلا لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبي على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب.

---

[1] البخاري: كتاب الشهادات /باب لايشهد على شهادة جور إذا أشهد، حديث (٢٦٥٦).

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة، أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان. تؤخذ من قوله تعالى: (واحفظوا أيمانكم) والأمر وصية.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة. تؤخذ من قوله ﷺ: (الحلف منفقة للسلعة...) إلخ.

الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه. تؤخذ من قوله ﷺ(ورجل جعل الله بضاعته، ولا يشتري إلا بيمينه...) إلخ في ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي. تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني والعائل المستكبر، وغلظ في عقوبتهم، لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندها.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون. لقوله ﷺ: (ورجل جعل الله بضاعته، ولا يشتري إلا بيمينه...)

ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله - سبحانه وتعالى - أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف:

- **في قوله:** ﴿ويستنبؤنك أحق هو قل إي وربي﴾ (يونس: ٥٣).
- **وفي قوله:** ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن﴾ (التغابن: ٧).
- **وفي قوله:** ﴿وقالوا الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾ (سبأ: ٣).

وعليه، فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة، فإنه جائز، بل قد يكون مندوبا إليه، كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية، حيث قال: (وايم الله، لو أن فاطمة بنت a سرقت لقطعت يدها)[1]، فقد وقع موقعا عظيما من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدهم تؤخذ من قوله ﷺ: (خير الناس قرني...)، وقوله: (أو الأربعة) بناء على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

وقوله: (وذكر ما يحدث). لو جعلت هذه المسألة مستقلة، لكان أبين وأوضح، لأن الأخبار عن شيء مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالته ﷺ.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون. تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

الثامنة: كون السلف يضربون على الشهادة والعهد. تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد)، فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضا عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استنادا إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر بضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، **لكن يشترط لجواز الضرب**:

الأول: أن يكون الصغير قابلا للتأديب، فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف في ذلك كمية أو كيفية أو نوعا أو موضوعا أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام، لم يكن مؤدبا بل منتصر.



[1] البخاري: كتاب الحدود / باب كراهة الشفاعة في الحد حديث (٣٤٧٥)، ومسلم: كتاب الحدود / باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة، حديث (١٦٨٨).

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

وقوله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾

(النحل: الآية٩١)

(ق): **قوله:** (ذمة الله وذمة نبيه).

الذمة: العهد، وسمي بذلك، لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.

والله له عهد على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا.

وللعباد عهد على الله وهو: لا يعذب من لا يشرك به شيئا، قال الله تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾، فهذا عهد الله عليهم، ثم قال: ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ (المائدة: ١٢)، وهذا عهدهم على الله.

وقال تعالى: ﴿وأفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ (البقرة: ٤٠) وللنبي ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئا.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على ما هو خير[١].

والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة في صلح الحديبية.

قوله تعالى: ﴿وأوفوا﴾. أمر الرباعي من أوفى يوفي، والإيفاء إعطاء الشيء تاما، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

قوله: ﴿بعهد الله﴾. يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله، أي: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم، لأن الفعل إذا كان على وزن فاعل اقتضى المشاركة من الجانبين غالبا، مثل: قاتل ودافع.

---

[١] مسلم: كتاب الأمارة / باب وجوب الوفاء ببيعه الخليفة الأول فالأول، حديث (١٨٤٤).

قوله: ﴿إذا عاهدتم﴾. فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء، أي: إذا صدر منكم العهد، فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ولا تنقضوا الإيمان﴾. نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة، لأنه عقد بين المتعاهدين.

قوله: ﴿بعد توكيدها﴾. توكيد الشيء بمعنى تثبيته، والتوكيد مصدر وكّد، يقال: وكّد الأمر وأكده تأكيدا وتوكيدا، والواو أفصح من الهمزة.

قوله: ﴿وقد جعلتم الله لكم كفيلا﴾. الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ أنه جعل الله عليه كفيلاً.

قوله: ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾. ختم الله الآية بالعلم تهديدا عن نقض العهد، لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعله، فإنه لا ينقض العهد.

ومناسبة الآية للترجمة واضحة جدا، لأن الله قال: ﴿أوفوا بعهد الله ﴾، وقال: ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾. والعهد: الذمة.

ومناسبة الباب للتوحيد: أن عدم الوفاء بعهد الله تنقص له، وهذا مخل بالتوحيد.

❃❃❃❃❃

عن بريدة ﷺ أن رسول ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: (اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدري، أتصيب فيهم حكم الله أم لا) رواه مسلم[1].

قوله: (إذا أمر) أي: جعله أميراً، والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة.

قوله: (أو سرية). هذه ليست للشك، بل للتنويع، فإن الجيش ما زاد على أربع مائة رجل والسرية ما دون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ- قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم غنمه كقسمة ما غنم الجيش.

ب- قسم ينفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

---

[1] مسلم: كتاب الجهاد / باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته، حديث(١٧٣١).

ج- قسم ينفذ في الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش. وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة، فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس، لأن الجيش وراءها، فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس، لأن الجيش قد ذهب عنها، فالخطر عليها أشد.

وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلى اجتهاد الإمام: إن شاء أعطى وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله: (أوصاه). الوصية: العهد بالشيء إلى غيره على وجه الاهتمام به.

قوله: (بتقوى الله). التقوى: هي امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وقال بعضهم:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى

واعمل كماش فوق أ ... رض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

وهذه التعريفات كلها تؤدي معنى واحدا وكانت الوصية بالتقوى لأمير الجيش، لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفُع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته.

قوله: (وبمن معه من المسلمين خيرا). أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيرا في أمور الدنيا والآخرة، فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب أن على من تولى أمرا من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه، فإنه لا يلزم إلا بالواجب.

قوله: (اغزوا باسم الله). يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائما مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله.

والأول أظهر، والثاني أيضا محتمل، لأنه بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله، فهو أبتر.

قوله: (في سبيل الله). متعلق ب(اغزوا) وهو تنبيه من الرسول ﷺ على حسن النية والقصد، لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدى الحسنيين ما كان خالصا لله. وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا.

فإذا قاتل لأجل الوطن: فمن قاتل لأنه وطن لإسلامي تجب حمايته وحماية المسلمين فيه، فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط فهو حمية وليس في سبيل الله.

وقوله: (في سبيل الله). تشمل النية والعمل، فالنية سبقت، والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: (قاتلوا من كفر بالله). (قاتلوا): فعل أمر وهو للوجوب، أي: يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (التحريم: ٩). وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ (التوبة: ١٢٣) فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا، نقاتل من وراءهم، وهكذا إلى أن نخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها.

(ومن): اسم موصول، وصلته (كفر)، واسم الموصول وصلته يفيد العلية، أي: لكفره، فنحن لا نقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، نقاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار.

والكفر مداره على أمرين: الجحود، والاستكبار.

أي: الاستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديق.

قوله: (اغزو). تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول: لا تحقروا الغزو واغزوا بجد.

قوله: (لا تغلوا). الغلول: أن يكتم شيئا من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ (آل عمران: ١٦١)، أي معذبا به، فهو يعذب بما غل يوم القيامة ويعزر في الدنيا، قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله، إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، وما فيه روح، لأنه لا يجوزه تعذيبه بالنار.

قوله ولا(تغدروا). الغدر: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا، فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد، فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن على بن أبي طالب رضي الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على على صاح به على: ما خرجت لأبارز رجلين. فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله علي رضي الله عنه.

وليعلم لنا مع المشركين ثلاث حالات.

الحالة الأولى: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد، فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحالة الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه، فهنا يجب الوفاء لهم بعدهم، لقوله تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ (التوبة: ٧) وقوله: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ (الأنفال: ٥٨).

الحالة الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا، لقوله تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم من خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ (الأنفال: ٥٨).

قوله: (و لا تمثلوا). التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسان وغيرها، وذلك عند أسرهم، لأنه لا حاجة إليه، لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء على فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك:
فقيل: لا يمثل للعموم، والنبي ﷺ لم يستثن شيئا، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضى بما فعله قومه، فكيف نمثل به؟

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا، لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (البقرة: ١٩٤). وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا، فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال، عرفوا أن عندنا قوة و لم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.
والظاهر القول الثاني.

فإن قيل: قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله – عز وجل– يخاطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بأمور جرت في عهد موسى، قال تعالى: ﴿وإذا قتلتم نفسا فادارأتم فيها﴾ (البقرة: ٧٢)، وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ (البقرة: ٩٣)، وما أشبه ذلك.

قوله: (ولا تقتلوا وليدا). أي: لا تقتلوا صغيرا، لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يسلم.
وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فان ولا امرأة[١]، إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصّمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه[٢].
واستدل بهذ الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها (قتال الكفار).

قوله: (وإذا لقيت عدوك). أي قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجا لقتالهم، لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك، فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ (الممتحنة: ١) وهذا أبلغ وأعم من قوله في آية أخرى: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ (المائدة: ٥١)، لكن خص في هذه الآية باليهود والنصارى، لأن المقام يقتضيه.

---

[١] أبو داود: كتاب الجهاد / باب دعاء المشركين.
[٢] البخاري: كتاب المغازي / باب غزوة أوطاس.

والعدو ضد الولي، والولي من يتولى أمورك ويعتني بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك، ويعتدي عليك ما أمكنه.

قوله: (من المشركين). يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

قوله: (خصال أو خلال). بمعنى واحد، وعليه، فـ " أو " للشك في اللفظ، والمعنى لا يتغير.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك). (أيتهن): اسم شرط مبتدأ، (ما): زائدة، وهي تزاد بالشرط تأكيدا للعموم، كقوله تعالى: ﴿أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ (الإسراء: ١١٠) والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف، والتقدير: فأيتهن ما أجابوك إليه، فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم.

قوله: (ثم ادعهم). (ثم): زائدة، كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال: أنها ليست من كلام الرسول ﷺ.، بل من كلام الراوي على تقدير: ثم قال ادعهم.

وقوله: (إلى الإسلام). أي: المتضمن للإيمان، لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا، افترقا، كما فرق النبي ﷺ بينهما في حديث جبريل.

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال، قال ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[1]، فإن أجابوا للإسلام، فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبي ﷺ: (فاقبل منهم).

قوله: (ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين). هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا، طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله، لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم، كما قال تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ (التوبة: ٩٧)، وهذا أصل في توطين البوادي.

وقوله: (إلى دار المهاجرين) ، يحتمل أن المراد بها العين، أي: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس، أي: الدار التي تصلح أن يهاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

ويقوى الاحتمال الثاني – وهو أن المراد بها الجنس – أنه لو كان المراد المدينة، لكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعبر عنها باسمها ولا يأتي بالوصف العام، ويقوى الاحتمال الأول: أن دار المهاجرين الأولى هي المدينة، والظاهر الاحتمال الثاني.

---

[1] البخاري: كتاب الإيمان / باب أمور الإيمان، حديث (٩)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، حديث (٣٥)، وأبو داود، حديث (٤٦٧٦)، والنسائي، حديث (٥٠٠٥)، وابن ماجة، حديث (٥٧).

(**ف**): **قوله:** فإن أبوا أن يتحولوا يعني أن من أسلم و لم يهاجر و لم يجاهد لا يعطى من الخمس ولا من الفيء شيئاً. وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب، فلم ير لهم من الفيء شيئاً. وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم. كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده، ومصرف كل مال في أهله. وسوى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين، وجوزا صرفهما للضعيف.

(**ق**): **قوله:** (فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين). هذا تمام العدل، ولا يقال: إن الحق لصاحب البلد الأصلي، فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفيء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

قوله: (ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين). يعني إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين، فليس لهم في الغنيمة والفيء شيء.

والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفيء: ما يصرف لبيت المال، كخمس خمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها.

قوله: (إلا أن يجاهدوا مع المسلمين). يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وأما الفيء: فاختلف أهل العلم في ذلك:

فعند الإمام أحمد: لهم حق في الفيء مطلقا، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا.

وقيل: لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة، إذ ليس من في البلد مستعدا للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.

فإذا أسلموا، فلهم ثلاث مراتب:

١. التحول إلى دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.
٢. البقاء في أماكنهم مع الجهاد، فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفي الفيء الخلاف.
٣. البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد، فليس لهم من الغنيمة والفيء شيء.

وقوله: (فإن هم أبوا).(هم) عند البصريين: توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، التقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.

والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون في مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل هنا إعراب الكوفيين.

قوله: (فاسألهم الجزية). سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدى إلى المفعول الثاني بـ(عن)، قال الله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان

مرساها﴾. وقد يكون المفعول الثاني جملة استفهامية، كقوله تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحل الله لهم﴾ (المائدة: ٤).

وأما سؤال الإعطاء، فيتعدى إليه بنفسه، كقولك: سألت زيدا كتابا.

والجزية: فعلة من جزى يجزي، وظاهر فيها أنها مكافأة على شيء، وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضا عن حمايته وإقامته بدارنا.

والذمي معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ (التوبة: ٢٩)، أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو أبنه، بل لا بد يأتي بها هو.

وقيل: ﴿عن يد﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين.

وقيل: ﴿عن يد﴾: أن يعطيك إياه فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتى يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وهم صاغرون﴾. أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عند تسلمها منهم.

(**ف**): **قوله:** فإن هم أبوا فاسألهم الجزية فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر: عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره. وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم. وقال الشافعي لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً. وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

قلت: لأن النبي ﷺ أخذها منهم. وقال: " سنوا بهم سنة أهل الكتاب "[1].

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية: فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق. وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. قال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير. وقال أبو حنيفة رحمه الله، والكوفيون: على الغني ثمانية وأربعون درهماً والوسط أربعة وعشرون درهماً. والفقير اثنا عشر درهماً، وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله.

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله:

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة الـ	ـمجوس فإن هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهماً افرضن	وأربعة من بعد عشرين زد
لأوسطهم حالاً ومن كان موسراً	ثمانية مع أربعين لتنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم	وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعد
وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلم	ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

[1] رواه مالك في الموطأ (٢٧٨/١) في الزكاة باب جزية أهل الكتاب والمجوس . وله شواهد تقويه وراجع جامع الأصول (٦٦٠/٢، ٦٦١) بتحقيق الأرناؤوط.

وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

(**ق**): قوله (فاستعن بالله وقاتلهم). بدأ النبي ﷺ بطلب العون من الله، لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه، فإنك مخذول، والجملة جواب الشرط.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن). الحصر: التضييق، أي: طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

والحصن: كل ما يتحصن به من قصور أو أحواش وغيرها.

قوله: (فأرادوك). أي: طلبوك، وضمن الإرادة معنى الطلب، وإلا فإن الأصل أن تتعدى ب(من)، فيقال أرادوا منك.

قوله: (فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه). الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون: نريد أن نترل على عهد الله ورسوله، فإنه لا يجوز أن يترلهم على عهد الله ورسوله، وعلل النبي ﷺ ذلك بقوله: (فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون...)

قوله: (أن تخفروا) بضم التاء وكسر الفاء: من أخفر الرباعي، أي: غدر، وأما خفر يخفر الثلاثي فهي بمعنى أجار، والمتعين الأول.

وقوله: (أن تخفروا). (أن) بفتح الهمزة مصدرية بدليل رفع (أهون) على أنها خبر، وأن وما دخلت عليه محلها من الإعراب النصب على أنها بدل اشتمال من اسم(إن)، والتقدير: فإن إخفاركم ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المبدل منه، ولهذا قدرتها بما سبق.

قوله: (أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه). لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله: (أهون) من باب اسم التفضيل الذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شيء من هذا المعنى، لأن قوله: (أهون) يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهوان، والأمر ليس كذلك، لأن إخفار الذمم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين، كله ليس بهين، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته.

فهنا أرادوا أن يترلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء، بل يعاهدون على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك.

قوله: (وإذا حاصرت). أي: ضربت حصارا يمنعهم من الخروج من مكانهم. (أهل الحصن): أهل البلد أو مكان يتحصنون به.

(فأرادوك): طلبوا منك.

(حكم الله)، أي: شرع الله.

قوله: (ولكن الله أنزلهم على حكمك). فإذا أرادوا أن يترلوا على حكم الله، فإنهم لا يجابون، فإننا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

ولهذ قال: (أنزلهم على حكمك)، و لم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة، لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد، فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: (لا تدري). أي: لا تعلم (أتصيب فيهم حكم الله أم لا)، وذلك لأن الإنسان قد يخطيء حكم الله تعالى.

وهذه مسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل: إن أهل الحصن لا يترلون على حكم الله، لأن قائد الجيش وإن اجتهد، فإنه لايدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيبا.

وقيل: بل يترلون على حكم الله. والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط، لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم، إذ من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير هذا الله الحكم، إذ ا كان كذلك، فلا تترلهم على حكم الله، لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه.

أما بعد انقطاع الوحي، فيترلون على حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابا إذا لم يتبين خطؤه، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ (التغابن: ١٦) وهذا اصح، لإنه يحكم المجتهد بإصابته الحكم ظاهرا شرعا وإن كان قد يخطي، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: نترلك على ما نفهم من حكم الله ورسوله، فهو أولى، لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحا أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هذه العبارة، لأنه قد يتغير الاجتهاد، ويأتي أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم، فيقول الكفار: إن أحكام المسلمين متناقضة.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١. تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.
٢. يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.
٣. لا يجوز القتال قبل الدعوة، لأنه جعل القتال آخر مرحلة.

وأما ما ورد في (الصحيح) أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون[1]، فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع في المصلحة.

٤. جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس، لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ماعدا هؤلاء فاختلف أهل العلم: فقيل: لا تؤخذ من غير هؤلاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركي العرب، لأن فيها إذلالا. والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار، لعموم قوله ﷺ: (من كفر بالله ولم يقل: اليهود والنصارى)

٥. الإشارة إلى القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية، لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: (أمرت أن أُقاتل الناس..)[2] الحديث، فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦. عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهدا لله ورسوله.

٧. جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨. أنه لا يجوز أن يترلهم على حكم الله أما في عهد رسول الله أو مطلقا حسب الخلاف السابق.

٩. أن المجتهد قد يصيب وقد يخطيء، لقوله: (فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا)، وقال النبي: ﷺ: (إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب، فله أجران، وأن أخطأ، فله أجر واحد)[3]، وعليه، **فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟**

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيبا.

وقيل: كل مجتهد مصيب في الفروع دون الأصول، حذرا من أن نصوب أهل البدع في باب الأصول.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق، فإنه يخطيء ويصيب، ويدل له قول ﷺ: " **فاجتهد فأصاب واجتهد فأخطأ** "، فهذا واضح في تقسيم المجتهدين إلى مخطيء ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن

---

[1] البخاري: كتاب العتق/باب من ملك من العرب عقيقا فوهب وباع وجامع، حديث (٢٥٤١)، مسلم: كتاب الجهاد والسير / باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة، حديث(١٧٣٠).

[2] البخاري: كتاب الإيمان / باب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) (التوبة: من الآية٥)، حديث(٢٥)، ومسلم: كتاب: الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، حديث(٢٢).

[3] البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية / باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث (١٧١٦)، وأبو داود، حديث (٣٥٧٤)، وابن ماجة، حديث (٢٣١٤).

الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين، لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين، سواء في علم الأصول والفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئا من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهي ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء في العقيدة اختلف فيها السلف، يقولون: أنها من الفروع، لأنها ليست من العقيدة ولكن فروع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة، فكل الدين أصول، لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة، فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها، والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمى بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف، فليس بمقبول مطلقا.

١٠. أن باب الاجتهاد باق، لقوله: (لا تدري أتصيب فيهم حكم اللَّه أم لا؟) وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثا في هذا الحكم حتى يتثبّت، لأن هذا الحكم قد يكون منسوخا أو مقيدا أو عاما وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر في القرآن والسنة لأنك لست أهلا للاجتهاد، فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح، لا يجوز أبدا أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم، لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليس بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم، فهذا أيضا لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة، فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدهم وأصولها؟

١١. فيه إثبات الحكم لله - عز وجل -، وحكم اللَّه ينقسم إلى قسمين:

أ- حكم كوني، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخلفه، ومنه قوله تعالى ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم اللَّه لي﴾ (يوسف: ٨٠).

ب- حكم شرعي، وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به، ومنه قوله تعالى: ﴿ذلكم حكم اللَّه يحكم بينكم﴾ (الممتحنة: ١٠).

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: (اغزوا بسم الله في سبيل الله).

الرابعة: قوله: (قاتلوا من كفر بالله).

الخامسة: قوله: (استعن بالله وقاتلهم).

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين. لو قال الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين، لكان أوضح، لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين محرمة، وجعل ذمة المحاصرين - بكسر الصاد - ذمة جائزة.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرا.لقوله: (ولكن اجعل ذمتك وذمة أصحابك...)إلخ، وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر وهو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما إذا كان لابد من ارتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قال تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾ (الأنعام: ١٠٨)، فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله - عز وجل - صار منهيا عنه، لأنه مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضا العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهي ترك أدنى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لا بد من ترك إحداهما، فإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعا، فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما، فخذ بأدناهما.

الثالثة: **قوله:** (اغزو بسم الله في سبيل الله). يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص والتمشي على شرعه.

الرابعة: **قوله:** (قاتلوا من كفر بالله). يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال، فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة عيد قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.
وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله، قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: **قوله:** (استعن بالله وقاتلهم). يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. وفيه فرقان:

١. أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.
٢. تنزل أهل الحصن على حكم الله ممنوع، إما في عهد رسول الله ﷺ فقط أو مطلقا، وأما على حكم العلماء ونحوه، فهو جائز.

فائدة: لا ينبغي أن يقال لمفت: ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأي الإسلام في كذا، فإنه قد يخطئ

فلا يصيب حكم الإسلام، ولا يقول مفت: حكم الإسلام كذا، لأنه قد يخطي، ولكن يقيد، فيقول: حكم الإسلام فيما أرى كذا وكذا إلا فيما هو نص واضح صريح، فلا بأس، مثل أن يقال: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟ فيقول: حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟ وهذا ليس خاصا بالصحابة، بل حتى من بعدهم، فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم الله عند الحاجة.

❁❁❁❁❁

باب ما جاء في الأقسام على الله

(ق): الإقسام: مصدر أقسم يُقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، وهي: يمين، وآلية، وحلف، وقسم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ (الواقعة: ٧٥)، وقال: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ (البقرة: ٢٢٦)، أي: يحلفون، وقال تعالى: ﴿ولا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ (البقرة: ٢٢٥)، وقال تعالى: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾(التوبة: ٦٢) وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ (النور: ٥٣).

واختلف أهل العلم في ﴿لا﴾ في قوله ﴿لا أقسم﴾.

فقيل: أنها نافية على الأصل، وأن معنى الكلام: لا أقسم بهذا الشيء على الُمقسم به، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف، لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفي.

وقيل: إن ﴿لا﴾ زائدة، والتقدير اقسم.

وقيل: إن ﴿لا﴾ للتنبيه، وهذا بمعنى الثاني، لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشي مقدر، أي: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ وفيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل، مثل: والله، ليفعلن كذا، أو والله، لا يفعل الله كذا.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي وإثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله، ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الربّيع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضي الله عنهما (حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتكسر ثنية الربيع؟ والله يا رسول الله لا تكسر سنية الربيع. وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي، فقال الرسول ﷺ: (يا أنس! كتاب الله القصاص)، يعني السن بالسن. قال والله، لا تكسر ثنية الربيع)، وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك.

فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلوب الأنصار العفو فعفوا، فقال النبي ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)[١]، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع، فألقى الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ على القصاص، فعفوا وأخذوا الأرش.
فثناء الرسول ﷺ شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر قسمه ولين له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذي قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد، ولما استشهد وجد به بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، و لم يعرفه إلا أخته ببنانه[٢]، وهي الربيع هذه، رضي الله عن الجميع وعنا معهم.
ويدل أيضا لهذا القسم قوله ﷺ: (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره)[٣].

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله – عز وجل – وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المُقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد: أن من تالى على الله – عز وجل –، فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد، ، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصا في حقه.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (قال رجل والله لا يغفر الله لفلان؛ فقال الله عز وجل، من ذا الذي يتألى علي أن لا اغفر لفلان؟ إني قد غفرت له واحبطت عملك) . رواه مسلم[٤]

قوله: (قال رجل). يحتمل أن يكون الرجل الذي ذكر في حديث أبي هريرة الآتي أو غيره.
(والله يغفر لفلان). هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند هذا القائل، وإعجابه بنفسه.
والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يغطي به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر.

---

[١] البخاري: كتاب الصلح / باب الصلح في الدية، حديث (٢٧٠٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين / باب لإثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، حديث (١٦٧٥).
[٢] البخاري: كتاب: الجهاد والسير / باب قول الله تعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ ﴾(الأحزاب: من الآية٢٣)، حديث (٢٨٠٦)، ومسلم كتاب: الامارة /باب ثبوت الجنة للشهيد، حديث (١٩٠٣).
[٣] مسلم: كتاب البر والصلة والآداب / باب فضل الضعفاء والخاملين، حديث (٢٦٢٢).
[٤] مسلم: كتاب البر والصلة /باب النهي عن تقنيط الإنسان رحمة الله، حديث (٢٦٢١).

قوله: (من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان). (من): اسم استفهام مبتدأ، (ذا) ملغاة، (الذي): اسم موصول خبر مبتدأ، يتألى: يحلف، أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام، للإنكار.

والحديث ورد مبسوطا في حديث أبي هريرة[1] أن هذا الرجل كان عابدا وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر. فوجده يوما على ذنب، فقال أقصر.فقال خلني وربي، أبُعثت عليّ رقيبا؟ فقال: والله، لا يغفر الله لك.

وهذا يدل على أن المسرف عنده حسن الظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه، لأنه قال: خلني وربي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحا ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى، فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صحيحة، لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له، إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركا ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ (النساء: ١١٦).

قوله: (وأحبطت عملك). ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله، لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاما.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم – حسب فهمنا والعلم عند الله – أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يمن على الله بعمله، وحينئذ يفتقد ركنا عظيما من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلا بد أن تكون عبدا لله– ﷻ – بما تعبدك به وبما بلغك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا على رأيهم إذا تبين لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويحرفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبدا فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعا كاملا حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى (أحبطت عملك)، أي: عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالى قال: أذهبوا به إلى النار.

---

[1] أبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، حديث (٤٩٠١)، وأحمد (٢/٣٢٣)، حديث (٨٢٧٥).

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ﷺ: في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده فيمن منع الزكاة: (فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا)[١].

فقوله (وشطر ماله) هل المراد جميع ماله، أو ماله الذي منع زكاته؟

يحتمل الأمرين، فمثلاً: إذا كان عنده عشرون من الإبل، فزكاتهما أربع شياه، فمنع الزكاة، فهل نأخذ عشراً من الإبل فقط مع الزكاة، أو إذا كان عنده أموال أخري من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟.

اختلف في ذلك:

فقيل: نأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة.

وقيل: نأخذ نصف جميع المال.

والراجح أنه راجع إلى رأي الإمام حسب المصلحة، فإن كان أخذ نصف المال كله أبلغ في الردع، أخذ نصف المال كله، وإلا، أخذ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة.

و في حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: ((**تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**))[٢]

قوله: (تكلم بكلمة). يعني قوله: والله، لا يغفر الله لك.

قوله: (أوبقت). أي: أهلكت، ومنه حديث: (اجتنبوا السبع الموبقات)[٣]، أي المهلكات.

قوله: (دنياه وآخرته). لأن من حبط عمله، فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته، فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه، فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملا صالحا، وإلا، فهي خسارة، قال تعالى: ﴿والعصر۞إن الإنسان لفي خسر۞إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾(العصر: ١-٣) وقال: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ (الزمر: ١٥)، فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح، فقد خسر دنياه حقيقة، لأن مآلها للفناء، وكل شيء فان

---

[١] الإمام أحمد في (المسند) (٥/ ٢، ٤)، وأبو داود: كتاب الزكاة / باب زكاة السائمة، حديث (١٥٧٥)، والنسائي: كتاب الزكاة / باب عقوبة مانع الزكاة / باب عقوبة مانع الزكاة، حديث (٢٤٤٤)، والحاكم (١/٥٥٥) – صححه على شرطهما ووافقه الذهبي، قال الشيخ الألباني وهو حسن للخلاف المعروف في بهز بن حكيم، أنظر الأرواء (٧٩١).

[٢] سبق تخريجه.

[٣] الإمام أحمد في المسند (٢/٣٢٣)، وأبو داود كتاب الأدب / باب في النهي عن البغي.

فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مر عليك وكأنه لم يكن، وهذا من حكمة الله - عز وجل - لئلا يركن إلى الدنيا.

وقوله: (قال أبو هريرة). يعني في الحديث الذي أشار إليه المؤلف رحمه الله.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله (إن الرجل ليتكلم بالكلمة) الخ. .

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله. لقوله: (من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان)، وكونه أحبط عمله بذلك.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المتألي والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم أشار إلى حديث رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ: قال الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك) ويقصد بها تقريب الجنة أو النار، والشراك: سير النعل الذي يكون بين الأبهام والأصابع.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة...) إلى آخره. يشير المؤلف إلى حديث: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوى بها في النار سبعين خريفا)[1]، أو(أبعد مما بين

---

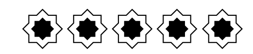
[1] أخرجه أحمد في (المسند) (٢/ ٢٩٧، ٣٥٥)، والترمذي: كتاب الزهد / باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس، حديث (٢٣١٤) واللفظ له، وقال (حسن غريب)، وبنحوه للبخاري: كتاب الرقاق /باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت]**، حديث (٦٤٧٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقاق / باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، حديث (٢٩٨٨) وابن ماجة، حديث (٣٩٧٠).

المشرق والمغرب)[١]، وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان، فقد يسبب الهلاك، ولهذا قال النبي ﷺ: (من يضمن لي ما بين لحييه وبين رجليه أضمن له الجنة)[٢]، وقال لمعاذ كف عليك هذا - يعني لسانه- قلت: يارسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذّ وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟)[٣].

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدي به، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله، فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه. فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله: (قد غفرت له).

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له بشيء هو من أكره الأمور إليه، مثل الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).



---

[١] البخاري: كتاب الرقاق /باب حفظ اللسان، ومسلم: كتاب الزهد / باب التكلم بكلمة يهوى بها في النار، ولفظه عند مسلم. (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب).

[٢] البخاري: كتاب الرقاق /باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت]**، حديث (٦٤٧٧)، والترمذي، حديث (٢٤٠٨).

[٣]، والترمذي: كتاب الإيمان / باب ما جاء في حرمة الصلاة، حديث (٢٦١٦)وابن ماجة، حديث (٣٩٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

باب لا يستشفع بالله على خلقه

(ق): استشفع بالشيء، أي: جعله شافعا له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعا، وهي التوسط، للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله -عز وجل-، لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه، إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمرا والله -عز وجل- لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد، لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعا، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد.

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله، فقال النبي ﷺ: (سبحان الله! سبحان الله!) فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال النبي ﷺ: (ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)[1] وذكر الحديث.

رواه أبو داود.

قوله: (أعرابي). واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء، لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: (نهكت الأنفس). (نهكت)، أي: ضعفت.

قوله: (جاع العيال وهلكت الأموال)، أي: من قلة المطر والخصب، فضعف الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيها إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال، لأنها لم تجد ما ترعاه.

[1] أبو داود: كتاب السنة /باب في الجهمية، حديث (٤٧٢٦).

قوله: (فاستق لنا ربك). أي: اطلب من اللَّهُ أن يسقينا، وهذا لا بأس به، لأن طلب الدعاء ممن ترجى أجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: (نستشفع بالله عليك): أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو اللَّهُ لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة اللَّهُ في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ. قوله: (ونستشفع بك على اللَّهُ) أي: نطلب منك أن تكون شافعا لنا عند اللَّهُ، فتدعو اللَّهُ لنا، وهذا صحيح.

قوله: (سبحان اللَّهُ، سبحان اللَّهُ). قاله رسول اللَّهُ ﷺ استعظاما لهذا القول، وإنكارا له، وتنزيها لله – ﷻ – عما لا يليق به من جعله شافعا بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

و(سبحان): اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبح يسبح تسبيحا، وإذا جاءت الكلمة بمعنى المصدر وليس فيها حروفه، فهي اسم مصدر، مثل: كلام اسم مصدر كلم والمصدر تكليم، ومثل سلام اسم المصدر سلم والمصدر تسليم.

(وسبحان): مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضا، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول: سبحت اللَّهُ سبحانا إلا نادرا في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه اللَّهُ عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب، لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالناقص تجعله ناقصا، كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره　　　إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

قوله: (فما زال). إذا دخلت (ما) على زال الذي مضارعها يزال، صار النفي إثباتاً مفيداً للاستمرار، كقوله تعالى: ﴿فما زالت تلك دعواهم..﴾ الآية [الأنبياء: ١٥]، وكقوله تعالى في المضارع: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وجملة (يسبح): خبر زال.

قوله: (حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه). أي: عرف أثره في وجوه أصحابه، وأنهم تأثروا بذلك، لأنهم عرفوا أنه ﷺ لا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التنقص لله تعالى، فسبح النبي ﷺ ربه تنزيها له عما توهمه هذه الكلمة، ولهذا كان الرسول ﷺ وأصحابه في السفر إذا هبطوا واديا سبحوا، تنزيها لله تعالى عن السفول الذي كان من صفاتهم، وإذا علوا نشزا كبروا، تعظيما لله – ﷻ –[1] وأن اللَّهُ تعالى هو الذي له الكبرياء في السماوات والأرض.

[1] البخاري: كتاب الجهاد / باب التسبيح إذا هبط واديا، حديث (٢٩٩٣)

قوله: (ويحك). ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره ألزمك الله ويحك.

وتارة تضاف، فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة، فيقال: ويحا لك، وتارة ترفع على أنها مبتدأ، فيقال: ويحه أو ويح له.

وهي وويل وويس كلها متقاربة في المعنى.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى كلمة ويحك: إني أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله ﷺ لهذا الرجل ترحما لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: (أتدري ما الله). المراد بالاستفهام التعظيم، أي: شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنى: لا تدري ما الله، بل أنت جاهل به، فيكون المراد بالاستفهام النفي.

وقوله: (ما الله). جملة استفهامية معلق ل(تدري) عن العمل، لأن درى تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي تدرى.

قوله: (إن شأن الله أعظم من ذلك). أي: إن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا الفظ.

قوله: (إنه لا تستطيع بالله على أحد) أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعا إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ: (من سأل بالله فأعطوه)[1]، وهذا دليل على جواز السؤال بالله إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزا لم يكن إعطاء السائل واجبا؟

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المسؤل به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطي.

على أن بعض العلماء قال: (من سألكم بالله)، أي: من سألكم سؤالا بمقتضى شريعة الله فأعطوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله.

والمعنى الأول أصح، وقد ورد مثله في قول الملك: (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن)[2].

---

[1] سبق تخريجه.

[2] سبق تخريجه.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: (نستشفع بك على الله).

الرابعة: التنبيه على تفسير (سبحان الله).

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال (نستشفع بالله عليك) تؤخذ من قوله: (سبحان الله أتدري ما الله)، وقوله: (إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه).

الثانية: تغيره تغيرا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة. تؤخذ من قوله: (فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه)، وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: (نستشفع بك على الله). لأنه قال: لا يستشفع بالله على أحد، فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: (نستشفع بك على الله)، وهذا يدل على جواز ذلك، وهنا قاعدة هي: (إذا جاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكر بعضها وسكت عن بعض، دل على أن ما لم ينكر فهو حق، مثال ذلك قوله تعالى: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (الأعراف: ٢٨)، فأنكر قولهم: (والله أمرنا بها)، وسكت عن قولهم: (وجدنا عليها آباءنا) فدل على أنها حق، ومثلها عدد أصحاب الكهف، حيث قال عن قول: (ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب)، وسكت عن قول سبعة وثامنهم كلبهم) (الكهف: ٢٢).

الرابعة التنبيه على تفسير(سبحان الله). لأن قوله: (إن شأن الله أعظم) دليل على أنه منزه عما ينافي تلك العظمة.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء. وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه، لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه وعبادته، ولهذا لما حصل الجدب في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه

استسقى بالعباس، فقال: (اللهم كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا). وتوسلهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو.

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي كان جالسا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليكم يا رسول الله سمعت الله يقول: (و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) (النساء: ٦٤)، وإني قد جئت مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	**فطاب من طيبهن القاع والأكمُ**
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	**فيه العفاف وفيه الجود والكرم**

ثم انصرف، قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: يا عتبي، بشر الأعرابي أن الله قد غفر له.

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها، لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح، لأن الآية: (ولو أنهم إذ ظلموا) و لم يقل إذا ظلموا، و(إذ) لما مضى بخلاف (إذا) والصحابة رضي الله عنهم لما لحقهم الجدب في زمن عمر بن الخطاب لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم[1].

ومن فوائد الحديث:

١. أنه ينبغي أن يقدم الإنسان عند الطلب الأوصاف التي تستلزم العطف عليه، لقوله: (نهكت الأنفس).
٢. الترحم على المذنب إذا قلنا: إن (ويح) للترحم.

۞۞۞۞۞

[1] البخاري: كتاب الجمعة / باب سؤال الناس الامام الاستسقاء إذا قحطوا، حديث (١٠١٠).

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

(**تم**): النبي -عليه الصلاة والسلام- حَمَى وحرس جناب التوحيد، وحَمى حِمَى التوحيد، وسد كل طريق توصل إلى الشرك؛ فإن في سنة النبي -عليه الصلاة والسلام- من الدلائل على قاعدة سد الذرائع ما يبلغ مائة دليل أو أكثر، وأعظم الذرائع التي يجب أن تسد ذرائع الشرك التي توصل إليه.

ومن تلك الذرائع: قول القائل: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، ونحو ذلك؛ فإن مثل هذه الأقوال فيها من التعظيم الذي لا يجوز أن يواجَه به بشر، فإن النبي ﷺ هو سيد ولد آدم كما أخبر به -عليه الصلاة والسلام-، لكن كره المواجهة كما سيأتي.

فحماية النبي ﷺ حِمى التوحيد، وسده طرق الشرك كان في جهة الاعتقادات، ومن جهة الأقوال والأفعال، فإذا تأملت سنته وما جاء في هذا الكتاب -كتاب التوحيد- وجدت أنه -عليه الصلاة والسلام- سد الباب في الاعتقادات الباطلة، وسد الباب في الأفعال الباطلة كقوله: (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

وسد الباب -أيضا- في الأقوال التي توصل إلى الغلو المذموم، فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) وهذا الباب أيضا من ذلك في بيان حماية النبي ﷺ حِمى التوحيد فيما يتعلق بالقول الذي قد يتبعه اعتقاد.

(ق): مناسبة الباب للتوحيد:

لما تكلم المؤلف رحمه الله فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافي كماله، ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك.

عن عبد الله بن الشخير ﷺ، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: (السيد الله تبارك وتعالى) . قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً؛ فقال: (قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان)[١] رواه أبو داود بسند جيد .

قولـه: (انطلقت في وفد بني عامر). الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبي ﷺ في العام التاسع، لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يسمى عام الوفود.

قوله: (أنت سيدنا). السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر وما أشبهه.

وسيد: صفة مشبهة على وزن فيعل، لأن الياء الأولى زائدة.

قوله: (السيد الله). لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من (أل)، لأن (أل) للعموم، والمعنى: أن الذي له السيادة المطلقة هو الله – عز وجل – ولكن السيد المضاف يكون سيدا باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه، لأن السيد كل شيء من جنسه.

والسيد من أسماء الله تعالى، وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده وما أشبه ذلك.

و لم ينههم ﷺ عن قولهم: (أنت سيدنا)، بل أذن لهم بذلك، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة. لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، و(السيد) سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قولـه: (تبارك). قال العلماء: معنى تبارك، أي: كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون إن هذا لا يوصف به إلا الله، فلا يقال: تبارك فلان، لأن هذا الوصف خاص بالله.

وقول العامة: (أنت تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله – ﷻ –، وإنما يريدون أصابنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلا لذلك، فقال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها: (ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر)[١].

---

[١] سبق تخريجه.

قوله: (وأفضلنا). أي: فضلك أفضل من فضلنا.

قوله: (وأعظمنا طولا). أي: أعظمنا شرفا وغنى، والطول: الغنى، قال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات﴾ (النساء: ٢٥) ويكون بمعنى العظمة، قال تعالى: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول﴾ (غافر: ٣) أي: ذي العظمة والغنى.

قوله: (قولوا بقولكم أو بعض قولكم). الأمر للإباحة والأذن كما سبق.

وقوله: (قولوا بقولكم): يعني قولهم أنت سيدنا، أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: (أو بعض قولكم) يحتمل أن يكون شكا من الراوي، وأن يكون من لفظ الحديث، أي اقتصروا على بعضه.

قوله: (ولا يستجرينكم الشيطان). استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجري معه، أي: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولا منكرا، فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغ أن يفعل ونهاهم عن الأمر الذي لا ينبغي أن يفعل، حماية للتوحيد من النقص أو النقض.

وقال في النهاية: (لا يستجرينكم الشيطان)، أي: لا يستغلبنكم فيتخذكم جريا، أي: رسولا ووكيلا.وعلى التفسيرين، فمراد النبي ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد. ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبي عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه، لأنه أعظم الذنوب، وأيضا باب الزنا حمي حماية عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك، لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا، لأن النفوس تطلبه، وفي باب الربا أيضا حمي الربا حماية عظيمة، حتى أن الرجل ليعطي الرجل صاعا طيبا من البر بصاعين قيمتها واحدة، ويكون ذلك رباً محرم، مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التي لا تدعوا إليه النفوس كثيرا لكنه أعظم الظلم، فالشيطان يحرص أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة، فحماه النبي ﷺ حماية تامة محكمة، حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنى الباب الذي ذكره المؤلف.

---

[1] البخاري: كتاب التيمم / باب وقول الله تعالى ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾، حديث (٣٣٤)، ومسلم: كتاب الحيض / باب التيمم، حديث (٣٦٧)، والنسائي، حديث (٣١٠).

(**ف**): قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر. فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: (السيد الله تبارك وتعالى)[1] وجوزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: (قوموا إلى سيدكم)[2] وهذا أصح من الحديث الأول. قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيد كندة، ولا يقال الملك سيد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم، وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في مترلة المالك، والمولى والرب. لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى: ' ٦: ١٦٤ ' ﴿قل أغير الله أبغي رباً﴾ أي إلهاً وسيداً وقال في قول الله تعالى: " الله الصمد " أنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد: وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار (قوموا إلى سيدكم) فالظاهر أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفضيل والله أعلم.

(ق): تنبيه:

جرى شرح هذا الحديث على أن النبي ﷺ نهاهم عن قول سيدنا: فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم[3]، وقوله: (قوموا إلى سيدكم)[4]، وقوله في الرقيق: (وليقل سيدي ومولاي)[5] بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي بالخطاب، أي: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب، لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئا آخر، وهو خضوع هذا المتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: (قوموا إلى سيدكم)، أو على سبيل الغيبة، كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

---

[1] صحيح: أبو داود: كتاب الأدب: باب في كراهية التمادح ،حديث(٤٨٠٦)، أخرجه أحمد (٢٥/٤) وقال الحافظ في الفتح (١٧٩/٥) رجاله ثقات وقد صححه غير واحد. أ.هـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٤).

[2] جزء من حديث أبي سعيد الخدري الذي اخرجه البخاري :كتاب المغازي: باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة (٤١٢١) ومسلم ، كتاب الجهاد والسير: باب جواز قتال من نقض العهد ،حديث(١٧٦٨)،(٦٤).

[3] سبق تخريجه.

[4] البخاري: كتاب الجهاد والسير / باب إذا نزل العدو على حكم رجل، حديث (٣٠٤٣)، ومسلم: كتاب: الجهاد والسير / باب جواز قتال من نقض العهد، حديث (١٧٦٨)، وأبو داود، حديث (٥٢١٥).

[5] تقدم تخريجه.

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلا، لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلا لذلك، أما إذا لم يكن أهلا كما لو كان فاسقا أو زنديقا، فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاها، وقد جاء في الحديث: لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكن سيد فقد أسخطتم ربكم ﷻ)[1]، فإذا كان أهلا لذلك وليس هناك محذور فلا باس به، وأما أن خشي المحذور أو كان غير أهل، فلا يجوز.

والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

وعن أنس ﷺ، أن ناساً قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: (يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا a، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ) . رواه النسائي بسند جيد .

قوله: (قالوا: يا رسول الله) هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾ (النور: ٦٣) أي لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً، فتقولوا: يا **a** ! ولكن قولوا: يا رسول الله ! أو يا نبي الله!

وفي الآية معنى آخر: أي إذا دعاكم الرسول، فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا إن شئتم أجبتم وإن شئتم أبيتم، فهو كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال: ٢٤) وعلى المعنى الأول تكون (دعاء) مضافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله: (يا خيرنا). هذا صحيح، فهو خيركم نسبا، ومقاما، وحالا.

قوله: (وابن خيرنا). أي: في النسب لا في المقام والحال، وكذلك يقال في قوله: (وابن سيدنا).

قوله: (قولوا بقولكم). سبق القول فيه.

قوله: (لا يستهوينكم الشيطان). أي: لا يستميلنكم الشيطان فتهووه وتتبعوا طرقه حتى تبلغوا الغلو ونظيره قوله تعالى: ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾ (الأنعام: ٧١)

---

[1] أبو داود: كتاب الأدب / باب لا يقول المملوك ربي وربتي، حديث (٣٩٧٧)، وصححه الشيخ الألباني كما في الصحيحة (٣٧١).

قوله: (أنا a عبد الله ورسوله). a اسمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له.

وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ (الفرقان: ١) ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾ (الإسراء: ١)، ووصفه بها في مقام المعراج قال تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ (النجم: ١٠) ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ (البقرة: ٢٣).

وكذلك بالنسبة للأنبياء، كقوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا﴾ (الإسراء: ٣) وهذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان، لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين۝وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ (يس: ٦٠ -٦١) قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... فبلوا برق النفس والشيطان

وقال الشاعر:

لاتدعني إلا بيا عبدها ... فإنه أشرف أسمائي

قوله: (ورسوله). أي: المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ الأعراف: ١٥٨). ورسول الله ﷺ في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ (النساء: ٦٩) والنبيون فيهم الرسول ﷺ، بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف رحمه الله في الرسول ﷺ: (عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب).

وقد تطرف في الرسول صلى الله عليه طائفتان:

١. طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.
٢. وطائفة كذبته، وزعمت أنه كذاب، ساحر، وشاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك.

وفي قوله: (عبد الله ورسوله) رد على الطائفتين.

قوله: (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي). (ما) نافية و(إن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب، أي: ما أحب رفعتكم إياي فوق منزلتي، لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال.

قوله (التي أنزلني الله). يستفاد منه أن الله تعالى هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى في الألفاظ، ليكون خالصا من كل شائبة.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا .

الثالثة: قوله: (ولا يستجرينكم الشيطان) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي) .

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو. تؤخذ من قوله: (ولا يستجرينكم الشيطان) ووجهه: أن الرسول جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: (أنت سيدنا). وتؤخذ من قوله: (السيد الله ﷻ) فينبغي أن يقول من قيل له ذلك: (السيد الله ﷻ).

الثالثة: قوله: (لا يستجرينكم الشيطان) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق. ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان، فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من أستجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنى: قولوا بهذا القول، ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق.

الرابعة: قوله: (ما أحب أن ترفعوني فوق مترلتي). أي: إني أكره أن ترفعوني فوق مترلتي)، وهي العبودية والرسالة، ففيها تواضعه ﷺ.



باب ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **(الزمر: الآية٦٧)**

(**ق**): **قوله:** ﴿وما قدروا﴾. الضمير يعود على المشركين، و﴿ما قدروا﴾: عظموا، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

قوله: ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة﴾. يحتمل أن تكون الواو للحال، أي: ما قدروا الله حق قدره في هذه الحال.

ويحتمل أن تكون للاستئناف، لبيان عظمة الله – عز وجل –، وهذا أقوى، لأنه يعم هذه الحال وغيرها.

والقبضة: هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال: الأرض في قبضته، لكان تفسيرها بالملك محتملا.

قوله﴿جميعا﴾. حال من الأرض، فيشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعا قبضته يوم القيامة، والسماوات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله – عز وجل: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

قوله:﴿ سبحانه وتعالى ﴾. هذا تتريه له عن كل نقص وعيب، ومما يتره عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: ﴿وتعالى﴾، أي: ترفع.

قوله: ﴿عما يشركون﴾.أي: عن كل شرك يشركون به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.

(**ف**): قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيئ المالك لكل شيئ، وكل شيئ تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدى: ما عظموه حق عظمته. وقال a بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيئ قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [1] الآية.

(ق): قوله (حبر). الحبر هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحيانا يسمى بالحبر وأحيانا بالبحر.

قوله: (إنا نجد) أي: في التوراة.

قوله: (فضحك النبي ﷺ). ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكارا، لأن من حدثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: (تصديقا لقول الحبر) فكانت إقرارا لا غير، ويدل ذلك قوله: ثم قرأ: ﴿وما قدروا الله حق قدره...﴾الآية، فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه وإستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجده هذا الحبر في كتبه، لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن، فإن الرسول ﷺ سوف يسر به، وإن كان الرسول يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البينات مما يقوي الشيء، أرأيت أسامة بن زيد وأبوه زيد بن الحارثة؟ هل كان عند النبي ﷺ شك في أن أسامة ابنٌ لزيد؟

الجواب: ليس عنده شك في ذلك، ولما مر بهما مجزز المدلجي – وهو من أهل القيافة – وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر النبي ﷺ سرورا عظيما حتى دخل على عائشة مسرورا تبرق أسارير وجهه،

وقال: (ألم ترى أنه مجززاً المدلجي دخل فرأى أسامة وزيدا وعليهما قطيفة، قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما، فقال: أن هذه الأقدام بعضها من بعض[2]، فالمهم أن الرسول ﷺ دخل تبرق أسارير وجهه، لأن في ذلك تأييدا للحق، وكان المشركون يقدحون في أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما، فكان

[1] البخاري: كتاب تفسير القرآن / باب قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾، حديث (٤٨١١)، مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث (٢٧٨٦)، والترمذي، كتاب صفة جهنم، حديث (٢٥٩٥).

[2] البخاري: كتاب الفرائض/باب القائف، حديث(٦٧٧٠)، ومسلم: كتاب الرضاع /باب العمل بإلحاق القائف بالولد، حديث (١٤٥٩).

أسامة أسود شديد السواد وأبوه زيد شديد البياض، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون في ذلك، واختلاف اللون لا يوجب شبهة إلا لذي هوى، فلعل المخالف في اللون نزعة عرق.

قوله: (أصبع). واحدة الأصابع، وهي مثلثة الأول والثالث، ففيها تسع لغات، والعاشر أصبوع، وفي هذا يقول الناظم:

وهمز أنملة ثلث وثالثة ... التسع في أصبع واختم بأصبوع

قوله: (أنا الملك). هذه الجملة تفيد الحصر، لأنها اسمية معرفة الجزئين، ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على ٱللَّهِ منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (غافر: ١٦) وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلا، وبهذا يظهر ملكوت ٱللَّهِ - ﷻ - في ذلك اليوم ظهورا بينا، لأنه سبحانه ٠ ينادي: لمن الملك اليوم، فلا يجيب أحد، فيجيب نفسه: ﴿لله الواحد القهار﴾.

وقوله: (الملك). أي: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو، وأما (المالك) فدون ذلك، ولهذا يمتدح نفسه تعالى بأنه الملك، وقوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾ (الفاتحة: ٤) فيها قراءتان: (ملك، ومالك)، ليتبين بذلك أنه ملك مالك.

فملك ٱللَّهِ تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره، فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

وقوله: (حتى بدت نواجذه). أي: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

وهذا الضحك من النبي ﷺ تقرير لقول الحبر، ولهذا قال ابن مسعود: (تصديقا لقول الحبر) ولو كان منكرا ما ضحك الرسول ﷺ ولا استشهد بالآية، ولقال له: كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذي يزني لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقا لقول الحبر وسرورا بأن ما ذكره موافق لما جاء به القرآن الذي أوحى إلى a ﷺ.

قوله: ثم قرأ ﴿وما قدروا ٱللَّهَ حق قدره والأرض جميعا قبضته...﴾ الآية.

هذا معنى الآية التي لا تحتمل غيره، وأن السماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه، أي يده: تبارك وتعالى، لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن في الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

وأما تفسير أهل التحريف، فيقول بعضهم: ﴿قبضته﴾، أي: في قبضته وملكه وتصرفه، وهو خطأ، لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

وقول بعضهم: ﴿السماوات مطويات﴾، أي: تالفة وهالكة، كما تقول انطوى ذكر فلان، أي: زال ذكره.

و﴿بيمينه﴾، أي: بقسمه، لأنه قال تعالى: ﴿كل من عليها فان۞ويبقى وجه ربك﴾ (الرحمن: ٢٦-٢٧) فجعلوا المراد باليمين القسم... إلى غير ذلك من التحريفات التي يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله، حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصاروا ينكرون ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججا.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟

إن قالوا: نعم، كفروا، وإن قالوا: لا، قلنا هل أنتم أفصح في التعبير عن المعاني من الله؟

إن قالوا: نعم، كفروا، وإن قالوا لا، خُصموا، وقلنا لهم: إن الله بين ذلك ابلغ بيان بأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والرسول ﷺ أقر الحبر على ما ذكر فيما يطابق الآية، وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله؟ فسيقولون: لا.

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام، واصدقه، وأبينه، وأعلم بما يقول، لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها.

ومن فوائد الحديث:

إثبات الأصابع لله – عز وجل – لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله – عز وجل –، كاليد، وليس المراد بقوله (على إصبع) سهولة التصرف في السماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ: (إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن)[1].

وقوله: (بين أصبعين) لا يلزم من البينية المماسة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾(البقرة: ١٦٤) والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، ونقول: عنيزة بين الزلفي والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة وجمادى، ولا يلزم أن يكون مواليا له، فتبين أن البينية لا تسلتزم الاتصال في الزمن أو المكان، وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله – سبحانه وتعالى – يكون قبل وجه المصلى[2] ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي يصلى إليها، فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه، ومثال ذلك: الشمس حين تكون في الأفق عند الشروق أو الغروب، فإن من الممكن أن تكون قِبل وجهك وهي في العلو.

---

[1] مسلم كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، حديث(٢٦٥٤).

[2] البخاري: كتاب الصلاة/ باب حك البزاق باليد في المسجد، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، حديث (٥٤٧).

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم، فقد ضل.

ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر، فهو:

أولا: فيه تناقض، لأنهم قالوا: طريق السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم، لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم، فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب.

ثانيا: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثا: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه، لأن طريقة السلف هي طريقة النبي ﷺ وأصحابه.

رابعا: أنها قد تصل إلى الكفر، لأنها تستلزم تجهيل النبي ﷺ وتسفيهه، فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحا، لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا في أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها، فإن خوضهم في هذه الأشياء هو الذي ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق النبي ﷺ حين قال: (هلك المتنطعون)[1]، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح و لم يتنطعوا، لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف، حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة أمه العجوز التي لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم: ها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبدا، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا على عقيدة سليمة، وإلا ابتلى بالشك والقلق والحيرة، وقال بعضهم: أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام، وما بالك – والعياذ بالله – بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرى عليه السلف، نقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ (طه:٥)، يعني: فأثبت وأقرأ في النفي: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (الشورى:١١) ﴿ولا يحيطون به علما﴾ (طه:١١٠)، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، لأنه أقر قبل هذا الكلام، فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رايتها تروي غليلا ولا تشفي عليلا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن.

---

[1] مسلم: كتاب العلم: هلك المتنطعون، حديث (٢٦٧٠)، وأبو داود، حديث (٤٦٠٨)، وأحمد (٣٦٨/١)، حديث (٣٦٥٥).

والحاصل أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله – عز وجل – اعتمادا على هذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل قد ضلوا ضلالا مبينا، فالصحابة رضي الله عنهم هل ناقشوا الرسول ﷺ في هذا؟ والذي نكاد نشهد به إن لم نشهد به إنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له: فيجمعون بين الإثبات وبين النفي.

إذا موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله – ﷻ – نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل نقرؤه ونقول: المراد به أصبع حقيقي يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبدا أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول الله أعلم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة، فكذلك لا نعلم كيفية صلاته، بل نكل علمها إلى الله – سبحانه وتعالى –.

وفي رواية لمسلم: (**والجبال والشجر على إصبع ثم يهزهم فيقول أنا الملك أنا الله**)[1]

قوله (ثم يهزهن). أي هزا حقيقيا، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرا هذه الآية ويقبض أصابعه ويبسطها، فصار المنبر يتحرك ويهتز لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى.

فإن قلت هل نهزُّ أيدينا كما فعل النبي ﷺ؟.

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه، فليس كل من شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل، فينبغي أن نكف لأن هذا ليس بواجب حتى نقول: يجب علينا ان نبلغ كما بلغ الرسول ﷺ بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول المعنى إلى غير الحقيقة، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول ﷺ.

فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ (النساء: ٥٨) وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك[2]، فهذا الإنسان الذي يقول: إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر نقول له هكذا.

[1] مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث (٢٧٨٦).

[2] أبو داود: كتاب السنة /باب في الجهمية، حديث (٤٧٢٨) وصححه الشيخ الألباني.

وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السماوات بيمينه، وأن معنى قبضته، أي: في تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول ﷺ.

فالمقام ليس بالأمر السهل، بل هو أمر صعب دقيق للغاية، فإنه يخشى من أن يقع أحد في المحذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول ﷺ في جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء أشد ضررا، كما أخر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثا[١].

وفي رواية للبخاري:

[يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع]أخرجاه[٢].

قوله: (والماء والثرى على إصبع). هذا لا ينافي قوله (الأرضين على إصبع)، لأنه يقال (الماء والثرى على إصبع) أي: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذي قبله: (الشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع)، إذ النكرة إذا كررت بلفظ النكرة، فالثاني غير الأول غالبا، وإذا كررت بلفظ المعرفة، فالثاني هو الأول غالبا، فيقال: الماء والثرى كناية على الأرض كلها، أو أن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي، إما اختصار أو اقتصار.

(ف): وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف - وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب قال: ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه. والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم[٣] من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: " جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على إصبع

---

[١] البخاري: كتاب العلم / باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر في فهم بعض الناس عنه، حديث (١٢٦)، ومسلم: كتاب الحج / باب نقض الكعبة وبنائها، حديث (١٣٣٣).

[٢] البخاري: كتاب تفسير القرآن / باب قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾، حديث (٤٨١١)، مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث (٢٧٨٦).

[٣] البخاري، كتاب التفسير : باب ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (٤٨١١)، كتاب التوحيد :باب قول الله تعالى ﴿لما خلق بيدي﴾ (٧٤١٤، ٧٤١٥)،حديث، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين : ،حديث(٢٧٨٦)،(٦٩)، وكتاب صفة القيامة والجنة والنار ، أخرجه أحمد (١/٤٥٧)، الترمذي: كتاب التفسير: باب ومن سورة الزمر (٣٢٣٨).

والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر. قال: وأنـزل الله:﴿وما قدروا الله حق قدره﴾الآية.وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به. وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة عن عطاء.

عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: {مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه – وأشار بالسبابة – والأرض على ذه، والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾}وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به. وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ " تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن a حدثنا عمّي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: " إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك " تفرد به أيضاً من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله ابن مقسم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون " ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرن به[١] أ.هـ.

---

[١] صحيح: أخرجه أحمد (٧٢/٢) وابن خزيمة في التوحيد ص(٧٢) وابن أبي عاصم في السنة (٥٤٦) واسناده صحيح على شرط مسلم كما قال الألباني في تخريج السنة لأبن أبي عاصم (٥٤٦).

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: [يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون][1].

(ق): **قوله:** (ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: (يطوي الله السماوات...) سبق معنى هذا الحديث، وأن المراد بالطي الطي الحقيقي.

قوله: (ثم يقول: أنا الملك). يقول ذلك ثناء على نفسه – سبحانه وتعالى وتنبيها على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد.

قوله: (أين الجبارون؟). الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

قوله: (يطوي الأرضين السبع). أشار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، و لم يردالعدد صريحا في القرآن، قال تعالى: ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ (الطلاق: ١٢)، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد، لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السنة، فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: (ثم يأخذهن بشماله). كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه.

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في (صحيح مسلم): أن الرسول ﷺ قال: (المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين)[2]، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة (شمال) محفوظة، فهي عندي لا تنافي(كلتا يديه يمين) لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى، فقال: (كلتا يديه يمين) أي ليست فيها

[1] مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، حديث (٢٧٨٦)، وابن ماجة، حديث (٤٢٧٥).

[2] مسلم: كتاب الإمارة / باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر، حديث (١٨٢٧)، والنسائي، حديث (٥٣٧٩).

نقص، ويؤيد هذا في قوله في حديث آدم: (اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة)[١] فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال، يعني: النقص في هذه اليد دون الأخرى،

قال: (كلتا يديه يمين)، ويؤيده أيضا قوله: (المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن)، فإن المقصود بيان فضل مرتبتهم، وانهم على يمين الرحمن – سبحانه –.

وعلى كل، فإن يديه – سبحانه – اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن الرسول ﷺ، فنحن نؤمن بها، ولا منافاة بينها وبين قوله: (كلتا يديه يمين) كما سبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها.

وروي عن ابن عباس؛ قال:

(ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم)[٢]

قوله: (في كف الرحمن) هكذا ساقه المؤلف، والذي في ابن جرير(في يد اللَّهِ)، ففيما ساقه المؤلف لإثبات الكف لله تعالى، إن كان السياق محفوظا وإلا ففيه إثبات اليد. أما الكف فقد ثبت في أحاديث أخرى صحيحة.

قوله: (إلا كخردلة). هي حبة نبات صغيرة جدا، يضرب بها المثل في الصغر والقلة، وهذا يدل على عظمته – سبحانه –، وأنه – سبحانه – لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام.

---

[١] الترمذي: كتاب التفسير /باب ومن سورة المعوذتين، حديث (٣٣٦٨)وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٩).

[٢] أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/٢٥)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٢/٤٧٦)، حديث (١٠٩٠)، وفي إسناده ضعف، ويغني حديث ابن مسعود وحديث ابن عمر السابقين.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، اخبرنا ابن وهب: قال: قال ابن زيد: حدثني أبي؛ قال: قال رسول ﷺ الله: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)[1].

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض)[2]

قوله: (قال ابن جرير). هو المفسر المشهور رحمه الله، وله تفسير أثرى يعتمد فيه على الآثار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثار، وأتى بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضاً، وكأنه رحمه الله أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولا إلى القاري، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه، ولكنه لم يتيسر ذلك.

قوله: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدارهم سبعة ألقيت في ترس). الكرسي: موضع قدمي الله تعالى، هكذا قال بن عباس رضي الله عنهما، والدراهم: جمع درهم، وهو النقد من الفضة، والترس: شيء من جلد أو خشب يحمل عند القتال يتقي به السيف والرمح ونحوهما.

قوله: (ما الكرسي في العرش). أي: بالنسبة إليه، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الرحمن، ولا يقدر قدره إلا الله – عز وجل –، والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهي صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلى فلاة الأرض.

وهذا الحديث يدل على عظمته عز وجل، فيكون مناسبا لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب.

[1] أخرجه الطبري في تفسيره (٣/١٠)، وأبو a الأصبهاني في العظمة(٢/٥٨٧).

[2] أخرجه أبو a الأصبهاني في العظمة (٢/٧٥٠) وهو ضعيف.

وعن ابن مسعود قال: (بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمس مئة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم) . أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمه عن عاصم عن زر عن عبد الله ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى، قال: ((وله طرق))[1] .

قوله: (وعن ابن مسعود). هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضي الله عنه لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيلات.

قوله (بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام). وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: (إن كثف كل سماء خمسمائة عام))[2]، وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله - عز وجل - بعيد جدا.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة؟

يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فإنا نضرب بما عارضها عرض الحائط، لكن إذا قدر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا، **ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد الأمرين**:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأي طريق من طرق الجمع.

الثاني: إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث، لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئا حسيا واقعا أبدا، كما قال شيخ الإسلام في كتابه (العقل والنقل): (لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدا، لأن تعارضهما يقتضي إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين، وهذا مستحيل، فإن ظن التعارض بينهما، فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم، وأما أن يكون أحدهما ظنيا والآخر قطعيا).

[1] أخرجه الطبراني في الكبير (٩/٢٠٢)، حديث (٨٩٨٧)، وأبو a الأصبهاني في العظمة (٣/١٠٤)، حديث (٥٦٥)، والديلمي في مسند الفردوس (٤/٧٨)، حديث (٦٢٤٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٧/١٣٩).

[2] أبو داود: كتاب السنة / باب في الجهمية، حديث (٤٧٢٣)، والترمذي، حديث (٣٣٢٠)، وابن ماجة، حديث (١٩٣)، وهو ضعيف.

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه مخالفا لظاهر شيء من الكتاب أو السنة، فإن ظاهر الكتاب يؤول حتى يكون مطابقا للواقع، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ (الفرقان: ٦١)وقال تعالى: ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾ (نوح: ١٦)، أي في السماوات.

والآية الثانية أشد إشكالا من الآية الأولى، لأن الآية الأولى يمكن أن نقول: المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هي المشكلة جدا، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس في السماء نفسها، بل هو في فلك بين السماء والأرض.

والجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مرصع في السماء كما يرصع المسمار في الخشبة دلالة قطعية، فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحا، بل وصلوا جرما في الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحا في ذلك، وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السماء، فآية الفرقان قال الله فيها: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيه سراجا وقمرا منيرا﴾، فيمكن أن يكون المراد بالسماء العلو، كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ [الرعد: ١٧] والماء يترل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ (البقرة: ١٦٤)، وهذا التأويل للآية قريب.

وأما **قوله:** ﴿وجعل القمر فيهن نورا﴾، فيمكن فيه التأويل أيضا بأن يقال: المراد لقوله: ﴿فيهن﴾: في جهتهن، وجهة السماوات العلو، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

قوله: (والله فوق العرش). هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علوا ذاتيا **وعلو الله ينقسم إلى قسمين**:

أ- علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله، كما قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾(النحل: ٦٠).

ب- علو الذات، وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: (والله فوق العرش)، أي: في القوة والسيطرة والسلطان وليس فوقه بذاته.

ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ- من قال: إن الله بذاته في كل مكان، وهذا لاشك ضلال مقتض للكفر.

ب- من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا صفوا العدم، ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شيء تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: (لا يخفى عليه شيء من أعمالكم). يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منه والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى.

(**ف**): قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيئ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : ١٠] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران : ٥٥] وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء : ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ۝ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج :٣- ٤] وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة : ٥] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٥٠] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة : ٢٩] وقوله تعالى: ' ٧: ٥٤ ' ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] فذكر التوحيدين في هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد : ٢] وقوله تعالى ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى۝الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً۝الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان:٥٨- ٥٩] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ۝ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ

مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة :٤- ٥] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته. وقوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك : ١٧] وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٢] وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية : ٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر :٣٦- ٣٧]. انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين. فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ قالت: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح. قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى أنه قال: لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء وقال: الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه ولا يقال كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة. أخرجوه رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظه قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية، قال البخاري في صحيحه: قال مجاهد استوى علا على العرش. وقال إسحاق بن راهويه سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أي ارتفع. وقال a ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أي علا وارتفع.

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمى والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد ٱللَّهَ بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى، بائن من خلقه، لا نقول كما قالت الجهمية.

قال الدارمي: حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك: قيل لـــه: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه.

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا – والتابعون متوافرون – نقول: إن ٱللَّهَ تعالى ذِكره فوق عرشه، ونـــؤمن بما وردت به السنة.

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن ٱللَّهَ اســتوى علـــى عرشه بذاته. وقال في هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن ٱللَّهَ تعالى استوى على عرشـــه علـــى الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: ٱللَّهَ في السماء وعلمه في كل مكان: ثم قـــال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ ونحو ذلك مـــن القرآن: أن ذلك علمه، وأن ٱللَّهَ فوق السماوات بذاته مستو على عرشه كيف شاء. وهـــذا لفظـــه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته ٱللَّهَ في كتابه على لسان رســـوله علـــى الحقيقة على ما يليق بجلال ٱللَّهَ وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، و لم يمثلوا و لم يكيفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن ٱللَّهَ تعالى فوق العرش: هو الجعد بن درهـــم. وكذلك أنكر جميع الصفات. وقتله خالد بن عبد ٱللَّهَ القسري وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنـــه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة، ومالك والليث بن سعد والثوري، وحماد بن زيـــد، وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى. فقال الأوزاعي إمام أهل الشـــام علـــى رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنـــا أبو عبد ٱللَّهَ الحافظ، أخبرني a بن علي الجوهري – ببغداد – حدثنا إبراهيم بن الهيثم حـــدثنا a بـــن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول: كنا – والتابعون متوافرون – نقول: إن ٱللَّهَ فوق عرشه. ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي رحمه ٱللَّهَ تعالى: لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ومن خالف بعـــد ثبـــوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كمـــا نفى عن نفسه فقال: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ أ.هـــ.من فتح الباري.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟) قلنا: الله ورسوله أعلم قال: (بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم)[1] . أخرجه أبو داود وغيره.

(ق): **قوله:** (العباس). يقال العباس، وعباس، و(أل) هنا لا تفيد التعريف، لأن عباس معرفة لكونه علما، لكنها للمح الأصل، كما يقال: الفضل لفضله، والعباس لعبوسه على الأعداء، قال ابن مالك:

وبعض الأعلام عليه دخلا　　　للمح ما قد كان عنه نُقلا [2]

وقوله: (هل تدرون). (هل): استفهامية يراد بها أمران:

أ- التشويق لما سيذكر.

ب- التنبيه إلى ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ (الغاشية: ١)، هذا تنبيه وتشويق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ (الصف: ١٠)، هذا تنبيه وتشويق على شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا﴾ (الكهف: ١٠٣) تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ﴾ (المائدة: ٦) تنبيه وتحذير.

واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشيء.

قوله: (كم). استفهامية.

قوله: (قلنا: الله ورسوله أعلم). جاء بالعطف بالواو، لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يعلمه بما لا يدركه البشر.

[1] ضعيف:أبو داود: كتاب السنة: باب في الجهمية ،حديث(٤٧٢٣)، (٤٧٢٤) ،(٤٧٢٥) والترمذي: كتاب التفسير: باب ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وابن ماجةفي المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٣) أخرجه أحمد (٢٠٦/١، ٢٠٧) وغيرهم ، وضعفه الذهبي في العلو ص(٤٩، ٥٠)، وضعفه الألباني في تخريج السنة لأبن أبي عاصم(٥٧٧).

[2] انظر ألفية ابن مالك.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله وما قاله ﷺ في الشرع فهو كقول الله وليس هذا كقوله: (ما شاء الله وشئت)[1]، لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول ﷺ مشاركا لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ(ثم) والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية، فلا.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: ﴿وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ (التوبة: ١٠٥) بعد موت الرسول ﷺ وتعذر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله لا يرى، فلا تجوز كتابته لأنه كذب عليه ﷺ.

قوله: (خمسمائة سنة). الميم الثانية في خمسمائة مكسورة والألف لا ينطق بها.

قوله: (وبين السماء السابعة والعرش بحرا بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض) وذلك خمسمائة سنة.

قوله: (والله تعالى فوق ذلك). هذا دليل على العلو العظيم لله ﷻ - وأنه- سبحانه - فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه، فأنه - سبحانه - لا يوصف بأنه في جهة تحيط به، لأن ما فوق السماوات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال: لأن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

ولهذا جاء في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقا، وينكرون العلو ظنا منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر.

وليس كذلك، لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثم إلا الله، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبدا.

فالجهة إثباتها لله فيه تفصيل، أما إطلاق لفظها نفيا وإثباتا فلا نقول به، لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، لكن نفصل، فنقول: إن الله في جهة العلو، لأن الرسول ﷺ قال للجارية: (أين الله؟) وأين يستفهم بها عن المكان، فقالت في السماء.

فأثبت ذلك، وأقرها النبي ﷺ عليه، وقال: (أعتقها، فإنها مؤمنة)[2].

وأهل التحريف يقولون: (أين) بمعنى (من)، أي: من الله؟ قالت في السماء، أي: هو من في السماء، وينكرون العلو.

---

[1] تقدم تخريجه.

[2] مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، حديث (٥٣٧) وأبو داود، حديث (٩٣٠)، والنسائي، حديث (١٢١٨).

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله في كتبه ومنها (النونية)، وقال لهم: اللغة العربية لا تأتي فيها (أين) بمعنى (من)، وفرق بين (أين) و(من).

فالجهة لله ليست جهة سفل، وذلك لوجوب العلو له فطرة وعقلا وسمعا، وليست جهة علو تحيط به، لأنه تعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، وهو موضع قدميه، فكيف يحيط به تعالى شيء من مخلوقاته؟!

فهو في جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال: إن شيئا يحيط به، لأننا نقول: إن ما فوق العرش عدم ليس ثم إلا الله – سبحانه – ولهذا قال: (والله تعالى فوق ذلك).

قوله: (وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم).

وقوله: (أعمال) إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب، وهي هنا مفردة، فتشمل كل ما يتعلق باللسان والقلب والجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفي عليه شيئا من أعمال بني آدم في المستقبل، فهو يعلم ما يكون فضلا عما كان، قال تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ (طه: ١١٠)، أي: ما يستقبلونه وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾، أي: ما شأنها؟ ﴿علمها عند ربي في كتاب﴾، أي: محفوظة، ﴿لا يضل ربي﴾: لا يجهل، ﴿ولا ينسى﴾ (طه: ٥٢، ٥١): لا يذهل عما مضى –سبحانه وتعالى–.

والنبي ﷺ صدر هذا الأمر بهل الدالة على التشويق والتنبيه من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة، وهو أنه تعالى فوق كل شيء بذاته، وأنه محيط بكل شيء علما، لقوله: (وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم)، فإذا علمنا ذلك، أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته، لأنه فوقنا، فهو عال علينا، وأمره محيط بنا.

وفي الحديث صفتان لله: ثبوتية، وهي العلو المستفاد من قوله: (والله فوق ذلك).

وسلبية المستفادة من قوله: (ليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم)، ولا يوجد في صفات الله –عز وجل– صفة سلبية محضة، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لثبوت ضدها على وجه الكمال، فينفى عنه الخفاء لكمال علمه، وينفى عنه اللغوب لكمال قوته، وينفى عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك.

فإذا نفى الله عن نفسه شيئا من الصفات، فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ (البقرة: ٢٥٥) السنة: النعاس، والنوم: الإغفاء العميق، وذلك لكمال حياته وقيوميته، إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلى النوم، ولو نام ما كان قيوما على خلقه، لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم، ولأن النوم في الجنة يذهب

عليهم وقتا بلا فرح ولا سرور ولا لذة، لأن السرور فيها دائم، ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها.

وليس في صفات الله نفي محض، لأن النفي المحض عدم لا ثناء فيه ولا كمال، بل هو لا شيء، ولأن النفي أحيانا يرد لكون المحل غير قابل له، مثل قولك: الجدار لا يظلم.

وقد يكون نفي الذم ذما، كما في قول:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فنفي الغدر عنهم والظلم ليس مدحا، بل ذم ينبي عن عجزهم وضعفهم.

وقال آخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهمو قوما إذا ركبوا شنوا الإغارة ركبانا وفرسانا

فنفي أن يكون لهم يد في الشر، وبين أن ذلك لعجزهم عن الانتصار لأنفسهم، وتمنى أن يكون له قوم خير منهم وأقوى.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها .

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ، صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ، لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: (كخردلة في كف أحدكم) .

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء .

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء .

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء .

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة عام.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿والأرض جميعا قبضته يوم القيامة﴾. وقد تقدم من حديث ابن مسعود، حيث أقر النبي ﷺ الحبر على أن الله يجعل السماوات على إصبع... إلخ.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها و لم يتأولوها. كأنه يقول: أن اليهود خير من أولئك المحرفين لها، لأنهم لم يكذبوها و لم يتأولها، وجاء قوم من هذه الأمة، فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة، فكأنه يقول: اليهود خير منهم في هذا وأعرف بالله.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك. ظاهر كلام المؤلف بقوله: (ونزل القرآن) أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك، لأنه في حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من الرسول ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

ففيه دليل على جواز الضحك في تقرير الأشياء، لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهية.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى. وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: (في الأخرى) لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة التالية، وهي:

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال. وقد سبق الكلام على ذلك.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك. ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن، فليقوموا بذلك.

الثامنة: **قوله:** (كخردلة في كف أحدهم). يعني بذلك قوله في الحديث (ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدهم)، هكذا قال المؤلف رحمه الله (في كف أحدهم)، وقد ساق الأثر بقوله (كخردلة في يد أحدكم).

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء. حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي. لأنه جعل الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء. و لم أر من قال: (إن العرش هو الماء لكن هناك من قال إن العرش هو الكرسي، لحديث: (إن الله يضع كرسيه يوم القيامة)[١] وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس إن الكرسي هو العلم، فقالوا في قوله تعالى: ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾، أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه الرحمن – سبحانه –، والعلم صفة في العالم يدرك بها المعلوم.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء. وهو الخمسمائة عام

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي. وهو الخمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء. وهو الخمسمائة عام.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء. وهي ظاهرة.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش. وهي ظاهرة.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض. وهو خمسمائة عام.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة. وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها.

ويستفاد من أحاديث الباب:

١. أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.
٢. التحذير من مخالفة الله – عز وجل –.

والله اعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا a، وأسال الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين.

❁❁❁❁❁

[١] أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/٢٥٣)، حديث (٥٢٣٤)، والبيهقي في الكبرى (٦/٩٥)، حديث (١١٢٩٤)و (١٠/٩٤) والشعب (٦/٨١)، حديث (٧٥٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٥٧)، حديث (٥٨٢)، من حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ ((ويل لك من يوم يضع الملك كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم)) وقال الشيخ الألباني: صحيح.

ت	عناوين الأبواب	رقم الصفحة
١	المقدمة	٥
٢	شرح البسملة	٨
٣	كتاب التوحيد	١٣
٤	باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب	٥١
٥	باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب	٨٢
٦	باب الخوف من الشرك	١٠١
٧	باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله الله	١١٨
٨	باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله	١٣٧
٩	باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه	١٦٠
١٠	باب ما جاء في الرقي والتمائم	١٧٧
١١	باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما	١٩٤
١٢	باب ما جاء في الذبح لغير الله	٢١٣
١٣	باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله	٢٣٣
١٤	باب من الشرك النذر لغير الله	٢٤٤
١٥	باب من الشرك الاستعاذة بغير الله	٢٥٢
١٦	باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره	٢٦٢
١٧	باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾	٢٨٣
١٨	باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾	٣٠٢
١٩	باب الشفاعـــة	٣٢١
٢٠	باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾	٣٣٩
٢١	باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين	٣٥٣
٢٢	باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده	٣٨١
٢٣	باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله	٤٠٦

رقم الصفحة	عناوين الأبواب	ت
٤٢٤	باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك	٢٤
٤٤١	باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان	٢٥
٤٧٦	باب ما جاء في السحر	٢٦
٤٩٥	باب بيان شيء من أنواع السحر	٢٧
٥١١	باب ما جاء في الكهان ونحوهم	٢٨
٥٣٠	باب ما جاء في النشرة	٢٩
٥٣٧	باب ما جاء في التطير	٣٠
٥٥٨	باب ما جاء في التنجيم	٣١
٥٦٨	باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء	٣٢
٥٨٨	باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾	٣٣
٦٠٨	باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	٣٤
٦٢٥	باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾	٣٥
٦٣٦	باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾	٣٦
٦٤٤	باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله	٣٧
٦٥٨	باب ما جاء في الرياء	٣٨
٦٦٩	باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا	٣٩
٦٨٤	باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله	٤٠
٧٠١	باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ... ﴾	٤١
٧١٦	باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات	٤٢

ت	عناوين الأبواب	رقم الصفحة
٤٣	باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾	٧٣٤
٤٤	باب قول الله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٧٤٢
٤٥	باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله	٧٥٣
٤٦	باب قول: ما شاء الله وشئت	٧٥٦
٤٧	باب من سب الدهر فقد آذى الله	٧٦٤
٤٨	باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه	٧٧٣
٤٩	باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك	٧٨١
٥٠	باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول	٧٨٨
٥١	باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي...﴾	٨٠٠
٥٢	باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾	٨١٥
٥٣	باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾	٨٢٥
٥٤	باب لا يقال: السلام على الله	٨٣٥
٥٥	باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت	٨٤١
٥٦	باب لا يقول: عبدي وأمتي	٨٤٨
٥٧	باب لا يرد من سأل الله	٨٥٤
٥٨	باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة	٨٦٢
٥٩	باب ما جاء في الّلو	٨٦٦
٦٠	باب النهي عن سب الريح	٨٨١
٦١	باب قول الله تعالى: ﴿أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾	٨٨٤
٦٢	باب ما جاء في منكري القدر	٨٩٤
٦٣	باب ما جاء في المصورين	٩١٩
٦٤	باب ما جاء في كثرة الحلف وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ﴾	٩٣٥

ت	عناوين الأبواب	رقم الصفحة
٦٥	باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه	٩٥٠
٦٦	باب ما جاء في الإقسام على الله	٩٦٥
٦٧	باب لا يستشفع بالله على خلقه	٩٧١
٦٨	باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك	٩٧٦
٦٩	باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾	٩٨٣
٧٠	الفهرسة	١٠٠٦

